منتدى مكتبة الاسكندرية

الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة

٣

الى البرية

روبرت فيسك

الحرب الكبرى

تحت ذريعة الحضارة

(إلى البرّية)

روبرت فيسك

الحرب الكبرى
تحت ذريعة الحضارة

إلى البرّية
المجلّد الثالث

ترجمة: عاطف المولى وآخرون

تدقيق لغوي: صالح الأشمر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

حقوق الطبع محفوظة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب. ٨٣٧٥ : ١١ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ١ ٩٦١ +

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١ +

e-mail: tradebooks@all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

صورة الغلاف: رمزي حيدر (ASP)

تصميم الغلاف: فؤاد رسامني

الإخـراج الفنـي: بسمة التقي

إهــــداء

إلى بيل وپيغي

اللّذين علّماني أن أحبّ الكتب والتاريخ

المحتويات

كلمة شكر ٩
مقدّمة ١٥
الفصل الأول: أرض المقابر ٢٧
الفصل الثاني: الوباء ٧٣
الفصل الثالث: اليوم يومكم يا صانعي الأسلحة ١٢٥
الفصل الرابع: حتى إلى الملوك يأتي. ١٩١
الفصل الخامس: لماذا؟ ٢٥١
الفصل السادس: سبق السيف العذل ٣٤٣
الفصل السابع: الكلب النوويّ، المُبيد، مُضرم النيران،
الإنتراكس، أغاممنون ٤١٩
الفصل الثامن: إلى البرّية ٥١٣

كلمة شكر

في كتاب بهذا الحجم ـ يغطّي سنوات عديدة من العمل الصحفي ـ يُعتبر القرار حول مَن يجب شكرهم صعب التقدير. مع ذلك، قرّرت أنه يجب الإعراب عن الشكر للذين ساعدوني بشكل مباشر في ما ورد في هذا الكتاب خلال السنوات الخمس عشرة الماضية ـ وهذه هي غالبية الأسماء المدوّنة هنا بمن في ذلك، على سبيل المثال، ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية، والسيد حسن نصرالله، زعيم حزب الله اللبناني، وميخائيل كلاشينكوف، مخترع أشهر سلاح أوتوماتيكي عالمي ـ وأقلّية ساهمت مساعدتها في التقارير الأخيرة لهذا الكتاب قبل اتّخاذ القرار النهائي بتأليفه. وجوبهت أيضاً بواقع أن أسماء الذين ساعدوني مباشرة في كتاب «الحرب الكبرى من أجل الحضارة» تضمّنت الجيّد والسيّئ والقبيح. فهل بمقدوري مثلاً وضع والد انتحاري بمصفّ ناشط إنساني غربي، أو بطل عراقي خضع للتعذيب نتيجة مقاومته لطموحات صدّام حسين النووية في المنزلة نفسها مع رجل أعطى صديقته الحامل البريئة قنبلة لنقلها إلى طائرة مدنية؟ وهل يجب وضع الراحلة مارغريت حسن التي اغتيلت بشكل بشع في العراق في الصفحة نفسها مع وزير داخلية جزائري مُبيد للبشر؟

ويُعتبر أُسامة بن لادن المثل الأكثر تطرّفاً لهذه المشكلة. فخلال المقابلتين الأخيرتين معه علم أنني كنت أكتب هذا الكتاب وتحدّث بوضوح وفق تلك المعرفة. فهل يجدر تكريم رجل اعتُبر مسؤولاً عن أكبر جريمة دولية ضدّ الإنسانية في الغرب بمقدّمة؟ الواقع أن تعليقاته وأفكاره كانت مهمّة بالنسبة إلى أجزاء من الكتاب، لذا رأيت أن أسجّل له ذلك؛ إلّا أنّ اسمه لا يظهر في لائحة الأسماء اللاحقة.

بالتالي، أورد في ما يلي بالتسلسل الأبجدي أسماء الذين يجب شكرهم لدعمهم وحماستهم وصراحتهم خلال الخمس عشرة سنة الماضية وقبلها. ولإرشاد القارئ، أوردت أسماء بعضهم مع ذكر ألقابهم أو موقعهم المميّز في المساعدة. وسوف يدرك آخرون أنني أوجّه إليهم الشكر بصفة شخصيّة:

جون أبلت، من المجلس التمثيلي الأرمني في أميركا. ريم أبو العبّاس. أستريد أغاجانيان، ناجية من المجزرة الأرمنية عام ١٩١٥. شوجا أحمد أفند، جندي إيراني عام ١٩٨٤. روبرت. أ. ألغاروتي، مدير اتصالات في وحدة الأنظمة الصاروخية في شركة «بوينغ أُتونَتِكس» Boeing Autonetics. الدكتور جواد العلي، طبيب أطفال في البصرة. دوروثي أندرسون، للدلالة على ملاحظات اللورد روبرت عام ١٩٠٥ حول أفغانستان. نمر عون، جريح ناجٍ من احتلال فلسطين عام ١٩٤٨. الراحل ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية. حنان عشراوي، من السلطة الفلسطينية. تيم أوستن، النائب السابق لرئيس تحرير الشؤون الدولية في التايمز. الراحل شهبور بختيار، آخر رئيس وزراء للشاه. بيتر بلاكيان، من جامعة «كولغَيت» Colgate. صديق برماكد، مخرج سينمائي أفغاني. الدكتور أنطوني بارتر، بالنسبة إلى رسائل والده حول العراق والأرمن في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨. زاووي بنامادي من «ألجيري أكتواليتي» Algérie Actualité. زكا بربريان، ناجٍ من مجزرة الأرمن. شاميم باتيا. محمد بويعلي، شقيق قائد الثوار مصطفى بويعلي. الأخضر الإبراهيمي. روس كامبل، بالنسبة إلى المخطوطات حول تقارير «سكوتسمان» Scotsman في نهاية الانتداب البريطاني لفلسطين. بيار كاكيت. الملازم ساندي كافيناغ من الفرقة الثالثة، وحدة المظليين عام ١٩٥٦. مصطفى سيريك، إمام من البوسنة. هيلين سركسيان بالنسبة إلى مذكّرات والدها الأرمني. كونور أوكليري، من صحيفة الأيريش تايمز. طوني كلينتون، من النيوزويك. باتريك كوكبرن، من الإندبندنت. الجندي الاحتياطي تيم كوروين، قائد طائرة شينوك في كردستان عام ١٩٩١. الراحل فُريد كوني، موظف إغاثة أميركي. جيانيك دامي، من الصليب الأحمر الدولي في الكويت عام ١٩٩١. نورمان ديفيس، بالنسبة إلى تحليله لمراجع هتلر حول المحرقة (الهولوكست) الأرمنيّة. الدكتور جون دي كورسي إيرلند، بالنسبة إلى مذكّراته حول الأيتام الأرمن. الدكتور نديم دمشقيه، دبلوماسي لبناني سابق. ليونارد دويل، رئيس تحرير سابق للإندبندنت. إيمون دانفي، من الإذاعة الإيرلندية. إيان. ر. إدغار، من جامعة درهام. القاضي دايفيد أ. و. إدوارد، بشأن نسخته المتعلّقة بمحاضرة جايمس برايس عام ١٩٢٢، حول الحرب الكبرى وأرمينيا. إيزابيل

إلسين. صائب عريقات، من السلطة الفلسطينية. جوان فرشخ. بيل وبيغي فيسك، والداي الراحلان. اللواء الأميركي جاي غارنر، قائد القوّات الأميركية في كردستان عام ١٩٩١. سمير غطّاس، مدير مكتب الأسوشيتدبرس في بيروت حالياً. بسّام وسنيّة غُصين، اللذان قُتلت ابنتهما في القصف على ليبيا. الدكتور ستيفن غولدلي، من مكتب الشؤون الخارجية الخاصّ بعقوبات الأمم المتحدة. تيري غوردي، من مجموعة «بوينغ» Boeing للدفاع وشؤون الفضاء (وحدة الأنظمة الصاروخية والفضائية). بن غرينبرغ، مستوطن يهودي في الضفّة الغربية. الدكتورة سلمى حدّاد، طبيبة أطفال في بغداد. دنيس هاليداي، رئيس برنامج الأمم المتحدة للنفط مقابل الغذاء، ١٩٩٧. مولانا سامي الحقّ، من مدرسة الحقّ الدينية في باكستان. أميرة هاس، من هآرتس. الراحلة مارغريت حسن، من منظمة «كَير» Care في العراق. الدكتور ميرسي هيتلي. فيليب هيفينيك، من اليونيسيف، بغداد، ١٩٧٧. محمّد حسنين هيكل، صحفي ومؤلّف مصري. غافين هويت من البي بي سي BBC. سو هيكاي، من تلفزيون السي بي سي CBC الكندي سابقاً، لندن. نزار هنداوي، بالنسبة إلى محاولته غير المقنعة لتفسير سبب إعطائه صديقته الحامل قنبلة لنقلها على متن طائرة العال. مارجوري هوسيبيان. شفيق الحوت وزوجته بيان. جوستين هاغلير، من الإندبندنت. جون هيرست، نائب رئيس لوكهيد مارتن. العاهل الأردني الراحل الملك حسين. عليا الحُسيني، حفيدة الحاجّ أمين الحُسيني مفتي القدس الأسبق. نادين العيسى، بالنسبة إلى نسختها حول Paice & Martin Palestine Police Report (وشكر أيضاً لبيتر ميتكالف). عبّاس جحا، الذي فقد العديد من أفراد عائلته بهجوم المروحية الإسرائيلية في لبنان عام ١٩٩٦. ميخائيل كلاشينكوف، مخترع بندقية AK-47 السوفياتية. ميريني كالوستيان، ناجية من مجازر الأرمن عام ١٩١٥. الراحل واصف كمال، المساعد السابق للحاجّ أمين الحُسيني إبّان ألمانيا النازية. آل كمحي، مدير لوكهيد للاتصالات عام ١٩٩٧. مروان كنفاني، من السلطة الفلسطينية. كيفورك كارابويادجيان، مدير بيت المسنّين الأرمن في بيروت. فيكتوريا كاراكاشيان، ناجية من الفارّين الأرمن في

الإسكندرونة. جمال خاشقجي، مساعد السفير السعودي في لندن. هاروتيان كبدجيان، ناجٍ من المجزرة الأرمنية. أندرو كيفوركيان، من أجل مساعدته القيّمة في الحصول على معلومات المجزرة الأرمنية، وشقيقه الراحل آرام بالنسبة إلى المذكّرات حول زيارته لمنزل أجداده في تركيا. زينب كاظم، بالنسبة إلى رسالتها حول التشيّع. الشيخ جواد مهدي الخالصي، لمساعدته التاريخية حول الحكم البريطاني للعراق. هيلين كينسلّا، مديرة الشؤون الدولية في الإندبندنت بالنسبة إلى بحثها الدؤوب. زينة كرم، من الأسوشيتدبرس. جوزف ليبوويتز. جورج لوينسكي، من السي بي سي سابقاً، لندن. ميخائيل ليندفال، ضابط اليونيفيل في جنوب لبنان. الدكتور ديفيد لوينشتين، من جامعة مديسون، وسكنسون. السيدة هيلدا مادوك، بالنسبة إلى المعلومات حول والدها المجنّد تشارلز ديكنز عام ١٩١٧. الدكتورة غريس ماغنير، من قسم الدراسات الإسبانية، كلّية ترينتي Trinity College، دبلن، بالنسبة إلى بحثها حول الأندلس. الراحل علي محمود، مدير مكتب الأسوشيتدبرس في البحرين. الجنرال منصور، قائد جهاز المخابرات العسكري السوري في القامشلي. لارا مالرو، من صحيفة الأيريش تايمز. نبيلة مغالي، من الأسوشيتدبرس سابقاً في البحرين. آلف مانديز. جيرهارد ميرتنز، تاجر سلاح ألماني. بيتر ميتكالف. عبد الرحمن المزيني شريف، وزير الداخلية الجزائري الأسبق. توفيق وفيليبا ميشلاوي من مراسل الشرق الأوسط Middle East Reporter في بيروت. الجنرال السابق (المتقاعد) محمّد عبد المنعم، من صحيفة الأهرام. جودي مورغان، من منظمة «كَير» Care في العراق. هارفي موريس، من رويترز، والإندبندنت وحالياً من الفايننشال تايمز. فتحي داود موفاك، مصوّر عسكري عراقي في الحرب العراقية ـ الإيرانية. الرائد مصطفى مراد، من الجيش المصري عام ١٩٥٦. أنيس نقّاش، بالنسبة إلى مذكّراته حول الثورة الإيرانية، وزوجته بتول في ما يتعلّق بالترجمات المرتبطة بشعر الحرب الإيرانية. الحاجّ محمد نصر، والد الانتحاري الفلسطيني من جنين. السيّد حسن نصرالله، زعيم حزب الله اللبناني. سهيل ناطور، من الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين. غيوم نيكولز، بالنسبة إلى لفت انتباهي إلى خطبة جورج لويد عام

١٩٣٦ حول فلسطين. نوّاف عبيد، الذي كانت أطروحته في هارفرد حول أهداف الوهّابيين السعوديين قيّمة جدّاً. محمّد مهران عثمان، مقاتل مصري أعمى، عام ١٩٥٦. الراحل سربوهي بابازيان، ناجٍ من المجزرة الأرمنية. المخرج السينمائي نلومز بازيرا. الراحل عبد العزيز الرنتيسي، من حماس. زميلي فيل ريفيس، من الإندبندنت والعامل حالياً في الإذاعة الوطنية العامّة. الحاخام والتر روتشيلد، بالنسبة إلى معلوماته حول السكك الحديدية اللبنانية. مارتن روبنشتاين، الذي لفت انتباهي إلى مرجع حول المجزرة الأرمنية «الطريق إلى أندرو». مُجتبى صفوي، أسير حرب إيراني سابق. حيدر الصافي، من بغداد. المفكّر الفلسطيني المشهور الراحل إدوار سعيد وشقيقته الكاتبة جين مقدسي لمساعدتهما واقتراحاتهما طيلة سنوات عديدة. محمّد سلام، مدير الأسوشيتدبرس السابق في بغداد. الدكتور كمال الصليبي، المدير السابق لمركز دراسات «إنترفَيث» Interfaith في عمّان. محمّد سلمان، وزير إعلام سوري أسبق. فاروق الشرع، وزير الخارجية السوري. عبد الهادي صيّاح، صديق مصطفى بويعلي. مارتن سكانال، بالنسبة إلى سماحه بالاستشهاد بكتاب كينيث وايتهيد «العراق الذي لا شفاء له» Iraq the Irremediable. كليف سيمبل. الدكتور حسين الشهرستاني، كبير مستشاري صدّام حسين في الشؤون النوويّة. دون شيريدان. المجنّد أندرو شوميكر، من وحدة المشاة المدرّعة الأميركية الرابعة والعشرين في حرب الخليج عام ١٩٩١. المؤرّخ الإسرائيلي آفي شليم. أميرة الصلح. هانز فون سبونيك، الذي خلف هاليدي في مكتب الأمم المتحدة للخدمات الإنسانية في بغداد عام ١٩٩٩. إيفا شتيرن، من نيويورك من أجل بحثها الدؤوب عن الحقيقة حول مجزرة صبرا وشاتيلا. فرجين سفازليان، من أجل نسختها حول أغاني الناجين من المجزرة الأرمنية. المحامي محمّد الطاهري، محامٍ جزائري في حقوق الإنسان. المونسنيور هنري تيسيه، أسقف الجزائر. ألكس تومسون، من الـ «آي تي في» ITV. الدكتور حسن الترابي، من الخرطوم. ديريك تورنبول، من «ڤيكَس» Vickess. كارستين تفيت، من الإذاعة النرويجية. كريستوفر ج. والكر، لمعلوماته حول كل الأمور الأرمنية. جهاد الوزير. غاري وليمسون، من مجموعة بوينغ Boeing للدفاع والفضاء. الراحل

كريستوفر مونتي وودهاوس، عميل سابق في منظمة Special Operations Executive في اليونان وعميل بريطاني في إيران. ديدي زوكر، عضو في الكنيست الإسرائيلي. ويجب عليّ أيضاً تقديم الشكر إلى سيمون كلنر، رئيس تحرير الإندبندنت الذي شجّعني على كتابة هذا الكتاب في الفترة ما بين وجودي في العراق ولبنان ولتغاضيه عن غيابي الطويل عن الصحيفة ولسماحه لي بالاقتباس من مقالاتي في الصحيفة طيلة ستة عشر عاماً. كما أشكر صحيفة التايمز اللندنية التي عملت لديها مراسلاً في الشرق الأوسط بين ١٩٧٦ و١٩٨٨، وصحيفة الأيريش تايمز ومركز London Review of Books وصحيفة «النايشِن» The Nation في نيويورك لسماحهما لي باقتباس مقالات لي ظهرت في صحفهم، وتلفزيون السي بي سي CBC الكندي في تورنتو فيما يتعلّق بتسجيلاتي منذ الاحتلال السوفياتي لأفغانستان عام ١٩٨٠ والحرب العراقية الإيرانية. والشكر أيضاً لمراقب المكتبة الملكية المكلّف بالأرشيف الوطني لمستندات الحكومة البريطانية (Kew). وشكر خاصّ إلى لويز هاينز، رئيس التحرير في «فُراوث إستَيت» Frowth Estate لاهتمامها الأكاديمي الواسع في إثراء هذا الكتاب طيلة ستة عشر عاماً، وإلى ستيف كوكس، رئيس التحرير الأكثر مثابرة في العالم. وأخيراً، أقدّم تقديري للدكتورة فيكتوريا فونتين التي دوّنت التواريخ والمراجع وقامت بتنظيم أرشيف لمستنداتي وملاحظاتي وتقاريري بصبر. وحتماً، هناك العديد من الذين أدين لهم بالشكر ولكن لا يمكن ذكرهم حفاظاً على سلامتهم المعرّضة للخطر من أعدائهم أو من حكوماتهم. ومن هؤلاء أشخاص عاملون ومتقاعدون في القوّات المسلّحة المصرية، والفرنسية، والإيرانية، والعراقية (بمن فيهم نائب رئيس أركان القوّات الجوّية واثنان من طيّاريه)، والأردنية والإسرائيلية، واللبنانية، والفلسطينية، والسورية، والتركية، والبريطانية، والأميركية. وبالطبع أضيف التحذير المعتاد للكاتب: لا أحد ممّن وردت أسماؤهم أعلاه مسؤول عن أي أخطاء أو وجهات نظر معبّر عنها في «الحرب الكبرى من أجل الحضارة».

مقدّمة

عندما كنتُ صبيّاً صغيراً، كان أبي يأخذني معه كل سنة لزيارة ميادين المعارك التي شهدَت الحرب العالمية الأولى، ذلك النزاع الذي سمّاه «هـ.ج. ويلز» (H.G.Wells) «الحرب التي ستُنهي كل الحروب». كنا ننطلق كل صيف في سيّارتنا «الأوستن» الإنكليزية، ونجوب الطرق في ميادين تلك المعارك بحفرها وعفرِها: من معركة «صوم، Somme»، ومعركة «إيپر، Ypres»، إلى معركة «ڤردان، Verdun». وعندما ناهزتُ الرابعة عشرة من العمر، أصبح بوسعي أن أسرد أسماء مواقع الهجوم كافّة: من «باپوم، Bapaume»، وتلّة ٦٠، والغاب العالي، إلى «پاسشاندال، Passchendaele»... لقد رأيتُ جميع المقابر، وتجوّلت عبر جميع الخنادق التي كساها العشب، ولمستُ الخُوَذَ الصَّدِئة التي خلّفها الجنود البريطانيون، ومدافع الهاون الألمانية المتآكلة في المتاحف البالية. كان والدي جندياً في تلك «الحرب الكبرى»، مقاتلاً في خنادق فرنسا، بسبب رصاصة أُطلقت في مدينة لم يسمع بها أبداً تُسمّى «سراييفو». وعندما مات منذ ثلاث عشرة سنة عن عمر الثالثة والتسعين، ورثت منه الأوسمة والمداليات التي نالها في خدمته العسكرية. وتصوِّر إحداها نسراً مجنَّحاً، وعلى وجهها حُفرت الكلمات التالية: «الحرب الكبرى من أجل الحضارة»، (The Great War for Civilization).

لقد أمضيتُ قسماً كبيراً من حياتي في الحروب، نظراً إلى الانشغال العميق الذي أبداه والدي بهذا الأمر، وصبر والدتي عليه. والمفروض أن تكون كل الحروب قد خيضت «من أجل الحضارة». ففي أفغانستان، لاحظتُ أن الروس كانوا يحاربون من أجل «واجبهم الدولي» في نزاع ضدّ «الإرهاب الدولي»، بينما كان خصومهم الأفغان يحاربون طبعاً ضدّ «الاعتداء الشيوعي» ولوجه الله.

لقد كتبتُ تقاريري من الصفوف الأولى في جبهة الحرب، عندما كان الإيرانيون يواجهون ما سمَّوه «الحرب المفروضة عليهم» من صدَّام حسين ـ الذي أطلق على غزوه إيران عام ١٩٨٠، لقب «الحرب الخاطفة»، ((Whirluind War). وقد رأيتُ الإسرائيليين يغزون لبنان مرّتين، ثم يعاودون غزو الضفّة الغربية الفلسطينية، في سبيل ما زعموا أنه «تطهير الأرض من الإرهاب». وقد شهدتُ أيضاً حرب العسكريين الجزائريين ضدّ الإسلاميين للسبب الظاهريّ ذاته؛ وهم يعذِّبون أسراهم ويعدمونهم، على غرار ما يفعل أعداؤهم. وفي عام ١٩٩٠، غزا صدّام الكويت، وأرسل الأميركيون جيوشهم إلى الخليج من أجل تحرير تلك الإمارة، وفرض «النظام العالمي الجديد».

وبعد حروب عام ١٩٩١، دوّنت مراراً في دفتر ملاحظاتي تلك الكلمات: «النظام العالمي الجديد» تتبعها علامة استفهام. وفي البوسنة، وجدتُ الصرب يحاربون من أجل ما سمَّوه «الحضارة الصربية»، بينما حارب أعداؤهم المسلمون وماتوا من أجل حلم راودهم بشأن إمكان التعايش في الإطار المتعدّد الثقافات، وفي سبيل إنقاذ أرواحهم.

وعلى رأس جبل في أفغانستان، جلستُ قبالة أُسامة بن لادن في خيمته، عندما تلفّظ بأول تهديد مباشر ضدّ الولايات المتحدة الأميركية، بينما كنت «أخربش» كلماته في دفتر ملاحظاتي على ضوء قنديل الكاز. لقد تكلّم معي بن لادن عن «الله» و«الشرّ». وكنت مسافراً بالطائرة عبر المحيط الأطلسي بتاريخ ١١ أيلول/سبتمبر، عام ٢٠٠١، عندما دارت طائرتي لتعود إلى «إيرلندا»، بسبب الهجوم الذي تعرَّضت له الولايات المتحدة الأميركية. وهكذا صرت في أفغانستان في غضون أقلّ من ثلاثة أشهر، هارباً مع فلول طالبان على الطريق العامّ غربيّ قندهار، بينما كان الأميركيون يقصفون بالقنابل بلداً سبق أن دمَّرته الحرب. وبعد سنة من الهجوم على أميركا، وجدتني في الجمعية العامّة للأمم المتحدة، عندما تكلّم جورج بوش عن أسلحة الدمار الشامل الوهميّة لدى صدَّام، بينما كان يُعدّ العدّة لغزو العراق. وقد مرَّت الصواريخ الأولى من ذلك الغزو فوق رأسي في بغداد.

إنّ النتائج الماديّة المباشرة لكلّ تلك النزاعات ستبقى، بل يجب أن تبقى، في ذاكرتي حتى دنوّ أَجَلي. ولستُ بحاجة إلى أن أطالع في جبال من تقارير المراسلين، لأتذكّر الجنود الإيرانيين وهم في قطارهم شمال طهران. كما أني لا أحتاج إلى أيّ من قُصاصات الجرائد لديّ لأستعيد ذكرى ذلك الأب الذي كان يحمل بين ذراعيه ما يشبه رغيفاً ممسوحاً من الخبز، والذي تبيّن أنه نصف طفل مسحوق، بفعل وابل القنابل الأميركية التي أُلقيت على العراق في هجوم عام ٢٠٠٣. ناهيك بالمقبرة الجماعية خارج «الناصرية»، حيث صادفتُ بقايا ساق بشرية في داخلها قضيب من الفولاذ، مع وجود قرص بلاستيكي طبّي لا يزال مربوطاً بأرومة العظم، مما يدلّ على أن القتلة في نظام صدّام انتزعوا ضحيتهم من قلب المستشفى حيث كانت ترقد لاستكمال تبديل وركها، وجرُّوها إلى مكان إعدامها في الصحراء.

لا تنتابني كوابيس بخصوص هذه الأمور؛ لكنّني أتذكّر، وأتذكّر. وتعاودني صورة ذلك الرأس المقطوع من جسد لاجىء ألباني في «كوسوفو»، إثر غارة جوّية أميركية حدثت قبل أربع سنوات. كان رأساً ملتحياً واقفاً وسط حقل أخضر، تحت نور الشمس الساطع؛ وكأنه قُطع على يد سيَّاف من القرون الوسطى. وكذلك جثّة ذلك الفلّاح «الكوسوفي» المقتول على يد الصرب، والذي فُتح قبره بواسطة الأمم المتحدة، فبرز أمامنا من الظلمات منتفخاً، وحزامه مشدود بقوّة حول معدته، وحجمه يناهز ضعف حجم الشخص العادي. وذلك الجندي العراقي في منطقة «الفاو» خلال الحرب الإيرانية ـ العراقية، الملتفّ المتغضِّن كطفل قابعٍ في حُفرة مدفعه بجانبي، وقد فحَّمه الموت، بينما يلمع على إصبعه الثالث منَ يده اليسرى خاتم زواج ذهبيّ يتيم، يتوهّج بالنور والحبّ لامرأة لا تعرف أنها أمست أرملة. هناك جنود ومدنيُّون بعشرات الآلاف ماتوا، لأن الموت خُطِّط ولفِّق لهم، بينما نُبذت الأخلاقيات على الرفّ لتسمح لنا بالكلام عن «البيئات الغنية بالأهداف»، وعن «الأضرار الفرعية» ـ تلك المحاولة الأكثر طفولية للتنصُّل من جريمة القتل ـ وتقديم التقارير عن مهرجانات الانتصار، وهدم التماثيل، وأهمّية السلام.

إنّ الحكومات تحبّ أن يكون الأمر كذلك. وإنّ المسؤولين يريدون لمواطنيهم أن يروا الحرب وكأنهم ينظرون إلى مسرحية تحصل بين الأضداد، بين الخير والشر، «بينهم» و«بيننا»، بين النصر والهزيمة. ولكن الحرب ليست فعلاً بين النصر والهزيمة، ولكن بين الموت وفرض الموت على الآخرين؛ إنها تمثل الإخفاق الكامل للروح الإنسانية. وإني أعرف رئيس تحرير ملّ وضجر من كثرة ترديدي لذلك، ولكن كم من رؤساء التحرير لديهم خبرة مباشرة في الحرب؟

ومن باب السخرية، كان فيلم «المراسل الأجنبي» (Foreign Correspondent) لألفرد هيتشكوك، الذي شاهدته عن عمر الثانية عشرة، حافزي لامتهان الصحافة. وهو فيلم قديم، غير ملوّن، من إنتاج ١٩٤٠، فيه صرير الوطنية والفكاهة السوداء؛ مثّل فيه «جويل ماك كْرِيا» دور مراسل أميركي يسمّى «جان جونز» ـ الذي أُعيدت تسميته «هنتلي هافرستوك» بواسطة رئيس التحرير في نيويورك ـ ذلك الشخص الذي أُرسل عام ١٩٣٩ من أجل تغطية الحرب التي أوشكت أن تقع في أوروبا. فكان شاهداً على عملية قتل، وطارد الجواسيس الألمان في هولندا، وكشف الغطاء عن عميل ألمانيا في لندن، وأُسقطت طائرته بواسطة سفينة حربية ألمانية؛ ولكنه عاش ليتقصّى أخبار العالم. كما أنه فاز بأجمل امرأة في الفيلم المذكور، كإكرامية إضافية له لاضطلاعه بمثل هذه المهنة المثيرة. وينتهي هذا الفيلم بالهجوم الخاطف على لندن، وصوت المذيع بالراديو يقدِّم «هافرستوك» على الهواء صارخاً وسط عويل صفّارات الإنذار المنبئة بحصول غارة جوّية: «لدينا الليلة ضيف من جنود الصحافة... إنه جندي من الجيش الصغير المؤلّف من مؤرّخين يكتبون التاريخ عند فوّهة المدفع».

لم أنظر إلى الوراء أبداً في حياتي. كنتُ أقرأ جريدة «الدايلي تلغراف» الخاصّة بوالدي من أوّلها إلى آخرها، ولاسيّما التقارير الأجنبية، وأنا مضطجع على أرض الغرفة قرب النار، بينما كانت والدتي ترجوني أن أشرب «الكاكاو» وأخلد إلى النوم. وفي المدرسة، كنت أدرس «التايمز» كل يوم بعد الظهر. كنت أنقّب في كامل خطاب «خروتشيف» الذي يشجب الحكم الإرهابي لستالين. فزت بجائزة المدرسة عن «القضايا الراهنة»، ولم يستطع أحد أن يؤثر

عليّ لتغيير قراري بأن أكون مراسلاً أجنبياً (Foreign Correspondent). وعندما كان يقترح والدي عليّ دراسة المحاماة أو الطبّ، كنت أخرج من الغرفة. وقد استشار والدي أحد أصدقائه بخصوص ماذا يجب أفعل، فبادرني ذلك الصديق بقوله: تخيّل أنك في قاعة المحكمة، هل تحبّ إذ ذاك أن تكون المحامي أو المراسل الجالس على مقعد الصحافة؟». قلت إني أريد أن أكون المراسل، وقد نقل الصديق ذلك إلى والدي قائلاً: «يريد روبرت أن يكون صحافياً». لقد أردت فعلاً أن أكون «جندياً من جنود الصحافة».

التحقت ببعض الجرائد مثل «نيوكاستل إيفنغ كرونيكل»، (New Castle Evening Chronicle)، و«الصنداي أكسبرس»، (Sunday Express)، حيث طاردت بعض القساوسة الذين كانوا يهربون مع ممثّلات ناشئات، ونُجيمات. وبعد ثلاث سنوات، رجوت جريدة التايمز أن تعيّنني لديها، ففعلت.. وأرسلتني إلى إيرلندا الشمالية لتغطية النزاع الصغير الشديد الذي نشب في أعقاب الحكم الاستعماري البريطاني. وبعد خمس سنوات، أصبحت أحد «جنود» الصحافة، ومراسلاً أجنبياً. وفي شهر نيسان/أبريل من عام ١٩٧٦، كنت على شاطىء «بورتو كونو» في البرتغال، أقضي إجازة بعيداً عن العاصمة لشبونة، حيث كنت أغطّي تبعات الثورة البرتغالية ـ فنادتني مديرة مكتب البريد معلنة أن هناك رسالة يجدر أن أتسلّمها. كانت رسالة من رئيس تحرير القسم الأجنبي في جريدة التايمز، «لويس هيرين»؛ يقول فيها: «لديّ أنباء جيّدة لك. لقد طلب مراسلنا «بول مارتن» نقله من الشرق الأوسط، نزولاً عند رغبة زوجته؛ وأنا لا ألومها. فعرضت عليه الوظيفة الصحافية الثانية في باريس، وأنا أعرض عليك وظيفة الشرق الأوسط، أعلمْني إذا كنتَ تريدها... فقد تكون فرصة رائعة لك، حافلة بالقصص الجيّدة، وكثير من السفر ونور الشمس...». وفي فيلم «هيتشكوك» المذكور، طلب رئيس التحرير من «هافرستوك» الحضور إلى مكتبه، قبل إرساله إلى «الحرب الأوروبية»، قائلاً: هل تحبّ أن تغطّي أكبر قصّة في العالم اليوم؟». لكنّ رسالة «هيرين» لم تكن بمثل تلك الإثارة، إنما عنت الشيء ذاته.

كان عمري ٢٩ سنة عندما عُرضت عليّ الوظيفة الصحافية للتايمز في الشرق

الأوسط ـ وإني أتمنّى لو أعرف كيف شعر الملك فيصل الأول عندما عُرض عليه حكم العراق، وكيف كان ردّ فعل أخيه عبد الله عندما عرض عليه «ونستون تشرشل» حكم شرقيّ الأردنّ. لقد كان «لويس هيرين» ذاته ذا أسلوب «تشرشلي»، عنيداً، فصيحاً، ومحبًّا للنبيذ الممتاز؛ فضلاً عن كونه سابقاً مراسلاً في الشرق الأوسط. ولكن، لو كانت القصص جيّدة صحافياً، فلا بدّ أن تكون أيضاً رهيبة، ولا بدّ أن يكون السفر مشوّشاً، ونور الشمس كحدّ السيف القاطع. فنحن معشر الصحافيين، ليس لنا حماية الملوك، أو ادّعاؤهم الكمال. ولكنني أستطيع الآن أن أكون أحد الجنود في جيش المؤرّخين الذين يكتبون التاريخ بجانب فوّهة المدفع. كم كنتُ بريئاً، وكم كنت ساذجاً. لكنّ البراءة إذا دامت، تحمي استقامة الصحافي وأمانته. وعليك أن تجاهد في سبيل الإيمان بذلك.

لم أكن مقاتلاً مثل والدي، بل ذهبت إلى الحرب شاهداً ومتفرّجاً عليها، وشديد الاغتياظ، ولكنني لم أكن أبداً من الرجال، الغاضبين، أو المتحمّسين لها، أو المخبولين بالذين أشعلوها. إني أبجّل المراسلين القُدامى الذين غطّوا الحرب العالمية الثانية وتبعاتها: مثل «هوارد ك. سميث» الذي هرب من ألمانيا النازية على آخر قطار غادر برلين قبل أن يعلن هتلر الحرب على الولايات المتحدة الأميركية عام ١٩٤١؛ و«جايمس كاميرون» صاحب التقرير الأيقوني الصادر عام ١٩٤٦ حول التجارب الذرّية البيكينية (Bikini) الذي ربّما كان أفضل مقال أدبي فلسفي نُشر في جريدة.

إن مهنة المراسل في الشرق الأوسط هي مهنة مُذلّة نوعاً ما في ظلّ ظروف مماثلة. فلو قرّر الجنود الذين كنت ألاحظهم إخلاءَ ساحة القتال، لأُطلقت النار على كثير منهم بتهمة الفرار، أو أُحيلوا إلى المجلس العسكري للمحاكمة على الأقلّ. أمّا المدنيُّون الذين كنتُ أعيش بينهم وأعمل، فقد أُلزموا البقاء في أماكنهم تحت القصف، ونتيجة لذلك هلك القسم الأعظم منهم بفعل القنابل والغارات الجوّية. كما أنهم لا يُمنحون تأشيرات سَفر بصفتهم مواطنين في بلدان منبوذة. ولكن إذا أردتُ أنا أن أترك عملي، وإذا أرهقتني رؤية الفظائع

التي شاهدتها، أستطيع أن أحزم حقيبتي وأذهب بالطائرة إلى بلادي، بدرجة سياحية، وبيدي كأس من الشمبانيا، على افتراض دائم بأني لم أمت، خلافاً لحالة الكثيرين من زملائي. ولهذا السبب أنقبض عندما ينبري أحدهم للثرثرة النفسيّة عن الخبرات الشديدة لدى مَن يغطّون أخبار الحروب، وعن ضرورة بذل الإرشاد النفسيّ لنا، نحن الكتبة الصحافيين المحظوظين براوتبنا، كي نتصالح مع ما رأينا وسمعنا. ولكن، ليس هناك من إرشاد ورعاية للفقراء والجموع الحاشدة الذين تُركوا لمصيرهم كي يعانوا من غاز العراق، وصواريخ إيران، وقسوة الميليشيات الصربيّة، والغزو الإسرائيلي الوحشي للبنان عام ١٩٨٢، والموت المبرمج على الحاسوب للعراقيين أثناء غزو الأميركيين لبلادهم عام ٢٠٠٣.

أنا لا أحبّ وصف المراسل بأنه «مراسل حرب». إن التاريخ لا الصحافة، هو الذي حكم بالحرب على الشرق الأوسط. فوصف المراسل بمراسل حرب وصفٌ تفوح منه رائحة رومانسية خاطئة، وفيه نفحات غزيرة من سِمات المراسلين الفيكتوريين الذي يراقبون المعارك من رؤوس التلال بصحبة سيّدات محصَّنات ضدّ المعاناة، حيث لا يُنظر إلّا لِماماً إلى قصف المدافع عن بعد.

لكنّ الحرب خبرة فذّة قويّة بالنسبة إلى الصحافي؛ تشمل كثيراً من التناقضات، وتُعتبر فرصة له كي يختبر الإثارة الوحيدة التي لا تزال مجّانية. وإذا كنتَ قد شهدت ذلك في الأفلام السينمائية، فلماذا لا تختبره في الواقع؟ أخشى أن بعض زملائي ماتوا بهذا الأسلوب، فقد توجّهوا إلى الحرب على افتراض أنها أمر هوليودي، وأن البطل لا يموت، وأنك لن تموت كالآخرين، وأنهم كلّهم سيكونون مثل «هنتلي هافرستوكس» سبّاقين إلى اقتناص الأخبار والفوز بأجمل فتاة. ولكن يمكن أيضاً أن تموت. ففي عام واحد خلال حرب البوسنة، مات ثلاثون من زملائي. وهناك معركة مثل معركة «صوم» تنتظر جميع الصحافيين الأبرياء.

عندما انطلقت لتدوين هذا الكتاب، أردته أن يكون عرضاً للأحداث بحسب تسلسلها الزمني في الشرق الأوسط على مدى ثلاثة عقود. فهكذا كتبت كتابي

السابق «ويلات وطن»(*). وهو تقرير بصيغة المتكلّم حول الحرب الأهليّة اللبنانية والغزوتين الإسرائيليتين للبنان. ولكنني نقَّبتُ خلال الأوراق المتكدّسة في مكتبتي التي تشمل أكثر من ٣٥٠٠٠٠ وثيقة وملفّ ودفتر ملاحظات، كتبتُ بعضها بقلمي تحت وطأة القصف وأثبت بعضها الآخر موظفو الاتصالات العرب التعبون على أوراق التلغرافات، ومنها ما ضُرب أيضاً على آلات الفاكس التي كنا نستخدمها قبل اختراع «الإنترنت». وبعد هذا الطواف بين تلك الأوراق الوثائقية، أدركت أن هذا الكتاب لن يكون مجرّد تقارير شاهد عيان مرتّبة بحسب تسلسلها الزمني.

لقد قرأ والدي، الجندي الهرم من أيام الحرب العالمية الأولى، تقريري عن لبنان. ولم يعش ليقرأ هذا الكتاب. لكنه كان دائماً ينظر إلى الماضي ليفهم الحاضر. ليت العالم لم يذهب إلى الحرب عام ١٩١٤؛ وليتنا لم نكن بالغي الأنانية في عقد السلام. لقد وعدنا، نحن المنتصرين، العرب بالاستقلال، وساندنا اليهود ليحظوا بوطن لهم في فلسطين. ولا بدّ من الوفاء بالوعود. ولكن، لم يتمّ الوفاء ببعض تلك الوعود ـ فظنّ اليهود طبعاً أن وطنهم سيشمل كلّ فلسطين ـ وحُكم على ملايين العرب واليهود في الشرق الأوسط أن يتعايشوا اليوم مع عواقب تلك الوعود.

يشعر المرء أحياناً في الشرق الأوسط أنه ليس هناك أمر في التاريخ بدون نهاية محدّدة، أو مفترق، بحيث نقف لحظة ونقول: «كفى، كفى ـ لنتوقفْ،

(*) Pity the Nation: Lebanon at war (Oxford University Press, 2001); US new edition entitled Pity the Nation: The Abduction of Lebanon (New York, Nation Books, 2002).
وبوسع القرّاء الكرام المهتمّين بشأن الحرب الأهلية اللبنانية، والغزو الإسرائيلي للبنان عامي ١٩٧٨ و١٩٨٢، ومذبحة قانا، وغير ذلك من المآسي التي حصلت في لبنان، أن يعودوا لمراجعة هذا الكتاب. فأنا لم أحاول معاودة كتابة قصّة لبنان هنا. وعنوان الكتاب المترجم إلى العربية هو: «ويلات وطن» (الطبعة السابعة عشرة منه، طبعة جديدة ومزيدة بفصلين صدرت عام ٢٠٠٥ عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر).

ولنتحرَّرْ». أعتقد أني أفهم اليوم ذلك الاعوجاج الزمني. لقد ولِد أبي في القرن الذي سبق القرن الماضي؛ بينما ولدت أنا في النصف الأول من القرن الماضي. وها أنذا في عام ١٩٨٠، أشهد الجيش السوفياتي يغزو أفغانستان، وأربض عام ١٩٨٢ في الخطوط الإيرانية الأمامية مقابل جيوش صدّام، وأراقب في عام ٢٠٠٣ طلائع الجنود الأميركيين من فصيلة المشاة الثالثة تقطع الجسر الكبير فوق نهر دجلة. ولكنّ معركة «صوم، Somme» جرت قبل ولادتي بثلاثين سنة. نزل «بيل فيسك» إلى خنادق فرنسا بعد ثلاث سنوات من الإبادة الجماعيّة للأرمن، قبل ٢٨ سنة من ولادتي. لقد ولِدتُ بعد ستّ سنوات من «معركة بريطانيا»، وبعد انتحار هتلر بأكثر من سنة. وشاهدت الطائرات تعود إلى بريطانيا من كوريا، وأتذكّر ملاحظة والدتي عام ١٩٥٦ بأني محظوظ، لأني لو كنت أكبر سنّاً لكنت في عداد المجنّدين الإلزاميين الذين غزوا قناة السويس.

أشعر بكلّ ذلك شخصيّاً، لأنّي شهدت أحداثاً عبر الزمن لا يمكن أن نعرِّفها إلّا بأنها عجرفة السلطة (Arrogance of Power). كان الإيرانيون يلقّبون الولايات المتحدة الأميركية بأنها «مركز الاستكبار العالمي»، وكنتُ أضحك من ذلك، لكني بدأت أفهم ماذا يعني هذا القول. فبعد النصر الذي أحرزه الحلفاء عام ١٩١٨، وعند انتهاء حرب والدي، قسّم المنتصرون البلاد التي كانت تحت حكم أعدائهم السابقين. وخلال ١٧ شهراً فحسب، أوجدوا حدود «إيرلندا الشمالية»، ويوغوسلافيا، ومعظم الشرق الأوسط. وقد صرفتُ كامل أيامي المهنية ـ في بلفاست، وسراييفو، وبيروت، وبغداد ـ أشاهد الناس يحترقون، ضمن تلك الحدود. لقد غزت أميركا العراق، لا من أجل أسلحة الدمار الشامل عند صدّام حسين، تلك التي دُمّرت منذ زمن طويل، بل من أجل تغيير خريطة الشرق الأوسط، على غرار ما فعل الجيل الذي كان أبي في عداده، منذ أكثر من ثمانين سنة. فقد أسهمت الحرب، التي كان أحد جنودها، في إحداث أول إبادة جماعية في ذلك القرن، ذهب ضحيّتها مليون ونصف مليون نسمة من الأرمن، ممهِّدة بذلك للإبادة الجماعية التالية لليهود في أوروبا.

إن هذا الكتاب يتمحور حول التعذيب والإعدامات. وربّما فتح عملنا في

الصحافة باب الزنزانة عَرَضاً واتفاقاً. وربّما استطعنا أحياناً أن نُنقذ روحاً من حبل المشنقة. إنما تجمّع لدينا عبر السنين سيل من الرسائل المتزايدة، الموجّهة إليّ وإلى رئيس تحرير جريدة الإندبندنت، يعرض فيها القرّاء أفكارهم ويأسهم، ويتساءلون كيف يمكنهم أن يُسمِعوا صوتهم، عندما لا تعود الحكومات الديمقراطية تمثل المواطنين الذين انتخبوها. فهؤلاء القرَّاء يسألون كيف يقون أولادهم من السمّ الذي يقطر من قسوة هذا العصر؟ وكيف أستطيع أن أساعدهم؟ فقد كتبت إليَّ امرأة بريطانية تعيش في ألمانيا، بعدما نشرت جريدة الإندبندنت مقالاً طويلاً لي حول اغتصاب نساء مسلمات في غاكو بالبوسنة، أنّ تلك النساء لم يحصلن على عناية طبّية دولية، أو مساعدة نفسيّة، أو لفتة لطف وإحسان بعد سنتين من الاعتداء عليهنّ.

وبناءً على ذلك، أفترض أننا كصحافيين نحاول ـ أو يجب أن نحاول ـ في آخر المطاف، أن نكون أول شهود غير متحيِّزين على التاريخ. وإذا كان هناك من سبب لوجودنا، فيجب على الأقلّ أن نكون قادرين على أن نقدّم تقارير عن التاريخ كما يحدث فعلاً، بحيث لا يستطيع أحد أن يقول: «لم نعرف ـ لم يخبرنا أحد بذلك». وقد ناقشت الصحافية الإسرائيلية اللامعة «أميرة هاس» هذا الأمر معي منذ أكثر من سنتين في صحيفة «هآرتس»؛ تلك الصحافية التي بزَّت بتقاريرها أيّة كتابات أخرى لمراسلين غير إسرائيليين. لقد أصررتُ في مناقشتي معها على أن رسالتنا كصحافيين تُهيب بنا أن نكتب الصفحات الأولى من التاريخ، لكنها قاطعتني بقولها: «لا يا روبرت، أنت مخطىء، إن عملنا هو أن نراقب مراكز النفوذ والقوّة». وأعتقد في نهاية هذا الأمر، أن هذا هو أفضل تعريف للصحافة سمعته في حياتي. علينا أن نتحدَّى السلطة ـ كل سلطة وكل نفوذ ـ وبخاصّة عندما تجرّنا الحكومات وأهل السياسة إلى الحرب، عندما يقرّر هؤلاء القتل، ويفرضونه على الآخرين.

ولكن هل نستطيع كصحافيين أن نؤدّي هذا المهمّة؟ ـ إن هذا الكتاب لن يعطينا جواباً عن هذا السؤال. لقد كانت حياتي كصحافي مغامرة كبرى؛ ولا تزال. ولكن عندما نظرت إلى هذه الصفحات بعد شهور من كتابتها، وجدت

فيها أوصافاً للألم، والظلم، والرعب؛ إنها خطايا الآباء التي يصاب بها الأبناء. كما أنها تدور حول الإبادات الجماعيّة. لقد كنت أدعو يائساً إلى ضرورة أن يحمل كل مراسل كتاب تاريخ في جيبه الخلفي. وفي عام ١٩٩٢ كنت في سراييفو، فمرَّت قذيفة صربيّة من فوق رأسي في لحظة خاطفة؛ لقد كنت واقفاً في المكان الذي وقف فيه «غافريلو پرينسيپ» (Gavrilo Princip) وأطلق النار، فأشعل شرارة الحرب العالميّة الأولى، التي جرَّت والدي إلى خنادق الحرب. وبالطبع، كانت الطلقات تترى في سراييفو عام ١٩٩٢. وكان التاريخ عبارة عن قاعة كبرى يتردّد فيها الصدى. وكان ذلك العام هو التاريخ الذي مات فيه والدي. وها أنذا أضع بين يَدي القارىء قصّة جيله وجيلي.

بيروت، حزيران/يونيو، ٢٠٠٥

الفصل الأول

أرض المقابر

«بيتي مظلم، وقلب حديقتي مظلم، والصحراء مظلمة،

كلّ زاوية في المدينة المدمّرة مظلمة،

السماء تعبة، والشمس مستسلمة،

ومثل زنزانة سجن، القمر المسافر مظلم».

كوهار أوزي (طريق الظلمة) ١٩٩٠

في أعالي مرتفع متلة باقة رخيصة من الزهور الاصطناعية الممزّقة ابيضّت في الشمس... نفايات في مهبّ الريح، ما زالت ثابتة على أنبوب معدني صَدِئ شامخ في الرمل. إنه يوم ٢ آب/أغسطس ١٩٩١. لقد مرّت سنة على غزو جيش صدّام للكويت. والزهور البلاستيكية هي الذكرى المتبقية للمذبحة التي وقعت هنا. لقد كانت بادرة لطف يتيمة من جندي أميركي. فالأميركيون هم من رأيت هنا منذ خمسة أشهر، يكدّسون الجثث المشوّهة في حُفرة وقد وضعوا كماماتهم فيما كانت جرّافة عسكرية تقوم بتوسيع القبر الجماعي. أما الآن، فإن الرمال التي تدفعها الرياح فوق الصحراء ـ وتضرب بعنف منّا الوجوه والأيدي التي تواجهها ـ باتت تغطي ثلث الرّمم التي جمعتها الجرّافة. تلك الأكداس وتلك الزهور المزيّفة تُبرز آخر مكان لقوّات صدّام. كم مات من الناس هنا؟ من هم هؤلاء العراقيون الذين وجدنا بقاياهم البالية منتشرة حول دبّاباتهم المحترقة وشاحناتهم والباصات المسروقة، وقد حصدتهم الطائرات البريطانية والأميركية ليلاً مع أسلحتهم وسيّاراتهم المصفّحة أثناء فرارهم من الكويت؟ عندما يتعلّق

الأمر بهذا القطاف المميّز، تستطيع تناسي معاهدة جنيف وتلك الفقرة المتعلّقة بتبادل اللوائح التي ترشد إلى «بقايا القتلى المدفونين هناك».

على الطريق السريع أسفل المقبرة، كانت المدرّعات الصدئة والسيّارات المسروقة ما زالت هناك، وهي الآن مغطّاة بكتابات المنتصرين وبالنكات التي كانت لتضحك «أمي» و«أبي»، وشعارات الكتيبة الأميركية والملاحظات البذيئة والوقحة التي لا تنتهي (ليست كلّها حول العراق وصدّام بل إن أكثرها كان يتناول النساء بشكل مهين ومزعج كما لو أن الغُزاة يحتاجون إلى دمج الجنس بالموت العنيف).. لقد غيّر الرمل بدقّة المشهد الطبيعي على كل جهة من المقبرة الجماعية، كما بدّل الزمن نظرتنا إلى مثل هذه الأحداث. في لحظة موتهم، شهدنا للتوّ دليلاً على الوحشية العراقية في مدينة الكويت المحرّرة حديثاً. زرنا غرف التعذيب العراقية وشاهدنا الجثث المشوّهة للرجال والنساء الكويتيين، وتدمير قصور الكويت وآبار النفط. وبين القوافل الهالكة في متلة، وجدنا سلباً ونهباً يشابه أحوال العصور الوسطى. شاهدت مئات القتلى هنا وربّما كانوا بالآلاف. وقد تحدّث الكويتيون عن ١٠٠ ألف جندي عراقي قتلوا في الصحراء، ويقول البعض ٢٠٠ ألف. أما كان يجدر بنا الإشارة إلى ما قبل ذلك، ليس إلى «طريق الموت السريع» ـ وهو الذي صار العنوان الرئيسي المنتشر حول العالم ـ وإنما إلى مجزرة مرتفع متلة؟

الغنيمة أعيد نهبها منذ ذلك الحين، لكن مازالت هناك أشباح في الصحراء. على مقربة من حُطام دبّابة مقاتلة، شعارٌ لكتيبة: علامة زرقاء مربّعة إلى جانب مثلّث أبيض؛ فالجيوش تحاكي البيروقراطية مثلما تحاكي الموت. سحبتُ بقايا ملفّات ممزّقة، ودفاتر تمارين مدفونة كلّياً في التراب، بقايا إدارة الجيش العراقي المهزوم، جرى تحميلها بأمانة في الساعات التي سبقت تدميرها يوم ٢٨ شباط/فبراير ١٩٩١. أوّلاً، لن يلفظ التراب هذه الأوراق، لذا حفرت بأصابعي في الأرض، وأخرجت هذه السجلّات بأظافري. أمسكت بيدي ورقة سجّل فيها أسماء جنود هذه الحامية، مسلمون عرب، وأكراد، ومسيحيون وحتى أرمن.

«عبد الرضا رحيم أحمد، مراسل على درّاجة ناريّة، ولد عام ١٩٥٤، حائز على الشهادة الابتدائية، عربي مسلم من البصرة. منديل أحمد قديس مصطفى الكولي، مراسل على درّاجة ناريّة، ولد عام ١٩٥٢، مسلم كردي من محافظة التأميم، جندي مدفعي. علي حسين حمزة، ولد عام ١٩٤٩، حائز على الشهادة الابتدائية، عربي مسلم من القادسية».

هل هذه أسماء هؤلاء الرجال الممدّدين على مرتفع متلة؟ لم أجد الأسماء وحدها، بل وجدت كوابيس خلف الصحراء. رأيت طرف كتاب كبير شبه مدفون، جثوت وأمسكت بطرفه وسحبته من الجهتين شاعراً بركبتيّ تغوصان في الرمل حتى أصبح بين يديّ. فتحت الصفحات فانسابت منها حبّات الرمل حتى انكشفت. هذه مذكرات بخطّ اليد لمسؤول في حزب البعث غير معروف مرتبط بوحدة عسكرية مجهولة، يسجّل دقائق اجتماع بين صدّام حسين ووزير الصناعة العراقي يوم ٢٨ شباط/فبراير ١٩٩٠، قبل عام من دمار جيشه في هذه الصحراء. كنت جالساً على ركبتيّ لكن عندما رأيت اسم صدّام جلست براحة على الرمل ووضعت الكتاب في حضني.. إنه يصف صدّام حالياً بالمتكبّر الذي يشعر بالمصاعب المالية، التي قادته إلى غزو الكويت بعد خمسة أشهر. وتورد المذكّرات المسجّلة قول صدّام «سوف نعطي ٢٠ ديناراً لكل قنبلة يصنعها الرجال في العراق، اجعلوا مصانعنا تنتج خمسة آلاف قذيفة يومياً، دعوا مصانعنا المحلّية تتنافس في ما بينها حتى تستطيع منافسة صناعة الأسلحة العالمية. علينا توفير ملايين الدولارات في الإنفاق العسكري، إذن لننفق أكثر قليلاً على صناعاتنا المحلّية بحيث نستطيع الوصول إلى مرحلة نصبح فيها غير معتمدين كلّياً على السوق الدولية». مستقلّون عسكرياً، هذا نظام صدّام العالمي الجديد. من تحت رمال الصحراء الكويتية وصلتني هذه الكلمات.. وبأية وقاحة؟ إذ إن الجموع العراقية لم تكن هي التي صنعت القوّة العسكرية لصدّام، بل العالم الغربي الذي زوّد جمهورية الرعب بالمساعدات والأغذية وبكل معاني دماره. كانت بريطانيا ما زالت ترسل موادّ نوويّة لبغداد كما لو أن صدّام كان يخطط لإنتاج محلّي ضخم من الأسلحة. وكانت أميركا قد دفعت الأموال،

والاتحاد السوفياتي أعطى صدّام الدبّابات والمدرّعات التي تسلّلت على مرتفعات متلة. وليس مستغرباً أن صدّام لا يزال يكذب على الأمم المتحدة حول ما تبقّى من ترسانته. وتقول النظرية الجديدة للرئيس بوش حول النظام العالمي الجديد إنه كلّما كان قوياً استطاع البقاء مدة أطول. إنه نظام دولي لم يعد فيه العدوان يؤدّي (نظرياً) إلى منافع ولم يعد من المفترض تزويد دول الشرق الأوسط بالأسلحة بمثل هذه العشوائية.. وسيكون ذلك أكثر الكوابيس ظلمة، وربّما استطاع صدّام النجاح رغم ذلك.

على كل حال مَن يتذكّر الآن تأكيد جورج بوش للعراقيين أنه ليس على نزاع معهم بل مع زعيمهم؟ فهو أكّد يوم ١٥ شباط/فبراير ١٩٩١: «لسنا على خلاف مع الشعب العراقي، خلافاتنا مع الدكتاتور القاسي في بغداد». والآن بينما يموت الشعب العراقي من الأمراض والمجاعة الناتجة عن الحرب، يستمرّ نظام صدّام القاسي بالطبع. فعندما حاول الشعب العراقي القضاء على صدّام سمح له الأميركيون وحلفاؤهم بتدمير شعبه وأيضاً بالبروز عبر تصريح حاسم له في الأسبوع نفسه الذي يوافق ذكرى الغزو قال فيه: إن العراق ربح «صراعاً تاريخياً كبيراً»، بما أنه لا ينبغي النظر إلى النصر على أنه قتال بين جيش وعدّة جيوش أخرى. وليست هذه بالطبع وجهة نظر يوافق عليها أشباح مرتفع متلة، ولا العائلات السعودية والكويتية التي نجت أيضاً من الصراع سالمة، رغم أن لديهم الآن سبباً للرضى. أما آمال الطبقات السعودية المتوسّطة المثقفة في أن الوجود العسكري الأميركي في الخليج سيحرّر الأمّة وسيجعل الحكم أكثر خضوعاً للقيادة الجماعية، فقد أصبحت آمالاً منسيّة الآن.. بعد عملية إذلال صدّام، أصبحت السعودية أكثر محافظة وليس العكس وأصبحت معنويات الشرطة «المطاوعين» أكثر ارتفاعاً ومؤسّستها العسكرية أقوى رغم الحديث عن نزع السلاح. وقد صرّح البنتاغون الآن أنه يخطط لبيع السعوديين معدّات تعمل باللايزر و٢١٠٠ قنبلة انشطارية، و٧٧٠ صاروخ جوّ ـ جوّ بقيمة ٣٦٥ مليون دولار.. وقد أبلغ البيت الأبيض مسبقاً الكونغرس الأميركي بخططه بيع سيّارات جيب وخدمات دعم عسكرية إضافية للسعودية بقيمة ٤٧٣ مليون دولار. ومنذ تحرير الكويت وضعت واشنطن خططاً لإرسال أسلحة بقية ٤,٢ مليار دولار

للسعودية ومصر والمغرب وعُمان وتركيا، وستسلّم الأخيرة ثماني طائرات ف١٦ مقاتلة قاذفة، وهذا كثير بالنسبة إلى نزع سلاح الشرق الأوسط. ويحظى السعوديون وحلفاؤهم الآن بنوع من السخاء كان قد حظي به صدّام منذ سنة تقريباً.

قطعنا مسافة طويلة منذ إعلان جورج بوش رؤيته لعالم ما بعد تحرير الكويت، يوم ٢٩ أيار/مايو ١٩٩١، والقائلة بأنه يجب أن تكون هناك مبادرة لمراقبة التسليح في الشرق الأوسط تبطئ ثم توقف البناء غير الضروري لترسانات الأسلحة المهدِّدة للاستقرار في المنطقة. وقبل أقلّ من ثلاثة أشهر، تنازل بوش عن فكرة أنه «سيكون أمراً مأساوياً أن تصبح دول الشرق والخليج الفارسي الآن على أبواب حرب تجعلها تنطلق في سباق تسلّح جديد». الآن وبعد سنتين، اشترت الكويت ٢٣٦ دبّابة أميركية من نوع M1A2 بقيمة ٢ مليار دولار. واشترت السعودية بما قيمته ٧,٥ مليارات دولار دبّابات تورنادو Tornadoes وأنفقت ٣,٩ مليارات دولار أخرى على شراء فرقاطات فرنسية بعد الإعلان العام السابق عن شراء طائرات مقاتلة أميركية F-15XP بقيمة ٩ مليارات دولار. لفهم هذه الأرقام، على المرء أن يتذكّر أن الدعم المالي السعودي للاتفاق الفلسطيني الإسرائيلي (غزّة ـ أريحا) كان بقيمة ١٠٠ مليون دولار. وقد قدّمت الإمارات العربية المتحدة ٢٥ مليون دولار فقط للفلسطينيين واشترت عام ١٩٩٦ بما قيمته ٣,٥ مليارات دولار دبّابات لوكليرك Leclerc الفرنسية. وقد باعت الولايات المتحدة الأميركية ما تفوق قيمته ٢٨ مليار دولار من الأسلحة خلال العامين التاليين لحرب الخليج عام ١٩٩١، وكانت حصّة السعوديين منها ١٧ مليار دولار. وقد وصلت مبيعات الأسلحة للشرق الأوسط عام ١٩٩٣ إلى ٤٦ مليون دولار يومياً.. بالرغم من ذلك كانت مسألة القتلى العراقيين تضغط بثقلها على الذين كان من واجبهم التأكّد من أن «قوانين الحرب» يطيعها المنتصرون.. والحال أن روايات كانت تصدر من واشنطن تقول بأن عشرة آلاف جندي عراقي دفنوا أحياء قرب الحدود السعودية عندما تقدّم الجيش الأميركي للمرّة الأولى على الحدود نحو الكويت. كان أمام الأميركيين خياران: إما شقّ

طريقهم عبر الخنادق والتحصينات التي حفرتها القوّات العرقية، وإما جرف الرمال فوقهم وخنقهم فيما هم يستعدون للقتال. بالطبع، قرّرت الولايات المتحدة الأميركية اللجوء إلى الخيار الأخير. هل كان دفن العراقيين أحياء أسوأ من إبادتهم بالقصف ولا سيّما أن الخسائر الأميركية ستكون أكبر في معركة مواجهة؟

لقد لعب الأميركيون لعبة «دلالات»... فقد أعلنت «مصادر عسكرية مغفلة»، لوكالة رويترز في هذه الحالة، أن معظم العراقيين القتلى قد قتلوا خلال الأسابيع الخمسة من القصف الجوّي التي سبقت الهجوم البرّي الذي دام أربعة أيام، ومن المحتمل أن يكونوا قد دفنوا من قِبل زملائهم.. وأن عدد جنود الاحتلال العراقي الذين قُدّروا أساساً بحوالى نصف مليون جندي، قد يكون مبالغاً فيه. ومن المحتمل أن حوالى ١٢ ألف جندي قوي من الوحدات العراقية استنزفوا بنسبة ٥٠ في المئة، قبل وصولهم إلى الكويت.. وقد استسلم ٦٢ ألف جندي عراقي جائع أو خائف على الأقلّ إلى الحلفاء..، وكل ما كان يقوله الضبّاط هو أن «عدداً كبيراً» من العراقيين لقوا حتفهم في الحرب.. ممّا كان يعني ـ وكان مطلوباً له من دون شك أن يعني ـ لا شيء.

ولم يجد أي ضابط أميركي أن من المناسب الإشارة إلى المقابر الجماعية التي وضع فيها الأميركيون والإنكليز القتلى العراقيين، أو إعطاء المعلومات إلى الصليب الأحمر الدولي كما يتعيّن على الحلفاء القيام به حسب القانون الدولي. في أواخر أيام ١٩٩١، تمّ استدعاء الطبيبة السويسرية في الصليب الأحمر الدولي في الكويت جانيك دامي لتفحص جثث تسعة جنود عراقيين غير مدفونة ملقاة في الصحراء قرب مقرّ قيادة الفرقة السادسة للجيش الكويتي، ليس بعيداً عن الحدود العراقية. وقد وجدت أن بقايا الجيش العراقي تحلّلت بشكل سيّىء لكن ثمّة ثلاث عشرة جثة عراقية أخرى كانت مدفونة على بعد أمتار تحت علامة خشبية كتب عليها كلمة واحدة بالإنكليزية «مجهول».

كان الأمر مضلّلاً بشكل كبير. وكانت على كل الجثث باستثناء واحدة بقايا ملابس عسكرية عراقية، ووجدت الدكتورة دامي أوراقاً ثبوتية لثمانية منهم أو

بطاقات بأسمائهم. لم يكونوا جميعاً مجهولين. وكانت معظم الجثث مدفونة بأكياس جثث عسكرية أميركية وبينها جثة مجنّد عراقي مربوطة رجلاه بحبل، عمره ٢٧ سنة واسمه جبر علوان قيدار.. وكانت الجثة الوحيدة التي من دون لباس عسكري تخصّ امرأة.

كان أهمّ ما في اكتشاف الدكتورة دامي أنها كانت المرّة الأولى التي استطاع فيها الصليب الأحمر الدولي تفحّص قبور قتلى الجيش العراقي. ويقدّر الأميركيون أن عدد القتلى العراقيين وصل إلى مئة ألف. وقد تمكّن الصليب الأحمر الآن من الوصول إلى قبور ٢١ عراقياً فقط. وفي خرق كامل للبند ١٧ من معاهدة جنيف، فشلت قوّات الحلفاء وقوّات التحالف العربي في إعطاء إحصائيات ولو تقريبية لعدد القتلى العراقيين. ولم تعطِ السلطات العسكرية الأميركية للصليب الأحمر الدولي أسماء القتلى العشرة آلاف من أعدائها أو مكان المقابر الجماعية التي دُفنوا فيها. إن العدد الحقيقي للقتلى يبقى أحد الأسرار المزعجة لحرب الخليج ١٩٩١، وكذلك الأمر بالنسبة إلى فشل الحلفاء في إعطائه؟

لم يكن صدّام في وضع يسمح له بالشكوى حول خروقات معاهدة جنيف.. كان أسرى الحرب من الحلفاء يُعذَّبون من قِبل العراقيين ونظام صدّام البعثي الذي يعرف الجميع أنه عذّب باستمرار وقتل مناوئيه السياسيين. إن استخدام صدّام للغاز السامّ في قتل آلاف من الجنود الإيرانيين ثمّ من المدنيين الأكراد وذبحه للمتمرّدين الشيعة بعد الحرب في انتفاضة آذار/مارس ١٩٩١ شكّل أحد السجلّات المقزّزة لحقوق الإنسان في العالم.

إن معاهدة جنيف تنصّ على أن الأطراف في حالة نزاع يجب أن يتأكّدوا من أن دفن القتيل أو إحراق جثّته ـ إفرادياً بالقدر الذي تسمح به الظروف ـ يسبقه فحص دقيق للجثة مع تدقيق في حصول الوفاة وفي هويّة القتيل وكتابة تقرير حول ذلك كلّه، وأن عليهم أيضاً أن يضمنوا دفن القتلة بشكل مشرّف وإذا أمكن وفقاً لتقاليدهم الدينية، وأن تُحترم قبورهم وتُصان بشكل جيّد وتوضع علامة عليها حتى يسهل العثور عليها دائماً. ووفق معاهدة جنيف فإنه يطلب من

الجنود تنظيم خدمة تسجيل القبور وهي تتضمّن لوائح تظهر الأماكن الصحيحة للقبور وعلامات التعرّف إليها، مع معلومات عن الميت المدفون. لقد تجاهل حلفاء حرب الخليج ١٩٩١ كلّاً من هذه الأنظمة الأساسية. بعد تحرير الكويت، تحاشى الجنرال شوارزكوف بفظاظة الأسئلة حول القتلى العراقيين بحجّة أنه «لا يعمل في إحصاء الجثث». غير أنه وفق معاهدات جنيف يجب على الجنرالات، حتى الجنرالات الأميركيين، التأكّد من أن الجثث أحصيت فعلياً. صحيح أن القوّات العراقية ارتكبت ما يمكن تصنيفه جرائم حرب خلال احتلالها للكويت لكن حتى جنود هتلر الذين قتلوا في القتال ضدّ الأميركيين حول باستوني Bastogne عام ١٩٤٤ جرى تعريفهم ودفنوا في قبور عليها علامات. وكالعادة، علينا اللجوء إلى عمّال الإغاثة، الذين يتحدّثون دون ذكر أسمائهم حتى لا يفقدوا الحظوة المعنوية القليلة التي لديهم مع الجيوش المنتصرة، لنعرف ما شعر به أفراد الصليب الأحمر الدولي. روى لي طبيب بريطاني: إنهم غاضبون كثيراً ولا ألومهم. ما هو محيّر حقاً أن الأميركيين يعرفون مكان العديد من المقابر الجماعية ولديهم ملفّات حول عدد العراقيين الذين دفنوهم في كلّ مقبرة. إنهم يخفون الأرقام. والصليب الأحمر يعرف ذلك، لكنهم لا يستطيعون إجبار الحلفاء على إعطاء إحصائية واحدة. لمَ لا؟ الجواب واحد من اثنين: إمّا أن يكون الأميركيون قتلوا عدداً أقلّ بكثير ممّا زعموا، ربّما عشرة أو عشرين ألفاً فقط، وفي هذه الحالة سوف يتساءل الناس ما إذا كان نصرهم كبيراً كما يدّعون. واحتمال العدد القليل من الخسائر قد يفسّر ربّما لماذا بقي لدى صدّام عدد كافٍ من الجنود الحلفاء. وإمّا أن يكون الأميركيون قد قتلوا أعداداً أكبر (٢٠٠ ألف وأكثر)، وهم قلقون من أن يشمئزّ العرب حيال مقتل حوالي ربع مليون شقيق عربي».

أكّد كريستوفر جيرود مندوب الصليب الأحمر الدولي أنه سأل السفارة الأميركية مرّتين عن معلومات حول القتلى العراقيين دون الحصول على أيّ منها. وقيل للصليب الأحمر إن عليه السعي لطلب معلومات مباشرة من البنتاغون. لكن أثبت البنتاغون أيضاً عدم المساعدة. قال جيرود: «ما زلنا ننتظر الردّ من الحلفاء

عن أمكنة القبور الجماعية، وعدد القتلى وربّما عن أسماء وتفاصيل(*). من واجبهم إعطاؤنا هذه المعلومات وفق البند ١٧ من اتفاقية جنيف ونأمل أنهم سيزوّدوننا بذلك.. البعض يأمل. لم يزوّدنا الأميركيون أبداً بأيّ من هذه الأماكن والأرقام والأسماء». أصبحت تلك عادة!!! عام ٢٠٠٣، أبدت الولايات المتّحدة وبريطانيا القليل من الاهتمام بتسجيل تفاصيل حول قتلى العدوّ أو (في هذه الحالة) المدنيين الذين قُتلوا إبّان الغزو مع أنهم كانوا حريصين كما كانوا في حرب الخليج ١٩٩١ على وضع لوائح بالجنود الأميركيين والبريطانيين وغيرهم من الغربيين أو قوّات التحالف الذين قُتلوا أثناء القتال.

كان قتلانا، الأبطال، الغربيون الذين قُتلوا من أجل الحرية، أو الديمقراطية أو أيّ منافع أخرى خطّطنا لفرضها على الخاسرين، قتلى مقدّسين. عام ١٩٩١، خسر الأميركيون ١٢٥ جندياً والحلفاء حوالي السبعين. وسوف تبقى أسماؤهم حيّة طويلاً مثل تلك الموجودة على الأنصاب التذكارية على طول الجبهة الغربية القديمة في فرنسا في حرب «بيل فيسك»، ستكون هناك صلوات دينية لتكريمهم، ومقابلات مع زوجاتهم وأطفالهم وأهلهم وخطيباتهم. سيكون هناك جدل في كلتا الحربين حول القتل الخطأ لجنود من القوّات البريطانية من قِبل قنّاصين أميركيين سعداء. لكننا سنعرف من كانوا. سيكون لدى قتلانا هويّات، وعائلات، ورأي عامّ يحزن عليهم. كانوا أشخاصاً حتى في مماتهم. أمّا القتلى العراقيون فكانوا كمّية غير محدّدة، غير مصنّفين، مثل المقابر التي وضعوا فيها. كانوا المحتلّين للكويت، أو لاحقاً البقايا أو الإرهابيين الذين أصرّوا على قتال مَن غزوا وطنهم عام ٢٠٠٣ ولا يستحقّون الذكرى. لذلك.. كان الأميركيون في هذه الحالة مدعومين من نظام صدّام... إذ لم تكن لدى حزب البعث في بغداد الرغبة

(*) لم تُطبّق هذه اللامبالاة في معاهدة جنيف مع أنه عندما قام العراقيون بعرض طيّارين أُسروا خلال الحرب على شاشة التلفزيون، ظهر أن بعضهم تعرّض للضرب. وأصرّ المسؤولون البريطانيون والأميركيون عندها على احترام مطلق لمعاهدات جنيف من قِبل النظام العراقي في ما يتعلّق بأسرى الحرب. كان بعض الطيّارين يحملون علامات قذفهم الفجائي من طائراتهم مع أن طواقم طائرات السلاح الجوّي أعطوا روايات حول سوء معاملتهم على أيدي رجال الأمن العراقيين.

في أن يكشف للعالم عن مدى الهزيمة العسكرية التي مُنيت بها البلاد أو إعطاء أي إيضاح حول حجم خسائره. وكما أوضح الأميركيون فقد قُتل عدّة مئات من الجنود العراقيين تحت قصف طيران الحلفاء وذلك قبل الهجوم البرّي.. وكان صدّام سعيداً بأن تبقى أعدادهم وأسماؤهم مجهولة، تماماً كما كان غير مهتمّ لمصير بقيّة «شهدائه» في الكويت... لقد تشارك الأميركيون والعراقيون إذن في مصادفة سعيدة من النوايا. كان الطرفان يرغبان في المحافظة على عدد القتلى العراقيين سرّاً.

في نهاية الأسبوع الأوّل من عام ١٩٩١، أخذني كريستوفر جيرود إلى مرتفع متلة حتى أرشده إلى المقبرة الجماعية التي مررت بها في شباط/فبراير الماضي. كانت الزهور الاصطناعية لا تزال هناك ولاحظ جيرود فوراً أكوام التراب التي رمتها الجرّافة، عندما كشفت عن الجثث هناك. تم الكشف عن دزّينات من الجثث وتمّت إعادتها للعراق. لكن هذه كانت المقبرة الوحيدة التي استطعت إيجادها. في أماكن أخرى، بحثت في مذكّرتي مسترجعاً ما كتبت حتى شهر شباط/فبراير، فقد تغيّر اتجاه الريح وكذلك طبيعة الأرض، وتحوّلت الأرض المسطّحة قرب الطريق السريع نحو العراق إلى كثبان رملية، وقد انتشرت رُفات الأشخاص على الأرض في الصحراء نتيجة العواصف الربيعية.

لقد اشترك الأميركيون والإنكليز في آلاف عمليات الدفن السريعة في هذه الصحراء في شباط/فبراير ١٩٩١. وقد شاهدت تسع منها بنفسي حيث كان جنود شباب ينوؤون تحت ثقل الأغطية المليئة بالجثث، ويحفرون في الرمال ويرمون حمولتهم في الحُفر التي أعدّوها.

كانت هذه الطقوس تجري على طول المنطقة الرملية إلى الشمال من مدينة الكويت. كان عمّال الهلال الأحمر الكويتي، الذين ساعد بعضهم في إجلاء القتلى من مرتفع متلة ومن أماكن أخرى إلى الشرق «من طريق الموت السريع» لم تكتشف، متورّطين في العملية نفسها. وقد أبلغ الكويتيون في ما بعد عمّال الإغاثة الغربيين أن العشرات من ضحايا الهجمات الجوّية الحليفة كانوا مدنيين كويتيين أبرياء أُخذوا إلى العراق كرهائن للجيش المنسحب.

أمّا منظّمة الصليب الأحمر فقد أعادت جثث ٢١ جندياً عراقياً إلى بغداد، ووجدت الدكتورة دامي أن الجثث لم تُدفن كما يجب وفق الطقوس الدينية باتجاه مكة، وجرى دفن القتلى كل اثنين معاً مع أوراق هويّة بين أكياس الجثث. وقد عُثر في ملابس العديد منهم على أوراق خاصّة ومفكّرات كان ينبغي وفق اتفاقية جنيف أن تُعاد إلى أقاربهم.. وعلى صفحة من مفكّرة تعود لبرهان أحمد وجِد رسم لابن أخ الجندي المدفون استطاع العراقيون من خلاله إبلاغ أقارب الرجل الميت. وقد وجدنا أسماء أخرى على الجثث سُلّمت إلى العراقيين عبر الصليب الأحمر، منها: مسير جبر حمدي، مسلّم إسماعيل إبراهيم، أحمد فهد ملّا، حسن داوود سلمان. ووجدت مع إحدى الجثث زجاجة عطر مخبّأة في جيب، كانت حتماً مسروقة من الكويت. ولم يتم أبداً تفسير لماذا كانت رجلا جبر علوان قيدار مقيّدتيْن.

لو لم تنبش منظمة الصليب الأحمر البقايا لكان هؤلاء الجنود «معروفين عند الله»، كما تقول الأنصاب الحجرية البريطانية العائدة للحرب العالمية. حتى الآن لم يتم اكتشاف المقابر، أمّا السيّدة الميتة فقد أُخذت جثّتها إلى مدينة الكويت حيث قالت السلطات إنها تستطيع معرفة هويّتها من بصماتها. كانت مقيمة سابقاً في الكويت، وعندما سألت مسؤول إغاثة كويتي عن هويّتها ردّ بصوت ينمّ عن ازدراء: «قالوا إنها عاهرة عراقية».

كانت المحاولة الجدّية الوحيدة لتقدير الخسائر هي تلك التي قامت بها بيث أوزبورن دبونت موظّفة مكتب المسح الديمغرافي الأميركي المكلّفة بجمع إحصائيات حول عدد العراقيين الذين قُتلوا خلال الحرب. وحسب إحصائياتها فقد مات ٨٦٠٠٠ رجل و٤٠٠٠٠ امرأة و٣٢٠٠٠ طفل على أيدي قوّات التحالف التي يقودها أميركيون وذلك خلال الانتفاضات الموحى بها أميركياً، ثم ما تلاها من حرمان مباشر بعد الحرب. وقد تمّ طرد دبونت ثم قام المكتب بعد إقالتها بإعادة كتابة التقرير مخفّضاً حجم القتلى وحاذفاً القتلى من النساء والأطفال. ولاحقاً ورد في رواية مسؤول في البنتاغون فصلٌ عن الخسائر لم يُشر إلى القتلى العراقيين.

لا حاجة إلى القول إنه لم يسمح إطلاقاً لتلك الدماء الهائلة التي سبّبتها هذه العمليات العسكرية بأن تلطّخ «الصورة الكبيرة»، أي أهداف الحرب التي يستطيع الزعماء الغربيون وكتّاب التعليقات الإشارة إليها باعتبارها دليلاً على أنها كانت حرباً جيّدة وأن الله كان إلى جانبنا.. ولكن أيّ إله ذاك الذي استُقدم هنا فهذه مسألة تبقى غير محسومة.. لقد تمت إعادة العائلة الحاكمة الكويتية إلى السلطة كما وعد الرئيس بوش وما مِن أحد من الذين دخلوا العاصمة الكويتية يوم تحريرها (كما فعلت أنا وزملائي) يستطيع الشكّ في أن تحريرها لم يتمّ بإخلاص متفانٍ. فلو استطاع صدّام الاحتفاظ بالمحافظة التاسعة عشرة، لكان ذلك كارثة للمنطقة وللنظام الدولي.

والحال أنه بالنسبة إلى الكويت، وكذلك السعودية (والعراق في ما يتعلّق بهذه المسألة)، لم تكن عاقبة القتال البرّي المشاركة في نظام عالمي جديد بل إعادة الوضع السابق. عاد الحكّام العرب إلى حدودهم المرسومة من قِبل البريطانيين.. ووجد هؤلاء الكويتيون الذين رفضوا الاحتلال والذين عانوا من خطر مرعب على بلادهم أن الذين فرّوا من الكويت بمن فيهم العائلة الحاكمة أُعيدوا ليحاكموهم. عاد الأمير وجماعته الذين عانوا من المنفى في أفخم فنادق الطائف ليخبروا الكويتيين الذين ظلّوا هناك والذين قاوموا بشجاعة في بعض الأحيان أنهم لن يحصلوا على الديمقراطية الآن.

كانت الفضيحة الكبرى في السياسة الكويتية الداخلية عملية طرد ٣٦٠ ألف فلسطيني خلال السنتين التاليتين.. تلك كانت عملية تطهير عِرقي لا مثيل لها في الشرق الأوسط منذ المجازر التي رافقت الهروب الفلسطيني من القوّات الإسرائيلية عام ١٩٤٨. ولم يتكبّد مجلس الأمن الدولي حتى عناء مناقشة هذه الإهانة أو سؤال الكويتيين حول عُذرهم لمثل هذه المعاملة لأشقّائهم العرب. لقد تعاون بعض الفلسطينيين مع العراق خلال الاحتلال. وعلى الطريق الطويل باتجاه البصرة كنت أشاهد كل يوم الشاحنات المحمّلة فوق طاقتها وسيّارات البيك أب وهي تحمل الفلسطينيين إلى منفى آخر، عبر العراق إلى الأردن حتى دون حقّ بيع البيوت أو الأملاك التي كانت لهم طيلة عقود في الكويت. قال

لي سليمان الخالدي، وهو صديق فلسطيني، في الكويت عام ١٩٩٢ «سوف يطردونني قبل عودتكم. اتصل بي إن أردت ولكنني لا أعتقد أنني سأردّ على اتصالك».. في كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ اتصلت بالخالدي حسب ما وعدت. وكما وعد هو، لم يكن هناك أحد. أجابت امرأة بانزعاج: «أجل لقد كان يقطن هنا لكنه غادر إلى الأردن. كلّا لن يعود. نعم أنا كويتية».

وما كان أقلّ حجماً من حيث المأساوية ولكن مساوياً إلى حدّ ما من حيث الفضيحة محنةُ أفراد قوّة البدو الكويتية الذين رفضوا الهرب يوم ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠ واختاروا قتال الغزاة العراقيين وأُخذوا أسرى حرب من قبل جيش صدّام.. هؤلاء الآلاف من الشبّان الذين لم يحملوا الجنسية الكويتية ومع ذلك حاربوا في سبيل الإمارة. لكن الآن وبينما أُعيد معظم الضبّاط الكويتيين الذين فرّوا إلى مراكزهم، رفضت الكويت السماح لهؤلاء الجنود البدو المخلصين بالعودة من سجنهم العراقي. وهناك مئات آخرون عالقون في معسكر اعتقال في العبدلي على الحدود الكويتية العراقية، وقد تحرّروا من السجون العراقية خلال الانتفاضة الشعبية لكنهم رُفضوا من قِبل الدولة التي قاتلوا في سبيلها. إن الوطنيين الكويتيين الآن معتقلون من قِبل الجنود الكويتيين الذين ولّوا الأدبار عندما كانت بلادهم بحاجة إليهم.

في صباح يوم حارّ توجّهت إلى العبدلي. كان المشهد مُخزياً.. ولم يكن مردّ ذلك إلى المراحيض التي تملأ رائحتها المكان، أو العواصف الرملية التي تعصف فوق الأنقاض محوّلة من فيها إلى ظلال بيضاء ورمادية، أو حتى الأكواخ الحقيرة المصنوعة من الملابس والحديد المجعّد والأغطية القديمة التي يحوّل صوت تلاطمها المستمرّ المحادثة إلى مباراة صراخ. بل إلى حقيقة أن سكّان هذا المكان المرعب كلّهم (١١٧٣ شخصاً) كانوا من البدو الكويتيين الشرفاء الذين تُركوا للعيش هنا لأنهم لم يحصلوا أبداً على الجنسية والذين صدف وجودهم في المكان الخطأ لجبهة حرب الخليج، عندما أعلن الرئيس بوش وقف إطلاق النار في شباط الفائت. وكان العديد منهم رجال شرطة كويتيين خدموا الأمير لسنوات وقد اعتقلوا خلال الاحتلال وأُخذوا رهائن إلى العراق من قبل شرطة صدّام حسين السرّية. وكان هناك أيضاً نساء وأولاد رجال

شرطة كويتيّون كانوا يبحثون عن أقارب مفقودين في العراق عندما وصل الأميركيون إلى بلدة العبدلي الحدودية منذ خمسة أشهر ورفضوا السماح لهم بالعودة إلى بيوتهم في الكويت رغم انتظار عائلاتهم لهم هناك. وقلّة منهم كانوا كويتيين بدون جنسية، ارتكبوا خطأ محاولة شراء طعام بعملة عراقية بعد التحرير فأرسلوا إلى هذا المكان الموحش من قِبل قوّات الأمن. إن مصير أفراد هذه الأسر كان مرسوماً على اسمهم: «البدون»، الربع مليون كويتي الذين فشلوا في تسجيل أنفسهم كمواطنين أو الذين فشل ذووهم في تسجيلهم بعد استقلال الإمارة عام ١٩٢٠ وتركوهم مخلصين موالين ولكن مواطنين بلا دولة في بلد لا يرغب في إعطائهم جواز سفر... أما الآن وقد تحرّرت الكويت وعائلة الصباح ترغب في تخفيض عدد المواطنين غير الكويتيين، فإن «البدون»، إضافة إلى الفلسطينيين الذين ولدوا في الكويت وإلى عدد آخر كبير من العرب الذين أسّسوا بيوتهم في الإمارة لعقود خلت، متّهمون الآن بالتعاون مع المحتلّين العراقيين.

وهكذا، وفيما كنت أنقّب أثناء هذه العواصف الرملية في زاوية معسكر العبدلي الجنوبية ـ الشرقية، وجدت خلف كوخ من الحديد مغطى بقماش الوجه الملتحي لسابا` أبو نصر الخالدي، وهو كان موظفاً في وزارة الداخلية وفنّاناً كويتياً مشهوراً، حتى ٢ آب/أغسطس ١٩٩٠.. قال لي: «لم أحاول أبداً الذهاب إلى مكتبي عندما حضر العراقيون لأنني علمت أنهم يعتقلون الموظفين الحكوميين. لكنني رسمت لوحات للمقاومة الكويتية وقد أبلغ أحدهم عني وقام العراقيون باعتقالي. أخذوني إلى مركز شرطة الصالحية حيث تعرّضت للضرب لكنني رفضت إبلاغهم بأيّ شيء. لذا تركوني أذهب إلى بيتي. لكن بعد شهر أخذوني مجدّداً ووضعوني ضمن قافلة من الباصات مع أربع مئة «بدون» آخرين ونقلونا إلى ثكنة عسكرية في العمارة داخل العراق. بقينا سجناء هناك لمدة ثلاثة أشهر، وعندما بدأ الأميركيون بالقصف جرى نقلنا إلى الديوانية. كان لدينا القليل من الطعام وكنّا وسخين ولطالما تساءلت إن كنت سأرى بيتي مجدّداً»..

لقد تمّ تحرير الخالدي ورفاقه البدون خلال الانتفاضة الشيعية في جنوب

العراق وأيقظتهم حرّيتهم الوشيكة عندما أصابت طلقات الرصاص نوافذ زنازينهم. قال الخالدي: «مشيت من هذا السجن مع أربعين كويتياً آخرين لعشرة أيام في الصحراء والأرض الجرداء، نأكل البندورة (الطماطم) والتمر، وننام الليل في المساجد العراقية المدمّرة والأماكن المهجورة والملاجئ الخالية أو في ظلّ الدبّابات العراقية المتروكة». كانت روايته عن الجثث العراقية المتحلّلة على جانبَي الطريق والانفجار المستمرّ للذخائر المخبّأة تحت الأرض بينما كان يشقّ طريقه جنوباً مخيفة بقدر ما كانت مُقنعة. وقال: «ذات ليلة نمنا على تلّة اسمها تل اللحم وكنا نسمع انفجارات مرعبة، وكانت الأرض تتحرّك تحتنا طيلة الوقت والقذائف تسقط فوقنا. أنقذنا الله. هل تعلم ما كان شعورنا عندما وصلنا إلى الكويت، وأننا كنّا سنرى عائلاتنا مجدّدا؟ لكن كانت الحكومة الكويتية هنا وأوقفتنا. قالوا: «أنتم بدون» لذا بقينا هنا وما زلنا».

وزعمت السلطات الكويتية أن العديد من «البدون» انضمّوا إلى الجيش الشعبي العراقي بعد الاحتلال وعندما أعلنت الحكومة الكويتية في تموز/يوليو ١٩٩١ أنها ستشنق أي شخص انضمّ طوعاً إلى الوحدات العراقية غادر ثلاثة آلاف «بدون» بمن فيهم النساء والأطفال مخيّم العبدلي وعادوا إلى العراق. غير أن أكثر من ألف بقوا وجادلوا أنهم لم يساعدوا أبداً العراقيين وأن الذين سجّلوا أسماءهم مع المحتلّين فعلوا ذلك تحت الإكراه ولم يعودوا أبداً للعمل. وقال أحد البدون في العبدلي: «كانت خدعة من العراقيين تسمية هؤلاء الناس «جيش متطوعين»، كانوا أعضاء في الجيش العراقي بقدر ما كان الرهائن في العراق ضيوفاً».

كان البدون في العبدلي يحملون جميعاً أوراقهم الرسمية الكويتية وقد عرض لي رجال الشرطة بطاقات رقاقة حكومية مع صور لهم يرتدون فيها اللباس العسكري الأزرق ولم يشكّ عمّال الصليب الأحمر الذين يديرون المخيّم في صحة هذه المستندات. كان استخدام البطاقات قليلاً. وقال الخالدي: «جميعنا نريد العودة إلى بيوتنا حيث ولدنا وحيث عملنا وعشنا قبل هذه الحرب الرهيبة. ما هي جريمتنا؟؟». خلال أسره رسم الخالدي سلسلة من الصور الجميلة والحزينة عن الحياة أثناء الحرب..

كانت الصورة الأكثر إثارة للمشاعر تظهر عائلة «بدون» تدفن ابنها الشرطي الذي قُتل خلال الاحتلال على أيدي العراقيين وكان هناك طفل قرب قبر يلوّح مودّعاً باتجاه مدينة الكويت البعيدة التي يمكن التعرّف إليها من أبراجها المائية. سألني الخالدي: «أترى ما يحصل؟ البدون يمكن أن يموتوا هنا لكن لن يسمح لهم بالعيش هنا».

لكن، إذا كانت الاستعادة «الجغرافية» للكويت من قِبل حكّامها إجراء لمصلحة الحرب فإن لحرائق النفط أكثر من أثر مادّي على الأرض. كان تدمير الآبار الجريمة الأكبر التي ارتكبها صدّام في الإمارة وكان استمرار اشتعالها يعني أن الحرب لم تنته بعد. وكان عليّ الطيران فوق الآبار لأُدرك فظاعة ما حدث.. كان ممكناً من الجوّ رؤية بُحَيرات النفط، مئات الكيلومترات من الطين اللزج، وقد تحوّل بياض الرمال إلى سواد.. وبعد مئة عام سيبقى الدليل هنا للمشاهدة.. لقد تغيّر لون الصحراء لعدّة أجيال قادمة. بعد وصولي إلى الكويت على متن بوينغ ٧٠٧ لطيران الشرق الأوسط استطعت أن أدرك بشكل ملموس مدى الخراب الذي حصل. فيما كنت جالساً في الطائرة شاهدت الطيّار ينعطف بطائرته حول سحب النفط كما لو أنه يقوم باستعراض جوّي، ولكن عندما صدمنا إحدى سحب الدخان السوداء خلال اقتراب نهائي، قفزت الطائرة القديمة في الجوّ مرتعشة ومهتزّة بينما كانت تندفع بقوّة داخل الضباب الكبريتي لتتوقّف قرب الحرائق.. كانت الأرض تهتزّ تحت قدميّ وكان هدير الحرائق مهيباً وجوهرياً. كان الكويتيون أكثر من راغبين في أخذ المراسلين إلى هذه المشاهد من جرائم صدّام البيئية والاقتصادية. أردنا أن نقود سيّاراتنا خارج مدينة الكويت حيث يواجه آب/أغسطس المحرق والمذهل بحرائق ساطعة تؤذي العيون، وكانت الحرارة شديدة بحيث كنا نستدير غرائزياً كل بضع ثوان لتلطيف الجانب الأيسر أو الأيمن من وجوهنا وأيدينا. وأبلغنا محمود صومالي أن العراقيين الذين فعلوا ذلك وصلوا بعد ثلاثة أشهر من الغزو... وبينما كنا نقف قرب إحدى هذه المشاعل الهادرة والنافثة، والدخان فوقنا كثيف إلى درجة أنني لم أستطع رؤية مفكّرتي لولا وهج الحرائق الذهبية، قال: «كان رجلاً عاديّاً جدّاً،

نسيت اسمه، وكان ودوداً تجاهنا وغير عدائي على الإطلاق، تحدّث معنا كثيراً وشرب القهوة معنا في كافيتريا الأحمدي. قال إنه مسلم مؤمن ويذهب كل جمعة إلى المسجد. لكنه وضع بعدها الألغام تحت الآبار وقال لنا إن هذا واجبه وعليه القيام به».

هل كانت هذه تفاهة الشرّ، هذا الرجل ذو الاسم المنسيّ، (كان موظفاً في شركة النفط العراقية حسبما يعتقد معظم الكويتيين في الأحمدي الآن) ارتكب بطاعته ومهنيّته ما يمكن تصنيفه بجريمة حرب، وبكارثة بيئية أيضاً؟؟ لهذا لا ينبغي أن ننكر حرفيّته. فمن أصل ٩٤٠ أو أكثر من الآبار المنتجة، كان هو مَن وضع ألغاماً في ٧٣٢ بئراً، محوّلاً ٦٤٠ منها إلى بُحيرات نار. وبإمكانك أن تقف قرب بِرك حقل برقان النفطي حتى اليوم ـ أي بعد أكثر من خمسة أشهر على مغادرة شارب القهوة العراقي بمهرجانه الديني ـ ولا تملك إلا التعجّب من آثار عمله.

كانت العبارات المبتذلة قد استُنزفت منذ وقت طويل: حرائق جهنّم، ظلام في وضح النهار، كلّها كانت تحوي عنصر حقيقة. عبر البُحيرات السوداء التي تعكس النور البنّي الذهبي للحرائق، كانت سحب الدخان ـ التي حجبت الشمس فغدت مجرّد نقطة من النور الأصفر الباهت مباشرة فوقنا ـ مخيفة بقدر هدير الآبار المحترقة. سجّلت في برقان هذه الملاحظات في مفكّرتي، إلى أن أدركت أن الصفحات أصبحت مبقّعة وتحوّلت إلى مادّة بنّية لزجة التصقت بملابسنا وآذاننا وشعورنا. كنا نتنشّق نفطاً خاماً، وسعلنا لعدّة ساعات بعدها. عندها اتضح الأمر لي: لقد استخدم صدّام الحرب الكيميائية.

ماذا كانت في كل الأحوال بضع قذائف من الغاز السامّ مقارنة مع مليونَيْ طنّ من ديوكسيد الكربون وخمسة آلاف طنّ من السخام تنطلق في الجوّ فوق الكويت كل يوم، وتنساب بلطف مثل تابون Tabun أو سارين Sarin عبر الخليج؟ كان الجميع شاهداً.. كانت هناك ابنة صومالي مصابة بالربو وكان عليه إحضار تكييف لحماية رئتيها كلّما تغيّرت الريح.. وفي مقرّ إدارة الأحمدي، وصل فريق حفر إيراني لمساعدة الكويتيين على إطفاء الحرائق.. كانوا جدّيين،

ملتحين، ومصدومين بشكل ظاهر لأنهم على ما يبدو لم يشهدوا من قبل أي شيء بهذا المستوى ، حتى خلال الثماني سنوات من التدمير العراقي في داخل بلدهم.

قال هومايون موتيه لي (وهو مهندس تنقيب من شركة النفط الوطنية الإيرانية): «بالتأكيد هذه كارثة بيئية، جئت من الأهواز وقد غطّانا هذا الدخان حتى هناك... لقد بلغ التلوّث من هذه الحرائق سماء جنوب إيران. هل تدرك أن هناك سخاماً فوق جبال زاغروس على بعد ألف كيلومتر؟. لقد شاهدت ذلك هناك.... إنه يرقد في طبقات تحت الثلج ويتجمّد طبقة فوق طبقة».... لاحقاً بعد أن انكفأ الغزو العراقي، وصمَ الأميريكيون والإنكليز إيران بالأوصاف الخطرة نفسها التي استخدموها لوصف العراق (جزئياً، لإقناع العرب بشراء أسلحة إضافية) وتمّ تحديد إيران على أنها المعتدي التالي، أو التهديد التالي لدول الخليج العربي كما كانت إبّان الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩.

وسيتمّ تناسي عمل هومايون موتيه ورجاله...

إذا وقفت تراقب نوافير النفط المحترق والحرائق المنتشرة عبر البرك، فإنك لا تستطيع تجنّب الاعتقاد بأن حرب الخليج لم تنته بعد، وبأن صدّام لم يكن ينوي إنهاءها عندما طُرد من الكويت. كانت الإحصائيات تتبدّل كل يوم، لكن مع حلول ٥ آب/أغسطس استطاعت ثلاث فرق أميريكية ووحدة كندية لمكافحة الحرائق محاصرة ٢٧٤ بئراً محترقة والسيطرة عليها وذلك من أصل ٦٤٠ معظمها آبار ضخمة في برقان (وعددها ٤٢٦ بئراً) ومقوى (١٤٨ بئراً) والأحمدي (٨٩ بئراً). كانوا يلقون أطناناً من مياه البحر على الحرائق مستخدمين أنابيب النفط الأصلية لضخّ الماء في الحقول لتبريد الفحم الشديد الحرارة الذي تشكّل حول ألسنة اللهب. وكانت الكمّية التي تستطيع الكويت تصديرها من النفط كل يوم ١١٥ ألف برميل معظمها من حقل مقوى. وحتى الآن فإن هناك أكثر من ٦٠ مليون برميل من الغاز والنفط (من أصل ١١٠ ملايين برميل يومياً) ما زالت تحترق يومياً وقد تحوّلت إلى موادّ كيميائية تسمّم الأرض والبحار حتى جبال الهملايا شرقاً. قال محمود صومالي الذي كان طيلة ٢٢ عاماً يعمل في قسم التنقيب في شركة نفط الكويت ولم تكن لديه أوهام حول ما حصل:

«عندما وصل العراقيون إلى هنا في الأسبوع الأوّل للاحتلال وصل أيضاً جنود وعدد كبير من التقنيين المدنيين العراقيين». لم يسمح لنا الجنود بالذهاب إلى حقول النفط. وكان التقنيون يريدون البدء بتصدير النفط مجدّداً، وأبلغونا أن علينا زيادة الإنتاج. كانوا يريدون تصدير النفط الكويتي وذلك قبل العقوبات. وفي أحد الأيام، بعد أن قرّر مجلس الأمن العقوبات، حصل عندنا توقّف مفاجئ للنفط وأخذني الجنود إلى الحقل لإصلاح العُطل. وعندما وصلت إلى هناك، شاهدت فوراً سلسلة من الأسلاك البيضاء ممدودة حتى الآبار. كانوا محترفين. وكانت الأسلاك ممدودة تحت المضخّات الرئيسية بحيث إذا أرادوا تفجيرها لا نستطيع إغلاقها. وهذا ما حصل. بعد ثلاثة أشهر، جاء العراقي الذي كان مسؤولاً عن الألغام وهو الذي وضع المتفجّرات تحت الآبار منذ البداية. كان العراقيون يفكّرون في تدمير نفطنا». كان لدى صومالي شكوك قليلة في أن أبرياء سيموتون في كل ذلك (من التسمّم الكيميائي، من السرطان) ليس فقط في الكويت ولكن أيضاً في إيران وأفغانستان وباكستان. قال رغم الظلمة في برقان: «من المؤكّد أنهم سيموتون، لكن من سيتحمّل المسؤولية؟ صدّام؟».

أعلن الكويتيون أنهم يصدّرون الآن ١١٥ ألف برميل يومياً، وهي كمّية ترتفع إلى ٢٠٠ ألف برميل إذا أضفت النفط المستخرج من المنطقة المحايدة. إذا أمكن إطفاء الحرائق في حقول مقوى والأحمدي في نهاية آب/أغسطس، تستطيع الإمارة إنتاج نصف مليون برميل يومياً في نهاية عام ١٩٩٢. ولكنه نصر فريد، لا يضاهي حصّة الكويت من الأوبك قبل الغزو والتي كانت ١,٥ ملايين برميل يومياً، وهو أقلّ بكثير من إنتاجها الذي تجاوز مليونيْ برميل يومياً والذي دفع صدّام لغزو الكويت. وللدفاع عن هذا المصدر المتجدّد للثروة، أصبحت الولايات المتّحدة مُجبرة الآن على إبقاء فرقة مقاتلة في الكويت الأمر الذي يفسّر لماذا كانت دبّابات M1A1 الأميركية التي كنت شاهدتها قبل خمسة أشهر على مرتفع متلة، ما تزال تقوم بدوريّات على الخطّ السريع إلى العراق.

رغم الاحتمال القوي بأن القوّة الجوّية الأميركية ستبقى في الخليج فإنه لم يكن هناك غيرهم للدفاع عن الكويت. وعندما قرّر السعوديون أنهم لم يعودوا

في حاجة إلى القوّات المصرية والسورية على أرضهم، انهار كل البنيان المقترح لقوّة أمن عربية خليجية ... ولم يعد باستطاعة الكويتيين تأمين الدفاع عن الإمارة الآن كما كان الأمر قبل عام. غير أننا في هذه الذكرى الأليمة، تشجّعنا للنظر إلى مكان آخر، إلى مؤتمر السلام في مدريد الذي قيل إنه سينهي صراع الشرق الأوسط إلى الأبد. هنا أخيراً، أوحي إلينا أننا سنشهد الثمار الحقيقية للحرب بشرط أن ننسى ما عنته الحرب حالياً، أي إذا استطعنا تجاهل عشرات الألوف من الشيعة الذين وضعوا أمام فِرق الإعدام عند صدّام، والمأساة الملحمية للأكراد. وإذا استطعنا القبول بأن النظام العالمي الجديد كان هو نفسه النظام العالمي القديم تقريباً ولكن بصيغة مهذّبة، عندها ربّما نستطيع الإيمان بالمستحيل.

بمعنى ما، سيكون مؤتمر السلام (أو أكثر من ذلك وبشكل مباشر: تسوية سلميّة) عملية إعادة اعتبار للحدود المرسومة بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ مع إقامة الدولة الأصلية لإسرائيل والتي رُسِمت عام ١٩٤٨. سيكون الأمر عبارة عن عودة إلى حدود مقبولة. إذاً، يتعلّق الأمر بالنظام العالمي القديم. وهذا هو ما ترتكز عليه جذور السياسات الغربية في الشرق الأوسط. كان علينا إدراك ذلك عندما سمح الأميركيون بسحق معارضي صدّام المحلّيين. ففي مواجهة خيار السماح بتجزئة العراق أو السماح لشعب العراق بإعادة رسم خريطته في هذا الجزء من الشرق الأوسط، فضّل الغرب صدّاماً حسن التصرّف أو على الأقلّ غير مؤذٍ عالمياً.

هذا ما كان يجب على حرب الخليج ١٩٩١ تلقيننا إيّاه: إن الغرب هو مَن يقرّر مستقبل المنطقة أكان ذلك بطريقة لطيفة أم كارثية لا فرق، تماماً كما فعلت القوى الغربية العظمى منذ أكثر من سبعين عاماً. وسوف يدفع الزعماء المحلّيون الذين خرجوا عن السيطرة بمَن فيهم صدّام الثمن حتى لو كان على المستوى الشخصي أقلّ رُعباً من مصير الذين يرقدون في المقابر الجماعية في مرتفع متلة.

أمام هذا الأفق المخيف، بدت معاناة الكويت المستمرّة وطلبها عودة ٨٥٠

مواطناً مفقوداً ظلّوا أسرى في العراق، ضئيلة وحتى في غير موضعها. لكن قضية المفقودين إضافة إلى رؤية هؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا في حالات عديدة قد خطفوا من قِبل العراقيين في الساعات الأخيرة للاحتلال، ستكون تجربة موجعة لآلاف الكويتيين في السنوات القادمة. عليك فقط زيارة مبنى الرياضة حيث أنشأت «اللجنة الكويتية للمفقودين وشؤون أسرى الحرب» مقرّها في ضاحية سلمان الصباح لتفهم ما يجري.

كانت القاعة مليئة بالصمت والصور. كان بعضها صوراً فوتوغرافية لشباب يرتدون دشاديش بيضاء أو بنّية وأخرى لطلّاب مبتسمين تخرّجوا في المعاهد الأميركية. وعلى الجدران صور ضبّاط في الشرطة وجنود وأطبّاء وأطفال ونساء محجّبات، ولقطات فوتوغرافية معاد تصويرها أو مأخوذة لكويتيين في حفلات أو أفراح أو أعياد ميلاد يبتسمون مع كل الغنى والثقة المفرطة قبل اجتياح الكويت. لا أحد يتمنّى أن يُقسَم أصحاب هذه الصور بين حي وميت مع أن معظمهم موجود منذ فترة في مقابر جماعية... ومع مرور السنين، أصبحت هذه النفوس (٨٥٠ مفقوداً) جزءاً من مبرّر وجود الكويت ودليلاً على مصابها وإحصاءً حيوياً يساعد على تحويل انتباه العالم عن حياة البؤس الجديدة التي يعيشها العراقيون الآن إلى الشمال من الحدود. كانت محنتهم مزيّنة على شكل إعلان أولمبي على الجسم المستعاد للطيران الوطني للكويت. كان إعلان «أعيدوا أسرانا الـ ٨٥٠» مطبوعاً على زاوية كل باب طائرة ركّاب. وما ٨٥٠ كويتياً مفقوداً مقارنة مع مئة ألف عراقي قتيل؟ يردّ الكويتيون بتهذيب إن العراقيين كانوا غُزاة بينما الـ ٨٥٠ مفقوداً كانوا ضحايا بريئة للعدوان.

في أواسط التسعينيّات، تعدّت فظائع البوسنة، وكذلك الذبح والاغتصاب الجماعي للمسلمين في يوغوسلافيا القديمة، معاناة الكويت تحت الاحتلال العراقي. وقد بدّد عمل الكويت في التطهير العِرقي (طرد ٣٦٠ ألف فلسطيني من بيوتهم بعد التحرير) الكثير من التعاطف الدولي مع عائلات الكويتيين الذين أُخذوا بالشاحنات إلى السجن في البصرة وبغداد والناصرية والسماوة.

اعترف الجنرال شوارزكوف في مذكّراته بأن عودة الأسرى المدنيين الكويتيين من العراق كان أحد شروط وقف إطلاق النار إلّا أن جنرالات صدّام حسين رفضوا مناقشته ربّما لأنهم كانوا يعرفون أن معظمهم قد مات أصلاً.

إذا نظرنا اليوم إلى رواية الجنرال شوارزكوف حول هؤلاء المئات من المدنيين نجد أنها قصّة دبلوماسية ضعيفة إلى حدود مؤلمة من جانب الحلفاء المنتصرين. وقد كتب شوارزكوف في روايته حول مفاوضات وقف إطلاق النار في شباط/فبراير ١٩٩١: «توصّلنا إلى الحصول على تأكيد من جنرال عراقي بأن أي شخص جاء إلى العراق منذ غزو الكويت لديه الحرية في التقدّم إلى الصليب الأحمر أو الرحيل إذا أراد».

في الحقيقة، لم تتلقّ لجنة الصليب الأحمر الدولي أيّ اتصال من كويتيين في بغداد أو في مكتبها في ضاحية البصرة. كان هناك اهتمام كبير بنحو ٦٥٠ أو أكثر من المدنيين (بينهم ٣٠ امرأة) المعروف أنهم اعتقلوا في الكويت خلال الاحتلال والذين شوهدوا لاحقاً في سجون داخل العراق... وقد رأى العديد من الكويتيين الذين أُخذوا رهائن في الأيام الأخيرة للحكم العراقي هؤلاء المدنيين في سجونهم العراقية، وذلك قبل فترة قصيرة من تحريرهم وعودتهم إلى الكويت. . وكان هذا بحدّ ذاته دليلاً رئيسياً على أن الرجال والنساء المفقودين ما زالوا أحياء.

لكن منذ شباط/فبراير ١٩٩١، لم يكن هناك أي كلام مباشر عنهم أو رسائل مكتوبة منهم، أو وصول الصليب الأحمر إلى سجونهم، سوى الدليل الافتراضي القديم بأن الكويتيين ما زالوا أحياء في السجون العراقية..

رأى مصريّان على سبيل المثال سميرة (لم يُذكر اسم عائلتها حفاظاً على أمنها) في أول آب/أغسطس ١٩٩١ تعمل مع نساء أُخريات من أسرى الحرب في بغداد. وقد طلبت منهما إبلاغ والدتها أنها ما زالت على قيد الحياة و أنها تعمل في التنظيفات في مستشفى السعدي وتعيش في سجن الكاظمية الذي يديره

عُديّ حسين، ابن الرئيس. هذا كل ما قالته للمصريِّيْن، رسالة سلّماها بأمانة إلى السلطات الكويتية.. هذه الأسيرة ذات الـ ٢٩ عاماً تُظهرها الصورة الفوتوغرافية في ملفّها امرأة جميلة شعرها كستنائي وعيناها لامعتان وقد شوهدت مرّة واحدة فقط قبل يوم ١٥ آذار/مارس ١٩٩١ عندما وجهّت الرسالة نفسها. بعدها كان الصمت المطبق.

استمدّ الكويتيون قوّة الصبر من الأسرى الإيرانيين وعددهم ٢٠٠٠ الذين اعتقدت إيران أنهم أموات ثم ظهروا أحياء في سجون صدّام بعد انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية عام ١٩٨٨. أحبّ صدّام الرهائن.. هكذا فكرّوا وحلّلوا.. وقد عرف كيف يستخدمهم. فهو اعتقل آلاف الغربيين بعد غزوه الكويت عام ١٩٩٠، لكن لم يكن للسجناء الكويتيين أهمّية عنده... ولم يُشاهَد أيّ من هؤلاء الأسرى الرجال أو النساء (الـ ٨٥٠) ولا حتى سميرة، حيّاً بعد. وقد عرف الكويتيون السبب بعد الغزو الأنغلو ـ أميركي عام ٢٠٠٣.. فمن بين آلاف الجثث التي نُبشت من أماكن الإعدام في الصحراء غرب الحلّة وجدت ١٢ جثة لرجال يحملون الجنسيّة الكويتية.. وهكذا فإن لدى الكويت اليوم أسماء أكثر لتضيفها إلى لائحة شهداء الحرب: إنه عدد صغير ربّما لكنه دليل إضافي على أن العرب يموتون بيد العرب.

ولكن، إلى الشمال من الحدود، هناك الآن أرض قاحلة من البؤس والخوف والهزيمة.. لقد قُصفت محطّات الطاقة الكهربائية ومحطّات تكرير المياه، وتحطّمت أنظمة تكرير المياه بفعل تفجيرات الحلفاء، وكانت المجارير تتدفّق في الشوارع وفي البيوت. وقد شاهد الصحفيون الغربيون الذين أُخذوا بالهيليكوبتر للقيام بجولة فوق جنوب العراق الآلاف من تحصينات الدبّابات والخنادق وكلّها مغطاة الآن بالعشب والرمال، فقد استنزف الجيش العراقي طاقاته في سحق الانتفاضة، وفي الحفاظ على النظام.. إن تهديد الجيران لم يعد بعد الآن خياراً ممكناً. كان العراق مهزوماً وشعبه خاضعاً لعقوبات الأمم المتّحدة التي كانت تهدف أوّلاً إلى إقناع صدّام بالانسحاب من الكويت دون قتال ومن ثم إلى تدمير نظامه (لم يتحقّق أيّ من الهدفين)، كان العراق يوشك

على السير في رحلة موت جماعي بطيء أمست أكثر رعباً وأكثر خِزياً لأن هذه العقوبات فرضتها الدول التي تعتبر نفسها الأكثر تحضّراً على الأرض.

كان الشيعة في جنوب العراق يعيشون في خطر مُميت على حياتهم، وكانت جُثث أولادهم وأزواجهم وأخوتهم في أماكن الإعدامات حول الحلّة والناصرية. كان المسجد الكبير المطليّ بالذهب (مسجد الإمام علي في النجف) مدمّراً جزئياً، وقُبب الرخام الزرقاء التي عمرها عدة قرون تنتشر على شكل أكوام حول المقام: تذكارات للصحفيين المارّين، ولحرس صدّام الجمهوري الذين شقّوا طريقهم إلى داخل الأماكن المقدّسة لدى المسلمين الشيعة لقتل الثوّار الذين التجأوا إلى هناك.. بعد ١٢ سنة، كان الثوّار الشيعة في بعض الحالات هم أنفسهم الرجال الذين قاتلوا قتلة صدّام عام ١٩٩١، وكانوا يختبئون في المقام نفسه، هذه المرّة هرباً من نيران دبّابة أميركية.. إلى الشمال كان الأكراد يعيشون الآن تحت الحماية البريطانية والأميركية، رغم إبادة المئات من قراهم بالغاز والتي دمّرت بعد ذلك بشكل منظّم بأوامر من صدّام.. لقد أُخمِد التمرّد الشيعي، وأُخمِد التمرّد الكردي... ولاحقاً، بعد وقت طويل، عندما أتينا لتدمير صدّام كنا نتوقّع منهم أن يكونوا شاكرين لنا... لكنهم كانوا يتذكرون.

إن العقوبات التي خنقت العراق حوالى ١٣ سنة قد نالت إلى حدّ كبير من رواية مغامراتنا الشرق أوسطية. فقد طوى غزونا للعراق عام ٢٠٠٣ أو هذا ما تمنّيناه، صفحة معاملتنا للشعب العراقي قبل ذلك التاريخ... وأزيلت وصمة العار المرتبطة بسجن شعب بكامله وبإضعافه المستمرّ وبالموت تحت نظام عقوبات الأمم المتحدة... وعندما استقرّ المحتلّون الأميركيون والإنكليز داخل قصورهم في بغداد، وضعوا اللوم على صدّام حسين في تدمير الطاقة الكهربائية ومحطّات ضخّ المياه والمصانع والحياة الاقتصادية كما لو أنه وحده خطّط لإفقار العراق.. لم تُذكر العقوبات أبداً، فقد أصبحت أشباحاً خارج القصّة... أوّلاً كان هناك صدّام ومن ثمّ «الحرية».

وبالطبع، عندما فُرضت العقوبات للمرّة الأولى بعد غزو العراق للكويت، كان هناك احتجاج ضئيل... فلو أنهم كانوا يستطيعون إكراه صدّام على

الانسحاب من الكويت دون الحاجة إلى الحرب فإن القليلين كانوا سينتقدونهم... بالإضافة إلى أن محطّات الطاقة العراقية كانت لا تزال تعمل قبل تحرير الكويت بالطاقة الكاملة.. وكان اقتصاده، رغم اضطرابه نتيجة لثماني سنوات من الحرب مع إيران، لا يزال قادراً على تزويد العراقيين بأعلى مستويات العيش في العالم العربي. لقد تمّ إدخال نظام الحصص إلى العراق في أيلول/سبتمبر ١٩٩٠... غير أن معظم الغربيين، وكذلك معظم العرب، افترضوا أنه عندما ينسحب صدّام من الكويت، وإن شاء الله قبل حصول أي عمل عسكري، فإن هذه العقوبات سترفع.. وكما يحدث غالباً في الشرق الأوسط، فإن أي قرار يبدو لطيفاً في البداية قبل أن يتحوّل بسرعة إلى سلاح أكثر فتكاً من الصواريخ أو القذائف.

صدر قرار مجلس الأمن رقم ٦٦١ يوم ٦ آب/أغسطس ١٩٩٠، وما كادت تمضي أربعة أيام على عبور جيش صدّام حدود الكويت، داعياً كل الدول إلى حظر استيراد كل البضائع والمنتجات التي يعود منشأها للعراق أو للكويت ومنع تزويد العراق بكل البضائع باستثناء البضائع المتعلّقة مباشرة بالأمور الطبّية وبالأمور الإنسانية «موادّ غذائية». في المقابل كان من الواضح أن الولايات المتحدة لا تعتقد البتّة بأن هذه العقوبات الليّنة بالمقارنة مع إجراءات ما بعد الحرب، سوف تقنع صدّام بسحب قوّاته من الكويت، وكما سوف تدّعي أميركا وبريطانيا بعد ١٢ سنة فإن مفتّشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة لم يستطيعوا في ذلك الحين إنهاء عملهم قبل غزو ٢٠٠٣.. لذا تخلّى الأميركيون عن نظام العقوبات عندما تمركزت قوّاتهم لتحرير الكويت.. واستنتجت مؤسّسة واشنطن لسياسة الشرق الأدنى قبل نهاية ١٩٩٠، أنه لا يمكن الاعتماد على العقوبات للوصول إلى نتيجة مؤكّدة. وفي ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٩١، كان وزير الخارجية البريطاني دوغلاس هيرد يعلن أن بريطانيا مصمّمة على القتال من أجل الكويت لأنه ليس لعقوبات الأمم المتحدة تأثير فعّال على قدرة صدّام على شنّ حرب.. وبعد الحرب فقط قامت الولايات المتحدة بتوضيح أن العقوبات لن تُرفع حتى رحيل صدّام حسين. وصرّحت الناطقة باسم البيت الأبيض مارلين فيتزواتر أن العقوبات ستبقى حتى يحصل تغيير في الحكم في

العراق. لكن تأثير العقوبات كان الآن قد أصبح كارثياً.. عام ١٩٩١، أضعف الحلفاء محطّات الطاقة وقاموا عن عمد بقصف محطّات المياه وشبكات الصرف الصحّي، وهذا قرار سيؤدّي إلى كارثة إنسانية بين المدنيين في العراق.. وقد أعلن فريق من المحامين ومن الاختصاصيين في الصحّة العامّة من هارفرد بعد زيارتهم ٤٦ مستشفى عراقياً و٢٨ محطة مياه وصرف صحّي عام ١٩٩١: أن عدد الموتى من الأطفال تحت سنّ الخامسة في العراق وصل إلى خمسة أضعاف وأن مليون طفل تقريباً لا يتغذّون جيّداً ومئة ألف يموتون من الجوع. وقد وجدت دراستهم أن ٤٦٧٠٠ طفل تحت سنّ الخامسة ماتوا من التأثيرات المشتركة للحرب والعقوبات الاقتصادية في الأشهر السبعة الأولى من عام ١٩٩١.

وفيما بدأ يتزايد عدد العراقيين الذين يموتون ليس فقط بسبب المياه المكرهين على شربها من محطّات المياه المتضرّرة بالقنابل ولكن بسبب منعهم بشكل متزايد من الحصول على الأدوية التي يحتاجون إليها للشفاء، قامت لجنة من الأمم المتّحدة بإعادة ترسيم الحدود الجنوبية للبلاد لحرمانها من جزء من حقول النفط الرملية ومن القاعدة البحرية في أمّ القصر، وهي المنفذ الوحيد للعراق على مياه الخليج. وقد جرى ضمّ الأراضي المصادرة إلى الكويت... وأصرّ الزعماء الغربيون على أن باستطاعة صدّام حسين استخدام موارد العراق الذاتية لدفع قيمة المساعدات الإنسانية متجاهلين عن قصد أن ودائع العراق المالية محجوزة وأن مبيعاته النفطية ممنوعة... وفي نهاية العام ١٩٩٤، وصل التضخّم المالي العراقي إلى ٢٤٠٠٠ في المئة سنوياً، وأصبح معظم السكّان محتاجين.. وفي شوارع بغداد، كانت الطبقات الوسطى أيضاً تعرض مكتباتها للبيع من أجل المال اللازم لشراء الطعام. وانتهت مجلّدات الفكر الإسلامي، وكتب شكسبير بالإنكليزية، والأطروحات الطبيّة والأكاديمية حول الهندسة العربية إلى أرصفة شارع المتنبّي في بغداد.

مع حلول العام ١٩٩٦، كانت التقديرات أن نصف مليون طفل ماتوا نتيجة العقوبات. وقامت مادلين أولبرايت التي كانت مندوبة الولايات المتّحدة في

الأمم المتّحدة بالإدلاء بردّ مقيت يوم ١٢ أيار/مايو من ذلك العام عندما سُئلت عن العقوبات في برنامج سي. بي. أس CBS الإخباري ستون دقيقة.. يومها سأل أنغور لسلي ستاهل السيدة أولبرايت: «إننا سمعنا بموت نصف مليون طفل، أعني أن عدد الأطفال الذين ماتوا أكثر من عدد قتلى هيروشيما، هل الثمن يساوي هذا؟» وأجابت أولبرايت: «أعتقد أن هذا الخيار صعب لكنّ الثمن يساوي هذا!!!!». وفي آذار/مارس ١٩٩٧، أصبحت أولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية وقد صرّحت باستحالة إنهاء العقوبات. «نحن لا نوافق الدول التي تقول بأنه يجب رفع العقوبات في حال التزم العراق بتعهّداته المتعلّقة بأسلحة الدمار الشامل. إن وجهة نظرنا التي لا تتبدّل هي أنه يجب على العراق إثبات نواياه السليمة. وهناك كمّ من الأدلّة على أن نوايا صدّام حسين لن تكون أبداً سليمة».

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٦، قدّر فيليب هيفنينك ممثّل صندوق رعاية الأطفال التابع للأمم المتّحدة في العراق «أن حوالي ٤٥٠٠ طفل تحت سنّ الخامسة يموتون كل شهر من الجوع والمرض». بعد عام، توصّلت دراسة مشتركة بين الأمم المتّحدة وبرنامج الغذاء العالمي إلى استنتاج «أن العقوبات أضعفت بشكل كبير قدرة العراق في الحصول على العملات الأجنبية التي يحتاج إليها لاستيراد كمّيات كافية من الطعام لتلبية احتياجاته»... في ٢٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٧، قدّمت اليونيسيف تقريراً جاء فيه أن ٣٢ في المئة من الأطفال تحت سنّ الخامسة، أي حوالي ٩٦٠ ألف طفل، لا يأكلون بشكل جيّد، وقد زادت النسبة إلى ٧٢ في المئة عام ١٩٩١، وأن حوالي ربع الأطفال هم تحت معدّل الوزن الطبيعي، أي أعلى مرّتين من النسب الموجودة في الأردنّ وتركيا المجاورتين.

وطيلة هذه الفترة تغيّرت أسباب العقوبات أو الشروط التي يجب تلبيتها لرفعها، كما جرى تمديدها. وكان على صدّام السماح لمفتّشي لجنة الأمم المتّحدة الخاصّة بمراقبة الأسلحة بالقيام بعملهم بحرّية، ووقف التعدّي على حقوق الإنسان وتحرير الأسرى الكويتيين ووقف تعذيب شعبه والاعتراف بسيادة

الكويت ودفع خسائر الحرب وسحب بطّاريات الصواريخ من منطقة الحظر الجوّي المحدّدة من الأمم المتحدة... إذا أخذنا هذه المطالب بشكل فردي لا نجد فيها ما يُشين.. أما لو أُخذت جُملة فإنها كانت تهدف إلى التأكيد على أن نظام العقوبات مستمرّ إلى ما لا نهاية.. في كانون الثاني/يناير ١٩٩٨، كان البابا يتحدّث عن الحصار القاسي المفروض على العراقيين، مضيفاً «إن الضعيف والبريء لا يستطيع دفع ثمن أخطاء ليس مسؤولاً عنها». وبدأ المسؤولون الأميركيون بالتحذير من أن العقوبات سوف تبقى إلى الأبد إلّا إذا وافق صدّام على المطالب الأميركية.

وأشار المتحدّثون والمتحدثات الأميركيون تكراراً إلى أن صدّام حسين نجح في التهرّب من تأثيرات العقوبات.. وظهرت أولبرايت في الأمم المتّحدة ومعها صور التقطتها الأقمار الصناعية لمجمّعات سكنية ضخمة في العراق قالت إنها صور لبناء قصور جديدة لصدّام حسين.. كانت صادقة في قولها ولكن مخطئة في استنتاجاتها. ففي حال كان صدّام قد نجح في تجنّب تأثير عقوبات الأمم المتّحدة على نظامه فإن هذه العقوبات تكون قد فشلت بشكل واضح في تحقيق هدفها.. عام ١٩٩٨ أصبح هاجس وزير الخارجية البريطاني روبين كوك هو قيام النظام العراقي بشراء معدّات شفط الشحم، الأمر الذي يعتبر دليلاً إضافياً على فشل العقوبات، في حال تأكّدت صحّته. وهو أعلن مراراً أن العراق يستطيع بيع ما قيمته ١٠ مليارات دولار من النفط سنوياً لدفع ثمن الطعام والدواء والاحتياجات الأخرى الإنسانية... لكن بما أن أكثر من ٣٠ في المئة من عائدات النفط كانت تذهب إلى صندوق التعويضات ومصاريف الأمم المتّحدة في العراق، فإن تصريحه كان خاطئاً.

وقد وجد صدّام حسين الآن قضية مشتركة مع أميركا.. فبقدر ما كانت الأخيرة بحاجة إلى إثبات أن صدّام زاد من معاناة شعبه فيما كان يبني معابد لعظمته، كان صدّام بحاجة إلى أن يظهر أمام العالم، وبخاصّة العرب، كم كانت وحشية الأميركيين في تحطيم أهالي العراق الأبرياء... لقد كان ذلك رواية وجدت تأثيراً قوياً عند أحد أعدائه العرب: أُسامة بن لادن، الذي عبّر بشكل

دائم عن تعاطفه (وقد فعل ذلك في إحدى مقابلاته معي) مع الشعب العراقي المعاني في ظلّ العقوبات الموحاة أميركياً.. إن أولئك الذين زاروا العالم الرمادي المحتضر الذي كان عليه العراق خلال تلك السنوات المرعبة، كانوا أحياناً، بقدر ما كنا نحن أيضاً، غاضبين من استخدام الحكومة العراقية للمعاناة التي شهدناها. ففي كل صباح، كان مفكّرو وزارة الإعلام يستحثّون الصحفيين الأجانب لمشاهدة التظاهرات العفوية التي يقوم بها المدنيون العراقيون ضدّ العقوبات. كان الرجال والنساء يجوبون الشوارع حاملين التوابيت التي كانت تحتوي بحسب زعمهم جثث أولادهم الذين ماتوا من المرض وسوء التغذية. وعندما كنا نطلب رؤية ما بداخل الصناديق الخشبية كانوا يبلغوننا أن الاحتجاج رمزي وأن التوابيت تمثّل الموتى فقط... غير أن الموتى كانوا حقيقيين.. كانت أنهار المجاري التي تجري الآن بشكل سيّىء في المناطق الأكثر اكتظاظاً من ضواحي بغداد دليلاً على انهيار الخدمات الاجتماعية الأساسية. وجاءت تقارير من المناطق الريفية تقول إن العراقيين كانوا يأكلون العشب للبقاء على قيد الحياة.

إذن لماذا فرض الأميركيون والبريطانيون وأصدقاؤهم الآخرون نظام العقوبات البغيضة على العراق؟ لقد توصّل الكثيرون من عمّال الإغاثة الغربيين وموظفو الأمم المتّحدة في بغداد إلى استنتاجاتهم الخاصّة.. كانت مارغريت حسن، البريطانية المتزوّجة بعراقي، والتي كانت تدير مكتب كَير Care في بغداد، مستاءة من هول المأساة التي كانت تناضل للتعامل معها. قالت: «يريدون منا التمرّد ضدّ صدّام، يعتقدون أننا محطّمون لدرجة أننا سنفعل أي شيء، حتى التضحية بأرواحنا، للتخلّص من صدّام... لقد فشلت الانتفاضة ضد حزب البعث عام ١٩٩١، لذا فإنهم يستخدمون الآن أساليب أكثر قذارة. لكنهم مخطئون.. لقد تحوّل هؤلاء الناس إلى فقراء وهم يعيشون على القذارة... وعندما لا يكون لديك مال أو طعام فإنك لا تهتمّ بالديمقراطية أو بمن هم حكّامك».

كانت مارغريت حسن على حقّ ... أبلغ أحد مخطّطي القوّة الجوّية الواشنطن بوست عام ١٩٩١: «الخطة الأساسية هي أننا أردنا جعل الشعب

يفهم الآتي: تخلّصوا من هذا الرجل وستكونون أكثر من سعداء لمساعدتكم في إعادة البناء. لن نتسامح مع صدّام حسين ونظامه. قوموا بذلك وسنصلح الكهرباء». قبل فترة من تحرير الكويت عام ١٩٩١، وصف مستند لوكالة الاستخبارات العسكرية الأميركية النتائج المحتملة لتدمير محطّات الطاقة واستمرار العقوبات الاقتصادية: «من دون موارد محلّية تسمح باستبدال قطع معالجة المياه والحصول على بعض الكيميائيات الضرورية، فإن العراقَ سوف يستمرّ في المراوغة والاحتيال على عقوبات الأمم المتّحدة لاستيراد هذه الاحتياجات الضرورية. وإن الفشل في تأمين هذه الإمدادات سينتج منه نقص في مياه الشرب لمعظم السكان». بعبارة أخرى، كانت الولايات المتّحدة وبريطانيا وأعضاء آخرون في مجلس الأمن مدركين جيّداً أن النتيجة الرئيسيّة لعمليّة القصف والعقوبات ستكون الانهيار الجسدي والمرض والموت للمدنيين العراقيين. إن وصف ذلك بالحرب البيولوجية قد يكون أقرب إلى الصواب.. إن الطبيعة الحقيقية لحرب ١٩٩١ في الخليج ستصبح الآن أكثر وضوحاً بالنسبة إلى المدنيين العراقيين: أقصف الآن، ولتمت لاحقاً..

قبل فترة قصيرة من عيد الميلاد ١٩٩٧ حصل دنيس هاليداي، الإيرلندي الملتحي والأصلع الذي كان يرأس برنامج الأمم المتّحدة «النفط مقابل الغذاء»، على دليل شخصي ومحزن جدّاً لما يعني ذلك.. لقد قام بزيارة إلى أربعة أطفال عراقيين يعانون من فقر الدم في المركز الطبّي لصدّام حسين. أبلغني هاليداي في مكتبه الضيّق في بغداد، المغطاة جدرانه بسجّاد عربي رخيص: «قال لي الأطبّاء إنهم لم يستطيعوا الحصول على أدوية لمعالجتهم.. وقد اشتركت معهم أنا وزميل لي في منظّمة الصحّة العالمية حتى استطعنا تأمين الأدوية التي يحتاجون إليها، بعضها من الأردنّ والبعض الآخر من العراق، ممّا يعني أنها هُرّبت حتماً من تركيا. ثم عدت ليلة الميلاد لأتفقّد الأطفال في جناحهم، كان اثنان منهم قد ماتا».

كان هاليداي يتألّم أصلاً جرّاء وظيفة توزيع الطعام والدواء لـ ٢٣ مليون عراقي جميعهم معاقبون وبعضهم يموت بسبب ظروف المستشفيات الفظيعة نتيجة

لجرائم صدّام. في الوقت نفسه وفيما كان يسعى لتأمين الأدوية للأطفال كتب هاليداي الذي كان على وشك الاستقالة رسالة جافّة إلى الأمين العام للأمم المتّحدة كوفي أنان يشتكي فيها من أن ما تقوم به الأمم المتّحدة في العراق يسبّب معاناة لا توصف للأبرياء. قال: «كتبت أن ما نقوم به هو نسف للمصداقية الأخلاقية للأمم المتّحدة ووجدت نفسي في حيرة أخلاقية. بدا لي أن ما نقوم به كان متناقضاً مع البنود المتعلّقة بحقوق الإنسان في ميثاق الأمم المتحدة نفسها». كان هاليداي واحداً من طائفة الكوايكرز (أو الأصدقاء ـ المترجم) وقد سبق له أن عمل في كينيا وإيران قبل الانضمام إلى بيروقراطية الأمم المتّحدة في نيويورك، وكان يبحث عن بعض البدائل للعقوبات ـ وبحثه هذا كان دون جدوى لأنه لم تكن لدى الولايات المتّحدة وبريطانيا النيّة لإنهاء مأساة العراق.

كان مكتبه مليئاً بالإحصائيات التي لا تريد الأمم المتّحدة معرفتها... إنّ محطّات الطاقة الكهربائية تنتج أقلّ من ٤٠ في المئة من قدرتها وأنّ المياه وأنظمة التنقية على وشك الانهيار. كان الأطبّاء مُجبرين على إعادة استعمال القفّازات المطّاطية خلال العمليات، وكانت أجنحتهم بدون تكييف أو ماء نظيف. وكان ضغط الماء يهبط في الأنابيب لعدم وجود المضخّات الكهربائية، وكانت المجاري تشفط بالمكنسة الكهربائية. «اعتادت الحكومة هنا على تشجيع استخدام الطرق البدائية.. والطريقة البدائية مع وجود ماء ملوّث تُعتبر قاتلاً حقيقياً». لكن هاليداي كان قلقاً من الآثار الأخرى الطويلة الأمد للمعاناة. هناك رجال ونساء هم الآن في العشرينيّات والثلاثينيّات والأربعينيّات من العمر عرفوا أكثر قليلاً من مجرّد الحرب العراقية ـ الإيرانية، وحرب الخليج والعقوبات... إنهم يرون أنفسهم محاطين بأناس غير ودودين، وبأميركا وبريطانيا غير الصديقتين إطلاقاً. إنهم بعيدون عن التكنولوجيا والاتصالات، ولا يستطيعون رؤية التلفزيون الغربي... وهؤلاء هم الأشخاص الذين سيتحمّلون مسؤولية البلاد في المستقبل.

إنهم يشعرون بالعدائية وقد أصبحوا انطوائيين جدّاً. وسيعرف جيرانهم المباشرون وقتاً عصيباً في التعامل معهم.

لم يكن زميل هاليداي في مكتب اليونيسيف UNICEF في بغداد أكثر تفاؤلاً منه... في الخارج، كان أطفال قُساة يفتّشون في القُمامة في زاوية الشارع. وفي الداخل، كانت سجلّات فيليب هفيننك تظهر أن معدّل سوء التغذية للأطفال تحت سنّ الخامسة وصل إلى ٣١٪، «هذا يمثّل مليون ومئة ألف طفل في كل العراق بما في ذلك المناطق الكردية. هذه مشكلة خطيرة، وخطيرة بشكل خاصّ عندما يكون لديك سوء تغذية مزمن وخطير حتى سنّ الثانية وهي الفترة التي يتشكّل فيها الدماغ. إن ذلك يؤدّي إلى الذهول.. هناك فقدان نموّ جسدي وعقلي سوف يصيب الطفل، وسوف يؤثّر على دراسته وعلى فرص عمله، وفرص تأسيس عائلة.. ومن المحتمل إصابة نسله أو نسلها أيضاً». في نيسان/أبريل وصف باتريك كوك بورن الذي يراسل من بغداد صحيفة الإندبندنت، الطريقة التي تغيّر فيها لون نهر دجلة إلى «قهوة بالحليب بنّية» لأن قذارات ٣,٥ ملايين نسمة في بغداد والمدن الأخرى تتدفّق في النهر. وكَتب: «تلوّث مياه الشرب كان السبب الرئيسي في ارتفاع نسبة الأطفال العراقيين الذين يموتون قبل بلوغ سنّ ١٢ شهراً، من ٣٪ في السنة قبل العقوبات إلى ١٢٪ بعد تسع سنوات. وقد أدّى نقص قِطع الغيار الكهربائية وغياب الموظفين والانخفاض الكبير في تأمين الطاقة إلى انقطاع المياه العذبة في مناطق عديدة»(*).

(*) كان دليل المعاناة البشرية الهائلة فاضحاً الآن. أورد مصدر مسؤول عن النواحي الإنسانية في الأمم المتّحدة حول العقوبات عام ١٩٩٩. «إن خطورة الوضع الإنساني للشعب العراقي لا نقاش فيها ولا يمكن وصفها. وبصرف النظر عن المحاولات المزعومة للسلطات العراقية المبالغة في وصف بعض الحقائق لأسباب دعائية سياسية، فإن المعلومات من مصادر مختلفة وكذلك التقارير النوعية لمراقبين مخلصين وتحليلات ذكيّة حول التحوّلات الاقتصادية تقارب وتؤيّد هذا التقييم». وقد أوردت اليونيسيف في آب/أغسطس ١٩٩٩ أن انخفاض معدّل الوفيات الجوهري في العراق المسجّل في الثمانينيّات لو استمرّ خلال التسعينيّات لكان هناك نصف مليون طفل ميت (في عمر أقلّ من سنّ الخامسة) في البلاد إجمالاً للفترة ما بين ١٩٩١ و١٩٩٨.

شعر عمّال الإغاثة الغربيون في بعض الأحيان أن مساهمتهم عديمة الفائدة تقريباً. وقد وصفت جودي مورغان التي عملت في بغداد كيف شعرت أنها أشبه بقريبة فقيرة للملك. قالت لي إنه بعد ظهر يوم من عام ١٩٩٨: «كانت المياه تسيل حول أرجلنا قبل أن تُتاح الفرصة لنا لكي نطلب من المدّ والجزر الرحيل». كان لدى زميلتها مارغريت حسن ملفّات ضخمة من الأمثلة تثبت أنها تقول الحقيقة. قالت: «لو كان هذا بلداً من بلدان العالم الثالث، لاستطعنا إحضار بعض مضخّات المياه بقيمة بضع مئات من الجنيهات ولأنقذت آلاف الأرواح. لكن العراق لم يكن بلداً من العالم الثالث قبل حرب ١٩٩١، وأنت لا تستطيع تقديم مساعدة لمجتمع متطوّر. المشكلة في شبكة المياه هي نتيجة للانهيار والضرر الحاصل في محطّات تكرير المياه الباهظة الثمن والأبنية. وهذا يتطلّب مئات آلاف الجنيهات، ثمن صيانة لمنطقة واحدة فقط من البلاد. الأطبّاء هنا ممتازون، والعديد منهم تدرّب في أوروبا وكذلك في العراق لكن نتيجة العقوبات لم يطّلعوا على مجلّة طبّية منذ ثماني سنوات. ومعروف في العلوم، ماذا يعني ذلك. ولقد كشفت نظرة سريعة إلى لائحة الموادّ المحظورة من قِبل لجنة العقوبات في الأمم المتّحدة طبيعة الحملة الطفولية والحاقدة التي تثار الآن ضدّ العراق. كان ضمن اللائحة: أقلام. برّايات، أشرطة، أحذية، أقمشة للأكفان، مناشف صحّية، صابون سائل للشعر، مستحضرات لتنقية المياه، مماسح طبية، شاش، إبر طبّية، مجلّات طبّية، كوبالت لآلات تصوير الأشعّة، قفّازات للعمليات الجراحية، أدوية للصرع، معدّات للجراحة، معدّات لتنقية الدم، أدوية للذبحة الصدرية، شحنات غرانيت، معدّات لمصانع النسيج، معجون أسنان، فرش أسنان، أوراق صحيّة للحمّام، كرات تنس، ملابس للأطفال، طلاء للأظافر، أحمر للشفاه(*).

(*) وعلى سبيل المثال فإن مركز جراحة النخاع الشوكي الوطني العراقي، الذي تأسّس بمساعدة فريق دانمركي خلال الحرب العراقية الإيرانية لمعالجة الجنود الجرحى المصابين، كان يفتقر إلى الأدوية والإمدادات طيلة فترة العقوبات. كان الموظفون مجبرين على إعادة تطهير الشاش والأنابيب الطبّية ولم يسمح لهم بالحصول على أبحاث طبّية حديثة أو مجلّات.

سجّل الصحفي الناشط جون بيلفر، وهو أحد المراسلين القلائل الذين كانت لديهم الشجاعة للتنديد بالعقوبات الحقيرة وغير الأخلاقية، كيف أن دائرة الصناعة والتجارة البريطانية، التي حاولت الدفاع عن بيع مستوعبين لغاز الخردل للعراق قبل غزو صدّام للكويت على أساس أن أحدهما يمكن أن يُستخدم لصناعة حبر الأقلام، منعت قبل عيد الميلاد عام ١٩٩٩ شحنة من اللقاحات الهادفة إلى حماية أطفال العراق من الالتهاب المعوي والصفيرة. وقد أبلغ الدكتور كيم هويلز البرلمان بالأسباب الموجبة. ويبدو أن مركزه كسكرتير مساعد في الدولة لشؤون المنافسة والاستهلاك، ناسب إلى حدّ ممتاز ردّه الأورويلي (نسبة إلى الكاتب جورج أورويل). قال إنه تمّ حظر لقاحات الأطفال «بسبب إمكانية استخدامها في أسلحة الدمار الشامل». ولم يخطر بباله أن إصبعه كان يضغط على زناد سلاح دمار شامل مؤكّد (هو العقوبات).

عام ٢٠٠٠ بلغت نسبة المؤسّسات الصناعية المدنية العراقية التي تعمل بمعدّل طاقة أقلّ إلى أكثر من ٧٠ في المئة، ووصل معدّل البطالة إلى حوالي ٦٠ في المئة. و قد استقال هاليداي وكذلك خلفه هانز فون سبونيك، وهما كانا أكبر موظفي الأمم المتّحدة للشؤون الإنسانية في بغداد، استقال هاليدي في أيلول/سبتمبر ١٩٨٨ وفون سبونيك في ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٠ .. وهما يتحدّثان الآن للصحافة وعلى التلفزيون وفي الاجتماعات العامّة .. وكان فون سبونيك يشير إلى موت ١٦٧ طفلاً عراقياً كل يوم حين قال: «خلال سنوات عملي في الأمم المتّحدة لم أتعرّض أبداً لهذا النوع من المناورة السياسية والضغط الذي واجهته أثناء العمل في هذا البرنامج. نحن نعامل العراقيين كما لو أنهم ٢٣ مليون صدّام حسين وهذا هُراء».

وكان هاليداي أكثر صراحة حين قال في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨: «أكّدت منظّمة الصحّة العالمية لي منذ عشرة أيام فقط أن النسبة الشهرية لوفيات الأطفال تحت سنّ الخامسة، المرتبطة بنتائج العقوبات، تراوح بين ٥ آلاف و٦ آلاف شهرياً. ويُعتقد أن هذه إحصائية غير دقيقة إذ لا يجري تسجيل الأطفال عند الولادة في المناطق الريفية، كما أنه لا يتمّ تسجيلهم أبداً في حال ماتوا خلال ٦ أسابيع من ولادتهم. وقد اجتمعت مؤخّراً بقيادات الاتحادات النقابية

في العراق الذين سألوني لماذا لا تقوم الأمم المتّحدة ببساطة بقصف الشعب العراقي وبشكل فعّال عوضاً عن توسيع العقوبات التي تقتل العراقيين بشكل متزايد على الأمد الطويل... إن العقوبات تنسف الانتعاش الثقافي والتعليمي للعراق وهي لن تغيّر نظام حكمه.. إن العقوبات تشجّع العزلة والعدائية والتطرّف.. إنها تشكّل خرقاً خطيراً لشرعة الأمم المتّحدة حول حقوق الإنسان وحقوق الأطفال». وكتب هاليداي عام ٢٠٠٠: «إننا في منتصف سنة الألفية الثانية ونحن مسؤولون عن الإبادة في العراق. اليوم أصبح رئيس الوزراء طوني بلير في موقف الدفاع في العديد من القضايا المحلّية. وهو نادراً ما يذكر تأييده الدائم لبرنامج كلينتون ـ أولبرايت في قتل أطفال العراق. ماذا يعني هذا بالنسبة إلينا جميعاً؟».

حاولت وزارة الخارجية البريطانية وبشكل خاصّ بيتر هاين الذي يشغل الآن منصب وزير دولة مسؤول عن الشرق الأوسط التقليل من أهمّية مسؤولي الأمم المتّحدة اللذان استقالا قائلاً: وأبلغت رسالة لطيفة من وزارة الخارجية ـ قسم شؤون الشرق الأوسط طبيباً قارئاً لصحيفة الإندبندنت:

> «نحن نعلم أن البعض أبدى اهتماماً باستقالة هانز فون سبونيك وقبله دنيس هاليداي المنسّقين الإنسانيين للأمم المتّحدة في العراق».
>
> «إن إدارة برنامج فريد ومعقّد بقيمة مليارات الجنيهات تُعتبر عمل مدير متخصّص ومتفانٍ ملتزم بالقيام بالحدّ الأقصى لبرنامج النفط مقابل الغذاء للشعب العراقي. للأسف لم يكن هالّيداي أو فون سبونيك الرجل المناسب لهذا العمل. كان واضحاً منذ وقت طويل أنهما اعترضا على قرارات مجلس الأمن وأهداف قرارات الأمم المتّحدة. لم يكن من مصلحتهما القيام بعمل «النفط مقابل الغذاء»..

هذا ادّعاء سخيف. إن هاليداي رجل حسّاس ومحترم وكذلك فون سبونيك وهما متخصّصان وخبيران في العمل الإنساني. والقول بأن هذين المنسّقين كانا الواحد تلو الأخر مخطئين هو أمر لا مصداقية له.

وقد زعمت الرسالة نفسها أن قراراً جديداً لمجلس الأمن ـ رقم ١٢٨٤ ـ سيجعل برنامج النفط مقابل الغذاء أكثر فاعلية لأنه سيرفع السقف عن صادرات النفط العراقية.. ولكنها (أي الرسالة) فشلت في أن تضيف أن منشآت النفط العراقي مدمّرة وأن إيّ تخفيض في أسعار النفط (وهذا ليس خطأ الأمم المتّحدة) ستكون له تأثيرات عكسية على المبادرة. إن ما كان يحتاج إليه العراق ليس تخفيف العقوبات المفاجئ على البضائع الشخصية بل إعادة استثمار حقيقية في الصناعة والبنية التحتية والحياة الاقتصادية، وهذا شيء لم تسمح به الأمم المتّحدة. لا حاجة إلى معجون الأسنان أو أوراق الحمّام إذا كان العراقيون غير قادرين على شرائها..

وكل بضعة أشهر، وفيما كان مفتّشو الأمم المتحدة الذين أُرسلوا لتجريد نظام البعث من الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية، والذين غالباً ما كانوا يُواجَهون بفظاظة وتهديدات الأمن العراقي، يحاولون اكتشاف حجم ترسانة صدّام العسكرية. وكان الأميركيون يعلنون عن تهديد آخر من الدكتاتور العراقي بغزو الكويت وبتجاهل منطقة الحظر الجوّي المفروضة من قِبل الأميركيين في جنوب وشمال العراق لحماية الشيعة والأكراد، أو عن محاولة استرجاع صواريخ أرض ـ أرض التي تركها خلفه في المنطقة الخاضعة للأمم المتحدة أو على طول الحدود العراقية ـ الكويتية. ومراراً وتكراراً، كنت في بداية التسعينيّات، أسارع إلى مطار بيروت لأخذ طائرة أخرى إلى الكويت في حال أراد صدّام تكرار خطأه الفاحش عام ١٩٩٠... رغم أن شبكات الأخبار المصوّرة كانت تنشر صور جنود عراقيين يسيرون حول العربات العسكرية، بعضهم حافٍ والعديد منهم هزيلون وملابسهم ممزقة وبالية.

بعد سنتين من الاحتفال بالنصر في حرب الخليج ١٩٩١ شنّ الحلفاء الغربيون الرئيسيون الثلاثة في الصراع (الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا) سلسلة من الغارات الجوّية ضدّ ما يفترض أنه خرق عراقي لمنطقة الحظر الجوّي الجنوبية، والاستيلاء من الأمم المتّحدة على صواريخ «دودة القزّ» المضادّة للسفن. وفي ١٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣، انضمّت ست طائرات

تورنادو قاذفة إلى سرب من طائرات الميراج المتمركزة في السعودية ومعها قوّة كبيرة من الطائرات الأميركية من الحاملة كيتيهوك Kittyhawk، لمهاجمة أهداف داخل العراق معظمها مواقع صواريخ وقواعد رادار. واحتجّت الولايات المتحدة لأكثر من أسبوع على قيام العراق بوضع صواريخ سام المضادّة للطائرات داخل المنطقة المحظورة.

والحال، إذا كان الأميركيون يريدون أزمة منتظمة في الخليج فإن صدّام كان يريد أيضاً تصعيد التوتّر. فقد ادّعى المتحدّث باسم صدّام مرة أخرى في ذلك اليوم: «أن الكويت جزء من العراق سيتمّ استعادته». وقامت الأمم المتّحدة بمرافقة فريق من الصحفيين إلى الحدود العراقية الكويتية الجديدة، وهي الحدود التي راجعتها الأمم المتّحدة لصالح الكويت والتي لم يقبل العراق بها، وعرضت بحبور صناديق خشبية (مطبوع عليها وزارة الدفاع ـ الأردنّ) حصل منها العراقيون على صواريخ سيلكورم القديمة في نهاية الأسبوع الفائت، وكانت تلك أسلحة أخذت أمام أعين جنود الأمم المتحدة.

في الصباح نفسه، قام العراقيون بغارتهم الثالثة عبر الحدود الجديدة التي لم يعترفوا بها مدّعين أن لديهم اتفاقاً مع الأمم المتّحدة لأخذ معدّاتهم من المخازن حتى ١٥ كانون الثاني/يناير. لكنّهم لم يطلبوا إذناً من الأمم المتّحدة أو الحكومة الكويتية للقيام بذلك. لماذا لا؟ ولماذا لم نُبلغ حتى الآن بأن الغارات العراقية على قاعدة أمّ القصر البحرية بدأت منذ ٨ أشهر؟ في أيار/مايو ١٩٩١ ظهر أن العراق استولى على ١١ صاروخ سيلكورم من القاعدة ثم على أربعة صواريخ أخرى في أقلّ من شهر. وقد أعاد الصواريخ الأربعة لاحقاً بناء على طلب لجنة المراقبة العراقية ـ الكويتية التابعة للأمم المتّحدة واحتفظ بأحد عشر صاروخاً. وأتاحت غارة نهاية الأسبوع للعراقيين الاستيلاء مجدّداً على الصواريخ الأربعة.

كان صدّام يتحرّك على ما يبدو وفق سيناريو أميركي. لكنها لم تكن المرّة الأولى التي يحصل فيها هذا التواصل القديم بين واشنطن وبغداد. فكما وجد الطرفان من المناسب تجاهل الأضرار العراقية الكبيرة في حرب ١٩٩١، يلعب

صدّام الآن دوره المكلّف به كمُعتدٍ. سألني صديق كويتي قديم، وهو أحد المحظوظين الذين هربوا من الاعتقال داخل العراق في الأيام الأخيرة للحرب: «صدّام مجنون، لكن أتعلم لماذا فعل ذلك؟».. كان يضحك باحتقار لافت على ما خيّل إليّ. . . «صدّام لا يهتمّ لبوش. هو يريد أن يهتمّ بالعرب. لقد فشلت الأمم المتّحدة في البوسنة، والأهمّ أنها فشلت في جعل إسرائيل تسمح بعودة المعتقلين الفلسطينيين المبعدين إلى لبنان (والذين أُبعدوا بشكل غير قانوني على أنهم «إرهابيون»). لكنّ الأمم المتحدة سمحت للولايات المتحدة باستخدام العصا الغليظة ضدّ العراق. لقد أراد صدّام من العرب التفكير في هذا الفارق. وهو يعتقد أنه بهذه الطريقة سيجعل العرب يتوجّهون إليه».

كان صدّام يفعل ذلك بطريقة تضليلية متزايدة. كان خطابه التلفزيوني إلى العراقيين لمدّة نصف ساعة يوم ١٧ كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ تحفة في الجعجعة العربية القومية. هاجم الخونة العرب الذين عارضوه والعراقيين الذين تمرّدوا ضدّ حكمه قبل سنتين. وأشار إلى أن الأمم المتّحدة مرزبان للولايات المتحدة، وهذا اتهام له قيمة على الأقلّ، وأكّد أن «أمّ المعارك» لم تنته ولا النضال من أجل عراق منتصر، ولا من «أجل فلسطين محرّرة» وأن الكويت والعراق هما جزء من أمّة واحدة. كان خطاب ذكرى حرب الخليج موجّهاً إلى «أبناء العروبة في كل مكان».

على كل الأحوال، كان صدّام العابس هو الدكتاتور نفسه الذي تعلّم الغرب الاشمئزاز منه خلال احتلال الكويت. كان لباسه الأخضر مع شارات البريغادير جنرال على كتفيه يحجبه بفظاظة إناء من الزهور الحمراء والبيضاء. كان العراق مجيداً وشعبه الصامد يتحرّك فقط لمصلحة الأمّة العربية. أما الولايات المتحدة وشركاؤها فمجرمون، يعملون فقط على تفتيت أمّة عربية قوية مستعدّة للوقوف وحدها.. وأميركا تحاول الاستحواذ على الكويت «كبئر نفطية مستأجرة». لكنه اتجه بعد ذلك إلى هجوم شخصي غاضب ضدّ آل الصباح في الكويت متحدّثاً إلى الشعب الكويتي بلهجة تراوح بين التهديد والطلب والاعتذار.

حثَّ الكويتيين على استخلاص العِبر واستيعاب الظروف وفهم فترة الاحتلال

العراقي. وأعلن أن العراقيين الذين ارتكبوا أيّة أفعال ضدّ الكويتيين عوقبوا. «وسيذكر الكويتيون الذين بقوا في بلادهم أن أحد الضباط العراقيين ظلّ معلّقاً ليراه الجميع بسبب الأفعال السيّئة التي قام بها ضدّ الكويتيين.. هذا هو وجه بغداد الحقيقي، هذه هي مبادئ بغداد..... وإذا كانت هناك أفعال سيّئة فقد قام بها الخونة الموجّهون من قِبل أعداء العراق».

ما من ذكر لغُرف التعذيب واغتصاب النساء الأجانب وإعدام رجال المقاومة ونسائها على عتبات بيوتهم (أمام عائلاتهم بالطبع)... وليس إلّا إشارة بسيطة إلى الضرورة المؤسفة التي واجهت القوّات المسلّحة العراقية بالردّ على النيران عندما كانت تتعرّض للهجوم. ولهذا السبب فإن على الكويتيين الشعور «بالأخوة والحبّ لله، والأمّة التي تحفظهم في قلبها في بغداد». لم يتذكّر الكويتيون التاريخ بهذا الشكل الرومانسي... رغم أن قليلاً منهم سينسون العقيد العراقي المشنوق... «وجه بغداد الحقيقي بالفعل»... وهو كان مدلى على رافعة في الساحة الرئيسية، وقيل في ذلك الوقت إن ذلك بسبب مساندته المزعومة للمقاومة الكويتية.

لكنّ سبب هذه المعاناة كلّها وفق صدّام هو الحكم في الكويت... «لقد استثمر ٦٠ مليار دولار في البنوك الغربية بينما يعاني العرب من الجوع والفقر»(*). لقد فشل في الالتفات إلى تحذيرات بغداد حول عدم دفع الديون المترتّبة جرّاء الحرب العراقية ـ الإيرانية، وفي «وقف زيادة إنتاج النفط»... كل هذه التحذيرات وجّهها صدّام في القمّة العربية في ٢٧ أيار/مايو ١٩٩٠ وكرّرها في ١٧ تموز/يوليو ومجدّداً في مذكّرة وزير الخارجية العراقي للجامعة العربية في اليوم نفسه. «تلقّى سعد العبد الله الصباح، المفاوض الكويتي في قمّة جدّة مع العراقيين، (الاجتماع الذي أدّى فشله إلى الغزو العراقي)، أوامر سرّية من الأمير بعدم تسوية الخلاف» ـ بحسب رواية صدّام... «وعلى شعب الكويت تعلّم

(*) ستكون هناك عودة مرعبة للإساءة الشخصية إلى العائلة الحاكمة الكويتية في محاكمة صدّام الأولى التي رتّبها الأميركيون في بغداد عام ٢٠٠٤ عندما اتّهم بعض الأشخاص في حكومة الكويت بمحاولة إفقار النساء العراقيات ليصبحن عاهرات.

الدرس والسيطرة على بلاده من العائلة التي سمحت للأجانب بإدارة الكويت والتي هربت من الجيش العراقي».

أما بالنسبة إلى «الكفار» الذين ما زالت قوّاتهم تقف على «أرض مسلمة مقدّسة» فقد تغيّرت أهدافهم من الدفاع عن السعودية إلى تدمير «النظام العراقي».. «لأيّ غرض إذن تمّ إنشاء مناطق الحظر الجوّي؟ لقد شكلّت هذه المناطق، إضافة إلى منع الطائرات العراقية من الطيران، عملاً حربياً بامتياز وذلك بمعزل عن وقف إطلاق النار». «كان الغرب متلهّفاً لتدمير الأمّة التي ظلّت حصناً للحرية من زاخو في كردستان إلى الفاو في جنوب العراق». ومع القليل من الانفعال تنبّأ بأن «الكفّار سيعلمون قريباً مَن هو المنتصر... وإذا استمرّ المعتدون فإنهم سيفشلون.. ساعدكم الله». هنا بالضبط، ومن دون لبس، كان هذا صدّام القديم.

وخلال ساعتين من الغارات الجوّية في كانون الثاني/يناير ١٩٩٣ ضدّ العراق، قرّر الأميركيون إيجاد حلّ للاستفزازات العراقية المتواصلة على طول الحدود الكويتية العراقية مطالبين بغداد بإغلاق ستّة مراكز شرطة في المناطق المنزوعة السلاح التي تشرف عليها الأمم المتحدة مع حلول منتصف ليل ١٤ كانون الثاني/يناير وإلّا فإنها تتحمّل العواقب. جاء التهديد الأميركي عشية وصول ١٢٥٠ جندياً أميركياً من كتيبة المدرّعات الأولى إلى الكويت لأسباب ميدانية. وكانت المراكز العراقية الستّة التي تضمّ حرس حدود عراقيين مسلّحين موجودة أصلاً منذ سنة، أي في الوقت الذي كانت ترسم فيه الحدود، ولم تتحدّث واشنطن عن وجودهم آنذاك.

لعب الصحفيون دوراً خاصّاً في كلّ ذلك: نشر الرواية الأميركية.. ومن المؤكّد أيضاً أن التعزيزات الأميركية المرسلة إلى الكويت رافقتها طواقم التصوير والشعر المرتّب من المراسلين ورجال وكالات الأنباء الذين أرادوا إظهار هذه الصور الدقيقة للرجال الذين سيدافعون عن حرّية الكويت. وهكذا كان النقيب لاكي يرسم خطّاً على خارطة لقاعدة جوّية عراقية. ويصيح بالمراسلين: «إذا تخطّيتم هذا الخط أُبعدكم عن القاعدة. سأطلب من رجال الأمن إبعادكم من هنا

إذا لم تطيعوا التعليمات. هل من أحد لم يفهم ماذا قلت؟». تجمّعت طواقم المصوّرين مثل طلّاب المدارس واصطفّت الأقدام ومنصّات التصوير على أرض الشقّة البيضاء. كانت الفرقة الأولى الأميركية على وشك الوصول.

ربّما كان الجيش الأميركي ينتقم من الكارثة الإعلامية على شاطىء مقديشو (انهيار مهمّة الأمم المتّحدة في الصومال لم يكن قد حصل بعد)، لكن النقيب لاكي كان يعرف ماذا يريد.. وبينما العدسات الصغيرة تصوّب على الوجوه الصغيرة الصاعدة على درجات طائرة الجامبو ٧٤٧، رفعنا رؤوسنا فوق أعناق المصوّرين لنلقي نظرة على آخر رمز للتصميم الأميركي من الخليج بينما كان الجنود الذين يحمل العديد منهم حقائب أمتعتهم يتوجّهون عبر ممرّ الطيران إلى صفّ من باصات المدارس الأميركية المتوقفة على بعد ٣٠٠ متر من الطائرة.

وعوضاً عن الحديث إلى الجنود الذين سيقومون «بعمل الله» (إذا كانت كلمات الرئيس بوش عن طيّاري القاذفات تنطبق عليهم)، كنا ميّالين إلى الحديث مع الطاقم المدني لطائرة النقل الشمالية الغربية ٧٤٧... لذلك أحاط الصحفيون بأجمل مضيفة مرتدية لباسها الأنيق بينما كان قائد الطائرة يعرض لنا بحركة دعائية رائعة ما قدّم للجنود من أطعمة خلال الرحلة.. شكّل الرجال والنساء خطّاً آخر في الرمل بعدما أمضوا ستّ عشرة ساعة في الجوّ يأكلون الدجاج المشوي والأرزّ والبيض. لا أسئلة هنا، لا تفكير في ما يأكله العراقيون على بعد ١٠٠ كلم إلى الشمال من هنا. فقط مجموعة الرجال نفسها تقوم بأعمالها المعتادة بسرعة وبشكل طارىء. أخرجت مفكّرتي لألتقط بعض نفائسهم. «على بعد ستّين ميلاً من الحدود العراقية» ... «ستة أسابيع، لكن يمكن أن يبقوا هنا أكثر»... أما بالنسبة إلى الكويتيين فهذه إشارة مطمئنة أخرى... رادع ضدّ أيّ هجوم يحاول صدّام حسين القيام به على الحدود الكويتية.

كانت الاقتباسات حقيقية لكن ما هي المهمّة؟ هل هؤلاء الشبّان والشابّات وكتيبتهم من عربات القتال المتمركزة برادلي Bradly ودبّابات MA وبطّاريات المدفعية مجرّد رمز؟ ليس الأمر هكذا في الحقيقة. في النهاية، أطلق الرئيس بوش مجموعة أخرى من صواريخ كروز باتجاه العراق (بغداد) وبعد دقائق من

وصولها بدأت الشرطة العراقية بتفكيك مواقعها في أمّ القصر، وقد قُتل أحدهم على يد شرطي كويتي... وفي وقت لاحق وصف لي النقيب مايك موغهام، من فرقة ألفا الأولى، الوضع قائلاً: «كانت ليلة عادية، بقينا حتى منتصف الليل نشاهد مباراة كرة قدم أميركية وكنا طيلة المباراة إلى جانب فريق بوفالو لكنّ الرقيب أوّل كان يأتي من وقت إلى آخر لتغيير القناة، وخلال أوقات الاستراحة في المباراة كنا نشاهد السي إن إن في بغداد».

«استراحات خلال المباراة»... اعترف النقيب موغهام أن مشاهدة النيران المضادّة للطائرات فوق بغداد على قناة السي إن إن CNN كانت «تجربة رزينة». لكن كان هناك العديد من العبارات المنمّقة ـ الكليشيهات ـ على طول خطّ عرض برادلي في الصباح التالي. أثبتت السي إن إن بشكل غير مريح أن الانفجار الذي وقع في قاعة استقبال فندق الرشيد الذي قتل موظفة استقبال ناتج عن صاروخ أميركي. وخرج برانت سادلر مع قطعة من صاروخ كروز كاملة مع شيفرة الكمبيوتر وقد أثار ذلك الشكّ المعهود في مثل هذه الحالة. كتب الملازم برنارد إيتريدج: «لا أحد يحبّ رؤية الأضرار المدنية لكن هذه طريقة عمل الحرب، يحدث ذلك، لكن إذا ضرب صاروخ كروز فندقاً لا أعتقد أن أضرار الفندق ستكون طفيفة. تكلّم جنودنا عن ذلك واعتقدوا أنه ربّما ارتدّت طلقة مضادّة للطائرات وعادت نحو العراقيين»... وكالعادة عندما قُتل الفلسطينيون جرّاء القصف الإسرائيلي في بيروت عام ١٩٨٢، فإنهم قُتلوا بأسلحتهم. وعندما قصف الأميركيون ليبيا، قُتل المدنيون من جرّاء شظايا صواريخ ليبية مضادّة للطائرات... وعندما فرم الأميركيون العراقيين في شوارع بغداد عام ٢٠٠٣، فإن القتلى سقطوا، مرّة أخرى، من جرّاء شظايا صواريخهم، أو من جرّاء قنابل قديمة زرعتها شرطة صدّام السرّية في الأنقاض... لم نكن أبداً نحن... وإذا كنا نحن فإننا لم نكن نقصد ذلك....

وهكذا كان أيضاً، عندما خسر الرئيس كلينتون ٢٣ صاروخ توما هوك أخرى ضدّ بغداد يوم ٢٧ آب/أغسطس ١٩٩٣، أُطلقت ردّاً على محاولة اغتيال جورج بوش في الكويت قبل شهرين.. وما زالت القضيّة ضدّ المتّهمين العراقيين

قيد التحقيق وسوف تغربل من الشوائب، وقد فسد التحقيق بشكل عميق وأبدى الصحفيون اهتماماً ضئيلاً عندما وجدوا ثمانية مدنيين بين الضحايا كانت بينهم الرسّامة العراقية المشهورة ليلى العطّار التي عرضت أعمالها في الكويت والقاهرة ونيويورك... كان ذلك قبل خمس سنوات من سماعي القصّة الكاملة للمأساة.

ففي عام ١٩٩٨، وفي معرض فنّي خلف فندق الميريديان في بغداد، كان يعمل رجل عجوز اسمه أبو خالد (ضيف في هذه الحياة لديه ثلاث أو أربع سنوات ليعيشها).. وقد حدّثني عن ذلك المساء الحارّ من حزيران/يونيو يوم ودّع ليلى عطّار التي كانت مديرة المعرض. «غادرت في الساعة التاسعة مساءً، وفي الصباح، قال لي الرجل الذي كان يجهّز الشاي هنا... أبو خالد، السيّدة عطّار في المستشفى. لكنها لم تكن هناك. وجدت ابنها وابنتها في المستشفى لكنّهما قالا إنها ما زالت تحت أنقاض المنزل».

عندما وصل أبو خالد إلى منزل الفنّانة في حيّ المنصور في بغداد وجد زوج ليلى عطّار ميتاً تحت الأنقاض، وقال: «لا أحد استطاع العثور عليها لكن بعد ذلك شاهدت شعرها الطويل بين حجارة البيت وعرفت أنها كانت هناك.. وجدناها ممسكة بحقيبة يدها. كانت تحاول الهرب عندما ضرب الصاروخ».

لم يكن هناك أي اعتذار أو ندم في واشنطن، فقد كان صدّام هو الهدف الذي هوجم.. ونظامه وقوّات أمنه القاتلة.. وعندما زرت أنقاض منزل ليلى عطّار في بغداد عام ١٩٩٨ كنت متأكداً بشكل كافٍ أنه كان خلف منزلها مركز مخابرات كبير جدرانه عالية ومحاط بأسلاك شائكة، لم يلحظ صاروخ كروز بيتها أثناء بلوغ هدفه.. إذن لم تكن الغلطة غلطتنا مجدّداً.. هذا ما يعرف في الحروب باسم الضرر الجانبي... لم نكن نقصد ذلك... وقد أبلغ الرئيس كلينتون الأميركيين أنهم يستطيعون الشعور بالطمأنينة حيال الهجوم.

كان كل ذلك، ظاهرياً، ردّ فعل على مؤامرة عراقية لقتل الرئيس السابق بوش، في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤. وبعد عام من غارات كلينتون الجوّية،

ذهبت إلى محكمة الاستئناف الكويتية لحضور محاكمة ١٣ رجلاً من المدانين بالتخطيط لقتل بوش. كان المتهمون يرتدون ملابس رمادية وبدت وجوههم رمادية ومعظمهم كان ملتحياً وعدد كبير منهم يدعو ويصلّي، وكانوا يستمعون بدون انفعال بينما كان القاضي عبد الله العيسى يتلو مطالعته القضائية.. لكن مع إعطائهم الفرصة للكلام، كان لدى أحد المحكومين على الأقلّ الكثير ليقوله.. وبالنسبة إلى رجل، كان قد حُكم عليه من قِبل الرئيس كلينتون الذي أطلق غاراته الجوّية الانتقامية قبل انتهاء الجلسة الأولى للمحاكمة،، وحُكم لاحقاً بالإعدام من قبل حكومة الكويت كان وصلي الغزالي يبدو غضبان غضباً مبرّراً بينما كان يشير بإصبعه عبر قضبان القفص في المحكمة رقم ١٥... صرخ بنا: «كل طفل عربي أغلى من كل أميركا. أنا مواطن عراقي، قتل بوش ١٥ شخصاً من عائلتي، فقدت كل مشاعري. كان الغزالي و١٢ رجلاً آخرون أحدهم كويتي متورّطين جميعاً في المؤامرة.

استناداً إلى السلطات الكويتية، فقد أمرت المخابرات العراقية المتّهمين بقتل بوش وفق خطة كشفتها أجهزة الأمن الكويتية قبل يوم من وصول الرئيس الأميركي السابق إلى البلاد. وقيل إن أحد المتّهمين وجِد وفي حوزته سيّارة محمّلة بمتفجّرات زنتها حوالي ٨١ كلغ، بينما اتّهم الغزالي بالتخطيط لقتل بوش بحزام ملغّم مربوط حول وسطه. غير أنه تراجع لاحقاً عن اعترافه. وقال الآخرون في المحاكمة الرئيسية إنهم تعرّضوا للضرب للإدلاء باعترافات كاذبة وإنهم عبروا الحدود ضمن مجموعة مهرّبين.

ورغم أن المحكمة الأولى حكمت على ستّة منهم بالإعدام وعلى البقية بالسجن المؤبّد، فقد كانت هناك مجموعة من الأسباب تدفع الكويتيين والمحامين الأجانب إلى الشكّ في عدالة هذه المحكمة الخاصّة. كان هناك التماس لإعادة المحاكمة، وأدلّة أخرى عن عمليات ضرب قامت بها الشرطة ونقص مُشين في السماح للمحامين بالتواصل مع المتّهمين قبل المحاكمة... والأغرب من كل ذلك كان هجوماً بالصواريخ على بغداد، بُني على إدانة للمتّهمين قبل نطق الحكم... ولذا لم يكن مستغرباً أن يعلن نجيب الوقيان،

المحامي الصغير والمثابر عن الكويتي الوحيد المحكوم بالإعدام بدر الشمّري، أن هجوم كلينتون إدانة لمحاكمة موكّله غير العادلة. قال: «وضع هجوم كلينتون الصاروخي على بغداد المحاكمة في إطار سياسي.. قال كلينتون إن لديه دليلاً على أن العراق وراء محاولة الهجوم بالقنابل على بوش، كيف يستطيع فعل ذلك قبل انتهاء المحاكمة؟ هناك متّهمون اعترفوا بذنبهم ولا أجادل في ذلك، فهم قدّموا اعترافات، لكنّ بدر لم يعترف... إنه بريء وقد حكم عليه الأميركيون». في الواقع، قال البيت الأبيض إن لديه دليلاً على تورّط العراق في المؤامرة، وهو ادّعاء شجبته منظمة العفو الدولية لاحقاً وقالت إنه نسف افتراض براءة المتّهمين. بعد ثماني سنوات سوف يذكر جورج بوش الابن خلال خطاب يستجدي الدعم في غزوه للعراق: «إن صدّام حاول قتل أبي»....

تبيّن لاحقاً أن هؤلاء الرجال كانوا متورّطين في عملية عصابات روتينية للتهريب لا في محاولة اغتيال سياسية.. وهو تفسير أُعطي مصداقية أكبر عندما بدأ شقيق المتّهم الكويتي سليم الشمّري بالضحك خلال ظهوره في المحكمة بعدما سأله القاضي لماذا يبدو وجهه مألوفاً. أجاب إنه سُجن في ١٥ حادثة سابقة بتهريب ويسكي إلى داخل الكويت. كان هناك كثير من الشكّ حول عدالة المحاكمة عندما أشار المدّعي العام إلى المتهمين قائلاً: «هذه المجموعة الفاسدة من المتهمين».

من أجل كلّ ذلك ماتت ليلى عطّار.

الفصل الثاني

الوباء

«هناك ما يُسمّى حرباً مشروعة؛ وللحرب قوانينها؛ وهناك أشياء يمكن القيام بها بشكل عادل وأشياء لا يمكن القيام بها. لقد حاول (على حدّ فهمي للأمر) تسميم الآبار»

جون هنري:ـ كاردينال نيومان Apologia Pro Vita Sua,1864

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤، كانت لدينا «أزمة أخرى في الخليج»، كما كانت تحبّ شبكة السي إن إن أن تعلن عن كلّ إعادة غزو مزعومة للكويت. واستناداً إلى البنتاغون، فقد حشد صدّام هذه المرة ٦٠ ألف جندي في جنوب العراق إضافة إلى ٩٠٠ دبّابة وأكثر من ذلك من العربات المصفّحة. وعلى ما يبدو فإن أيّاً من الصحفيين الذين أُرسلوا لتغطية هذه المأساة الأخيرة لم يتذكّر السرّية التي وصفوا بها هزيمة الجيش العراقي عام ١٩٩١، وكيف كان جنود صدّام في حالة من الفوضى، وحرسه الجمهوري مدمّراً بفعل القصف الأميركي، ولوجيستياته مفكّكة. لكن بعد أن أكّد زعماء العالم أن صدّام انهار كلّياً، كانت وحدات حرسه الجمهوري المحطّم الآن تعود لتظهر افتراضياً في ساحات القتال مجدّداً. وكان هؤلاء المتخّصصون في التلفزيون ومراسلو المحطّات الفضائية يتدفّقون على عواصم الشرق الأوسط طلباً للتأشيرات وحجز تذاكر على أي طائرة تستطيع الوصول إلى الخليج أسرع من مجموعة بيل كلينتون المحمولة. وتساءلت في صحيفتي: هل يقومون بخداعنا أو أنهم وقعوا في فخّ تصديق تقاريرهم؟

لقد وُفِّق صحفي كويتي حقّاً في تحليله عندما أشار إلى أن صدّام يحاول إجبار الأمم المتّحدة على رفع العقوبات وأيضاً إعادة انتشار جيشه العراقي بعد إشاعة عن محاولة انقلاب في بغداد.. هذا في حين أن كلينتون كان يريد إبعاد الانتباه عن فشله في البوسنة قبل انتخابات مجلس الشيوخ. لكنّ ردّنا المبرمج مسبقاً بدا غير قابل للتوقف(*). . . وكالعادة، لم يزعج أحد نفسه لتخمين حجم الأضرار المدنية التي ستلي ضربة أخرى في العراق.

ومن المؤكّد أن الصحفيين الذين نُقلوا إلى حدود الكويت مع العراق وجدوا أن من الصعب تلبية مطالب محرّريهم. واستطاع العديد منا فقط رؤية دبّابة كويتية وحيدة في الصحراء، استخدمت لاحقاً كعربة لجرّ الباص الصحفي خارج الرمال. من الجهة الأخرى للحدود كانت هناك أيضاً بقايا قليلة. وقد ذكر ضبّاط الأمم المتّحدة أن طائرة استطلاع تابعة لهم حلّقت بهم على مساحة ٢٠ كلم شمال الحدود، فلم يشاهدوا أيّ دبابة عراقية أو ناقلة جند.

كان رجال الشرطة العراقيون القلائل خلف الحدود ـ الموجودون الآن على الخط الجديد للحدود ـ في وضع لا يسمح بوصفهم بالعدوانيين. . ومعظمهم كانوا بحالة مُزرية ويطلبون باستمرار طعاماً من الأمم المتحدة ويسألون عن ملابس يرتدونها بدلاً من بذلاتهم البالية. وقد اعترف موظف في الأمم المتّحدة قائلاً: «لا يفترض أن نعطيهم شيئاً لكن من الصعب طرد أحد بعيداً عندما يكون بحاجة إلى طعام».

في ما بعد، وبحلول ١٢ تشرين الأول/أكتوبر وردت تقارير تفيد أن ٣٩٧٨٣ جندياً أميركياً عادوا إلى الخليج مصحوبين بـ ٦٥٩ طائرة و٢٨ سفينة. وكان السلاح الجوّي الملكي البريطاني يرسل طائرة هركوليس C130 إلى الكويت

(*) حتى في عدد الإندبندنت ليوم الأحد، رأيت قصّة أزمة أخرى على خطوط الوكالة مساء ٩ تشرين الأول/أكتوبر. وقد سُحب مقالي المتشكّك من الصحيفة بعد الطبعة الأولى خشية أن تبدأ الحرب عند الصباح. كانت تلك هي المناسبة الوحيدة التي يحصل فيها مثل هذا لتقرير لي في الصحيفة التي وافق محرّروها في اليوم التالي على أن لا داعي لسؤال صحفي يعكس شكوكه حول تقارير مبالغ فيها إذا كانت مثل هذه المبالغات ستؤدّي إلى اضطهاد الصحيفة.

كلّ ساعتيْن خلال الليل، يحمل بعضها مدافع من عيار ١٥٥ ملم.. ونزلت أوّل مجموعة مؤلّفة من ٤٥ جندياً من القوّات الخاصّة من طائرة تري ـ ستار Tri-Star، وقد سبق لهم أن شاهدوا كل ذلك : الليل الحارّ والرطب، ومحرّكات C130 تهدر على أرض المطار، ولهجات شيفيلد وأكسفورد وليفربول تحت سماء الخليج. وعوضاً عن «عمليّة غرابني» (الاسم الحركيّ للانتشار البريطاني في الخليج عام ١٩٩٠)، لدينا الآن «عمليّة السائق»... لكنّ الجنود كانوا يحملون جميعاً احتياجات حرب نووية وكيميائية وبيولوجية صغيرة.

وعندما وصلت وحدة البحرية الأميركية ١٥ لتبدأ تدريبات بالذخيرة الحيّة، هل تعلمون أيّ مكان اختارت؟ مرتفع متلة بالتأكيد!! كان العديد من رجال البحرية يعرفون جيّداً أنها قمّة لطريق الموت السريع حيث كانت القوافل العراقية المُدْبِرة قد أزيلت من الوجود قبل ثلاث سنوات ونصف سنة. وكان رجال وحدة التدخّل السريع ١٥، وعددهم ١٣٠ جندياً، ينوؤون تحت ثقل المدافع الرشاشة والأسلحة المضادّة للآليّات، وقاموا بترتيب مؤنهم وآلاف صناديق الذخيرة المتفجّرة في الخنادق بعد التلّة، حيث ما تزال المقابر الجماعية المجهولة منتشرة في التراب. قال الكولونيل ريك باري: «كان العديد من جنود البحرية هنا في ذلك الوقت وبعضهم يعرف ماذا حصل». وأضاف بحماس أن جنود البحريّة ساعدوا في محاصرة القوافل العراقية المنسحبة عام ١٩٩١. وتحدّث رجال الكولونيل باري بلغة البحرية المحكية الجديدة والمُعدية عن عمليات الإنزال البرمائي لطائرات الهليكوبتر باعتبارها تطوّراً ـ لاحظ الطبيعة الإيجابية والمتطوّرة للكلمة ـ وعلى أنها تمرين مستمرّ، ومغامرة، وبالتأكيد فرصة لأخذ صورة.

احتشدت طواقم التصوير التلفزيوني حول جنود البحرية وهم يشتمون ويتدافعون مع الانتباه إلى تجنّب أيّ صور تدلّ على أن تطوّر البحرية سيرك صحفي. وهكذا فإن مخازن قذائف الأسلحة الرشّاشة كانت تقفز فوق الطبقات الإسمنتية تحت مرتفع متلة، بينما كان رجال البحرية يهاجمون وسط القذائف الدخانية عبر الرمال وهم يصرخون ويصيحون على جنود صدّام الوهميين. وتحوّلت عينا النقيب ستيفن سوليفان إلى شقّين ضيّقين في مواجهة شمس

الظهيرة الحارقة وحاول وضع الأمر ضمن البُعد التاريخي الذي تحوّل إلى مزيج من المبادئ الأخلاقية والمزيد من حديث البحرية.

قال: «منذ اغتصاب هذه البلاد ونهبها بشكل رئيسي قبل سنتين تقريباً تجري عملية إعادة بناء قوّات واسعة على الحدود، وهذا تهديد بارز لهذا البلد ولكلّ الدول التي تمثّل التحالف. نحن قوّة انتشار متقدّمة موجودة وهذا أمر عادي. وأعتقد أن ذلك يُنتج استقراراً مع انتشار القوّة لإظهار وجودنا».

لكن هل سأل نفسه لماذا لم تقم وحدته «قوّة الإنزال» بالتركيز على البوسنة حيث كان الاغتصاب الآن على نطاق أوسع ممّا كان في الكويت؟ لم يتردّد النقيب سوليفان البتّة. كانت البوسنة تحت إشراف القيادة الأميركية المتوسطية ووحدة التدخّل السريع ١٥ ولم تكن مهمّتها تغطية منطقة المتوسّط. وهكذا كان.

مرّت أوقات جرى فيها وضع تقارير حول كل ذلك يتساءل فيها المرء ما إذا كان الجنون مزيّة في كتابة تقرير عن الشرق الأوسط. وغداة انتشار قوّات البحرية الأميركية في مرتفع متلة، سار وزير الدفاع الأميركي وليم باري ـ وهو رجل صغير الوجه يرتدي بذلة بنّية فاتحة ـ على مدرج مطار الكويت لتهديد صدّام بالحرب إذا لم يسحب جنوده من جنوب العراق. وبعد نصف ساعة فقط، سار وزير الخارجية الروسي أندريه كوزيريف ـ وهو طويل القامة يرتدي بذلة زرقاء نظيفة وربطة عنق ـ في قاعة الشخصيات في المطار وهدّد السلام. من نصدّق؟ السيد باري الذي صاح أن تعزيزات أميركية أخرى سترسل إلى الخليج أو السيّد كوزيريف الذي قال إن صدّام أبلغه بأنه سوف يعترف بالحدود الجوّية للكويت في النهاية. وهمس كوزيريف عبر الميكروفون: «أحضرت أخباراً جديدة لشعب الكويت ولكلّ الشرق الأوسط، أخباراً جديدة تفيد أنه في هذا اليوم تعزّز استقلال الكويت».

ربّما كان انتهاء الحرب الباردة أمراً جيّداً. ففي أيام جيمي كارتر كان وزير الدفاع الأميركي يدعو إلى السلام بينما رجال ليونيد بريجينيف يدعون إلى الحرب إذا قصفت أميركا العراق. إضافةً إلى هذا التحوّل جاء التأكيد من

السيناتور جون وارنز القائد السابق للبحرية الأميركية الذي كان يقف إلى جانب باري. قال: «إن الدروس المستخلصة من حرب الخليج جعلت إنشاء هذه القوّة الرادعة ممكناً».

بالطبع، كان الدرس الحقيقي لحرب الخليج بالنسبة إلى أميركيين محافظين جدّاً أنه لو جرى إسقاط نظام صدّام في ذلك الوقت، لما كان من الضروري إرسال كل هذه القوّة الرادعة إلى الشرق الأوسط الآن.

إن انتظام الهجمات ضدّ العراق على نحو مطّرد فعل أكثر من جعل مشاعر الصحفيين بليدة، لقد أعطى روايتهم طابع الاستمرار بحيث أنه عندما قامت الولايات المتّحدة وبريطانيا، الحليفان الوحيدان الباقيان من حرب ١٩٩١ (لأن الفرنسيين انسحبوا بحكمة من قصف مناطق الحظر الجوّي) بمهاجمة المواقع العراقية العسكرية خلال العقد التالي، أصبحت أعمالهما عادية، كجزء من أنموذج، وتوقفت مع مرور السنوات لتصبح قصّة أخبار ليس إلّا. كان من المفترض أن تحمي منطقة الحظر الجوّي الجنوبية السكان الشيعة من صدّام، رغم أن الثوّار الشيعة عام ١٩٩١ كانوا قد أصبحوا منذ وقت بعيد في مقابرهم الجماعية أو مختبئين في معسكرات اللاجئين وراء الحدود في إيران. وفي الشمال، كان من المفترض أن تحمي منطقة الحظر الجوّي الأكراد من عدوان مماثل، لكنّ المنطقة الآمنة التي أقامها حلفاء ١٩٩١ ما زالت موجودة هناك على الأقلّ، حتى ولو لم تكن كافية لحماية أكراد أربيل عندما أرسل صدّام دبّاباته إلى المدينة لقمع عملية دبّرتها المخابرات الأميركية عام ١٩٩٦، كما أنها لم تنقذ الأكراد من الأتراك كما كشف جون بيلفر. ففي آذار/مارس ٢٠٠١، اشتكى الطيّارون البريطانيون الذين انطلقوا من القاعدة الجوّية التركية في باتمان أنهم، بعيداً عن حماية الأكراد، كانوا يتلقّون أوامر باستمرار للعودة إلى المطارات من أجل السماح للقوّة الجوّية التركية بقصف الناس الذين يُفترض بهم حمايتهم. وكان الطيّارون البريطانيون الذين عادوا للمراقبة الجوّية في شمال العراق يتلقّون أوامر بإغلاق راداراتهم حتى لا يتعرّفوا الأهداف التركية... وكانوا يشاهدون الخراب في القرى الكردية بعد الغارات التركية.. وقد أُعطيت أوامر

للطيّارين الأميركيين بالعودة إلى القاعدة، وذكر أحد الطيّارين «أن الطائرات التركية ف١٤ وف١٦ كانت تأتي محمّلة بكمّيات كبيرة من الذخائر، ثم تعود بعد نصف ساعة وقد نفدت ذخيرتها».. وعند عودتهم إلى عملهم كان الأميركيون «يرون القرى المحترقة وكثيراً من الدخان والنار»... في عامي ١٩٩٥ و١٩٩٧ هاجمت قوّات تركية قِوامها ٥٠ ألف جندي مدعّمة بالدبّابات والقاذفات المقاتلة وطائرات الهليكوبتر المسلّحة مواقع حزب العمّال الكردستاني «في المنطقة الآمنة»... ورغم التعتيم الكبير من قِبل الأميركيين والبريطانيين على واقع أن مناطق الحظر الجوّي هي جزء من قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٨ ومحميّة به، لم تكن لديهم شرعية الأمم المتّحدة ولم تعد هذه المناطق تُناقَش أو يوافق عليها من طرف الأمم المتّحدة. لكنّها أصبحت ذريعة لاستمرار الحرب الجوّية ضدّ العراق، حرب غير معلنة وغير مبلّغ عنها بشكل واسع من قِبل الصحفيين الذين كانوا يركّزون على استفزازات صدّام، وبخاصة عندما أعلنوا رفضه أو تضليله لمفتّشي الأمم المتّحدة عن أسلحة الدمار الشامل. وكان فريق الأمم المتّحدة قد دخل العراق مباشرةً بعد وقف إطلاق النار عام ١٩٩١، وكانت مهمّته البحث عن الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية وتدميرها، وهي الأسلحة التي سعى صدّام إلى امتلاكها أو حصل عليها فعلاً في بعض الحالات. كان هذا هو صدّام نفسه الذي استخدم الغاز ضدّ الأكراد في حلبجة ومئات أخرى من القرى (وقد قام أيضاً باستخدام الغاز بقساوة ضدّ الجيش الإيراني وهو أمر لم يُثر المشاعر كثيراً في الغرب) وكان يجب ردعه. وخلال ثلاث سنوات، حقق المفتّشون نجاحات كبيرة.

إن عمليّتهم التي سيدمّرها الأميركيون أنفسهم في النهاية قد جرى توثيقها مراراً بشكل مفصّل... لكن من المذهل مقارنة هذه الجهود مع المحاولات الأميركية والبريطانية اللاحقة لإرسال المفتّشين إلى العراق مجدّداً عام ٢٠٠٢ ومن ثمّ إقناع العالم أن صدّام ما زال يُنتج ويُخفي أسلحة دمار شامل. وفي نهاية نيسان/أبريل ١٩٩٢، جرى تدمير مركز الأثير للأسلحة النووية في العراق وكذلك مواقع الاختبار الحصينة، التي أُجبر ألوف العمّال العراقيين على العمل

فيها. وفي عام ١٩٩٤ قدّم رولف أكويس رئيس فريق الأمم المتّحدة تقريراً جاء فيه أن كل المعلومات المطلوبة من العراقيين أُعطيت وأن أجهزة مراقبة الأسلحة وضعت قيد العمل. وبينما كان العراق مستمرّاً في تجنّب تسليم موادّ إلى مفتّشي الأمم المتحدة، قامت طائرات الاستطلاع U2 المستعارة من الولايات المتحدة بحوالي ٢١٠ طلعات فوق العراق، ونفّذت طائرات الأمم المتّحدة المروحيّة ٢٧٣ طلعة فوق ٣٩٥ موقعاً مشتبهاً فيه.

وادّعى العراق طيلة الوقت أن هؤلاء المفتّشين لم يكونوا يعملون للأمم المتّحدة بل للمخابرات الأميركية.. وكانت يونيسكوم UNSCOM استناداً إلى صدّام وكالة دعاية لواشنطن. ولا يكاد يمكن لومه في ادّعائه هذا. وقد طلبت وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية من الكونغرس ١٢ مليون دولار للقيام بعمليات في العراق. وخشيت السلطات العراقية ألّا تستخدم معلومات الأمم المتحدة للقيام بعمليات تفتيش أخرى بل لتحديد الأهداف التي يريد الرئيس الأميركي إطلاق صواريخ كروز عليها في بغداد. وفي أيار/مايو ١٩٩٥، أعرب أكيوس عن اهتمامه بفقدان ١٧ طنّاً من الموادّ يمكن استخدامها لصناعة الأسلحة البيولوجية... لكن في آب/أغسطس ١٩٩٥، هرب العميد حسين كامل حسن والعقيد صدّام كامل حسن، صهرا صدّام حسين إلى الأردنّ حيث أبلغا مفتّشي الأمم المتحدة أنه تمّ التخلّي عن كلّ برامج أسلحة الدمار الشامل في العراق ـ مع أنه لم يكشف عن هذا الخبر حتى عام ٢٠٠٣.

مع ذلك، لم يوافق الأميركيون أبداً على تأكيدات الأمم المتّحدة... فبينما كانت مخابرات صدّام تحاول من وقت لآخر إعاقة عمل المفتّشين (كان ظهور مفتّش الأمم المتّحدة سكوت ريتر الاستعراضي في أكثر مراكز قيادة صدّام حساسية من الناحية الأمنية دليلاً كافياً على ذلك) كانت حكومة الولايات المتحدة ترفع دائماً أدلّة يقدّمها الفارّون العراقيون تفيد بأن الإنتاج النووي مستمرّ، وأن العراقيين دفنوا القنابل البيولوجية في الصحراء، وأن رفض صدّام الاستجابة لكلّ طلبات تقديم المعلومات عن الموادّ الكيميائية دليل على عدم

استقامته. وقد جرى تكذيب ادّعاءات العراقيين حول تدمير عدّة ملفّات عن هذه الأسلحة في انتفاضة ١٩٩١ ـ ولم يكن ذلك دائماً من غير سبب ـ .. لكن بينما كانت الأمم المتّحدة تبحث في المكتبات العراقية عن استمرار البحث العلمي، توصّل صدّام إلى الاستنتاج أن الأمم المتّحدة كانت تتجسّس لصالح أعداء العراق على المستقبل العسكري للبلاد وكذلك على ماضيه.

كانت تجارب ريتر مهمّة... وهو ضابط بحرّية أميركي دحض مزاعم شوارزكوف حول تدمير صواريخ سكود عندما كان يخدم في الرياض عام ١٩٩١. حتى بعد أن أعلن العراق أنه لا يهتمّ بالحرب الجرثومية وذلك في أوّل خضوع للأمم المتّحدة، فقد كان لديه ٩٠ غالوناً من مادّة ميكرو أورغانيسم التي ينتج عنها غاز الغانغرين، وأكثر من ألفي غالون من مادّة الإنتراكس، و٥١٢٥ غالوناً من البوطيلونيوم توكسين (الذي يسبّب الشلل والاختناق لضحاياه) و٢,٧ غالون من مادّة توكسين ـ ريسين. . وقد اعترف العراق بتردّد أنه أنتج غاز الأعصاب VX وحوالي ١٥٠ طناً من غاز سارن... وقدّمت مواجهات ريتر الدرامية الناجحة وفي بعض الأحيان السخيفة مع رجال أمن صدّام صورة مُرعبة عن النظام ونظرة داخلية مهمّة إلى عقلية مفتّش أسلحة أميركي(*).

وقد أورد ريتر في وقت ما ملاحظة شهيرة: «العراقيون!! إنهم مثل سمك القرش، والخوف مثل الدم، يشّمونه ويأتون إليك، وعندما تبدأ عملية الإذلال هذه، لن تربح أبداً.... أنا كلب ألفا Alpha أدخل وذيلي مرتفع، إذا تكلّموا معي بغضب سوف أنقضّ عليهم.... عندما نذهب إلى موقع سيعلمون أننا كنا هناك، وسوف نرفع ذيلنا ونفرغ بولنا على جدرانهم». مع ذلك بعد ست سنوات، أجبر أكيوس صدّام على تدمير ٤٠ ألف قنبلة ومؤن عسكرية أخرى،

(*) نُشرت الروايتان الأفضل لعمل ريتر واختراق السي آي إي لليونسكوم في النيويوركر، الأولى بقلم: بيترج. بويرز «الحرب الخاصّة بسكوت ريتر» في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٨، ومنها أخذت الاستشهاد السابق... والثانية لسيمون ج. هيرش: «أفضل صديق لصدّام: كيف سهّلت المخابرات الأميركية على الزعيم العراقي إعادة التسلّح»، في ٥ نيسان/أبريل ١٩٩٩.

و٧٠٠ طن من المواد الكيميائية، و٤٨ صاروخاً طويل المدى، ومصنع أنتراكس، وبرنامج تخصيب نووي و٣٠ رأساً صاروخياً. وقد دُعي الصحفيون إلى تصوير مجموعة ضخمة من صواريخ سكود بينما كانت مُلقاة مُحطّمة على وجه الصحراء.

لكنّ يونسكوم، مثل العديد من عمليات المدى الطويل المماثلة لها، أصبحت ملوّثة. وذلك أنّ ريتر الذي ادّعى بشجاعة وإصرار عام ٢٠٠٢ (وبشكل متوازن وصحيح) بأن العراق لم يعد يمتلك أي أسلحة دمار شامل، قد أخذ هذه المعلومات في حينه إلى الإسرائيليين مقدّماً للعرب الدليل القاطع على أن الأمم المتّحدة تتقاسم أسرارها العسكرية مع عدوّ العراق الوحيد في الشرق الأوسط... وقد ذهب ريتر أبعد من ذلك إلى حدّ التصريح لصحيفة هآرتس أن إسرائيل كانت تساعد مفتّشي الأمم المتحدة في العراق من عام ١٩٩٤ إلى عام ١٩٩٨، وقال: «أستطيع بصدق القول إنه لولا مساعدة إسرائيل لم تكن اللجنة لتستطيع متابعة جهد الكشف». وفي ٥ آب/أغسطس ١٩٩٨، علّقت بغداد كل تعاون مع يونسكوم مدّعية أنها استُخدمت من قبل عملاء المخابرات الأميركية. وقالت إنها ستتابع التعاون مع موظّفي الأمم المتّحدة في بغداد وليس مع أعضائها الأميركيين.

وبدل العمل على كشف حقيقة مزاعم العراق قرّرت الأمم المتحدة سحب كل عناصر فريقها المؤلّف من ٧٨ شخصاً، من بغداد يوم ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر، وأعلنت وكالات الأنباء الغربية أن صدّام تحدّى مجلس الأمن.. وكان هذا صحيحاً فقط في حال كانت الاتهامات العراقية خاطئة. ولم ينتظر الرئيس كلينتون ليشرح الأمر. وقد اشتملت عملية ثعلب الصحراء (وهو لقب جنرال هتلر، إيروين رومل الألماني، ويبدو أن هذا لم يخطر على بال المخطّطين العسكريين الأميركيين) على قصف العراق مجدّداً بمئتي صاروخ كروز، مما أدّى إلى مقتل ٦٢ جندياً عراقياً و٨٢ مدنياً. ونفّذت الطائرات الحربية الأميركية ٦٢٢ طلعة ضدّ ١٠٠ هدف مُلقية حوالَي ٥٤٠ قنبلة، وأرسل البريطانيون ٢٨ طلعة جوّية لطائرات تورنادو ضدّ ١١ هدفاً. ولم يكن العراقيون وحدهم الذين لاحظوا

أن العديد من المواقع التي قُصفت، بما في ذلك مبنيان يُعتقد أن صدّام كان يقابل فيهما عشيقاته، كانت قد خضعت مؤخّراً لزيارة المفتّشين الأميركيين من يونسكوم. وفي أوائل كانون الثاني/يناير أوردت منظمة اليونسيف وبرنامج الغذاء العالمي أن الهجوم دمّر أيضاً مدرسة زراعية وخرَّب ١٢ مدرسة أخرى ومستشفى ودمّر خزانات ماء يستفيد منها ٣٠٠ ألف عراقي في بغداد.

كانت تلك نهاية اللعبة، الإفلاس الأخير للسياسة الغربية تجاه العراق، وآخر رمية للنرد. في الوقت الذي أُطلقت فيه الصواريخ أعلن الرئيس كلينتون أنّ صدّام «جرّد المفتّشين من أسلحتهم»، وهذا كذب. وأبلغنا طوني بلير الذي كان يتألّم قلقاً على حياة القوّات البريطانية المتورّطة (أي الـ ١٨ طيّاراً) أننا «تحرّكنا لأنه كان يجب علينا ذلك». هل ذهبنا إلى الحرب بهذه الطريقة الصبيانية؟ رغم أن دلالات عرضها حملت أدلّة مقلقة على عدواننا العسكري المقبل في المنطقة؟

لم تكن هناك سياسات أو وجهة نظر أو أدنى تلميح لما سيحدث بعد انتهاء القصف. فمع عدم عودة مفتّشي الأمم المتحدة إلى العراق، ماذا كان علينا أن نفعل؟ أن نعلن حرباً أبدية على العراق؟ في الواقع، كان ذلك إلى حدّ كبير هو ما قمنا به حتى الآن وما سنقوم به في السنوات الثلاث القادمة مع أننا لم نقل ذلك في حينه.

كنّا «نعاقب صدّام» أو هذا ما أراد منا بلير تصديقه في ذلك الوقت. هل كان هناك جهاز كمبيوتر يصنع هذا العمل؟ ربّما وُجِد أيضاً قسم للعبارات المبتذلة في داوننغ ستريت زوّد وزير الخارجية البريطاني روبين كوك ومادلين أولبرايت بالجملة السقيمة حول كيفية استخدام صدّام للغاز ضدّ شعبه الكردي في حلبجة لأن هؤلاء الأكراد كانوا في ذلك الوقت، متحالفين مع إيران، ونحن الغرب كنا نساند غزو صدّام لإيران.

كان التشجيع المجّاني يتمثّل في فقدان أي سياسة عاقلة طويلة الأمد تجاه العراق. وكان صبرنا، بحسب كلينتون وبلير، قد نفد. لا يمكن الوثوق بصدّام للحفاظ على كلمته، وقد اكتشفوا ذلك الآن! وحتّى قُدرة صدّام على تهديد

جيرانه (الجيران الذين لا يريدوننا الآن أن نقصف العراق) كان من شأنها أن تضعف. نحن الآن نقصف على الأرجح أماكن الأسلحة التي لم يستطع المفتّشون العثور عليها، لكن كيف ذلك؟ إذا لم يستطع المفتّشون إيجاد الأسلحة، فكيف نعرف على ماذا نطلق صواريخ الكروز؟

يبدو أن لا نهاية لهذه الأوهام التي كان علينا تصديقها... والتي تظهر مجدّداً على أنها ركض جافٍ وراء التهديد ـ الشبح الذي كان يمثّله صدّام كمقدّمة لغزو ٢٠٠٣ الأنغلو ـ أميركي.. قيل لنا إن صدام يستطيع تدمير العالم، أو (وقد استمتعت بهذه الجملة بالذات) أنه يستطيع القيام بذلك مرّتين. وأعلن وزير الدفاع الأميركي وليام كوهين أن العواقب ستكون وخيمة على العراق في حال هاجم إسرائيل. مع أنّ السيّد كوهين، الذي كان وزير الدفاع الأميركي وليس الإسرائيلي، لم يشرح ما هي «العواقب» التي كان من الممكن أن تستتبع إقدامنا السابق على إطلاق مئتي صاروخ على العراق. وفي ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٨، أي قبل ثلاث سنوات من وقوع الهجمات على الولايات المتحدة، زعم الأميركيون أن أُسامة بن لادن قد تحادث هاتفياً مع صدّام.. وفي الحقيقة كان بن لادن (الذي كان ينظر إلى صدّام بريبة أثناء حديثه معي) يميل إلى إطلاق تسمية «حيوان بغداد» على الرئيس كلينتون. لقد قال كلينتون إنه ينشد الديمقراطية في العراق.. لكن لم تُطرح أية أسئلة ولم تُدحض أية أكاذيب.

أبلغ نائب الرئيس آل غور الأميركيين أنه حان وقت «التصميم والوحدة الوطنية». ربّما اعتقدتم أن اليابانيين قصفوا بيرل هاربير أو أن الجنرال ماك آرثر تخلّى عن باتان. عندما واجه الرئيس كلينتون الأسوأ في فضيحة مونيكا لوينسكي، قصفَ أفغانستان والسودان. وحين ووجِه بالخيانة، قصف العراق. إلى أي مدى يمكن للمصادفة أن تذهب؟ لا عجب إذا سمّى بعض مفتّشي الأمم المتّحدة ذلك «حرب تنّورة مونيكا». إذاً ، لقد ذهبت جيوش مسيحية (أميركية وبريطانية) إلى الحرب ضدّ بلد مسلم(العراق) بدون أهداف ولكن بجيش من العبارات السخيفة، وقد تخلّوا عن نظام الأمم المتحدة لمراقبة الأسلحة وفتحوا

الباب أمام هجوم عسكري شامل ضد العراق.. ولم يسأل أحد السؤال الواضح: ماذا يحدث لاحقاً؟

في واشنطن قيل لنا إن محاكمة الخيانة ضدّ كلينتون (لأنه معرّض للإهانة أكثر من صدّام) تأجّلت لأن القوّات الأميركية كانت في «مسار مؤذٍ». وفي الحقيقة كان الرجال الذين يطلقون الصواريخ على العراق من سفن آمنة في الخليج في موقف خَطِر يوازي خطر موقف مقدّم الأخبار في السي إن إن. بينما الأشخاص الوحيدون الذين كانوا في خطر حقيقي هم العراقيون. مع ذلك عندما انضمّ السلاح الجوّي البريطاني إلى القصف أبلغنا مقدّم الأخبار في البي بي سي ـ القسم الدولي، أن الطائرات البريطانية بدأت العمل فوق العراق كما لو كانت هذه معركة بريطانيا أكثر من كونها قصفاً لبلد عربي محطّم بفعل العقوبات شبه القاتلة.

عندما اتصلت بصحفي سعودي صديق، وأبلغته أن داوننغ ستريت تدّعي أن الهجوم على العراق يهدف إلى حماية الخليج العربي، صرخ بكلمة واحدة على الهاتف: «زبالة، زبالة، لماذا تريدون قتل المزيد من هؤلاء المساكين». كان الإنكليز يحاولون إظهار القصف العدائي على العراق بوجه عامّ على أنه بنقاء حرب الخليج ١٩٩١. إن جيران العراق مهدّدون ويجب حمايتهم من أسلحة الدمار الشامل. وباستثناء الكويت، التي قرّر بعض مواطنيها ممارسة العادة المألوفة بالفرار عبر الحدود السعودية، لم ترغب دول الخليج العربي في أي حماية غربية. . في البصرة، كانت مصفاة النفط هدفاً للقصف الأنغلو ـ أميركي، وقد وعد كلينتون وبلير أن الأهداف العسكرية فقط سوف تضرب، لكن المصفاة استُخدمت، كما قيل، لتهريب النفط ولذلك أصبحت «هدفاً عسكرياً». وسيُقال لنا قريباً إن مصافي النفط هي لتأمين مورد لدفع برنامج «النفط مقابل الغذاء» الذي كان يفترض أن يخفف تأثير عقوبات الأمم المتّحدة، لكن لم يكن هذا التزييف الفاضح للعبارات هو الذي أغضب العرب. لكنّ ما أغضبهم (المسلمون غير العرب) هو الأسلوب الأحادي الغبيّ الذي حاولنا به تبرير

الهجوم على العراق. وتكفي مراجعة لائحة الأعذار العدوانية عام ١٩٩٨. فاستناداً إلى كلينتون وبلير:

١ ـ رفض صدّام حسين الانصياع لقرارات مجلس الأمن التي لا تُحصى.

٢ ـ استمرّ في صناعة أسلحة الدمار الشامل.

٣ ـ عطّل عمل مفتّشي الأسلحة من اليونسكوم.

٤ ـ أساء إلى حقوق الإنسان.

٥ ـ استخدم الغاز السامّ ضدّ شعبه.

الآن علمنا أن صدّام حسين كان فظيعاً، ليس سيّئاً بقدر هتلر وستالين لكنّه حتماً أسوأ من لورنس كابيلا، وبالتأكيد أسوأ من مُعمّر القذافي وأيضاً أسوأ من سلوبودان ميلوزوفيتش.

لكن مَن أيضاً صُنّف عام ١٩٩٨ للجريمة الأولى؟ إسرائيل وصربيا!! ومَن صُنّف للثانية؟ إيران، إسرائيل، سوريا، باكستان، الهند، كوريا الشمالية... أما الجريمة رقم ٣ فقد كانت حصريّة لأنه لم يكن هناك يونسكوم للتفتيش عن أسلحة الدمار الشامل في دول أخرى. لكن صُنّفت للجريمة رقم ٤ كلّ من الجزائر، مصر، إيران، ليبيا، فلسطين، إسرائيل، سوريا، السعودية تركيا...الجريمة رقم ٥؟ العراق فقط مع تحذير: أنه لم يعترف أي زعيم غربي بأن صدّام قتل من الإيرانيين أكثر مما قتل من الأكراد العراقيين بينما كانت الإدارة الأميركية ووزارة الخارجية البريطانية تساندان العراق.

إذن، ماذا نفعل بقصفنا للعراق؟ لنعدْ إلى شباط/فبراير ١٩٩٩... لقد أردنا قصف العراق عندما منع صدّام مفتّشي الأمم المتّحدة من دخول قصوره. وأصدر أمين عام الأمم المتحدة كوفي أنان «مذكرة تفاهم» للسماح للأمم المتحدة بالتفتيش لمرّة واحدة، بمرافقة دبلوماسيين أجانب، في أماكن يُفترض أنها رمز لسيادة العراق. لكن عندما اعترض صدّام على المفتّشين الأميركيين التابعين للأمم المتحدة، طفح الكيل: إنه الآن بالتأكيد يرغب في أن يُقصَف لأنه فقد

الأمل بأي رفع للعقوبات وعرف أن العرب سيتعاطفون مع العراق. وقد أصبح الصحفيون مرعوبين من رقم نصف المليون طفل الذين ماتوا في العراق بسبب العقوبات، لذا فقد كان من الأسلم مناقشة الخطأ أو الصواب في قتل ٨٢ مدنياً في الغارات الجوّية في كانون الأول/ديسمبر. لم يرَ العرب الأحداث مشوّهة بمثل هذه الطريقة، ومع أن أنظمتهم يُرثى لها، فقد تملّكهم شعور بالغضب والإذلال.. كما أن الاقتناع بأن الغارات على بغداد كانت لتجنّب اتّهام كلينتون جعل الأحداث تبدو وكأنها تجاوزت ما هو لاأخلاقي.

عندها، عندها فقط، وفي العام الجديد، في الأسبوع الأول من كانون الثاني/يناير ١٩٩٩، أي بعد أقلّ من ثلاثة أسابيع على الهجمات التي شُنّت على العراق لأن صدّام منع فرق اليونسكوم من العمل، جاء كشف الحقيقة. لقد كان المفتّشون الأميركيون جواسيس. فقد تمّ وضع رجال المخابرات الأميركية في فِرق التفتيش إضافة إلى عملاء المخابرات البريطانية م١٦.. وإذا كان التقرير في الإندبندنت صحيحاً، وأن الأمم المتحدة كانت مجبرة على الاعتراف بأن يونسكوم سهّلت مباشرة تشكيل نظام تجسّس للولايات المتّحدة خارقةً مهمّتها، فقد أنشأ عملاء الولايات المتحدة «صندوقا أسود» للتنصّت في مراكز اليونسكوم في بغداد كان يلتقط مخابرات صدّام حسين الرئاسية. كانت عملية «هزّ الشجرة» تفترض كشف إخفاء النظام للأسلحة، لكنّ موظّفي الأمم المتّحدة أدركوا أن عملية سيجنت SIGINT التي تديرها وكالة الاستخبارات الأميركية ـ وحدة الشرق الأوسط، التي يرأسها زميل ريتر ستيف ريتشتر، لم تكن تتبادل المعلومات مع اليونسكوم. فقد أصبحت بعثة الأمم المتحدة للتفتيش في العراق تقوم بعملية تجسّس أميركية ضدّ النظام. وتكبّد قليلون عناء التذكير بأن مبرّرات صدّام لطرد مفتّشي الولايات المتحدة (السبب الرسمي لقصف كانون الأول/ديسمبر) قد ثبتت صحّتها. لكن اليونسكوم كانت قد انتهت... بعكس الهجوم على العراق... فمع قليل من الدعاية، ورغم اللامبالاة الواضحة في العواصم الأوروبية، قامت الطائرات الأميركية والبريطانية بأكثر من ٧٠ غارة جوّية على العراق خلال خمسة أسابيع من كانون الثاني/يناير حتى شباط/فبراير ١٩٩٩،

محدثة أضراراً إضافية فاقت ما سبّبته غارات ما قبل الميلاد. وقد أعطيت أوامر جديدة الآن للطيّارين الذين ينطلقون من السعودية والكويت تسمح لهم بإطلاق النار على المنشآت العراقية حتى لو لم تتعرّض طائراتهم لتهديد مباشر. وكان الهجوم الجوّي محسوباً بدقّة لتجنّب الانتقاد وجدل الرأي العامّ على الرغم من أنه تصادف مع محاولات إضافية من واشنطن لإسقاط نظام صدّام حسين. في بيتي في بيروت، في يوم غزير المطر، أمضيت ساعات أبحث بين نُسخ الصحف العربية والبريطانية عن تفاصيل تلك الغارات. زرت توفيق مشلاوي وهو صحفي لبناني فلسطيني قديم كانت صحيفته ميدل إيست ريبورتر Middle East Reporter دقيقة في تسجيل كلّ غارة جوّية غربيّة على العراق وانعكاساتها السياسية في العالم العربي، ووجدت أن أرشيفه كان مليئاً بتصريحات مُقتضبة خارجة عن الموضوع من قبل متحدّثين عسكريين غربيين. وهكذا، بينما كنت جالساً في مكتبه البارد قرب وسط بيروت، وضعت هذه القُصاصات بعضها بجانب بعض ووجدت نفسي أقرأ رواية متماسكة ومزعجة جدّاً لحرب سرّية قريبة. تحوّلت فقرات إخبارية صغيرة كما نسمّيها إلى قصص أطول، وقمت بتصويرها وجمعها واحدة تلو الأخرى في ملفّي، وبدأ الملفّ يكبر.. وكان عليّ فتح ملفّ جديد لمجموعة القصاصات التالية.

هوجمت مواقع الصواريخ العراقية (بدون إنذار) واستُهدفت محطّات الرادار بسبب وجودها فقط وليس بسبب أي نشاط عدائي يهدّد القوّات الأميركية في الخليج كما قيل. في بداية شباط/فبراير على سبيل المثال، قصفت الطائرات الأميركية بطّارية صواريخ مضادّة للسفن CSSC-3 Seersucker في شبه جزيرة الفاو كانت (بحسب ناطق رسمي) «تستطيع تهديد الملاحة في الخليج». وقالت مصادر عسكرية إنه لم يكن هناك دليل على أن الصواريخ كانت مُعدّة للإطلاق رغم أن المسؤولين الأميركيين والبريطانيين استمرّوا في القول لأكثر من سنة بعد الحادثة أن طيّاريهم كانوا يردّون فقط على تهديدات محدّدة ضدّ طائراتهم. في مقال في صحيفة الإندبندنت يوم ٧ آب/أغسطس ٢٠٠٠ كتب وزير الخارجية بيتر هاني (الشخص نفسه الذي هاجم هاليداي وفون سبونيك على انتقاداتهم

لعقوبات الأمم المتحدة) أنه كان هناك حوالي ٨٥٠ تهديداً مباشراً ضدّ طائراتنا في السنة ونصف السنة الماضية بما في ذلك هجمات بالصواريخ ونيران كثيفة مضادّة للطائرات. «لقد قام طيّارونا بالردّ فقط للدفاع عن أنفسهم ضدّ هذا النوع من الهجوم».

كان ذلك كذباً واضحاً!! لكن من خلال مهاجمتهم للعراق يومياً بينما يصدرون معلومات عاديّة فقط عن الأهداف، كان الأميركيون والبريطانيّون يضمنون أيضاً أن يلقى قصفهم المتدرّج هذا اهتماماً ضئيلاً، أو لا يلقى أي اهتمام في الصحافة.. كانت الصحف الآن تفرد غالباً أربعة أسطر عن الضربات الجوّية بينما كانت تملأ الصفحات الأولى منذ عام. وكانت الانتقادات الخفيفة تُسمع فقط عندما تصيب الصواريخ الأميركية مناطق مدنية. وأحياناً، كانت هذه الهجمات أكثر دموية ممّا كان يعترف به العراقيون. عندما كان صاروخ أميركي AGM- 130 ينفجر في مجمّع سكني في البصرة، كانت التقارير الأولية تتحدّث عن إصابة مدنية واحدة مع أن حوالي ١٦ شخصاً قتلوا في ذلك اليوم وأصيب مئة آخرون بجروح. وصرّح فون سبونيك الذي كان لا يزال المنسّق الإنساني للأمم المتحدة في بغداد أن صاروخين ضربا منطقتين مدنيّتين تفصل بينهما مسافة ٣٠ كيلومتراً، الأول في البصرة حيث سقطت امرأة وخمسة أطفال بين القتلى، والثاني في قرية أبو الخصيب حيث قتل خمس نساء وخمسة أطفال. بعبارة أخرى كان معظم الضحايا من الأطفال. وفي وقت لاحق اعترف ناطق باسم البنتاغون ردّاً على سؤال عن الإصابات قائلاً: «أودّ أن أكرّر أننا لا نستهدف المدنيين».

وكانت الهجمات الجوّية لعام ١٩٩٩ قد بدأت يوم رأس السنة بخمس غارات أميركية خلال أسبوعين، تبعتها يوم ١١ كانون الثاني/يناير غارة عندما هاجمت طائرات أميركية مواقع صواريخ عراقية انطلاقاً من قواعد جوّية في تركيا،... استمرّت الغارات يومياً تقريباً حتى أواخر ذلك الشهر، أي الوقت الذي انضمّت فيه القاذفات البريطانية إلى الطائرات الأميركية في غاراتها. وفي ٣١ كانون الثاني/يناير، قامت ٨ طائرات أميركية وبريطانية بقصف طرق

المواصلات إلى الجنوب من البصرة... و قال بيان صادر عن الأميركيين يوم ٤ شباط/فبراير إن الطائرات الأميركية والبريطانية دمّرت حتى تاريخه أربعين بطّارية صواريخ، مضيفة أن ذلك وحده سبّب أضراراً كبيرة للعراق تفوق غارات كانون الأول/ديسمبر.. ومرّ البيان بدون تعليق. ولم تفسّر واشنطن أو لندن ما إذا كانت الغارات مدعومة من الأمم المتّحدة، ومرّ تحذير من أكبر رجال الدولة في الحزب الاشتراكي البريطاني طوني بِن دون أن يلفت الانتباه.

يوم ١١ شباط/فبراير، شجب الجنرال السير مايكل روز، القائد البريطاني السابق لقوّة الأمم المتّحدة في البوسنة، الهجوم في خطاب ألقاه أمام معهد الخدمات المتّحدة الملكية، قال فيه: «إن الصور التلفزيونية المستمرّة لأنظمة الغرب العالية التقنية التي تسبّب الموت والدمار في العالم الثالث لن يستمرّ التسامح حيالها إلى الأبد من قِبل الشعوب المتحضّرة». لكن تمّ تجاهل ملاحظاته بشكل واسع. بالمقابل، استمرّ المسؤولون الأميركيون في محاولاتهم الفاشلة لتشكيل معارضة عراقية موحّدة ضدّ صدّام، وطلبوا دعماً عربياً لخططهم. وعندما أعلن صدّام أن «مناطق الحظر الجوّي» الغربية غير قائمة (وكان هذا صحيحاً وفقاً للقانون الدولي)، فقد شجّع دفاعاته الجوّية على إطلاق النار على الطائرات الأميركية والبريطانية، وقدّم أيضاً جائزة قيمتها ١٤ ألف دولار لطواقم صواريخ أرض ـ جوّ الذين يُسقطون طائرة مُغيرة.. على أن ذلك لم يسفر عن شيء: فقد كانت بطّاريات الدفاع الجوّي العراقية أدنى مستوى مقارنةً بالتقنية الأميركية والبريطانية.

وبينما استمرّت الحرب شبه السرّية، أُعلن في بغداد أن ستّة مدنيين آخرين ماتوا، واحد في غارة قرب النجف يوم ١٠ شباط/فبراير ١٩٩٩ وخمسة آخرون سقطوا مع ٢٢ جريحاً بعد خمسة أيام في جنوب العراق.

وبعدما نشرت الإندبندنت تفاصيل هذه الحرب العقيمة، تابعت بحثي في الصحف العربية اليومية... فوجدت تقريراً منشوراً في ٢٢ شباط/فبراير، جاء فيه أن الطائرات الأميركية والبريطانية هاجمت موقعاً صاروخياً عراقياً وقاعدة اتصالات قرب العمارة وتليل. ويوم ١ آذار/مارس، ألقت طائرات أميركية أكثر

من ٣٠ قنبلة موجّهة زنة ألفي ليبرة و٥٠٠ ليبرة على محطّات إرسال إذاعية «كانت أهدافاً تتعلّق بالاتصالات وبطّاريّات الدفاع الجوّي» في شمال العراق. وقد صرّح وزير الدفاع الأميركي كوهين في اليوم نفسه أن لدى الطيّارين الأميركيين حرّية أكبر في هجماتهم. وعندما أوقفت غارة جوّية صادرات النفط إلى تركيا، اشتكى المدير التنفيذي لبرنامج الأمم المتّحدة «النفط مقابل الغذاء» بينون سيفان أن هناك عجزاً بقيمة ٩٠٠ مليون دولار حتى الآن بين الموارد المتوقّعة والمبالغ الضروريّة لتمويل البرنامج الإنساني الخاضع للعقوبات، وأن استمرار الغارات سيجمّد جهود تأمين الغذاء والدواء للمدنيين. وقد تمّ تجاهله تماماً مثلما حصل مع طوني بِن ومايكل روز.

لكن تقارير الصحافة العربية حول الغارات الأميركية والبريطانية أثبتت أن تحذيرات روز كانت صحيحة. حتى أن قطر، الحليفة القديمة لواشنطن عارضت الحملة. وقد أبلغ وزير الخارجية القطري الشيخ حمد بن جاسم آل ثاني الوزير كوهين يوم ٩ آذار/مارس بأن قطر «لا تتمنّى رؤية العراق يُقصف يومياً ولا هذه الغارات التي تحصل في مناطق الحظر الجوّي». وطلب أمين عام الجامعة العربية عصمت عبد المجيد وضع حدّ لهذه الغارات الجوّية. وقد ساهمت حرب كوسوفو التي استطاع الأميركيون والإنكليز فيها لعب دور حامي المسلمين في تلطيف حرب العراق. وفي ٢ نيسان/أبريل، أعلن العراقيون أن الطيران دمّر مركز مراقبة لمحطة ضخّ النفط في ميناء البكر.

لم يكن هناك من نهاية لذلك الأمر!! ففي ٦ نيسان/أبريل، أعلن البنتاغون عن هجوم مشترك أنغلو ـ أميركي على قاعدة صواريخ أرض ـ جوّ في الفيصلية. وأفيد عن مقتل ثلاثة مدنيين في غارات على كردستان العراق يوم ٨ أيار/مايو.. وقُتل ١٢ آخرون في الموصل بعد خمسة أيام. وهكذا استمرّ الأمر. ولاحظت النيويورك تايمز أن حرب العراق مستمرّة من دون علم الأميركيين وأوردت في ١٣ آب/أغسطس أن الطيّارين الأميركيين والإنكليز أطلقوا أكثر من ألف صاروخ ضدّ ٣٥٩ هدفاً في الأشهر الثمانية الماضية، وأنهم قاموا بطلعات جوّية تفوق بمعدّل الثلثين ما قام به طيّارو حلف الأطلسي ضدّ يوغوسلافيا خلال قصف

الربيع لمدّة ٧٨ يوماً. وما كان الردّ على كلّ ذلك في الإدارة الأميركية؟ صرّح المتحدّث جيمس روبن: «إن المسؤولية الكاملة عن هذه الأحداث تقع على عاتق صدّام حسين».

وخلال ذلك العام، استمرّ الأميركيون والإنكليز باستهداف البنية التحتية للعراق أو ما تبقّى من دفاعاته.. وكانت حرب استنزاف قلّصت بانتظامها الغارات الجوّية شبه اليومية إلى مجرّد روتين لا يستحقّ الإعلام... ولكن، ليس في العالم العربي!!! فقد ندّدت الصحف في جميع أنحاء الخليج بالهجوم المستمرّ، وصرّح المسؤولون السعوديون في مجالسهم بأن القصف الجوّي يسبّب غضباً متزايداً في أوساط الشباب والمواطنين الأكثر تديّناً في المملكة... وحذّر الجنرال روز من أن هذا العنف «لن يتمّ التسامح معه إلى الأبد».... ولكن ماذا كان بإمكان العرب أن يفعلوا؟ وما هي الأسلحة التي كانوا يملكونها في ترساناتهم لكي يغيّروا توازن القوّة بين الشرق والغرب، غير تلك الطائرات والدبّابات التي بيعت للمتسلّطين عليهم لزيادة ثرواتنا نحن؟؟

ومن ناحية ثانية، فإن هناك سوطاً آخر مسلّطاً فوق رأس الشعب العراقي كان علينا الحديث عنه، وهو كان خليطاً مجنوناً لعبت فيه نيراننا وعقوباتنا دوراً شخصياً رهيباً، سوف يَسم العراقيين في السنوات، وربّما الأجيال، القادمة. وبعبارة تاريخية، قد توصف يوماً بأنها أبشع جرائمنا في الشرق الأوسط، ضدّ العرب وضدّ الأطفال.. لقد تجلّت هذه الجريمة في دمامِل، وأورام منتشرة، وغانغرينا، وسيلان للدم، وتشوّه في رؤوس الأطفال، وآلاف من المقابر الصغيرة.

سمعت بداية معلومات تقول إن العراقيين سيعانون من سرطان جديد غريب مُعدٍ، وذلك حين كنت في زيارة للعاصمة السورية دمشق صيف ١٩٩٧... وقد أخبرني زعيم عراقي معارض، وهو رجل دين شيعي هرب إلى إيران بعد فشل انتفاضة ١٩٩١ وسافر بعدها إلى سوريا، أن الجنود السابقين الذين التجأوا إلى المعسكرات في جنوب إيران أصيبوا بعدد غير عاديّ من أمراض السرطان، وقد قاتل معظمهم عام ١٩٩١ في معارك الدبّابات جنوب غرب البصرة، وضُربت

مدرّعاتهم بشكل متكرّر بقنابل أميركية مشبعة باليورانيوم... وتحدّث رجل الدين عن أطفال عراقيين في مخيّمات إيران أصيبوا بالمرض أيضاً. إذا كان ذلك صحيحاً، وكان هؤلاء قد جاءوا أيضاً من جنوب العراق، عندها فكيف هو الوضع الصحّي للأطفال في البصرة اليوم؟ ما طبيعة أمراض السرطان الغريبة؟ عندما وصلت إلى بغداد أوائل ١٩٩٨، وُوجهت تقريباً في وقت واحد بحالات غير متوقّعة من السرطان. فقد خسرت عائلة عراقية أعرفها منذ سنوات ثلاثة من أفرادها بسرطان الدم خلال سنتين. وكان لهذه العائلة تاريخ في مجال التدخين. لكنّ السيّدة المتوسّطة السنّ التي استقبلتني عند الباب وكانت ترتدي حجاباً على رأسها لم تكن تدخِّن. وجدت ذلك غير عادي. وكان هناك مسؤول حكومي أُدخل ولداه إلى المستشفى نتيجة شكوى من مرض رئوي، تحوّل لاحقاً إلى مرض سرطاني. وقد أخبرني صديق عراقي آخر عن طفل الجار الذي أصيب بمرض في إحدى عينيه وقد استخرج الأطباء عينه حتى لا ينتشر السرطان.

تطلّب الأمر منّي عدّة أيام، قبل أن أكتشف أنّ هذا الشيء الرهيب حصل في نهاية حرب الخليج عام ١٩٩١. وقد عزا بعض العراقيين الأمر إلى حرائق النفط التي اشتعلت خلال الحرب وبعدها مُطلقة سُحباً من الدخان خيّمت على البلاد لأسابيع وأنتجت ضباباً مولّداً للسرطان فوق بغداد والمدن الأخرى... وشك آخرون في أن ذلك ناجم عن آثار تدمير مصانع الأسلحة الكيميائية التي كانت لدى صدّام. لكننا وجدنا، بشكل متزايد، أن معظم المعرّضين للخطر جاءوا من مناطق استخدمت فيها طائرات الحلفاء (والدبّابات في الجنوب) كمّيات كبيرة من الذخائر المشبعة باليورانيوم.. وقد تمّ صنع قنابل DU من بقايا الصناعة النووية، وهي خليط معدني قاسٍ أقوى من التنغستين الذي يتحوّل إلى سائل نووي بخّاخ بعد إطلاقه على الدبّابات المصفّحة وناقلات الجند. وكما توقّعت، فقد أنكر الأميركيون والبريطانيون أن تكون هذه الذخائر سبب السرطان.

لم تكن تلك رواية يسهل التحقيق فيها... وبعكس شظايا القنابل المبرمجة بالكمبيوتر، لا يمكن مادّياً ربط ذخائر DU (التي يسهل التعرّف إليها لأنها تترك

رأساً مخترقاً في الهدف أو قربه) بسرطان الدم الذي أصاب عدّة آلاف من العراقيين إلّا من خلال تحليل دقيق لمكان الانفجارات السرطانية ومقابلات مع العشرات من المرضى. فعلى سبيل المثال، لم يكن بعض الأطفال الذين تحدّثت معهم قد ولدوا عام ١٩٩١، لكن وجدت أن أهلهم كانوا قريبين من هجمات الحلفاء الجوّية أو الهجمات بالدبّابات. كانت هناك صعوبة أخرى في نقل هذه القصّة واجهتني مع زميلَي (لارا مارلوي التي تعمل الآن مع صحيفة الأيرِش تايمز وأليكس طومسون من القناة الرابعة البريطانية وهما عملا معي في تحقيقي الأول) عندما زرنا المستشفيات العراقية المهدّمة والقذرة بشكل كبير. كانت أجنحة مرض السرطان صادمة، وأكثر منها أجنحة الأطفال المرضى بالسرطان: أماكن لا يجب أن توجد على الأرض إذا كان للحياة وللطفولة من معنى. لكنّ أجنحة سرطان الأطفال بغيضة، بالنسبة إلى الذين يموتون من أمراض الحرب... ذلك أن ما صار واضحاً شيئاً فشيئاً هو أن وباءً كيميائياً انتشر جنوب ما بين النهرين، مخلّفاً وراءه كابوساً متنقّلاً من سرطان الدم وسرطان المعدة أدّى إلى وفاة الآلاف من الأطفال العراقيين، وكذلك من الكبار الذين كانوا يعيشون قرب مناطق القتال في حرب الخليج عام ١٩٩١.

كان هؤلاء الأطفال يبتسمون وهم يُحتضرون كان عمر علي هلال ابن ثماني سنوات عندما التقيته في مستشفى المنصور في بغداد... كان يعيش قرب محطة تلفزيون وعدّة مصانع في ديالا التي قُصفت مراراً من قِبل طيران الحلفاء، كان الطفل الخامس لعائلة ليس لديها ماضٍ مع السرطان... وهو الآن مصاب بورم في الدماغ.. وقد ذكر الدكتور عليّ مدى سوء تغذية الصبي عندما وصل إلى المستشفى. «أولاً كان عنده نكاف، بعدها كان لديه انتفاخ في البطن والصدر، والآن وصل الورم إلى الدماغ، وكان التشخيص المسبق فقيراً جداً». وقد تذكّرت والدة عليّ هلال فاطمة عمليات القصف. قالت: «كانت هناك رائحة غريبة، رائحة حريق صادمة، كرائحة مُبيد للحشرات». وقال الدكتور إسماعيل إن الطفل أصيب بصُداع حادّ البارحة، وأضاف بينما كان يبتسم له: «كان يصرخ، وعندما أعطيته حقنة بين ضلوعه، عرف ألم الإبرة لكنه ظلّ هادئاً لأنه يعرف أنني أبغي الخير له».

كان الطفل لطيف عبد الستّار يلعب بسيّارة كهربائية صغيرة عندما شاهدته للمرّة الأولى. وكانت ابتسامته توحي بالحياة، رغم رأسه الأصلع لكنه سيموت(*).

سرت مع الدكتور إسماعيل في جولته الصباحية. كان يوسف عبد الرؤوف محمّد من كربلاء حيث كان يعيش قرب قواعد عسكرية قُصفت عام ١٩٩١ وهو يعاني من نزيف معوي. ما زال شعره المجعّد موجوداً وكان يستطيع الحديث مع أهله، ولكن ظهرت على وجنتيه بقع دم صغيرة، وتلك علامة مؤكّدة على النزيف الداخلي... لكن الدكتور إسماعيل كان منزعجاً من ذكرى ما... قال: «منذ حصار الأمم المتحدة، يموت المرضى غالباً قبل أن يحصلوا على علاج»، وكان ينظر إلى الأرض لأنه يعلم أن قصّته ستكون مرعبة. وأضاف: «أصيبوا بانخفاض حادّ في لوحات الدم. وكانوا ينزفون من كل مكان من أجسادهم. كان لدينا طفل آخر مثل يوسف يدعى أحمد فليح. وبعدما بدأنا بالمعالجة بالسيتوتوكسين، بدأ النزيف من كل مكان، من فمه، وعينيه، وأنفه، ودبره. نزف حتى الموت خلال أسبوعين».

كان الدكتور إسماعيل الذي يعمل في قسم السرطان يجلس في مكتبه يحدّق أمامه، وقال: «عندما توفي فيصل عبّاس منذ يومين، جئت أمام الباب هنا وجلست ثم بكيت. لقد أعطيته أدوية بيدي، كان بمثابة أخ لي، وكان عمره ١٠سنوات فقط، أصيب بسرطان الدم منذ ثلاث سنوات وعالجناه بالأدوية وحصل على العلاج لكنه كان جزئياً فقط لأننا نفتقر إلى العديد من الأدوية».

وضع الدكتور إسماعيل اللوم على العقوبات بالتأكيد لتسبّبها بمنع الأدوية،

(*) تمّ تشخيص مرضه بأنه غير خبيث قبل ثلاثة أشهر، فقد تلقّى علاجين من السيتوتوكسين لكنّ المرحلة الثالثة كانت جزئية، لأنه كان يتلقى فقط Adriamycin cyclophosphamide كمضادّ لـ Vincristine كما قال الدكتور إسماعيل. ما كان يحتاج إليه لطيف كانت تنتجه شركة ألمانية أسمها استراميديكا. «حصلنا على عشرين وحدة من المضادّ الحيويّ خلال عشرة أيام، قبل ذلك كان أهالي المرضى يشترونه بسعر ١٦٠ ألف دينار، ما يعادل راتب أكثر من سنتين للعديد من العراقيين. لكن مع ذلك لم نحصل على ما يكفي. كان لطيف يحتاج إلى علاج طويل طالما استمرّ المرض الخبيث».

واشتكى أن حرب ١٩٩١ حوّلت جناح سرطان الأطفال إلى معبر للأطفال الذين يموتون، للأطفال الذين كانوا ينزفون حتى الموت أمام الأطبّاء بعد أخذهم جرعة العلاج الأولى. وقال الدكتور إسماعيل: «خلال ثلاث سنوات شاهدت مئات الأطفال المصابين بسرطان الدم، وفي العام الفائت كانت هناك زيادة مأساوية. هذا الشهر شخّصنا عشرين حالة جديدة معظمها من الجنوب، من البصرة، والناصرية، وكربلاء والنجف، نتجت بشكل رئيسي عن الإشعاع». كان لدى الأطبّاء هنا طريقة غريبة في التعبير عن أنفسهم بنوع من اللغة العاطفية العلمية. قال أحدهم: «لدينا علاج مخفّف لكن ليس لدينا علاج شافٍ».

عندما تجوّلت في ردهة جناح سرطان الأطفال فهمت ماذا يعني ذلك.... كانت الطفلة سمر قدير ترقد في ما يسمّيه الأطبّاء عرضاً: «جناح الموت». عمرها خمس سنوات لكنها كانت تبدو أصغر سنّاً وهي ممدّدة ترتجف في سريرها، مغمضة العينين من الألم، وكان والدها المصدوم بجلّابيته الرمادية رغم حزنه وألمه يضع ضمادة مبلّلة صفراء على وجهها. جاءت من اليوسفية على طريق بابل التي كانت هدفاً للغارات المنتظمة في شباط/فبراير ١٩٩١.

بدا جابر والد سمر رجلاً مسكيناً، وقد دفع ١٥ ألف دينار لشراء دواء السيتوتوكسين Cytotoxin لابنته التي تموت، أي ما يعادل راتب أكثر من ثلاثة أشهر بالنسبة إليه، وأبلغني بهدوء: «بعت سيّارتي لشراء الدواء لها». وعندما سألناه كيف سيدفع ثمن الجرعة الثانية لها قال: «سوف أستدين المال». أنصت الدكتور إسماعيل بصمت ثم قال لي بالإنكليزية: «لقد رأيت عائلات المرضى عدّة مرّات، يبيعون كلّ ما يملكون في بيوتهم حتى الأسرّة ومن ثمّ يموت الطفل على كلّ حال».

لا تستطيع التحرّك في «جناح الموت» في بغداد دون شعورَيْن: إحساس عميق بالضيق وحتى الخزي بأن نصرنا العسكري على صدّام القاسي عامَ ١٩٩١ خلق هذا المطهر المكتظّ بالأبرياء، وذلك بسبب تسميم الهواء الذي يتنشّقون والأرض التي يحاولون العيش فيها.... وإعجاب عميق بكرامة الفقراء العراقيين

الذين يبيعون أحياناً ملابسهم جاهدين لإنقاذ أطفالهم الذين يموتون في أحضانهم، ولا أحد يستطيع البقاء غير متأثر بشجاعة الضحايا.

إنّ سلمى حدّاد طبيبة من اللواتي يمكنك بالتأكيد اختيارها لعلاجك في مرضك الأخير.. كما دوّنت تلك السنة في ملاحظاتي التي لا تصدّق ووضعتها في محفظتي المليئة بعشرات الصفحات. في مركز صدّام حسين الطبّي في بغداد (من الضروري اتّباع نوع من فقدان الذاكرة خاصّ بدلالات الألفاظ بالنسبة إلى أسماء العديد من المؤسّسات في العراق)، أحصت الدكتورة حدّاد الأطفال الذين تعرف أنهم سيموتون قريباً. كانت تمزح مع كرّار عبد الأمير البالغ من العمر ١٣ سنة والذي كان خائفاً من سرطان الدم ولكنه أكثر خوفاً من أخذه الأدوية التي يمكن أن تنقذه... عرّفتني إلى كلّ طفل بالاسم من دون النظر إلى البيانات أسفل الأسرّة لمعرفة هويّاتهم. ضحكت الدكتورة حدّاد قائلة: «الآن هذه شيرو جاسم وهي لبست ثوباً جديداً لك لكي تأخذ صورتها».

وقد ابتسمت الفتاة الجميلة فرحاً بقبّعتها الشمسيّة... اسمها يعني برعم زهرة، وكانت تعاني من سرطان دم حادّ. جلست آمنة أحمد صلعاء مُشرقة، ومسحة هدوء على وجهها الصغير وأنا أصوّرها بكاميرتي... حرارتها المرتفعة خفّضتها المروحة الكهربائية، وقد بدت هذه الآلة التي تحارب حرارة بغداد بعد الظهر نوعاً من الهالة القدسيّة حول رأسها: كملاك من بابل، تموت من ورم معويّ. وقالت الدكتورة حدّاد: «أنا مُحبطة ومتشنّجة. لا أستطيع إنقاذ العديد من الأطفال، لكن ما الذي باستطاعتي فعله؟ لديّ شعور بالمسؤولية تجاه الأطفال المساكين، وأشعر بالعجز معظم الوقت». وسألتْ إذا كنتُ سأرسل نسخ الصور إلى الأطفال في بغداد بأسرع ما يمكن، فخلال شهر أو شهرين تكون آمنة قد توفّيت، وشيرو أيضاً، وترغب الدكتورة حدّاد أن يروا صورهم قبل وفاتهم.

ماذا يستطيع المرء أن يقول في حضرة الأمّهات والآباء الواقفين قرب أسرّة أطفالهم الذين يموتون؟ يوسف محمّد ابن السابعة، صبي صغير يرتدي بيجامة زرقاء وبيضاء، يعاني من سرطان دم حادّ، وتعتقد والدته حسيبة أنها تعرف السبب. قالت: «كانت هناك قاعدة عسكرية قرب بيتنا في بغداد، وقد تمّ قصفها

بشدّة من قِبل الأميركيين، وكذلك شبكة الاتصالات المحلّية. شعرنا بالمرض بسبب الدخان الصادم في وقتها، وكان لديّ طفل بصحّة جيّدة ولِد قبل الحرب. وعندما حملت بعد الحرب أجهضت، ثم رُزقت بيوسف الذي يعاني سرطان الدم. وبعدها وقع لي إجهاض آخر. لماذا حصلَ لي ذلك؟ توفّي صهري عبد القادر رشيد من سرطان الدم بعد سنتين من الحرب، وكان جندياً عمره ٣٦ سنة فقط. كيف يمكن لعائلتي التي ليس لديها تاريخ مع مرض السرطان أن تعاني فجأة هكذا؟».

أشواق حميد ابنة الثالثة عشرة المصابة بسرطان حادّ، فتاة هادئة تغطي رأسها بحجاب أصفر، وهي تحتاج إلى زرع مخّ العظم، الأمر الذي لا يتوافر في العراق... وكانت جدّتها جاسمية تجلس قرب سريرها. قالت: «نحن من ديالا شرق العراق، كان القصف قريباً جدّاً منا، وقد قُصف المطار والمصنع الزراعي بشدّة، وشممنا دخاناً غريباً رائحته كالغاز». ما يتساءل عنه المرء هنا هو ماذا يُنتج المصنع الزراعي؟ مُبيدات أو غازاً؟ ومن أي موادّ صُنعت القنابل البريطانية والأميركية؟

عُلا فلاح ابنة الرابعة، ولِدت بعد أربع سنوات من حرب الخليج وعندها ورم في الكُلى. كان والدها جندياً في حرب ١٩٩١.. وهناك شائعات عديدة في العراق تقول بأن العديد من قُدامى الجنود يموتون بمرض السرطان... وكانت والدتها فاتن تهزّ رأسها حيال مصير ابنتها، وتقول: «ما زلت مشدوهة متعجّبة لماذا أصيبت ابنتي بالسرطان». على بعد بضع خطوات، كانت دامية قاسم في وضع خطير بعد معاناتها من اضطراب عمل القلب خلال علاجها الأخير ضدّ سرطان حادّ. تبلغ دامية الثالثة عشرة من العمر، وقد توفّيت عمّتها بنوع غامض من مرض السرطان قبل أربعين يوماً فقط، وكان عمر العمّة ٣٦ سنة فحسب.

وتُعتبر حالة أحمد وليد أكثر إزعاجاً، وقد تمّ تشخيص مرضه على أنه سرطان دم مزمن منذ ثلاث سنوات. كان طفلاً عندما قُصفت بلدته ديالا. لكن والدته تروي قصّة مخيفة: «شممنا جميعاً روائح غريبة بعد القصف، ثم بدأ الأطفال بجمع قطع الصواريخ والقذائف كتذكار وكانت ذات لون فضّي لامع،

ولعبوا بها في البيت. وقد قُتل جار لنا عندما سقط صاروخ على مزرعته. وأحضر الأطفال قطع حديد كبيرة من الصاروخ إلى بيتنا».

ذات ليلة، وبعد قضاء عشر ساعات في «جناح الموت» المخصّص للأطفال في بغداد، زرت مركز الصحافة العراقية الحكومي حيث يكتب صحفيّو الوكالات الغربية تقاريرهم الأخيرة حول المفاوضات بين كوفي أنان وصدّام. مشيت في الردهة الرثّة نحو مكتب الأسوشيتدبرس في مكان مستطيل جدرانه من الخشب، وأخبرت زميلاً أميركياً قديماً وصديقاً ماذا اكتشفت، فأنصت بصبر واستذكر دعاية «التابوت العراقي الفارغ»، وأعطاني إجابته المنفعلة قليلاً. قال: «روبرت، أنا لا أكتب قصص الأطفال العراقيين!». لكنّ ما أسمعه لا ينتهي، وهو ثابت وصحيح من دون شكّ ما دام الأهل غير المتعلّمين غالباً كانوا لا يعلمون أنني سأزور أطفالهم. بغض النظر عن أسئلتي حول حرب ١٩٩١، كنت أسمع مراراً وتكراراً الشيء نفسه.

يبلغ طارق عبدالله الثالثة عشرة من العمر، وهو مُصاب بسرطان دم حادّ. وقد روى لي بنفسه: «أحضر الجيران قطع قنابل لامعة إلى بيتنا، كانت ثقيلة مثل الحديد». وقد تمّ تشخيص مرض طارق منذ سنة تقريباً.

كرّار عبد الأمير، الطفل الخائف من العقاقير التي يمكن أن تنقذه أكثر من خوفه من سرطان الدم جاء من كربلاء في جنوب العراق. تتذكّر والدته إخلاص القنابل التي تساقطت قرب بيتهم: «سقطت بعض الشظايا حولنا. وحاولت إيجادها، وكانت حادّة مثل شفرات آلة الحلاقة، ولم أسمح لأولادي بلمسها خوفاً من جرح أنفسهم. كانت هناك رائحة حادّة جعلت عيوننا تدمع».

رشا عبّاس، من البصرة مصابة بسرطان الدم، عمرها ١٥ سنة، تعاني حرارة مرتفعة وهبوطاً في ضغط الدم واهتراء في الفم وعدم قدرة على الكلام. كان والدها أحد قتلى الحرب العراقية ـ الإيرانية. قالت لنا والدتها حسنة ببطء متسائلة ماذا حصل لعائلتها: «عام ١٩٩١ احترق بيتنا جرّاء تعرّضه للقصف وقُطعت أذنا رشا. دخلت شظايا الصاروخ إلى بيتنا، وركض الأطفال لالتقاطها...».

بالتأكيد، لم يكن الأطفال الضحية الوحيدة في بغداد أو في جنوب العراق. إلى جانب جناح السرطان في مستشفى التعليم في البصرة حيث يرقد مطر عبّاس بجسده المهترىء الذي يهزأ بسطح شط العرب الأزرق خارج النافذة. خسر إحدى عينيه وهو ينخع المخاط في منديله، وأسقط غطاء رأسه عنه ليكشف أثر المعالجة الكيميائية، فبان جزء من وجهه مشوّهاً بسبب السرطان الذي يأكل الآن نخاعه. جاء من مدينة الناصرية التي قُصفت ضواحيها من قِبل قوّات الحلفاء في آخر أيام حرب ١٩٩١. زوجته غانية امرأة فلّاحة على وجهها وشم، بقيت طيلة الحرب مع مطر، وهو سائق سيّارة أجرة على الطريق بين العمارة وميسان، عمره ستون عاماً، ولديهما تسعة أولاد. قالت لي: «شاهدنا شظايا القنابل، لكن لم يُقصف أي شيء قربنا، كنا بأمان». ثم تحدثت بهدوء كما لو أن الذكرى ستنقذ بطريقة ما زوجها المحتضر. تدخّل الدكتور جواد كاظم العلي وهو عضو في المعهد الملكي للأطبّاء قائلاً: «نادراً ما رأينا هذه الأنواع من الأورام قبل الحرب». كان يبتسم بينما يلمس أذن مطر اليمنى مع أنه من وقت لآخر كانت تطفر الدموع من عينيه، وكنت تُدرك أنه محطّم نفسيّاً أيضاً. إنه يشبه قليلاً بيتر سيليرز، صغير القامة وشعره قصير، وشاربه متهدّل وليس في تعليقه فكاهة.

قال: «بسبب الورم في أذنه، لا يستطيع مطر عبّاس الكلام الآن أو الأكل وهو أصمّ. جاء للعلاج الأول فقط يوم ١٦ كانون الثاني/يناير وهو يترنّح غير قادر على الكلام والشرب، وقد أظهر الكشف مرض السرطان، وأنا أعطيه علاجاً كيميائياً Cytotoxic لكن في ما بعد انتقل المرض إلى الدماغ والكلى، حتماً لن يعيش أكثر من سنة».

قادني الطبيب عبر غرفة إلى حيث ترقد زُبيدة محمّد مرتدية مُلاءة في سريرها. جاءت من الزُّبير قرب القاعدة الجوّية العراقية التي تشبّعت بقنابل الحلفاء في سلسلة غارات بدأت ليل ١٣ كانون الثاني/يناير ١٩٩١. قال الدكتور العلي: «إنها مصابة بأورام لمفاوية، وقد وصلت إلى صدرها. وهي تعاني من ضيق في التنفس». كان عمر زبيدة ٧٠ سنة.

في الجانب المقابل يرقد جواد حسن (٥٥ سنة) المصاب بمرض سرطان

المعدة منذ سنتين. كان يعيش قريباً جدّاً من محطّة تلفزيون البصرة التي كانت هدفاً لقصف الحلفاء. قال الدكتور العلي: «كان معرّضاً للغازات والقذائف على منزله. وكان قريباً أيضاً من الجسور القائمة على النهر والتي قُصفت. كان وزنه يتناقص رغم العلاج الذي يجعل مرضه سيّئاً جدّاً. تطلّع الرجل المتوسط العمر إليّ بنظرة فارغة: «منذ تعرّضي لغازات القنابل، اشتكيت من آلام في المعدة».

كانت مضامين ما يقوله ضحايا السرطان هؤلاء مُرعبة إلى حدّ أنني تمنّيت أن تكون زيارتي هي نتاج محاولة ضعيفة من السلطات لترتيب رواية يبلعها صحفي زائر وتكون أكاذيبها سهلة الكشف، أي كمحاولة فظّة من قِبل نظام صدّام لإثارة مسألة أخلاقية خطيرة حول مُجمل حرب ١٩٩١. لكن مجدّداً، لم تكن لدى الدكتور العلي أي فكرة عن زيارتي حتى لحظة دخولي إلى مكتبه في البصرة.. ولم يكن مرضاه يتوقّعون أي زوار... وإذا كان بعضهم، مثل العديد من ضحايا السرطان في أماكن أخرى من العالم، من كبار السنّ، فماذا يُقال عن هذا العدد من الرجال والنساء، الشباب والمسنّين، الذين كانوا ينتظرون خارج قسم الأورام عندما وصلت؟ قال الدكتور العلي: «هذه مأساة بالنسبة إليّ».. مشيراً إلى شاب طويل يقف بين مجموعة من النساء... «إني أفقد أصدقاء كل يوم، هذا الشاب مُصاب بالغُدد اللمفاوية وهذه الفتاة تعاني من مرض السرطان»... كانت صغيرة الجسم مع ابتسامة كبيرة ووجه كالقمر، اسمها فوزيّة عبد النبي وعمرها ٥١ سنة، أستاذة لغة إنكليزية سارت إلى مكتب القسم وكشفت عن رقبتها لإظهار أثر جراحة، ثم فتحت قميصها لتكشف عن جُرح حيث كان ثديها الأيمن، وسألت: «لماذا يحصل هذا لي؟ كانت الجراحة الأولى عام ١٩٩٣، وحتى ذلك الحين كانت صحّتي جيّدة جدّاً»... وتحكي الخرائط في مكتب الدكتور العلي القصّة: «عدد مرضى السرطان من كل الأنواع في منطقة البصرة» .. هذا ما تقوله خارطة لمحافظة البصرة مقطّعة باللون الأصفر والأخضر والأحمر، يمثّل اللون الأصفر بشكل أساسي جنوب المدينة من المناطق الريفية والصحراوية التي كانت مسرح معارك ١٩٩١. وتظهر منطقة خضراء إلى الشمال معدّل انتشار مرض السرطان. والمستطيل الأحمر الواسع في

الوسط يمثل الـ ٤٠٠ مريض بالسرطان الذين عالجهم الدكتور العلي عام ١٩٩٧. تقول نظريّته إن ساحات معارك حرب الخليج السابقة الموجودة في المنطقة الصفراء إلى الغرب لوّثت المياه والحقول وحتى الأسماك باليورانيوم والنيترات.. وأصبحت الأرض ملوّثة ليس للناجين من الحرب فقط بل أيضاً للذين ولدوا حديثاً.. إذا عدنا إلى الأيام الأخيرة للصراع، فإن واضعي الخطط في الولايات المتّحدة كانوا يتناقشون حول ما إذا كان الضرر الذي لحق بالبنى التحتية للعراق (ضرب أنابيب المياه ومحطّات الطاقة ومصافي النفط) سيؤدّي إلى موت العراقيين في الأشهر أو السنوات القادمة... لكنهم لم يشيروا أبداً بشكل علنيّ إلى أن سياسة «اقصِف الآن تحصد الموت لاحقاً»، سوف تؤدّي إلى مرض السرطان.... جاء معظم المئات من الأطفال الذين ماتوا من مرض سرطان الدم أو سرطان المعدة منذ الحرب، من الجنوب وقد أرسلوا إلى الشمال من قِبل الدكتور العلي الذي قال: «نحن في حالة يأس، يحتاجون إلى زرع النخاع الشوكي، لكننا لا نستطيع تقديم ذلك لهم. لا أستطيع النوم في الليل من شدّة التفكير في ذلك»... توجّهت أنا وأليكس ولارا متسلّحين بإحدى خرائط الدكتور العلي عن توزّع انتشار السرطان إلى جنوب البصرة ...نحو تلك الساحات التي قاتلت عليها آخر الدبّابات عام ١٩٩١... سافرنا برفقة دليل من وزارة الإعلام؛ «غاسل دماغ» بالطبع، إلا أنه كان لفترة طويلة يعمل لنا مقابل مال كثير، وكنا ندفع له الآن يومياً ما يتقاضاه في شهر من الوزارة... عندما كنا نريد السفر إلى أي مكان يمكن أن يكون ممنوعاً الذهاب إليه، أو عندما كنا نريد السؤال عن أي شيء قد لا يحظى بموافقة الوزارة، كان الدليل يُصاب بنزلة برد ويعود إلى الفندق أو ينتقل إلى الطرف الآخر من الغرفة.... لكننا كنا بحاجة إليه في جنوب البصرة، وهي منطقة عسكرية عراقية تتقاطع مع منطقة عمل قوّة حفظ السلام الحدودية التابعة للأمم المتحدة...

اعتقدت دائماً أن آخر معارك حرب ١٩٩١ حصلت في الصحراء في الرمال الكثيفة لشمال العراق التي أزعجتنا في شباط/فبراير ١٩٩١... لكن المنطقة الريفية التي نتوجّه إليها هي منطقة رعي. هناك جداول وأبقار ترعى، وحقول من

الخُضر منتشرة رغم هذا السيل الريفي والأعداد الكبيرة المحترقة للدبّابات العراقية، التي انفجر بعضها وتحوّل إلى قطع من الحديد تنتشر الآن في الخنادق أو دُفنت في التراب، وأخرى ما زالت سليمة ومدافعها موجّهة نحو الجنوب والغرب باتجاه الأعداء الأميركيين الذين دمّروها.

قُدنا مسافة ١٥ كيلومتراً أخرى... للوهلة الأولى، لم يبدُ حقل البندورة (الطماطم) التابع لعائلة عدوان على أنه حقل قتل. كانت الخِيَم البلاستيكية تعكس الشمس العالية والساطعة لفصل الشتاء. وعندما سألت عماد ابن السادسة عشرة ماذا حصل هنا خلال حرب الخليج، نظر إلى رجل وزارة الإعلام الواقف إلى جانبي وقال إنه لا يتذكّر... ترى من الأفضل أن يكون لديك ذاكرة قصيرة في العراق وأن تكذب... بينما تنساب المياه في الخنادق وسط العشب الأخضر الباهت، عصفت ريح حادّة من الصحراء إلى الغرب، تماماً كما حصل في شباط/فبراير ١٩٩١ عندما قامت كتيبة المدفعية الأولى الأميركية بقيادة الميجور الجنرال توم رام بقصف الخط السريع حتى صفوان، حاصدة قوافل الحرس الجمهوري العراقي المنسحبة بقنابل DU. كان عماد عدوان يراقبني ليرى إذا كنت قد فهمت إشارة فقدانه للذاكرة.

قال رجل الوزارة: «لا تخف» وأبرز بطاقة هويّة، ابتسم الصبي. «كانت المعارك تدور حولنا هنا، حتى إننا لم نستطع البقاء في المنزل لأننا عرفنا أنه لن يحمينا، لكننا لم نرحل. الدبّابات المحطّمة تنتشر هناك»... بعيداً خلف الأسلاك الحديدية التي تحيط بالمزرعة، خلف مجموعة من الأشجار ونباتات أخرى، كانت الضحايا الصدئة لهجوم الجنرال رام تقبع بعمق في الأرض... ظهرت والدة عماد إلى جانبنا وعلى رأسها غطاء أسود تحركه الهواء، وفي يدها حبّة بندورة باهتة وقالت لي: «أرجوك، هذه لك» حبّة البندورة صغيرة وقد قُطفت من الأرض أمامنا، ثمرة مسمومة، استناداً إلى أطبّاء البصرة، من حرب مسمومة نبتت في أرض خطرة مرويّة بمياه ملوّثة، قالت: «الجنود ماتوا على هذا الطريق»، وأشارت إلى الطريق نحو صفوان والحدود الكويتية الجديدة،

«استمرّت المعارك لساعات، وما زال الناس يقتلون، فقد انفجرت ألغام بولدين هناك في تموز/يوليو الماضي». يظهر خط الخنادق المدمّرة حجم الموت. لكننا جئنا إلى هنا من أجل الموتى الآخرين... هل آل عدوان قلقون على أرضهم؟ هل يعلمون ما قاله الأطبّاء بشأنها؟ سمعت والدة عماد فقط عن حالات مرض السرطان في المزارع ولم يعلم بذلك أحد من عائلتها.

عندها تقدّم منا حسن سلمان، الذي يزرع البندورة والبصل على الجانب الآخر من الطريق، وله وجه مميّز داكن بسبب الشمس ويرتدي جلباباً مطرزاً بخيوط ذهبيّة اللون. وحين كنا نتحدّث عن السرطان، صرخ قائلاً: «أجل، كانت عندنا حالات من السرطان كثيرة هنا، أعتقد أن ذلك حصل بسبب النيران وما حدث خلال المعارك. كانت الدبّابات عند أسفل الطريق»، توقّف لحظة ثم تابع: «توفّيت زوجة ابني بالسرطان منذ خمسين يوماً، كانت مريضة بالمعدة، اسمها آمال حسن صالح، شابّة عمرها ٢١ سنة فقط».

كانت ردّة فعل مسؤولي الحكومات الغربية على العلامات المتزايدة لتلوّث ذخائر DU تثير الشفقة. عندما كتبت تقارير لأول مرّة من أجنحة الأطفال المرضى بالسرطان في شباط/فبراير وآذار/مارس ١٩٩٨، ذهبت الحكومة البريطانية بكل قوّتها إلى دحض ما كتبت. وما زلت أحتفظ بعناية برسالة تهكّمية من اللورد جيلبيرت في وزارة الدفاع الذي قال لقرّاء الإندبندنت إن روايتي عن احتمال وجود علاقة ممكنة بين ذخائر DU وتزايد حالات السرطان لدى الأطفال العراقيين، لو جاءت من أي شخص آخر غير روبرت فيسك لكان يمكن النظر إليها على أنها انحراف مقصود عن الحقيقة.. واستناداً إلى معاليه، فإن «الجزئيات من قذائف DU ـ ذات الرؤوس المقوّاة، والتي استُخدمت ضدّ دروع الدبّابات، هي صغيرة جدّاً وتذوب وتتناثر بسرعة بسبب الطقس، ويصبح من الصعب بالتالي كشفها حتى بأدقّ الأجهزة المتطوّرة»... والآن فقد بات عليّ القول إنني جمعت خلال أشهر متواصلة ما يكفي من أدلّة للقول بأنه لو جاءت هذه الرسالة من شخص آخر غير معاليه، لكانت مضامينها كاذبة ومضلّلة.

ولكن فلنبدأ برسالة أكثر بلاغة ودقّة أُرسلت إلى دائرة التجهيز العسكري في

لندن يوم ٢١ نيسان/أبريل، من قبل بادي برتولوميو مدير التطوير العملي لـ AEA التقنية، الاسم التجاري لسلطة الطاقة النووية البريطانية... إنّ رسالة برتولوميو التي حصلت على نسخة منها (اتصلت به لاحقاً وأكّد لي أنه مرسلها لكنه لن يدلي بأي تعليق آخر) تشير إلى مكالمة تلفونية مع مسؤول إدارة التطوير العملية المدعوّ ج.ي. ساندرز حول مخاطر تلوّث في الكويت نتيجة الذخائر المطليّة باليورانيوم. وفي رسالة تحذير إضافية، لاحظ برتولوميو أنه بينما تُعتبر الأخطار التي يسبّبها انتشار الإشعاع والتلوّث السامّ لهذه الأسلحة قليلة مقارنة مع تلك التي كانت خلال الحرب، إلا أنها «يمكن أن تسبّب بالتأكيد مشكلة طويلة الأمد إذا لم تُعالج خلال فترة السلم»، وهي **تشكّل خطراً على المدنيين والعسكريين على السواء (التشديد من عندي)**.. ويتابع المستند الموسوم بعبارة «محدود التداول ـ بريطانيا» فيقول إنّ الدبّابات الأميركية أطلقت خمسة آلاف قذيفة DU والطائرات الأميركية عشرات الآلاف، والدبّابات البريطانية عدداً قليلاً من قنابل DU . . . ويصل حجم ذخيرة الدبّابات وحده إلى أكثر من ٥٠ ألف ليبرة من DU . . . وإذا جرى تنشّق ما تحتويه الدبّابة من DU ، فإن عنصر المخاطرة، وفق آخر تقارير اللجنة الدولية للحماية من الإشعاع.... يصل إلى حدود احتمال سقوط ٥٠٠ ألف قتيل (مجدّداً التشديد من عندي).

وأضاف مستر برتولوميو في رسالته عام ١٩٩١ أنه في حين أن «هذه الأرقام النظرية ليست واقعية، إلا أنها تشير إلى مشكلة خطيرة»... وتابع قائلاً:

> «سوف ينتشر DU حول أرض المعركة ويستهدف المركبات بمختلف الأحجام والكمّيات... وسيكون تصرّفاً غير عاقل من قِبل الناس البقاء قرب هذه الكمّيات الكبيرة من ذخائر DU لفترات طويلة، وسيشكل ذلك خطراً أكيداً على السكان المحلّيين في حال التقطوا هذا المعدن الثقيل واحتفظوا به. وستكون هناك مناطق محدّدة أُطلقت فيها عدّة قنابل، حيث التلوّث المحلّي للسيّارات والأشخاص يمكن أن يفوق الحدود المسموح بها، وهذه ستكون خطرة على فِرق التطهير وعلى السكّان المحلّيين على السواء».

وتقول رسالة برتولوميو إن تلوّث الكويت مؤثر ولذا ينبغي التعامل معه بطريقة حسّاسة، مضيفاً أن مدير التسويق الإقليمي لشركة AEA (أليستر باركر)، يمكن أن يرسل نسخة من «رسالة التحذير» إلى السفير البريطاني في الكويت... وأن إمكانيات AEA التقنية يمكن أن تطهّر اليورانيوم المستهلك بناء على عقد مع حكومة الكويت.... ولا حاجة إلى القول إنه لم يتبرع أحد لاقتراح عملية تطهير في العراق حيث يموت العديد من الأطفال بأمراض سرطانية لا تفسير لها.. لِمَ لا؟ ولماذا كتب اللورد جيلبيرت رسالته المضلّلة والمثيرة إلى حدّ بعيد لصحيفة الإندبندنت في آذار/مارس ١٩٩٨؟ إليكم حلّاً لهذا اللغز ورد في رسالة تاريخها ٢١ آذار/مارس ١٩٩١ أرسلها عقيد أميركي في مختبر لوس ألاموس الوطني إلى النقيب لارسون من شعبة «الدراسات والتحليل».. وهي تقول:

> «كان وما يزال هناك اهتمام بالنسبة إلى تأثير DU على البيئة.. وبناء عليه، فإذا لم يرفع أحد قضية حول فعالية DU في أرض المعركة، فإن قنابل DU قد تصبح غير مقبولة سياسياً، وتُلغى بالتالي من ترسانة الأسلحة ...أما إذا أثبتت قذائف DU قدرتها خلال نشاطاتنا القتالية الأخيرة، فعندها يجب علينا تأمين مستقبل استمرارها (حتى يتمّ تطوير شيء أفضل) من خلال اقتراح دعم عمل (دائرة الدفاع) وإذا لم يتمّ تجميل الاقتراح، فمن الممكن أن نخسر قدرة قتالية مهمّة».

إذن هذا هو الأمر!!! إذا جرّدنا لغة النقيب الإنكليزية الشنيعة، فالرسالة بسيطة: إن المخاطر الصحّية لذخائر DU مقبولة، حتى نجد نحن الغرب شيئاً أكثر فتكاً ليحلّ مكانها. لا عجب عندها أن تكون مراجعة مسؤول حكومي بريطاني من إدارة النفايات المشعّة في وزارة الدفاع البريطانية لمدى إطلاق البريطانيين لقذائف DU في لايك ديستريكت في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٧، قد فصّلت الشرح إلى حدّ مثير عن المسافات المطلوبة لحماية السكّان المحلّيين في القرى المجاورة. وقد تضمّن ذلك إطلاق قذائف داخل أنفاق تملك نظام تنقية مستخرج، وتنظيف السطح بالضغط وإغلاق النفايات الملوّثة في براميل

إسمنتية. لم يبلغ اللورد جيلبرت قرّاء الإندبندنت كل هذه التفاصيل في رسالته للصحيفة... فمن هو يا تُرى الذي يقوم «بتحريف طوعي مقصود للحقائق»(*).

إذا لم تهتمّ الحكومات بالأطفال العراقيين، فقد اهتمّ الشعب البريطاني بهم، ونظمت الإندبندنت حملة لجمع الأدوية التي يحتاج إليها هؤلاء الأطفال بشكل يائس. وخلال أسابيع تبرّع قرّاؤنا الكرام بأكثر من ٢٥٠ ألف دولار لنا لشراء عقاقير للسرطان وأجهزة طبّية لأخذها إلى العراق... في النهاية، بدا كأننا نستطيع القيام بشيء ما أكثر من مجرّد كتابة مقالات غاضبة حيال محنة أطفال منبوذين... ولكن هل كنا حقاً نستطيع ذلك؟ هل كنا نقوم بإنقاذ أرواح أو بمجرّد تمديد المعاناة؟

كان ذلك عملاً مملاً.. في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨ استخدمنا عربات النفايات ومجموعة من العراقيين يتصبّبون عرقاً لحمل صناديق المساعدات الطبّية من شاحنة مبرّدة أدخلناها إلى موقع التفريغ المحطّم في مستشفى المنصور. كان علينا استخدام ناقلة مرضى لنقل ٥١٨٥ كلغ من الأدوية ووضع دواء فنكريستين Vincristine الغالي الثمن في برّاد المدير الشخصي... كان ذلك جزءاً صغيراً في نهاية مخيّبة للآمال إلى أن شاهدنا الأطفال في أجنحة الطابق الأعلى.. كان أطفال السرطان في العراق، في البصرة والموصل كما في بغداد، يتلوون من الألم أو يبتسمون ببراءة أمام قدرهم، وقد حصلوا أخيراً على مساعدة... سألتني فتاة صغيرة عندما أبلغها طبيب أن الأدوية يجب أن تقسم بالتساوي: «هل أحضرت لي شيئاً؟».

في إحدى زوايا جناح السرطان في مستشفى المنصور، كانت هبة مرتضى مستلقية بثوب أزرق، وورم شنيع يشوّه وجهها الصغير... عندما رفعت والدتها

(*) على القرّاء الذين يرغبون في معرفة المزيد حول ذخائر DU اللجوء إلى التقارير الضخمة لجماعة Swords into Ploughshares وحول تأثير عقوبات ما قبل ٢٠٠٣ وكذلك قذائف DU على التقارير المنتظمة لجماعة أصوات في البرّية ـ بريطانيا وعنوانها: 16 b Cherwell Road Oxford , OX4 1BG.

الثوب بانت على بطنها المنتفخ بشكل رهيب دمامل عديدة. وكان الأطبّاء قد أزالوا بجراحة سابقة كتلة ورم ليجدوا ورماً دخيلاً آخر ينمو في مكانها.

خلال حرب ١٩٩١، كانت ضاحية هِبة في البصرة قد قُصفت بشدّة بحيث فرّت عائلتها إلى بغداد. عمرها الآن حوالي تسع سنوات، وقد أخبرني أطبّاؤها أنها لن تعيش لتكمل عيد ميلادها العاشر.

نظراً إلى عقوبات الأمم المتحدة، ومن بعدها حظر صدّام حسين استيراد الأدوية، كان وصول شاحنتنا عبر صحراء العراق بمثابة معجزة... وأخيراً تمّ توزيع حمولتها على مستشفيات العراق بإشراف اثنتين من موظفات كَير Care في العراق، مارغريت حسن وجودي مورغان، اللتين لا تقهران.... في البداية احتجّت الأمم المتحدة بالنسبة إلى طول الوقت اللازم لأخذ الإذن لتمرير أدويتنا عبر لجنة العقوبات، حتى أبلغناهم أننا سنأخذ الأدوية شاءوا أم أبوا... وهذا ما كان.. ففي يوم ١٥ حزيران/يونيو أعطي الإذن خلال ٢٤ ساعة. كان مكتب رئيس الجمهورية مساوياً إلى حدّ ما في قلّة الفهم والمراوغة وتجاهل طلب الشحن إلى أن أعطى صدّام حسين موافقته الشخصية في شهر أيلول/سبتمبر... ها نحن مجدّداً أمام مِثال آخر على تطابق النوايا المقلق بين الغرب ودكتاتور بغداد..... «ليس لدى أعضاء لجنة مجلس الأمن أي اعتراض على إرسال المواد المحدّدة»... بهذه العبارات اختُتمت رسالة الأمم المتّحدة التي كانت تفيض افتخاراً كما لو أنهم كانوا يقدّمون إلينا خدمة...... وأشار مستند الأمم المتّحدة بدقّة إلى ثمن الأدوية على أنه تبرّعات من قرّاء صحيفة الإندبندنت. وقد وزّعت بنجاح على مستشفيات الأطفال في أنحاء العراق كلّ العلب والصناديق الثمانية والخمسين التي نُقلت من مطار هيثرو إلى عمّان بواسطة الطيران الملكي الأردني ثم نُقلت بالشاحنة مسافة ٨٠٠ كلم إلى بغداد بواسطة السائق العراقي رحمن جاسم محمّد (Ampicillin, Cloxacillin, Cytarabine, Vincristine, Methotrexate وزجاجات Dexamethasone وإبر وقفّازات ومحلولات دم).

لكن هل وصلنا في الوقت المناسب؟ الحقّ يُقال إنّ معظم الأطفال الذين عدّدت معاناتهم كانوا قد ماتوا، حتّى الصبيّ الذي أصبحت صورته رمزاً وشعاراً

لنداء الإندبندنت. كنت قد أخذت صورة لطيف ستّار، ابن الخامسة المصاب بسرطان لمفوي، في بابل... كان يلعب بسيّارة صغيرة ويبتسم تحت الورم الذي في رأسه عندما التقيته في شباط/فبراير الماضي، وقد أخذت صورته عن قرب بينما كان مستلقياً في سريره يرتدي قميصاً محاكاً وعيناه تشخصان إليّ... لكنّ سجلّات مستشفى الأطفال في بغداد دلّت على أنه توفّي يوم ٧ نيسان/أبريل ١٩٩٨. كذلك كانت سمر خضير، تلك الفتاة الجميلة التي ظهرت صورتها في صحيفتي في اليوم التالي لصورة لطيف، ضحيّة لسرطان الدم ... كانت الطفلة ترقد بلباس النوم، ووالدها يضغط بضمادة صفراء على جبينها، وكانت عيناها مغمضتيْن من الألم... مجدّداً لم يعط سجلّ المستشفى أي عزاء، فهو سجلّ كيف أصيبت سمر بانتكاسة بسبب نقص العقاقير والدم، لكنها قاومت فقط لتموت يوم ٢٠ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨ أي قبل بضعة أيام من وصول العقاقير المدفوعة من القرّاء إلى بغداد.... إن معظم الأطفال الهزيلي البنية الذين أراهم الآن في العراق سيموتون أيضاً... وقد أبلغني الدكتور العلي بصراحة عندما وصلت إلى البصرة وتحدّثت معه مجدّداً: «عندما يصل مرض السرطان إلى هذه المرحلة، لا يبقى الكثير ممّا نستطيع عمله، لكن عليك فهم ما فعله أصحابك، لقد ساعدوا في إطالة حياة هذه الأرواح الصغيرة، وتحسين نوعية حياة هؤلاء الأطفال. إنهم سيموتون خلال شهر، أو شهرين، أو سنتين.... أجل، ربّما يعيش بعضهم... صدّقني، كان إحضار هذه الأدوية إلى هنا أمراً جديراً بالمحاولة». عمدت إلى كتابة أسماء الذين سيموتون قريباً في مفكّرتي. يبلغ نور شهاب وجلال صالح عشر سنوات من العمر، وهيثم أحمد ثماني سنوات، وتبلغ طيبة فافل ١٨ شهراً فقط، ومصطفى جابر ثمانية أشهر، ودامية قاسم ١٣ شهراً. يعاني الجميع من سرطان دم حاد، باستثناء مصطفى الذي يعاني من ورم لمفاوي.

كان من المستحيل العودة لزيارة أجنحة السرطان دون الأحساس بمهانة كبيرة. وحتى الآن، وبعدما حصل الأطفال على العقاقير التي كانوا بحاجة إليها لسرطان الدم، فإن فصل الدم لم يكن يجري بسرعة كافية في مستشفيات

العراق، لأن آلات فصل الدم كانت بحاجة إلى الصيانة. لقد قضت عقوبات الأمم المتحدة على نظام المستشفى. ونحن في الغرب كنّا مسؤولين بالمعنى الأدبي للكلمة عن كل هذا، نحن الذين وافقنا على عقوبات الأمم المتّحدة ضدّ العراق، العقوبات التي كانت تقتل بشكل واضح هؤلاء الأطفال والتي لم تكن بالمقابل تؤذي صدّام حسين. لكنْ كان هناك أيضاً سبب آخر للغضب. لأنه رغم محاولة الإدارة الأميركية والبريطانية إبقاء مجموعَتي الضحايا منفصلتَين بشكل مفهوم، فإن الجنود الأميركيين والإنكليز الذين يعانون ممّا أصبح معزوفاً بأعراض حرب الخليج، ظهر أنهم يعانون من أمراض سرطان مشابهة تقريباً ومن لوكيميا ونزيف داخلي مثل أطفال العراق. لقد أصاب انفجار الأمراض السرطانية في العراق بشكل واسع الطائفة الشيعية، ولذلك لم يكن مفاجئاً بعد سبع سنوات من الحرب عدم ذكر نظام صدّام حسين للأمر. وهنا أيضاً نجح كلينتون وبلير وصدّام مجدّداً في حمل قضية مشتركة من خلال الفشل الكلّي في تفسير الكارثة. لكن حتى عندما كنت أقوم بجولة على أجنحة مرضى السرطان في البصرة وبغداد، كان طوني فلينت، الرئيس الفعلي لجمعية قُدامى حرب الخليج البريطانيين وعائلاتهم، يحذّر من أن قذائف «دي يو» DU نفسها يمكن أن تكون مسؤولة عن أمراض السرطان التي قتلت حتى الآن ثلاثين محارباً بريطانياً.

في اليوم التالي، أعلن مركز التعبئة الوطنية الأميركي للخليج وهو تحالف مجموعات المحاربين القدامى الأميركيين، أن ما يقارب ٤٠ ألف جندي أميركي ربّما تعرّضوا للغبار النووي في أرض المعركة.

في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٨، اتصل بي فيل غارنر تلفونياً وسأل كيف يمكنه الاتصال بالأطبّاء الذين يعالجون ضحايا السرطان من أطفال العراق. كان يقرأ تقاريري حول الدليل المتنامي للعلاقة بين أمراض السرطان والقذائف المشبعة باليورانيوم.. خلال حرب الخليج ١٩٩١، كان غارنر في الفريق الطبّي للجيش البريطاني.... لم يكن في الخطوط الأمامية إلا أنه عالج إصابات الجنود البريطانيين بنيران صديقة، أي أولئك الرجال الذين هوجموا خطأً من قِبل الطيران الأميركي الذي كان يستخدم قذائف مشبعة باليورانيوم... و يعاني غارنر

اليوم من الربو، وسلس البول، وألم في الأمعاء، ولديه دمّلة في الجانب الأيمن من رقبته، فماذا يعني كل ذلك؟ عرفت كل شيء عن هذه الدمامل، فقد شاهدتها على أعناق أطفال العراق .

في البصرة مجدّداً... شاهدت عذاب أحد الأهل. «أُكسجين، كرامة لله أحضر بعض الأُكسجين، ابني يموت». كان هذا نواحاً يشبه نواح الحيوان يطلقه رجل على درج مستشفى الأطفال... كانت الدموع تنهمر من عينيه وهو ينتفض دون توقّف. في الغرفة الصغيرة أعلى الدرج، كان ابنه يحيى سلمان يبكي بخوف ويحاول التنفّس. إن نكسة لوكيميا شيء مرعب وبخاصّة في الحرارة اللاسعة لجنوب العراق. قامت الدكتورة جنان غالب بتحذير الأب وهي تزمّ شفتيها بمزيج من القلق والتوتّر: «توقّف عن الصراخ، لدينا أنبوبة أُكسجين أخرى»، لكن الرجل لم يكفّ وصرخ: «ربّي ماذا أفعل؟» بينما كان تقنيّ يفتح سدّة أنبوب أُكسجين آخر كبير. كانت نظرات الصبي الصغير تنتقل عبر الغرفة، نحو الطبيب ونحوي ونحو والده. ليس هذا بالوقت المناسب لإخبار الطفل أن لدى المستشفى الآن كل العقاقير التي يحتاج إليها لمرض سرطان الدم. لقد وصلت صناديق العقاقير والقفّازات الطبّية والإبر منذ أقلّ من ٢٤ ساعة. لكن يحيى سلمان قطع مسافة طويلة من الطريق نحو الموت، وكذلك يوسف قاسم ابن السنتين في الغرفة المجاورة وحلا صالح ابنة العشر سنوات التي تعاني من سرطان دم ليمفاوي حادّ، وقد عرضهم عليّ أطبّاء هؤلاء الأطفال بسأم متناه.. وأنا أفهم السبب. لقد استقبلوا العديد من الزوّار والعديد من وعود المساعدة. على الأقلّ نحن احترمنا وعدنا. سألت الدكتورة غالب بحرص شديد إذا كان مستشفى البصرة سيحصل على كمّية العقاقير نفسها كبقيّة المستشفيات في بغداد والموصل، وقد فهمت الغاية من سؤالها: كان الشيعة هم الذين انتفضوا هنا في الجنوب ضدّ الحكومة العراقية عام ١٩٩١، وكان هناك في بغداد من لم يغفروا لهم ذلك أبداً.

لم تذكر الدكتورة غالب شيئاً عن ذلك.. أجل، أكّدت لها... فعقاقير الإندبندنت قد جرى توضيبها مسبقاً وقبل مغادرة مطار هيثرو بشكل يسمح

بالتأكّد من أنّ كلّ منطقة في العراق حصلت على حصّة متساوية... وابتسمت بينما كانت تقرأ لائحة الأدوية التي أحضرتها معي. إنها أول ابتسامة شاهدتها في هذه الرحلة إلى البصرة. ذلك أن الأطبّاء هنا كانوا ينوؤون تحت ثقل المعاني الضمنية لاكتشافاتهم كما بنقص الدواء. وكانت الزيادة في مرض سرطان الأطفال في المحافظات الجنوبية قد وصلت في بعض الأماكن إلى مستويات مخيفة، وكنا الآن في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨.

وبينما وصل معدّل المعاناة من مرض السرطان في بعض المناطق إلى نسبة ٣,٩ طفل في الألف فقط، فإن أحياء الحارث وغورن لديها الآن نسبة ٧١,٨ و٤١,٨ في الألف. لقد شهدت هذه الضواحي قصفاً كثيفاً عام ١٩٩١، وكانت عبارة «يورانيوم مشبع» تُسمع في كل جناح... حتى الأهل عرفوا الآن معنى هذه الجملة. كان الدكتور جواد العلي الآن مذهولاً، وقال: «لا أعرف كيف أشرح معاني ذلك لك، لكنني أرى الآن أشياء مرعبة». يعاني أحد طلّاب الطبّ الذي تخرّج منذ فترة من السرطان وسوف يموت خلال بضعة أيام، واسمه زين الدين قدام. وتوفّيت زوجة أحد جرّاحي الأطفال بعد أسبوع من تشخيص إصابتها بمرض سرطان الدم. لقد قضت منذ أقلّ من شهر عندما ظنّت أنها تعاني من الزائدة الدودية، ولكنّهم وجدوا جزءاً من أمعائها مصاباً بالغرغرينا.

فتح الدكتور العلي ملفّاً آخر كبيراً: «من أصل ١٥ مريضاً بالسرطان من منطقة واحدة لم يبق سوى اثنين. إنني أستقبل أطفالاً مصابين بسرطان العظام، هذا صعب التصديق. استقبلت الآن فتاة عمرها ١٥ سنة، تُدعى زينب منور وهي مصابة بسرطان الدم، وسوف تعيش سنة فقط. يا الّله، قمت باستئصال الأورام لفتاتين مصابتين بسرطان الثدي، عمر إحداهنّ ١٤ سنة فقط. هذا لا يجري الحديث عنه؟».

لم يكن الدكتور أكرم حمود مدير مستشفى الأطفال أقلّ ذعراً، قال: «تقريباً، كلّ الأطفال هنا سيموتون خلال بضعة أشهر، لدينا عائلة عندها ثلاثة أطفال مرضى بالسرطان اللمفاوي. ما هو سبب ذلك؟ قبل الحرب، استقبلنا في

هذا المستشفى حالة سرطان واحدة كل أسبوع، والآن نستقبل ٤٠ حالة أسبوعياً. هذا جنون، نستقبل مرضى مصابين بسرطان الغدّة تحت سنّ العشرين، أحد مرضاي عمره ٢٢ سنة والآخر ١٨ سنة. النزيف من الأنف هو أحد أعراض سرطان الدم، والآن كل طفل ينزف أنفه يأتي به أهله مذعورين». كان الأطبّاء حريصين في كلامهم عن اليورانيوم المشبع، لا يريدون أن يُستخدم مرضاهم أو ملاحظاتهم للدعاية مع أن ذلك مبرّر، لكنهم يعلمون بشأن التقرير العسكري الأميركي عام ١٩٩٠ الذي أوضح أن السرطان ومشاكل الكلى والتشوّه الخلقي هي من بين الآثار الصحّية للتلوّث بذرّات اليورانيوم.

قال الدكتور العلي: «حتى الإصابة المعهودة بالبرد في البصرة تغيّرت أعراضها، ويستغرق العلاج وقتاً أطول الآن، ولدينا حالات متقدّمة، في بعض الأحيان مرفقة بالتهاب في الدماغ». وأعاد فتح ملفّه: «استقبلنا ١١٦ مريضاً بالسرطان في كل المنطقة عام ١٩٨٩، والعام الماضي كان العدد ٢٧٠ حالة، وفي الأشهر العشرة الأخيرة من هذا العام وصل العدد إلى ٣٣١ حالة. لن يعطينا أحد المعدّات لأخذ عيّنات من التربة لفحصها. حتماً نحن كلّنا ملوّثون».

ردّت الحكومة البريطانية على الدليل الجديد لسرطان الأطفال في العراق بالفتور واللامبالاة اللذين ردّ بهما اللورد جيلبرت. وقد كتب الوزير البريطاني للقوّات المسلّحة دوغ هاندرسون في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٨: «إن الحكومة قلقة من الإيحاءات الصحافية، وبخاصّة من قِبل روبرت فيسك في الإندبندنت، بأن جنوب العراق يشهد تزايداً في الأمراض، بما في ذلك تشوّهات، وسرطان، ونقص في الإنجاب، يعزوها بعضهم إلى استخدام اليورانيوم المشبع DU في الذخائر المستخدمة من قِبل بريطانيا والولايات المتّحدة خلال حرب ١٩٩٠ ـ ١٩٩١.. غير أن الحكومة لم ترَ حتى الآن أيّة معطيات بحثية أكاديمية مرجعية تناولت الحالة الوبائية على السكّان بما يسمح بتدعيم هذه الادّعاءات.. وسيكون من المبكر التعليق على هذه المسألة..». أعجبتني عبارة «معطيات بحثية مرجعية».. لأنه بالتأكيد لم تكن هناك أي أبحاث سابقة ولن تكون. وحتى

الجمعية الملكية طلبت التحقيق في تأثيرات اليورانيوم المشبع، ولم يقم باحثوها بزيارة العراق(*).

لم يكن للدليل سوى تأثير ضئيل رغم كونه مُعيباً وصادماً. خلال صلاة مسيحية عام ٢٠٠٠ في الذكرى الخمسين لقصف سلاح الجوّ البريطاني والأميركي مدينة درسدن، أعلن أسقف كونفرتي، كولين بينيت أن على بريطانيا التسليم بالمسؤولية عن موت وتشوّه أطفال العراق على أنه نتيجة لقصف الحلفاء خلال وبعد حرب الخليج ١٩٩١. وبينما انتقد «الشيطان» صدّام حسين قال

(*) هذه اللامبالاة المشينة تجاه تأثيرات DU تكرّرت بعد سنتين عندما بدأت تُظهر التقارير الواردة من البوسنة في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، أن مئات من الصرب الذين يقيمون قرب الأماكن المقصوفة عام ١٩٩٥ من قِبل سلاح الجوّ الأميركي، يعانون من سرطان مجهول أو أنهم ماتوا. عندما سافرت إلى البوسنة للتحقيق في هذه الوفيات، وجدت أن أكثر من ٣٠٠ رجل صربي وامرأة وطفل يعيشون قرب قاعدة عسكرية في ضاحية سراييفو «هادجيسي» قُصفت بقنابل DU ماتوا من سرطان الدم خلال السنوات الخمس التالية. وكانوا مدفونين أحدهم قرب الآخر في قبر واسع في مدينة براتوناك، شرق البوسنة، التي ذهبوا إليها لاجئين.
في صباح يوم قارس، قابلت الطفلة سلاد جانا سارىناك (١٢ سنة) التي التقطت شظايا قنبلة خارج بيتها في هادجيسي. كانت قصّتها مخيفة ومؤلمة، قالت: «لمعت وفعلت ما فعله كلّ الأطفال. كان عمري ستّ سنوات وتظاهرت أنّني أعمل حلوى من هذه القطع المعدنية الصغيرة وتربة من الحديقة. خلال شهرين، حصلت على نوع من الرمل الأصفر على أظفاري، وبعدها بدأت تسقط». وكانت سلاد جانا مريضة جدّاً منذ ذلك الحين. وقد عاودت أظفارها السقوط تكراراً من يديْها ورجليْها، وعانت من نزيف داخلي والتهاب معويّ مستمرّ وتقيّؤ، وظلّت حوالي ٣٠ ساعة في حالة غيبوبة وتعذّبت في مستشفيات يوغوسلافيا. كانت القصة القديمة نفسها، قال حلف الناتو أن لا دليل لديه على آثار مرضيّة ناتجة عن ذخائر DU في البوسنة... وأنه يريد أن يعلم ما إذا وجدت أي حالة. وحين تهيّأت الفرصة للتحقيق في هذه التقارير، لم يُظهروا أي اهتمام للقيام بذلك. يوم ١٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١، وجّهت نداء عبر الإندبندنت لأيّ طبيب في الناتو يعمل في البوسنة للاتصال بي على تلفوني المؤقّت في سيراييفو، عارضاً عليهم أخذهم إلى براتوناك وتقديمهم لسلاد جانا. لم يرنّ الهاتف أبداً. كان العراقيون مسلمين والصرب مسيحيين أرثوذوكساً، معظمهم معادٍ لأهل البوسنة المسلمين لكنهم تقاسموا صفة واحدة عام ١٩٩١ و١٩٩٥، كانوا جميعاً أعداءنا بالتتابع، وهذا يمكن تجاهله. على نحو مماثل، تُركت الأمم المتّحدة لتقوم باستطلاع غير قاطع حول استخدام DU خلال حرب كوسوفو ١٩٩٩ التي اعترف الأميركيون فيها أنهم أخطأوا الحساب حول عدد قنابل DU المستخدمة خلال قصف الناتو لصربيا، (راجع تقرير الكاتب في الإندبندنت يومي ٤ تشرين الأول/ أكتوبر و٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٩).

الأسقف عن الأطفال الضحايا في العراق: «حُمِلوا وولدوا خلال حرب الخليج. ولِدوا بتشوّهات جسدية مروّعة. ويعاني العديد منهم أيضاً من سرطان الأطفال، ويعتبر هذا دليلاً قوياً جدّاً للقول إن كل ذلك ناتج عن اليورانيوم المشبع في أسلحتنا». حتى الآن رفض الأميركيون والبريطانيون الاعتراف بمثل هذا الذنب. وبعد ثلاث سنوات، عادوا إلى استخدام اليورانيوم المشبع مرّة أخرى ضد العراق.

ماذا يعني كل ذلك بالنسبة إلى ادّعاءاتنا حول المستقبل، وإلى الأمل اليائس والوهمي بأن هؤلاء الأشخاص سيستقبلوننا كمحرّرين (إذا ما قمنا بغزو العراق وتدمير نظام صدّام حسين)؟ ربّما يشعر العراقيون بالرضى لإسقاط الدكتاتور... لكن هل يأتون حقاً لاستقبالنا والتودّد إلينا؟ إلى المحتلّين الجُدد الذين عاقبوهم وأذلّوهم واضطهدوهم طيلة سنوات، من خلال اثنتي عشرة سنة من العقوبات، ومن القصف تكراراً من طائرات الحلفاء، في الفترة نفسها التي طُبّقت فيها نظريّة أن تعزيز مناطق الحظر الجوّي سوف يحميهم، ومن خلال تعريضهم لغبار الذخائر المشبع باليورانيوم وسمّها، مرّتين خلال عقدين من الزمن؟

في أواخر التسعينيّات، أصبحت تقاريري من العراق يومية. وكنت أرزح معنوياً تحت ثقل ما نفعله، وما فعلناه لهذا البلد. كيف يستطيع العراقيون في بغداد تأمّل المستقبل عندما يعيشون من خلال بيع آخر مُقتنياتهم في سوق ميدان؟ في أحد أيام شباط/فبراير ١٩٩٨، وجدت على الأقلّ مئة رجل مريض وبضع نساء يقفون تحت المطر خلف القبّة الضخمة الرائعة لمسجد جماعة القشلة، تنتشر عند أقدامهم الأشياء المثيرة للشفقة المعروضة في أيّ سوق شعبي في العالم: مجموعة من قطع الأدوات الصحّية الصدئة، وقطع سيّارات قديمة، وبعض الأحذية القديمة وأجهزة التلفزيون المحطّمة الموضوعة على عربة وهي أجهزة قديمة من الخشب والشاشات الصغيرة لعصر ما قبل البعث. نظرت إليّ امرأة ترتدي عباءة سوداء وتُدعى ليلى، قالت: «عملتنا لا قيمة لها، وحده الله يمكن أن يساعدنا».

ما زال لدى سهاد مال، وهي زوجة دبلوماسي سابق من الطبقة الوسطى

يطلّ منزلها على ضفاف نهر دجلة. كان عمرها ٨١ سنة وأمضت فترة طويلة في الهند حيث تعلّمت العقيدة الهندوسية المتعلّقة بالصبر الطويل، قالت بأسلوب ناعم: «لقد تغيّرنا جميعاً في السنوات السبع الماضية، نحن نتقبّل الحياة كما هي، إذا لم نستطع الحصول على أدوية نظيفة سوف نعود إلى الأدوية القديمة. لديّ مشكلة في الركبة، صديقتي تصنع لي دواءً من عشبة قديمة استخدمها الصينيون منذ ألفيْ سنة وأنا أشرب منها كل صباح وركبتي بحالة أفضل الآن».

شقيقة سهاد عمرها ٨٥ سنة، قالت: «نحن نعيش من يوم ليوم ومن ساعة لساعة، هذا جزء من حياتنا المتغيّرة. بالنسبة إلينا، أصبح التخطيط الآن رفاهية. أنا لست في حالة توازن، فلماذا أزعج نفسي بذلك؟ الآن أريد الحصول على زهرة من حديقتي لأنظر إليها خلال اليوم». في ردهة منزلهما القديم مجموعة من صور أجدادهما الأتراك الذين يرتدي بعضهم، لباس الجيش العثماني، الجيش الذي قاتل ضدّه تشارلز ديكنز من كتيبة شاير في بلاد ما بين النهرين والذي قاتل ضدّه جندي المدفعية الأسترالي فرانك ويلز في غاليبولي. قالت سهاد: «هكذا نستجمع قوّتنا. إنها مستمدّة من جذورنا العربية والجيورجية والكردية والتركية». قابلت سيّدة مسنّة أخرى محترمة في اليوم نفسه، امرأة باعت تقريباً كل الكؤوس الزجاجية من طراز باكارا، قالت لي: «اشتريت هذه الكؤوس في زيارتي الأولى لباريس، عام ١٩٤٧، لكنني الآن بحاجة إلى المال، لذا قلت فلتذهب إلى الجحيم، لقد كانت عندي لفترة طويلة وتمتّعت باستخدامها لذا أتخلّى عنها. بعتها مقابل بعض المال، لم يبقَ لديّ سوى إبريق ومغرفة».

أجل، العراقيون شعب فخور، لكنّ للفقراء حيّزاً خاصّاً، مجنوناً، عليهم العيش فيه. عبر المصبّ الهادئ لنهر دجلة، استمرّت بغداد بالتحلّل بعيداً، أرصفتها مغطّاة بالعشب، والأشجار تنمو في الطرق التحتية للمدينة، وتمتلئ ساحات سكّة الحديد بالعربات الصدئة والفارغة. حتى صور صدّام حسين أصبحت باهتة بفعل شمس الصيف. وبينما تأكل العقوبات كلّ كائن حيّ باستثناء المركز الفاقد الحسّ للنظام نفسه، ينتشر جيش من الشحّاذين على طول الطريق.

كانت النساء والأطفال يأتون ويطرقون على الأبواب وعلى شبّاك سيّارتي في وسط بغداد طالبين المال والطعام.

صبيّ صغير، تملأ الدموع وجهه المعفّر بالتراب، لا يتعدّى عمره أربع سنوات، حافي القدمين، يرتدي سترة كبيرة مليئة بالثقوب، مدّ يده عبر شبّاك السيّارة وصرخ: «أعطني مالاً» وكان يركل الباب ويحدّق إليّ عبر الزجاج ويفرك عينيه لذرف الدموع، أو أكان ذلك عادة؟ بعد ساعة على الرصيف، هاجم ثلاثة أطفال لارا مارلو من صحيفة الأيريش تايمز وهاجموني، كانوا أكبر سناً هذه المرّة، وتشبّثوا بمعاطفنا وهم يصرخون: «مال» حتى أعطيناهم دولاراً. تمسّكوا بحقائبنا طلباً للمزيد حتى دفعناهم عنا منددين بتهجّمهم. أكانت مادلين أولبرايت لتعطيهم دولاراً؟ أم تعطيهم محاضرة عن شرور زعيمهم والحاجة إلى عقوبات الأمم المتّحدة، والغزو العراقي للكويت، وأسلحة الدمار الشامل؟ في المقهى الوحيد المحترم قرب الفندق، كانت تُسمع أغنية مسجّلة لدوريس داي، كانت تغنّي "que sera sera": ما سيحصل سيحصل... بينما كان الشحّاذون يراقبون من خلال النوافذ "what ever will be, will be the future's not ours to see" ما سيكون سيكون وليس المستقبل بيدنا». في طريقي من بغداد إلى البصرة بصحبة لارا، أعطيت فتاة فقيرة ٢٥٠ ديناراً عراقياً (أي ما يعادل أقلّ من ١٤ سنتاً) فرأيت أصدقاءها يلقونها على الأرض ويأخذون المال من يدها الوسخة. البصرة الآن تبعث على الأسى. أمام منزل فاطمة حسن، كان سائل أزرق فاتح وأبيض يتدفّق إلى المجرى المفتوح، ولم يستطع بابها الحديدي إخفاء الرائحة الكريهة أو صوت صراخ الأطفال الحفاة في الشارع. كان القفز فوق هذا المجرور والوثب فوق مجاري القذارة تمضية للوقت لدى أطفال ضاحية دورشعون. قف عند باب منزل فاطمة يهرولوا نحوك، مقرّحين، وجوههم ملطّخة باللبن، وعيونهم واسعة القزحيات، بيضاء عاجيّة بسبب سوء التغذية.. وثمّة امرأة جميلة مشرقة ترتدي عباءة سوداء مع عصبة بيضاء على رأسها، قدّمت إلينا ابنتها رولا البالغة من العمر ثماني سنوات، ثم قالت فجأة: «رجاءً خذوها معكم». تبلغ سندس عبد القادر الثلاثين من عمرها وهي مستعدّة للتخلّي عن ابنتها.

لدى فاطمة خمسة أولاد، كان زوجها يعمل دهّان سيّارات في الكويت قبل

غزو صدّام للإمارة، وبقي هناك ثمانية أشهر بعد التحرير، يعمل دون قبض مال من مستخدميه الكويتيين، وهو الآن بائع سندويشات. قالت: «لا نأكل البيض أو الحليب، ولا نستطيع أكل اللحم، ونشرب المياه الملوّثة ولا نغليها. ابني الصغير يعاني من مشاكل في التنفّس، وهذا أيضاً بطنه منتفخ بسبب الماء. نذهب إلى المستشفيات لكنّ الأطباء يقولون إنه لا توجد أدوية... أينما ذهبنا، يقولون لا توجد أدوية».

في الخارج امرأة أكبر سنّاً، ترتدي ملابس سوداء وتشقّ طريقها بين الصبية الأشقياء. قالت: «عندي شخصان مُقعدان في عائلتي، حرارتهما مرتفعة ولديهما تقرّح في الحلق، هل تستطيعون أخذهما معكم إلى أوروبا؟». شرحنا لها أننا لسنا أطبّاء، لكنها رفعت في وجهنا ورقة صفراء سميكة مع تقرير عن مرض وهن العضلات الذي يعاني منه أهلها. بعد نصف ساعة، تخدّرت يدي التي أكتب بها نتيجة الجوع وتسجيل الأمراض: طفل يعاني من فقر الدم، وآخر من مشاكل في التنفس، وثالث لا يستطيع السيطرة على تبوّله ويبدو أنه يحتضر. صرخت بي امرأة أخرى: «متى سترفعون العقوبات؟ أولادنا بحاجة إلى الطعام واللباس».

في آخر الشارع، يرتفع صوت بوق. ثمّة رجل ضخم بيده طبل وجندي مسنّ مُنحن يحدّد الوقت لمجموعة من ثلاثين رجلاً في منتصف العمر، وهم شبه ملتحين، ويحملون رشّاشات الكلاشينكوف، ويرتدي معظمهم ملابس بالية، إنهم الجيش الشعبي للأب، فدائيو صدّام الأبطال، يستعدّون لمواجهة أميركا. ساروا حول إشارة مرور بينما الأطفال ينشدون نشيداً وطنياً تحمل كلماته هذه المعاني:

بلد يفرد جناحيه على الأفق

ويُلبس نفسه لباس مجد الحضارات...

هذه الأرض شعلة ونور،

مثل الجبل الذي يشرف على العالم...

لدينا غضب السيف

وصبر النبي.

بعد ذلك، عاد الأولاد إلى القفز فوق المجرور، وكنت أذكّر نفسي بأن هذا هو البلد الذي يهدّد العالم كلّه، استناداً إلى كلينتون وبلير..

توجّهنا نحو ميناء البصرة القديم، المرفأ الذي استخدمه الإنكليز عام ١٩١٤، والذي زاره مرّة في أواخر القرن الثامن عشر الشاب هوراثيو نلسون.

وأعلن عليّ العمارة بفخر: «أشرف على هذا المرفأ خمسة رجال إنكليز حتى عام ١٩٥٨. كان أول رئيس مجلس إدارة هو جون وارد من عام ١٩١٩ إلى عام ١٩٤٢، وبعده وليم بينيت حتى عام ١٩٤٧، وكانا رجلين طيّبين جدًّا. عام ١٩٥٨ تسلّم الإدارة السيد شعاوي وكان رجلاً طيّباً جدّاً أيضاً». لا إشارة إلى الثورة العراقية عام ١٩٥٨ التي أنهت الإشراف البريطاني على مرفأ البصرة القديم وعلى العراق. لكن لماذا الفظاظة في مكان بهذا العجز؟ اليوم، ما زالت أرصفة المرفأ مزيّنة بورود «تودور» الأنيقة، لكن الحجارة الإردوازية سقطت عن سطوح المكاتب الاستعمارية القديمة. وقد تآكلت خطوط سكّة الحديد التي أُنشئت عندما كانت البصرة ميناءً دولياً.

ممرّ شطّ العرب الواسع البطيء الحركة، الخطير والمثقل بالموت في تاريخ العراق الحديث، كان ينساب حول السفن القديمة المربوطة بالرصيف. هنا مركب الصيد «ياسمين» الذي ما زال من الممكن أن نقرأ ما كان مكتوباً من كلمات تحت طلائه الأسود: «لورد شاكلتون، ميناء ستانلي (جزر فوكلاند)»... وهناك ناقلة النفط ويستاريا بوزنها البالغ ٦٧٤٢ طنّاً يقوم القيّمون عليها بتفكيكها ببطء... سألت ثلاثة موظفين عراقيين عند الرصيف، مَن أشعل النار فيها؟ ردّ أحدهم: «أصابها صاروخ إيراني عام ١٩٨١». لكن زميله تمتم بالعربية: «قل له إنهم الأميركيون»، ثم قال الجميع: «إنهم الأميركيون»!

تعيش مدينة البصرة على الأكاذيب... يقولون لك «لو لم يهاجم الإيرانيون العراق ويغلقوا النهر عام ١٩٨٠، لكان العراقيون هم الذين هاجموا إيران؛ لو لم تفرض الأمم المتّحدة عقوبات على العراق بعد الحرب العراقية الإيرانية... ويفترض بنا أن ننسى القضية الصغيرة التي اسمها غزو العراق للكويت عام

١٩٩٠. حتى السفن غيّرت أسماءها بإحراج... فقد كانت سفينة الشحن أكتوسارا Atco Sara، وفق الاسم نصف الممحيّ تحمل اسم باسيفيك بروسبكتور في إيلينوي وقبل ذلك نورثرن بيلدر Northern Builder. وكانت هناك آلة رافعة يدوية ومجموعة من الرافعات الصدئة تحمل اسم شركة توماس سميث وأولاده ليدس Thomas Smith and Sons of Leeds على لوحة معدنية.. ولم أتمالك أن أتذكّر كيف وصلت إلى المدينة وميناءها منذ ١٨سنة. شاهدت هذه السفن تحترق.. عند أسفل النهر كانت الجزيرة التي أبحر منها جون سنو لإنقاذ طاقم سفينة الشحن العالقة «التنّين» بينما جلست على ضفة النهر أنتظره... كان الرصاص الإيراني الخطّاط يطلق باتجاهنا على ضفّة نهر شط العرب المظلمة، وكنت عند هذا الجانب من الرصيف على متن سفينة الشحن اليوغوسلافية قد أخذت خرائط الممرّ لجون والغطّاسين العراقيين الذين ذهبوا لإنقاذ الطاقم. وكنت أخرج كل صباح من البصرة مع غافين هويت من البي بي سي لأشاهد الحرب الدائرة التي ستدمّر الجمهورية الإسلامية، والآن يحصد العراقيون نتيجة العاصفة.

خلفنا الآن كانت الساحات المرصوفة مليئة بقطارات الشحن الطويلة.. عربات رمادية كبيرة مترابطة للذهاب في رحلة كان يجب أن تبدأ عام ١٩٨٠.. كانت الشاحنات الآن مليئة بالشجر والعشب... مشى السيّد العمارة بمحاذاة الأحواض، وقال: «خذ ما تريد من الصور، فلولا العقوبات لكان هذا المرفأ نظيفاً ويعمل».

كان هناك كلب مسنّ ينام على الأرض تحت مؤخّرة السفينة ويستيريا Wisteria التي كانت سلالمها ملقاة على السطح حيث كانت منذ ١٨ سنة.

إنه ألم غريب يؤرق الآن البيروقراطية البعثية العراقية، المعتادة على التفاخر أن ذلك كلّه هو خير بالنسبة إلى العراق، إلا أنهم يصرخون الآن قائلين إنه الأسوأ بالنسبة إلى العراق. إنه تحوّل شديد الصعوبة. إذ من يعلم متى تأتي الأوامر من بغداد لقلب المعادلة مجدّداً؟

أبلغنا السيد العمارة أنه شاعرٌ، إضافة إلى كونه «مستشار علاقات عامّة» لمرفأ البصرة... بينما كان يسير قرب سُفنه البالية والمهجورة، أسمعنا نصّاً من إنتاجه سمّاه «المواجهة»:

عندما تُطلق رصاصة من أي مكان،

تصيب الرصاصة بطني مباشرة؛

لأن الأحداث التي مررنا بها

جعلت بطني مستديراً.

ونظرنا إلى بطن السيّد العمارة الصغير وضحكنا بأدب، إلى أي رصاصات كان الشاعر يشير؟ بالتأكيد ليست تلك التي تركت أثرها على جدران مركز شرطة البصرة الرئيسي، وما زالت قذيفة فارغة موجودة قرب أحد المجاري الكريهة للمدينة. وبالطبع ليست تلك التي أصابت مبنى المحافظ المحترق خلال انتفاضة ١٩٩١ من قِبل الغالبية الشيعية في البصرة، والذي استُبدل الآن بكتل إسمنتية خرسانية. وليست القذائف التي أطلقت على سيّارات شرطة المدينة، التي استبدلت الآن كما حصل في جميع أنحاء العراق بسيّارات هيونداي كبيرة جديدة، استهزاء أخيراً بمجاعة الشعب الذي يُفترض بالشرطة أن تسيطر عليه. وعلى شاشة التلفزيون القديم في غرفة فندقي في البصرة، كان صدّام يتصدّر مجلس قيادة الثورة ويروي نكتة اعتبرها ضبّاطه سخيفة، وعندما ضحك انفجر نوّابه المحترمون بالضحك.

إنّ كورنيش الشهداء يُصحّح أي سوء فهم حول العدو، فعلى طول الضفّة الغربية لشطّ العرب وخلف الأبواب الرطبة لفندق شيراتون البصرة يقف الأبطال الموتى لحرب صدّام الدائرة. فبالنسبة إلى هؤلاء الـ ٣٦ جندياً عراقياً من بين نصف مليون على الأقلّ، فإن الموت لم يكن بدون نتيجة. كان النصب البرونزي لكل رجل والمأخوذ من صورته يشير، عبر الممرّ المائي الموحل باتجاه جبهة الحرب داخل إيران، إلى حيث قتل. وتقول اللوحة على كل نصب: «عرفاء، رقباء، نقباء، مقدّمون وعقداء كلهم شهداء حرب القادسية».

كانت تماثيل الجنود التي تعادل ثلاثة أضعاف حجمهم الطبيعي معرّفة بالاسم إلى جانب تمثال ضخم عند الضفّة يمثّل ابن عمّ صدّام، الجنرال عدنان خير الله أحد أكبر القادة العسكريين العراقيين وأكثرهم شعبية، ربّما الأكثر شعبية بالنسبة إلى صدّام، «يقف مواجهاً» رجال المدفعية ويده اليمنى مرفوعة تحية لشجاعتهم. وقد توفّي خيرالله بشكل مأساوي، كما أوردت الصحافة العراقية في ذلك الوقت، في حادث تحطّم طائرة الهليكوبتر التي كانت تقلّه بعد فترة قصيرة من انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية. تحت هذه التماثيل، كان الصبية الأشقياء يبيعون صحفاً قديمة بقيمة ١٢ سنتاً للرزمة.

إنهم بعيدون قدر الإمكان عن طوابير الطعام، وهم على حدود إيران محصورون بين شكوك إيران إلى الشرق وكراهية الكويت إلى الجنوب، واحتقار الغرب المسيطر من خلال السفن الصدئة والأبراج العملاقة من الموتى. كنت في كلّ ليلة قضيتها في العراق، أضرب على جهاز الكمبيوتر المحمول المتضرّرة شاشته جزئياً، مدوّناً معاناة العراقيين وغضبهم العارم. وفي ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٨، كتبت هذا التقرير الذي أرسلته إلى صحيفتي تلك الليلة من بغداد، وهو تقرير سأقرأه مجدّداً عام ٢٠٠٣ بعد أن احتللنا العراق ووجدنا أنفسنا نواجه ثورة ضارية:

> «كانت الأنوار الساحرة تضيء مطعم بابيش للمشاوي في شارع الرئاسة. نوافذ مطليّة بألوان ساخرة تحمي الزبائن. لأنه مطعم من الدرجة الأولى لزبائن كبار معظمهم من موظّفي الأمم المتّحدة. يستطيع العراقيون الجوعى الذين لا تبهرهم الأنوار الساحرة الجلوس في الخارج على الطاولات المضاءة بالشموع. والأجانب في الداخل يشقّون طريقهم نحو لحم البقر والدجاج المشوي والأطباق الثانوية من الفاكهة والخُضر أو الطبق الخاص ببابيش، سلطة القريدس. وعلى أنغام موسيقى هادئة يقوم المضيفون ذوو السترات البيضاء بخدمة أحسن رجال الأمم المتّحدة، رجال

العقوبات ومفتّشي ومفتّشات الأسلحة الذين يحاولون جاهدين وقف المعاناة التي سبّبها الرجال في ذاك المبنى الزجاجي على الضفّة الشرقية على بعد ٥٩٩٠ ميلاً.

لكن بمعزل عن المضيفين المرتدين ألبسة بيضاء، ومهما كنت تفعل، إيّاك أن تذكر السفينة تيتانيك. فقد عرض التلفزيون فيلم جيمس كامرون الـ «تيتانيك» ثلاث مرّات (فهو يستطيع أن يتناسى حقوق المؤلّف) على أنه بلسم للحرمان، الموازي في بغداد للخبز والاحتفالات. لكن بعكس سفينة تيتانيك ليس لدى بابيش طعام للدرجة الثالثة. إنه مطعم للذين يحسبون المال بالكيلو عوضاً عن أوراق الدينار العراقي. واليوم بينما يساوي الدينار ٠,٠٠٠٦ من الدولار (شكراً لأصحاب بابيش)، يحتاج طعام لثلاثة أشخاص إلى رزمة من ٤٨٨ ورقة من فئة المئة دينار، رزمة من الأوراق النقدية بسماكة حذاء. ولا عجب إذا توقّف بعض المقاهي عن عدّ ما يدفعه الزبائن من مال، واستعاضت عن ذلك بوضع المال على ميزان.

وهكذا فإنك لا تستطيع نسيان جمهورية ويمار في بلد يستطيع قروي أن يكسب فيه ٣٤٠٠ دينار في الشهر تقريباً، دعني أكرّر: ٣٤٠٠ دينار في الشهر تساوي دولارين. مما يعني أن طعامنا في بابيش (ولا يوجد نبيذ الآن لأن الخمرة ممنوعة في المطاعم بأوامر من الرجل الذي لا يستطيع أحد ذكر اسمه بصوت عالٍ) كلّف ١٤ مرّة الراتب الشهري لموظّف عراقي، إذن، لماذا لا تحصل مظاهرات من أجل الطعام؟ لماذا لا تحصل ثورة؟

إستقلّ أيّ باص من شارع الرشيد إلى الجزء القديم من المدينة لكي تعرف السبب!. تمتدّ المجارير كالبُحيرات ،جنباً إلى جنب، كتلة قذرة من سائل لونه أخضر باهت يمتلك جماله المخيف. هذا ما يحصل عندما تنقطع الكهرباء وتصبح محطّات تكرير المياه ومجاري المياه مهملة. باعة الأدوات في شارع الرشيد ـ حيث تذهب لتشتري محوّلاً شريط كهرباء، بطارية أو لمبة ـ يلتصق باعة الأدوات الكهربائيّة بالجدران مثل الراهبات لإبعاد القذارة عن أحذيتهم البلاستيكية. قال لي رجل ضعيف ملتح عندما سألته عن فانوس كهربائي: «فعلتم

ذلك بنا». يمكن شراء الفانوس فقط من محلّ للبضائع الأجنبية في الضواحي بسعر ٢٠ دولاراً أي ما يساوي ٩,٥ مرّات الراتب الشهري لقروي عراقي...اضطهدِ الناسَ إلى هذا الحد البائس يصبح البقاء على قيد الحياة أكثر أهمّية من الثورة، هذا ما لم تختَر السرقة على الطريق السريع. لا أقصد النوع الممارس في مطعم بابيش بل على الطريق الطويل غرباً إلى الأردنّ أو جنوب البصرة. قال لي سائقي على بعد ١٠٠ كلم من بغداد على الطريق إلى عمّان: «هناك قتلوا الأردني»، إشارة خالية من المسؤولية إلى الدبلوماسي الذي اختار السفر ليلاً ودفع الثمن. لا تتوجّه إلى البصرة بعد منتصف الليل خوفاً من الجنود الفارّين الذين تحوّلوا إلى الإجرام لإبقاء عائلاتهم على قيد الحياة (أو هكذا تقول الشائعات). في الليل، ينتشر المسلّحون، وفي النهار تنتشر القرويّات اللواتي يبعنَ أنفسهنّ بزواج مؤقت وبضعة دنانير». لم أصدّق الجزء الأخير.

لم أصدّق.. إلى أن كانت لحظة مغادرتي البصرة بعد ظهر يوم حارّ، ومروري عبر الأحياء الفقيرة ببُحيراتها المليئة بالقاذورات التي هي أكثر سخونة من تشكيلة بغداد لأن حرارة الخليج ترفع درجة سخونة كل سائل،ورؤيتي مجموعة من الرجال والنساء المحزونين يخدشون وجوههم بأظافرهم وهم يحملون أمامهم جثة طفل يدخلونها في سيارة تاكسي برتقالية وبيضاء على الطريق الرئيسي. ثم رأيت فتى في السادسة عشرة من عمره تقريباً يقفز إلى بُحيرة القاذورات قرب الطريق السريع ويمرّغ جسمه بالنجاسة، ويصرخ غاضباً ويضرب يديه في المياه الخضراء بحيث يلوّث كل المحزونين بالقذارة.

إلى أين يقود الفقر والجوع الناس؟ لقد اكتشفت ذلك بسرعة. على بعد سبعين ميلاً إلى الشمال من البصرة حيث الطريق سراب بين معسكرات صدّام حسين التي لا تنتهي والتي تقمع عرب المستنقعات، يمكن رؤية مجموعة من الفتيات يرتدينَ قبّعات حمراء تشبه العمائم وملابس سوداء، وهنّ ملثّمات مثل الطوارق، يرقصن، وفي الواقع يدرنَ ويدرنَ على الخطّ السريع حيث توقفنا. تقدّمت إحداهنّ من شبّاك السائق، نظراتها ناعمة، وصوتها خشن، وهمست: «تعال اشترِ سمكاً، تعالَ شاهدْ سمكنا وسوف ترغب في شرائه منا».

لفظت الكلمة العربية، سمك، مع فحيح، وتحرّك السائق بطريقة ماكرة شهوانية. ربّما كان عمرها ١٦ سنة ولم تكن تبيع السمك بل تبيع نفسها. وعندما أدركنَ أننا لسنا زبائن، تراجعت فتيات السمك إلى الخط الفرعي لعرض أنفسهنّ أمام شاحنة أردنية مسرعة. أجل، تستطيع أن تنسى إسقاط صدّام حسين، وتدع جانباً تدمير القصور الفخمة والبُحيرات المزيّنة والردهات المليئة بالأعمدة. لكنني أعجب كيف يستطيع العراقيون في شارع الرئيس مقاومة الرغبة في تحطيم نوافذ مطعم بابيش والدخول لتمزيق زبائنه قطعاً وربّما اختيار البقايا الغريبة من اللحوم المستوردة طعاماً لهم...

اليوم يومكم يا صانعي الأسلحة

* - الليدي بريتومار: لا مشكلة أخلاقية في المسألة على الإطلاق يا أدولفيوس. عليك ببساطة أن تبيع مدافع وأسلحة فقط للذين عندهم قضيّة عادلة وأن ترفض بيعها للأجانب والمجرمين.

* - أندرشافت (بنبرة حاسمة): كلّا!! لاشيء من هذا!! علينا المحافظة على إيمان حقيقيّ بالتسلّح. أي أن نعطي السلاح للذين يعرضون سعراً جيّداً، بغضّ النظر عن الأشخاص أو المبادئ.. علينا أن نبيع للأرستقراطيين والجمهوريين، للملحد والقيصر، للرأسمالي والاشتراكي، للبروتستانتي والكاثوليكي، للحرامي والشرطي، للرجل الأسود والرجل الأبيض والرجل الأصفر، لكلّ الأصناف والحالات، لكلّ الجنسيّات، لكلّ المعتقدات، لكلّ القضايا ولكلّ الجرائم...

جورج برنارد شو - مايجور برباره

المشهد الثالث

قبل أن ألِجَ إلى داخل المعرض البالغة مساحته ٢٤ ألف قدم مربّعة والقريب من مطار أبو ظبي، حصلت على دعوة مفصّلة، مطبوعة على رَقّ جلديّ ناعم... تقول الدعوة: «برعاية صاحب السموّ الجنرال الشيخ محمّد بن زايد آل نهيان يتشرّف صاحب السموّ الشيخ فلاح بن زايد آل نهيان، رئيس مجلس إدارة سباق غنطوط ونادي البولو بدعوتكم لحضور مباراة البولو الودّية الختامية لدوري البسطي، الساعة ٧,٣٠.. يتبعها عشاء... اللباس رسمي». بعد بضع دقائق وبعد مروري بمراكز الأمن عُرضت عليّ سجّادة فارسية من الحرير الخالص، صُنع «قمّ» على ما أذكر.... كما عُرضت عليّ مجموعة من أواني الطبخ وأباريق قهوة

بسعر بخس. كانت هناك منصّات للشاي والزهور، زهور ذهبية وخضراء وأرجوانية في بداية الربيع الحارّ. وكان العرب يرتدون دشاديشهم البيضاء بوقار، ويرتدي الزوّار الغربيون بذلات كحليّة وربطات عنق، فيما ترتدي زوجاتهم ملابس ضيّقة لمّاعة وغالباً مع قبّعات سخيفة على أطرافها زهور مزيّفة. ومعظمهنّ جئن لمشاهدة قسم المجوهرات بأساوره وخواتمه الذهبية. وفي الأثناء كان أحد أفراد فرقة الشيخ محمّد العسكرية يعزف الألحان العسكرية البريطانية والاسكتلندية. وكان العمّال الهنود والباكستانيون الذين يرتدون حللاً يعملون على تجهيز الخِيَم قبل أن تبلغ شمس الظهيرة ذروتها.

ماذا حاول صانع الأسلحة في مسرحية جورج برناردشو، المدعوّ أندرو أندرشافت، أن يقول لابنته، الرائد بربارة، عندما زارت مصنعه الضخم للأسلحة في بريفال سانت أندروز؟.

«النظافة والوقار لا يحتاجان إلى تبرير ... إنهما يبرّران ذاتهما بذاتهما. لا أجد ظلمة هنا أو إزعاجاً». وكان على حقّ. بولو، سجّاد حرير، أباريق قهوة، ورود، شاي، مجوهرات.. كل هذا كان هنا بينما كان «المواطنون» يحمون وجوههم الملفوحة بالشمس الشرقية. إنه أمر حضاري بقدر الفن الرفيع.. هذا ما أصبح عليه بيع الأسلحة بالنسبة إلى صانعي الأسلحة العالميين.

خلف هذه الخِيَم ومحلّات الحليّ وفرقة الموسيقى في هذا المبنى الواسع في إمارة أبو ظبي، ينتشر على منصّات بعض من أكثر العتاد الحربي تطوّراً وفتكاً ممّا صنعه الإنسان حتى الآن.. وهو جديد إلى درجة أنك تستطيع أن تتنشّق الطلاء الحديث الذي يلمع تحت الشمس. وهو أيضاً نظيف وجريء وفنّي في تصميمه، بحيث أنك لا تحزر أبداً ما هو هدفه. وفي كل مرّة كنت أجول لتفحّص صاروخ فرنسي، أو دبّابة ألمانية، أو قاذفة نار أميركية، أو عربة مصفّحة بريطانية، أو مدفع رشّاش ألمانيّ ذاتيّ الحركة، أو رفّاً من المسدّسات الإيطالية، أو بندقية رشّاشة روسية، أو شاشة فيديو كاشفة للمتفجّرات ما تحت الحمراء، من صناعة جيش جنوب أفريقيا... كان يظهر أمام هذه الأسلحة رجل جذّاب ببذلة كحليّة، تاجر موت، يحمل ملفّاً من الإعلانات.. يسلّم عليك بقوّة

ويقدّم لك كوباً آخر من الشاي.... في بعض الأحيان كان هؤلاء الرجال يبدون مهيبين إلى حدّ ما (فبيع الموت على مستوى عالٍ كان يعني المزيد من الضيافة)، في أحيان أخرى كانوا يضعون وردة قرنفلية أو زرقاء في عروة الياقة. وكانت الأسلحة الباليستية هي سحرهم الخاص. وقد أسرّ إليّ أسترالي كان يبدو مسروراً: «مع ارتفاع الحرارة، تنطلق الرصاصة بصورة أبطأ». تدفّق ماريشالات الميدان المبتسمون، والجنرالات المنشرحون، من كل أنحاء العالم العربي، على أجنحة الأسلحة، يلقون نظرة على البنادق القنّاصة ويتسلّقون بمشقّة، مثل طلّاب المدارس، على مدافع الهوتزير والدبّابات، ويلمسون بأيديهم مراراً وتكراراً قواعد إطلاق صواريخ ناعمة الملمس، وأدوات موت أخرى.

عليّ هنا الاعتراف ببعض الافتتان الشخصي البشع بكل هذا.. لعلّه اهتمام مهني. إنه ربيع ٢٠٠١.. منذ ٢٥ سنة، وأنا أواجه القذائف المصمّمة بشكل فظّ ورائع، والصواريخ، والقذائف الصاروخية، وقذائف الدبّابات، وقنابل المدفعية، والقنابل اليدوية، وهي كلّها تُرشق باتجاهي من قِبل بعض الجيوش الحاقدة والأكثر تميّزاً على الأرض. السوريون بدبّابات ت٧٢ الروسية، والطيّارون البريطانيون مع قنابل أميركية انشطارية، والمجاهدون الأفغان مع بنادق كلاشينكوف AK 47 الروسية، وصواريخ سكود صُنع روسيا، وقنّاصات إيرانية من صُنع أميركي، وأميركيون مع قاذفات مقاتلة من صنع بوينغ وسفن حربية قذائفها بحجم سيّارة الفولسفاكن.. كلّ هؤلاء وجّهوا منتجاتهم نحوي. حتى وأنا أسير بين هذه المنصّات النظيفة فإن أصداء المدافع العراقية من عيار ١٥٥ ملم كانت تصفر بقسوة في أذني وقد أصمّتني بشدّة في عام ١٩٨٠. خلال ربع قرن، شاهدت الآلاف من جثث النساء والأطفال والرجال، وهي مشوّهة، مقطّعة، متحلّلة، ممزّقة، مقطوعة الرأس، مخصيّة، وباختصار مدمّرة، ضحيّة لصناعة الأسلحة التي تساوي عدّة مليارات من الدولارات. كان معظم هذه الضحايا من المسلمين. وكان ما أراه في أبو ظبي، في هذا اليوم الحارّ من شهر آذار/مارس من العام ٢٠٠١، رمزاً لتفوّقنا على الشرق الأوسط، ولقدرتنا على قتل مسلمين، والمساعدة على قتل مسلمين آخرين، بأسلحتنا نحن. ليس لديهم أيّة أسلحة تستطيع مجابهتنا. ليس الآن.. ولا حتى بعد ستة أشهر أخرى.

كنت أقصد أسواق الأسلحة في الشرق الأوسط، بانتظام، باحثاً عن إجابات لبعض الأسئلة القديمة. مَن هم الرجال الذين يصنعون هذه الأسلحة الشرّيرة؟ كيف يبرّرون تجارتهم؟ كيف سترد الضحايا على عملية سحق حياتها؟ أي لغة تستطيع أن تجمع بين العلم والموت وجَني المكاسب الكبيرة، على هذا المستوى؟ لأنه، وكما اكتشفت في أبو ظبي، كان هناك تناسُب أساسي مخيف بين علم اللغات والأسلحة، بين القواعد والقذائف... إن الأمر كلّه يتعلّق بالكلمات. بهذه الرؤية، جلتُ في أجنحة تجّار السلاح ومعي كيس كبير من الخيش، تحدوني رغبة مهووسة لتجميع كل كتيّب، وبيان، ودعاية ومجلّة من الأميركيين والروس والبريطانيين والصينيين والفرنسيين والسويديين والألمان والإيطاليين والأردنيين والإيرانيين، وأنا أغربل وأرمي جانباً آلاف الصفحات من المعلومات.

صاح بي تقنيّ أسلحة باكستاني فيما كنت أضع في حقيبتي قُصاصات عن التصاميم العامّة للقنابل وصواريخ السفن: «خذ كمّية أخرى».

كان الروس هم الأكثر اعتدالاً في كلامهم. وقد وعدني مسؤول مكتب التصميم الروسي KEP «سوف تشعر بالحماية بفضل الدرع الواقي من الأسلحة الذكيّة». كانت دبابة ت٩٠ الأخيرة Uralvagoncavod، من سلالة دبّابات ت٥٥ التابعة لحلف وارسو القديم ومصنّفة إعلامياً بأنها الأفضل.. وكانت شركة الصواريخ المضادّة للطائرات Ulyanovsk Mechanical تعرض صفقة كبيرة لزبائنها. أما عند الإنكليز الأكثر ليونة، فإن أنظمة ڤيكرز للدفاع Vickers كانت تحاول بيع شالنجر الجديدة E2 الهادفة إلى تقديم توازن أفضل ما بين القدرة القتالية وقوّة النيران والحركة.. إن قدرتها على تقديم فعاليّة قتالية.. قد جرى التحقّق منها واختبارها «... أجل!! أنا أذكر ذلك... لقد استخدمت دبّابة شالنجر ٢ من قِبل القبّعات الحمر في الخليج. وأذكر أن دبّابات شالنجر أطلقت ذخائر مشبعة باليورانيوم. بالطبع كان ذلك مجرّباً.

وكانت صناعات السلاح الأسترالية (وهي صارت الآن، بفضل عولمة غريبة للسلاح، شريكاً في مصانع ثاليس الفرنسية) تبيع نظام تدريب بالذخيرة الحيّة

«يتضمّن وحدة محمولة مستقلّة».. كانت هذه تؤخذ مباشرة إلى ميدان القتال بحيث يستطيع الجنود ممارسة إطلاق النار على أشخاص وهميين (في الكمبيوتر) في أثناء قتلهم لأشخاص حقيقيين. «محرّكو أهداف».. كانت تلك المفضّلة حقيقة عندي.. وكان بإمكانها أن تلبّي وظائف مبرمجة، بما في ذلك: «اظهرْ في المقدّمة».. «اسقطْ عندما تصاب».. «اظهرْ مجدّداً بعد الإصابة».. «توقّف لقبول وتعداد النيران الأوتوماتيكية». . . و«اظهرْ فجأة.. لتركيب الهدف إلى أعلى أو أسفل كما ترغب وحتى تصيب». وقد عرض لي أسترالي ضخم هذه اللعبة الصغيرة المخيفة. كان القتلى على الشاشة مهذّبين. . . يرتفعون عندما أطلب منهم ذلك وأقتلهم... ثم يُبعثون مجدّداً بحيث أستطيع إطلاق النار عليهم مجدّداً ومجدّداً وأرفعهم وأخفضهم كما أرغب...

أما الإيطاليون فقد كانت أسلحتهم على غرار أبواقهم المدوّية. . . . . تؤمّن الأسلحة النارية بيريتّا Beretta «النوعية بدون منازع».. «الخبرة»، «التجديد»، «احترام التقليد»... «تراث بيريتّا في الامتياز».. «تمّ تطوير السلاح Beretta 9000S Type F - ليصبح حجمه صغيراً وعياره قويّاً بالنسبة إلى المسدّسات الجديدة، وذلك لكي يستحقّ ثقتك. طوّر بينيلّي Benelli مثل Beretta أسلحة الصيد بحيث تكون حيواناً «عدوانيا أسود عالي التقنية». توصف حركة ضغط النار عند بينيلّي، من حيث الميزة، بالعاصفة. وقد تبجّح صانعو سلاح الصيد ساكو ٧٥ الفنلندي بأنهم سألوا المصمّمين سؤالاً واحداً مفاده: «ماذا تفعلون لو أُعطيتم الإمكانيات لتصميم بندقية أحلامكم، البندقية الجديدة الكاملة للألفيّة الجديدة؟» ... ولاحقاً بالطبع، بعد بضعة أشهر فقط، سوف أدقّق في هذا السؤال مجدّداً وأتساءل بماذا يجيب أُسامة بن لادن لو سُئل عن تصميم سلاح أحلامه أيقول: السلاح الكامل الجديد للألفية الجديدة؟؟.

روايات أخرى عن «الامتياز» تظهر أمامي مجدّداً ومجدّداً في تلك الكتيّبات. فهذا أوشكوش Oshkosh من ويلمنغتون ينتج شاحنات عسكرية لها «تراث في الامتياز». . و«إنتاج الشركة يرتكز على تاريخ طويل ويتطلّع نحو قرن جديد»... ثم هناك طائرة هيلكوبتر أباتشي المهاجمة من صُنع بوينغ التي يقول الإعلان

عنها: «من السهل الحديث عن الأداء، وحدها طائرة هيلكوبتر Apache Longbow تهاجم». كانت الشركة الأوروبية للدفاع الجوّي والفضاء من بين القلائل التي تسمح بإخراج القطّ من الكيس.. إذ يقول إعلانها: «الاحترام الحقيقي يمكن كسبه فقط من خلال صناعة أنظمة دفاعية متفوّقة... فقط من خلال امتلاكها».

عام ١٩٠٦ قال أندرو أندرشافت الشيء نفسه تماماً في مسرحية برنارد شو. ولدى سؤاله ما إذا كان يختار الشرف، العدل، الحقيقة، الحب والرحمة، أم المال والسلاح، أجاب أندرشافت: «المال والسلاح لأنك بدونهما لا تستطيع الحصول على كل الأمور الأخرى المذكورة». بعد فترة، بدأت أشعر بشيء من القرف. . . هناك شيء محزن إلى حدّ كبير في اللغة المخيفة التي يستخدمها تجّار الموت: إطنابهم والكلمات الذكورية التي تتوازن مع نوعيّة الأسلحة المصمّمة للقتل، واعترافهم بأن الأسلحة تعني القوّة، التعريف النهائي «للامتياز». لكنّ الأسوأ من ذلك كلّه كان ما لم يأت بعد.

بوفور (من السويد البلد المحبّ للسلام ومانح جائزة نوبل) «هو مزوّد لتكنولوجيا مستقبل آمن... موثوق ومجدّد»... وتنتج مصانع العتاد الحربي الباكستانية ذخائر «صُنعت من أجل الكمال»... شركة موواغ Mowag (من سويسرا صانعة ساعات الحائط والمحبّة للسلام أيضاً) تنتج ناقلات جند مصفّحة من نوع «بيرانها ٣» Piranha 3 (بمفهوم عائلي يجعلها صالحة لعدّة مهمّات متنوّعة) ... لكن لوكهيد مارتن من دالاس حقّق سبقاً صحفياً بملفّ رابح عن الصواريخ والقنابل: «مقاتلات فالكون ف١٦ Falcon F16 الخالدة».. وأنظمة جديدة لتحديد الأهداف تمثّل «عقول وقوّة عضلات» طائرات هيلكوبتر الأباتشي لوكهيد... طائرات ف٢٢ رابتور F-22 Raptor فصيلة جديدة من المقاتلات الخارقة التي ستهيمن على الأجواء وتؤمّن قدرة لا تُضاهى للطيّارين الأميركيين... صاروخ الرمح «أطلق، وانْسَ»، الذي يؤمّن استخداماً طويل الأمد للمدفع... والنظام الجديد من قاذفات الصواريخ المتعدّدة الفوّهات التي أسماها العراقيون من شدّة خوفهم (عام ١٩٩١): «الأمطار المعدنية» ـ في الحقيقة نقل لوكهيد هذا عن

العراقيين كاستشهاد يدعم كلامه ـ وهي تعطي مستخدميها قدرة «إطلاق واندفاع». «إطلاق واندفاع»: كان هذا أيضاً وصف الجنرال نورمان شوارزكوف الساخر لجنود إطلاق صواريخ السكود العراقية المفترض أنهم جبناء.. طبعاً لا تذكير بذلك هنا. وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى المجلّات البرّاقة المكدّسة على أرض غرفة نومي. إنها رحلة لغوية في عالم وهمّي. ونصف الكلمات المستخدمة من قِبل تجّار الأسلحة (حماية، ثقة، امتياز، تاريخ، احترام، اعتماد، خلود، دقّة) تستوحي الصفات الأنسانية والإنجازات الروحية حتى. وكان النصف الآخر (ضاربة، أداء، خبرة، فعاليّة، قدرة قتالية، نوعيّة، قوّة عضليّة، عاصف) كلمات محض عدائية، تستوحي بصبيانية القدرة الذكورية الجنسية لإثبات أن القوّة هي الحقّ. وقد أطلق الأميركيون على أسلحتهم أسماء مشابهة لأسماء السكّان الأميركيين الأصليين الذين أبادوهم (هيلكوبتر أباتشي، نظام السهم الطائر، قاعدة إطلاق صواريخ متعدّدة الفوّهات Kiowa، أجهزة تحسّس أشعّةٍ ما تحت الحمراء ....Hawkeye)؛ كما أن المصنّعين الغربيين أعطوها ألقاباً مثل: الكواسر والضواري Raptors & Piranhas. كان الموت هو الشيء الوحيد الذي لم يذكر هنا.

ربّما كان لفقدان الذاكرة علاقة بذلك. في معرض للأسلحة في دبيّ يوم ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣، أمضيت ثلاث ساعات أراقب الزوّار ـ نساء أوروبيّات بألبسة رسمية وتنانير قصيرة مع عملاء حكوميين وحكّام عرب يمرّون قرب منصّة صاروخ هيوغز Hughes حيث تظهر صورة سفينة حربية من طراز Ticonderoga تطلق صاروخاً في الجوّ. كان صاروخاً مماثلاً لذلك الذي أطلقته سفينة حربية (USS Vincennes)، من طراز Ticonderoga مضادّة للطائرات مجهّزة بنظام إدارة معركة من نوع Aegis، وأسقط يوم ٣ تموز/يوليو ١٩٨٨ طائرة الإيرباص الإيرانية مما أدّى إلى مقتل ٢٩٠ راكباً مع طاقمها. لا ذكر لذلك في الجناح بالطبع.

ما زلت أحتفظ بملاحظاتي حول المحادثة القصيرة عند المنصّة مع بروس فيلدز من برنامج هاغز الدولي للتنمية. قال: «أجل كان ذلك أحد صواريخنا ذا

الكفاءة العالية. لم أرد أن يستخدموا أيّة صور للسفينة الحربية Ticonderoga في دعايتنا هذا الأسبوع. فقط عند وصولي إلى هنا رأيت هذه الصورة على الجدار. لحسن الحظ نحن لن نعرضها مع الدعاية». راقبت مرور مجموعة من الشخصيات المبتسمة، مسؤولين واعين من وزارات دفاع عربية، ومُلحقين عسكريين أميركيين، يتفحّصون القطعة... وأخيراً أميرنا تشارلز، أمير ويلز يشقّ طريقه بين القاذفات المقاتلة البريطانية.

كانت الورود في كلّ مكان، كما لو كانت المناسبة عرساً وليس سوق أسلحة... زهر، زنبق، طيور الجنّة، أقحوان، كلّها كانت موضّبة بشكل نظيف بين الصواريخ. لكن الوردة الأكثر لمعاناً التي كان يمكن رؤيتها في دُبيّ كانت اصطناعية بقدر ما كانت ساخرة: زهرة الخشخاش الحمراء للفلاندرز. هل أدرك رؤساء صناعة الطيران البريطاني، والسفير البريطاني والقناصل، وحتى الأمير تشارلز الذي يضع زهرة على طيّة بذلته الرمادية، هل أدركوا هذا التناقض الظاهري؟.

في حقول الفلاندرز تنبت الأزهار

بين الصلبان، صفّاً فوق صفّ،

أزهار تُميّز موطننا.....

عندما كتب هذه السطور في المعركة الثانية في إيبر Ypres عام ١٩١٥، لم يكن الدكتور الكندي جون ماكراي ليدرك كيف سيكون عليه استخدام زهور الفلاندرز هذه بعد سبعين سنة. ولمدّة أسبوع، في دُبيّ، في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣، كان يمكن رؤية هذه الزهور الحمراء تتراقص على صدور الرجال بينما كانوا يبدون إعجابهم بما هو حديث من «أسلحة الدعم القتالية»: أباتشي، بوما، هاريرز، لينكس، ف١٨، وميراج ٢٠٠٠ الجديدة.

وحتى «الجندي المجهول»، المحتفى به، لم يحظَ بأيّ اهتمام في أبو ظبي بعد ثماني سنوات.. وباستثناء الإشارة المختصرة والمرعبة إلى الأمطار المعدنية، فإن القضاء على الحياة لم يكن له وجود.. أما الحديث عن «أدوات القتل» فكان

يشير فقط إلى عمليات القتل بواسطة الآلات والدبّابات والسفن. حتى «الحرب»، كانت كلمة محظورة. إنه دفاع. كما بالنسبة إلى تسمية «وزارة الدفاع».. وأيضاً «معرض الدفاع الدولي» الذي كان الاسم الرسمي لذلك المهرجان العامّ في أبو ظبي. كانت لحظة غريبة، لحظة سألت سلطان سويدي «مدير معرض الدفاع»، في المؤتمر الصحفي في المبنى المخصّص لافتتاح معرض الأسلحة: «لماذا تقيم الإمارات العربية المتحدة، الدولة المسلمة المسالمة الصغيرة والفتيّة، سوقاً للأسلحة التي يمكن أن تُستخدم لقتل أخوة مسلمين». تلت سؤالي فترة صمت طويلة ذات مغزى، نظر إليّ خلالها سلطان سويدي بانتباه مركّز، ثم قال: «هذه المعدّات ليست بأيّ حال صانعة الحروب أو صانعة قرارات الحرب. إن استراتيجية الدول هي التي تقرّر ما إذا كانت ستستخدم هذه المعدّات ضد مسلمين آخرين أو غيرهم... نحن دولة مسالمة. رئيسنا (حاكم الإمارات) معروف عنه أنه أكثر الزعماء تأييداً للسلم في العالم».

وعندما ذهبت للحديث مع الناس الذين كانوا في أبوظبي بُغية الوقوف على ماهيّة هذه المعدّات، وجدت أن هؤلاء الناس كانوا بريئين وطيّبين ونظيفين كأيّ مجموعة من رجال العائلات من الطبقة المتوسّطة. بالطبع كان عليك أن تكون مهذّباً في الحديث معهم، وهم كانوا يعرفون كل الحجج المتداولة، وبعضهم كان قد شاهد مسرحية الرائد، وكان يبتسم ببرودة عندما أذكر أندرو أندرشافت .

عند جناح ڤيكرز Vickers كان يقف ديريك تورنبول من بليث في نورثومبرلند، يراقب نموذجاً مصغّراً لدبّابة شالنجر E2 تتحرّك بشكل دائم دائرياً على منصّة بلاستيكية. سألته إذا كان يفكّر في ما تصنعه كل هذه الأسلحة بالبشر وكان جوابه فوريّاً: «أيّ شخص يقول لك لا أعرف، كاذب. أيّ إنسان متحضّر يعمل في هذا المجال يعرف ما هي أغراض هذه المعدّات. لكننا أكثر تكتّماً من أيّ كان. إن صادرات كبيرة من هذه المعدّات مسيطر عليها بدقّة من قِبل الحكومة البريطانية.. إذا جلسنا وأمامنا خارطة للعالم ووضعنا علامة على الدول التي لا نستطيع بيعها سلاحاً، فإنه لن يبقى لنا الكثير». يبدو أن الحكومة البريطانية ـ ڤايكرز والسيد تورنبول Vickers, Turnbull يتبعون نصيحة السيدة

بريتومار في مسرحية برنارد شو: «بيع مدافع وأسلحة لأشخاص أصحاب قضية مُحقّة وعادلة ورفض بيعها للأجانب والمجرمين».

عندها أضاف تورنبول ملاحظة غريبة، قال: «تذكّر أن الدبّابة صُنعت لتقتل الدبّابات وليس الأشخاص. هذا هو الغرض منها». والحقّ أن السيد ديريك تورنبول هو رجل ذكي وودود أيضاً. أهو راضٍ حقّاً عن تعليق كهذا؟. أليس هناك بشر، أولاد أمّهات، داخل هذه الدبّابة عندما «تقتل»؟ هل يعتقد حقاً أنهم ينجون عندما تشقّ قذيفة بريطانية طريقها إلى داخل مدرّعة؟ لدى تورنبول ولدان: ستيفن، عمره ١٦ سنة، وهو يدرس هندسة الصوت، وكريغ، عمره ١٤ سنة «وهو سيكون حتماً صحافيّاً جيّداً». ومدينة بلايث حيث يوجد منزل آل تورنبول هي بالصدفة المكان الذي عملت فيه لأوّل مرّة كمراسل لصحيفة «نيو كاسِل إيڤننغ كرونيكل» Newcastle Evening Chronicle وحيث شاهدت لأوّل مرّة جثّة لضحية مقتولة، قتلها صديق لها، على ما أذكر، بمسدّس ألماني أو إيطالي.

فكّر تورنبول لفترة قصيرة بسؤالي. تحدّث عن التجرّد والانفصال الذي يأتي مع تكنولوجيا المعلومات العسكرية. وقال: «لقد توصّل الجميع إلى التعايش مع الأمر بطريقتهم الخاصّة. ومعظم الناس يتكلمون الآن عن الهندسة والتكنولوجيا... ولكنهم يذكرون «هذا الأمر» بالطبع بين الحين والآخر».... و«هذا الأمر» الذي يعنيه تورنبول هو إنتاج الموت.. مع أنه لم يستخدم الكلمة في أيّة لحظة. بعد ذلك تبيّن أنه كان في السعودية من أجل ڤايكرز Vickers خلال حرب الخليج ١٩٩١. . ومع أنه ليس جندياً فقد وصل إلى «طريق الموت» السيّىء السمعة، جنوب البصرة بعد يومين من المذبحة الجماعية التي تعرّض لها العراقيون الفارّون من قِبل الطائرات الأميركية والبريطانية... ملقياً بنظرة من علٍ، من مرتفع متلة، على ميادين القتل التي قُتلت فيها أيضاً النساء الهاربات...

كان تورنبول حسن الاهتمام عندما تكلّم عن المشهد، متفكّراً بردّات فعله في ذلك الوقت.. كان بحقّ رجل تسلّح ينظر إلى النتيجة النهائية لتقنيته. «كان المشهد مرعباً... لكن بطريقة غريبة، لم تحصل عندي ردّة الفعل التي كنت

أتوقّعها. تصوّر أننا سرنا صعوداً عبر الكويت، ومررنا بآبار النفط التي أحرقها العراقيون. كان أفظع شيء شاهدته في حياتي. مررت بكل هذا الدمار المرعب ولم أكن مصدوماً جدّاً للضرر الحاصل في متلة». بقينا صامتين لفترة. كان الضرر في متلة بشرياً وليس مادياً فقط. تذكّرت الجندي العراقي الذي وجدته مُقحماً في التراب، وسماكة جسمه لا تتعدّى الإنش. كانت آبار النفط المحترقة رهيبة لكن موت البشر شيء مختلف بالطبع. وينبغي أن أذكر أن تورنبول بدا مستمتعاً بأسئلتي... بعدها تحوّل إلى تاجر سلاح أصليّ . قال: «أُنظر روبرت، إذا كان العالم مليئاً برجال لطفاء يقومون بأعمال حضارية، فلن نحتاج إلى هذا العتاد».

على بعد بضع خطوات كان يقف جندي بريطاني، وهذا يظهر إلى أي حدّ كانت الجيوش وتجّار الأسلحة قد أضحت متداخلة.. جندي الدبّابة الرقيب أشلي فرانكس البالغ من العمر ٣١ عاماً، كان قد قاد دبّابة مسلّحة إلا أنه لم يشترك في حرب الخليج... اعترف: «كنت في إيرلندا الشمالية، ذهبت دبّابتي إلى الخليج لكنني لم أذهب. إنه لعار حقّاً». ومن ثمّ بدأت محاضرته الصغيرة حول تحسينات دبّابة شالنجر وكيف يجب على ڤايكرز استحسان هذه المساعدة العسكرية.. وكانت محاضرته شبيهة بالكتب الدعائية الموجودة في غرفة فندقي. «يوجد في الدبابة شالنجر قوّة دفع إضافية، وكانت قوّة شالنجر ٢ حوالي ١٢٠٠ حصان بينما قوّة هي ١٥٠٠ حصان. وبالنسبة إلى سيناريو صحراوي فالأحصنة الإضافية أكثر من ضرورية. وتُعتبر شالنجر ٢ رائعة في حال لم تقد دبّابة شالنجر 2E. والتطوير الآخر هو أنه عندما كانت دبّابة شالنجر ٢ قيد التصنيع كانت أجهزة تكييف لحرارة محدودة جدّاً. والآن لدى دبّابة شالنجر 2E أجهزة تبريد مستقلّة للمدفع... ومن خلال نظام إدارة المعركة، في حال استُهدفت دبّابة بالليزر، يعرف الجميع أن عربة معادية تستهدف دبّابة.. وفي متناول قائد المجموعة المقاتلة أيضاً النظام، نفسه، وأروع ما في الأمر أن دبّابة أخرى تستطيع استخدامه ضدّ دبّابة العدو». أصبحت لهجة الرقيب البريطاني الآن مألوفة جدّاً. «مجموعة طاقة»، «رائعة»، «زيادة»، «مستقلّة»، «جمال». كان الأمر كما لو أن الرقيب فرانكس يحاول بيعي سيّارة رياضية جديدة، وهذا ما أعتقد أنه كان يقوم به.

بينما كان يتحدّث، تأرجحت الدبّابة النموذج على قاعدتها البلاستيكية، واستطعت أن أرى بكل وضوح الملحق العسكري، قائد دبابة 2E الجديدة يندفع إلى الصحراء بسرعة.. سبق لي أن جلست على قمّة دبّابة شالنجر ٢ في السعودية، فعلت ذلك قبل أيام فقط من حرب الخليج وأستطيع أن أفهم ثقة الرقيب فرانكس ورفاقه عندما تعرّضت دبّابتهم للنيران. لكن تذكّرت أيضاً كيف باعت بريطانيا دبّابات تشيفتن Chieftain لشاه إيران وكيف استخدمت الجمهورية الإسلامية هذه الدبّابات ضدّ العراق بعد إسقاط الشاه عام ١٩٧٩، ولم أستطع أبداً إزالة الذكرى الواضحة لصعودي على ظهر التشيفتن التي استولى عليها العراقيون عام ١٩٨٠، ورؤيتي الهيكل العظمي للمدفعي الإيراني الباقي على الكرسي بقربي عندما التفتّ إلى اليمين. ربّما كان بعمر الرقيب فرانكس. لقد وافقت الحكومة البريطانية على بيع إيران دبّابات تشيفتن وهي دبّابات انتهت بين أيدي جنود آية الله الخميني وبعدها بين أيدي صدّام.

لكنّ معارض السلاح تتعلّق بالبيع وليس بالقتل. على بعد بضعة أمتار من تورنبول وفرانكس، صادفت طالبتيْن من الجيش الأوكراني تلمّعان دبلومهما الجديد أمام بعض العرب المذهولين. كانت ماريا فرينيس وجوليا بارتاشوفا نموذجاً لحملة دعائية رئيسية حديثة ـ أوكرانيا تبيع دبّابات ـ وبعيداً عنهما، في الجناح الأميركي، كانت شخصية أكثر إثارة تشقّ طريقها عند منصّة بندقية وينشستر. كانت رامونا دول تقوم بعرض دعائي وهي ترتدي ملابس ضيّقة وتحمل مسدّساً وتصنع الكثير من أحمر الشفاه.

وقد أُعجب الجنرال مصطفى طلاس بها. واكتشفتُ أن وزير الدفاع السوري كان برفقة الملك الأردني عبدالله ابن الملك القصير القامة حسين، الصديق السابق لبريطانيا (والمشتري للأسلحة البريطانية) قرب الجناح العسكري الأردني. كان طلاس يعاين داخل العربات المصفّحة والأسلحة، وقد بقيت فسحة صغيرة على بذلته لأوسمة جديدة.. وقد صرّح مرّة عن حبه لجينا لولو بريجيدا، وكتب لها قصيدة.. وكتب لها في بيت شعر ما معناه: لو أن جنوده الاستعراضيين يستطيعون حمل صواريخ تتحوّل إلى أزهار حبّ... لكن صواريخ سام ٦ السورية

أكلها الصدأ وكان مصيرها مثل بقيّة الذخائر. وكان الأميركيون قد أغرقوا دبّابات م٤٨ في بحر فلوريدا بعد إفراغ الوقود منها لتشكيل شعب مرجانية. وقد استخدم التشيكوسلوفاكيون براميل دبّابات ت٥٥ لصنع مراكز إنارة. وكان من شأن ابنة أندرشافت، العضو في جيش الخلاص، أن توافق على كل ذلك...

لكنّ السلاح الذي لازم مخيّلتي طويلاً، والذي سيكون شرّير هذا الفصل، يسمّى «نار جهنم».. وهو سلاح مضادّ للمدرّعات استُخدم لسنوات من قِبل الإسرائيليين ومؤخّراً في الضفّة الغربيّة المحتلّة وقطاع غزّة. كانت «نار جهنم ١» قد أُطلقت من طائرة أباتشي إسرائيلية، أميركية الصنع، على سيّارة إسعاف لبنانية عام ١٩٩٦ مودية بحياة أربعة أطفال وامرأتين كانوا على متنها. وكانت بقايا «نار جهنم ٢»، المطوّر، والتي وجدتها في منزل مدمّر جزئياً في قرية بيت جالا المسيحية في الضفّة الغربيّة المحتلّة في تشرين الثاني/نوفمبر الماضي، قد أُطلقت على الفلسطينيين من قِبل الإسرائيليين، بعدما هاجم المسلّحون الفلسطينيون المستوطنة اليهودية جيلو المنشأة جزئياً على أرض مصادرة من الفلسطينيين في بيت جالا. ويبدو أن كبار رجال لوكهيد كانوا أحياناً إسرائيليين. وقد عبَّرت نيتي جونسون، التي اعترفت شركتها بأنها حذفت إسرائيل من زبائنها في اللائحة الرسمية المقدّمة إلى العرب في أبو ظبي، عن عدم ارتياحها إزاء كل حديث عن إسرائيل.

لكن كان جون هيرست يبدو كالأب الفخور بسلاح «نار جهنم». وقد فازت روكويل Rockwell بالمسابقة حول صاروخ «نار جهنم» جو ـ أرض في السبعينيّات، لكن هاغيز تفوّق عليها ببرنامج مافريك. كان هناك تاريخ كامل لصاروخ «نار جهنم»: منذ خلافته لصاروخ تاو TOW، وتطوير لوكهيد مارتن لنظام ليزر قليل التكلفة، ونموذج «ف» F (تحديد سريع لتحرّك مدرّعة)، وحتى الإنتاج المشترك بين لوكهيد (٨٠ في المئة) وبوينغ (٢٠ في المئة) وصولاً إلى إنتاج لوكهيد (١٠٠ في المئة) لنظام هيلفاير Hellfire 2 وبيعه لإسرائيل والسعودية والإمارات ومصر... وكان على الولايات المتّحدة الموافقة على المشتري. هذا

تاريخ يحبّ صانعو الأسلحة روايته باعتبار أنه خالٍ من السياسة والموت ومليء بأرقام النسب وتكاليف التطوير والاتفاقيات.

لكنّ هيرست قرأ «الميجور بربارة» ـ وقد ذكر اسم أندرشافت قبل أن يخطر ببالي ـ وعندما ركّزت على الكلام عن أخلاقية (أو لا أخلاقية) عمله، كان لديه «بيانُ مهمّة» خاصّ به يُلقيه عليّ. وعند إعادة التفكير في الأمر، أعتقد أن ذلك كان أشبه بتلاوة أركان الإيمان. كان يريد مني أن أفهم. قال: «قمت بنقاشات كبيرة على قاعدة دينيّة أيضاً. قبل ذلك، كنت مدير تطوير صاروخ برشينغ ٢. كانت مهمّتي بيع صاروخ برشينغ ٢ للقوّات المسلّحة الأميركية وللدول الأخرى مثل ألمانيا التي اشترت برشينغ 1A. توقّف هنا ليرى إذا كنت قد فهمت تداعيات الموضوع.. كان بيع صاروخ برشينغ يعني بيع حرب نووية. قال هيرست: «هناك قانون أخلاقي. كان الأمر يتعلّق بتسليح دول أخرى لخوض حربها عوضاً عن إرسال جنودنا للقيام بذلك».

لكنه أراد الذهاب أبعد من ذلك.. لذا جلست في جناح لوكهيد مثلما فعل جون هيرست منذ ٤٥ عاماً مع لوكهيد معلّقاً على أندرشافت من وجهة النظر الدينية «أنا مسيحي مؤمن، أنا تابع للكنيسة الأسقفية. وتستطيع التفتيش في كل العهد الجديد ولن تجد شيئاً حول الدفاع عن نفسك بقتل الشخص الآخر». نعم، قال لي موافقاً ومضيفاً أن هناك إشارة في إنجيل بولس حول لبس «درع الله». لكن العهد القديم شيء مختلف. «فيه الكثير من الأقوال بأن الله يريد منا الدفاع عن أنفسنا ضدّ الذين يريدون تدميرنا. والعهد الجديد يقول بأن الله يريد منا نشر بشارته (إنجيله) ولا يمكننا فعل ذلك بشكل جيّد إذا كنا أمواتاً. ليس هذا إعلانا عدوانياً وعلى الشخص الذي يودّ إيذائي التفكير مرّتين... يريد الله منا الدفاع عن أنفسنا والتسلّح لكي نتمكّن من نشر كلمته» ...

يبدو ذلك أقلّ أخلاقية من تبريرات الحروب الصليبية، أي التبرير الديني لحملة تبشير عسكرية. أجل، هيرست ربّ عائلة متزوّج بليتيسيا ولديه أربعة أولاد. ابنه الأول جون، ترك عمله في فنادق ماريوت ووقع في حبّ فتاة من بودابست وتزوّجها. وليام، يعمل مدير تسويق في الماريوت في أورلاندو ولديه

ابنتان. بايرون، يعمل في برامج البحرية لصالح شركة استشارية في واشنطن. كارول تعمل معلّمة مدرسة ولديها أولاد. وبالطبع سألتُ مجدّداً: أطفال؟ أسلحة؟ موت؟. وردّ هيرست: «عليك التفكير في ذلك، عرفت أشخاصاً في برنامج برشينغ تركوا الشركة.. كانوا لا يستطيعون مجرّد التفكير في الحرب النووية. عليك النظر إلى الأمر من وجهة نظر مخطّط استراتيجي ـ صاروخ برشينغ في الفناء الخلفي أفضل من صاروخ SS-20 على سطح بيتك. هذا ما قاله ألكسندر هيغ يومها.. ولم يطلق الروس نيران صواريخهم SS-20 (يقصد يوم اندلاع أزمة الصواريخ الأوروبية مطلع الثمانينيّات حين قرّر الاتحاد السوفياتي نشر صواريخ SS-20 في أوروبا ـ المترجم). . .

سألت مجدّداً: لكن الموت، الموت؟ فأجابني: «صحيح كان ذلك أم خطأ، أنا لم أربطه أبداً بما أقوم به. إذا شاهدتُ قنبلة تنفجر وأرجلاً تطير، لا أقول أبداً لنفسي: «كان من الممكن أن أكون سبب ذلك». لأننا نحاول تجنّب هذا الأمر. في بعض الأحيان يرغب أحد غريبي الأطوار في إشعال شيء... عندما يقوم شخص مثل صدّام حسين بسحب السدادة عندها لا يعود لدينا أي مهرب أو ملاذ... (فنقول حينئذ) «هذا ما يحدث عندما تفعل ذلك، لا تفعله من جديد».

لكن بينما عمل صانعو الأسلحة باعة للغات القوة، والجمال، والامتياز، والحماية، والاعتماد، والفعاليّة، والقوّة العضليّة، لم يكن للإنجيل، الذي يبشّرون به في أبو ظبي، أيّة علاقة بإله جون هيرست. كان مضمونه كلّياً حول الخوف والتهديدات: الخوف من العراق وإيران، وتهديد العدوان الصدّامي المستمرّ، والتحذيرات المتكرّرة بأن هذه الدول النفطية العربية الخليجية اللطيفة، والمرنة، والشديدة الغنى يجب أن تتسلّح وتعيد التسلّح للدفاع عن نفسها ضدّ الهجوم الكيميائي أو البيولوجي أو النووي. وكان من شأن هذا السيناريو المزيّف والخاطىء كلّياً أن أصبح مألوفاً بعد ثمانية عشر شهراً عندما استخدم الرئيس بوش ورئيس الوزراء بلير الشياطين نفسها لدفعنا إلى الحرب. لكن في أبو ظبي، في آذار/مارس ٢٠٠١، كانت وظيفة هذه التبشيرات مجرّد الكسب التجاري

الكلّي: أن نُرهب أصدقاءنا في الخليج ونُقنعهم بأنهم لن يكونوا بأمان إلا في حال اشتروا أسلحة بمليارات الدولارات. وبنظرة إلى الماضي نجد أن هذه التكتيكات كانت تجربة أوّلية لإعادة استخدام المعلومات غير الدقيقة نفسها لتبرير غزونا للعراق عام ٢٠٠٣.

إن الطريقة التي تمّ فيها التعريف بهذا الإنجيل (والتبشير به) كانت واضحة كثيراً في القاعة الواسعة المكيّفة في الجانب الآخر من سوق الأسلحة. كان مؤتمر «الدفاع الخليجي» هو المكان الأمثل للتعرّف على التهديدات. في اليوم الأول، كان نيل باتريك من مركز الخدمات الملكية المتّحدة يحاضر لمستمعيه حول «الدول الخطرة في الخليج».. سمعنا كلّنا عن قدرة الصاروخ البالستي الإيراني المتوسّط المدى، وقدرة العراق على إعادة بناء منصّات صواريخ متحرّكة. وسُئل العرب: «إذن ماذا سيحصل... عندما تصبح إيران دولة نووية؟».

كانت عروض باتريك مرفقة ببنود مشروطة. لكنّ الرسالة كانت واضحة بشكل كافٍ: «الشيء المهمّ هو بناء تحالف مع دول الخليج العربي... بناء تحالف مع الحلفاء الأميركيين والأوروبيين...» ... كان أسامة بن لادن تهديداً جديداً يضاف إلى المجرمين في الاتحاد السوفياتي السابق وإلى احتمال نقل روسيا أسلحة متطوّرة جدّاً إلى إيران(*)». كانت التحذيرات في أرجاء سوق الأسلحة في أبو ظبي مستمرّة بخشونة أكبر. في الجناح البريطاني للطيران الجوّي (تؤمّن أنظمة BAE لك رزمة كاملة تلائم احتياجاتك)، يبرهن لك شريط فيديو طويل كيف يعرف الجيش البريطاني طريقة إنهاء نزاع حدودي. كانت العناصر

(*) قبل ستة أشهر فقط من الهجمات على الولايات المتحدة، كان أمراً ساحراً أن نرى أن بن لادن اعتُبر تهديداً ثانوياً مرتبطاً بالمجرمين الروس وبالخبرة النووية في الاتحاد السوفياتي السابق. كان نظام صدّام (الذي لا يملك أسلحة دمار شامل) لا يزال معتبراً الخطر الأكبر. وبعد قصف أفغانستان وفرار أسامة بن لادن، أعيد إدراج السيناريو نفسه من قِبل السيّدين بوش وبلير عام ٢٠٠٢. لكن مجدّداً أيضاً، لم يكن وجود أسامة بن لادن ليحرّك المكاسب الماجنة التي جنيناها من مبيعات الأسلحة في أبو ظبي ومن معارض سلاح أخرى في الشرق الأوسط.

الحربية في هذا الفيلم السخيف «برتقالي» (مُعتدٍ) و«أزرق» (ضحيّة)، وكانت أراضيها (وهنا كلّ القصّة) تحتوي على احتياطيّ نفط وغاز في المنطقة الحدودية. وكان ذلك يعني بالتأكيد الكويت والسعوديّة والبحرين والإمارات. كانت القوّة الوحيدة ذات الحدود المشتركة مع السعودية والكويت هي العراق. إذن، فليكن البرتقالي هو لون العراق.. وحملت المنشورات العسكرية الغربية التي أعطيت للزوّار العرب في المعرض معنى موازياً. وعلى سبيل المثال، أوردت نشرة Gannett's Defense News من سبرينغفيلد، فرجينيا، أنه: «حان الوقت الآن لدول الخليج الفارسي لتكون جدّية حول أمنها المشترك. وأن التهديدات الموجّهة إلى المنطقة تظهر أهمّية تدعيم الأنظمة الدفاعية في أنحاء الشرق الأوسط الضعيف، وشبه الجزيرة العربية... وفي غياب تعاون أكبر يصبح الوضع الأمني أكثر دقّة يوماً بعد يوم».

وقد عمل نائب رئيس الأركان الكويتي، اللواء فهد الأحمد جاهداً لإبلاغ المندوبين أن إسرائيل تبقى الخطر الأول على العرب، وأن «الوضع الأمني في الخليج والوضع الأمني بالنسبة إلى الصراع العربي ـ الإسرائيلي مرتبطان». وكان نداؤه يائساً حين قال: «إذا أردنا إقامة نموذج سلام في منطقة الخليج، فيجب أن يكون لدينا نموذج سلام في فلسطين». كما كان تحذيره بأن مصير القدس موجود في قلب كل عربي، تحذيراً يائساً. وقد تجاهل منظّمو سوق الأسلحة في الإمارات الفاكسات التي أرسلها صانعو الأسلحة الإسرائيليّون للمشاركة في معرض أبو ظبي. لكن جرى توزيع نسخ مجّانية من مجلة Jane's Intelligence Review على رجال الأسلحة في معرض أبو ظبي، وهي تتضمّن مقالاً يتحدّث عن المعتقدات المزيّفة البالية حول النزاع العربي ـ الإسرائيلي. ويشير المقال إلى المستوطنة اليهودية غير الشرعية التي بُنيت على أرض عربية في هارحوما على أنها مجرّد «مشروع مُتنازع عليه»... وقد حُذف اسمها العربي: جبل أبو غنيم... وأعطي الاسم الإسرائيلي للضفّة الغربيّة المحتلّة: يهودا والسامرة... ولم يلفت المقال الانتباه إلى أن الرقم الذي يورده لعدد القتلى في الانتفاضة الأخيرة (٤٥٠ قتيلاً) يعود في غالبيته الساحقة لضحايا فلسطينيين عرب. كان اسم كاتب

المقال دايفيد إيشل وقد تمّ تعريفه بأنه «محلّل عسكري»، ولكنه كان بالمناسبة أيضاً ضابطاً سابقاً في الجيش الإسرائيلي.

أجل، كان ما تجري الدعوة إليه (أو التبشير به) في أبوظبي هو عقيدة جورج بوش الجديدة: يأتي التهديد من مجرم الحرب صدّام حسين، وليس من إسرائيل المحبّة للسلام. ويحتاج العرب من أجل الدفاع عن أنفسهم ـ سريعاً ـ إلى سياسة تقتضي استنزاف ثروة الخليج العربي وتبديد مليارات الدولارات على الأسلحة الغربية لحماية الخليج من بقايا العراق ومن فوضى إيران. وتفيد الإحصائيات بذلك كلّه. ففي عامي ١٩٩٨ و١٩٩٩ فقط، وصل الإنفاق العسكري لدول الخليج العربي إلى ٩٢ مليار دولار. ومنذ عام ١٩٩٧، وقّعت الإمارات وحدها عقوداً قيمتها أكثر من ١١ مليار دولار مضيفة ١١٢ طائرة إلى ترسانتها التي تشتمل على ٨٠ طائرة ف١٦ من لوكهيد مارتن و٣٢ طائرة ميراج ٢٠٠٠.... الأرقام مذهلة ومنفّرة!!. وبين عامي ١٩٩١ و١٩٩٣، كانت بعثة التدريب العسكري الأميركية قد سلّمت أسلحة قيمتها أكثر من ٣١ مليار دولار للسعودية مشتراة من واشنطن، و٢٧ مليار دولار معدّات أميركية جديدة. وتمتلك القوّة الجوّية السعودية أساساً ٧٢ طائرة ف١٥ مقاتلة قاذفة أميركية و١١٤ طائرة تورنادو، و٨٠ طائرة ف٥ و١٦٧ طائرة بوينغ ف١٥. في معرض دبيّ، كان ٨٠٠ مشترك من ٤٢ دولة يعرضون أسلحتهم. وكان الجناح العسكري الروسي يتضمّن ٥٠ شركة عسكرية روسية تبيع دبّابات، وعربات مصفّحة، وصواريخ أرض ـ جوّ، وسفناً حربية.. وبشكل لا يصدق، أعلن فيليب روجيه، مدير العلاقات الدولية لإدارة التسلّح الفرنسية، في أبوظبي أنه «بينما تستطيع حكومات الخليج التفكير في استخدام عائدات النفط الكبيرة لخدمة ديونها، فإننا نعتقد بأن القسم الأكبر يمكن أن يذهب إلى الإنفاق الدفاعي». وإذا كان الشعب العربي المعارض لحكّامه يرفض هذا الجنون، فقد كانت الوسائل متوفّرة في سوق الأسلحة لإنهاء احتجاجه. كانت منتجات «سْوارتكليپ» Swartklip من جنوب أفريقيا تعلن عن مولّدات دخان لعمليات التطهير الواسعة: «قذيفة من عيار ٣٧ ملم تشلّ المشاغب من خلال تسديد ضربة قوية غير قاتلة، قنبلة دخانية تُطلق

داخل المباني، وبندقية عيار ١٢ تطلق رصاصاً مطاطياً وهي ناجحة لشلّ النشطاء».

سرتُ بيأس نحو الجناح الروسي. وهنالك قابلت الرجل. والحقُّ أنني ما كدت أصدّق أن هناك اسماً آخر كان مشهوراً في كل حروب العالم وفظائعها، ومُفعماً بكلّ ذكريات التمرّد والثورة، ومستخدماً بشكل متكرّر في الحروب الدائرة، بحيث أصبح مجرّد عبارة مُبتذلة في تقارير الحرب، غير اسم AK-47، الرشّاش الأكثر شهرة في العالم. كان ذلك الرشّاش هو الرشّاش الذي شاهدته في لبنان، وفلسطين، وسوريا، والعراق، ومصر، وليبيا، والجزائر، وأرمينيا، وأذربيجان، والبوسنة وصربيا. كان ذلك الرشّاش هو الذي حملته بيدي مع قافلة الجيش الروسي في الطريق إلى كابول عندما هاجمَنا المجاهدون الأفغان قبل ٢١ عاماً. كان ذلك علامة على الزمن الروسي التعيس بحيث أنهم احتاجوا لكي يبيعوا دبّاباتهم وطائراتهم الميغ إلى مساعدة هذا الرجل البالغ ٨١ عاماً ومخترع السلاح الأكثر قدسيّة، وقد أحضروه معهم من هناك إلى أبوظبي.

وجدته جالساً في غرفة صغيرة، إنه ميخائيل كلاشينكوف شخصياً، رجل قصير القامة، أبيض الشعر، في فمه بعض الأسنان الذهبية، يداه ترتجفان لكن عينيه السيبيريّتين كانتا في يقظة الذئب، وما زال يضع أوسمة حزب العمّال الاشتراكي. سأله ضابط سعودي منذ بضع سنوات: «ألم يخطر ببالك أبداً أن عليك تغيير معتقدك. فبحسب المعتقدات المسيحية أنت مذنب كبير. أنت مسؤول عن عشرات الألوف بل عن مئات الألوف من القتلى في جميع أنحاء العالم. لقد جهّزوا لك منذ زمن طويل مكاناً في جهنم».. لكن الرائد قال: «إن كلاشيكوف كان مسلماً حقيقياً.. وعندما ينتهي وقته في هذا العالم، سوف يستقبله الله كبطل، إن رحمة الله لا حدود لها» .. على الأقلّ، هكذا روى ميخائيل كلاشينكوف القصّة. وهو على الأقلّ أحد تجّار الأسلحة القلائل الذين خبروا الحرب. ولد في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٩، وكان من بين ثمانية عشر ولداً، عاش منهم ستّة.. كان قائد دبّابة ت٣٨ T38 سوفياتية عام ١٩٤١، وأصيب في كتفه وظهره عندما دمّرت قذيفة ألمانية جزءاً من دبّابته: «كنت في

المستشفى عندما سألني جندي يرقد في السرير القريب مني: لماذا لدى جنودنا بندقية واحدة فقط لكل ثلاثة رجال بينما لدى الألمان رشّاشات؟» لذلك صمّمت واحدة. كنت جندياً واخترعت رشّاشاً لجندي. قمت بتسميته رشاش كلاشينكوف، السلاح الآليّ كلاشينكوف AK وحمل تاريخ أول إنتاج له: عام ١٩٤٧».

أصبح AK-47 رمزاً للثورة الفلسطينية، والأنغولية، والفيتنامية، والجزائرية، والأفغانية، وحزب الله، وبندقية قتال حلف وارسو. وسألت ميخائيل كلاشينكوف العجوز كيف يستطيع تبرير كل هذا الدم، كل هذه الجثث الممزّقة نتيجة اختراعه. قال إنه سُئل هذا السؤال من قبل: «أُنظر، كل هذه المشاعر تحصل لأن طرفاً يريد تحرير نفسه بواسطة الأسلحة. لكنني أرى أن الخير هو الذي ينتصر. يمكن أن تعيش لترى اليوم الذي يسود فيه الخير، وسيكون ذلك بعد موتي. لكن سيأتي اليوم الذي ينتفي فيه استخدام أسلحتي أو أنها تصبح غير ضرورية».

وهكذا ركبنا على جناح التفسير الروسي لمسار أخلاقي مألوف. أخبرني كلاشينكوف: «كان هدفي حماية حدود وطني الأمّ.. ليس خطئي أن صار الكلاشينكوف معروفاً جدّاً في العالم وأنه جرى استخدامه في عدّة أماكن مضطربة. أعتقد أنه يجب لوم سياسات هذه الدول وليس مصمّمي الأسلحة. خُلق الرجل ليحمي عائلته، أولاده وزوجته. لكن أريدك أن تعلم أنني إضافة إلى الأسلحة، ألّفتُ ثلاثة كتب حاولت من خلالها تثقيف شبابنا بثقافة الاحترام لعائلاتهم، للمسنّين، للتاريخ..».

كان كلاشينكوف الآن في حالة حنين إلى الماضي. «عشت في زمن كنا فيه جميعاً نريد المنفعة للاتحاد السوفياتي. إلى حدّ ما، اعتنت الدولة بأبطالها ومُصمّميها... ففي القرية التي ولدت فيها، وبناء على مرسوم خاصّ، جرى تشييد تمثال لي ارتفاعه ضعف طولي. وفي مدينة إيشفك حيث أعيش الآن، متحف باسم كلاشينكوف وفيه قسم مخصّص لسيرتي وقد شيّد في حياتي»!. وقال لي ميخائيل كلاشينكوف أنه ليس غنياً ولكن لديه بعض المال، وأضاف:

«لو كنت أملك المال لاستخدمته بطريقة جيّدة. لكن هناك صفات أخرى يمكن أن تكون أكثر أهمّية. طلبني الرئيس بوتين يوم عيد ميلادي. ما مِن رئيس آخر يتصل بمصمّم أسلحة. وهذه الأشياء مهمّة جدّاً بالنسبة إليّ». وسألته عن الله، ماذا سيقول الله عن ميخائيل كلاشينكوف؟ أجاب: «لقد تربّينا بطريقة قد تجعل مني مُلحداً نوعاً ما..، لكنْ هناك شيء ما موجود».

كان هناك مكان آخر فقط للحصول على إجابة. سرت نحو منصّة عرض مخيفة في زاوية من أحد الأجنحة البعيدة حيث تُعرض نماذج مطلية بالبنّي لقاذفات صواريخ متحرّكة على رفّ. كان هذا بازار الأسلحة الإيراني. كانت صواريخهم تسمّى «الفجر» أو «شروق الشمس».. وقد لفت نظري صاروخ V-2 مداه ١٢٥ كلم تنتجه مجموعة S.B الصناعية «في طهران واسمه Nazeat وهي كلمة فارسية تعني «رعب الموت».. أجل إيران الدولة الوحيدة في كل عالم صناعة الأسلحة تقول الحقيقة عن غاية السلاح وقد أعطت الصاروخ اسماً يعني إطفاء الحياة. وتساءلت: هل تكمن الإجابة عن أسئلتي هنا؟.

لم تكن هذه الصواريخ للبيع.. أبلغني مرتضى خسروي ذلك بوقار. إنها هنا فقط لإبراز قُدرات إيران.. ومع ذلك باعت إيران عام ٢٠٠٠ منتجات دفاعية بقيمة ٣١ مليون دولار لآسيا وأفريقيا... شرح لي خسروي الأمر بهدوء... إنه رجل صغير الحجم من وزارة الدفاع الإيرانية، ملتحٍ وعلى وجهه تعبير جدّي.. فقدت عائلته شهداء في حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ مع العراق.. أخذ نصف دقيقة للتفكير في كل سؤال قبل الإجابة بأن «معدّات الدفاع في مجالات إنتاجنا هي ملك للدول الإسلامية ونحن هنا لإقامة تعاون مشترك معها». لكنه أضاف بسرعة أن مبيعات إيران تخضع لقوانين واضحة طبقاً لشرعة الأمم المتحدة في مراقبة التصدير. ومرّة أخرى، جاءت الليدي بريتومار للإنقاذ. وعلى أيّة حال، فإن أكثر من ٦٠ في المئة من مقدرة إيران العسكرية تحوّلت نحو الإنتاج المدني.

كنت أعرف ذلك كلّه. ما أردت سماعه كان حول لا أخلاقية صناعة الأسلحة. بدا مرتضى خسروي مُرتبكاً. ألم يكن السؤال واضحاً؟ قال: «هناك

غايتان رئيسيّتان لصناعة الأسلحة. البعض يوجّهها للعدوان والبعض الآخر للدفاع عن النفس.. وهذه الأخيرة هي وضعية حكومتنا. إننا ننتج أسلحة للدفاع عن النفس ولحماية بلدنا فقط.. كنّا بلداً مسالماً فغزانا الآخرون، وكانت عندنا ثماني سنوات من «الحرب المفروضة». كانت السياسة الوحيدة لقوّاتنا في ذلك الوقت هي الدفاع عن حدودنا وبلدنا. واعتمدنا دائماً سياسة الدفاع عن أنفسنا». كانت هناك استراحة أخرى. ثم نطق خسروي بالكلمات ـ اللازمة لكل بائع سلاح: «في الواقع يجب على كل إنسان حماية نفسه».

كنت قد سمعت الشيء نفسه من ديريك توربول، ومن ميخائيل كلاشينكوف، ومن جون هيرست: لو كان العالم مليئاً بأشخاص خيّرين يفعلون أموراً حضارية.. يريدنا الله أن ندافع عن أنفسنا... ولد الإنسان للدفاع عن عائلته.. حماية.. احترام.. ثقة.. تاريخ.. أبديّة. بدا أنه لا فائدة من الإصغاء لهذه الكلمات بعد الآن. إنها لا تنتهي، لا تُجادَل، مستحيلة. الآن تطوّر صانعو الأسلحة بالطبع. يبيع تجّار الموتِ الموتَ على شكل حماية، القتل للدفاع عن النفس، كمشيئة الله، مصير البشر، واجب وطني. وتأتي الفواتير الإنسانية والمالية لاحقاً. ونحن البشر المساكين، «محرّكو الأهداف» أشخاص خائفون يحتالون بأحاديث التهديدات والعدوان... الخطر موجود في داخلنا بالتأكيد حيثما نسافر عبر العالم. إنها مهمّتنا «أن تركب إلى أعلى وإلى أسفل بحسب الطلب وحتى تصيبك الطلقة».

هكذا يشعر الفلسطينيون... بعد شهر تقريباً من محادثتي مع جون هيرست، كنت في بيت لحم في الضفّة الغربيّة المحتلّة حيث قدّم لوكهيد مارتن من فلوريدا والمختبرات الفيديرالية من بنسيلفانيا مساهمة للحياة في البلديّة المحلّية. أو ـ في حالة لوكهيد ـ الموت. وجدت أن قطع صواريخ هيلفاير محفوظة في أكياس في مقرّ قيادة الدفاع المدني كبرهان على الموت العنيف لأسامة خرابي ابن الثامنة عشرة. فمنذ نحو شهرين انفجر صاروخ هيلفاير في غرفة جلوسه وأدّى إلى مقتله على الفور. وقد أُخرجت الصواريخ وأنابيب الوقود وأوراق نظام التفخيخ في أكياس بلاستيكية من قِبل سائقي سيّارات إسعاف وممرّضين، مع

عشرات الشظايا صناعة أميركية للقنابل التي أطلقتها الدبّابات الإسرائيلية في بيت جالا في الهجوم على القرية المسيحية التي قال جيم هيرست إنه لم يسمع بها. ويستطيع الفلسطينيون قراءة دليل الأسلحة الأميركية المنشأ لكنهم غير قادرين على تحديد هويّة الصواريخ والقذائف المستخدمة حاليّاً. وقد قال لي أحد سائقي سيّارات الإسعاف صباح يوم سبت ممطر بينما كنت أفتّش كيس قطع صاروخ معدنية وشظايا في مكتبه في بيت لحم: «نحن عمّال إغاثة ولسنا علماء».

كان استخدام الأسلحة الأميركية ضدّ العرب من قِبل إسرائيل أحد المصادر الأكثر إثارة للغضب في الشرق الأوسط.. ولذا فإن عملية سرد وقائع استخدامها هي بمقدار أهمّية النزاع السياسي بين إسرائيل وأعدائها. إذ إن ادّعاء واشنطن بأنها «شريك محايد» في مفاوضات الشرق الأوسط في حين أنها تدعم طرفاً واحداً ـ إسرائيل ـ بكل احتياجاته، هو شيء.. وشيء آخر أن تحمل الأسلحة التي استخدمتها إسرائيل لفرض إرادتها (أسلحة تقتل وتمزّق العرب) الدليلَ المنقوش لمصنعها في الولايات المتحدة. حتى قذائف الغاز التي يطلقها الإسرائيليون على الفلسطينيين في بيت لحم هي أميركية الصنع. وقد أعلن الفلسطينيون لأسباب وجيهة أن الغاز المستخدم سبّب مصاعب في التنفّس بين الأطفال بعد إطلاق القذائف على أطفال الحجارة قرب قبر راشيل. كان مكتوباً على القذائف وحاويات الغاز «المختبرات الفيديرالية، سالتزبورغ ـ بنسلفانيا ١٥٦٨١»، ومذكوراً على المعدن أنها لقاذفات «طويلة المدى ١٥٠ ياردة».. وتحوي القذائف بحسب تعليمات صانعيها الأميركيين كما قرأت على جانبها «غازاً مسيلاً للدموع يسبّب حساسية عالية في العيون والأنف والجلد وجهاز التنفّس، وإذا تعرّضت لها لا تفرك عينيك واطلب مساعدة طبيّة فوراً»(*).

(*) كان الفلسطينيون لا يزالون يحاولون اكتشاف طبيعة المقذوف الغازي المستخدم الآن بانتظام من قِبل الإسرائيليين والذي يحتوي على ما أسموه «الدهان البنّي». كان المتظاهرون الفلسطينيون يخشونه بشكل واضح. وتمّ وصفه على أنه أكثر تأثيراً من الغاز المصنوع في مختبرات بنسيلفانيا الفيديرالية. على الأقلّ كانت إحدى قذائف «الدهان البنّي» التي تفحّصتها بنفسي في بيت لحم مغطّاة بعلامات عبرية وتحمل الرمز ٣٢٣ ـ ١ ـ ٩٩. ولم يظهر أنها من صُنع أميركي.

خلال عام ٢٠٠١، كانت طواقم الدبّابات الإسرائيلية تطلق قذائف مدفعية على بيت جالا بشكل روتيني عندما كان المسلّحون الفلسطينيون يطلقون رشقات كلاشينكوف.. (أجل اختراع البطل العجوز، البالغ من العمر ٨١ عاماً، لحزب العمال السوفياتي ميخائيل كلاشينكوف)... من قرية بيت جالا على مستوطنة جيلو اليهودية المجاورة.. وكانت معظم قذائف الدبّابة التي تحمل مقذوفاً أميركياً عليها علامات: .UZE P18D M 549 A CO 914 H014-014. وقد قتلت إحدى هذه القذائف في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٠ الدكتور هارالد فيشر وهو مواطن ألماني كان يعيش في بيت جالا.

كانت القذيفة الصاروخية لوكهيد هيلفاير Lockheed Hellfire التي أصابت منزل أسامة خرابي في شباط ٢٠٠١ تحمل الرقم المتسلسل «١٨٩ ٧٦ ـ ١٣٣٤٩٨٧ DMW90E003-007» ورقم المجموعة (أي مجموعة الصواريخ التي تنتمي إليها) ٤٨١. وكان الرقم المتسلسل المكتوب على قطعة معدنية صغيرة على رأس محرّك الصاروخ هو «١٢٩٠٣ ـ ٩٢٢٥١٥٨ MFR-5S443». وكان مكتوباً على القبّة الصغيرة الثقيلة الأسطوانية التي تأتي من المقذوف نفسه «بطّارية حرارية» وكانت تحمل الرقم " P\N 10217556 E- W62, Lot No. EPH2-111"، تاريخ الصنع «٠٨٧٧٦، MFG code 81855» وقد حملت الأرقام المتسلسلة الأحرف "U.S". وكانت أجزاء أخرى من الصاروخ تتضمّن قطعاً متضرّرة من جانح مركّب وكمّية من الأسلاك. كان الهجوم الصاروخي وفقاً للإسرائيليين «ضربة وقائية» ضدّ القرية، مع أن السيد خرابي لم يكن مقاتلاً وكان طموحه الوحيد الانضمام إلى مشروع مسرح بيت جالا. وقد استخدم الإسرائيليون طائرات هيلكوبتر أباتشي لإطلاق صواريخهم على بيت جالا في ستّ مناسبات، بما فيها المرّة التي قُتل فيها السيد خرابي.. وطائرات الأباتشي مصنوعة من قِبل لوكهيد في مصنعها الضخم للأسلحة في أورلاندو، فلوريدا، وهي موطن صواريخ ١ هيلفاير ١ و٢. ويرفض صانعو الأسلحة الأميركيون بشكل روتيني أي لوم بالنسبة إلى النتائج الدموية لاستخدام أسلحتهم. وقد وجدت أن قذائف الغاز بنسيلفانيا Pennsylvania التي استخدمها الإسرائيليون في

بيت لحم تحمل تنبيهاً رسمياً إلى عدم تحمّلها أية مسؤولية. وتقول الملاحظة على القذيفة: «لا تتحمّل المختبرات الفيديرالية مسؤولية أي سوء استخدام للجهاز».

إن سوق السلاح العالمية غير أخلاقية ومخيّبة للآمال وقاتلة بالفعل، وهي رغم ذلك حيوان يصيح من أجل الدعاية والسرّية معاً. إنها تحتاج إلى البيع بقدر ما تحتاج إلى التكتّم وإلى جني المليارات من العرب بينما تتجنّب في الوقت نفسه أيّة إشارة إلى الدماء والرؤوس التي ستُسحق على الرمال كنتيجة لعملها. لدى تكتّل جِيات Giat وداسّو للأسلحة الفرنسية إضافة إلى لوكهيد مارتن مراكز محلّية في بنايات المكاتب اللامعة في أبوظبي. ولدى الوسطاء أيضاً ـ عرب، وإسرائيليين، وألمان، وأميركيين، وإنكليز ـ ميل غريب للتودّد إلى الصحافة، ولكشف صفاتهم الإجرامية والتبجّح بقسوتهم والحاجة إليهم في عالم غير أخلاقي. أعتقد أحياناً أنهم يريدون استخدام الصحفيين كراسيَ اعتراف.

ربّما لهذا السبب أمضيت سنوات أحقّق بشكل جماعي في الطرق التي أنتجنا بها نحن، الأميركيين والأوروبيين، (بمن فيهم الروس)، أي الغرب بالمعنى الأكثر كرماً للكلمة، معدّات القتل للذين يعيشون في الشرق الأوسط. لم نفكر ولو مرّة كيف يمكن للعرب المسلمين الردّ على هذه التجارة الشرّيرة وغير العاديّة للأسلحة.. كيف سيحاولون الانتقام لأنفسهم منّا، ليس على أرضهم بل على أرضنا. خلال الحرب الأهلية اللبنانية حاولت جاهداً ربط الضحيّة بالقاتل... حتى إنني كنت أحياناً أتجوّل في أنحاء بيروت للعثور على القنّاص أو المسلّح الذي مزّق رجلاً أو امرأة. حين كنت في شرق بيروت، واجهت رجلاً من ميليشيا الكتائب المسيحية التي كانت قد أطلقت، بحسب قناعتي، قذيفة هاون قتلت شابّة في شارع في بيروت الغربية. وقد رفض هذا الرجل التحدّث معي. لذلك بحثت عن تجّار الأسلحة الذين جعلوا هذا القتل ممكناً. وسعيت أكثر من أي شيء آخر لمواجهة صانعي الأسلحة بالدليل الكلّي والقاطع بأن سلاحهم الخاصّ هو الذي قتل البريئة. كانت رحلة أخذت مني عشرات الآلاف من الكيلومترات خلال عشر سنوات.... إلى الخليج، وإيران، وفلسطين،

وإسرائيل، وألمانيا، والنمسا، والولايات المتحدة.... كانت مهمّة مثقلة بالهموم ومُحبطة... إذ كلّما كنت أعرف أموراً جديدة، بدت لي مأساة الشرق الأوسط يائسة لا أمل فيها. أن تكون هناك دول مرتشية ترسل منتجاتها القاتلة إلى مسلمي العالم وإسرائيل شيء، وأن تشاهد هذه الدول الشرق أوسطية نفسها تناشد وتتباكى وتبذّر ثرواتها لشراء هذه الأسلحة نفسها شيء آخر.

في يوم شتائيّ بارد من عام ١٩٨٧، بينما كانت حرب إيران الرهيبة تدخل آخر وأكثر مراحلها عنفاً، وصلت إلى محطّة القطار في كولونيا في ألمانيا لمقابلة بائع أسلحة كان يعرف الكثير عن أكثر نزاعات الشرق الأوسط كلفة. كان الرجل سميناً يضع نظّارة، وهو تاجر أسلحة عمل عدّة مرّات كوسيط بين الحكومة الأميركية ونظام صدّام حسين في العراق. جلس في مكتبه مع ابتسامة عريضة على وجهه مصرّاً على أنه يجب أن يظلّ مجهولاً إلا إذا كنت أرغب أن أتحمّل مسؤولية قتله. سألته هل صحيح أنه سلّم معلومات السي آي أي عن الجيش الإيراني للحكومة العراقية؟ ضحك طويلاً وبعمق ربّما لأكثر من ثلاثين ثانية قبل أن يعترف بكل شيء. «سيّد فيسك، سأقول لك ذلك. في بداية الحرب، في أيلول/سبتمبر ١٩٨٠ دعيت للذهاب إلى البنتاغون وهناك أعطوني آخر صور الأقمار الصناعية الأميركية عن خطوط الجبهة الإيرانية. تستطيع رؤية كل شيء في الصور. كانت هناك مواقع المدفعية الإيرانية في عبدان وخلف خرمشهر، وخطوط الخنادق على الجهة الشرقية لنهر قارون، واستحكامات الدبّابات، آلاف منها على طول الجانب الإيراني من الحدود حتى كردستان. لا يرغب أي جيش في أكثر من ذلك. سافرت مع هذه الخرائط جوّاً من واشنطن إلى فرانكفورت ومن فرانكفورت على الخطوط الجوّية العراقية إلى بغداد. كان العراقيون شاكرين جدّاً!».

بدا الألمان ميّالين إلى لعب هذه الألعاب المغشوشة. لعدّة شهور من منتصف الثمانينيّات حتى أواخرها، حقّقت في تجارة الأسلحة الشرق أوسطية ووجدت نفسي أعود دائماً إلى تلك الحقبة من ماضي أوروبا المظلم... وكنت أقتفي الأثر عبر الوديان المغطّاة بالثلج في قطارات ألمانيا الكبيرة، ومعي حقيبتي المكتظّة بدفاتر ملاحظاتي وملفّاتي المتضمّنة متطلّبات إيران الكاملة من

الأسلحة للعامين ١٩٨٧ و١٩٨٨ وما بعدهما ـ أي لسنوات عديدة من الحرب ضدّ العراق التي ما لبثت أن انتهت بعد حوالي ١٢ شهراً.

في صقيع عام ١٩٨٧، حملني أحد هذه القطارات الطويلة إلى كونيغسوينتر Konigswinter وكان ينتظرني في المحطة سائق مع سيّارة ليموزين دافئة ليأخذني إلى شلوس Schloss حيث يساعد «عنكبوت بون» في تغيير الخارطة العسكرية للشرق الأوسط. كان جيرهارد مارتينس يدخّن سيكاراً كوبيّاً طويلاً وسميكاً وبدا كأنه تاجر أسلحة.. وهو دور يلعبه بدقّة واحتراف، لأنه حقيقي. لا أثر لأيّة شكوك، لأيّة ثقة مفقودة، لأيّ غموض أخلاقي، في مشيته الواثقة وهو يدخل إلى مكتبه في كونيغسوينتر. . . كان الثلج يتساقط بغزارة وبشكل مريح خارج النافذة. سألني بينما كان يزيل الثلج عن سترته: «أحبّ هذا النوع من الطقس، ألا تحبّه أنت أيضاً؟».

رنّ جرس الهاتف وتكلّم الهر مارتينس بانتباه عبر السماعة. قال بنفاد صبر: «علينا معرفة احتياجات جنرالاتك». ثم وضع السمّاعة مع ضحكة هادئة، وتظاهر بالصراحة. «كان ذلك الاتصال من الجيش القبرصي اليوناني.. إنهم مهتمّون بالأسلحة الجديدة المضادّة للطائرات والألغام بالنسبة إلى موانئهم. سجّل كلماتي، هناك شيء يُعدّ في جزيرة قبرص». ثم ضحك مجدّداً.. إنه رجل مطّلع، غير مصدوم بمظالم الحرب. وعندما سألت الهر مارتينس لمن يبيع الأسلحة، سعل معترضاً على المهانة التي وجّهتها إليه بسبب طرحي هذا السؤال: «إذا سمحت لي، أعتقد أن هذا سؤال سخيف جدّاً».

نفث دُخان سيجاره بقوّة ثم حرّك يده الى الأمام واستخدمها ليصف دائرة بيضاوية شبه بهلوانية ارتسمت أمامي. «دعني أخبرك بصراحة. أنا حصان العرب. لِمَ لا؟ أنت تعلم، عندي مبادئ. أنا لا أقوم بذلك للاستفادة. أجل، تُقال أشياء عنّي، في المكسيك كتبت صحيفة أكسليور أنني كنت نازيّاً ورجل مخابرات SS وصديق كلاوس باربي «سفّاح ليون». لم أقابل هذا الرجل أبداً. لكنهم شعروا في مكسيكو بأن عليهم ترحيلي». لدى الهر مارتينس مكاتب في جدّة والرياض وهو لا يحتاج إلى تأشيرة لدخول السعودية.. وقد عرض لي صورة له يقف فيها

مع مشايخ الخليج. قال إنه يحزن على بيروت القديمة، المدينة المدمّرة في الحرب الأهلية التي ما زالت تقطع لبنان إلى أجزاء.. وكان حزنه يليق بالأغنياء... «عندي ذكريات محبّبة لمطعم لو كوللوس. لقد دُمّر؟ مؤسف جداً. مدينة جميلة.. أمر محزن جداً»... لقد دُمّرت بيروت بالأسلحة، أي بالقنابل والألغام والمدفعية والقاذفات والمقاتلات والرصاص... ولكن لا يوجد ما يشير إلى تأثّر ذاكرة الهر مرتينس بهذا الأمر. . .

بدأ يتحمّس وهو يعرض موضوعه. «لم أقم بأي عمل في حياتي من أجل المال فقط. لدينا الكثير من المشاكل في الوقت الحاضر... الناس يعتقدون أنني مثل عدنان خاشقجي». لاحقَت فضيحة إيران/ الكونترا تجّار السلاح في أوروبا بطريقة غير عادلة في نظرهم، وذلك لأن تورّط أميركا في قضيّة الأسلحة مع إيران كان مشكلة تافهة نسبياً، عبارة عن عملية على مستوى صغير تمّت بدون مشورة مهنية وبدون سرّية، استخدموا فيها وسطاء إيرانيين من الذين لا يدعوهم مزوّدو السلاح الحقيقيين إلى مكاتبهم ناهيك بدعوتهم إلى بيوتهم. ليس التمييز بين تجّار السلاح والوسطاء عملية سهلة. في بعض الحالات حيث تفرض دولة تاجر السلاح قوانين صارمة على تصدير السلاح، يصبح التاجر وسيطاً ينقل لوائح العروض إلى تجّار في دول أخرى ليست لديها قوانين مستقيمة حول طريقة تصدير السلاح. وعندما دخل وطنيون آخرون كمموّلين، أصبح النظام أكثر تعقيداً. وحين كان الكولونيل أوليفر نورث ينظّم عمليّة الأسلحة مقابل الرهائن مع الإيرانيين (على سبيل المثال)، كان الوسيط مانوشهر غوربانيفار يلعب الدور الرسمي للوسيط الإيراني الذي رتّب زيارة روبرت ماكفرلين السرّية إلى طهران في أيار/مايو ١٩٨٦. وكان عدنان خاشقجي السعودي هو المموّل الذي قامت أمواله بتحريك عملية انتقال الأسلحة. وكانت الولايات المتّحدة هي التاجر (والمزوّد) في هذه الحالة، أو الكولونيل نورث... والأمر هنا يتوقّف على وجهة نظرك. . .

يحبّ تجّار الأسلحة أن يكونوا مقرّبين من حكومتهم الوطنية.. والهر مارتينس لا يختلف عنهم. يلعب وزراء الحكومة الألمانية في ملاعب التنس

الخاصّة به. ويشير عملاء الجمارك الأميركيون في بون إليه (ليس بشكل لطيف كلّياً) على أنه «عنكبوت بون». وفي مطعم عمله النظيف، يرحَّب به بمحبّة من قِبل موظّفيه.. إنه أندرو أندرشافت حقيقي ـ مع أنه لا يحبّ هذه المقارنة... وهو فخور جدّاً بعائلته وبخاصّة زوجة ابنه الجديدة الأميركية الجنسية. وقد صرّح لي أثناء غداء عائلي في مطعم الشركة: «سيّد فيسك، عليك شرب الشاي كما يجب أن يُشرب، مع الروم». شرب لفترة طويلة قبل الغداء. «لماذا يقول الناس هذه الأشياء الغبيّة عنّي؟» أتعرف! لقد قرأت كلّ الكتب المقدّسة: التلمود، الإنجيل، القرآن». وسأل لاحقاً بفصاحة: «أتعرف المشكلة في ألمانيا اليوم؟ لقد فقدت ألمانيا مشاعرها الوطنية». انقبضت لهذا الكلام.

قديماً، في عام ١٩٦٥، فاجأ الهر مارتينس عدّة دول بعد نشوب الحرب الهندية ـ الباكستانية. فقد حظرت الولايات المتّحدة الأميركية إمدادات الأسلحة... مع أن كينيث غالبريث، السفير الأميركي السابق في الهند، أعلن لاحقاً أن إمدادات الأسلحة الأميركية هي التي تسبّبت بهذه الحرب. وما زال الهر مارتينس فخوراً بدوره في هذه القضية. لقد عمل كوسيط لتصدير ٩٠ طائرة مقاتلة ف١٦ إلى باكستان بحجّة إرسالها إلى إيران. «وضعنا علامات إيرانية على الأجنحة وطارت الطائرات عبر طهران في عمليّة جوّية.. وكنت أقف بجانب السفراء الغربيين وقلت: «أترون، هذه هي الطائرات التي ادّعيتم أنني أرسلتها إلى باكستان». لكن بعدها عادت الطائرات إلى قاعدتها الجوّية الإيرانية حيث جرى تغيير العلامات وعادت إلى باكستان مجدّداً.. صفّق الهر مارتينس بيديه: «أترى! إنها قضية علم لدائنيّ ألماني محض»... لكنّ كلّ ذلك كان مقدّمة مسرحية للحرب الحقيقية الدائرة حاليّاً. فالهر مارتينس، مثل زملائه في أماكن أخرى كألمانيا والنمسا، لديه فكرة واضحة عمّا يجري في وزارة الدفاع الإيرانية. فقد أصبح الإيرانيون مفتونين بالأسلحة السوفياتية الرخيصة بعدما وقّعوا اتفاقاً مع موسكو لتصدير الغاز الإيراني. «اشتروا معدّات روسية كثيرة ـ مدافع ١٢٢ ملم و١٣٠ ملم ومدافع رشّاشة مضادّة للطائرات من عيار ١٢,٧ و١٤,٥ ملم. وحاولوا الحصول على كمّيات كبيرة من المعدّات نفسها من الصين ـ سافر

الإيرانيون إلى بكّين لمناقشة ذلك، لكن الصين أرادت أن تكون دولة وسيطة، ولم تشأ أن تكون في المقدّمة. عندها أصبحت القوّات المسلّحة الإيرانية غير سعيدة بالمعدّات التي تحصل عليها».

إن رواية تجارة الأسلحة لإيران معقّدة ومخيفة وهي شملت إسرائيل وكذلك الغرب. وقد وافق أحد زملاء الهر مارتينس، وهو شاب ذكي يتكلّم الإنكليزية بطلاقة، على شرح الأمر شرط إغفال هويّته. أحضر إلى مكتب مارتينس ملفّاً كبيراً قدّمه لي. فتحت الملفّ الأزرق ووجدت آلاف الطلبات من الحكومة الإيرانية لشراء السلاح: مدافع هاون، ذخائر مدفعية، طلقات وقطع غيار للمقاتلات الأميركية الصنع. قال الرجل: «كان الروس يبيعون العراقيين معدّات أفضل من تلك المبيعة للإيرانيين.. وقد عرف الإيرانيون ذلك. وكانت أوّل طائرة إسرائيلية تطير إلى إيران قد هبطت في شيراز حاملة ١٢٥٠ صاروخ تاو بسعر ٢٧٠٠ دولار للواحد. كان السعر غالياً والمعدّات قديمة.. لذلك اتّجه الإيرانيون إلى دول أخرى. وراحوا يبحثون عن مدافع ١٥٥ ملم فاتصلوا بشركة Voest Canonen النمساوية، وكانوا يحبّون مدافع ١٠٥ ملم و١٥٥ ملم التي تصنع في نيويورك. وقد أوقفت الإدارة الأميركية ـ ريتشارد بيرل في الواقع ـ الاتفاقية. لذلك أصبح الإيرانيون مهتمّين بشركة هلسنكي التي كانت تبيع مدافع هاون ٦٠ملم و٨١ ملم و١٢٠ملم.

وينظر مارتينس إلى فضيحة إيران ـ غيت برمّتها باحتقار. قال: «من السهل فهم الإيرانيين. لدى العراقيين طائرات ميغ ٢٥ Foxbat وكانت تلقي قنابل على طهران من ارتفاع شاهق. وكان محرجاً جدّاً لرجال الدين أن لا يكون لديهم شيء لإسقاط "Foxbat". لذلك كانوا بحاجة إلى صواريخ جوّ ـ جوّ لطائراتهم ف ١٤. عليك أن تتفهّم حاجتهم والطريقة التي سيلبّيها الآخرون لهم بدون أخلاق أو مبادئ ـ سوف يتعاملون مع الشيطان. أما بالنسبة إلى الإيرانيين، فقد كان مع كل واحد منهم رسالة اعتماد تبدأ بالكلمات التالية: «أنا قريب الخميني». واعتقد الأميركيون الذين استخدموا الإسرائيليين لعمليات الشحن

الأولى إلى إيران أنهم نجحوا في مزج الأسلحة بالمبادئ ـ ألم يكونوا في كل الأحوال يسعون لتحرير المواطنين الأميركيين الأبرياء المخطوفين في لبنان؟ رغم أنه من المفيد أن نلاحظ هنا أن الإدارة الأميركية اعتقدت بأن الإيرانيين يحتاجون بناء على تقرير لجنة تاور إلى صواريخ هوك أرض ـ جوّ لإسقاط طائرات الاستطلاع العالية التي كان يقودها طيّارون سوفيات من روسيا مسافة ٦٥ كلم داخل المجال الجوّي الإيراني. لم يكن لدى الهر مارتينس مثل هذه الأوهام. كلّ ما كان الإيرانيون يريدونه هو إسقاط الطائرات العراقية.

والحال فإن صفقة إيران ـ الكونترا (التي تضمّنت: ٢٠٨٦ صاروخ تاو مضادّ للدبّابات وطائرة محمّلة بقطع غيار لطائرة ف٤ F4 بيعت لإيران بسعر ٣٠ مليون دولار فقط) قد سلّطت الضوء على صفقات الأسلحة الدولية الضخمة المعقودة بموافقة شعبية أو بتغاضي أصدقاء أميركا وأعدائها معاً. في شهادته أمام الكونغرس حاول ماكفرلين إخفاء هويّة الدولة الشرق أوسطية التي وافقت على وضع اسمها على شهادة مستخدم نهائي للأسلحة المبيعة. ولكن كان تجّار الأسلحة العاملون خارج ألمانيا يدفعون في عام ١٩٨٧ مئة ألف دولار لشهادات المستخدم النهائي من العالم الثالث، وهي الدليل «الموثّق» الذي يتمّ الحصول عليه من صانعي الأسلحة لإثبات أن حكوماتهم تمتلك عقد تصدير قانوني. في مكان ما بين مصانع السلاح الدولية وبيروقراطية التصدير الموثق والجرح الإنساني غموض أخلاقي أو غير أخلاقي(*). لقد تفاخر أندرشافت بأنه لم يكن «أحد هؤلاء الرجال الذين حافظوا على مبادئهم وعلى أعمالهم في مقصورات مياه مغلقة». لكنّ الدبلوماسيين لا يشاطرونه هذه الصراحة المريحة. ففي عام ١٩٨٧، كان المسؤولون الأميركيون والسوفيات ينتحبون أسبوعياً على الخسائر البشرية للحرب العراقية الإيرانية بينما كانت أسلحتهم مستمرّة بالتدفّق إلى جبهات القتال. وقد كرّرت حكومات أوروبا مراراً التأكيد على حيادها في

(*) خلال التحقيقات التي قمت بها، قُدّمت إليّ شهادة «مستخدم نهائي»، أصليّة، من دولة عُمان في الخليج موقّعة من السلطات. لو أنني رغبت في شحن أسلحة إلى الشرق الأوسط، لكان عليّ فقط تعبئة الورقة بالأسلحة التي أختارها للشحن لتكون «قانونية».

الصراع وعلى تصميمها ورغبتها غير التجارية في رؤية هذا الصراع ينتهي سريعاً وبشكل عادل.

لكن إيران، التي كانت مؤسّستها العسكرية مقاطَعة (على ما يُقال) من قِبل هذا العالم المستهجَن، كانت تنفق آنذاك ٢٥٠ مليون دولار شهرياً على الأسلحة. ولم يكن لدى تجّار الأسلحة الألمان والنمساويين أيّة أوهام حول معنى ذلك. وهم ادّعوا بأن هذه الأموال أُنفقت بمساعدة فعلية أو غير فاعلة من قِبل حكومات كلّ من: الاتحاد السوفياتي، الصين، بريطانيا، إيطاليا، إسبانيا، تشيكوسلوفاكيا، اليونان، كوريا الشمالية، كوريا الجنوبية، تايوان، الأرجنتين، باكستان، دُبي، سوريا، ليبيا، ألمانيا الشرقية، اليابان، البرازيل، هولندا، إسرائيل، البرتغال، الهند، السعودية.... ثم أضافوا بلجيكا كملتحق متأخّر بالنادي مع أربع شحنات أسلحة من مدينة أنتويرب إلى بندر عباس عام ١٩٨٦.

عندما دخلت الحرب مرحلتها النهائية، حاول الإيرانيون، يائسين، إعادة بناء جهود المشتريات الخاصّة بهم... فقد ورثوا أكثر من ألف طائرة هيلكوبتر من عهد الشاه... لكن عندما بدأت الحرب لم يكن لديهم سوى ٢٥٠ طائرة كوبرا مسلّحة عاملة. وبحلول عام ١٩٨٧، كانت ثلاثون منها فقط قادرة على الطيران. وكان الإيرانيون أكثر ابتكاراً من العراقيين ولذا فقد حاولوا الارتجال من خلال طلب قطع غيار لطائرات الهليكوبتر الأميركية الصنع والطائرات المقاتلة ـ قطع غيار مشابهة بدقّة للقطع الأصلية الأميركية التي منعت العقوبات إيران من الحصول عليها ـ من صانعي المعادن المحلّيين في البازار. لكن كان هناك الكثير من أنواع الكبريت في الحديد الإيراني وقد استخدموا الخلطة الكيميائية الخطأ... فتحطّم المعدن تحت ضغط الطيران وخسرت إيران العديد من طيّاريها عندما تحطّمت طائراتهم في الجوّ.

كان الإيرانيون يمتلكون أيضاً لوائح مفصّلة لشحنات الأسلحة الأجنبية إلى العراق، وهذه اللوائح هي دليل على الكفاءة العالية للقدرات التجارية لدى صانعي الأسلحة العالميّين. وتعطي عيّنة مختارة من مُشتريات العراق صورة تقريبية عن تلك اللوائح: دبّابات قتالية من بريطانيا (١٩٨٣)، ستّ قاذفات ـ

مقاتلة سوبر إيتاندار من فرنسا (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣)، صواريخ SS-12 من الاتحاد السوفياتي (في أيار/مايو ١٩٨٤)، قواعد إطلاق صواريخ متعدّدة الفوّهات من البرازيل (حزيران/يونيو ١٩٨٤)، قنابل انشطارية ٥٠٠ ليبرة من تشيلي (جاءت من سانتياغو على متن طائرة عراقية ٧٤٧ عام ١٩٨٤). في أيلول/سبتمبر ١٩٨١ أعلن داسّو بيع ٢٤ طائرة ميراج F-1 مقاتلة إلى العراق يتمّ تسليمها خلال ١٨ شهراً. وقد بيعت هذه الأنظمة التسليحية وفق «عقود تسليح موجودة أصلاً» (وهذه جُملة موسكو المفضّلة لاستمرار الشحنات لمشترٍ مريح مثل العراق) على قاعدة أن مصداقية البلد البائع سوف تتضرّر إذا تراجع «عن عقد موقّع معتذراً بأن زبونه غزا لاحقاً بلداً آخر». وحملت عقود أخرى ملاحظة خاصّة تؤكّد براءة الطرف البائع.

عام ١٩٨٦، على سبيل المثال، وافقت شركة PLESSEY البريطانية على عقد بقيمة ٣٨٨ مليون دولار لتزويد إيران بالرادارات، وهي معدّات سوف تُستخدم بحسب التعهّد المقدّم للبريطانيين على الجبهة الإيرانية مع أفغانستان المحتلّة والاتحاد السوفياتي. ولدى السؤال كيف تستطيع الحكومة البريطانية التأكّد أن الرادار لن يستخدم على الجبهة الإيرانية الغربية في عمليات عسكرية ضدّ العراق، أبلغني مسؤول في وزارة الدفاع في لندن «لدينا دبلوماسيون في طهران يستطيعون الذهاب والتأكّد من ذلك». لكن ذلك لم يكن صحيحاً. فقد تقلّص الوجود الدبلوماسي البريطاني في إيران إلى مكتب رعاية مصالح في السفارة السويدية... وعندما حقّقت في طهران حول حرّية حركة المسؤولين الإنكليز في إيران، اكتشفت أن الإيرانيين كانوا متشدّدين إلى درجة رفضهم طلب دبلوماسي كبير لزيارة بحر قزوين، وهي منطقة غير عسكرية، لقضاء إجازة أسبوع.

بدا أن هناك تفاهماً حول هذه الأمور.... التزام غير مُعلن من قِبل كلّ الأطراف بعدم التدخّل في الشؤون الشخصية لتجّار الأسلحة أو المشترين أو في شوؤن أمبراطورية الأسلحة التي تحتاج إلى السرّية بُغية تأمين الطلب، .وإلى الحرب بُغية استمرار النموّ. إن أمثال أندرشافت من المعاصرين، سوف يتحدّثون

فقط عن الأسواق المنافسة وعن الأخطاء.. وسوف يكشفون فقط عن عروض خصومهم. إنه عالم غريب من الأوراق ولوائح الطلبات المرسلة تحويلاً من عدد كبير من المسؤولين في وزارات (دائماً: الدفاع وهي كلمة يبدو لفظها شنيعاً كخطّ يدهم في بعض الأحيان).

وقد عُرضت عليّ لاحقاً لائحة طلبات إيرانية من عشر صفحات لمعدّات حربية، كانت أرسلت إلى تجّار أسلحة نمساويين تطلب منهم قطع غيار محدّدة للدبّابات الروسية من هياكل مشبكة إلى عدسات من الدرجة الثالثة والرابعة مع إطاراتها، ومن مناظير مقرّبة للرؤية إلى مصابيح للرأس مهمّتها تحديد الإحداثيات، إلى أبراج متحرّكة. كان المستند بالياً حيث أن الفقرة التي تضمّ عدد قطع الغيار المطلوبة كانت موضوعة عن طريق الخطأ في خانة عدد الوحدات ثم مشطوبة بشكل سيّيء بعدها.

وإذ تضيع بين جهود جماعة الأسلحة وحججهم وبين حماقاتهم ومشاكلهم العويصة، هناك طابع غير ضارّ لهذه اللوائح حين تجعلك تظنّ كما لو أن الحروب الشرق أوسطية تُخاض عبر وكالات التسليح أو صانعي الأسلحة عوضاً عن دول غاضبة وجنود قتلة مرعوبين.

شاهدت خلال تحقيقاتي المئات من هذه المستندات الصادرة من إيران... كانت أحياناً تحمل اسم قيادة القوّات المسلّحة الإيرانية في طهران وفي أحيان أخرى (عندما يرغب الوسيط العامل لصالح الإيرانيين أن يبقى سرّياً) كانت مطبوعة على ورقة بيضاء لا تحمل توقيعاً. بهذه الطريقة كانت آثار الدبّابات وصناديق الأسلحة وقطع غيار مكدونيل ـ دوغلاس McDonnell-Douglas تصير حرفياً الودائع السائلة لتجارة كبيرة أو مصدر مقايضة دولية: يمكنك تبادل الأسلحة مقابل المال أو النفط أو ميزات عسكرية أو حتى رهائن، ولا شيء مُستبعد حول ذلك. قبل وقت طويل من موافقة بوش على مقايضة الصواريخ بالرهائن، كانت سوريا ترسل أسلحة إلى إيران مقابل نفط بأسعار رخيصة وأحياناً مجّاناً. وقد تراجع المستشار هيلموت شميدث عن بيع دبّابات ألمانية للسعودية وفق اتفاق مقايضة نفطية كان من شأنه أن يكلّف ألمانيا مع هبوط

أسعار النفط أكثر مما تدفع عادة للنفط. وعندما استولت قوّات صدّام حسين في الأشهر الأولى لغزو إيران عام ١٩٨٠ على العشرات من دبّابات تشيفتن البريطانية غير متضرّرة من العدوّ، فإنهم رغبوا بشكل طبيعي في إعادة استخدامها ضدّ إيران... إلا أنهم كانوا غير قادرين على استخدام أو صيانة مثل هذه الدبّابة المتطوّرة. ولذلك نُقلت الدبّابات إلى الأردنّ حيث أصبحت رسمياً من ممتلكات القوّات المسلّحة الأردنيّة... وقد تمّ إصلاحها وإعادة تأهيلها من قِبل تقنيين بريطانيين. على الأقلّ هناك صانع أسلحة بريطاني يعتقد أن الدبّابات أعيدت إلى بغداد سرّاً لاستخدامها في الحرب، لكنّ خبراء عسكريين إسرائيليين قالوا لاحقاً إنها ظلّت في الأردنّ كهديّة تعبيراً عن الشكر لكرم الملك حسين بالسماح للعراق بشحن إمداداته السوفياتية من الأسلحة عبر ميناء العقبة الأردني.

من جهتها، حافظت السلطات البريطانية على تكتّم مميّز بالنسبة إلى مبيعات الأسلحة، مصدرة لوائح سنوية حول الصادرات العسكرية من عربات مدرّعة مقاتلة، ودبّابات، ومدفعية، ومسدّسات، وقنابل وصناديق ذخيرة. لكن، بخلاف التفاصيل المتعلّقة بصادرات أخرى، لم تحدّد اللوائح البريطانية إلى أي دول بيعت الأسلحة. ذلك أن قسم التجارة والصناعة يرفض مناقشة الطلبات الفردية لشركات الأسلحة والمتعلّقة بتراخيص التصدير(*).

في تموز/يوليو ١٩٩١، أي بعد أربع سنوات من بدء التحقيقات حول تجارة الأسلحة في الشرق الأوسط، أعرب القسم البريطاني للتجارة والصناعة نفسه عن ثقته بأنه كان هناك تفسير معقول وقانوني لتراخيص التصدير مسجّل في تقرير مجلس العموم في ما يتعلّق بشحن موادّ خام للأسلحة الكيميائية إلى العراق. تضمّنت تلك الصادرات التي استمرّ بعضها حتىّ ٥ آب/أغسطس ١٩٩٠، أي بعد ثلاثة أيام من غزو صدّام حسين لبلد مسلم، الكويت، مستحضرَين كيميائييْن إذا مُزجا معاً يشكّلان غاز الخردل. وصدّرت بريطانيا إلى بغداد خلال حرب

(*) أبلغني مايكل هيتشوك، وهو مسؤول إعلامي في القسم التجاري والصناعي عام ١٩٨٧ «أن سياستنا هي عدم مناقشة ما إذا كانت شركة ما قد التزمت أو حصلت على رخصة باعتبارها للاستخدام المدني. نستطيع مراجعة وزارة الدفاع ووزارة الخارجية إذا اقتضى الأمر.

العراق مع إيران ما قيمته أكثر من ٢٠٠ ألف دولار من Thiodiglycol (وهو أحد مكوّنات غاز الخردل) وذلك حتى عام ١٩٨٨، وبقيمة ٥٠ ألف دولار في السنة التالية. وكان المكوّن الآخر Thyonyl Chloride قد أُرسل أيضاً إلى العراق عام ١٩٨٨ - ١٩٨٩ وبسعر ٢٦ ألف دولار فقط. وقد سارع مسؤولون حكوميون متلهّفون لتجنّب الحقيقة الواضحة (وهي أن بريطانيا مسؤولة جزئياً عن تزويد صدّام بأسلحة الدمار الشامل) إلى التوضيح بأن ذلك المستحضر الكيميائي هو للاستخدامات المدنية. وقالوا بأنه يمكن استخدامه في صُنع حبر الأقلام أو في الصباغة الصناعية. هذه هي الإدارة الحكومية نفسها التي حظرت بعد ثماني سنوات بيع لقاح الدفتيريا لأطفال العراق على قاعدة أنه يمكن استخدامه لصنع «أسلحة الدمار الشامل».

وأشار تقرير لمجلس العموم نفسه إلى أن بريطانيا صدّرت أيضاً كمّيات قليلة من اليورانيوم والبلوتونيوم وكذلك معدّات عسكرية ومعدّات اتصالات إلى العراق. وكانت اللائحة تتضمّن أنظمة توجيه لنيران المدفعية، وعربات مدرّعة، وأجهزة حلّ الرموز، وأجهزة تعطيل. وكان على اللائحة أيضاً مركّب Zirconium الذي له تأثير الأسلحة النووية. وتصرّ تعليمات الوزارة DTI بكل جدّية على «منع تصدير أسلحة فتّاكة أو معدّات قد تعزّز القدرة العسكرية لأيّ من البلدين (العراق أو إيران)»... كانت الوزارة واثقة ثقة مطلقة بأن كل المعدّات المبيعة للعراق «كانت مطابقة للمواصفات المذكورة أعلاه».

بمثل هذه الخيانة وذاك العمل السيّىء، كيف يمكن إيقاف تجارة الأسلحة المشينة الموجّهة إلى الشرق الأوسط؟ لاحظْ كيف كانت الحكومة البريطانية واثقة ثقة مطلقة بأن صادرات غاز الخردل الكيميائي والمدرّعات وأجهزة الاتصال السرّي لن تعزّز قدرة العراق العسكرية. هذه حقيقة أن هناك كمّية كبيرة من الفضّة في الزجاج. إذا لم تكن هذه التجهيزات البريطانية لتعزّز قدرة العراق العسكرية، فقد كانت تهدف بالتأكيد إلى إعادة بناء قدرته العسكرية بعد الخسائر الجوهرية في المعدّات العراقية خلال حرب الثماني سنوات مع إيران، في الوقت المناسب لعدوان صدّام القادم على الكويت.

لاحظْ أيضاً كيف أن الاستخدام المزدوج لعذر صادرات الأسلحة انقلب خلال بضعة أشهر رأساً على عقب: حيث صار وسيلة لحرمان العراق من الاحتياجات الاجتماعية الأساسية. فحتى تاريخ ١٩٨٨ ـ ١٩٨٩ كان يمكن تصدير المادّة الكيميائية المستخدمة لغاز الخردل) إلى العراق، باعتبار أنها يمكن أن تُستخدم أيضاً في صناعة حبر الأقلام... وعندما فرضت الأمم المتّحدة عقوباتها على العراق بعد غزوه الكويت لم يعد ممكناً تصدير أقلام الرصاص إلى المدارس لأن الغرافيت له استخدام عسكري مزدوج. والأسباب نفسها سوف نرفض السماح للعراقيين باستيراد معدّات حيوية لإصلاح آبار النفط، ومحطّات التكرير ومحطّات معالجة المياه.

كان لهذا النوع من الهذر انعكاسه في أوساط تجّار الأسلحة. فليس لدى بعضهم سوى القليل من الكرامة. على ما اكتشفه هاملتون سبنس، المدير الإداري لشركة أنترارم Interarms في مانشستر (وهي مصدّر أسلحة بريطاني حقيقي) وذلك عندما سافر إلى بيروت عام ١٩٨٠، في ذروة تصاعد الحرب الأهلية لبيع بنادق م١٦ قانونياً للجيش الحكومي اللبناني، وكان برفقة جيم دايفيس من شركة كولت للأسلحة. قال: «جلسنا في غرفة نتحدّث إلى قائد الجيش الجنرال خوري. وعندما فُتحت الاعتمادات وجدنا هناك ثلاثة رجال آخرين، هم ألماني غربي ولبناني ورجل مجهول الجنسيّة. وقدّم الثلاثة أوراقاً ثبوتية مزيّفة تمثلهم كوكلاء لكولت Colt، لذلك نهضنا وأشرنا إليهم صارخين: «هؤلاء الناس محتالون».

بعد سنتين من المجزرة الفلسطينية على يد ميليشيا الكتائب المدعومة من الإسرائيليين، كان سبنس يراقب القوّات الإسرائيلية وهي تُخرج أسلحة منظمة التحرير الفلسطينية المدفونة في دهاليز خلف المخيّمات الفلسطينية في بيروت الغربية. قال سبنس: «وجِدت علامات أسلحة أنترارم على بعض الصناديق وكانت كلّها مزيّفة.. كان أحدهم يستخدم اسمنا». ومثل مارتينس، كان سبنس مستهزئاً بصفقة الأسلحة الأميركية مع إيران. قال: «لدى السي آي إي قدرة فريدة لتخريب كلّ شيء». حتى الآن كان مدير سبنس، سام كامينكز، رئيس

مجلس الإدارة وصاحب الأسهم الرئيسي في شركة Interarms يعمل شخصياً لصالح السي آي إي. وقد وصف سوق السلاح بأنه «يرتكز على الجنون الإنساني: إنها تجارة، كلّ الأسلحة فيها دفاعية، وكلّ قطع الغيار فيها غير قاتلة». وحتى الآن لا يزال سبنس يحتقر الذين يصفونه بتاجر الموت.

«كنت منذ فترة في حفلة وجاءت فتاة شابّة إليّ واتهمتني ببيع الناس أسلحة ليقتل بعضهم البعض». قلت: «هُراء، أنت تدفعين ضرائب، تدفعين جزءاً من راتبك كل شهر لتسديد ثمن الأسلحة النووية. كيف تتهمينني؟» لم يشعر بالخجل. وذلك أن شعار شركة سبنس وكامينكز هو: لأن تكون، هو أفضل من شبه الكينونة»... وتقع مصانعهما في مانشستر قرب كنيسة جميلة مبنية بحجر فيكتوري.... إلاها الحبّ والحرب يتعانقان في علاقة حميمة!!.. قال لي سبنس «ليس الأمر هكذا بالضبط».. «فالكنيسة بنيت لتخليد معركة واترلو». وأضاف أن شركة أنترارم Interarms لا تزال تتابع العمل بينما أقفلت الكنيسة قبل بضع سنوات.

يمكن مسامحة صناعة الأسلحة الإسرائيلية على تبنّيها شعار شركة كامينكز كرمز لدورها في سوق أسلحة الشرق الأوسط... رغم أن محاولاتها لإضفاء السرّية غالباً ما تشبه في جدّيتها محاولات فتّانة تعرٌ لإظهار الخجل.

إن الشركات التي تنتج دبّابة ميركافا والتي أصبحت تسيطر على عملية تزكية وتحويل الذخائر الفاسدة، تحتاج إلى الدعاية لنفسها بقدر حاجتها إلى الحفاظ على خصوصيّتها. وقد مدحت المجلّات العسكرية الإسرائيلية اللامعة حسنات رادار مراقبة نيران الدبّابات، ومنصّات إطلاق القذائف الجوّية ورشّاش عوزي الآليّ.

في منتصف الثمانينيّات، انتقل صانع الألكترونيات الإسرائيلية تاديران إلى الصناعة الألكترونية الحربية مع تطوير نظام الراديو VHF. وكانت شركة كومبيوتر Elbit تعلن عن عمليّات شحنها للأسلحة وعن أنظمة الملاحة الخاصّة بها. وقد استخدمت «الصناعات العسكرية الإسرائيلية» IMI- 14 ـ ألف عامل وكانت تصدّر إلى الولايات المتّحدة ودول حلف الأطلسي... علماً بأن أسلحتها «كانت

موضع اختبار عملي مكثّف في القتال الفعلي» على حدّ قولها. حتى إن إسرائيل بدأت تشتري، بشكل قانوني، أنظمة Avionics من الولايات المتّحدة، ثم تقوم بتطويرها وبوضعها على متن الطائرات الإسرائيلية... ومن ثم قامت بتقاسم التجهيزات الجديدة المطوّرة والمعرفة التقنية الجديدة مع الأميركيين. بهذه الطريقة، أصبحت التقنية الإسرائيلية ضمن المعدّات الأميركية المبيعة إلى السعودية، وهي بلد يعارض اللوبي الإسرائيلي استيراده للأسلحة من واشنطن وعادة من الحكومة الإسرائيلية.

وثمّة عمليّات أقلّ قانونية تجري بصورة سرّية ـ أكثرها لا يزال غير مكشوف في إسرائيل نفسها ـ أُرسل فيها تقنيون عسكريون إسرائيليون إلى بكّين في منتصف الثمانينيّات بُغية إصلاح وتطوير مئات الدبّابات السوفياتية الصنع والمدفعية الثقيلة للجيش الشعبي الصيني.

سافر التقنيون الإسرائيليون الذين يعمل معظمهم لشركات أسلحة تجارية في إسرائيل، إلى بكّين مع موافقة ضمنية من قِبل الحكومة الإسرائيلية، وذلك لتطوير الدبّابات الروسية بأنظمة نيران جديدة موجّهة، وأجهزة ليزر للتعقّب وفي بعض الحالات بمدافع جديدة تتضمّن أجهزة حسّاسة من صنع أميركي. سافر هؤلاء إلى بكّين عبر كوبنهاغن وبانكوك مستخدمين دائماً الخطوط الجوّية الإسكندينافية ومختارين طريقاً واحداً إلى الصين يمرّ عبر أجواء صديقة... وقد عملوا لثلاثة أشهر على شكل فِرق في مخازن الأسلحة الصينية وكانت معدّاتهم تُرسل بحراً عبر ميناء إيلات الإسرائيلي.

رغم أنني كتبت بشكل مكثّف عن هذه التجارة المحرّمة في التايمز في أيار/ مايو ١٩٨٧، فإن وكالة الأسوشيتدبرس كانت الوحيدة التي تابعت القصّة. لم يصدر عن البنتاغون أو البيت الأبيض أيّ تعليق اعتماداً على الافتراض بأن الصحفيين الأميركيين لن يتطرّقوا إلى موضوع بهذه الحساسية دون موافقة من السلطات الأميركية، وهي موافقة مستحيلة الحصول. كان افتراضهم صحيحاً. وعندما أبلغت وكالة الاستخبارات الأميركية لجنة الشؤون الحكومية في مجلس الشيوخ في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٣ أن إسرائيل كانت تزوّد الصين طيلة عشر

سنوات بتكنولوجيا عسكرية متطوّرة قيمتها مليارات الدولارات، عندها فقط أصبحت القصّة مباحة بالنسبة إلى الصحفيين الأميركيين. واعترف رئيس وزراء إسرائيل إسحاق شامير بأن إسرائيل باعت الصين أسلحة.

كانت قدرة إسرائيل على تطوير الآلة العسكرية السوفياتية معترفاً بها. فقد طوّر التقنيون الإسرائيليون نموذجاً لتخريب دبّابات T54 وT55 بعدما استولت على مئات منها في الحروب ضدّ الجيوش العربية المجهّزة بأسلحة سوفياتية. وقد استبدل الإسرائيليون مدفع الدبّابة عيار ١٠٠ ملم بمدفع ١٠٥ ملم وأضافوا نظام التحكّم بالنيران الخاصّ بهم مما يسمح للمدفع بالبقاء مصوّباً إلى هدفه في المكان الصعب. وقد تمّ تركيب أجهزة تبريد لمدفع الدبّابة لتجنّب ارتفاع الحرارة بينما سمحت عمليات تجديد أخرى لقادة الدبّابات بمعرفة الظروف الجوّية(*).

كانت إسرائيل تصدّر أسلحة إلى أميركا اللاتينية، إلى نظام سوموزا ومن ثم إلى الكونترا في نيكاراغوا(**) وإلى النظام العنصري في جنوب أفريقيا وإلى بينوشيه في تشيلي. لكنّ ما أغضب الأميركيين هو أن الصينيين حصلوا على تكنولوجيا أميركية لدبّاباتهم من خلال إسرائيل، وهي تكنولوجيا محظور تصديرها للدول الشيوعية بما فيها الصين. وكان أخطر ما في الأمر وصول بعض هذه الدبّابات الروسية نفسها إلى إيران وقد اشتراها تجّار سلاح إيرانيون خلال

(*) تعلّم الإسرائيليون كيفية بيع الأسلحة من خلال تعلّم تغيير شكلها. ذلك أن أوّل صراعاتهم (ما يسمّونه «حرب الاستقلال» التي شرّدت ٧٥٠ ألف فلسطيني من منازلهم في ما يسمّى الآن إسرائيل) خاضوه بمساعدة دبّابتيْ شيرمان ودبّابتيْ كروموبل قديمتين وعشر دبّابات فرنسية صنع ١٩٣٥. وقد طوّر الإسرائيليون مدى المدافع وركّبوا قِطعاً من الدبّابات الجديدة لتلائم ما لديهم. وفي عام ١٩٥٠ كانوا لا يزالون يشترون بقايا أسلحة الحرب العالمية الثانية، بما في ذلك دبّابات من إيطاليا وحتى من الشرق الأقصى. وقد تمّ تفكيك العديد منها ببساطة لإعادة بناء دبّابات التشيرمان التي قاتلت لاحقاً في حرب ١٩٦٧ الشرق أوسطية وحتى في حرب ١٩٧٣. وبعدها أهملت ثم قدّمت هدايا إلى ميليشيا «جيش لبنان الجنوبي» المقرّب من إسرائيل كما أنها قُدّمت إلى أوغندا أيضاً.

(**) شحنت إسرائيل، استناداً إلى أقوال ضبّاط إسرائيليين سابقين في تلّ أبيب، ألفيْ رشاش كلاشينكوف ومئات من صواريخ RPG -7 المضادّة للدبّابات إلى نيكاراغوا عام ١٩٨٣ وكلّها صودرت من ثوّار منظمة التحرير الفلسطينية خلال الغزو الإسرائيلي للبنان في العام السابق.

زيارات طويلة إلى بكّين. وكان لا بدّ لإسرائيل من أن تقلق الاتفاقيات ـ كانت إيران تقوم برحلات جوّية يومية إلى بكّين طيلة حرب الثماني سنوات مع العراق خاصّة لكسب سوق السلاح الصيني. وأدركت السلطات الأميركية قيام إسرائيل باستخدام التجهيزات الأميركية في عمليات بكّين عندما قامت بعثة تسلّح مصرية زائرة بمعاينة دبّابة T62 روسية مطوّرة حديثاً لتجد تكنولوجيا أميركية وإسرائيلية وتعليمات بالإنكليزية والعبرية في داخلها.

حصلت الميليشيات المسلّحة في الشرق الأوسط، وبخاصّة في لبنان خلال الحرب الأهلية ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦، على أسلحة بطرق أقلّ طموحاً. كان حزب الله في لبنان يحصل على صواريخ كاتيوشا والصواريخ المضادّة للدبّابات من إيران عبر سوريا.. وكان هذا التحالف ناجحاً إلى حدّ مثير بحيث أنه استخدم أسلحة غير متطوّرة نسبياً لطرد جيش الاحتلال الإسرائيلي وعملائه اللبنانيين من جنوب لبنان في أيار/مايو ٢٠٠٠. وقد حصل المسيحيون الكتائب على أسلحة، بما في ذلك صواريخ موجّهة لاسلكياً، من إسرائيل ومن جنوب أفريقيا، وقد أثار الأمر تحقيقاً في جوهانسبرغ بعد انتهاء نظام التفرقة العنصرية(*).

وكان حتمياً أن يزوّدني لبنان، ذلك البلد الذي عشت فيه أكثر من نصف حياتي، بسرّ العلاقة الفريدة والرهيبة التي سعيت طويلاً لفهمها بين تجّار السلاح وضحاياهم الأساسيين، بين صانعي السلاح المحترمين والأبرياء الذين تقتلهم أسلحتهم. فلعدّة سنوات في الشرق الأوسط، فكّرت مليّاً في مدى أخلاقية أولئك الذين صنعوا الأسلحة التي قتلت الناس من حولي. كم من الوقت مضى

(*) عام ١٩٩٤، عيّنت لجنة تحقيق الكاميرون للنظر في قضية تحويل أسلحة بين Armscor مؤسّسة التسلّح الرسمية في جنوب أفريقيا ومجموعات الميليشيات المسيحية بين ١٩٨٣ و١٩٩٣. بعد انتهاء الحرب اللبنانية عام ١٩٩٠، كان الكتائب متّهمين بإرسال الأسلحة إلى كرواتيا وسلوفينيا في جبال البلقان، وهو اتهام صار مؤكّداً عندما صادرت البحرية اليوغوسلافية التي كانت بأيدي الصرب سفينة تحمل أسلحة في الأدرياتيك وخزنتها في ميناء بار ثم أرسلت فاتورة بقيمة التخزين إلى الكتائب. واستناداً إلى الحكومة اللبنانية، فقد كانت الأسلحة تتضمّن أربع طائرات هيلكوبتر مقاتلة من طراز غازيل وعدّة زوارق دورية ومدافع هاون وقاذفات صواريخ متعدّدة الفوّهات.

على العامل السوفياتي الميت في عصر ستالين وخروتشوف والذي صنع صاروخ الكاتيوشا ليطلق بعد عدّة عقود من قِبل الفلسطينيين وحزب الله ضدّ الإسرائيليين إلى داخل إسرائيل أو ضدّ قوات الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان؟ أيّ تقنيّ جمع القنابل الانشطارية في الولايات المتّحدة لتمطر بها إسرائيل المدنيين في غرب بيروت عام ١٩٨٢؟.

أيّ صانع ـ أيّ مطوّرين، محترمين، وطنيين، أميركيين، يخافون الله، بدون شكّ ـ صنع صاروخ هيلفاير Hellfire الذي أطلقه طيّار إسرائيلي على سيّارة إسعاف لبنانية يوم ١٣ نيسان/أبريل ١٩٩٦ مودياً بحياة امرأتين وأربعة أطفال؟ بعد خمس سنوات، سيروي جون هيرست من لوكهيد في أبوظبي أنه لم يكن له علم بهذا الحمّام الصغير المخيف من الدم. لكنّ ميخائيل كلاشينكوف أبلغني عندها أنه لا يشعر بالندم على المذبحة التي سبّبها الرشّاش الذي صمّمه... لقد اخترع AK47 لحماية بلده وليس لقتل البريء... إنه تبرير كل صانع سلاح!.

والحال أن أحداث ١٣ نيسان/أبريل ١٩٩٦، ستسمح لي بتحدّي هذه الكلمات السحريّة.. وأن أحصل على دليل الوحشيّة هذا لكي أحمله معي إلى الولايات المتّحدة وأضعه أمام الأشخاص الذين اخترعوا جهاز الموت لستّة مدنيين لبنانيين مساكين ذنبهم الوحيد هو جنسيّتهم، ومكان قريتهم الفقيرة، وأيضاً لسخرية ذلك الصراع الذي دار في ذلك الجزء من بلدهم طيلة ٢١ عاماً. إجمالاً، جرى قتل ١٥٠ ألف رجل وامرأة وطفل في الحرب الأهلية اللبنانية، عشرات الآلاف منهم قتلوا بذخائر أميركية. ولقد مات المدنيون الستّة بعد فترة طويلة من انتهاء تلك الحرب رسمياً ـ ضحايا لصراع متجدّد دائماً بين جيش الاحتلال الإسرائيلي ورجال حزب الله اللبناني الذي أخرج أعداءه في النهاية من معظم الأراضي اللبنانية(*). . . في الأشهر اللاحقة، قابلت كل الناجين، كل

(*) أحلتُ القرّاء في المقدّمة إلى كتابي حول النزاع اللبناني «ويلات وطن»، Pity the nation.. أما الذين يريدون فهم السياق الأوسع لأعمال القتل الإسرائيلي لأكثر من٢٠٠ مدني في نيسان/ أبريل ١٩٩٦، بما في ذلك مجزرة قانا، فبإمكانهم الرجوع إلى النسخ البريطانية والأميركية للكتاب وبخاصة الصفحات: ٦٦٩ ـ ٦٨٩.

الشهود، جنود الأمم المتّحدة والمدنيين اللبنانيين وصانعي الأسلحة الأميركيين المتورّطين في هذه القضية المرعبة التي ما زلت أعتبرها جريمة ضدّ الإنسانية.

تقع قرية المنصوري اللبنانية الشيعية المسلمة على بعد ٨ كلم من الحدود اللبنانية ـ الإسرائيلية، وطيلة ذلك الصباح من يوم السبت ١٣ نيسان/أبريل كان الإسرائيليون يقصفون المنطقة. أمضت فاضلة العقلة البالغة ٣٢ سنة الليل مع خالتها نوكل متقوقعة في الزريبة قرب حمير القرويين وأبقارهم. لكن في ذلك اليوم خرجت من مخبئها لأن الخبز نفد من القرية، وكانت القذائف الإسرائيلية تسقط بين بيوت الحجر. وأمضى عبّاس جحا الليل، وهو مزارع عمل كسائق إسعاف متطوّع للقرية الشيعية المسلمة، مع زوجته منى البالغة ٢٧ عاماً وبناته الثلاث زينب وحنين والطفلة مريم وابنه مهدي البالغ ست سنوات، في كوخ في بستان زيتون يستمع إلى تهديدات إذاعة صوت الأمل التي تديرها إسرائيل في المنطقة اللبنانية المحتلة، البالغة ١٠ في المئة من الأراضي اللبنانية قرب الحدود الشمالية. «ظلّ الإسرائيليون يردّدون عبر الإذاعة أن على أهالي القرى ترك منازلهم» وذكّرني عبّاس جحا بذلك. «واعتبروا المنصوري من هذه القرى. وكانوا يقولون لنا أن نهرب. كانوا يقولون إنهم لن يهاجموا السيّارات التي تغادر القرى. وعندما فتحت الباب شاهدت القذائف تتساقط على المنصوري». كانت سحب الدخان الأسود والرمادي تتّجه نحو المتوسّط فوق جنوب لبنان كلّه في ربيع ذلك الصباح بينما كانت آلاف القذائف الإسرائيلية تتساقط في تلال القرى. وكانت السماء تنبض حياة مع صوت القاذفات المقاتلة ف١٦ الأسرع من الصوت، وعلى بعد عدّة مئات من الأمتار، كانت طائرات الهليكوبتر الأباتشي الأميركية الصنع، والتي أثبتت قوّة نيرانها القاتلة فعاليّتها ضدّ الجيش العراقي المنسحب من الكويت قبل خمس سنوات، تحلّق فوق القرى الصغيرة والمزارع لتضيف إلى المعركة أحدث الأسلحة الإسرائيلية وأشدّها فتكاً. قبل أربعة أيام فقط، مزّقت قنبلة مموّهة على شكل صخرة قرب بلدة برعشيت صبيّاً لبنانياً في الخامسة عشرة من عمره، وقد اتّهم حزب الله الموالي لإيران إسرائيل بالمسؤولية وانتقم بإطلاق صواريخ كاتيوشا عبر الحدود إلى داخل إسرائيل

أصابت عدّة مدنيين بجروح. وقد قام شيمون بيريز الذي يسعى جاهداً لإعادة انتخابه من خلال تصوير نفسه على أنه جندي الدولة في الحرب ضدّ إرهاب حزب الله بإصدار أوامره بقصف جنوب لبنان قصفاً شاملاً من الجوّ والبحر والأرض(*)

وقد دعت الولايات المتّحدة، بوداعة، الطرفين إلى «ضبط النفس»، لكنها كانت منحازة إلى إسرائيل علناً. واعتبرت الإدارة الأميركية أنّ حزب الله مسؤول كلّيّاً عن موت هؤلاء المدنيين كافّة ـ وقع أكثر من مئتي قتيل مدني خلال الأسابيع الثلاثة التالية ـ الذين قُتلوا بنيران إسرائيلية. ومع أن واشنطن كانت كالعادة محايدة رسمياً، فقد وجد اللبنانيون أن من الصعب فصل حربهم الأخيرة عن الولايات المتحدة. فإذاعة «صوت الأمل» التي تأمر الناس بترك منازلهم مموّلة جزئياً من الجناح اليميني للإنجيليين الأميركيين، والقذائف عيار ١٥٥ ملم التي تتساقط على قراهم، هي أميركية الصنع، وكذلك طائرات ف١٦ ومروحيّات أباتشي التي تحلّق في الأجواء فوقهم. حتى الاسم الذي اختاره شيمون بيريز للمغامرة الإسرائيلية الأخيرة في لبنان «عملية عناقيد الغضب» ظهر وكأنه متأثّر بأميركا.. وإذا لم يكن مستوحى من «سِفر التثنية» فلا شكّ أنه كان مستلهماً من «نشيد لمعركة من أجل الجمهورية» لجوليا وارد هوي من القرن التاسع عشر، حيث «يخرج الله موسم الخمر» من مكان تخزين «عناقيد الغضب»... أو من أفضل قصّة للكاتب الأميركي جون شتاينبك الذي وصف العرب مرّة «بأنهم أقذر الشعوب في العالم وأنتنهم رائحة». كان يمكن مشاهدة ثمار هذه العملية في المنصوري. بعد وقت قصير من بزوغ الفجر يوم ١٣ نيسان/أبريل، ضربت قذيفة منزلاً في طرف القرية، فأصابت بشظاياها عبد العزيز محسن (٢٣ سنة)، وهو مزارع ومجنّد سابق في الجيش اللبناني. وعلى الرغم من إطلاق النار، ركض

(*) أعلنت القوّات الإيرلندية التابعة للأمم المتّحدة في برعشيت أن القنبلة المفخّخة ألقيت من قِبل الإسرائيليين لقتل مقاتلي حزب الله الذين يحاولون التسلّل إلى المنطقة التي تحتلّها إسرائيل. وقد نفى الإسرائيليون زرع القنبلة... وأمام استحالة إثبات أن الأمر من صُنع إسرائيل، ارتكب المقاتلون خطأ مجنوناً فأقدموا على الردّ حين كان عليهم أن يدركوا أن ذلك سيؤدّي إلى قصف إسرائيلي للمدنيين في جنوب لبنان.

عبّاس جحا من منزله ليطلب مفاتيح سيّارة إسعاف المنصوري من مختار القرية . كانت سيّارة الفولفو البيضاء اللون هديّة إلى سكّان المنصوري من قرويين كسبوا أموالاً بعد هجرتهم إلى أفريقيا الغربية... وكان في القسم الخلفي من السيارة حمّالتان. وقام جحا بوضع محسن داخل السيّارة وانطلق به تحت القصف إلى مدينة صور على شاطئ المتوسّط إلى الشمال الغربي. وهناك اشترى أكياس خبز عربي لأهالي قرية المنصوري المعزولين. وفي الساعة التاسعة صباحاً عاد إلى القرية وكان يوزّع الخبز عندما سقطت قذيفة أخرى في زقاق فأصابت شظاياها علي مهدي وهو طفل عمره شهران. عاد عبّاس جحا وقاد سيّارة الإسعاف مرّة أخرى والضوء الأزرق يسطع على سطحها حتى أوصل علي بسلام إلى مستشفى صور. واشترى عبّاس المزيد من الخبز لأهالي المنصوري وقفل عائداً إلى القرية.

في هذه الأثناء كانت مراسلة رويترز نجلا أبو جهجاه في مهمّة صعبة أيضاً تقود سيّارتها عبر سفوح التلال الشرقية للمنصوري في محاولة لتصوير الغارات الجوّية الإسرائيلية لصالح الوكالة البريطانية للأنباء. وكانت أبو جهجاه بإصرارها على عدم مغادرة منطقة المعركة تلك المرأة المعطاءة والشجاعة التي لن تنسى الحدث الرهيب الذي ستشهده قريباً. توجّهت غرباً إلى الطريق قرب المنصوري حيث شاهدت طائرة أباتشي أخرى، يبدو أنها كانت تراقب شيئاً ما «متوقّفة في الجوّ وتتحرّك بضعة أمتار إلى الوراء ومن ثمّ بضعة أمتار إلى الأمام». وكان عبّاس جحا قد عاد إلى وسط بلدة المنصوري الغارقة في فوضى عامّة. وقد هرب العديد من الناس من منازلهم وبقي القليل بمن فيهم عائلته، وكانت القذائف تتساقط في كل مكان.. ثم جاءت طائرة وألقت قنبلة على طرف القرية ممّا أرعب عبّاس جحا وجعله يفكّر في وضع الناس في سيّارة الإسعاف وأخذهم إلى مكان آمن.. وقال: «أخذت منى وأولادي إلى داخل السيّارة، وبمجرّد أن وضعت زينب (٩ سنوات) وحنين (٥ سنوات) ومريم (شهرين) مع أخيهم مهدي في الجزء الخلفي من سيّارة الإسعاف، شاهدت طائرتيْ هيلكوبتر تحلّقان على علوّ منخفض وبدا الطيّاران وهما يراقباننا».

اشترت فاضلة العقلة كيسيْ خبز من عبّاس لكنها كانت مرعوبة من الطائرات. قالت لي لاحقاً: «رغم أن الإسرائيليين أعلنوا أنهم لن يهاجمونا إذا تركنا بيوتنا، فقد كانت طائرات هيلكوبتر تزرع الشوارع بالرصاص والقذائف التي تنفجر حول بيوتنا.. وقد غادر أخوتي في سيّارة بيك أب وهرب آخرون في جرّارات زراعية. وقال لي أهلي: «ارحلي والحقي بأخوتك». نزلت إلى القرية بحثاً عن بيك آب آخر، عندها شاهدت عبّاس جحا يقود سيّارة إسعاف القرية وبرفقته زوجته وعائلته. طلبت منه إذا كان بالإمكان أخذي معه فرّد: «لا مشكلة».

حين غادر عبّاس جحا المنصوري كان معه ١٣ راكباً مرعوبين مكدّسين داخل السيارة. كان هناك زوجته منى وأولاده الأربعة، وفضيلة وخالتها نوكل، ومحمّد هشام صانع الشبابيك، وخمسة من عائلة الخالد: ناديا (٢٢ سنة) ابنة نوكل وأولاد أختها سحر (٣ سنوات) وعايده (٧ سنوات) وهدى (١١ سنة) ومنار (١٣ سنة). جلس عبّاس ومحمّد هشام، الرجلان الوحيدان، في المقعد الأمامي لسيّارة الإسعاف مع مهدي (٦ سنوات) وجلس الباقون مزدحمين في القسم الخلفي. سألتني فاضلة عندما قابلتها لاحقاً: «هل تتصوّر ما هو وضع ١٤ شخصاً في سيّارة؟». يتذكّر عبّاس جحا أن ذلك الجزء من القرية كان مشتعلاً والدخان يتصاعد من الحقول. «غادرنا في قافلة من الجرّارات والسيّارات باتجاه العامرية حيث كان هناك موقع للأمم المتّحدة فيه جنود فيجيّون على الطريق الساحلي الرئيسي إلى صور. كانت القذائف تتساقط حولنا في الحقول».

كانت نجلا أبو جهجاه تقف أمام المركز الفيجي حينها ـ نقطة تفتيش الأمم المتحدة ١ك٢٣ ـ وهي تصوّر سيّارات اللاجئين إلى مركز الأمم المتحدة، ويحمل صديقها آلة تصوير الفيديو. قالت لي: «كانت هناك طائرتا هيلكوبتر تقومان بمراقبة مركز المراقبة، وكنت قلقة أحاول معرفة ما الهدف من وجودهما هناك. شاهدت سيّارة إسعاف قادمة على الطريق واعتقدت أن هناك جرحى وتبيّن لي أنها مليئة بالنساء والأطفال. وكانت هناك سيّارة أخرى تتحرّك في الاتجاه المعاكس وكان سائق الإسعاف يلوّح بيده طالباً منها العودة». يظهر شريط

الفيديو تلك اللحظات: الإسعاف تتخطّى مركز تفتيش الأمم المتّحدة المهجور ـ لم يكن الجنود الفيجيون على الطريق بل في ملاجئهم المحميّة ـ وظهرت يد عبّاس جحا من نافذة السيّارة طالباً من السيّارة الأخرى التوقّف. عندها سمع عبّاس جحا الناس الموجودين في الجزء الخلفي من السيّارة يصرخون به. «كانت إحداهنّ تصرخ بي: «الهليكوبتر تتجه نحونا. إنها تطاردنا». نظرت من النافذة واستطعت رؤية الأباتشي وهي تقترب. قلت للجميع: «لا تخافوا قولوا فقط الله أكبر ويا عليّ». طلبت منهم عدم الخوف لكنني كنت مرعوباً».

شاهدت نجلا أبو جهجاه الهليكوبتر نفسها: «كانت تنخفض وتقترب وأدركت أن هذا يعني استعداد الطيّار لإطلاق النار. شعرت بأنه سيطلق صاروخاً لكنني لم أتوقّع أن يكون الهدف قريباً جدّاً مني. سمعت صوتاً مثل بوف بوف، صوتاً صغيراً جدّاً. ورأيت صاروخاً ينطلق من الأباتشي مع آثار دخان خلفه». في الواقع، أطلق طيّار الهليكوبتر الإسرائيلية صاروخيْن، وجِد أحدهما غير منفجر قرب مسجد مجاور وكانت أسطوانته المعدنية ما تزال بحالة جيّدة. وقد سجّلت نجلا أبو جهجاه بكاميرا الفيديو ما حصل للصاروخ الآخر. بعد ثوانٍ من مرور سيّارة الإسعاف من نقطة تفتيش الأمم المتحدة ١ك٢٣ انفجر الصاروخ في الباب الخلفي للسيّارة محيلها إلى كتلة من النار والدخان وقاذفاً إياها في الجوّ إلى داخل غرفة جلوس في بيت قريب.

كل ما تستطيع أن تتذكّره فاضلة أنها شعرت بحرارة قويّة في وجهها تشبه شعلة نار.. «بطريقة ما أصبحت خارج سيّارة الإسعاف ووجدت برميلاً ما ضخماً وبدأت أغسل وجهي. كان هذا كلّ ما أستطيع التفكير فيه رغم الصراخ والدخان والحرارة الرهيبة. كان المشهد وكأنّ أحدهم يحمل شُعلة أمام عينيّ».

ويتذكّر عبّاس جحا كيف قفز من باب سيّارة الإسعاف قبل أن تصطدم بالبيت «كنت مرعوباً ولم أستطع تصديق ما حصل. كانت نهاية عالمي، عرفت ما حصل لعائلتي». كانت نجلا أبو جهجاه التي ترتجف من الخوف تصوّر حينها الحدث الرهيب للهجوم الصاروخي الإسرائيلي. ويظهر شريط الفيديو عبّاس جحا مصاباً بجروح في رأسه ورجله واقفاً إلى جانب الطريق قرب إحدى بناته

القتيلات يبكي وينتحب ويقول: «الله أكبر» وكان ينظر إلى السماء باتجاه الهليكوبتر، «رفعت قبضتي للطيّار وصرخت: «ربّي، ربّي، ذهبت كلّ عائلتي».

وجد عبّاس ابنه مهدي حيّاً، ثم شاهد ابنته مريم (شهرين) ممدّدة على بعد ثلاثة أمتار من الإسعاف، «كان جسدها مليئاً بالثقوب ورأسها بقطع المعدن». وشاهدت نجلا «نساء وأطفالاً يخرجون من مؤخّرة الإسعاف راكعين، صارخين ومختبئين. ورمى رجل بنفسه في البستان ثم عاد وهو يحمل طفليْن بين يديه، أحدهما طفلة أصيبت، تحاول إعادة وضع منديلها على رأسها.. وشاهدت فتاة ملقاة على الطريق والدم ينزف من أعلى رأسها. وكان السائق يصرخ: «مات أولادي، الله يرحمهم». رأيت فتاة أخرى، كانت منار، وكان الدم يغطيها وكانت تردّد: «تفجّر رأس أختي».

ومع أن نجلا أبو جهجاه كانت خائفة من أن تطلق الهليكوبتر النار مجدّداً ـ رأى الطيّار بوضوح أن هدفه كان سيّارة إسعاف ـ فقد ركضت باتجاه المنزل لترى مشهداً قالت إنه سيظلّ يؤرّقها بقيّة حياتها: «لم أستطع فتح الأبواب لأن السيّارة كانت ملتصقة بالغرفة، لكن كان هناك ثلاثة أولاد في الداخل وكانوا بشكل واضح في الثواني الأخيرة من حياتهم، وبدوا كأنهم مدفونين. واحدة منهم (حنين) كانت قد اصطدمت بزجاج النافذة المحطّم، ودمها يسيل مثل النهر خارج السيّارة. في الثواني الأخيرة حاولت النظر إليّ لكنها لم تستطع لأن الغبار كان يغطّي وجهها. كانت هناك فتاة صغيرة أخرى تجلس في حضن امرأة ميتة، تنتحب وتصرخ «خالتي، خالتي». وفتاة ثالثة وجهها مغطّى بالدم، تميل برأسها من جهة إلى جهة، وكانت فتاة أخرى مصابة بجرح كبير في رأسها وعنقها ثم انهارت». وبينما كان الأطفال يموتون الواحد تلو الآخر أمامها، سمعت نجلا صوتاً غريباً»: «لقد ضرب الصاروخ المسّاحات التي كانت لا تزال تتحرّك على الزجاج المحطّم محدثة ذلك الصوت الرهيب، وسيبقى ذلك الصوت يلازمني بقيّة حياتي». كان عبّاس جحا مغموراً بالحزن يشقّ سيّارة الإسعاف بيديه العاريتين مع عناصر من الفرقة الفيجية التابعة للأمم المتحدة من نقطة التفتيش. وتذكّر: «أستطيع رؤية ظهر حنين ـ كان مليئاً بثقوب مثل شبكة العنكبوت»، «ثم

رأيت زوجتي منى وكانت جريحة بشكل مروّع، لم أستطع تمييز وجهها. فقدتها وبناتي الثلاثة». منى جحا، زينب (٩ سنوات)، حنين (٥ سنوات) مريم (الطفلة ابنة الشهرين) مُتنَ جميعاً. وكذلك ماتت نوكل (٦٠ سنة) وابنة أخيها هدى (١١ سنة). وظلّت طائرتا الهليكوبتر الإسرائيليتان في السماء فوق نقطة تفتيش الأمم المتحدة ١ك٢٣ لمدّة خمس دقائق أخرى، ثم غادرت.

بعد ساعات، اعترف الإسرائيليون بأنهم استهدفوا سيّارة إسعاف لكنهم قدّموا روايتين للحادث: الأولى تقول بأن السيارة يملكها عضو في حزب الله ـ وهذا غير صحيح ـ وقد تمّ تدميرها لأنها كانت تحمل عناصر من حزب الله ـ وهذا غير صحيح ـ وقال المتحدّث الإسرائيلي من جهة ثانية: «إذا أصيب أفراد آخرون في السيّارة أثناء الهجوم، فذلك لأنه تمّ استخدامهم من قِبل حزب الله كغطاء لنشاطاته». لم يكن هناك أي اعتذار. والحال، فإن القانون الدولي يطالب بحماية أرواح المدنيين حتى في حال وجود أفراد لا ينطبق عليهم تعريف المدنيين. والادّعاء بأنّ السيّارة قد استُهدفت لأنها مِلك لحزب الله كان بشكل ما أكثر مدعاة للاستنكار.

سأل الناجون أنفسهم كيف يمكن للإسرائيليين تبرير ذبح راكبي سيارة إسعاف بحجّة أن مالك السيّارة لا يعجبهم؟ وسألوا: أي نوع من الصواريخ يستطيع قصف سيّارة إسعاف وقذفها مسافة ٢٠ متراً في الهواء؟ إذا كانت طائرة الهليكوبتر الأباتشي أميركية، كما كانت بالتأكيد، فهي التي ألقت الصاروخ الذي قتل نوكل، ومنى والأطفال الأربعة: زينب، وحنين ومريم وهدى؟.

لعدّة أيام بعد عملية القتل، بقيت سيّارة الإسعاف داخل أنقاض المنزل الذي قُذفت إليه يوم ١٣ نيسان/أبريل. كنت أمرّ أمامه يومياً وأنا أقود سيّارتي على الطريق الساحلية المخيفة جنوب صور، فيما طائرتا أباتشي تراقبان تحرّكاتي كما كانت تفعل مع بقيّة السيّارات على الطريق السريع.

بعد أسبوع، غطّى حمّام الدم في قانا على تلك الجريمة المروّعة.... وقد قُتل حينها ١٠٩ مدنيين لبنانيين كانوا قد لجأوا إلى هناك، بقذائف المدفعية

الإسرائيلية، ممّا أوصل عملية «عناقيد الغضب» إلى خواتيمها المشينة وعطّل إمكانية نجاح شيمون بيريز في كسب الانتخابات. لكن كانت هناك عدّة حوادث أخرى مشابهة للقصف الإسرائيلي على سيّارة الإسعاف. فبقرب محطّة الطاقة في الجيّة، جنوب بيروت على سبيل المثال، قامت طائرة هليكوبتر إسرائيلية بإطلاق صاروخ على سيّارة ممّا أدّى إلى قتل امرأة شابّة كانت قد اشترت لتوّها ساندويشاً من مطعم محلّي. وأدّى سقوط صاروخ يوم ١٦ نيسان/أبريل في غرب بيروت إلى قطع رأس طفلة عمرها سنتان. بعد يومين، أطلقت طائرة هليكوبتر أخرى صاروخاً مستهدفة مجموعة منازل في النبطية، مما أدّى إلى مقتل عائلة من تسعة أشخاص بينهم طفل عمره يومان.

ما هي تلك الأسلحة الرهيبة التي استُخدمت بفجور في لبنان؟ مَن باعها للإسرائيليين؟ وإذا كانت شركة أميركية هي التي صنعت الصاروخ، فما هي الشروط التي كانت محدّدة لبيعه؟

أمضى عبّاس جحا في قرية المنصوري أشهراً يطرح هذا السؤال. سأل نفسه: «كيف يشعر الأشخاص الذين صنعوا هذا الصاروخ إذا قتل أطفالهم كما قتل أولادي؟». وكانت فاضلة العقلة أكثر تصميماً: «هذه الأشياء صُنعت لتستخدم ضدّ الجيوش وليس المدنيين. سيستمرّ الأميركيون في إعطاء هذه الأسلحة للإسرائيليين مهما قلنا». وهي قدّمت لي ذات يوم، وفي المنزل نفسه المكوّن من غرفتين الذي هربت إليه منذ سنة، ملاحظة واضحة: «إنهم لا يهتمّون بنا، سوف نستمرّ في العذاب»... وكان هذا بالطبع هو الحقيقة العارية.

بعد فترة قصيرة انتهى القصف... وبينما كان ضبّاط الأمم المتحدة يفتّشون بين حُطام سيّارة الإسعاف وجدوا دليلاً مهمّا على هويّة الصاروخ... اكتشف ضابط ارتباط الأمم المتحدة، النقيب ميخائيل لاندفال من الجيش السويدي، بين القطع المعدنية والشظايا، قطعة معدنية تحمل رقماً متسلسلاً واسماً.... كانت موجودة على بضع خطوات من النافذة الملطّخة بالدم حيث توفّيت حنين وهي تحمل شعار " AGM 114C" ورقم المصنع «٠٤٩٣٩».... وهناك حرف واحد مهمّ: "M" عرف ليندفال أن AGM تعني صاروخ جو ـ أرض و 114C تعني

قاذفاً بطول ١,٦ متر مثل الصاروخ المضادّ للدبّابات Hellfire وهما يصنّعان معاً من قِبل Rockwell International and Martin Marietta. ولدى روكويل التي أخذتها الآن شركة Boeing مركز رئيسي لصناعة الصواريخ (استناداً إلى المجلّة الأسبوعية Jane's Defense في بولفار ديليت في جورجيا، على بعد ثلاثين دقيقة بالسيّارة من أتلانتا. كان مارتن ماريتا، شريك لوكهيد حينها، يصنع الصواريخ في أورلاندو، فلوريدا، حيث صُنع الصاروخ الذي قتل أربعة أطفال لبنانيين وامرأتين.

هناك دعاية لصانع الصاروخ Hellfire تقول: «الجميع للواحد والواحد للجميع». هل كانت شهرة ألكسندر دوماس واسعة الانتشار إلى هذه الدرجة؟ ما هي العلاقة بين نداء الفرسان الثلاثة (أبطال قصص دوماس) الموحّد وهذا السلاح؟ كان هناك أيضاً سؤال آخر أكثر أهمّية: الآن وقد عُرفت هويّتهم، كيف سيجيب صانعو الصاروخ على حمّام الدم داخل سيّارة إسعاف المنصوري؟.

قدّم لاندفال لي القطعة التي تحمل الأرقام التسلسلية.. كانت مخدوشة وفي بعض الأماكن غير مقروءة، لكنها كانت تحمل رقم تخزين وطني ٤ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ ورقماً متسلسلاً «٠٢٩٣ ـ ١٩٢ ـ ٠١ ـ ١٤١٠» القسم الثاني من الرقم المتسلسل «٠١» يثبت أنه شديد الأهمية. كان الرقم المتسلسل للصاروخ MG188J315-534. ثم عثر الفيجيّون على الصاروخ الثاني غير المنفجر، صاروخ Hellfire، شبه مدفون قرب المسجد. كان الرقم المتسلسل كاملاً وكان من الممكن إعادة تحديد بعض الأشياء المفقودة في القاذف الذي انفجر داخل الإسعاف(*).

(*) حتى المأساة تتضمّن جانبها الهزلي القاتم. بعد بضعة أيام من تدمير سيّارة الإسعاف، طلبني لاندفال في بيروت ليقول إن الفيجيين عثروا على صاروخ Hellfire غير المنفجر. سألني: ماذا تريد من الفيجيين أن يفعلوا به؟ طلبت منهم إرسال الرقم المتسلسل للمعدن الموجود على القاذف. لم يكن لاندفال مسروراً. قال: «يبدو أنهم لم يفهموك روبرت، اعتقدوا أنك تريد الصاروخ بكامله. وجدتهم يقومون بتحميله على شاحنة لإحضاره لك إلى بيروت». نظرت لفترة قصيرة إلى وجه صاحب الشقّة المذعور عندما سلّم جنود الأمم المتحدة الصاروخ إلى شقّتي. لحسن الحظ كان الصاروخ بدون صاعق.

بطريقة ما، كان عليّ إرسال الجزء المرقّم إلى أميركا لتقديمه للمنتجين. كان السؤال الأوّل كيف أوصل هذه القطعة الحادّة ـ الدليل الحيويّ والوحيد على أن سيّارة الإسعاف قصفت بصاروخ هيلفاير Hellfire ـ من لبنان إلى الولايات المتّحدة. لم تكن هناك رحلة مباشرة. ولكن لم يكن صعباً شحنه على رحلة دولية من بيروت إلى باريس. وقد قام المسؤولون اللطفاء في مطار بيروت، وفي الطائرة التي ستنقلها، بوضع قطعة الصاروخ على رحلة الخطوط الجوّية الفرنسية إلى باريس. لكن عندما شرحت لرجال الأمن الأميركيين أنني أريد أخذها إلى واشنطن كاد الأمر ينتهي بكارثة صحفية. استشرت مدير محطة باريس لخطوط جوّية أوروبية أخرى. قال لي: «لا تفكّر في حمله معك بيدك، بوب»، بينما كان يتفحّص قطعة المعدن التي تحمل الرقم المتسلسل لصاروخ هيلفاير Hellfire «سوف يجدون آثار متفجّرات على يديك، دع القطعة التي تحملها في حقيبتك». أستطيع الآن أن أفهم ماذا كان يعني بقوله هذا. وأستطيع الآن تصوّر العنوان الرئيسي الذي كان سيصدر في الصحف: «صحفي بريطاني وجد بحوزته جزء من صاروخ في رحلة إلى واشنطن». وأستطيع حتى تخمين التعليق تحت العنوان.

لم تعد الكتلة الكبيرة الحادّة الآن صاروخاً بل قطعة من لوح صيني محطّم لكنّ كلمة صاروخ الواضحة يمكن أن تسبّب اضطراباً لدى أيّ موظف أميركي بعد كارثة TWA الأخيرة في نيويورك... وبعد خمس سنوات أضحى القيام بهذا العمل نفسه مستحيلاً. في النهاية، وافقت منظّمة العفو الدولية ـ المهتمّة بضحايا سيّارة الإسعاف في لبنان ـ على شحن أجزاء الصاروخ من باريس إلى مكتب واشنطن. بعد بضعة أيام، سافرت على الخطوط الجوّية الفرنسية إلى الولايات المتحدة، وأستطيع تذكّر إحساسي بالإثارة عندما توقّفت طائرتي لفترة قصيرة في نيويورك. وقفت مع الطاقم الفرنسي على درجات سلّم الطائرة في أوائل بعد الظهر، أنظر باتجاه ناطحات السحاب البعيدة والبرجيْن البنّيين الطويلين لمركز التجارة العالمي في الأفق الحارّ. أخيراً أستطيع الآن مواجهة صانعي الأسلحة بعواقب مهنتهم.

في واشنطن، تسلّمت قطع صاروخ هيلفاير Hellfire، في قلب العاصمة التي

لا يسمح تحالفها مع إسرائيل بأيّ انتقاد أو أيّ تعبير عن استياء. لم أكن لأستقلّ طائرة داخلية ليُقبض عليّ بواسطة جهاز كشف المعادن في مطار واشنطن (رونالد ريغان)... لذلك استقللت «كريسنت» وهو قطار سكّة حديد يصل إلى نيو أورليانز ويمكن أن يأخذني خلال الليل إلى جورجيا حيث وافق بوب ألغاروتي (من شركة بوينغ) على الاجتماع بي لمناقشة موضوع صاروخ Hellfire في بلد المنشأ بالضبط... كان يريد أن يشرح مميّزات الصاروخ، قدراته القتالية المجرّبة معتقداً خطأً أنه يفعل ذلك لمراسل صحفي يريد كتابة مقال حول فعاليّة الصاروخ ودقّته.

كانت واشنطن جميلة في نهاية هذا اليوم الربيعي.. بدا مبنى الكابيتول والمباني الحكومية الكبرى أشبه بروما القديمة. وعندما استيقظت في الصباح التالي المشرق في المقطورة المتوجّهة جنوباً، بدت المدن الأميركية الصغيرة النظيفة كأنها مجموعة من صنع هوليوود. كانت المنطقة الريفية الخضراء والبيوت الخشبية تمرّ قرب نافذة مقطورتي. كم كانت نظيفة تلك الحدائق الصغيرة بأزهارها ومراجيح الأطفال. هل كنت على بعد ستّة آلاف ميل فقط من لبنان أو في كوكب مختلف؟ كانت هناك كنائس أسقفية ومنازل من الطراز الجورجي ومدن تسمّى كورنليا ومانيوليا تمرّ قربي، ومحلّ أسلحة ـ في بلد يحقّ فيه لكل رجل أو امرأة حمل السلاح ـ اسمه Lock stock & bered. وكذلك العديد من سواري الأعلام المنكّسة كنت أستطيع رؤيتها من نافذة عربتي عند الفجر. وكانت عدّة أعلام منها أميركية ترفرف بفخر. لم تحصل حروب في هذه المناطق منذ ١٣٠ سنة بحسب اعتقادي.

نزلت في محطة غينسفيل Gainesville حيث أخذني سائق تاكسي ـ لديه سنّ واحدة باقية ـ إلى المخرج ٨٥ حيث شارع بتشتري Peachtree القديم. تخطّينا إشارة مكتوب عليها دولوث Duluth وأخرى بولفار ساتيلايت وعندها وعلى بعد ثلاثة أميال انعطفنا إلى مجمّع مؤلّف من مبنيَين مخفيين خلف أشجار طويلة ومروج. كُتب على اللوحة عند المدخل: "Boeing Defense & Space Group".

كان ذلك بعد ظهر يوم مزعج. وكان يوجد نموذج صغير مطلّي بالأخضر

لصاروخ هيلفاير Hellfire على رفّ في الغرفة حيث قدّمني بوب ألغاروتي من بوينغ إلى اثنين من المديرين التنفيذيين المتورّطين عن قرب في إنتاج الصاروخ. كانا رجلين حادّي الذكاء.. ضابطين سابقين خدما في فيتنام.... طلب الاثنان لاحقاً عدم ذكر اسميهما (من أجل أمنهما على ما يبدو) رغم اهتمامهما بردّة فعل بوينغ على المقابلة التي بدت بعيدة تماماً عن أيّ ضغط لحزب الله أو «الإرهاب».

شرحت لهم أنني مهتمّ بالكتابة حول قدرات صاروخ وأيضاً حول استخدامه المحدّد في الشرق الأوسط. قام المدير التنفيذي إلى يميني ـ كان برتبة كولونيل في فيتنام ـ بإحضار كتيّب لامع يشرح بالتفصيل تطوّر نظام صاروخ هيلفاير.. وضعه على الطاولة بيننا. كانت الصفحة الثانية تضمّ سلسلة من أقسام الصاروخ الصغيرة وبعدها تواريخ ١٩٨٢ ـ ١٩٨٩ ورقماً تسلسلياً AGM 114A,B,C. كانت الشظية، التي كانت ما تزال مجهولة من رجال بوينغ، موجودة في حقيبة الكاميرا ومكتوباً عليها AGM 114C. إذن، فإن الصاروخ الذي قتل عائلة عبّاس جحا، ونوكل وابنة أخيها، عمره سبع سنوات على الأقلّ.

وقام الكولونيل بتعداد الدول التي اشترت الصنف الأول أو لاحقاً الصنف المتطوّر من صاروخ هيلفاير. وكانت إسرائيل الأولى على اللائحة في الصنفيْن... قال الكولونيل بإعجاب، مضيفاً ملاحظة قرّرت إهمالها في الوقت الحاضر: «إنهم يأخذون العمل العسكري بجدّية»... لكن كانت مصر وجنوب أفريقيا والإمارات العربية المتّحدة ضمن اللائحة أيضاً. وقد اشترت السويد والنروج نوعاً مضاداً للسفن من هذا الصاروخ. وكان للإنكليز علاقة بالصنفين. كان إنتاجاً مشهوراً... وكان الكولونيل قاطعاً في شرح السبب. قال: «إنه حتماً السلاح المضادّ للدروع الأكثر دقّة في العالم. تستطيع إطلاقه إلى داخل سلّة لعبة كرة السلّة عن بعد خمسة أميال وتستطيع القيام بذلك في أيّ وقت». إذن، فإن النساء والأطفال في سيّارة الإسعاف بحسب رأيي لم تكن لديهم فرصة للنجاة.

فهمت بسرعة ماذا يعني ذلك؟ كان رجال بوينغ يمدحون بدقّة أسلحتهم كجزء من هدفهم الإنساني: كلّما كان صاروخ هيلفاير دقيقاً كان المدنيون أقلّ

عرضة للموت. وعلى ذلك تبرز المشكلة عندما يوجّه السلاح تحديداً إلى هدف مدنيّ كما كان الوضع بالنسبة إلى الاسرائيليين في لبنان حيث ضمنت دقّة الصاروخ مقتل المدنيين. لذلك سألت ما هي عمليات المراقبة التي تقوم بها بوينغ بالنسبة إلى استخدام صاروخ هيلفاير Hellfire في الدول التي اشترته. قال المديران التنفيذيان: «نقرأ التقارير». سألت: عن إسرائيل؟ أجاب أحدهما: «لا نحصل على معلومات من الإسرائيليين حول ما فعلوه. إنهم لا يعطون الكثير من المعلومات».

حان الوقت لإظهار شظيّة الصاروخ. وبينما انحنيت لإحضارها من حقيبة الكاميرا، شعرت بالجوّ يتكهرب خلفي. استدرت ووجّهت قطعة الحديد التي ساعدت في قتل اللبنانيين إلى وسط الطاولة. أبلغت الرجال الثلاثة تاريخ استخدامها، والمكان والنتائج المترتّبة وتفسير إسرائيل. أخذ الكولونيل القطعة، وتفحّصها بيده ثم تمتم شيئاً حول صعوبة معرفة النوع من شظيّة صغيرة. كان ذلك سخيفاً. فهو يستطيع قراءة الأرقام على المعدن المتبقّي من الصاروخ. لقد فهم ماذا تعني الشظيّة أكثر مني. لم يقل زميله الذي كان إلى يساري شيئاً وحدّق بالشظية ثم نظر إليّ. ثم قام رجل العلاقات العامّة، بوب ألغاروتي، بعد أن أخذ القطعة بيده ونظر إلى زميليه، وقال بهدوء: «أجل إنه صاروخ هيلفاير Hellfire نحن نعلم ذلك جميعاً».

ثم قال: «إنني أشعر بشيء من الضيق». لكن الكولونيل كان غاضباً. قال: «هذا بعيد عن القاعدة، هذا سخيف». اعترضت، فقد صنع هؤلاء الرجال الصاروخ. ألا يتحمّلون بعض المسؤولية لاستخدامه ـ على الأقلّ مسؤولية التأكّد أنه يُستخدم بمسؤولية من قِبل الزبائن؟. هل كان يكفي الاطّلاع على ذلك بعض الدقائق غير المريحة. اشتكى ألغاروتي قائلاً: «إنك لا تستطيع لوم صانع السكّين إذا استخدمه أحدهم لقتل شخص آخر». قلت: «أجل، لكن ذلك لم يكن سكّيناً، كان صاروخ هيلفاير Hellfire مضاداً للأفراد، أليس كذلك!». ردّ الكولونيل بغضب: «إنه سلاح مُضادّ للمدرّعات». بعدها خيّم الصمت لأنه بالتأكيد إذا كان الصاروخ مُضاداً للدروع، فإنه لم يكن بالتأكيد سلاحاً مضاداً لسيّارة إسعاف.

سأل أحد التنفيذيين: «هل أنت جزء من الحملة الصليبيّة». قلت: «أعتقد أنها ملاحظة سيّئة(*)».. تدخّل ألغاروتي مقاطعاً بهدوء ليوافق معي.. كرّرت كلامي: «نحن نتعامل مع موت الناس الأبرياء بمن فيهم أربعة أطفال»... سألني أحد الرجال ماذا أريد؟ وللحصول على بعض التعاطف منهم أجبت عن السؤال. قال أحد الرجال في الغرفة: «أنا كإنسان عندي مشاعر بالتأكيد، لكن كموظف في شركة بوينغ فإن كل ما نقوم به هو صناعة صواريخ». عندها وافقت على إراحة قلمي بينما كان الرجال الثلاثة يناقشون كيف يستطيعون إعطاء تصريح حول مشاعرهم. شعر المديران التنفيذيّان باضطراب شديد إزاء الأحداث التي وصفتها، كانا من أرباب العائلات وأرادا التعبير عن استيائهما لموت الأبرياء. لكنهما لا يريدان توريط بوينغ... كما أنهما كانا بوضوح خائفين من انتقاد إسرائيل. خلال فترة بعد الظهر كان يمكن سماع رجل من بوينغ يردّد مرّتين بكلمات متشابهة (وقد كتبت ذلك في مفكّرتي): «مهما قلت، لا أريد منك أن تنقل عني أي شيء انتقادي ضدّ سياسات إسرائيل».

هنا كان لبّ المسألة. كان هؤلاء الرجال، صانعو الأسلحة ـ الأقوياء جدّاً، الجزء الذي لا يقاوم من نظام الدفاع الأميركي، الوطنيون جدّاً في تبريراتهم، المعتبرون جزءاً ثابتاً جدّاً من تاريخ القوّات المسلّحة الأميركية في فيتنام ـ خائفين من مهاجمة إسرائيل، جزعين من أن كلمة صغيرة من الانتقاد ستؤذي أو ستنهي عملهم أو سترسل بهم إلى أعماق أزمة سياسية داخل شركة صناعة الطيران، هي من الخطورة بحيث أنها ستقضي على وظائفهم إلى الأبد. قال الرجل: «مهما قلت...».

عندها اتّخذ أحد التنفيذيّين قراره: «دعني أتحدّث كجندي وليس كموظف في شركة بوينغ. ليس هناك جندي محترف يتغاضى عن قتل أناس أبرياء كأهداف. لقد تدرّبنا على حماية السلام... بالتأكيد، تشعر شركة بوينغ بالاضطراب إذا أسيء استخدام أسلحتها أو إذا جرى توجيهها ضدّ أشخاص

(*) وهي كانت سيّئة مرّتين بالنسبة إلى شركة بوينغ... فقد استُخدم سؤال المدير التنفيذي هذا كأحد العناوين لتقريري في الإندبندنت يوم الأحد ١٨ أيار/مايو ١٩٩٧.

أبرياء. لكننا نبني أنظمة أسلحة وفقاً لاحتياجات الولايات المتّحدة، ونحصل على موافقة للبيع لعدّة دول متنوّعة... نحن لا نبيع صواريخ مخصّصة لأهداف غير عسكرية».

أخرجت من حقيبتي الصور التي أخذتها نجلا أبو جهجاه للضحايا. وضعتها على الطاولة، صور الدم والأطراف المقطّعة. نظر المسؤول التنفيذي إليها بنفور، ثم قال: «لا أريد هذه». ثم رمى صور القتلى والجرحى من عائلة جحا على الطاولة المطليّة. نظر الكولونيل إليها ثم أعادها إليّ بلطف. افترقنا بعد المصافحة وشعرت بحزن شديد تجاه هؤلاء الرجال. كانوا محترمين، نشطين، موظفين مخلصين لروكويل (الآن بوينغ) وكانوا مصدومين من قصّة سيّارة الإسعاف. أرادوا إظهار تعاطفهم ـ وفعلوا ذلك إلى حدّ ما ـ لكنهم كانوا حريصين جداً على تجنّب أي تهجّم على بوينغ أو على إسرائيل. طلبت منهم الاحتفاظ بشظيّة الصاروخ Hellfire. كنت أعيدها إليهم. وبينما كنت أغادر الغرفة سمعت صوتاً خلفي يقول: «لا أعتقد أننا سنضع هذه في غرفة جوائز الامتياز».

وهكذا انتهت قصّتي. وقد نشرت صحيفة الإندبندنت ليوم الأحد روايتي المفصّلة عن الهجوم الإسرائيلي على سيّارة الإسعاف والرحلة الطويلة إلى جنوب الولايات المتحدة لإيجاد صانعي السلاح. وعلى الصفحة الأولى، نشرت الصحيفة صورة ملوّنة لشظية الصاروخ مظهرة بتفصيل دقيق الأرقام المتسلسلة التي نجت من الانفجار. لكن بعد يومين تسلّمت رسالة من تقنيّ صواريخ أوروبي، طلب عدم ذكر اسمه، قال إنه يريد بعضاً من تسليط الضوء على الحقوق الإنسانية لهؤلاء الأشخاص الذين قُتلوا في سيّارة الإسعاف. ثم تابع قائلاً:

> «إن القطعة المهمّة للدليل، شظيّة الصاروخ، تنطق أكثر مما كشفت. إن رقم تخزين الناتو NSN قد أزيل جزئيّاً لكنّه يعطي دليلاً مهمّاً. إن NSN هذا مؤلّف من إشارات رقمية ٤ك٢ ـ ٣ك٤ متسلسلة... والقسمان الرقميان هما إشارة إلى الرمز الخاصّ بكلّ دولة. كل دولة في حلف الناتو لها أرقام تسلسلية تعرّف بجنسيّتها ـ في هذه

> الحالة، بدا ظاهراً بوضوح أن «٠١» يرمز إلى الولايات المتّحدة. مما يدلّ على أن السلاح بالأساس كان مرسلاً للقوّات الأميركية... رقم المجموعة هو الأكثر أهمّية لأنه يدلّك أين تمّ تسليمه وسترى أن القسم الأول من الرقم المتسلسل للشحنة قد أزيل، ويبدو أيضاً أن ذلك جرى بواسطة أداة نحت تمّ الضغط بها على اللوحة.. أما الضرر الآخر فهو من طبيعة التكسير المرتجل السريع. إذن مَن أزال رقم الشحنة؟ القوّات الإسرائيلية عندما تتسلّم أسلحة أميركية مصدّرة بشكل غير قانوني؟ القوّات الأميركية قبل تسليمها؟ من الواضح أن هذا الصاروخ... صدر من مخزون الحكومة الأميركية وأعطي لإسرائيل سرّاً».

أنهى الكاتب قصّته بتحذير، قائلاً إن عليّ الحرص في ما أقول على الهاتف حول التحقيقات عن الصاروخ لأن كل الاتصالات عبر الأقمار الصناعية مراقبة من وكالة الأمن القومي الأميركية في منويز Menwith قرب هاروغيت Harrogate: «تعريض أمن حلف الناتو للخطر» ستكون التهمة ضدّي... لذلك عليّ أن أتوخّى السرّية في تناول الرسالة.

كنت كتوماً... راسلت صديقة في فرنسا وطلبت منها الاتصال بكاتب الرسالة المجهول. بعد بضع دقائق كانت على الهاتف: «اتصل بي من هاتف عمومي. يريد منك أن تقابله غداً على الغداء في فندق لوتتيا في باريس». صباح اليوم التالي، استقللت أول رحلة من بيروت، إلى باريس عند الساعة الثامنة في الطائرة نفسها التي سافرت عليها مع قطعة الصاروخ قبل أيام قليلة. في مطار شارل ديغول أخذت سيّارة أُجرة إلى الدائرة السادسة من باريس.. كان هذا نوع من الفرض أو التكليف الذي سوف يحوّلني إلى البحّار القديم الذي كنته، وسيكون صاروخ Hellfire طائر النورس الخاصّ الذي يحملني.

وصل التقنيّ مع زوجته إلى باريس، ذهب مباشرة إلى صُلب الموضوع، «سيّد فيسك، لم يتمّ بيع هذا الصاروخ أبداً للإسرائيليين. رقم «٠١» يدلّ أنه بيع للقوّات المسلّحة الأميركية. ويثبت الحرف "M" أنه بيع للبحرية الأميركية». هل

كان على حقّ؟ أخرج من جيبه لائحة رموز كلّ أسلحة الناتو.. على سبيل المثال: أسلحة إسرائيل المستوردة من الناتو تحمل الرقم «٣١».. رقم بريطانيا المتسلسل هو «٩٩» إيطاليا «١٥». لكن شيفرة الجنسيّة للولايات المتّحدة كانت بشكل واضح «٠١»، أي الرقم الذي كان على شظيّة الصاروخ. والحرف "M" كان للبحرية الأميركية.. لذلك كيف بحقّ السماء تمّ إطلاق صاروخ تابع للبحرية الأميركية من قِبل الإسرائيليين إلى داخل سيّارة إسعاف في جنوب لبنان؟. اتصلت برئيس التحرير أندرو مار الذي قال: «بوب، يبدو أنك ستضيف بعض الأميال الجوّية. عد إلى واشنطن».

فعلت ذلك.. قدّمت طلباً رسمياً للبنتاغون أعطيتهم فيه التفاصيل الكاملة حول أرقام الصاروخ طالباً منهم «معرفة المصدر الصحيح لهذا الصاروخ... هل مرّ عبر أيدي الجيش الأميركي؟ وإذا كان الأمر كذلك، كيف وصل إلى قوّات الدفاع الإسرائيلية؟ ما الإجراء الذي اتخذته الحكومة الأميركية بعد يوم ١٣ نيسان/أبريل؟»... لم أحصل على ردّ. وبالفعل، وبعد أكثر من ثلاثين اتصالاً من قبلي إلى وزارة الدفاع ووزارة الخارجية، عبر الفاكس أو مباشرة، أعطيتهم بواسطتها الرقم المتسلسل لهذا الصاروخ، والرقم المتسلسل للصاروخ غير المنفجر الذي أُطلق على سيّارة الإسعاف والذي أخذنا منه بعض البيانات التي كانت غير واضحة على الصاروخ المتفجّر، ولم يكن أي مسؤول حكومي أميركي في وزارة الدفاع أو الخارجية مستعدّاً لإعطائي أيّ معلومات. «بعض الأسئلة تأتينا إلى وزارة الدفاع حاملة معها نوعاً من جالب النحس، ويبدو أن أسئلتكم كانت تحمل جالب نحس كهذا». هذا ما قاله لي مسؤول في وزارة الدفاع خلال اتصال آخر دون جدوى إلى مكتبه.

لكنّ البحرية الأميركية اتخذت موقفاً مختلفاً.. فعندما أرسلت إليهم فاكساً بتفاصيل أرقام الصاروخ والهجوم على سيّارة الإسعاف، جاءني الردّ فوراً في اتصال من قِبل الناطقة باسم قيادة البحرية.. قالت لي: «لا نحبّ أن تُستخدم صواريخنا في مهاجمة الأطفال.. أين تنزل؟». انتظرت في اليوم التالي في فندقي قرب مستديرة دوبون.. وفي الساعة الخامسة والنصف وصلت سيّارة أخذتني

إلى قاعدة بحرية خارج واشنطن حيث كان سبعة رجال بلباس مدني بانتظاري للحديث معي. جلسنا في غرفة طعام الضبّاط الذين تفحّصوا صور أجزاء الصاروخ قبل أن يبلغوني قصّة صاروخ Hellfire رقم MG188J315-534.

كان هناك حوالي ٣٠٠ صاروخ شُحنت إلى الخليج من قِبل البحرية الأميركية عام ١٩٩٠ لاستخدامها ضدّ جيش صدّام حسين في الكويت. تمّ إطلاق ١٥٩ صاروخاً منها على القوّات العراقية ـ مع أن البحرية الأميركية كتبت تقريراً في ذلك الوقت يقول إنّ بعض الصواريخ أصابت العربات العراقية دون أن تنفجر، أي مثل الصاروخ الثاني الذي أطلقه الطيّار الإسرائيلي على سيّارة الإسعاف اللبنانية ولم ينفجر عام ١٩٩٦ ـ لكن عندما انتهى النزاع، أبلغني ضبّاط البحرية أن حوالي ١٥٠ صاروخ Hellfire غير مستخدم مع عتاده وضِعت في مخزن الذخيرة في ميناء حيفا في إسرائيل من قِبل بارجة أميركية كجزء من التعويض ـ هديّة لإسرائيل ـ لبقائها خارج حرب الخليج عام ١٩٩١ حين كانت معرّضة لهجوم صواريخ سكود العراقي.

اتصلت بالجنرال غوس باغونيس الذي كان القائد اللوجستي للجيش الأميركي خلال حرب ١٩٩١ ضدّ العراق، وقد أكّد لي أنّ: «كلّ شيء أخذناه من السفن (في السعودية) أرجعناه إليها عند عودتها إلى أميركا». لكن باغونيس (الذي يعمل الآن رئيساً للتجهيز في سلسلة سيرز روْبَك Sears Roebuck للمخازن)، أضاف ما معناه أنه «لا يعرف ما إذا كانت السفن توقّفت في مكان ما في طريق عودتها». والحال أنها توقّفت بالفعل... فبعد عبورها قناة السويس، أنزلت البحرية الأميركية صواريخ Hellfire وصواريخ أخرى على الشاطئ في شمال إسرائيل(*).

في حال بيع الصاروخ لإسرائيل فإن شروط استخدامه تُرفق به... لكن ذلك

(*) وجد المفتّش العامّ لوزارة الدفاع لاحقاً أن ١٨٨ صاروخ ستينغر فُقدت من مخازن السلاح الأميركية عام ١٩٩١ خلال نزاع الخليج. في السنة نفسها، اعترف مكتب التدقيق العامّ العسكري الأميركي أن ٢١٨٥ صاروخ ستينغر دراغون وريدايس اختفت من مخازن الأسلحة الأميركية ـ الأوروبية. أين ذهبت؟.

كان تحويلاً عسكرياً مباشراً من المخازن الأميركية... دفعت البحرية ثمن الصاروخ لكنها أرسلته أخيراً إلى الإسرائيليين ولم يحصل أيّ استجواب.. وبعد خمس سنوات كان الصاروخ يُطلق على الجزء الخلفي من سيّارة إسعاف. وهكذا قتل صاروخ بحرية أميركي أربعة أطفال وامرأتين في جنوب لبنان(*).

(*) بالنسبة إلى الجيش الأميركي، كان ذلك مجرّد استفزاز صغير.. كانت قدرة إسرائيل الظاهرة دون رادع على سلب أسلحة من المخازن العسكرية الأميركية تقلق وتثير غضب الضبّاط العاملين والمتقاعدين في القوّات المسلّحة الأميركية الذين تحدّثوا إليّ، خلال أسبوعَي التحقيق الذي قمت به في الإندبندنت حول عمليات تحويل السلاح إلى إسرائيل، وأعربوا عن غضبهم وهم يشاهدون آلاف الدبّابات والمدرّعات تؤخذ من المخازن الأميركية خلال عشرين عاماً وتُرسل إلى إسرائيل رغم اعتراضات وزارة الدفاع. في أواخر ١٩٧٠ واستناداً إلى ضابط كان يخدم في أوروبا الغربية، عارض كبار الضبّاط الأميركيين سحب كمّيات كبيرة من الأسلحة من ألمانيا لإرسالها إلى إسرائيل. «كنت في مقرّ القيادة في ألمانيا مع رئيس أركان القوّات المشتركة وقد خرج يوماً عن طوره، وقال لي: لقد جاءتنا أوامر بتسليم مئات الدبّابات خلال فترة وجيزة... وكان ذلك في أوج الحرب الباردة. كنا نقف عند فجوة فولدا وكان حلف وارسو من الجهة الأخرى أمامنا، وكنا نصرخ أننا نبدّد نقاط قوّتنا في مرحلة من أعلى مراحل التوتّر الأوروبي حدّة. وكان الجنرال يقول «إلى الجحيم» استخدم تماماً هذه الكلمات ـ ولكنه كان مستبعداً من عملية اتّخاذ قرار.. كانت وزارة الدفاع تنفّذ تعليمات بتسليم الدبّابات. لم نقم بذلك طواعية». وروى لي ضابط في سلاح الجوّ كيف أنه خلال الفترة نفسها عاد من إجازة إلى قاعدته الجوّية في الولايات المتحدة ليكتشف أن نصف سرب الطائرات قد أعيد طلاؤه بعلامات إسرائيلية، قال: «بقي لدينا ٥٠ في المئة فقط من السرب، كنت مذهولاً.. لم تتمّ استشارتي، وقيل لي إنه يجب إرسالها إلى إسرائيل وأننا بدون عمل لفترة من الوقت. رسمياً، كان إرسال الأسلحة إلى إسرائيل يحتاج إلى فترة ثلاثين يوماً من الإشعار المسبق... وتحتاج معدّات رئيسية أميركية عسكرية بقيمة تتعدّى ١٤ مليون دولار إلى موافقة من الكونغرس.. لكن كمّيات بقيمة أقلّ من ١٤ مليون دولار لا تحتاج إلى ذلك. «وكان أيّ شخص في الإدارة ينتقد إرسال أسلحة إلى إسرائيل يعرف أن ذلك لن يخدم مستقبله السياسي». إن اللوبي الإسرائيلي قويّ جدّاً جدّاً، ولن يتعرّض للانتقاد».. في الواقع، بعد استخدام الجيش الإسرائيلي قنابل انشطارية أميركية مضادّة للدبّابات، ضدّ المناطق المدنية في بيروت الغربية عام ١٩٨٢، جرى تأنيب إسرائيل في واشنطن. أوقف الرئيس ريغان تسليم الطائرات من القاعدة الجوّية في دوفر إلى إسرائيل وكانت تشتمل على طائرات ف١٥ أو ف١٦ مقاتلة ـ قاذفة أميركية بينما كانت لجنة الكونغرس تحقّق في استخدام القنابل الانشطارية في لبنان. ولكن حتى بعد رفع الحظر عن كشف المعلومات المصنّفة سرّية، فإنها شطبت من التقرير النهائي.. وقد رفضت الإدارة الأميركية نشر كامل ما توصّل إليه تقريرلجنة الكونغرس على قاعدة أن فقرات الجلسات كلها كانت مصنّفة سرّية. كانت كلمة «مصنّفة سرّية» هي الكلمة التي استُخدمت غالباً في واشنطن=

وهناك في واشنطن كان من المفترض أن تنتهي رحلتي.... لولا رسالة من بوب ألغاروتي من شركة بوينغ. . يمكن القول إنها كانت محيّرة إلى حدّ كبير...، فهو يقول إن رجاله فحصوا شظيّة الصاروخ التي تركتها معهم، «وهم يعتقدون بأنها صُنعت في مصنع أورلاندو في فلوريدا من قِبل لوكهيد مارتن التي كانت في ذلك الوقت شركة منافسة... لكنّ القصّة لَم تكن بهذه البساطة. ذلك أن «الرقم المتسلسل الفدرالي» المتضرّر جزئياً بالانفجار يُظهر الأرقام ٠٤٩٣٩، وهذه (على الأقلّ الأرقام الأخيرة) تدلّ بشكل نهائي على أنه يجب أن يكون الصانع إما نحن وإما مارتن ماريتي». لم يكن ذلك قاطعاً بما فيه الكفاية.. فإذا كان الأمر بين روكويل (الآن بوينغ) أو مارتن ماريتا (الآن لوكهيد مارتن) فمَن منهما صنع هذا الصاروخ القاتل؟ إن صاروخ Hellfire الذي أطلقه الإسرائيليون على سيّارة الإسعاف صُمّم بشكل واضح وطوّر من قِبل بوينغ في دولوث. وبدا الآن أن الصاروخ بحدّ ذاته ربّما جرى تجميعه من قِبل لوكهيد. هناك الكثير من المال في هذا الموضوع.

قالت بوينغ التي رفض مقرّ إدارتها العامّة في سياتيل إضافة أيّ شيء إلى ما قالوه لي في دولوث، أنها لم تتصل بلوكهيد مارتن بخصوص التحقيق الذي

= عندما كنت أسأل عن تحويل الأسلحة... وتتضمّن الملفات الوطنية للكونغرس مراجع عديدة حول «عمليات تحويل مصدّقة قانونياً» إلى إسرائيل... لكنها ليست مُتاحة للرأي العامّ. لم يوجد أحد في واشنطن قادر على أن يفسّر لي في حزيران/يونيو ١٩٩٧، على سبيل المثال، لماذا احتاجت إسرائيل (ولماذا أُعطيت) ٩٨ ألف قذيفة مدفعية جديدة من مخزون الولايات المتحدة. أبلغني محلّل عسكري أميركي ـ صنف يحبّ الدعاية في الظروف العادية إلا أنه أحجم في هذه القضيّة ـ أن «كمّية ضخمة من القنابل حُوّلت إلى إسرائيل ولا أحد يعرف شيئاً عن ذلك. وقلّل العسكريون هنا من حجم التحويل وقالوا إنهم أرادوا التخلّص من بعض العتاد العسكري لأنه قديم. لكن كمّية مماثلة من المعدّات الجيّدة غادرت مخزوننا إلى إسرائيل بدون إذن. لقد مرّت عبر القنوات القانونية لكن لم يكتب أحد تقريراً عنها أو جرى التحقيق فيها.. لا أحد سأل أين استُخدمت وكيف استُخدمت... وفي حال أنها قتلت أبرياء فهل تعتقد أن إدارة كلينتون سوف تؤلّف أغنية حولها وترقص لها؟ سيقولون بأن انتقاد إسرائيل قد يهدّد عملية السلام... لقد أُعطيت لإسرائيل كلّ الضمانات الممكنة بأنها لن تُمسّ».

كنت أقوم به. لكن عندما اتصلت بآل كمحي، مدير الاتصالات لدى لوكهيد، والذي كان بالصدفة في رحلة عمل إلى لندن، عرف بالضبط فيمَ كنت أحقق، وسأل بحدّة: «أنت تتكلّم حول ما ناقشته مع روكويل؟... أعني أنه ليست لديّ وسيلة لمعرفة أيّ صاروخ كان ذلك... ليست لديّ طريقة لمعرفة ما إذا كان ذلك الصاروخ قد جاء من حيث قلت إنه جاء... إن جماعة بوينغ يمكن أن يكونوا مقتنعين بقدر ما يريدون.. أمّا في ما يتعلّق بي، فأنا لن أعمل على فحص شظايا صاروخ من... إن منشأها مجهول كلّياً ـ أنا ببساطة لن أقوم بذلك».

سألت: «هل أستطيع إعطاؤك إيّاها؟». وأصبحت محادثتنا غير عادية تقريباً:

كمحي: كلّا، لن أقبلها.

فيسك: لن تقبلها؟

كمحي: كلّا.

فيسك: أتستطيع أن تخبرني لماذا تقول كلّا يا سيدي؟ أعني أن هذا يتعلّق بموت أربعة أطفال وامرأتين في سيّارة إسعاف.

كمحي: لا أعلم ما إذا كان لهذا الصاروخ دخل في ذلك. أعني لا أستطيع التعليق على شيء لا معلومات لديّ عنه.

فيسك: حسناً، أنا أقدّم لك معلومات بحيث تستطيع التحقّق منها، يا سيّدي إن بوينغ تبدو مقنعة أنها صُنعت من قِبل جماعتكم.

كمحي: لست متأكّداً إن كنتُ أفهم ـ إذا كان أو إذا لم يكن ـ ما هي القضية هنا؟.

أبلغت كمحي أنني أريد معرفة تعليق الشركة التي صنعت هيلفاير Hellfire على الأحداث التي حصلت عندما استُخدم صاروخها، أجاب: «ليس لديّ أيّ تعليق حول ما جرى، إنني حتى لن أدخل الحلبة... لقد تمّت مبيعاتنا من خلال مبيعات عسكرية أجنبية... هذه هي الطريقة التي تمّت بها، من خلال البنتاغون». كرّرت القول إن ضبّاط الأمم المتّحدة وجدوا الصاروخ في سيّارة الإسعاف

إضافة إلى صاروخ هيلفاير Hellfire آخر لم ينفجر. ليس هناك أدنى شكّ حول مصدرهما. لكنّ محادثتنا استمرّت بطريقة غريبة.

كمحي: حسناً، بصراحة، لا علاقة للصاروخ بالصانع.

فيسك: لكنك صنعته.

كمحي: حسناً، نصنع أشياء كثيرة، أيضاً.... بيعت منتجاتنا لدول الحلفاء...

فيسك: هل يتضمّن ذلك إسرائيل؟

كمحي: أعتقد أنه إذا كان لدى اسرائيل صواريخ فإن ذلك يعني أنهم اشتروها عبر القنوات القانونية وبطرق قانونية.

فيسك: لكنّني أعني، هل تهتمّون بكيفيّة استخدام صواريخكم من قِبل هؤلاء الأشخاص الذين بعتموهم إيّاها؟ أعني أن هذه نقطة مهمّة، سيّدي.

كمحي: آسف، لن أقوم بتشريف هذا السؤال بجواب، إنه ليس سؤالاً مربحاً... لن أردّ على ذلك... السؤال الذي سألته «هل توقفت عن ضرب زوجتك؟» سؤال ليس مهمّاً كيف أجيب عنه، أصبحنا كلّنا فجأة المصنع الشرّير للصاروخ. نصنع صواريخ، نصنع أنظمة ألكترونية، نصنع أنظمة دفاعية متنوّعة، وأمنيتنا ألّا تُستخدم أبداً، لا نعلم إذا كان أسيء استخدام الصاروخ، يمكن للصاروخ أن يخطئ...

شرحت لكمحي أن الإسرائيليين اعترفوا بأن سيّارة الإسعاف كانت الهدف.. فقال: «عليهم تحمّل مسوؤلية ذلك»... لكن عند هذا الحدّ، وعندما قلت له إنّ حكومة الولايات المتّحدة مهتمّة شخصياً بموضوع استخدام سلاح بلادها من قِبل الزبائن، بدّل كمحي لهجته، جزئياً فقط.. قال: «نحن دائماً مهتمّون عندما يُصاب أحد ما، أما في ما يتعلّق بموضوع لماذا استُخدم الصاروخ... فليست

هناك طريقة نستطيع من خلالها السيطرة على الأمر أو فهم لماذا يحدث ذلك... ليس لدينا أي دور في ذلك... أنت تعلم، في كلّ يوم يُقتل ٦٠٠ شخص في أميركا، ولا مرّة بحسب علمي عاد أحدهم واستجوب صانع الرصاصة».

وهكذا استمرّ الحديث وكمحي أكثر إثارة من أيّ وقت... كرّر لي أنه لم يعلم ما إذا كانت الإسعاف هي الهدف المقصود ـ ومجدّداً عرضت عليه مستنداتي مع صور شظيّة الصاروخ. ردّ بنفاد صبر: «لا أستطيع الجزم، لم أكن أنا من ضغط على الزناد، لم يكن لوكهيد مارتن هو الشخص الذي كان هناك يطلق الصاروخ.. في نهاية الأمر يجب أن تقع المسؤولية على المستخدم... ليست مهمّتنا نحن، المصنع، الذهاب قُدماً واتخاذ موقف في قضيّة كهذه».

كانت ردود كمحي يائسة، سيّئة. لكن كانت رسالته واضحة. إذا أُطلق صاروخ أميركي على سيّارة إسعاف، فإن الذين صنعوه سينفون بشراسة أيّة مسؤولية عن ذلك. كان على إسرائيل أن تشرح الأمر.. وهي عندما فعلت ذلك (موافقة على أن ذلك كان ضدّ كلّ قوانين الحرب، إذ إنّ صاروخ Hellfire أُطلق عمداً على سيّارة الإسعاف) كانت أميركا صامتة. اكتملت المعادلة. فقد ظهر أن بإمكان إسرائيل القيام بما تريد. وليست لدى لوكهيد النيّة للتعاون مع تحقيقنا ـ وذلك، في اعتقادي على الأقلّ، لأن لوكهيد تشارك الآن في تطوير صاروخ مع شركة الملاحة الجوّية الإسرائيلية رفايل.

وافق كمحي أن أُرسل إليه في فندقه في لندن رزمة من التقارير الإخبارية حول قتلى سيّارة الإسعاف مع الرقم المتسلسل للصاروخ وصور شظيّة الصاروخ التي تركتها عند بوينغ. لذلك أخذت في اليوم التالي قطار النفق من باريس إلى لندن. سافرت والرزمة برفقتي عبر ربيع الريف المنعش في «كينت» وعبر مدينتي بالذات مايدستون. وكانت رحلة طويلة ـ منذ تركي قرية المنصوري اللبنانية الجنوبية ـ إلى فندق بريتانيا في لندن حيث كان يقيم آل كمحي. لم يكن في غرفته، لذلك تركت الرزمة لدى مكتب الاستقبال آخذاً وعداً بأنها ستسلّم إلى السيّد كمحي باليد عند عودته إلى الفندق.

بعد ثلاثة أيام، وصلت الرزمة نفسها ـ مفتوحة ثم مربوطة مجدّداً ـ إلى المكتب الخارجي لصحيفة الإندبندنت في لندن.

مُرتجع للمرسل.

الفصل الرابع

حتّى إلى الملوك يأتي ......

كيف أستطيع أن أمضي بسلام وبدون ندم؟ كلّا، ليس بدون جرح في النفس أمضي تاركاً المدينة.

طويلة كانت أيّام الألم التي أمضيتها بين جدرانها وطويلة كانت ليالي الوحدة. ومَن يستطيع التخلّص من وحدته وألمه بدون ندم؟ تبعثر الكثير من أجزاء الروح في هذه الطرقات.... ليست قطعة ثياب خلعتها هذا اليوم، لكنها جلد مزّقته بيدي.

جبران خليل جبران ـ النبي

كان منزلي في بيروت «صندوق زمن» لأكثر من ثلاثين عاماً.. أي مكاناً توقّف الزمن فيه وجمد. فكم من مرّة جلست على شُرفتي المطلّة على المتوسّط في حرارة الصيف الرطبة كما في عواصف الشتاء، أراقب الأفق في منتصف ليل مضاء بأنوار متشعّبة متنوّعة... فيما الأمواج تلمع فجأة بلونها الذهبي وتنساب تلقائياً تحت شقّتي. وكم من مرّة استيقظت في سريري لأسمع حفيف سعف النخيل التي تحرّكها الرياح في الخارج ليلاً، والمطر يطرق بقوّة على النوافذ حيث تتجمّع قطرات الماء ثم تنساب من أسفل تلك النوافذ الفرنسية وتدخل إلى غرفتي. لقد جئت إلى لبنان في العام ١٩٧٦ وكان عمري ٢٩ سنة.. ولأنني عشت هناك منذ ذلك الحين، ولأنني كنت أقوم بالعمل نفسه منذ ذلك الحين، أي تأريخ الخيانات والخداع وخيبات الأمل في تاريخ الشرق الأوسط طيلة تلك السنوات ـ فإن عمري ما زال ٢٩ سنة. أصبح سائقي عبد أكبر سنّاً. لقد كنت

ألاحظ انحناءه في الصباحات التي كان يحضر فيها الصحف، الصحف الصباحية الصادرة في بيروت وصحيفة الإندبندنت المتأخّرة يوماً واحداً عن صدورها في لندن. كان صاحب الشقّة مصطفى الذي يقطن في الطابق السفلي قد ناهز سنّ السبعين.. كان شائقاً وحكيماً لكنه كان متعباً أكثر مما بدا عليه. والصحفيون الذين كنت أعرفهم حينها (عام ١٩٧٦) انتقلوا ليصبحوا محرّرين شركاء أو محرّرين تنفيذيين أو رؤساء تحرير. وقد استقرّوا في منازل منهاتن بنيويورك أو أرلنغتون بلندن. تزوّجوا وأصبحوا آباء وتوفّي بعضهم. وفي بعض الأحيان، كنت أقرأ صفحة الوفيات في الصحيفة ـ لأنه ليس من شيء مُرضٍ مثل قصّة حياة لها نهاية وبداية ـ وكنت ألاحظ كيف بدأت تواريخ الولادة فيها تقارب تاريخ ولادتي. عندما جئت إلى بيروت كانت أعمدة الوفيات تسجّل سيرة كبار محاربي الحرب الكبرى مثل والدي. وبعدها بدأت تتحدّث عن وفيّات العشرينيّات والثلاثينيّات، الفترة التي تسبق تاريخ مولدي بعشر سنين. وحتى الآن ما زال عام ١٩٤٦ يظهر في أسفل الصفحة. في بعض الأحيان كنت أعرف هؤلاء الموتى الجدد من الرجال والنساء: جواسيس وجنود ورجال دولة ومجرمون التقيتهم خلال العقود الثلاثة الماضية في الشرق الأوسط، ويوغوسلافيا وإيرلندا الشمالية. وأحياناً كنت أكتب هذه الوفيات بنفسي. ففي يوم ربيعي بارد كتبت سيرة صديق قديم وزميل صحفي هو خوان كارلوس غوموسيو، الرجل المقدام والهادئ، الذي أنقذ حياتي في الحرب وجلس على شرفتي مرّات عديدة موزّعاً الحكمة والسخرية والنبيذ الفاخر... أنهى حياته منتحراً في بيته في بوليفيا لأن العالم لم يعد مكاناً لطيفاً ولم يعد يعني شيئاً بالنسبة إليه. ولكنني ما زلت في التاسعة والعشرين وأستطيع العودة إلى الوراء سنواتٍ مع كابوس الذكريات والألم. أن للبنان تاريخاً عنيفاً لكن هذا البلد كان بلداً رائعا بالنسبة إليّ. لقد علّمني كيف أبقى على قيد الحياة. وبالرغم من كل ذكريات الحرب والصداقات والنساء الجميلات والكتب التي قرأتها بعد منتصف الليل ـ حتى ساعات الصباح الطويلة عندما يتسلّل النور من الستائر ـ كانت عندي دائماً فكرة أن بيروت هي المكان الذي يلجأ إليه المرء وكأنه في بيته.

كم مرّة استقللت رحلة طيران الشرق الأوسط MEA القديمة من الخليج، أو من مصر أو البلقان أو أوروبا وسمعت صوتاً قوياً يطلب الإذن بالهبوط على المدرج ١ـ٨، وعلمت أنه خلال نصف ساعة سأطلب كأساً من الجين أو مياهاً معدنية أو سمك السومون في مطعم سباغيتيريا Spaghetteria في عين المريسة القريب من شقّتي، بحيث أستطيع السماح لعبد بالذهاب إلى منزله لأعود إلى شقّتي ماشياً على الشاطئ وأنا أتنشّق رائحة الهال والقهوة وعرانيس الذرة...

بالطبع أنا أعرف الحقيقة.. فأنا أحسّ أحياناً بطقطقة عظامي عندما أستيقظ عند الصباح وأجد شعراً أبيض على وسادتي. وعندما أحلق ذقني يتراءى لي في المرآة وجه بيل فيسك وهو يحدّق بي أكثر من أي وقت مضى. ليلة وفاته، اصطدمت سيّارة بمستوعب قمامة خارج شقّتي في بيروت، وكان الصدى قويّاً تبعه انزلاق الدواليب المعدنية على الإسفلت. وقد تابعت السيّارة طريقها دون توقّف. لذلك، نزلت بثياب النوم وساعدت مصطفى على إزاحة العربة الثقيلة إلى جانب الطريق بحيث لا تشكّل خطراً على السائقين الآخرين، وبعد ذلك اتصلت بي بيغي الساعة ٨:١٥ لتخبرني أن بيل فيسك توفّي في مأوى العجزة. قالت إنها لن تحضر الجنازة وإنّ عليّ ترتيب عملية الدفن. أبلغتها ـ وهذا أوّل ما خطر ببالي ـ أنه كان رجل عصره وأنه علّمني حبّ القراءة، فوافقت بيغي على صحّة ذلك.. وهكذا نزلت وأبلغت مصطفى وعائلته أن والدي توفّي، ووفق العادات العربية قام كل منهم بمواساتي بطريقة معبّرة ومؤثّرة أكثر احتراماً من طريقة الغربيين المبتذلة. لكنني لم أستطع التصريح بأنني حزين. ربّما لأن بيل عاش طويلاً ـ أو ربّما لأن لبنان وجرائم الحرب التي كتبت عنها جعلت مني رجلاً قاسياً كما لو أن الأحداث التي شهدتها جعلتني بارداً وبلا رحمة في نظرتي إلى وقتنا الحاضر.

تحرّك فرسان الحملة الصليبية الأولى بعد ذبحهم سكّان بيروت باتجاه القدس على طول ساحل المتوسّط وذلك لتجنّب سهام الرماة العرب... ولقد فكّرت مراراً في أنهم عبروا فوق صخور الشاطئ اللبناني، تماماً مقابل شرفتي.. في شقّتي صور على الجدران للأسطول الفرنسي في بيروت عام ١٩١٨ ولوصول

الجنرال غورو، أوّل مندوب فرنسي سافر إلى دمشق ووقف في حرم الجامع الأموي، وأطلق أقسى التصريحات في تاريخ الشرق الأوسط عندما قال أمام قبر صلاح الدين: «صلاح الدين... لقد عدنا». وكانت لارا مورو قد أهدتني منظاراً ثنائياً للبحرية الفرنسية من أيام الانتداب ـ ربّما كان مع ضابط فرنسي خدم في لبنان ـ وكنت أستخدمه ليلاً لمراقبة الزوارق الإسرائيلية المسلّحة التي تقوم بأعمال الدورية في عُرض البحر، أو السفن الحربية التابعة لحلف الأطلسي (الناتو) والراسية في ميناء بيروت. وعندما وصلت القوّة المتعدّدة الجنسيات إلى هنا عام ١٩٨٢ لنقل مقاتلي عرفات الفلسطينيين من لبنان ثم عادت لحماية الفلسطينيين الناجين من مجزرة صبرا وشاتيلا، أحصيت ٢٨ سفينة حربية للحلف من شقّتي، وقد قام الأميركيون بإطلاق القذائف الأولى على لبنان من إحداها. وذات ليلة، شاهدت ضوءاً أبيض يتحرّك بموازاة الأبنية المجاورة، وبعد دقيقة أدركت أنها أنوار بارجة عسكرية أميركية تتّجه نحو المدينة.

كان الإيرانيون الذين قابلتهم مراراً يعتقدون بأن بيروت مليئة بعملاء المخابرات الأميركية، ولدى الأميركيين قناعة بأن بيروت تكتظّ برجال المخابرات الإيرانية الملتحين. وأظنّ أحياناً بأن الطرفين كانا على حقّ. ذلك أن بيروت واصلت بشكل ما تراث فيينا لما بعد الحرب، كونها نقطة التقاء لكل المعارضين في العالم يراقب فيها بعضهم بعضاً ويتساءلون أيّ قاسم مشترك أو كراهية تبقيهم معاً في هذه البقعة؟ وأذكر أن سفيراً أميركياً في بيروت قال مرّة إن لبنان كان حصناً للديمقراطية في العالم العربي ـ في الأسبوع نفسه الذي أعلن فيه السيّد محمّد حسين فضل الله أن لبنان يُعتبر الرئة التي تتنفّس منها إيران.

كان ذلك في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣ عندما أعلن نائب الرئيس الأميركي جورج بوش ـ بعد مقتل ٢٤١ جندياً أميركياً في مقرّ قيادة البحرية الأميركية في بيروت ـ «إننا لن نسمح لمجموعة من الإرهابيين الجبناء بضرب السياسة الخارجية لأميركا. لن يتمّ إملاء السياسة الخارجية أو تغييرها بالإرهاب». وبدت هذه العبارات قديمة الآن وضائعة مع الوقت. وفي عام ١٩٩٨، اكتشفنا نقطة تحوّل جديدة لما ستصبح عليه «الحرب على الإرهاب».

كانت قنابل القاعدة تضرب العمق الأميركي والسفارات والثكنات. وقام الرئيس بيل كلنتون بقصف السودان ـ مصنع أدوية رغم أكاذيب واشنطن بأنه عكس ذلك ـ ثم أرسل سيلاً من صواريخ كروز على معسكرات أسامة بن لادن في أفغانستان. متى سينتهي ذلك؟

في مقابل هذا التاريخ، ما هي أهمّية موت بيل؟ كان من السهل النسيان، وأنا جالس على شرفة شقّتي في بيروت، أن الجنرال غورو وصل إلى لبنان بموجب اتفاق سايكس ـ بيكو والانتصار الإنغلو ـ فرنسي في حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ وإطاحة الفرنسيين بالملك العربي فيصل الذي احتلّ دمشق حتى قبل سقوط الإمبراطورية العثمانية.

قامت فرنسا بحكم سوريا وفصل لبنان عن جسمه وإعطائه للغالبية المسيحية الصغيرة التي ستصبح أقلّية بين المسلمين في الدولة اللبنانية الجديدة والمصطنعة التي أنشأها الفرنسيون. إن وجود لبنان، مثله مثل معظم دول الشرق الأوسط التي أُنشِئت، اعتمد على انتصار الإنكليز والفرنسيين والأميركيين، وصار ممكناً بسبب السلام الذي أعقب الاستسلام في ١١ كانون الأول/ديسمبر ـ ليلة ذهاب الملازم أول بيل فيسك إلى ثكنة لوفنكور.

لديّ في شقّتي في بيروت مجلّدات حول الانتداب الفرنسي، معظمها مطبوع في باريس عام ١٩٢١، وهي تسجّل عملية إعادة بناء البلد وإعادة ترتيب النظام القضائي العثماني والعُملة الجديدة وتحديث البنوك وخطّ سكّة الحديد، وكل ما يتعلّق بمهمّة فرنسا الحضارية في الشرق الأوسط. وقد استقدم الفرنسيون لتحديث سكّة الحديد اللبنانية ـ السورية مجموعة من العربات البخارية الجديدة لاستخدامها بين طرابلس وحمص. وقد حصلوا عليها، وفق معاهدة فرساي كتعويضات عن الحرب من ألمانيا القيصرية.

ذهبت بحماسة تلميذ المدرسة لمشاهدة العربات البخارية التي عرفها والدي جيّداً... ذهبت لمشاهدتها بعد انتهاء الحرب الأهلية. كانت تلك العربات البخارية الكبيرة ما زالت موجودة على السكك وقد تمزّقت مراجلها بفعل القذائف الكبيرة، وكانت مقطوراتها الثماني ممزّقة بطلقات الرصاص ـ لقد

كانت جزءاً من خطّ الدفاع الأوّل للفلسطينيين ضدّ القوّات السورية في ميناء طرابلس عام ١٩٨٣ ـ وكان الزيت لا يزال ينساب من خزّانات وقودها ـ في مركز سكّة الحديد العائدة إلى بداية القرن التاسع عشر. بعد أن دوّنت الأرقام التسلسلية للمحرّكات وعدت إلى بيروت، اتصلت بالخبير في العربات البخارية في الشرق الأوسط الحاخام والتر روتشيلد في شركة ليدز، الذي أبلغني بأن ملكيّتها تعود بالفعل للرايخ. وقد كانت هذه الأشياء الضخمة المنتشرة تنقل في يوم من الأيام الطبقات الوسطى في ألمانيا من برلين إلى دانسك. وتذكّرت أنه منذ فترة طويلة، أو هكذا تهيّأ لي ـ كان ذلك في عام ١٩٩١ ـ كتبت إليّ صديقة، أكنّ لها عميق المحبّة، قصيدة قالت فيها إنها أحبّت «الولد في داخلي الذي أراد قيادة قطارات بخارية»... وقد فعلت ذلك... أحببتُ سكك الحديد.

اكتشفت بين قُصاصات بيغي صوراً لها وهي في إجازتها في باريس، وصوراً للعربات البخارية المكتشفة في كراي وفيلماً ملوّناً عن قطار أوروبا السريع الأبيض والأحمر وهو يدخل محطة فريبورغ في ألمانيا. وعندما عدت إلى بيروت اكتشفت أن الحكومة أعادت فتح الخط القديم بين بيروت وجبيل. جلست إلى جانب السائق بينما كان يقود ببطء القاطرة الضخمة التي تسير على الديزل مع عربتها الخشبية الصغيرة ـ التي استُقدمت من الهند البريطانية بعد الحرب العالمية الأولى ـ بحيث استطاع عبد السير إلى جانب القطار والتلويح بيده لي بينما كان السائق يطلق الصفّارة طالباً من السيّارات إفساح الطريق.

ثم جاء اليوم الذي توفّيت فيه والدتي. عانت بيغي من مرض باركنسون حتى قبل موت بيل... إلّا أنها استمرّت تقاوم وتعيش في مايدستون في المنزل الذي ترعرعت فيه وحيث كانت ترعاها ثلاث سيّدات عطوفات... لقد أرادت أن تموت في منزلها.... وهكذا، فقد جاءني اتصال آخر من مايدستون في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٨ وهذه المرّة من السيدة التي اعتنت بوالدتي قالت فيه إنّه لم يتبقّ لبيغي سوى بضعة أيام. كان لا يزال لديّ الوقت الكافي للوصول إلى بريطانيا. قبل سنوات من وفاتها قالت لي بيغي إنها لا تريد ربطات عنق سوداء في مأتمها وإن على الجميع ارتداء ملابس فاتحة الألوان. وقد حصَلت على الجنازة التي

أرادتها في الكنيسة الصغيرة الأنغلو ساكسونية في بارمينغ خارج مايدستون. كانت هناك جبال من الزهور، ولم يكن هناك ربطة عنق سوداء واحدة ـ حتى حاملو النعش كانوا يرتدون ملابس عاديّة ـ وقد أنشدت الجوقة نشيد: «كل شيء هو مبهج وجميل». لكن وفاة والدتي لم تكن كما رغبت ولم يكن ذلك بالتأكيد هو المصير الذي تستحقّه.

كانت تتمتّع بروح وطنية مثل بيل مع أنه لم يكن لديها أسلوب بيل الطنّان. وكانت قد انضمّت خلال الحرب العالمية الثانية إلى سلاح الجوّ البريطاني وقامت بصيانة أجهزة اللاسلكي التي تضرّرت بفعل نيران الحرب. وكانت شقيقتها بيبي تُدرّب عناصر المدفعية المضادّة للطائرات على أجهزة الاتصال البحرية. كانت بيغي شُعلة من التفاؤل في شبابي. وكانت تقول لي: «كلّ شيء سيكون على ما يرام في النهاية»، وعندما سألتها مرّة عن الهدف من الكفاح في سبيل تحصيلي العلمي كوننا سنموت جميعاً يوماً ما، أجابت: «عندما تكبر ربّما يكونون قد وجدوا علاجاً لذلك». وكانت والدتي تؤمن بالخلود بشكل ما وقد حملتُ معي تفاؤلها آلاف الأميال من كينت إلى أفغانستان، وخلال المعارك المرعبة في الحرب العراقية ـ الإيرانية، والنزاع في لبنان.

لكنْ كان لبيغي وجه آخر.. فبينما أُحيل والدي على التقاعد، أصبحت والدتي قاضية. وتذكّرت أنها عندما كانت في أحد الأيام تناقش والدي بلطف ـ وكانت وجهة نظر والدي حول القضاء الجنائي ترجع إلى أحكام القاضي جيفري ـ قالت بيغي بحدّة: «يقول المتّهم غالباً الحقيقة. وأنا لا أثق دائماً برجال الشرطة». وعندما كنت صغيراً، كان أوّل كتاب أعطتني إيّاه للقراءة هو مذكّرات آن فرانك ـ لأنها أرادت مني فهم طبيعة الخير والشر. وإبّان الحصار الإسرائيلي لبيروت، خطّ تلفون نادراً لتتصل بي في العاصمة بيروت واستخدمته لتبلغني كيف أنها تدين الوحشية التي مورست ضدّ الفلسطينيين.... وسألتني لماذا تنفق الحكومة باستمرار الكثير من المال على الأسلحة.

كانت ترسم لوحات مائية وزيتية ملوّنة، صوراً طبيعية ووجوه أشخاص... وتشهد مذكّراتها على مصاعب العيش مع بيل في شيخوخته، لكنّها تتحدّث

بهدوء عن الحياة المستقلّة التي عاشتها بعده. أرادت السفر كثيراً: زيارة لبنان والذهاب إلى إيرلندا. ورأت أن هناك حياة كاملة من الرسم ما زالت أمامها. لكن بعد إصابتها بمرض باركنسون فقدت القدرة الجسدية على عيش حياة كريمة ـ بقدر ما حافظت على إرادة الحياة لديها.

خلال أربع سنوات كانت تستطيع الكلام أو السير. لذلك كانت تتواصل من خلال إشارتها بعصا إلى كلمات على اللوح. بعدها لم تعد تستطيع الإشارة. أصرّت على أن تؤخذ إلى حديقة منزلها على كرسيّ متحرّك. ثم أصبحت بيغي مريضة جدّاً. وقد انتهت محاولتها الأخيرة للرسم عندما رمت بالفرشاة على الأرض غاضبة. وظلّت تؤمن حتى النهاية بأنهم سيجدون علاجاً لمرضها... أما مَن «هم» هؤلاء، فإنهم أولئك الذين سيجدون يوماً ما علاجاً للموت.

في أيامها الأخيرة، فقدت بيغي القدرة على الأكل والبلع وأصيبت بالتهاب رئوي، وقد زارتها شقيقتها بيبي وقالت لها إنها كانت «التفاحة في نظر أمّها».. وابتسمت بيغي لذلك. وعندما وصلتُ إلى بيتها، كانت تحاول جاهدة السعال لإخراج ما في رئتيها، وكانت تتألّم. وبينما كنت أراها وهي تحتضر، تذكّرت تكلفة المغامرة الأخيرة لبيل كلينتون في الشرق الأوسط. بلغ إجماليّ ما أنفقته حكومة الولايات المتحدة ١٠٠ مليون دولار خلال خمس دقائق من إطلاق صواريخ كروز في أفغانستان والسودان. كم أنفقت في البحث عن علاج لمرض الباركنسون؟ وكم أنفقت الحكومة البريطانية في هذا المجال؟

في ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٨، بعد يوم من وفاة بيغي ـ لم يكن هناك أي وميض إدراك أو انفعال... وإنّما توقّفت بيغي عن التنفّس فقط ـ اتصلت بجمعية مرض الباركنسون في لندن. إنهم ينفقون كل سنة ما بين ١,٥ مليون و٢ مليون دولار على الأبحاث.. والمبلغ نفسه كانت تنفقه أيضاً الحكومة البريطانية. لكن عام ١٩٩٧ (بحسب ما أبلغني مسؤول في الجمعية) أوقف مجلس البحوث الطبّية تمويل الأبحاث المتعلّقة بالأعصاب. اتصلت بنيويورك للتحدّث إلى إحدى أهمّ جمعيات الباركنسون في الولايات المتحدة. لقد أنفقت الحكومة الأميركية

٤٥ مليون دولار من وزارة الدفاع الأميركية على قُدامى الحرب، وأنفقت شركات الصيدلة حوالي ٣٥ مليون دولار. إذن كان الغرب ينفق على مرض الباركنسون في السنة أقلّ من إنفاقه في خمس دقائق على الأسلحة.

كان ذلك نوعاً من الجنون الإنساني الذي أغضب بيغي. وخلال مأتمها المزدان بالورود قرّرتُ الإشارة إلى ذلك. وقد ذكرت في كلمتي إلى أصدقائها الذين حضروا إلى كنيسة بارمنغ أننا ضيّعنا الكثير من الوقت في قبول الموت القاسي، من دون التذمّر عندما يُنفق المال الذي يجب استخدامه لإيجاد علاج للسرطان وألزهايمر أو الباركنسون على الأسلحة أو المغامرات العسكرية. وسألت: «لماذا لا نغضب ضدّ الذين يوافقون على الفكرة المشينة القائلة بأن المرض يجب أن لا يعالج وأن «المختارين» من بيننا يعلمون ماذا يفعلون عندما يفضّلون الصواريخ على الدواء؟ قلت: لو أُنفقت الأموال بشكل جيّد لما كانت بيغي تقبع في هذا التابوت على المذبح.

كان لذلك كلّه تأثير غريب، حتى إنك لتسمع صوت الوردة وهي تسقط عندما كنت أتكلّم.. لكنّ راعي الأبرشية وهو رجل لطيف وذكيّ ومن غير العاملين في الكنيسة، ردّ بصلاة قائلاً إنه «سينقل هذا الغضب إلى الله» ـ ممّا يعني أنه لم يفهم مقصدي. إلّا إذا كان هناك مكتب بريد إلى السماء يعيد طرود الغضب إلى الرؤساء ورؤساء الوزراء.. لا داعي لإزعاج الخالق. كنت أوجّه الكلام إلى أصدقاء بيغي. وكان بعضهم قد أبلغني أن أقاربهم يموتون من أمراض مستعصية، وهكذا شعرت بعد ذلك أنني فشلت في إفهامهم وكذلك في إفهام راعي الأبرشية ماذا كنت أعني.

كانوا يتحدّثون عن بيغي على أنها مرتاحة الآن وأنها لم تعد تتعذّب... وبلغتني رسائل تتحدّث عن راحة بيغي ـ كما لو أن أمّي أرادت الموت. سمعت إحداهنّ تتحدّث عن «إرادة الله» ممّا يوحي (إذا ما أخذنا المسألة إلى نهايتها المنطقية) بأن الله كتب لها أنت تموت. إذا كانت رسالة حياة بيغي هي التفاؤل والفرح للآخرين، فإن طريقة موتها ـ بالإذن من نظام قيمنا الاجتماعية المنحرف ـ لم تكن ضرورية إطلاقاً. كان من شأن والدي، وهو الرجل ذو الذهنية

القديمة، أن يدين ملاحظاتي في الكنيسة. وأعتقد أنها كانت المرّة الأولى التي يذكر فيها اسم أسامة بن لادن في مكان مقدّس من الكنيسة البريطانية. وربّما كانت بيغي لتعترض على قسوة كلماتي، لكنها كانت تريد مني قول الحقيقة.

لقد سبقت ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ بثلاث سنوات ويوم. هل كان حبّها للحياة وتفاؤلها ليتكدّرا بالجرائم الدولية ضدّ الإنسانية التي وقعت في نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا؟ أو أن منطق الحقّ والباطل الذي دفعها إلى الاتصال ببيروت المحاصرة عام ١٩٨٢ كان هو الذي سيغلب؟ كان لديها حسّ النسبية الذي صار مفقوداً بعد ٢٠٠١. أعتقد أن ذلك يعود إلى كونها قد عاشت الحرب العالمية الثانية. كانت دائماً تتذمّر عندما كان السياسيون يستخدمون المقارنات حيال جُلجلة ذلك النزاع. فلطالما عرفت أن ٥٠ مليون نسمة قضوا في تلك السنوات وأن آلافاً ذبحوا حول العالم في كل يوم ما بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٥. وقد يُعتبَر من قبيل القسوة السؤال: وما ثلاثة آلاف قتيل مقارنة بهذا البحر من الدم؟ بالتأكيد كان من شأن بيغي (وينبغي أن أقول هنا إن ذلك ينطبق أيضاً على والدي في شيخوخته) أن تلعن كذب رؤسائنا ورؤساء وزرائنا. وحيث أن الأموات يعودون إلينا ويتحدّثون في مخيّلتنا، فإنني أستطيع اليوم سماع صوت غضبها يلعلع في السنوات التالية، أكان ذلك في أفغانستان أم في العراق... تماماً كما أستطيع الإحساس بثقتها بالحياة. والآن وبعد أن أصبحت هذه الحياة أكثر خطورة (بالنسبة إلى الصحفيين خاصّة، بالنسبة إلينا) أستطيع أن أتذكّر بكل وضوح الكلمات التي تمتمت بها بيغي بينما كانت تُحتضر على السرير في الغرفة الأمامية لمنزلها. أفترض أن أيّ ولد بدون أخوة وأخوات حريّ أن يقول الشيء نفسه: أنا هو التالي.

عدت إلى بيروت في ذلك الأيلول الرطب. عرفت طواقم الخطوط الجوّية اللبنانية لسنوات وجلست مراراً خلف مقعد الطيّار. ولدى الصحفي فطرة ثرثارة لجمع وقائع لا قيمة لها، كيس قُصاصات لتفاصيل تافهة مجموعة من آلاف الرحلات ومن زيارات إلى مئات المستشفيات. وكان لدى الطيّارين اللبنانيين هوس بالسياسة، ألغام من القيل والقال والمعلومات. كانوا يقومون بتسريب كل

قصّة أرويها لهم... وفي مقابل ذلك على ما أعتقد، كانوا يحاولون جذب اهتمامي إلى عملهم. كانوا يُعلّمونني قراءة تعليمات الطيران ويساعدونني على فهم تعليمات الطيران والرحلة، والغرض من قوّة الدفع المعاكسة للمحرّك ونظام الاتصالات مع المراقبة الأرضية. هل من السهل تعلّم الطيران؟

قال لي سائق تاكسي عندما ركبت في سيّارته على كورنيش بيروت منذ أربع سنوات: «أنا محظوظ كوني على قيد الحياة، وأنت محظوظ كونك على قيد الحياة».. وكان مرافقي هو من لفت انتباهي إلى معنى هذه الكلمات ـ وقد فكّرت في ذلك في ما بعد وقلت في نفسي: نعم إنه على حقّ، أنا محظوظ، ومحظوظ جدّاً لكوني ما زلت على قيد الحياة. فلقد سافرت بعيداً طيلة هذه السنوات، عبرت الشرق الأوسط شهراً بعد شهر... وفي أواسط التسعينيّات كنت أحاضر في أنحاء أوروبا وأميركا، وأسافر من بيروت إلى الولايات المتحدة مرّتين في الشهر أحياناً. في إحدى الليالي كنت أحاضر في لوس أنجلوس وفي اليوم التالي في باريس وبعد ٢٤ ساعة كان عبد يقود بي في أنحاء جنوب لبنان. كنت أستيقظ وأنا في إحدى الطائرات، أتصبّب عرقاً، ناسياً إلى أين أنا مسافر، ناظراً من النافذة بقلق. هل هو الصباح أو الغسق؟ هل أجريت الترتيبات لكي أتصل بالمكتب من باريس؟ هل كتبت تقريراً من كاليفورنيا مساء أمس ـ وهو منتصف النهار في لندن؟ لم يكن لدى أهلي أيّ تصوّر حول حياتي.

كنت ما أزال مراسل إيرلندا الشمالية عندما زرت نيويورك لأوّل مرّة عام ١٩٧٥. فقد سافرت يومها لمقابلة فتاة من كلونمل كانت تعمل في وول ستريت ووصلت خلال عاصفة ثلجية نتج عنها اصطدام سيّارتي المستأجرة بباص على جسر ڤيرّازانو. . . وعندها ضللت طريقي إلى المطعم حيث تواعدنا وضعت قرب النهر الشرقي. أزلت الثلج عن مقصورة هاتف واتصلت بالمطعم. قال المضيف إنهم في انتظارنا وإنّ عليّ أن أتبع فقط اتجاه السير نحو برجَي مركز التجارة العالمي الجديد لكي أصل إلى المطعم. ورغم العاصفة الثلجية في نيويورك، تمكّنا من مشاهدة ذينك البرجين ونحن بعيدون عن منهاتن لأكثر من ساعة، حتى وصلنا إليها.. وهناك كان المضيف في انتظارنا واقفاً في الثلج وهو

يحمل مظلّة.

عندها لم تبدُ الولايات المتحدة عدائية جدّاً. كان الإنكليز غاضبين من أن الجيش الجمهوري الإيرلندي IRA كان يستطيع جمع أموال في أميركا ـ تلك كانت السنوات السابقة على: «الحرب على الإرهاب».. لم يختر سلاح الجوّ البريطاني نقل الصراع إلى أرض العدوّ وقصف بوسطن... وبدت الأمم المتحدة قادرة على «التعاطي» مع السلام بعد حرب الشرق الأوسط في عام ١٩٧٣. وكنت قد زرت بيروت قبل الحرب الأهلية قادماً من بلفاست في إجازة ولاحظت أنه كان على الطرقات الكثير من الجنود اللبنانيين، وأن الفلسطينيين كانوا يعيشون في ظلّ السلاح ومشاعر المرارة في الأحياء القذرة لمخيّمات اللاجئين في لبنان. لكنني كنت يومها مستغرقاً إلى حدّ بعيد في الصراع الإيرلندي ـ البريطاني لكي أفهم النيران التي كانت تشتعل بعيداً عنا.

كان جمال بحر بيروت أحياناً يثنيني عن السفر. وكان موعد رحلتي إلى الأردنّ الساعة السادسة، لكن عند منتصف النهار وأمام إغراء الشمس والبحر والطبيعة، طلبت من وكيل سفري أحمد شبارو تأجيل السفر وإيجاد رحلة مبكرة في اليوم التالي. ولذلك نمت باكراً واستيقظت على تغريد الحمام على أشجار النخيل ثم انطلقت إلى المنطقة التي أسّسها ونستون تشرشل للهاشميين والتي ما زالت أسرتها الحاكمة يمثّلها الرجل الذي كنا نسميه «الملك الصغير الشجاع».

عشاء مع الملك الصغير الشجاع... وتنتشر الأنباء في الوسط الصحفي الشرق أوسطي. أصرّ الديوان الملكي على كون العشاء غير رسمي.. وفهمنا من ذلك أن ما سنسمعه ليس للنشر....

عندما ذهبت للعشاء في القصر الملكي ـ كان ذلك في أيلول/سبتمبر ١٩٩٣ ـ شاهدت الطاولة المضاءة بالشموع والمزيّنة بالزهور.. وبدا أن رفع الكلفة وعدم الرسمية يعنيان السرّية. وعندما قال الملك حسين بن طلال: «هذا للنشر»، ظهرت المفكّرات بين أيدينا وتحرّكت مسجلّات الجيب على الطاولة الرخامية. قال الملك يومها إنه إذا وجّهت له دعوة فلربما زار عرفات في أريحا. وقال إن

الحكومة الإسرائيلية كانت شجاعة وبعيدة النظر في اعترافها بمنظمة التحرير الفلسطينية وإنّ على العالم دعم هذه المبادرة التاريخية. كانت تلك «فرصة أخيرة».

كم سمعنا تكراراً هذه العبارات: «فرصة أخيرة»؟ كانت كامب ديفيد «فرصة أخيرة»، والآن اتفاق عرفات ـ رابين هو «فرصة أخيرة». وكان لا مفرّ من أن يقوم مراسل أميركي بالسؤال عن صحّة الملك. بالطبع، أخبرنا الملك، فهو قد عاد لتوّه من الولايات المتحدة بكلية واحدة: «لكن الفحص الأخير لم يظهر أي أثر للسرطان». سيكون هناك فحص كلّ ستّة أشهر. وقال: «إنني أحاول قدر الإمكان الإقلاع عن التدخين». وقد نظرنا جميعاً إلى علبة المارلبورو في اليد اليسرى للملك عند انتهاء العشاء. ليس الملك الصغير الشجاع رجلاً ضعيفاً، لكنه كان قلقاً من الموت.. إنه الآن رجل دولة مسنّ وليس هناك شيء ليخسره إن تحدّث عمّا يجول في ذهنه علناً. لذلك عندما تجرّأت سيّدة من صحيفة الواشنطن بوست السؤال عن حقّه في تأجيل الانتخابات، أشار إلى الدستور الأردنيّ ـ وامتيازات الملك ـ بطريقة فيها شيء من الانزعاج. إنه لم يكن من الرجال الذين يمكن تخطّيهم، أو من الذين يحتملون المعارضة. لكن من الصعب في أغلب الأحيان تحميل الملك الصغير الشجاع الذنب. لقد وعد بالمساواة بالنسبة إلى الفلسطينيين في الأردنّ الذين اختاروا البقاء بعد انتخابات عرفات للحكم الذاتي.. وبعد اعترافه في قمّة الرباط عام ١٩٧٤ بأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني. وقد بقي الملك طيلة نصف قرن الزعيمَ الشرق أوسطيّ الوحيد المطالب رسمياً باستعادة الأراضي العربية المحتلّة وليس أكثر من ذلك.

جلسنا حول الطاولة واستمعنا إلى ذلك كلّه وكانت الملكة نور ـ النصف أميركية ـ تُشرف على مقدّمي الطعام والشراب.. وشعرنا بالحرج من الكلام عن شبح صدّام حسين. لكنه يظهر في الحفلة. سألنا الملك عن دور صدّام حسين في سلام الشرق الأوسط وعمّا يعنيه هذا الوضع؟ وسرعان ما انفكّت عُقدة لسانه... لقد عانى الأردنّ بسبب اهتمامه الإنساني بالشعب العراقي خلال حرب

الخليج عام ١٩٩١، وكاد ميناء العقبة وهو الشريان الوحيد الذي يصل الأردن بالعالم يوشك على الإفلاس. «ليس سرّاً أنني لم ألتق وجهاً لوجه القيادة العراقية منذ فترة طويلة قبل الحرب.... كان اهتمامي يشمل كل دول المنطقة. لقد حاول الأردنّ إقناع العراقيين بالانسحاب من الكويت، غير أنني فشلت في ذلك». لكن هل قرأنا تقرير اليونيسف حول موت مليون طفل عراقي نتيجة عقوبات مجلس الأمن في نهاية ١٩٩٣؟ أجل، «في إطار السلام وإذا نجح العراق في إعادة بناء نفسه ـ عراق ديمقراطي متعدّد يحترم حقوق الإنسان ـ فإن لدى البلد دوراً كبيراً يلعبه» ... يتطلّب الأمر إقصاء صدّام لكن الملك لم يقل ذلك... وتحدّث الملك الشجاع عن الديمقراطية، تلك الظاهرة الفريدة التي يمكن أن تنقذ الشرق الأوسط من التطرّف.

هل خُدعنا بذلك؟ لم يكن الملك يرغب في حكم بلاده من دون برلمان، كما أخبرنا، لكنّ الأردنّ ليس ديمقراطية غربية تماماً. وقد دعا في إحدى المرّات إلى: مزيد من الديمقراطية، مزيد من المشاركة، مزيد من حقوق الإنسان. ولكن ماذا كان يعني ذلك؟ أشار الملك إلى أنه يتمنّى العيش ليرى القدس مجدّداً. . كان نور الشمعة يسطع فوق رأس الملك الأصلع... وتمنّى ألّا يحصل شيء «للرئيس عرفات». أطلّ الموت على مائدة العشاء، وكان لدى الملك حسين خمس سنوات أخرى للعيش.

كان الملك الصغير الشجاع رجلاً صلباً وقد أبقى رفضه الوقوف ضدّ صدّام حسين بعد غزو العراق للكويت عام ١٩٩٠، الأردنيين والفلسطينيين من سكّان الأردنّ مخلصين له. كانت لديه عادة لطيفة ـ ومُربكة ـ هي دعوة محدّثه بكلمة «سيّدي» وهي عادة اكتسبها خلال وجوده في ساند هورست Sand Hurst، لكنها قادتنا نحن الصحفيين إلى فخّ التفكير في أنه يظهر الاحترام لمحادثيه. لقد تعرّض لحملة شرسة من الصحافة الأميركية بسبب عدم مساندته لحرب أميركا ضدّ صدّام. وقد اضطرّ قرّاء الصحف إلى متابعة التحليلات التي لا تنتهي حول ما سيكون عليه مصير الملك. هل هذه نهاية الهاشميين؟ هل يزول الأردنّ من الوجود؟ لقد جرى التنبّؤ بالنهاية نفسها لعرفات. هل هذه نهاية منظمة التحرير

الفلسطينية؟ لكن من المؤكّد أن العزلة الدولية التي جعلت عرفات ضعيفاً لإجباره على إقامة سلام مع إسرائيل، تركت الملك حسين بلا صديق لإقامة سلام مع إسرائيل.

كان سلاماً جُمّد بسرعة.. سلاماً كان الملك حسين يفضّل كثيراً لو تأخّر حصوله. لكنّ اتفاق عرفات الخاطئ في أوسلو جعل اتفاق الأردن مع إسرائيل يوم ٢٦ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤ لا مفرّ منه. ولا حاجة إلى القول إننا ذهبنا إلى هناك لمشاهدة «الفرصة الأخيرة» التالية. وكانت تحتاج إلى العديد من التواقيع... وهناك في حرارة وادي عربة وجد رجال الدولة أيضاً صعوبة في فهم الاتفاق. كان هناك أربعة مجلّدات من المستندات يحتاج كلّ منها إلى التوقيع بستّ أيد ناهيك بالصفحات الملحقة. ولم يكن عجيباً إذن استمرار بيل كلينتون في فرك وجهه طالباً نظّارة شمسية وماسحاً عينيه بقطعة قماش سوداء لأن نور الصحراء كان ينعكس على الأوراق. ثم جاء الجنود بالخرائط.

وضِعت الخرائط لمزيد من التواقيع وكان طولها ستّة أقدام. خرائط لباقورة ـ نهاريم، لظفر، للمياه الراكدة في اليرموك وللملّاحات في البحر الميت. وقد رفع عبد السلام المجالي، رئيس الوزراء الأردني، يده بذهول حين وضع المزيد من الملفّات على الطاولة. كان كلينتون مغموراً بالنور الذي ينعكس على الأوراق، وأدار ظهره لضيوفه بينما زوّده أحد مساعديه بقطرة للعين... وهناك في وسط الصحراء. كان وزير الخارجية الروسي أندريه كوزيريف يرتدي قبّعة ونظّارة شمسيّة ممّا جعله يبدو ـ وهو يوقّع اسمه بشكل متكرّر ـ أشبه بمدير فريق كرة قدم يوقّع للنجم الجديد.

وهكذا قام رجال وادي عربة بفصل الأردنّ فصلاً حازماً عن إسرائيل، وبفصل الأردنّ عن الأرض التي كانت فلسطين. وهكذا سمح الملك حسين لإسرائيل بالاستمرار في الوجود على حدود الأردنّ. وهكذا أنهت الأردنّ وإسرائيل ٤٦ سنة من الحرب يراقبهما مسؤول صغير من منظمة التحرير الفلسطينية في عمّان، الممثل الوحيد للشعب ـ الفلسطيني ـ الذي تقاتلا حوله.

وقفوا دقيقة صمت تكريماً لآلاف الإسرائيليين والأردنيّين ـ بعضهم فلسطينيون ـ الذين قتلوا خلال الست وأربعين سنة الماضية. وقال الملك حسين: «أظنّ أنهم معنا في هذه المناسبة». كانت تلك أنبل ملاحظة قيلت ذلك اليوم من قِبل ملك مسنّ ومتعب، ورجل يفكّر الآن في الموت ولدى شعبه تحفّظات خطيرة حول السلام.

كانت مدينة القدس على بعد عدّة كيلومترات وراء الجبال الرمادية ـ البنّية إلى الجهة الشمالية الغربية من المقاعد التي يجثم عليها أصحاب المراكز وما زال قسمها الشرقي ـ والضفّة الغربيّة ـ تحت الاحتلال الإسرائيلي. وقف الصحفيون الأردنيّون متجهّمين في الحرّ. وصرّح أحدهم بينما كانت سيّارة كلينتون الليموزين تسير بين حقول الألغام القديمة على الجبهة الأردنية ـ الإسرائيلية: «ليست هناك فرحة حقيقية من جانبنا. ينظر الشعب إلى ذلك على أنه عملية جراحية ـ شيء علينا القيام به. يُعتبر هذا نصراً لإسرائيل وهزيمة لنا». لم يفهم رجال الدولة في وادي عربة ذلك بهذه الطريقة. كان «سلام الشجعان» (كلينتون)، «مصدراً للفخر»، «فجر حقبة جديدة»، «يوماً ليس كغيره» (الملك حسين)، «سلام الجنود وسلام الأصدقاء» (رئيس الوزراء الإسرائيلي رابين). وبدا الملك من بين هؤلاء أكثر الرجال عظمة، وأنهى خطابه بملاحظة تركت تساؤلاً: «ليس هذا الاتفاق مجرّد قطعة ورق... سيصبح حقيقياً عندما نفتح قلوبنا وعقولنا بعضنا لبعض»، سلام بين الشعوب. غير أن الرجلين يعرفان أن السلام بين الدول لا يعني بالضرورة السلام بين الشعوب في الشرق الأوسط.

احتضن صحافي إسرائيلي موظفاً أردنياً بينما كانت مجموعة من الفتيات الإسرائيليات توزّع زجاجات المياه الباردة التي كتب عليها بالعِبرية والعربية عبارة «السلام الإسرائيلي ـ الأردني تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤»، لكن منشأ مياه الزجاجات ـ مرتفعات الجولان التي تحتلّها إسرائيل ـ كان مطبوعاً فقط بالعبرية. وكانت مئات الكراسي مربوطة بعضها إلى بعض برباط بلاستيكي ـ الرباط نفسه الذي يستخدمه الجيش الإسرائيلي لتقييد الأسرى.

أطلقت طواقم المدفعية ٢١ طلقة، وكان يمكنها في غير هذا اليوم أن تطلق النار بعضها ضدّ بعض... وعُزف النشيد الوطني الأردني الهادر قبل النشيد الوطني الإسرائيلي هاتكفاه الجميل.. ووقفت على المنصّة فتاتان هما حفيدتا جنديين، إسرائيلي وأردني، قُتلا في حرب ١٩٦٧، ممّا حرّك مشاعر المحاربين المسنّين الذين كانوا يقفون إلى جانب الرئيس الأميركي. لكن الأمر كان يحتاج إلى مختارات بيل كلينتون من العبارات ـ على غرار اللازمة: «تحويل الأرض المهجورة إلى منزل لكل إنسان»، إضافة إلى تهديداته المتكرّرة ضدّ «الإرهاب»، لتذكير الخمسة آلاف وخمس مئة ضيف بأن ذلك كان سلاماً أميركياً، برعاية الولايات المتّحدة وبضمانتها ـ وهي التي تعتبر إسرائيل أقرب حلفائها في الشرق الأوسط. وعندما نُشرت الملحقات في ما بعد اكتشفنا أن الحدود بين الأردنّ والضفّة الغربيّة المحتلّة سُجّلت على أنها الحدود النهائية بين الأردنّ وإسرائيل.

لم يكن لدى الملك حسين أيّ مبرّر للشعور بأن الأردنّ بات آمناً نتيجة معاهدة السلام. لقد أصيب قبل أسابيع قليلة من وفاته بخيبة أمل، خاصّة عندما كشف صحفي إسرائيلي عن فكرة راودت أرييل شارون طويلاً. فقد كتب إسرائيل هاريل في صحيفة هآرتس: «لقد تأسّس الأردنّ على جزء من الأرض اليهودية... وسيبدو واضحاً في المستقبل أن دولتين (إسرائيل وفلسطين) لا تستطيعان العيش على قطعة صغيرة من الأرض إلى الغرب من الأردنّ وأنه لا يمكن إقامة دولتين هنا. إذا كانت الدول ذات الأراضي الواسعة والتي لا تحتاج إلى مساحات إضافية تضع عينها على الأردنّ، فيجب على إسرائيل أيضاً تثبيت مطالبتها بالأردنّ... مع هذه الأرض ـ وحتى مع جزء منها ـ نستطيع بمعاونة شركائنا في عملية السلام تسوية مشاكل إقليمية عديدة مع الفلسطينيين».

اغتيل رئيس الوزراء الإسرائيلي رابين على يد إسرائيلي ـ «متطرّف»، بحسب الصحفيين الغربيين، وبالطبع «غير إرهابي» ـ بعد سنة من توقيع معاهدة عربة... وقد عاش الملك حسين أربع سنين ونصف سنة بعدها. لم يتوقف الملك عن

تدخين المارلبورو الخفيفة ومات بعد علاج كيميائي مرهق لا جدوى منه في الولايات المتحدة... وجرت مسيرة سيّارات في شوارع عمّان تحت المطر للاحتفال بشفائه المفترض. وقد أصابت الهاشميين فضيحة ذات أحجام ملكية لدى عودته الأولى إلى الأردنّ.. فقد قام الملك حسين باستبعاد شقيقه حسن عن ولاية العهد. وعرف الحسن أن لعبة الملوك قد انتهت وذلك بمجرّد وصول الملك حسين إلى مطار الملكة عالية. كان هناك تأييد شعبي للرجل الذي ظنّ أنه ربح المعركة مع مرض السرطان. لكنه تجاهل ابن شقيقه رشيد وأظهر بوضوح ما يفكّر فيه كوليّ للعهد من خلال تجوّله في المدينة مع الملكة نور وليس مع الحسن بحسب التقليد... وهكذا جرى تجاوز الحسن. وأصيب الرجل الذي انتظر ٤٦ سنة ليصبح ملكاً للأردنّ بخيبة أمل.

جرى إبلاغ الحسين في عيادته الأميركية، أن الحسن حاول طرد رئيس أركان الجيش الأردني وأن زوجة الحسن الباكستانية قامت بتغيير السجّاد في القصر الملكي استعداداً لتصبح ملكة. بدا أن الروايتين غير صحيحتين. وقد أبلغ الحسن الملياردير السعودي الوليد بن طلال أنه لم يستطع شراء منزل رئيس الأركان لأنه يعود للمُشير. وبدأت صور عديدة للأمير حسن تظهر في أنحاء الأردنّ ـ وهذه سابقة خطيرة ـ وكذلك ظهرت لاحقاً صور لابنه. وقد اتّهمه الحسين علناً بالتحضير لشبه انقلاب.

عندما وصلت شكوك الملك إلى أخيه، ذهب إليه وسأله بدون مواربة: «كيف أسأت إليك؟ هذا مسدّسي وإذا لم أكن مخلصاً لك اقتلني ـ لكن لا توجّه إليّ الإهانة». أمر الملك حسين أخاه باستعادة مسدّسه وأكد له أنه ما زال وصيّاً على العرش. كانت خاتمة ذلك أكثر من عادية... إذ استدعى الملك أخاه حسن إلى القصر الملكي بعد منتصف الليل يوم ٢٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩٩ ليقدّم له رسالة تنحيته. وكان هناك مصوّر ينتظر لالتقاط صور الحسن وهو يسلّم شاراته إلى وليّ العهد الجديد عبدالله بن الحسين. عاد الحسن إلى سيّارته دون أن يكون عنده وقت لقراءة الوثيقة... وبينما كان يقود السيّارة فتح جهاز الراديو

ليسمع في الأخبار المحلّية مضمون الرسالة التي لم يفتحها... كم هو قلق ومضطرب.... رأسٌ كان يحمل تاجاً...

شعر العديد من الأردنيين أن طريقة تنحية الحسن كانت قاسية بغير مبرّر. وكان الحسن بصفته وليّاً للعهد قد تلقّى أمراً من الملك بتسليم مشاريع التنمية الأردنية ـ وهو دور كان قد وضعه بطريقة ما في نزاع مع حكومة رئيس الوزراء عبد الكريم الكباريتي الذي قيل إنه كان يكره الحسن شخصياً. واعتقد وزراء بأن الحسن كان يتخطّى صلاحياتهم وهذا شيء لا يحقّ له القيام به لأن الحقّ الدستوري الوحيد لوليّ العهد في الأردن هو حقّ الخلافة فقط. لكن لو أن الحسن عاد بالذاكرة إلى ذلك اليوم المشهور (منذ حوالي ٤٣ سنة) عندما اعتقد خادم أمين آخر للعرش الأردني أنه بمأمن في عمله، لكان عرف ما سيكون عليه مصيره... كان الملك حسين في الحادية والعشرين من العمر حينها.. لكنه تجادل مع الليفتانت جنرال السير جون باغو غلوب القائد البريطاني للفيلق العربي والمستشار العسكري الأوّل لسموّه. عارض غلوب خطة الملك حسين ـ كان الملك يريد الردّ على الغارات الإسرائيلية على حدوده ـ وقدّم للحسين قائمة بمجموعة من الضبّاط في الفيلق على أنهم مخرّبون ويجب إقالتهم. وقام الملك بطرد الجنرال البريطاني (٥٩ سنة) مع الضابطين المساعدين ورئيس الأركان ومدير المخابرات، نتيجةَ اقتناعه بأن لندن تحاول السيطرة على القوّات المسلّحة الأردنية. وأبلغ الحسين حكومته وهو بحالة غضب أن أوامره يجب أن تنفّذ على الفور. انحسر غضب الملك بعد أن تمّ كل شيء لمصلحة بلاده. لكن بالنسبة إلى الملك المريض في مستشفى مايو Mayo عام ١٩٩٩ كان وليّ العهد يحاول السيطرة على الجيش ـ تماماً كما جرى اتهام غلوب باشا بالأمر نفسه عام ١٩٥٦.

والحال أنه لم تكن هناك أية مفاجأة في تنحية ولي العهد حسن. فقد عاش الهاشميون دائماً على الحافّة، بين الكارثة والخلاص، بمأساوية وأعصاب باردة، كانت دوماً تدهش بقيّة زعماء العرب. كان لديهم دائماً ميل إلى التأرجح

بسرعة بين الغضب والتأمّل، الجنون السياسي والصداقة الأبدية، وهذه ميزة قد يتمتّع بها العرب الخليجيون أكثر من عرب المشرق. لكن عائلة الحسين جاءت أيضاً من الخليج، من ولاية الحجاز، وكان جدّ أبيه الحسين شريفَ مكّة بموجب قرار عثماني. وقد أقصت مجموعة دينية مخلصة لآل سعود ـ الأصوليون المسلمون في عصرهم ـ الهاشميين، مما أصبح يسمّى السعودية في ما بعد. وعيّن ونستون تشرشل عبدالله، جدّ الملك حسين، أميراً على الأردنّ. وكان عبدالله يرغب في أن يصبح ملكاً على فلسطين ـ التي كانت ضمن خطط أخرى للإنكليز. وقد أصبح فيصل، شقيق عبدالله، ملكاً على العراق ترضية لخسارة عرش سوريا ـ التي كانت لدى الفرنسيين خطط أخرى لها. وقد حاول الملك عبدالله إقامة سلام مع الصهاينة الذين خطّطوا لإقامة دولتهم الجديدة في فلسطين... وبعد نكبة ١٩٤٨، أصبحت حياة الملك هي الثمن. لقد قام بضمّ الضفّة الغربيّة لنهر الأردنّ بينما أصبح معظم فلسطين دولة إسرائيل. وشهد الحسين (١٥ سنة) شخصياً اغتيال عبدالله في القدس، وهي عملية اغتيال دبّرها الفلسطينيون.. وبهذا كان الهاشميون عائلة خاسرة، أسرة ملكية معتادة على الريبة وعلى التصميم في آن معاً. خسروا الحجاز، وخسروا غرب فلسطين.. وفي بغداد، بعد عشر سنوات، قُتل الملك فيصل الثاني ـ حفيد شقيق عبدالله الذي عيّنه الإنكليز ـ بانقلاب بعثي جاء بعد عشرين سنة بصدّام حسين إلى السلطة. وفي عام ١٩٦٧ اختار الملك حسين، وذلك في أكبر كارثة في تاريخه، الانضمام إلى مصر وسوريا في حربهما ضدّ إسرائيل.. وجرى طرده من الضفّة الغربية والقدس. وفي أقلّ من نصف قرن، خسر الهاشميون الحجاز والعراق وكل فلسطين. وبشكل حتمي، أصبحت قصّة العائلة الهاشمية هي قصّة الملك الصغير الشجاع. وكان من الطبيعي أن يجعله تعليمه الإنكليزي محبّباً لدى الإنكليز الذين يُعجبون بالشجاعة في مواجهة الأعداء، كما يُعجبون أكثر بالخاسرين الجسورين. عندما تزوّج الملك حسين أنطوانيت أبريل غاردينر ابنة الليفتانت كولونيل من سلاح الهندسة الملكي البريطاني عام ١٩٦١، ساد شعور بأن الأردنّ أصبح محميّة بريطانية مرّة أخرى. وقد أنجبت توني (Toni) ـ التي أصبحت الأميرة منى ـ ولدين للملك حسين هما عبدالله ـ الملك الحالي ـ

وفيصل. وكانت الثانية بين الزوجات الأربع للملك الذي كانت زيجاته مضطربة مثل سياسات الدولة(*). لقد طلّق زوجته الأولى والأكبر سنّاً، دينا، بعد سنة ونصف سنة على زواجهما، وسلّم سفير الأردنّ في مصر ورقة طلاق الملكة بينما كانت تزور قريباً لها مريضاً في مصر. وانهار زواجه بمنى (Toni) بعد أن وقع نظره على الجميلة عليا طوقان، وهي مضيفة في الخطوط الملكية الأردنية، والتي أدّى حبّها للملك إلى شعوره بالطمأنينة ـ تزوّجا عام ١٩٧٢ ـ وقد قتلت بتحطّم مروحية بعد أربع سنوات. ويعتبر مطار عالية الدولي الوحيد في العالم الذي يحمل اسم ضحية بعد موتها بتحطّم طائرة. وفي عام ١٩٧٨ تزوّج إليزابيت حلبي التي أصبحت الملكة نور، امرأة جميلة أيضاً وقويّة وهي أطول من الملك، وقد قامت بتعزيز عدم الثقة تجاه شقيقه الزاهد والمفكّر حسن. وقيل في عمّان إنه في حال وصول الحسن إلى السلطة فإن نور ستغادر البلاد .

كان على الملك مواجهة العواقب نتيجة خسارته للضفّة الغربيّة: الغضب والاحتقان الفلسطينيين، وأيضاً ما كان أشبه بمحاولة انقلاب دبّرها المقاتلون الفلسطينيون. وبوحشية لم يجر حتى الآن الاعتراف بحقائقها، قامت قوّات البدو الملكية بشقّ طريقها إلى داخل مخيّمات الأردنّ لتسحق سلطة الثوّار. ونتيجة لاستخلاصه العبرة من تسرّعه في الانضمام إلى حرب ١٩٦٧، بقي الملك

(*) يلاحظ دبلوماسي بريطاني في عام ١٩٨٣، أن مراقبة حياة الملك الشخصية غير السعيدة هي «تجربة حزينة جدّاً». حتى في ذلك الوقت، كان هذا الدبلوماسي يرى الملك كرجل مريض يعاني من مشاكل في القلب ومُتعب بعد تسع ساعات من المفاوضات مع ياسر عرفات. كان خوف الملك في ذلك الوقت يتلخّص في قيام الإسرائيليين بضمّ الضفّة الغربيّة ولذلك فإنه دفع بعشرات الآلاف من الفلسطينيين شرقاً عبر نهر الأردنّ. وأبلغني الدبلوماسي نفسه أن الإسرائيليين سيفضّلون دولة راديكالية فلسطينية في الأردنّ عوضاً عن دولة صديقة للغرب يحكمها الهاشميون، على قاعدة أن لا أحد سيطلب منهم تقديم تنازلات لدولة منظمة التحرير الفلسطينية المتطرّفة شرق الضفّة، في حين أن أميركا ستطالبهم باستمرار بمفاوضات مع الملك حسين إذا استمرّ الأردنّ على وضعه الحالي. قال الدبلوماسي أيضاً: كان الملك يحتار دائماً أمام فشل الأميركيين في فهم ما يجري في الشرق الأوسط. «كانت لديهم مصادر هائلة للحصول على المعلومات لكنهم لم يستطيعوا أبداً ترجمتها بشكل صحيح». لن تتغيّر أشياء كثيرة في السنوات العشرين القادمة.

خارج حرب ١٩٧٣ ولم يتحرّك ... محافظاً على اتصالات سرّية مع الزعماء الإسرائيليين (كما فعل جدّه من قبل)... كان الملك يريد الاحتفاظ بما عنده ... فقد أصبح الحفاظ على الأردنّ ـ بلد مصطنع أنشأه الإنكليز ـ قبل كل شيء، وآخر كل شيء، بالنسبة إلى الهاشميين. وكان الملك الصغير الشجاع صديقاً للغرب. وعندما تحدّثت صحيفة الواشنطن بوست أن الملك حصل على ملايين الدولارات من المخابرات الأميركية، جرى التعتيم على ذلك في عمّان.

في الغرب، نميل إلى تقسيم العرب إلى ثلاث مجموعات وهميّة ممّا يثبت عنصريّتنا وجهلنا... هناك:

أوّلاً: مخطّطون من رجال الأعمال، خليجيون جشعون، نراهم في الأفلام الطويلة وروايات الكرتون المعادية للساميّة في الصحافة الأميركية (كون العرب ساميين مثل اليهود)..

ثانياً: إرهابيون أصوليون...

وثالثاً: (كانعكاس لصورة هوليوود الأساسية عن الزعيم البدوي الصحراوي والتي خلّدها رودولف فالنتينو) محاربون قُساة من الصحراء.... كان الهاشميون تحديداً من صنف «المحاربين القساة».. أو على الأقلّ هكذا كان الملك حسين.

ولم يكن الملك يتمتّع بالرياضة والطيران فقط، بل كانت لديه أيضاً نظرة ثاقبة نحو رياضة غرفة النوم. قبل بضعة أشهر من تشخيص مرض السرطان، كان يغازل فتاة أردنية في العشرينيّات من عمرها. لم تكن الملكة نور مسرورة لكنّ ذلك لم يؤثّر على سمعته.. فالأمراء السعوديون مثلاً لا يعانون من نقص في النساء.. وأمير الكويت عقد سلسلة من الزيجات المؤقّتة مع نساء القبائل. ورغم ذلك كان من المستحيل فصل حياة الملك حسين العاطفية عن المغامرات السياسية. ففي حين كان الصديق المقرّب للغرب، فقد أدهش حلفاءه الأميركيين باحتضانه صدّام حسين ـ لفظياً ـ بعد غزو العراق

للكويت(*)... هل كان يؤمن حقاً بأنّ صدّام سيحرّر القدس؟ أو أن الأردنّ يستطيع الاستمرار بدون عرب الخليج؟

أطال الملك لحيته، وفي عمّان كانوا يسمّونه شريف مكّة، مما أغضب السعوديين. بدا وكأنه كان يتطلّع لاستعادة الأراضي الضائعة (أي الحجاز حيث كان أجداده شرفاء مكّة ـ المترجم)... كان يعرف أن الفلسطينيين سيدعمون العراق، فأصبح الملك الأكثر شعبية في العالم العربي في اللحظة التي أصبح فيها الملك الأقلّ شعبية في العالم الغربي.

كان الأميركيون مستعدّين لطيّ الحقبة الهاشمية، لكن في عام ١٩٩٣ جاءت «صفقة» عرفات للسلام ومعاهدته مع إسرائيل... وبين ليلة وضحاها أصبح الحليف المخادع لصدّام المتوحش هو الملك الصغير المقدام مجدّداً. عاد الأردنّ إلى جانبنا مرّة أخرى. وقد بنى الأميركيون سفارة جديدة ضخمة محصّنة في ضاحية عمّان. «إنه مقرّ القيادة الجديدة للمخابرات الأميركية؟».. كما قال الملك حسين وهو يمازح أصدقاءه الأردنيين عندما نظر ذات ليلة إلى المجمّع الضخم. ربّما كان على حقّ. قد يُرجع الهاشميون نسبهم إلى النبي محمّد (ص) ـ وهم يفعلون ذلك ـ لكنهم كانوا ملكيين أكثر منهم ديمقراطيين.. أوليغارشية (نخبة ملكية) حاكمة أكثر منها ملكية حديثة... رغم ما قد يكونون عليه من ليبرالية ووقار على الصعيد الفردي.

(*) لا جديد في ما يتعلّق بميل الحسين إلى إحداث صدمة. عام ١٩٨٧، وبعد فترة قصيرة من اكتشاف أن الدكتور كورت فالدهايم (الأمين العامّ السابق للأمم المتّحدة وبعدها رئيس النمسا) كان ضابطاً للمخابرات في وحدة من جيش Wehrmacht E النازي في البوسنة خلال الحرب العالمية الثانية ـ وهو دور حرص على كتمانه ـ دعاه الملك للقيام بزيارة رسميّة للأردنّ. وقد اصطحب الملك ضيفه بطائرة هيلكوبتر إلى مرتفعات أم القويس لمشاهدة الضفّة الغربية المحتلّة من قِبل إسرائيل.. وقلّده وسام الحسين بن علي، المسمّى باسم جدّه... ومدح فالدهايم لوطنيته ونزاهته وحكمته، «وقِيَمه الإنسانية النبيلة». وعندما شاهدت فالدهايم يقوم بتحيّة حرس الشرف الأردني في مطار عمّان، لم أتمالك ملاحظة أنه كان يسير بخطى منتظمة وبانتباه ويداه مستقيمتان ورأسه منحن عندما كان يردّ التحية لقائد الحرس الملكي. إنه يظهر الانضباط الخاصّ بالجيش الألماني بشكل واضح.

أخيرا نُقل الملك وقد بات أشبه بالشبح إلى المستشفى في عمّان ليموت. وبدت العواصف التي أحاطت بالشرق الأوسط في الأسبوع الأوّل من شباط/ فبراير ١٩٩٩ منبئة بشيء ما.. مثل تلك الليلة الشديدة الظلمة التي خنقت الضوء المسافر بعد مقتل دانكان الأول: ملك اسكتلندا الذي ثار عليه ابن عمّه الأمير مكبث. تحرّكت عواصف من البحر نحو بيروت وضربت إحداها شرفتي. وعندما رأيتها تقترب هربت إلى الداخل لكنها دفعت طاولتي الزجاجية نحو الحائط محطمة الأطباق. وفي عمّان، غطّت سحابة قاتمة المدينة مظلّلة آلاف الوجوه الغامضة الواقفة خارج مركز الملك حسين الطبّي. غطّت ريح قوية، سحابة سميكة جدّاً، المدينة... لكنني استطعت سماع الأصوات عن بعد كيلومترات. «بالروح... بالدم... نفديك يا حسين».... دائماً العبارات نفسها، الرغبة بالشهادة نفسها.. سمعناها من الفلسطينيين، ومن العراقيين، والآن من الأردنيين. هل كانوا يعنون ذلك عندما ينطقون بها؟

كانت حاشية الملك تواجه مشكلة فريدة من نوعها في المستشفى: متى يمكن وقف الجهاز الداعم للحياة الذي يبقيه حيّاً؟ كانت أجهزة تنقية الدم والأوردة تضخّ الحياة إلى ملك يعتقد أنه يجب أن يموت عندما يريد الله ذلك وليس الإنسان. لكنّ علم إطالة الحياة لمريض يائس لا يأخذ بعين الاعتبار لا القرآن ولا الإنجيل. ولم ينجح أي رجل دين حتى الآن في تفسير موقف الإسلام من التطوّر العلمي الذي حدّد موعد حصول الوفاة. في الختام، توفّي الملك (كما قال لي صديق للأسرة الملكية) بشكل عادي ودون أية صدمة... «حتى إلى الملوك يأتي» ...

خارج المستشفى، كانت صور الملك الراحل مرفوعة بأيدي الجموع: حسين الطيّار المقاتل، حسين البدوي المحارب، حسين قائد الجيش. لكن لم توجد أية صورة للملك مع ابنه. لم يكن الملك الجديد عبدالله (كم كان وقع الاسم غريباً في ذلك اليوم) ليخطر في بال الرجال المنتحبين ولا في بال تلك المرأة العجوز التي ركعت وسط سيل من المياه الجليدية في وسط الشارع...

الملك عبدالله: اسم له رجع صدى غريب لملك آخر في المسجد الأقصى في القدس منذ نصف قرن... عبدالله الجدّ الأكبر وفي رأسه رصاصة وعمامته تتدحرج على الأرض بينما صبيّ في سنّ المراهقة ـ الآن جثة عارية داخل المستشفى خلفنا ـ ينهار من الخوف. ما زالت القدس تقع على بعد ٨٥ كلم فقط عبر الضباب.. وهي ضائعة بالنسبة إلى الأردنيين اليوم كما كانت عندما انسحب جيش الملك حسين منها منذ ثلاثين عاماً.

إذن صار لهذه الأرض غير العادية، الضعيفة والشجاعة، متخرّج عسكري بريطاني آخر، يتقدّم لإدارة شؤونها. قائد الدبّابة والجنرال، المتخرّج في ساند هرست وفي أكسفورد وفي جورج تاون، مع حرسه البريتوري. قامت قوّاته الخاصّة ـ إحدى وحدات القوّة الضاربة التي تتناسل في جميع أنحاء الشرق الأوسط ـ بإخماد عمليات شغب خلال السنوات القليلة الماضية. وكان عليك فقط مشاهدة هؤلاء الناس خارج المستشفى وطريقة حزنهم غير المنضبطة لكي تفهم حجم العبء الذي يواجهه الملك عبدالله. كان الناس يتدافعون عند حواجز الشرطة ويلطمون وجوههم وينهارون أمام الأبواب. بالنسبة إلى رجل غربي، سائح، يُعتبر الأردنّ منطقة صحراوية صديقة مليئة بالآثار الرومانية والقصور القديمة وخطّ سكّة حديد فجّره الكولونيل لورنس. لكنّ شعبها مجروح: ٦٥ في المئة هم من الفلسطينيين المحرومين من عائلاتهم. طيلة النهار كان المطر يتساقط من السحب المنخفضة والباردة. وكان هناك شيء في مأتم الملك حسين كشف للذين شاهدوه عن حقيقة مخيفة.

فمن قام بدفن الملك هما أردنان لا أردنّ واحداً. من جهة كان هناك الشعب المتغرّب بأسلوبه الاسكتلندي والملك الجديد بلُكنته الإنكليزية والذي قام بدعوة كل زعماء الدول لدفن المحارب الممدّد على عربة مدفع... كان حصان الملك حسين يمشي خلف النعش وركابه مقلوب على السرج. وما رآه العالم (بالفعل ما كان يفترض أن يشاهده العالم) كان تقديس الملوك، والرؤساء، ورؤساء الوزراء، والأمراء: كلينتون، بوش الأب، بلير، شارون، كارتر، فورد، أمير ويلز، مبارك، ناتانياهو، شامير، وايزمان، عرفات، الأسد،

يلتسين، شيراك... وفي الحقيقة، أفلم يرسل الرئيس كلينتون هذا الرجل إلى الجنّة عندما أبّنه في خطابه الأخير ناعياً خسارة الأردن في غيابه؟

وكان هناك الأردنّ الآخر... خارج البوّابة، كان المتصبّبون عرقاً والمتضرّعون إلى الله، المسحوقون بأعقاب البنادق، المقموعون من قِبل الجنود المتحدّرين من نسل الفيلق العربي الذي أسّسه غلوب باشا، فيما هم يشقّون طريقهم نحو نعش الملك حسين... لم يكن المشهد ليتلاءم مع الاستعراض الرائع في الجهة الأخرى لجدار القصر، عندما شقّ الأردنيون طريقهم بين قوّات الأمن وتوجّهوا بالآلاف نحو البوّابات وتعرّضوا لمجابهة مئات أخرى من الجنود المسلّحين.... وقد استنجدت امرأة مسنّة بينما كانت تتعرّض للدفع: «بحقّ الله أنقذوني».

إذن، أيهما كان الأردنّ الحقيقي؟ هل كان القوم الذين يقفون عند الباحة الرخامية لقصر رغدان حيث جرى تكريم رفات «الملك الصغير» وحيث صلّوا عليه وحيث شاهده وحيّاه جميع الحلفاء الخطرين غير الصادقين والذين (بأشكال متنوّعة) أحبّوه، وكرهوه وتآمروا ضدّه؟ لقد أظهروا جميعاً تلك الصراحة وتلك المحبّة. كان هناك رئيس وزراء إسرائيل بنيامين ناتانياهو، الذي كان قد أرسل فرقة قتل إلى الأردن منذ بضعة أشهر لاغتيال مسؤول من حماس، ينحني أمام النعش. كان هناك الرئيس السابق جورج بوش الذي كان قد اعتبر منذ ثماني سنوات فقط أن الحسين أصغر من عميل للعدوّ. وأثار عرفات الانتباه بلباسه الزيتي وهو يحيّي النعش الملفوف بالعلم أمامه مرّتين... لقد سعى مسلّحوه في يوم من الأيام لتدمير مملكة الملك حسين. وكان يسير خلف النعش الملك عبدالله الثاني وأخواه وليّ العهد حمزة والأمير هاشم. وقفوا هناك وكانت أيديهم ترتفع للصلاة من وقت لآخر، وكانوا يرتدون بذلات وربطات عنق ويضعون نوع الكوفية نفسها التي يضعها عرفات ذات اللونين الأبيض والأحمر. بدا الأمر كما لو أنهم يمارسون نوعاً من الطقوس الدينية غير العادية، وكانوا أشبه بطلّاب مدارس رسمية إنكليزية في لعبة غير مألوفة، أكثر من كونهم أمراء عرباً محاربين، يحاولون التقدّم بسرعة أمام رجال الفيلق العربي الطويلي القامة

ـ أعاد حسين تسميتهم بالجيش العربي بعد إقالة غلوب ـ الذين قاموا بحراسة النعش ومستواه الملكي.

حسّاس وغير حصين: تلك كانت العبارة التي تتبادر إلى الذهن... إذ لم يظهر الأمراء أنهم كبار، أو أقوياء، بما يكفي للتعامل مع الرجال العظام الذين مرّوا أمامهم لتكريم والدهم.. فبعض هؤلاء كان محترماً والبعض الآخر طغاة مرتشين والقليل منهم كانت أيديهم ملطّخة بدماء كثيرة.. المؤذي وغير المؤذي... مرّوا معاً واحداً تلو الآخر أمام النعش كأنهم في انتظار أخذ صورة لجواز سفر. أعتقد أنه لم يكن مفاجئاً أن التاريخ كانت تعاد كتابته أمام أعين العالم الذي كان يراقب.. على شاشات الفضائيات وصِف الملك المتوفّى بمرض السرطان بالرجل الذي أقام السلام بحرّية مع إسرائيل والذي مُدحت بلاده باعتبار أنها كانت أقرب بلد عربي لإسرائيل (هذا ما قالته السي إن إن).

إذن كان علينا أن نتناسى أن الملك قال في مجلس خاصّ إن قيود اتفاقية أوسلو هي التي أجبرت الأردنّ على توقيع معاهدة سلام غير مقبولة شعبياً مع إسرائيل... وأن نتذكّر أن كلينتون أخبرنا قبل يومين بأن الملك حسين هو الآن في الجنّة... أي في المكان نفسه الذي ذهب إليه الرئيس المصري أنور السادات بعد وفاته كما قيل لنا... وهو على ما يبدو مصير كل زعماء العرب الذين يقيمون سلاماً مع إسرائيل بناء على طلبنا..

كان مراسلو التلفزيون (في بعض الحالات كانوا أولئك «الخبراء» أنفسهم الذين سبق لهم أن تنبّأوا بسقوط الملك حسين بعد رفضه دعم أميركا في حرب ١٩٩١) في قمّة إسهالهم الكلامي: (رجل ذو نزاهة وروحية منيعة)، (رجل ذو رؤية للسلام)، (رجل يتمتّع بشخصية جذّابة قويّة)، (ترك إرثاً لا جدال فيه)، (رجل كان يعمل دائماً على إعطاء شعبه الحقوق التي يستحقّ). كانت تلك مع الأسف اقتباسات واقعية... ولكن ما كان هذا الإرث؟ ما هي الحقوق السياسية التي حصل عليها الشعب الأردني غير تأمين انتخاب برلمان يوافق بدون إجراء دراسة؟ أو أن يعرف أنه إذا خرج رجل الشارع عن الخطّ المرسوم للمقابلات مع مراسلي التلفزيون الغربي، حول مستقبل الملك عبدالله ـ وهو كان في

الواقع مثل أبيه، ملك عسكري، فلذة من النظام القديم ـ فسوف يؤخذ إلى مخافر جلالته ليُضرب.

أما تلك الجموع التي كانت أصواتها تُسمع وهي تنتحب بعيداً خلف أبواب القصر الذي يضمّ الملوك والرؤساء في داخله، فلقد أحبّوا الملك حقاً، أو بعضهم على الأقلّ.... لكن كانت هناك حماسة أقلّ للملك الجديد وأيضاً للأمير حمزة ابن الملك حسين من زوجته الأخيرة الملكة نور. وحسبما أكّدت فتاة فلسطينية أردنية(*) «فقد تمّ اختيار حمزة ولياً للعهد من قِبل الولايات المتّحدة». صرختُ بها: «هُراء، يجب أن لا تؤمني بالمؤامرة». لكنني لم ألبث أن شاهدت بعد ساعة لائحة بأسماء الوجهاء في القصر كافّة وذُهلت من عدد رجال الدولة من دائرة صنع السلام في واشنطن بقيادة مارتن أنديك مدير الأبحاث السابق لأكبر مجموعة لوبي يهودي، والذي لم يستطع إقناع ناتانياهو بوقف بناء مستوطنات يهودية على أرض عربية لكنّه أصر على أن «يضرب عرفات الإرهاب».

هناك إذن كان الأردنّ الحقيقي: وسط جمع مُتذبذب من الشباب الفقراء بأثوابهم البالية والذين كانوا ينتحبون على طول الطريق السريع المؤدّي إلى القصر.. وكان العديد منهم ذوي مستوى تعليمي منخفض، وبعضهم كان يحمل بشكل بشع صور الملك الراحل منقوشة على قميصه.

حصل نوع من الفوضى عندما اقترب النعش وانتقل الناس المحتشدون نحوه ونحو سيّارات الجيب المليئة بالحرس الأردني وهم يمدّون أيديهم للمس أو حتى للإمساك بالعلم أو ربّما بالنعش نفسه....

وأذكر الآن أنني فكرّت يومها في أن الأمر يشبه عملية رمي كمّية من النفط داخل فرن مطبخ، وكانت الفكرة في بالي قبل أن يقوم جندي متوتّر بضرب رجلين ببندقيّته بينما سقط عدد من الأشخاص علينا... كانت هستيريا غريبة ومخيفة لأنها كانت ممزوجة بالحبّ وبالغضب في نِسَب متعادلة تقريباً: الإخلاص العميق متزاوج مع الغضب المطلق.

(*) عام ٢٠٠٤ أبعد الملك عبدالله بدوره حمزة عن ولاية العهد.

عندما تنحّيت جانباً وجدت الجندي نفسه ممدّداً قربي.

في مأتم آية الله الخميني، منذ عشر سنوات تقريباً، مزّقت الجموع الكفن. ولولا قيام المتحدّرين من الفيلق العربي بالمناداة باسم الملك الراحل، ولولا قيام الجنود باعتراض المجموعة الأولى من الشباب الأردني الذين حاولوا الصعود إلى العربة، لكان تكرّر هنا حصول الشيء نفسه.

على أن للعنف مذاقاً آخر ووصفاً مختلفاً حين يكون أصحابه خارج أسوار القصر.. وقد تساءل أحدهم كيف كان شعور هذه الجموع تجاه وجود وزير خارجية إسرائيل أرييل شارون أمام نعش ملكهم؟ شارون نفسه الذي كان أرسل حلفاءه من الكتائب اللبنانية إلى مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢؟ وماذا فعلت الجماهير المحتشدة حيال وصول الرئيس السوري حافظ الأسد الذي أمر جنوده بسحق انتفاضة إسلامية في حماه عام ١٩٨٢، وهي عملية تركت آلاف القتلى؟ أو رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز الذي بلغ اعتداؤه ضدّ لبنان عام ١٩٩٦ ذروته في المجزرة الإسرائيلية التي ذهب ضحيّتها ١٠٩ لبنانيين في معسكر الأمم المتحدة في بلدة قانا، دون ذكر قتلى سيّارة الإسعاف في المنصوري؟ في تلك الحالات كلّها كان الضحايا مسلمين... تماماً مثل ضحايا تلك الحرب التي شنّها الرجل الذي أذهل العالم أجمع بحضوره إلى عمّان والذي ما زالت مذبحته في الشيشان تُذكر في الغرب. قام بوريس يلتسين بالتلويح للكاميرات ـ أنا حيّ، أنا حيّ، كان يحاول إبلاغنا بذلك ـ ومشى بتملّق إلى داخل القصر. كان حصان الملك حسين الأبيض المفضّل (عمر) يصهل إلى جانبه متمايلاً خلف النعش. وقيل إنه لن يمتطي صهوته أحد بعده.

وهكذا كان علينا الاستماع إلى الكثير من التملّق. زعم عرفات أن الملك حسين كان صلاح الدين، الفارس المحارب الذي طرد الصليبيين من فلسطين. والحقيقة أن الإسرائيليين طردوا الهاشميين من فلسطين. لكنّ الحسين كان مهذّباً. فعلى سبيل المثال، أيّ ملك قام بالذهاب إلى السجن المركزي لإطلاق سراح أحد أشدّ معارضيه السياسيين شراسة واصطحبه إلى منزله؟ أغضب ليث شُبَيلات

الملك لأنه سأله لماذا ذهبت الملكة نور لحضور جنازة إسحاق رابين، في حين «لم يحصل زعيم فلسطيني راديكالي اغتيل في مالطا على يد الموساد الإسرائيلي على أيّ مواساة رسمية أو ذرفت أميرة أو زوجة مسؤول دمعة عليه؟» (كان يقصد الدكتور فتحي الشقاقي رئيس حركة الجهاد الإسلامي الفلسطينية ـ المترجم). عندما وصل الملك إلى السجن قام شبيلات بتأخيره عشر دقائق بينما كان يودّع رفاقه في السجن. وانتظر الملك حسين بصبر. هل كان صدّام ليفعل ذلك؟ أو الملك فهد؟ أو الرئيس مبارك؟ أو هل كان بنيامين ناتانياهو ليفعل ذلك؟

ربّما كانت تلك ميزة عند الملك: بين وحوش الشرق الأوسط، بدا رجلاً عاقلاً. كان يعتقد أنه إذا وثق بشكل كافٍ بخصمه، فإنه سيكافأ على ذلك بردّ الجميل... لكنّ ما حصل معه كان نكران جميل قاسياً... فقد وثق ببنيامين ناتانياهو، الذي رفض السماح له بنقل عرفات من عمّان إلى غزّة بطائرته الخاصّة. وقد كتب لرئيس الوزراء الإسرائيلي في آذار/مارس ١٩٩٧: «حزني كبير وعميق حيال التصرّفات المتراكمة والمأساوية التي قمت بها على رأس الحكومة الإسرائيلية. يبدو أن صنع السلام ـ وهو الهدف الأسمى في حياتي ـ سراب بعيد المنال». وصرّح ناتانياهو أنه «كان محبطاً نتيجة التهجّمات الشخصية ضدّه». كان هذا هو ناتانياهو نفسه الذي جاء مرتدياً معطفاً أسود للتعزية بالملك الراحل.

ما هو الأمر المميّز في أولئك الطغاة ـ أكانوا ملوكاً، أو «رجالاً أقوياء» إذا كانوا إلى جانبنا ـ الذي يجعل الشعب الذي يحكمونه شبيهاً بالأطفال؟ عبر أنحاء الشرق الأوسط، كنت أراقب باهتمام تلك العلاقة بين الدكتاتور وحبّ الشعب له، والتي يتجلّى حدّها الأقصى في العراق، مع وجودها في دول الخليج، وفي ذلك المزيج من القومية العربية والصداقة السوفياتية التي دعمت حكم البعث في سوريا... فسوريا الرئيس حافظ الأسد والتي كانت دائماً محلّ سخرية واحتقار وحتى كره من طرف اليمين الأميركي الصديق لإسرائيل، صارت خلال الثمانينيّات والتسعينيّات مزيجاً غير عادي من الأبوّة والقساوة، من «العبادة» الصبيانية للرئيس البعثي والخوف من شرطة دولة الأمن.. وهو احترام

للسلطة، مشوب بالخنوع، ويمكن فهمه، صار حقيقياً بسبب الخوف الذي ينتاب كل تلك الدول العربية التي صنعتها القوى الاستعمارية: الخوف من الفوضى ومن الحرب الأهلية ومن التدمير في حال الانهيار المفاجىء لتلك الهندسة الكاملة لدولة الحزب الواحد وتفتّتها إلى أجزاء. وفي حالة الأسد، فإن وليّ عهده كان ابنه باسل.. لكن المشكلة أن باسلاً قد مات.

كانت سوريا البلد العربي الوحيد الذي أستطيع الوصول إليه بالسيّارة من بيروت، ولذلك فقد كنت أسافر إلى هناك كلّما أُتيحت لي الفرصة.. كنت أحصل على التأشيرة بسهولة... وكانوا يتسامحون مع انتقاداتي اللاذعة ومع تنديدي وتهكّمي من وقت لآخر (هكذا أخبرني في إحدى المرّات وزير الإعلام السوري بأدب لافت) لأنني كنت أكتب «بقلب سليم» ولأنني لست عميلاً أجنبياً ولأن الحكومة مستعدّة للتسامح مع «أخطائي»... وهذه سياسة متسامحة لم تشمل الصحفيين العرب. وقد أثار ذلك الذعر في أوساط الموظّفين الذين يعملون لدى الوزير والذين كانوا يعرفون جيّداً أن عليهم تسهيل مهمّاتي للقيام بمقابلات قد تكون مزعجة جدّاً (وهي كانت أحياناً كذلك)... وكان أحدهم يصيح دائماً عندما أطلّ برأسي داخل مكتبه في دمشق: «ياالله عاد فيسك مجدّداً». ومن الممكن أن نتفهّم وجهة نظره. إذ كانت تصلنا كل صباح واحدة من رموز النظام وهي صحيفة سيريا تايمز Syria Times التي كانت توضع تحت باب غرفة كل أجنبي في الفنادق الكبرى . لم تكن تلك الصحيفة علماً أو شارة على ديمقراطية عربية جديدة، ولا وسيلة تحقيق تحاول أن تنشر فضائل النظام البعثي في العالم على أنه مجتمع حرّ.... كانت صحيفة يستطيع الوزراء والموظفون الرسميون الشعور معها بالأمان وكأنهم في منزلهم، وحتى بالملل ـ لأن الحياة هي مملّة أساساً في نظام دكتاتوري... وهذه طبيعة القوة الدكتاتورية، لا يتغيّر فيها شيء أبداً.. يبقى وزراء الأسد في وزارتهم مدّة أطول من زملائهم في أيّ دولة أخرى ـ العراق خاصّة ـ ويكافأ إخلاصهم بحسب ولائهم للرئيس الأسد.

لذلك فإن الصفحة الأولى من صحيفة سيريا تايمز كانت تحمل على الدوام صورة كبيرة للرئيس الأسد وهو يقرأ صحيفة ـ مع أنني لم ألاحظ أبداً أنها

كانت صحيفة سيريا تايمز... وكان يصوِّر في معظم الأحيان وهو يوجّه خطاباً إلى المؤيّدين ويسخر من «التوسّع الصهيوني». كانت صحيفة سيريا تايمز واحدة من تلك الصحف ـ الشجاعة بطريقة منحرفة كما أعتقد ـ التي تحمل قرّاءها القلائل على النوم مع أخبار الصفحة الأولى حول الخطّة الخمسية الصناعية، والفائض الزراعي، وبرقيات عمّال مطاحن الدقيق الكبيرة في شمال سوريا التي تهنّئ الرئيس الأسد بذكرى «حركته التصحيحية».... وتمتلئ صفحاتها الداخلية بالأشعار المملّة وبالبيانات المعادية لإسرائيل والطويلة بشكل غير عادي... ومن وقت لآخر بمقالات لي ترجمتها الصحيفة ـ بدون موافقة صحيفة الإندبندنت. وقد اتّخذت إزاء ذلك موقفاً متسامحاً يعتبر الأمر خطأً ناتجاً عن «قلب سليم».. وفوجئت بنفسي، إذ كنت أتخذ السياسات السورية نفسها.

كان مسؤول الوزارة السوري الذي يستقبلني دائماً هو نفسه ذاك التعيس الحظ الذي جلس بقربي ذات يوم عندما سألت رئيس تحرير صحيفة سيريا تايمز إذا كنت أستطيع شراء الصحيفة والمطبعة وكل شيء. سألني المحرّر لماذا أريد القيام بذلك؟ أجبته: «لأنني أستطيع إغلاقها وعدم قراءتها مجدّداً». نظر إليّ رئيس التحرير نظرة استغراب وقال لي إنه لم يفهم قصدي. ابتسمت.. وابتسم. هكذا يتمّ الأمر في سوريا. غلطة أخرى منّي... يظلّ مسؤول الوزارة مجهول الهويّة في هذا الكتاب كونه ما زال يعمل مع الوزير الحالي. هذه طبيعة سوريا: طاعة، أمانة، استمرارية، وهي صفات يرغب كل صاحب صورة أبويّة في وجودها لدى عائلته. لكنّ سوريا كانت «دكتاتورية» معتدلة. إذا جئت إليها بالطائرة من لندن، أو بالسيّارة من بيروت، فإن دمشق هي عاصمة لدولة بوليسية... وإذا وصلت إليها من بغداد فإنها تبدو ديمقراطية ليبرالية.

إنّ كلّ صحفي يحاول أن يسعى لاكتشاف شيء جديد في سوريا... مثل: هل هناك أيّ أمل بإصلاح سياسي؟ بحملة جديدة ضدّ الفساد ربّما؟ بنشوء نظام مصرفي جديد يخرج الاقتصاد من بين أيدي البعثيين القدماء الذين يحيطون بالرئيس؟ لكنّ سوريا ليست بلداً يعيش على المستقبل. إنها بأشكال عديدة مخلصة لماضيها.. وشعبُها ـ رغم الكثير من الجمود السياسي في غُرف التخطيط

البعثية المنتشرة في دمشق ـ يفهم تاريخ بلاده بطريقة لا يفهمها سوى القليل من الغربيين أو يحاولون فهمها.

في يوم بارد من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٦، توجّهت إلى موطن الرئيس الأسد، في أعالي جبال العلويين غرب سوريا، إلى القرداحة حيث يقع ضريح ابنه في مسجد من الإسمنت تحت سماء رمادية. كان الضريح قيد الإنشاء، ضريح باسل الأسد، فارس سوريا، قائد الرجال، عدوّ الفساد، الابن المفضّل لحافظ، رئيس سوريا. عند مدخل المسجد، استقبلني جندي مظلّي يضع قبّعة حمراء من جيل الشباب. وكان ثمّة رجل مدنيّ يرتدي ملابس سوداء ولاحظت فوراً أنه يرتدي ربطة عنق سوداء عليها صورة باسل وهو يضع نظّارة سوداء. اقترب مني شاب آخر، حارس الضريح، رفض ذكر اسمه لأن «باسل يغطّي علينا كلّنا نحن الذين بقينا أحياء». نظرت باتجاه التمثال إلى يميني، وهو عبارة عن قاعدة إسمنتية عليها تمثال معبّر لباسل في زيّه العسكري يمتطي جواداً واثباً نحو النجوم، بينما والده حافظ، بلباس رئاسي أزرق، يرفع يده مودّعاً ومسحة من الحزن والفخر على وجهه. سألت الحارس المجهول الذي حدّثني عن باسل، أليس باسل الآن أكثر حضوراً في موته ـ بكل صوره ـ من حضوره وهو على قيد الحياة؟ كانت تفوح رائحة المسك من الحارس، ابتسم وأمسك بيدي، ثم قال: «لم يكن هناك مثيل للراحل باسل ـ قائد لا يوازيه أحد، كسب ميدالية ذهبية في ألعاب الفروسية العاشرة للشرق الأوسط. لم يكن له منافس في مجال الرياضة، كان أحد الأبطال في القفز بالمظلّات». حاولت طرح سؤال آخر لكنّ الحارس رفع يده معترضاً بأدب. «بفضل الراحل باسل، لدى الحكومة أجهزة كومبيوتر ـ كان مؤسّس مركز المعلوماتية السورية. كان عقيداً في الجيش، نجح في كل علومه العسكرية وتخرّج بدرجة دكتوراه في العلوم العسكرية من جامعة خروتشوف في روسيا وبدرجة مهندس مدني من جامعة دمشق». أردت التحدّث عن التمثال لكنّ اليد المحذرّة ارتفعت مجدّداً. «كان الراحل باسل يتحدّث الفرنسية والإنكليزية بطلاقة. كان متواضعاً، كان يتحدّث إلى جميع الناس بشكل عادي. قام بتجسيد تواضع رئيسنا إلى حدّ أنك لم تكن تعرف أنه ابن رجل بهذه

الأهمّية. كان ضدّ الفساد وقد شجّع الشباب للتوجّه نحو الرياضة تلافياً لشرور المخدرات. كان رمز الأخلاق لجيل الشباب».

كان هنا، حسبما أعتقد، الشبح المجهول لتوم غراهام، موجز سيرة الجندي البريطاني الخيالي الذي ذهب للقتال في أفغانستان والذي كانت حياته ملهمة لبيل فيسك الشاب. كان رجلاً بامتياز. كان الأمر بهذه البساطة، لم يرتكب باسل أي خطأ، ولم يكن له مثيل. إنها ترجمة شفهية للعبارات المنقوشة على أضرحة كبار النبلاء العرب والتي لا تنتهي ـ وقد سألت حتى عن تاريخ ولادته ووفاته. ولد في ٢٣ أيار/مايو ١٩٦٢ وتوفّي في ٢١ كانون الثاني/يناير ١٩٩٤. ويجب أن نضيف هنا أنه توفّي صباح يوم غائم على الطريق السريع لمطار دمشق عندما انقلبت سيّارته بينما كان متوجّهاً بسرعة للسفر برحلة إلى ألمانيا.

دعاني الحارس لدخول الضريح. كانت سحابة من البخور تتّجه نحو السقف، وخلف باب زجاجيّ منصّة عليها نعش باسل الأسد، ملفوف بقماش من الحرير الأخضر ومكتوب عليه: «الله أكبر، محمّد رسول الله». كان القبر عبارة عن ضريح رجل نبيل، مُصمّم على شكل ضريح الفارس المحارب الذي طرد الصليبيين من الأرض المقدّسة والذي يرقد حالياً تحت قبّة خضراء مماثلة تبعد ١٣٥ كلم في دمشق... أي صلاح الدين نفسه الذي تهكّم عليه الجنرال غورو عام ١٩٢١. خلف منصّة النعش، مصباحان من الصوديوم اللامع ينيران صورة زيتية رائعة لباسل يظهر فيها متجهّم الوجه، مُلتحياً، وسيماً، شعره مبعثر على رأسه، ونظرة تصميم قويّة مرتسمة على وجهه.. رجل ـ مثل والده ـ لا يجب تخطّيه في الحياة والموت. هناك كان الشباب المنتحبون باللباس الأسود أمام الضريح يراقبونني بتمعّن لفترة وجيزة، ثم أبلغوني بعدها أنني أستطيع التقاط الصور. قال الحارس بلطف: «بما أن المكان مظلم هنا، أظنّ أنك سوف تستخدم فيلم ٨٠٠». كان الأمر أشبه بنهاية خدمة دينية حيث يقوم الكاهن بتحذير رعيّته أنها تمطر في الخارج وأن عليهم استخدام مظلّاتهم. أجل، كنت بحاجة إلى فيلم ٨٠٠.

اسم الأسد بالعربية معناه الأسد... وقد استقبلني الطريق المؤدّي إلى

القرداحة بعبارات: «أهلاً وسهلاً في القرداحة، عرين الأسد». تحوّل عرين الأسد إلى بلدة غير عادية ـ ناهيك بفندقها الفخم والطريق السريع الحديث ـ واقعة بين مجموعة تلال تحت السلسلة الشرقية للّاذقية شمال غرب سوريا حيث تشكّل الأقليّة العلويّة التي ينتمي إليها الأسد غالبيّة السكّان. أصبح أسد القرداحة أسد دمشق في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠، عندما أطاح حافظ الأسد بخصومه إثر انقلاب دامٍ نفّذه حين كان وزيراً للدفاع في حكومة حزب البعث الاشتراكي (كانت هذه هي الحركة التصحيحية التي تكتب عنها صحيفة سوريا تايمز بشكل دائم) فاتحاً بلاده أمام تحرّر اقتصادي وسياسي، ولكن مع تأمين شروط بقاء حكمه ـ بمعاونة جهاز بوليس سرّي قوي لا يمكن تحدّيه.

لكن بعد وفاة ابنه المفضّل، هل يمكن لنظام الأسد الاستمرار؟ كان هذا السؤال يتردّد على لسان كل سوري. لقد أعطى الأسد لبلاده الاستقرار والوحدة، سحق أعداءه الإسلاميين في الداخل وحارب إسرائيل في محاولة يائسة لاستعادة الجولان عام ١٩٧٣، وبمعركة ناجحة لمنع إسرائيل من إخضاع لبنان عام ١٩٨٢. كان يريد توريث ابنه المفضّل سوريا واستعادة الأرض المغتصبة والوقوف بدون منازع كطليعة العالم العربي.

توفّي الابن، لكنّ سوريا الأسد ما زالت تطالب باستعادة الجولان من إسرائيل. ولذلك لن يكون هناك سلام في الشرق الأوسط بدون سوريا ـ أصبح ذلك هدف حزب البعث بعد عدّة شهور من المفاوضات ـ لكن كان هناك شبح باسل الذي يقف الآن حارساً لمستقبل سوريا. أخبرني حارس الضريح في الهواء الطلق خارج المسجد: «إنه ما زال معنا، وهو يُلهمنا دائماً»... وأمسك يديّ بيديه وهو ينظر إلى وجهي.

عندما خرجت من القرداحة، كانت رائحة المسك تفوح من يدي ـ بقيت معي طيلة النهار. على يمين الطريق، كان تمثال ضخم لباسل وحصانه شامخاً فوق الأشجار والدعائم يحدّق بي... ولسوف يلاحقني باسل في كل أنحاء سوريا: على اللافتات والأعلام والإعلانات، باللباس المموّه للجيش السوري، وباللباس الكاكي على صهوة جواده، أو بالبرونز يتقدّم نحوي على الطريق

الدولي شمال دمشق. وتظهر تماثيل والده الضخمة وتماثيله النصفية على مداخل المدن السورية الكبرى. على بعض الأعمدة كان يرفع يده نحوي وعلى أعمدة أخرى كان يحدّق بسيّارتي العابرة، نظرته ثابتة ووشاحه على كتفيه. كان تمثال الرئيس الأسد يشرف على منطقة صخرية، في بلدة دير عطية موطن مدير مكتبه وصديقه الشخصي المقرّب، أبو سليم دعبول، يلوّح لي مبتهجاً عبر المطر. وقد أكّد لي محرّر صحيفة في دمشق عندما ناقشت معه ما هو الخطأ في تقديس شخصية: «لا نستطيع منع الناس من تشييد تمثال عرفاناً له، إن ذلك ليس من أفعاله». وقد راقبني المحرّر طويلاً بعد تصريحه هذا ليرى إن كنت صدّقته.

من المؤكّد أن طقوس «العبادة الرئاسية» التي أحاط صدّام حسين نفسه بها في العراق ـ مدينة صدّام، مطار صدّام الدولي، مستشفى صدّام، معرض صدّام للفنون ـ كانت غائبة في سوريا. فبينما سمّيت مستشفيات ومطارات محلّية باسم باسل الأسد، هناك مؤسّسة سورية واحدة باسم الأب. ففي دمشق، جلس الأسد الأب على مقعد حديدي ضخم ـ بيده اليمنى كتاب مفتوح ـ وذلك خارج مكتبة الأسد... إنها مؤسّسة ضخمة مساحتها ٢٢ ألف متر مربّع، فيها معارض تحمل استمرارية تاريخ سوريا: ١٩٣٠٠ مخطوطة أصلية تعود بتاريخها إلى القرن الحادي عشر، ٣٠٠ ألف مجلّد، مركز بصري ـ سمعي ومعلوماتية، سلسلة من القاعات الرسمية للفنون ولصيانة المخطوطات القديمة والمحافظة عليها. عندما قابلت الدكتور مازن عرافي مدير النشاطات الثقافية للمكتبة، تحدث باحترام وبصوت خافت حول المعلومات الضخمة التي تدخل الآن في الكومبيوتر بما في ذلك كل قانون سوري صدر منذ عام ١٩١٨ ـ عندما تمتّع السوريون لفترة قصيرة بالحرية من الإمبراطورية العثمانية قبل أن يُفرض عليهم الحكم الاستعماري الفرنسي.

تمّ وضع كل فيلم سوري منتج، بما في ذلك الأفلام الوثائقية الفلسطينية لحرب ١٩٤٨ مع إسرائيل، على أشرطة فيديو. وكانت الكتب المحظورة من قِبل النظام متوفّرة للطالب الباحث بما في ذلك الأعمال الأخيرة لميشال عفلق، الذي أسّس حزب البعث الاشتراكي العلماني عام ١٩٤٠ والذي تم نفيه لاحقاً إلى العراق عندما انقسم الحزب إلى مجموعات سورية وعراقية.

فتح الدكتور نهاد جرد خزانة عند المدخل تؤدّي إلى قسم المخطوطات، وكانت هناك على بعد أمتار مني صفحات بخطّ فارسي باللونين الذهبي والأزرق، وهي من أعمال الفيلسوف الإسلامي ابن المرزبان الأذربيجاني من غرب إيران، عام ١٠٦٦. ففي الوقت الذي كان هارولد الإنكليزي يستعدّ فيه لقتال وليم النورماندي في هاستنغز، أنهى الأذربيجاني نصّاً سوف يجري تصويره بعد تسعة قرون ويوضع على جهاز الكومبيوتر في مكتبة الأسد. سار الدكتور جرد عبر ممر ضيّق وكانت إلى جانبنا الترجمة الفرنسية للقرآن العائدة إلى عام ١٦٤٩ وترجمة للإنجيل من عام ١٦٧١ باللاتينية والعربية، وقاموس عربي عمره ٥٠٠ سنة، والخطب المجموعة للخليفة علي يعود تاريخها إلى عام ١٣٠٨، ودراسة تعود إلى عام ١٤٦٦ حول كيفية امتطاء المحارب العربي صهوة جواده بينما يقاتل بالسيف والدرع. تمّ نقل ذلك كلّه إلى الكومبيوتر حيث جرى بحرص تسجيل تاريخ سوريا الحديث أيضاً للأجيال القادمة.

إن هذه المكتبة هي مثل العقل... وقد فهمت ذلك عندما أخذتني «حسنة اسكيهيتا» إلى غرفة الكومبيوتر. قالت: «نقلنا على أقراص الكومبيوتر كل خطاب ألقاه رئيسنا منذ عام ١٩٧٠»... وسألتها كم هو عدد الخطب التي ألقاها الرئيس منذ وصوله إلى السلطة؟ أجابت بسرعة البرق: «ألقى ٥٤٤ خطاباً، هل تريد الاستماع إلى أحدها؟» وجالت في ذاكرة جهاز الكومبيوتر... ثم ظهر الرئيس على شاشة الكومبيوتر متجهّماً وشاجباً للعنف الأصولي في عام ١٩٨٢... ثم أثناء اجتماع رئاسي مع الصحفيين البريطانيين في ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٩٢، فحوار بين الأسد ومحرّري مجلة التايم في السنة نفسها.. ثم مؤتمر صحفي عام ١٩٩٤ مع الرئيس كلينتون. هذا هو الخلود بالفعل... ثم فكّرت في أن ذلك هو عرض يُظهر كم هي مهيبة قدرة المؤسّسات السورية الأخرى على المكننة... جهاز الاستخبارات على سبيل المثال... ولكن المكننة هناك ستكون أكثر أهمّية من هنا....

ذلك أنه من الواضح أن مكتبة الأسد تهدف إلى تأمين استمرارية تربط الخلافة بالبعث، والفلاسفة الإسلاميين القدامى بحافظ الأسد... بالحرص نفسه

الذي تتمتّع به النساء وهنّ يقمن في غرف الأرشيف بإصلاح وجمع الصفحات الممزّقة من كتب القرن الخامس عشر. ومن المؤكّد أن خطاب الرئيس حافظ الأسد الذي ألقاه اليوم بمناسبة الذكرى السادسة والعشرين «للحركة التصحيحية» تمّت برمجته أيضاً. بدأ الخطاب قائلاً: «بتصميم صلب، نواصل مسيرتنا نحو النصر، عاملين بكل قوتنا على تحصين الوطن». وبعد التفكير مليّاً فإنني أعتقد أن هذا هو ما قاله هارولد البريطاني لقوّاته خلال توجّهه إلى المعركة ضدّ وليم النورماندي عام ١٠٦٦.

ما تعلنه سوريا اليوم لجنودها مدوّن بآية قرآنية حول قمّة النصب التذكاري للجندي المجهول مقابل قصر الأسد فوق دمشق: «ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربّهم يرزقون». في القبو، توجّهت نحوي مجموعة من الضبّاط السوريين وهم يرتدون بذلات رمادية وبنّية، وسألني أحدهم مشيراً إلى لوحة زيتية لمبنى جدرانه بنيّة ويخرج الدخان عبر نوافذه: «أتعرف ما يعني هذا؟».. مثل كل السوريين، كان الظابط يريد اختبار معرفة الأجنبي للتاريخ ليرى من أين يبدأ بروايته. أعرف أن المبنى هو البرلمان السوري عام ١٩٤٦ والذي كان يحترق نتيجة نيران القوّات الفرنسية التي رفضت إلغاء انتدابها بموجب قرار عُصبة الأمم بعد الحرب العالمية الثانية ـ وقد قُتل في عملية القصف ٢٥ من النوّاب والجنود السوريين. وفي خزائن المعروضات في الجدار، هناك ثلاث لوحات كبيرة ترسم استمرارية مشابهة لتلك التي رأيناها في المكتبة. . . في خزانة ضخمة للعرض، رسم لصلاح الدين وهو يسحق قوّات الاحتلال الصليبي في معركة حطّين شمال القدس. ويظهر رسم ثالث المدفعية السورية وهي تدمّر دبّابات إسرائيلية في معركة السلطان يعقوب في جنوب لبنان بعد الغزو الإسرائيلي عام ١٩٨٢.

يُظهر رسم رابع معركة يتعلّمها كل سوري في المدرسة ويجهلها معظم الغربيين: معركة ميسلون عام ١٩٢٠... بعد انتهاء حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ أعطت الأمم المتّحدة لفرنسا الانتداب على سوريا، وهو التزام خرقته من خلال سلخ جزء من شاطئ المتوسّط عن سوريا (لإقامة دولة لبنان المسيطر عليها مسيحياً

والتي انهارت في الحرب الأهلية بعد ٢٥ سنة) ومن خلال تدمير الجيش السوري الذي وضع ثقته بالبريطانيين للحصول على الاستقلال مقابل مساعدتهم ضدّ الأتراك. وقد قاد وزير الدفاع السوري يوسف العظمة فرسانه ضدّ الدبّابات الفرنسية في وادي ميسلون على الحدود بين لبنان وسوريا ـ لم تكن الحدود موجودة حينها كون لبنان كان جزءاً من سوريا ـ يوم ٢٤ تموز/يوليو ١٩٢٠. قامت دبّابات الجنرال غورو ـ في سابقة تاريخية لا مثيل لها سوى الهجوم الألماني على الخيّالة البولندية بعد تسع عشرة سنة ـ بسحق الفرسان المحاربين وتركهم يتحلّلون تحت حرارة الصيف...

أصبحت الطريق إلى ميسلون اليوم مؤلّفة من ستة خطوط، ويقع ضريح يوسف العظمة في غابة أشجار صغيرة في مكان شبه مخفيّ إلى الجنوب. عندما وصلت إلى هناك في ليلة باردة، وجدت ضريحه فقط ومجموعة من المنازل المهدّمة على الطريق الرئيسي الذي يظهر أن القذائف دمّرته. مع ذلك كان هناك رجل عجوز على طرف تلّة لديه ذكريات طفيفة حول المعركة: لا يتذكّر حمزة عبدالله كم هو عمره، لكنه أعاد ترتيب أيام الصبا عندما كان يمضي الأسابيع في جمع علب الذخيرة وشظايا القنابل بعد معركة الخيّالة العربية اليائسة عام ١٩٢٠.. كان حمزة طويل اللحية يضع كوفية قديمة على رأسه، قال: «جاء الفرنسيون من وادي «نمسي» بقوّاتهم الجزائرية والسنغالية، وكانت هناك طائرات حربية أيضاً ولم يكن لدينا أيّ فرصة للنجاة».

أمسك حمزة بيده اليمنى وأخذ يحرّكها من جهة إلى أخرى مثل طائرة بجناحين وقعت في مطبّ هوائي. «انتهى كل شئ خلال ساعات وقتل الفرنسيون تقريباً كل من وجدوه. أخذوا والدتي أسيرة ووضعوها في منزل هناك. جرى تقييد يوسف العظمة وآخرين من قادتنا، وقرّر الفرنسيون إعدامهم. توفّيت والدتي منذ ٢٧ عاماً لكنني أذكر روايتها لي كيف شاهدت العظمة يقاد إلى عمود هاتف ويُعدم. رمى بكوفيّته إليها وإلى بقيّة النسوة، وقال: «هذه لكم لتتذكّروني». قالت والدتي: كانت النساء تبكين وقد أعدنَ الكوفية إليه قائلات: «أنت البطل والأجدر بارتدائها». كان مربوطاً إلى عمود هناك وطلب الفرنسيون من

الجزائريين الفرنسيين إطلاق النار عليه، لكنهم رفضوا، كانوا مسلمين صالحين، عندها طلب الفرنسيون من المرتزقة السنغاليين القيام بذلك، وأطلق السنغاليون النار عليه بينما كان مقيّداً».

قامت عائلة حمزة عبدالله بتقديم القهوة الساخنة الإجبارية وانضمّ إلينا شاب، وهو جندي قاتل في لبنان.. قال لي: «سأرشدك إلى المكان الذي احتجزوا فيه النساء ويوسف العظمة». وقادني إلى الجانب الوسخ من التلّة حيث توجد البيوت العثمانية المدمّرة إلى جانب الطريق: «هنا احتجزهم الفرنسيون، لكن المنزل أصبح مدمّراً بمعظمه منذ عام ١٩٦٧ عندما قصف الإسرائيليون المنطقة». ويبدو أن ما لم ينجزه الفرنسيون قام الإسرائيليون بإنجازه... لكن ليس كلّياً. فلم تكن رواية الجندي السابق كاملة: «كان هذا منزلي دائماً. عام ١٩٨٢ قاتلت عبر الحدود في معركة السلطان يعقوب ـ حيث حاصرنا الدبّابات الإسرائيلية هناك ـ وفي العام التالي عندما كنت موجوداً في منزلي هنا قصفتنا البحرية الأميركية عبر لبنان وسقطت قذائف البارجة الحربية نيوجرسي على التلال هنا». خيّم الصمت بينما كنت أدوّن هذا الدليل القويّ حول التتابع التاريخي في مفكّرتي. عام ١٩٢٠، دمّر الفرنسيون الجيش العربي في ميسلون. عام ١٩٦٧، بعد انتهاء حرب الأيام الستّة قصف الإسرائيليون ميسلون. بعد ستة عشر عاماً أخرى، قصف الأسطول السادس الأميركي، الذي يساند قوة الناتو المنهارة في بيروت والتابعة لرونالد ريغان، إمدادات الجيش السوري عبر وادي ميسلون... كان الرجل الذي يخبرني ذلك هو الشخص نفسه الذي قاتل في معركة الدبّابات التي تُروى في ذكرى الجندي المجهول. فرنسا، إسرائيل، أميركا. وإذا كان السوريون مصابين برُهاب الأجانب فمن السهل معرفة السبب... هنا في هذا الوادي حيث تُركت جثث الرجال والجياد تتحلّل في أحد الأيّام.

قاتل الجنود السوريون لمواجهة الدولة الإسرائيلية الناشئة عام ١٩٤٨ وبعدها قاتلوا عام ١٩٦٧ وعام ١٩٧٣.. وفي لبنان عام ١٩٨٢. قاتلوا أيضاً عام ١٩٨٢ في مدينة حماه وسط سوريا ـ اسم يذكر بخوف كبير أو يتمّ تجاهله. عندما بدأتُ المسار الطويل باتجاه الطريق الدولي، كان الجبل الرمادي المغطّى

بالثلج والمواجه للبنان إلى يساري، وقد وجدت اسم حماه ثقيلاً على النفس. قطعت هذا الطريق عدّة مرّات إبّان «انتفاضة الإخوان المسلمين عام ١٩٨٢» عندما هاجم متمرّدو حماه مسؤولي حزب البعث في المدينة. قاموا بذبح عائلات الموظّفين الحكوميين، وقتلوا رجال الشرطة وقطعوا رؤوس الأساتذة الذين أصرّوا على التعليم العلماني ـ كما فعلت الجماعة الإسلامية المسلّحة في الجزائر، وكما فعل الثوّار الأفغان عندما شنقوا أستاذ مدرسة وزوجته خارج مدينة جلال أباد عام ١٩٨٠، وأنا ما زلت أتذكّر قطعة اللحم السوداء على الشجرة وهي تتأرجح مع الريح. بالعودة إلى عام ١٩٨٢، كان لديّ ١٨ دقيقة مهمّة ـ والآن أدرك الخطورة ـ نجحت خلالها بدخول حماه بينما كانت القوّات الخاصّة بقيادة رفعت الأسد، شقيق الرئيس، تسحق الانتفاضة بوحشية كبيرة. وقفت عند نهر العاصي بينما كانت الدبّابات السورية تقصف المدينة القديمة.. شاهدت الجرحى والدماء تغطّيهم، متمدّدين قرب العربات المصفّحة، والمدنيين الجوعى يفتّشون في النفايات عن خبز. قيل إنه قُتل يومها حوالي ٢٠ ألف نسمة في الخنادق تحت الأرض والمباني المفجّرة. ربّما كان الرقم الصحيح عشرة آلاف لكنّ معظم المدينة القديمة دُمّر(*). عدت الآن وكانت لديّ بعض الأفكار الصعبة. بعد أسبوع فقط، كنت في الجزائر أكتب عن قتل المدنيين من قِبل المعارضة الإسلامية المسلّحة، عن الذبح وقطع الرؤوس، وفِرق الموت وغرف التعذيب الحكومية. في عام ١٩٨٢، ندّد العالم بسوريا بسبب قسوتها في قمع حماه، والآن يخيّم الصمت بينما تقوم الحكومة الجزائرية بتصفية أعدائها الإسلاميين بشكل دموي. تساءلت بينما كانت سيّارتي تنطلق على الخطّ السريع المبلّل بالمطر: ألم يكن هناك تشابه مخيف؟ نطالب باحترام حقوق الإنسان في الشرق الأوسط ـ بصوت أعلى في الدول العربية مما هو عليه في إسرائيل ـ لكننا أيضاً نحذّر من مخاطر الأصولية... «الإرهاب الإسلامي».

لقد رحلت حواجز المخابرات التي أوقفتني في حماه وحولها عام ١٩٨٢،

(*) حول عمليات القتل والتدمير في حماه راجع كتاب «ويلات وطن».

رحلت عن الطرقات لكن ظلّ وجودها مستمراً بشكل سرّي في مجتمع يعتبر أي معارضة لنظام الأسد خيانة. ليس هناك أدنى شكّ حول من يحكم حماه اليوم، أو حول الحاجة إلى محو ماضيها: تنتشر اليوم الحدائق والمسابح بالحجم الأولمبي وفندق فخم ومسجد جديد قيد الإنجاز فوق حُطام معظم حماه القديمة. لم يورد الدليل الإنكليزي المطبوع حديثاً أي إشارة إلى أحداث عام ١٩٨٢ ما عدا الإقرار بالغياب الغامض ـ غير المفسّر ـ للمسجد الأصلي الكبير. عندما سرت عبر جسر صغير في ضاحية الكيلاني وجدت ذكريات من الماضي: مبانٍ من القرن الثامن عشر ممزّقة بالقذائف، قصر حجري أبيض وأسود مدمّر خلف نوافير المياه الشهيرة في حيّ النورية في المدينة، فيلّا حديثة مصابة بقذيفة عند النافذة. كان بعض الرسّامين المحلّيين يبقون ما فُقد حيّاً، بألوان مائية ضعيفة على بطاقات تذكارية يمكن شراؤها في السوق.

كان بعض الشجعان مستعدّاً للتذكير بما حصل.. كان محمّد ـ أو الاسم الذي اختاره ـ يقف في شارع ضيّق في الكيلاني، يتحدّث ببطء وحذر شديد. قال: «عشت هنا في خضمّ المعركة، كان بيتي على خط النار بين الجيش والمتمرّدين. عشت في الطابق السفليّ مع ستة أفراد من عائلتي، ثمانية عشر يوماً. لا تستطيع تصوّر شعوري عندما نفد الطعام. زحفت إلى الخارج ووجدت بعض الخبز القديم قرب برميل زيت ـ كان مبلّلاً بالزيت لكننا أكلناه. في النهاية، استطعنا الرحيل في آخر يوم للمعركة».

الواقع أن حديث محمّد معي كان غير عادي مثل روايته. هل اختفى شعور الخوف في سوريا ـ أو أن حمّام الدم في حماه يُنظر إليه الآن نظرة جديدة؟ حاول موظّف حكومي شاب ـ مجهول الهويّة للضرورة وموالٍ بشدّة للأسد ـ أن يشرح لي ما حصل بينما كنا متوجّهين إلى مطعم صحارى في دمشق. إنه مطعم فاخر طاولاته مغطاة بأغطية بيضاء ويضع مضيفوه ربطات عنق، ويملكه ـ للسخرية ـ الرجل الذي أشرف على قمع الانتفاضة في حماه، شقيق الرئيس: رفعت الأسد. قال: «أعرف أنك تعارض ما حصل في حماه»، روبرت، عمليات الإعدام والقتل، لكن عليك أن تعرف أيضاً أنه لو لم يعمد رئيسنا إلى سحق

الانتفاضة لأصبحت سوريا مثل الجزائر اليوم. حاولنا التحاور مع الإخوان أولاً، التفاوض معهم. لم نكن نرغب في حمام الدم هذا. طلبنا منهم معرفة مطالبهم. قالوا: «رأس الرئيس» وبالطبع كانت هذه نهاية الحوار. لا نقبل أن تكون هناك دولة إسلامية أصولية في سوريا. أنتم في الغرب يجب أن تكونوا شاكرين لنا. سحقنا التطرّف الإسلامي هنا. نحن الدولة الوحيدة في الشرق الأوسط التي قمعت الأصولية كلّياً». وأمام أطباق الحمّص والبندورة واللبن المثوّم، والعرق السوري المحلّي الذي يحرق جوفنا، يستطيع المرء فقط أن يتأمّل الحقيقة الواضحة التي يقولها التصريح الأخير لهذا الرجل.

ظهرت كراهية الأسد الشخصية للإخوان المسلمين في خطاب ألقاه بعد شهر من حمّام الدم في حماه، ما زالت كلماته الآن في ذاكرة جهاز الكومبيوتر عند حسنة في مكتبة الأسد، تحت إشارة تاريخ ٧/ ٣/ ١٩٨٢. كانت تصريحات الأسد مذهلة بل مخيفة كما لو أنه يتحدّث عن الجزائر. «ليس هناك شيء أكثر خطورة على الإسلام من تحريف معانيه ومفاهيمه عندما تتصرّف كمسلم. هذا ما يقوم به الإخوان المسلمون المجرمون... إنهم يقتلون باسم الإسلام. إنهم يذبحون الأطفال والنساء والمسنّين باسم الإسلام. إنهم يقومون بإبادة عائلات بكاملها باسم الإسلام. الموت ألف مرّة للإخوان المسلمين، المجرمين، المفسدين».

وقد حصل ذلك.. تماماً كما ورد في خطاب الرئيس.. فقد وجدهم الموت.. ألف مرّة... وأكثر...

بعد سنتين من مجزرة حماه، حاول رفعت الأسد الاستيلاء على السلطة من أخيه محرّكاً دبّاباته ت٧٢ في شوارع دمشق... ثم نُفي إلى إسبانيا... وقد تحدّث بعد وفاة أخيه حافظ عن مسرحية الخلافة الرئاسية ـ التي لم تكن له. ولم يأت صاحب المطعم والنادي الليلي وسيف الانتقام ضدّ الإخوان المسلمين إلى السلطة أبداً. ومثل الأمير حسن في الأردنّ، فقد أغضب بقوّة ـ وبشكل عنيف ـ أخاه.

في هذه الأثناء، ما زال هناك أعداء آخرون على أبواب دمشق. بعد الموافقة على صفقة «الأرض مقابل السلام»، المطروحة من قِبل إدارة بوش الأب، قيل للرئيس الأسد إن عليه إقامة سلام دون استعادة مرتفعات الجولان. وصرّح الإسرائيليون عام ١٩٩٦ ستّ مرّات عن حرب محتملة ضدّ سوريا. وعندما حرّك الأسد حوالي ٢١ ألف جندي من قوّاته خارج لبنان ووضع لواء مدرّعاً إلى جنوب الخط السريع دمشق - بيروت لمنع حصول هجوم إسرائيلي كان متوقّعاً في ذلك الخريف، اتهم بأنه يحضّر لهجوم ضد إسرائيل. في الواقع، كان الأسد الزعيم العربي الوحيد الذي حذّر من مخاطر «عملية السلام» وتحدّث بشكل علنيّ عن شكوكه في أن الإسرائيليين قرّروا ـ بعد الحصول على تنازلات من العرب ـ الاحتفاظ بمعظم الأراضي التي احتلّوها عام ١٩٦٧.

ليس من الصعب ملاحظة حجم الأراضي المقصودة. توجّهت بسرعة نحو القنيطرة، المدينة السورية التي دمّرها الإسرائيليون كلّياً عندما انسحبوا إلى خطوط وقف إطلاق النار بعد حرب ١٩٧٣ وفق اتفاق كيسنجر. إلى يميني، بدت مرتفعات الجولان المحتلّة من قِبل إسرائيل منذ عام ١٩٦٧ ـ نقطة الخلاف في عملية السلام ـ أرجوانية تحت زخّات المطر ومجلّلة بخط أبيض من الثلج. وما زال رفض إسرائيل إعادة هذه الأرض ـ رغم الوعود التي أعطتها الولايات المتحدة قبل مؤتمر مدريد العربي الإسرائيلي ـ إضافة إلى الأراضي الفلسطينية المحتلّة، الموضوع العالق المؤدّي إلى اندلاع حرب جديدة في الصراع العربي ـ الإسرائيلي.

توجّهت بالسيّارة على طول خط الجبهة القديم لحرب ١٩٦٧، مروراً بالأسلحة المهجورة لحرب ١٩٧٣. وجدت التحصينات الجديدة للجيش السوري، وعليها هوائيات لاسلكي، محميّة بعربات مصفّحة وشاحنات جنود. وبعيداً عند أسفل الطريق، داخل المنطقة التابعة للأمم المتّحدة، وصلت إلى بلدة القنيطرة القديمة المهجورة، مستقبلاً كالمعتاد بتمثال للأسد ومجموعة من اللافتات فوق البيوت المهدّمة على كل منها صورة الرئيس الأسد مبتسماً مع ابنه باسل. باسم الأب وابنه الراحل، فإن هذه الأرض خلف هذه المدينة ـ

مرتفعات جبل حرمون (الشيخ) وسلسلة التلال التي تضمّ محطّات الرادار الإسرائيلية العالية التقنية ـ سوف تتحرّر في يوم من الأيام إمّا بالسلام أو بالحرب. على الجبهة السورية ـ القريبة بحيث أستطيع رؤية الجنود الإسرائيليين يراقبونني بمنظار ثنائي ـ أشار الضابط السوري إلى مجموعة من السيّاح في البساتين: «أترى تلك السيّارات الثلاث؟ إنهم حتماً يهود أجانب، قيل لهم إن سوريا بلدهم، وإن كل شيء يرونه يجب أن يكون ملكهم، دمشق وما وراءها». أنا متأكّد من أن ذلك ما يفكّر فيه الضابط. وكنت شبه متأكّد من أن السيّاح في السيّارات الثلاث يعتقدون حسبما قيل لهم إن الجولان جزء من إسرائيل وأن سوريا تنتظر الفرصة فقط للاستيلاء عليه.

على بعد مئات الأمتار، شاهدت قبور الجنود السوريين الذين قاتلوا على هذه الأرض لأكثر من خمسين عاماً منتشرة بين الأشجار والعشب. كانوا قابعين تحت شواهد إسلامية وبعضهم تحت صلبان مسيحية. هنا يرقد النقيب إسماعيل بن خلف آل شحادة (٢٩ سنة) مسلم «سقط شهيداً في ٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٧٣». إلى جانبه يرقد الرقيب مخايل سرور بن وهيبة، مسيحي من شمال سوريا، قُتل أثناء عمله قبل يوم فقط. كان هناك أيضاً بعض العرفاء من اللاذقية وحلب وخلفهم قبور قديمة. هنا يرقد المجنّد كامل محمد ياسين من كتيبة المشاة الثانية، قُتل أثناء عمله «من أجل القضية العربية» ـ في محاولة لتدمير دولة إسرائيل الدخيلة ـ يوم ١٣ تموز/يوليو ١٩٤٨... والعريف صلاح برماوي من الكتيبة الثانية للخيّالة... ومئات غيرهم.

على طرف المقبرة، وجدت المجنّد الجوّي السابق أسد بدر، حارس قبور القنيطرة، يضع الزهور وقت الظهيرة. كيف يشعر تجاه الموتى؟ أجاب: «إحساس أي إنسان حيّ نحو الموتى، نحن نفخر بالشهادة». لكن عندما سألته إذا صادف الموت في الحرب، زالت ابتسامة الرجل. قال: «نعم، في قاعدة دمّر الجوّية خلال حرب ١٩٧٣. كنا جالسين قرب شجرة لوز نتناول طعامنا من المعلّبات، أغارت علينا طائرة فانتوم إسرائيلية بشكل مفاجئ مطلقة قذائفها. مرّت الطلقات قرب الشجرة وأخطأتني. لكنّ صديقي مرام الساير الذي كان قريباً

مني... قطعته القذائف نصفين». بعدها تغيّر ضغط الجوّ حولنا نتيجة الانفجارات عندما اخترقت طائرتان إسرائيليتان جدار الصوت متّجهتين من الغرب إلى الشمال، وكان دخانهما الأبيض يظهر وراءهما خلف النصب التذكاري للحرب والقبور البيضاء.

لكن لم تكن الجولان الأرض الوحيدة المفقودة التي يريد السوريون استردادها. إن خارطة سوريا التي توجد في مكتبات دمشق تتضمّن مفارقة مثيرة للاهتمام... إلى الجنوب تظهر مرتفعات الجولان باعتبار أنها سورية ـ وهي بالفعل سورية، رغم أنها تحت الاحتلال الإسرائيلي ـ لكن إلى الشمال، فإن الأرض الوطنية تصل إلى ساحل المتوسط إلى أبعد من اللاذقية. وإذا صعدت على الطريق السريع الساحلي تبدو الخارطة أكثر طموحاً. وحتى قبل أن أصل إلى بلدة سويدية، وجدت خلف مركز الحدود السورية العلم التركي. وعلى الطريق المكسوّة بالجليد المتجهة نحو حلب، بمحاذاة الوادي المليء بالغابات وأشجار البرتقال المتجلّدة، كانت الأعلام التركية ترفرف على المرتفعات ـ ١٠٠ كلم إلى الجنوب من الحدود المرسومة على الخريطة. وبعد التدقيق في الخريطة اكتشفت خطاً رفيعاً متقطّعاً شبه خفيّ على الورقة، محدّداً حدود تركيا الحديثة وجزءاً آخر من سوريا المفقودة. ويروي الرسم الخرائطي القصّة المنسيّة «لهديّة فرنسا» عام ١٩٣٩ لتركيا: المدينة السورية إسكندرون، أهديت إلى الأتراك على أمل إقناعهم بالانضمام إلى الحلفاء في حربهم الدائرة ضدّ ألمانيا.

من المذهل معرفة مقدار ما خسرته سوريا (كأرض وليس كدولة) في القرن العشرين... فقد تقلّصت بدلاً من أن تتوسّع، رغم تصويرها على أنها دولة توسّعية تنتظر الفرصة السانحة للاستيلاء على لبنان وفلسطين وحتى إسرائيل، فخسرت شمال فلسطين ولبنان وشرق الأردنّ بعد الحرب العالمية الأولى، وإسكندرون عام ١٩٣٩، والجولان عام ١٩٦٧ ـ الثلاثة الأولى بسبب الخداع الغربي والأخيرة بسبب الحرب. وإذا كان الهاشميون قد أمضوا العصر الحديث يخسرون الأرض فكذلك كانت سوريا.

بعد عام على رحيل الملك حسين، توفّي خليفة آخر، أسد دمشق شخصياً،

وفي ظروف فيها شيء من الشماتة بالنسبة إلى أعداء سوريا. فلأكثر من ربع قرن، كان جيش الأسد موجوداً في لبنان ـ لمواجهة الغزو الإسرائيلي، وهذه حقيقة، ولكن لتأمين التبعية أيضاً. ظُهر يوم السبت في العاشرة من حزيران/يونيو ٢٠٠٠، كان الرئيس الأسد يتحدّث على الهاتف مع حليفه اللبناني الرئيس إميل لحّود قائلاً له ـ وهذا هو أسلوب الأسد ـ «قدرُنا أن نبني لأولادنا مستقبلاً مطمئناً». في هذه اللحظة، سمع لحود الهاتف يسقط والخط ينقطع. بعد عشر دقائق، أعيد الاتصال مع القصر الجمهوري في دمشق ليُسمَع صوت آخر على الخط. كان بشّار الأسد، طبيب العيون، ابن الرئيس. قال: «توفّي والدي الآن».

ملك آخر، مأتم آخر. عندما اقترب النعش منّا أخيراً، بدا صغيراً بشكل غريب وضيّقاً... خشب مطليّ مغطّى بعلم سوريا، تواكبه شاحنات الجنود أمام عربة المدفع الخضراء وخلفها. شبّه أسد دمشق نفسه أيضاً بصلاح الدين الذي ترقد رُفاته من القرن الثاني عشر على بعد كيلومتر منا. لكن على بعد بضعة أمتار سار ابنه بشّار مرتدياً بذلة سوداء ونظّارة سوداء، سار بثبات وراء عربة المدفع التي تحمل جثمان والده. وبدا بشّار الأسد غير مكترث بما إذا حاول عمّه رفعت، شقيق الأسد، الإطاحة به لاحقاً كما يعتقد العديد في سوريا ـ وإذا كان أي شخص آخر هنا بين عشرات الآلاف يريد تدمير حياة الخليفة الظاهر. في عمّان، كان القادة والناس متباعدين، أما في دمشق فكانوا يسيرون معاً.

إن بشّار الأسد الذي كان من مشجّعي تعميم الكومبيوتر، والذي لم يكن يتوقّع يوماً أن يكون وليّ عهد حزب البعث، كان محاطاً بجنرالاته.. كما يجب أن يكون زعماء الشرق الأوسط... وكنت قد شاهدت معظمهم قبل سنوات: الجنرال علي أصلان، رئيس الأركان الذي استعادت وحدته الخامسة جزءاً من مرتفعات الجولان عام ١٩٧٣ خلال حرب الشرق الأوسط، والذي أعطى أوامر للمروحيّات السورية بمنع تقدّم إسرائيل إلى جبال لبنان عام ١٩٨٢... الجنرال مصطفى طلاس صديق حافظ الأسد المخلص ووزير الدفاع الذي أوشك أن يقتل في غارة جوّية إسرائيلية على لبنان. وكان هناك، شقيق بشّار الأصغر ماهر. وكان هناك أيضاً عمّه جميل الذي وقف إلى جانب عمّه الآخر رفعت بعد

معارضته لحافظ الأسد الذي قال له: «أنا أخوك الأكبر الذي عليك طاعته، لا تنسَ أن الفضل لي بوصولكما إلى هذا المستوى»... وهكذا فإن صنيعة الرئيس الراحل يسير وراء نعشه في رحلته الأخيرة في دمشق. وكانت الجموع تصرخ: كيف نستطيع إعادة الأسد... وجاءهم الجواب من الجموع الحاشدة: بالروح... بالدم. . . نفديك يا أسد».

كانت عمليّة منظّمة تجري من خلالها الأمور في الشرق الأوسط، أقلّها الصراخ الفوضوي في جنازة الملك حسين، وأكثرها النواح المنظّم المدروس في الوزارات ومراكز الشرطة. ابتعد الحرس الجمهوري بأسلحته عن الجنازة باتجاه جموع الناس التي أعطت ـ وهنا نلقي نظرة على أسرار نظام الأسد الانتخابي ـ ٩٨ في المئة من أصواتها للرئيس الراحل الآن. كانت كلمة تشريفات مطبوعة على قبّعات رجال الشرطة الموجودين في داخل السيّارتين الأماميّتين مطليّة باللون الأبيض ـ تلك هي الطريقة التي يحبّ النظام تسيير أموره بها: تنظيم وتخطيط وقساوة بدون رحمة.

كان ألوف الشبّان يرتدون ملابس رخيصة ـ تفوح منها رائحة العرق والدخان وكان وبعضهم ينتحب ـ يركضون لمواكبة النعش. وكانت هناك بالفعل مساواة في الهستيريا واليأس. لكن في قصر الشعب، علمنا ما هي المساواة حقّاً. سارت وزيرة الخارجية الأميركية مادلين أولبرايت مثل أستاذ من جامعة جورج تاون نحو غرف الاستقبال بقبّعتها الزرقاء ووشاحها الأبيض، ومرّت أمام الرئيس الإيراني محمّد خاتمي، ولكنها بقيت هناك بينما سارع السوريون إلى إحضار الزعيم الإيراني الموقّر أمام النعش.

أين كان كلينتون؟ كيف يستحقّ حسين الأردنّ حضور رئيس أميركي ولا يستحقّ أسد سوريا ذلك؟ هل هذه بيروقراطية؟ أو يعود ذلك إلى كون الملك حسين نفّذ ما طلبه الأميركيون في حين لم يفعل الأسد ذلك؟ أقام خاتمي الصلاة على الجثمان الملفوف بالعلم وتحرّكت شفاهه كما فعل الرئيس المصري مبارك قبل بضع دقائق... كانت عينا الرئيس المصري تتحرّكان مثل السمكة بين الدبلوماسيين في الغرفة. هل فكّر مبارك في النجمتين اللتين ما زالتا تزيّنان وسط

العلم على النعش وهي الرمز شبه المنسيّ للوحدة بين مصر وسوريا، المحاولة الأخيرة اليائسة للوحدة العربية؟ أعطي عرفات وقتاً كافياً أمام النعش، لكن لفترة قصيرة، مقارنة بوقت بشّار.. كانت يده المرتجفة بسبب مرض البركنسون تُمسك بالكرسيّ. كيف غضب حافظ الأسد على هذا الرجل الصغير المريض، وقد عبّر مرّة عن انزعاجه بأن قُبلات عرفات التي يسيل منها اللعاب دامت طويلاً. للمرّة الأولى، كان هناك بعض المعزّين، ممن كانت أيديهم ملطّخة بالدم ـ حاملين على ما أعتقد، الدماء المجمّدة منذ مُدّة طويلة، لعشرات الآلاف من الأطفال العراقيين الذين ماتوا نتيجة العقوبات التي دعمتها مادلين أولبرايت شخصياً.

أرسل فلاديمير بوتين، سفّاح غروزني، رئيس وزرائه العجوز بريماكوف.

لم يستطع شارون الحضور أبداً. وكان رفعت، جزّار حماه، يواجه الاعتقال في حال حضر الجنازة... لكن كان هناك الكثير من الثوّار. إضافة إلى عرفات، قائد حزب الله السيّد حسن نصرالله، والعديد من فلسطينيّي الصف الثاني، ومقاتلين من الأيام الخوالي في «فتح لاند» في جنوب لبنان.

على شاشة التلفزيون السوري، وضعت موسيقى هادئة لبيتهوفن مع معلّق أغمي عليه فوق النعش، «أنت معلّمنا وقائدنا وقد تعلّمنا منك ـ سوف نسير وفق أفكارك ونهجك. قلوبنا محطّمة وعيوننا تبكي ـ صُدمنا برحيلك ولا نستطيع النهوض ـ لا نستطيع التصديق بأنك رحلت عنا». هنا أيضاً كنّا أمام أسلوب صبياني عزيز على قلب كلّ نظام دكتاتوري.. لم يكن ذلك عبادة... إلا أنه كان أكثر من إعجاب... إنه أشبه بتحويل قُدسي للزعامة السورية نحو الجبابرة ـ الآلهة.

لم يكن الأمر مختلفاً في القرداحة، حيث كان الأسد مسجّى الآن وسط مراسم خاصّة، في المسجد نفسه الذي سُجّي فيه ابنه باسل، وفوقه تلّ من الزهور. يا اللّه! أُغمي على رجل مسنّ قرب النعش، وقد رمى نفسه على البلاط الرخامي، وراح يبكي ويردّد العبارات التي انتشر صداها في أروقة المبنى، وظلّ يصرخ: «يا اللّه، يا اللّه». تمتم رئيس التشريفات: «لقد فقد عقله. الناس هنا

يحبّونه كثيراً كما ترى. لكننا نصادف هذه الأمور دائماً». قام ثلاثة موظفين بإبعاد الرجل المتوسّط العمر وهو ينظر إلينا بغضب.

تأليه أو حبّ؟ حبّ أو جنون؟ كانوا يدخلون المسجد بمعدّل خمسة آلاف شخص في الساعة.. رجال دين شيعة، ورجال دين كاثوليك، وجنرالات سوريون كانت أشعّة الشمس تسطع على نجومهم الذهبية. . . ونساء مسنّات وفتيات متشحات بالسواد، وقرويون، وموظّفون من الخطوط الجوّية السورية بلباسهم الرسمي النظيف. كان هناك الكثير مما يستطيع الزائر رؤيته.

هناك دروس يجب استخلاصها. كانت القرداحة مركز الأقلّية العلوية السورية التي سيطرت على معظم مصير سوريا، وبالطبع على كل سوريا، خلال الثلاثين سنة الماضية... الأمر الذي يساعد أيضاً على تفسير سبب توجّه قافلة من باصات حزب الله إلى ضريح الأسد، قام مستقلّوها الملتحون والمتشحون بالسواد بتقديم الاحترام لأكبر شخصية علويّة في العصر الحديث.

بدت الأعلام السوداء وجلال الموت طبيعية بالنسبة إلى هؤلاء الشباب، الثوّار الذين أخرجوا آخر الجنود الإسرائيليين من جنوب لبنان، والذين قضى العديد من رفاقهم أشلاء نتيجة الصواريخ والقذائف الإسرائيلية خلال ثمانية عشر عاماً من حرب العصابات.

ذلك أن العلويّين أنفسهم هم طائفة شيعية، بقايا ثورة شيعية إسلامية عدّلت المسار الإسلامي منذ ألف عام تقريباً. على غرار الشيعة، يعتقد العلويّون أن ابن عم النبيّ وصهره عليّ سُلبت منه الخلافة على يد الخلفاء الثلاثة. وكما فعل الموارنة اللبنانيون، لجأوا إلى السهول الجبلية، بعيداً عن مضايقات أبناء عمّهم المسلمين السنّة. وينتمي معظم العلويين إلى أربع قبائل ـ المتاورة، والحدّادين، والخيّاطين، والكلبية. وينتسب جدّ الرئيس الأسد سليمان إلى قبيلة الكلبية.

رسمياً، لا يستطيع البعث قبول مفاهيم الزعامة العلويّة ـ بالفعل لا جدال في ذلك ـ والأسد سوري من البداية إلى النهاية. عليك تناسي طريق القرداحة،

والفندق الفخم، والمطار المحلّي. عندما سألت إبراهيم معان من أين هو، أجابني: «أنا مواطن عربي سوري فقط». يشكّل العلويون حوالي ١٢ في المئة من سكّان سوريا البالغ عددهم ١٥ مليون نسمة. ولذلك، فإبّان حكم الأسد، كان أي سؤال حول فقدان التوازن العلويّ مع الأغلبية السنّية في مواقع السلطة يكلّفك حرّيتك أو عملك. وحتى الآن، أثبتت التحليلات التقريبية كم هي عديدة المواقع الرئيسية في الجيش والحكومة التي تخضع لسلطة العلويين. كان الأسد وعائلته علويّين وكذلك رئيس المخابرات السورية في لبنان الجنرال غازي كنعان ووزير الإعلام عدنان عمران وكذلك العديد من ضبّاط المخابرات والقوّات الخاصة في سوريا.

خلال الانتداب الفرنسي، قدّم بعض ـ إن لم يكن كل ـ العلويين مساندة لباريس وساعدوها في قمع الثورة السنّية. وخلال الانتفاضة السنّية ضدّ نظام الأسد التي تفجّرت في حلب وحماه، كان العلويون الأهداف الرئيسية. وقد تمّ قتل أكثر من خمسين تلميذ ضابط علوياً في كلّية المدفعيّة في حلب عام ١٩٧٩. . . وكانت العمليات الوحشية الأولى للإخوان المسلمين في حماه موجّهة مباشرة ضدّ المسؤولين العلويين وعائلاتهم.

بينما ضَمِن الأسد مشاركة سنّية واسعة في الحكومة ـ بما في ذلك وزراء الدفاع والخارجية ـ فقد استغلّ أعداء البلد الأصول العِرقيّة للسلطة السياسية في سوريا.... ولم تسنح الفرصة لنبوءات إسرائيل المستمرّة حول نشوب حرب أهلية بين العلويّين والسنّة. لكنّ سلطة العلويين تشرح الكثير من الأمور. تشرح لماذا أصبحت إيران ـ حصن الثورة الشيعية المسلمة ـ الحليف المقرّب لبلد يحكمه رجل يعود في إيمانه إلى العقيدة الشيعية. تفسّر لماذا يرتبط حزب الله،التنظيم الشيعي، بنظام دمشق، رغم ادّعائه بأنه خارج الطائفية. ومع أن حزب البعث علماني، فإن نساء القرداحة ما زلن يضعن الحجاب على وجوههنّ أكثر من طهران.

حتى الآن، ومنذ عهد هارون الرشيد، لم نشهد أي نظام غير ملكي ينقل الخلافة إلى ابن الرئيس، وقد عمد البرلمان السوري إلى تخفيض سنّ الرؤساء

في المستقبل إلى ٣٤ سنة ليتلاءم مع الخليفة الجديد بشّار الأسد. في مجالسه الخاصّة، سار بشّار على خطى والده: قرار استراتيجي بقبول معادلة الأرض مقابل السلام؛ لا اتفاقية سلام مع إسرائيل حتى استعادة كل الجولان؛ نعم لاتفاق نهائي غير مبني على نموذج عرفات في التفاوض على سلام تدريجي، إنما وفق قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢: انسحاب إسرائيلي من الأراضي المحتلّة مقابل الأمن لكل دول المنطقة؛ علاقات جيّدة مع المسيحيين في لبنان شرط ألا يطالبوا بانسحاب ٢١ ألف جندي سوري، وإذا غادرت سوريا لبنان يوماً ما، فلن يكون ذلك لصالح الأقلّية المسيحية التي طلبت منها المجيء إلى لبنان.

من ضريح الأسد عدت إلى حماه لفترة قصيرة.... كانت هناك لافتة سوداء تتدلّى خارج مدرسة رسمية في هذه المدينة المسكونة بالأشباح، وقد كتب عليها: «إلى جنّة الخلد يا قائد أمّتنا». لكن كانت هناك أسمال بالية تتدلّى من منازل الناجين في حماه مغسولة ومظلّلة بالشمس. وفي محلّ للورق كانت ثلاث رزم من الملصقات غير المبيعة على الطاولة... بعيداً عن ناعورة الماء الكبيرة التي تصدر صريراً: حافظ، باسل وبشّار. ما زال الخوف قائماً. وقال صديق قديم لي من حماه، بأسلوب حزين بينما كانت القطط ينقضّ بعضها على بعض في محلّ محطّم قديم: «ما حصل قد حصل. الماضي ذهب ونحن أولاد الحاضر ـ ٨٢ ذهبت ومعها أحداثها. لنقل كفى». أصدرت ناعورة الماء خارج بيته صريراً، تصرخ مشتكية من المحاور الحديدية القديمة التي تحيط بالدولاب والخشب الثقيل بينما مياه العاصي تسقط رذاذاً في المجاري المائية المهملة.

لكن رغم ذلك لا أحد يصرّح بالحقيقة: عن المذبحة في الدهاليز السفلية لمدينة حماه، عن الانتحاريات المسلمات اللواتي رمين بأنفسهنّ بين الجنود وفجّرن القنابل المربوطة على صدورهنّ، عن الأرامل المتشحات بالسواد اللواتي سنراهنّ لاحقاً في الضفّة الغربيّة وغزّة وإسرائيل والشيشان وروسيا. كان رجال الحزب وأتباع رفعت يجولون بين الأنقاض المحترقة بعد المجزرة ويعدمون عشوائياً الجرحى والمشبوهين والذين لم يستطيعوا تفسير وجودهم هناك.

وهذا يطرح السؤال المألوف: هل يستطيع أي نظام البقاء بدون نمط ما من الاعتراف بذنوب الماضي، من دون اختبار محاسبة ذاتية لورثة البعث وكذلك للناجين من الإخوان المسلمين القتلة؟ هل سيأتي وقت يستطيع فيه بشّار الأسد القول إن هذه الأعمال الرهيبة حصلت باسم الحزب؟ ونظراً لحاجته إلى دعم بعض القوى الظلامية المسؤولة عن مجزرة حماه، فإنني أشكّ في ذلك. يمكن أن تنجح الحقيقة والمصالحة في جنوب أفريقيا أو إيرلندا الشمالية لكن التاريخ في الشرق الأوسط يمتدّ بجذوره إلى الماضي البعيد. الماضي البعيد في الجزائر، والعراق ـ حيث لن يستمرّ نظام بعثي بعد هذه الاعترافات ـ الماضي البعيد في فلسطين، الماضي البعيد في إسرائيل وكذلك في لبنان.

صحيح أن في بيروت «حديقة من التسامح»... ولكنّ الذكرى المادّية الوحيدة للحرب الأهلية ـ ناهيك بالمبنى الإسمنتي المخترَق بالرصاص وقذائف المدفعية خارج وزارة الدفاع وآلاف المنازل اللبنانية المدمّرة ـ تتلخّص بالتمثال القديم الذي يحيي ذكرى المسيحيين والمسلمين الذين شنقهم الأتراك بين عامي ١٩١٥ و١٩١٦ لتجرّئهم على معارضة الحكم العثماني. «ساحة الشهداء» كما تسمّى، كان لها معنى مختلف خلال ١٥ سنة من الحرب الأهلية، لأنها تقع على خط المواجهة بين الميليشيات المسيحية والإسلامية، وقد حطّ من قيمة هذا المعنى كل أولئك الذين استخدموا موقعها الجغرافي في وسط بيروت لتدمير العاصمة. كان الملاك الذي يحمي التمثال مليئاً بمئات الثقوب الناجمة عن طلقات الرصاص، لكن تمّ الحفاظ عليه للمستقبل رغم الثقوب الواضحة فيه ـ رمزاً لتوبيخ دائم للذين يريدون تدمير الحبّ الأخوي الذي مثّلته افتراضياً هذه الشهادة القديمة...

قبل الحرب العالمية الأولى، ناقش المثقّفون العرب بشكل علني علاقة جديدة بين العرب والقسطنطينية، مطالبين بشيء من «الحكم الذاتي للأراضي العربية داخل الإمبراطورية العثمانية، إمّا عن طريق حكم فيديرالي ـ يكون السلطان بموجبه ملك العرب والأتراك ـ أو بدهاء أكثر في نظر الأتراك، عبر

حكم ذاتي تضمنه القوى الغربية وبخاصّة فرنسا. وذلك في الوقت الذي أصابت فيه أزمة مشابهة لا سابق لها المطالبين بالحكم الذاتي في إيرلندا، حيث نادى بعضهم بإيرلندا حرّة داخل الإمبراطورية البريطانية، وطالب آخرون بالاستقلال الكامل عن بريطانيا.

اجتمع الأعيان السوريون في باريس قبل الحرب وناقشوا أي نوع من الاستقلال سيُعطَون: من بين المطالب الأخرى، طالبوا بتدريس اللغة العربية في المدارس إلى جانب اللغة التركية واستخدامها معها في جميع الأمور الحكومية. لكن رغم أن الأتراك بدوا ميّالين إلى قبول هذه الأفكار، فإن الطبيعة الغامضة المتعمّدة للتعليمات الصادرة للحكّام الأتراك في المقاطعات العربية، أثبتت بسرعة أنه لم تكن لدى الباب العالي نيّة في تقاسم السلطات داخل الإمبراطورية العثمانية. لن تكون هناك حلول «نمساوية ـ هنغارية» في الشرق الأوسط. وحتى الوقت الذي أعلنوا فيه الحرب على الحلفاء عام ١٩١٤ ـ ويمكن القول بأن ذلك كان أكبر خطأ ارتكبته السلطات العثمانية منذ القرن الرابع عشر ـ حافظ الأتراك على وحدة الإمبراطورية لكنهم سمحوا بقدر معيّن من النقاش كان كافياً لتهديد وحدتها.

لا أحد يستطيع تصوّر المعاناة التي تعرّض لها اللبنانيون خلال الحرب العالمية الأولى. لقد قامت البحرية الفرنسية والبريطانية بفرض حصار على ساحل المتوسّط العثماني عام ١٩١٤، مانعة الموادّ الغذائية من الوصول إلى المشرق. لذلك عمدت القوّات العثمانية التركية إلى مصادرة كل الحبوب في لبنان لقوّاتها وصادرت الحيوانات من المزارع، وقضى الجراد الذي اجتاح البلاد عام ١٩١٥ على ما تبقّى من المحاصيل. لم يكن من الممكن فلاحة الأراضي وحصلت مجاعة رهيبة في شمال سوريا، مات فيها ٣٠٠ ألف نسمة منهم ١٢٠ ألف لبناني في بيروت وحدها، وكان معدّل موت المدنيين حوالي المئة يومياً. كانت السيدة أبريزة كرباج على قيد الحياة عام ١٩٩٨ لتقصّ روايتها حول هذه الإبادة الجماعية: «أصبحنا كالحيوانات، كنا نأكل الثمار الفاسدة عن الأرض. لكن لم يدم ذلك طويلاً، وكنا بعدها نقتلع الجذور والعشب». كانت عائلتها تعيش على

الأعشاب المغليّة. ومات جيرانها ولم يُعرف بموتهم إلّا نتيجة الروائح الكريهة المنبعثة من بيوتهم. لم تكن تركيا خائفة على حياة مواطنيها العرب العثمانيين في المشرق ـ كان لبنان جزءاً من سوريا ـ على الأراضي العربية التي تحكمها. وكان أحمد جمال باشا قائد الجيش الرابع التركي في سوريا وأيضاً أحد الحكّام الثلاثة لجمعية تركيا الفتاة التي كانت تحكم بفعالية الإمبراطورية العثمانية آنذاك. وعندما خشي الأتراك أن يساعد المواطنون الأرمن الروسَ والفرنسيين والإنكليز، شكّوا أيضاً في انضمام القوّات العربية العثمانية إلى الحلفاء أو إلى الثورة العربية الموالية للحلفاء. وقد أرسل جمال باشا الوحدات العربية من جيشه إلى غاليبولي وتحوّل بحقد ضدّ المواطنين المدنيين الذين يحكمهم والذين يستطيع إلصاق تهمة الخيانة بهم، وصبّ جام غضبه عليهم بقسوة صدّام نفسها.

عندما دخلت تركيا الحرب، غادر الفرنسيون قنصليّتهم في بيروت، وكان مقرّها هو المبنى ـ الموجود رسمياً تحت حماية الولايات المتحدة التي ظلّت محايدة حتى عام ١٩١٧ ـ الذي اكتشف البوليس السري العثماني فيه رسائل ومستندات وقّعها ثلاثون عربياً ـ معظمهم لبنانيون ـ فشلوا في مغادرة المشرق قبل الحرب، لكن كانوا أغبياء بشكل كافٍ للوثوق بالدبلوماسيين الفرنسيين من خلال كتاباتهم حول مستقبل سوريا. وجرى استدعاء الرجال السيّئي الحظ مسلمين ومسيحيين إلى الاستجواب في مدينة عاليه اللبنانية، حيث عُذّبوا بقسوة وأرسلوا إلى محاكم ميدانية للحكم عليهم بالموت المحتّم. كان عدد المسلمين ٢٧ شخصاً والمسيحيين ستة أشخاص وقد تمّ تكريم عذابهم في ما بعد من قِبل اللبنانيين كبرهان على أن أتباع الديانتين يستطيعون القتال والموت معاً من أجل استقلال بلادهم. وقد مات معظمهم على المشانق التي نُصبت على بعد ميل تقريباً من منزلي في بيروت. وفي كل مرّة كنت أتجوّل في مكتبات بيروت القديمة ـ أو أسافر في الشرق الأوسط ـ كنت أبحث عن رواية جديدة عن حياتهم ومماتهم.

كانوا بكل الأحوال شهداء عرباً ماتوا ليحيا غيرهم أحراراً ـ رحلوا من أجل وطنهم وليس من أجل أنظمة علمانية أو جيوش. بعد عدّة سنوات وفي

محلّ أثريات صغير في شارع قصر النيل في القاهرة، وجدت كتاباً قديماً مطبوعاً في مصر عام ١٩٢٢ من تأليف رجل دين ماروني لبناني، هو الأب أنطوان يميّن. كان يتضمّن الكتاب صوراً بالية لأطفال ضعفاء وجثث ممدّدة في الأزقة. لكنه كان يتضمّن أيضاً رواية مُقنعة للأيام الأخيرة ـ والخطب الأخيرة ـ للرجال المحكومين. جرى أخذ الأحد عشر الأوائل إلى مركز شرطة بيروت المركزي في ساحة المدافع ـ التي أصبحت لاحقاً «ساحة الشهداء» ـ وفي الساعة الثالثة صباحاً تم إعطاؤهم أغطية لرؤوسهم لتنفيذ الإعدام. وقد نُصبت ١١ مشنقة في الساحة، وقبل شنقهم سمح الأتراك لكل منهم بالتحدث إلى الجموع المحتشدة في الظلام، مع الحاكم التركي ورئيس الشرطة التركي وأعضاء المحكمة العسكرية التي حكمت على الضحايا.

صاح عبد الكريم الخليل من فوق منصّة الإعدام والحبل حول عنقه: أحبّائي أهل وطني، يريد الأتراك أن يخمدوا أصواتنا في صدورنا! يريدون منعنا من الكلام والمطالبة بحقنا في الاستقلال والتحرّر من استعباد تركيا... لكن.... سوف نطالب كل الدول المتحضّرة في العالم باستقلالنا وحرّيتنا. بلدي الحبيب، تذكّر دائماً هؤلاء الشهداء الأحد عشر! يا جنّة بلادي احملي مشاعر حبّنا الأخوي لكل لبناني، لكل سوري، لكل عربي، أبلغيهم عن نهايتنا المأساوية وبلّغيهم: «لحريتهم عشنا ومن أجل استقلالهم نموت».

عندئذٍ، وفقاً لرواية المؤلّف الماروني، دفع الخليل بنفسه السلّم تحت قدميه وشنق نفسه. بعده جاء دور الأخوين محمّد ومحمود المحمصاني. ولمدّة ربع ساعة احتضن محمّد شقيقه وحاول تهدئته. ثم توجّه إلى الحشد قائلاً: «لم أخن بلادي أبداً. أقسم بذلك أمام الله والجميع. اعتبرني الأتراك مذنباً لكنّ ذلك كذب. لا أعتقد أن حبّ الحرية وإرادة التحرّر لبلدي جريمة». وتوجّه نحو منفّذ الإعدام وطلب أن يشنق هو وشقيقه في اللحظة نفسها ـ بحيث لا يرى أحدهما الآخر وهو يموت. وقد نُفّذت رغبة محمد.

وجّه المحكومون الشتائم إلى جمال باشا على قساوته. وتوجّه جوزف بشارة هاني إلى المشنقة مثل العديد من رفاقه نافياً الخيانة. «أنا بريء، بريء كلّياً ـ

أقسم بذلك أمام الله... عشت حياة كريمة وأموت غير خائف». ثم ركل منفّذ الإعدام السلّم من تحت أقدام هاني. بعد بضعة شهور، جرى شنق أربعة عشر آخرين في بيروت، اثنان منهما عقداء في الجيش العثماني صعدا إلى المشنقة بكامل لباسهما العسكري. قال أحدهم وهو سليم الجزائري إنه يموت «مع حبّه لرفاقه العرب، حبّه لوطنه وكراهيته للأتراك». وكان ثمّة أخوان ـ مسيحيّان ـ كتب أحدهما رسالة إلى زوجته كاتماً عنها خبر إعدامه وزاعماً أنه سيراها قريباً في بيتهما في جونية.

رغم رغبتهم الطبيعية في إلقاء كلماتهم بجرأة، قيل إن الأتراك تأثّروا بشجاعة الضحايا الذين كان من بينهم عربي فلسطيني على الأقلّ. وأمرت السلطات التركية أن تُرمى جثثهم في مقبرة جماعية على شاطئ رأس بيروت. في تلك الأيام، لم تكن المنطقة التي يقع عليها مطار بيروت الآن مستصلحة، وكان شاطئ البحر يمرّ على زاوية ما هو كورنيش المزرعة اليوم. في هذه الأرض الحمراء دُفن المسلمون والمسيحيون بدون مراسم جنازة.

لكن جرى الغدر بهم؟ كان مفكّر فرنسي يراجع سجلّات الشؤون الخارجية لبلاده في نانت، وقدّم رواية مفصّلة حول هذه المسألة البائسة. جرى سجن مترجم القنصلية الفرنسية في بيروت، فيليب زلزل، وهو مسيحي، من قبل الأتراك في دمشق. ومن أجل تأمين عودته إلى بلدته اللبنانية بكفيا، أبلغ جمال باشا عن الرسائل التي خبّأها الدبلوماسيون الفرنسيون خلف جدار مزيّف وطاولة في القنصلية. ولم يكن القنصل الفرنسي الذي خبّأ المستندات سوى فرنسوا جورج بيكو، بيكو نفسه الذي أبرم مع السير مارك سايكس معاهدة سرّية عام ١٩١٦ تقوم بموجبها فرنسا بالإشراف على لبنان وسوريا بعد الحرب غير عابئة بالاستقلال الذي يطالب به العرب. كانت الرسائل الموقّعة [من المحكومين] تتضمّن طلب تدخّل عسكري فرنسي في لبنان وسوريا. وكانت النتيجة المباشرة لهذه المعاهدة الأجنبية قيام الفرنسيين بفصل لبنان عن سوريا وعزل الملك العربي فيصل عن حكم دمشق. كما كانت مذبحة ميسلون النتيجة المباشرة لمعاهدة سايكس ـ بيكو التي أبرمت برسالة من السفير الفرنسي في لندن يوم

١٩ أيار/مايو ١٩١٦ وبالتحديد بعد يومين من إعدام الأتراك للمجموعة الثانية من الوطنيين اللبنانيين في بيروت. لم تسجلّ ردّة فعل بيكو حول اكتشاف الرسائل المدينة التي تركها وراءه والتي اعتبرها مفخرة.

عندما وصل الجيش الفرنسي إلى بيروت عام ١٩١٨، جرى إخراج جثث الشهداء اللبنانيين من المقبرة المشتركة، لكن المعتقدات الدينية التي اعتبروها ثانوية بعد وطنيّتهم حالت دون دفنهم معاً. لم يسمح المسيحيون للشهداء المسلمين في بيروت أن يدفنوا في مقابرهم وكذلك لم تسمح السلطات المسلمة للمعدومين المسيحيين أن يدفنوا في مقابرهم. في الختام، عرض المسلمون الدروز، الذين تسمح معتقداتهم الصوفية بنظرة أكثر تحرّراً للحياة والموت، تقديم قطعة أرض صغيرة من لبنان حيث يستطيع هؤلاء الشجعان من مختلف الطوائف والذين قضوا معاً، البقاء جنباً إلى جنب في الخلود. وما هو مجهول لدى معظم اللبنانيين هو أن رفاتهم ما زالت موجودة قرب المجلس الدرزي في شارع الحمراء في بيروت.

حتى الآن كانوا جميعاً شهداء.. وهم كذلك. عارض المسلمون والمسيحيون الظلم التركي في سوريا، لكنّ المسيحيين الموارنة في لبنان كانوا يأملون بوصاية فرنسية بعد الحرب ـ وقدّموا ولاءهم للانتداب الفرنسي لأكثر من عقدين. وكان المسلمون وطنيين عرباً يرغبون في إقامة دولة عربية مستقلّة يشكّل المسيحيون فيها أقلّية صغيرة بشكل واضح... ومن خلال التدقيق عن قرب في الكلمات الأخيرة للشهداء على المشنقة يظهر أن أهدافهم لم تكن واحدة، حتى في الموت. كان الكاهن الماروني جوزف حايك بين الأوائل الذين أُعدموا وكانت كلماته الأخيرة: «عاش لبنان! عاشت فرنسا»! لم تكن هذه مشاعر أولئك الذين توجّهوا بكلامهم إلى «إخوتهم العرب» قبل أن يعدموا.

لكنّ موتهم كان على الأرجح الحافز الأخير للثورة العربية. كان الأمير فيصل ـ ملك سوريا مستقبلاً والذي أصبح ملك العراق الأوّل معيّناً من قِبل بريطانيا ـ يقيم خارج دمشق في ربيع عام ١٩١٦ وقد طلب من جمال باشا العفو عن المجموعة الثانية من المحكومين الذين ينتمون إلى العائلات الأكثر

شهرة في سوريا ولبنان. وكتب المفكّر والمؤرّخ جورج أنطونيوس كيف كان الأمير وضيوفه، عائلة بكري، يتناولون طعام الإفطار في الحديقة عندما أحضر لهم أحد السعاة الطبعة الخاصّة من صحيفة الشرق الموالية للأتراك وفيها تقرير مفصّل عن عمليات الشنق. قرأ أحد آل بكري أسماء الرجال المشنوقين التي «سقطت مثل كلمات جارحة في هواء ذلك الصباح الربيعي في بساتين دمشق». تلا أحدهم فاتحة القرآن. ثم وقف فيصل على قدميه، وانتزع كوفيّته من فوق رأسه ورماها تحت قدميه. وصرخ: «أيها العرب! أصبح الموت مُتعة لنا». وانطلقت الثورة العربية.

الفصل الخامس

لماذا؟

خارج سفينة محترقة.. لم يكن من الممكن إنقاذها من اللهب بأيّ شكل آخر.. سوى إغراقها...

اندفع بعض الرجال.. وكلّما كانوا يتقدّمون نحو سفن الأعداء.. كانت أصوات طلقاتهم تتراجع.. وتخفت في البعيد..

وهكذا ضاعوا جميعاً.. البعض حيث وجِدت بقايا السفينة.. والبعض احترق في البحر.. وآخرون غرقوا في السفينة المحترقة....

جون دون «سفينة محترقة»

نسيت أن أقفل هاتفي الخلوي، وشعرت بارتجاجه في جيبي بعد ثوانٍ من صعودي على رحلة سابينا عبر الأطلسي.... وكانت الفكرة الأولى التي خطرت ببالي، رغم أننا لم نكمل الصعود إلى الطائرة، أنني خرقت الأنظمة.. نحن نؤمن بالقوانين غرائزياً، بدون سؤال، وننقاد إلى أنظمة علمانية لتشرف على حياتنا بشكل أفضل من الأنظمة الدينية المفروضة.... تركت مقعدي واتجهت إلى مقدّمة الطائرة حيث كان الركّاب ينتظرون للدخول. كان رئيس تحرير المواضيع البارزة على الخط: «روبرت، أعتقد أنه بعد هذا الذي حصل سوف نضطرّ إلى وقف مقالتك حول صبرا وشاتيلا. لقد صدمت طائرة صغيرة الآن مركز التجارة العالمي في نيويورك، والمبنى يحترق». . . اللعنة! هذه هي المرّة الثالثة التي يؤجّل فيها مقالي، «هل الأمر مهمّ إلى هذه الدرجة؟ طائرة صغيرة؟» ـ «يبدو أن الأمر خطير جدّاً، وأعتقد أنّ من المستغرب وضع قصّة عمرها ١٩ سنة في

الصفحة الأولى وعندنا موضوع بهذه الأهمّية في نيويورك». . . استسلمت. بدا لي أن التحقيق الجديد حول الدور الإسرائيلي في المجازر الفلسطينية في بيروت عام ١٩٨٢ لن يُنشر أبداً. طيلة الأسبوع الأول من شهر أيلول/سبتمبر، كنت أبحث عن فُسحة لنشر مقالي، ثم يوم ٦ أيلول/سبتمبر قرّر سيمون كلنر أنني أستطيع النشر يوم الإثنين في العاشر منه، ثم ذهب كلنر في إجازة وحل مكانه إيان بيرل نائب رئيس التحرير الذي قام بتأجيل مقالي حتى صباح الثاني عشر من الشهر نفسه... كان هذا يعني أن الصيغة النهائية المصحّحة سترسل إلى المطبعة بعد ظهر ١١ أيلول/سبتمبر. اتصلت من مطار بروكسل بصحيفة الإندبندنت عند الصباح وكنت متعباً بعد رحلة ليلية من بيروت. . . أبلغني ليونارد دوبل محرّر الشؤون الدولية عن عملية انتحارية ضدّ أحمد شاه مسعود قائد ميليشيا التحالف الأفغاني الشمالي الذي قاتل بشجاعة لا توصف ضدّ الروس، لكنه أظهر مشاعر احتقار لأسامة بن لادن.. لقد قام اثنان من المصوّرين الصحفيين العرب باغتياله بواسطة كاميرا مفخّخة.. سألني إن كنت أعتقد أن أسامة بن لادن هو وراء ذلك؟ لا أعرف.... في الطبعة الأولى من الإندبندنت وصف ليونارد مسعود بلقبه الأفغاني «أسد بنشير»، وقد قام محرّر من الصف الثاني بتغييره ليلاً إلى لقب «زعيم الثوار». بعد منتصف الليل ضربت الصواريخ الأميركية كابول.

عندما تحدّثت لأوّل مرّة إلى محرّري الأحداث من قاعة المغادرة في مطار بروكسل أكّدوا لي أن التقرير عن صبرا وشاتيلا سوف ينشر في الصفحة الأخيرة. كان من المفترض أن ينشر على الصفحة الأولى من الطبعة المسائية، هناك موضوع أخباري على الصفحة الأولى، ويُظهر تصميم المقال دماً منثوراً على صورة للقتلى الفلسطينيين... لم أقرّر الاتصال بالصحيفة مجدّداً لأنني سأكون بعيد المنال لمدّة ستّ ساعات ونصف ساعة فوق الأطلسي .... أخرجت نسخة من المقال لإجراء مراجعة أخيرة..

تحدّثت سناء سرساوي ببطء وبصوت عالٍ بينما كانت تتذكّر الأحداث المأساوية الخطيرة اليائسة التي مرّت بها منذ تسعة عشر عاماً يوم ١٨ أيلول/

سبتمبر ١٩٨٨. وبصفتها أحد الناجين المستعدّين للشهادة ضدّ شارون الذي كان وزيراً للدفاع في ذلك الوقت، توقّفت سناء للبحث في ذاكرتها عن اللحظات الأكثر رهبة في حياتها. «أخذتنا ميليشيا القوّات اللبنانية من بيوتنا، واقتادتنا إلى مدخل المخيّم حيث حُفرت حفرة كبيرة في الأرض. طلبوا من الرجال الدخول إلى الحفرة، ثم قام رجال الميليشيا بإطلاق النار على فلسطيني. مشت النساء والأطفال فوق الجثث لبلوغ هذا المكان، لكننا أصبنا بصدمة لدى رؤيتنا رجلاً يُقتل أمامنا، وصاحب ذلك عويل النساء وبكاؤهنّ. عند ذلك سمعنا الإسرائيليين يصرخون بمكبّرات الصوت: «أعطونا الرجال، أعطونا الرجال»، اعتقدنا بحمد اللّه أنهم سينقذوننا، وكان ذلك أملاً كاذباً».

شاهدت السيدة سرساوي الحامل في شهرها الثالث زوجها حسن (٣٠ سنة)، وصهرها المصري فرج السيّد أحمد يقفان بين جمع من الرجال. «طلبوا منا السير صعوداً على الطريق باتجاه السفارة الكويتية، النساء والأطفال في المقدّمة والرجال في الخلف، لقد جرى فصلنا، وكانت هناك عناصر من ميليشيا الكتائب وجنود إسرائيليّين يسيرون بمحاذاتنا. كنت لا أزال أرى حسن وفرج. كان الأمر شبيهاً باستعراض، وكان هناك المئات منا. عند وصولنا إلى المدينة الرياضية وضع الإسرائيليون النساء في غرف إسمنتية، وأخذوا الرجال إلى جهة أخرى من الملعب. كان هناك العديد من رجال المخيّم ولم أستطع رؤية زوجي. كان الإسرائيليون يتجوّلون ويصرخون: «اجلس، اجلس»، وكانت الساعة حوالي الحادية عشرة. بعد ساعة طلبوا منا الرحيل، لكننا وقفنا في الخارج بانتظار رجالنا». انتظرت سناء سرساوي تحت الشمس الساطعة اللاذعة ظهور حسن وفرج... «خرج بعض الرجال ولم يكن بينهم أحد عمره أقلّ من أربعين عاماً، وأبلغونا أن نصبر وأن هناك مئات من الرجال ما زالوا في الداخل، ثم حوالي الساعة الرابعة بعد الظهر خرج ضابط إسرائيلي يضع نظّارة سوداء، وقال بالعربية: «ماذا تنتظرون»، وصرّح أنه لم يبق أحد وأن الجميع ذهبوا. كانت هناك شاحنات إسرائيلية تخرج وهي مغطاة بشوادر بلاستيكية. ولم نستطع رؤية ما بداخلها وسمعنا ضجيج سيّارات جيب وجرّافات. بقينا هناك حتى حلول الظلام، وبدا أن الإسرائيليين يرحلون، وكنا متوتّرين. وبعد رحيل

الإسرائيليين دخلنا فلم نجد أحداً. وكان قد مضى على زواجي ثلاث سنوات لكنني لم أجد زوجي حتى الآن».

كانت مدينة كميل شمعون الرياضية المدمّرة ـ المدينة الرياضية ـ مركز اعتقال طبيعي للسجناء... تبعد كيلومترين عن مطار بيروت وكانت تُستخدم كمخزن ذخيرة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وقد تعرّضت مراراً للقصف من قِبل الطائرات الإسرائيلية خلال حصار بيروت عام ١٩٨٢، لذلك كانت أسوارها الخارجية العملاقة مدمّرة بشكل مرعب... كان الفلسطينيون قد لغموا الساحات الداخلية في وقت سابق، لكن المخازن الداخلية السفلية وغرف الرياضيين ظلّت سليمة.

كان ما حدث أمراً مألوفا لنا جميعاً، نحن الذين عشنا في بيروت. فعند منتصف نهار ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢، شاهدت مئات من اللبنانيين والفلسطينيين الأسرى، ربّما حوالي ألف، يجلسون في الساحات الداخلية يراقبهم جنود إسرائيليون وعناصر من الشين بيت باللباس المدني ومجموعة من الرجال ظننت بحقّ أنهم كانوا عملاء لبنانيين. كان الرجال يجلسون صامتين وبخوف واضح، ولاحظت أن بعضهم نُقل بعيداً ووضِع في شاحنات عسكرية إسرائيلية، أو سيّارات جيب كتائبية للتحقيق معهم.

لم يراودني أدنى شكّ أو توقّع لما حدث... فعلى بعد بضع مئات من الأمتار، كانت جثث ٦٠٠ شخص من مجزرة صبرا وشاتيلا متعفّنة تحت الشمس تفوح منها رائحة كريهة بسبب التحلّل تتّجه نحو الأسرى والخاطفين. كان الطقس الحارّ خانقاً، فدخلنا، أنا ولورين جنكنز من الواشنطن بوست وبول إيديل من رويترز وحدنا إلى غرف الأسرى، لأن الإسرائيليين اعتقدوا نتيجة مظهرنا الغربي أننا من عناصر الشين بيت. كان العديد من السجناء مطأطئين برؤوسهم. لكن رجال ميليشيا الكتائب الموالية لإسرائيل كانوا قد خرجوا من المخيّمات، وانتهت المذبحة، وأصبح الإسرائيليون مسؤولين الآن. إذن، ممّن يخاف هؤلاء الرجال؟

بنظرة ارتجاعية إلى الماضي، وأنا أعيد اليوم الاستماع إلى شهادة سناء سرساوي، أرتعد لمجرّد تذكّر مقدار براءتنا. كانت ملاحظاتي المدوّنة في ذلك الوقت تتضمّن بعض الألغاز المتشائمة. وجدنا موظفاً لبنانياً من رويترز، عبدالله مطر، بين الأسرى وأطلقنا سراحه، واصطحبه بول بعيداً عن الأسرى، واضعاً يده على كتفه. تمتم أحد الأسرى لي: «إنهم يأخذون الواحد تلو الآخر بعيداً للتحقيق»، إنهم ميليشيا حدّاد. وفي العادة، هم يعيدون الأشخاص بعد التحقيق، لكن ليس دائماً. سألته: «لماذا لا يستطيع الأسرى التحدّث معي». أجاب: «ليس لديهم ما يقولونه».

عرف جميع الإسرائيليين ماذا حصل داخل المخيّمات. كانت رائحة الجثث الآن أقوى. في الخارج كانت سيّارات جيب كتائبية عليها علامات «شرطة عسكرية» تمرّ من أمامنا.. كان غريباً ارتباط جهة مؤسّساتيّة بهذه العصابة من القتلة.... التقيت بعدد قليل من فِرق التلفزيون التي قامت إحداها بتصوير الميليشيا المسيحية اللبنانية خارج المدينة الرياضية، وقامت أيضاً بتصوير سيّدة تطلب من عقيد في الجيش يُدعى يحيى إطلاق سراح زوجها. لقد تمّ التعرّف إلى هويّة العقيد لاحقاً من قِبل صحيفة الإندبندنت، وهو اليوم برتبة عميد في الجيش الإسرائيلي.. على طول الطريق المواجه للملعب، كان هناك صفّ من دبّابات الميركافا الإسرائيلية، وكانت طواقمها تجلس على الأبراج، تدخّن وتراقب الرجال وهم يؤخذون من الملعب واحداً واحداً أو- كل اثنين معاً؛ وقد جرى إطلاق سراح بعضهم، في حين أخذ بعض رجال الشين بيت البعض الآخر أو أخذهم رجال لبنانيون كانوا باللباس الكاكي... لقد عرف كل هؤلاء الجنود ماذا حصل داخل المخيّمات. فقد شهد أحد عناصر هذه الدبّابات الملازم آفي كرابوفسكي ما حدث (وهو استُدعيَ لاحقاً للشهادة أمام لجنة كاهان الإسرائيلية)، فقال إنه شاهد حتى عملية قتل للعديد من المدنيين جرت في اليوم السابق وقد طُلب منه «عدم التدخّل».

وفي الأيام التالية وصلتنا تقارير غريبة.. خُطفت فتاة من سيّارة في الدامور على يد رجال ميليشيا الكتائب وأُخذت إلى مكان بعيد رغم استغاثتها بجندي

إسرائيلي. وقدّمت خادمة سيّدة لبنانية شكوى بأن الإسرائيليين اعتقلوا زوجها ولم يظهر بعد ذلك. وكانت هناك إشاعات غامضة عن أشخاص مفقودين.

كتبت في ملاحظاتي في ذلك الوقت أنه «حتى بعد مرور زمن على مجزرة شاتيلا فإن أعداء إسرائيل «الإرهابيين» كانوا يُقتلون في بيروت الغربية». لكنني لم أربط هذه الإدانة القاتمة مباشرة بالمدينة الرياضية ولم أفكّر أيضاً بالسوابق المرعبة للملعب الرياضي في زمن الحرب. ألم يكن هناك ملعب رياضي في سنتياغو قبل بضع سنوات، مكتظّ بالمساجين، بعد انقلاب بينوشيه؟ ملعب لم يرجع منه العديد من السجناء؟

من بين الشهادات التي جمعها محامون يسعون إلى محاكمة أريل شارون على جرائم الحرب شهادة وضحى السابق. قالت وضحى إنه في يوم الجمعة ١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٨٢، بينما كانت المجزرة مستمرّة (وهي لم تكن على علم بها)، كانت في منزلها الكائن في بئر حسن المواجه لصبرا وشاتيلا عندما: «جاءني الجيران وقالوا إن الإسرائيليين يريدون ختم هويّاتنا، لذلك نزلت إلى الطابق الأرضي وشاهدت الإسرائيليين والقوّات اللبنانية، كان الرجال مفصولين عن النساء»، كان هذا الفصل مع الظلال الرهيبة لعمليات فصل مشابهة في سربرينتشا خلال حرب البوسنة، قاسماً مشتركاً لعمليات القتال الجماعية. «قيل لنا أن نذهب إلى المدينة الرياضية، واحتفظوا بالرجال»..

كان أبناء وضحى الاثنين بين الرجال، محمّد (١٩ سنة) وعليّ (١٦ سنة) وشقيقها محمّد. قالت: «ذهبنا إلى المدينة الرياضية كما طلب منا الإسرائيليون، ولم أر ولديّ وشقيقي بعد ذلك أبداً». ويروي الناجون روايات متشابهة بشكل محزن. قالت بهيجة رزين أنها أُمرت من قِبل دورية إسرائيلية بالذهاب إلى المدينة الرياضية مع الرجال، وجرى فصل الرجال بعيداً بما في ذلك شقيقها البالغ ٢٢ عاماً. وقام بعض رجال الميليشيا تحت نظر الإسرائيليين بأخذهم في سيّارة معصوبي الأعين. قالت في شهادتها الرسمية: «هكذا اختفى ولم أره أبداً منذ ذلك الحين». بعد بضعة أيام اكتشفنا نحن الصحفيين تبايُناً في عدد القتلى.. فبينما وجدنا أكثر من ستّ مئة جثّة داخل صبرا وشاتيلا، اعتُبر حوالي ١٨٠٠

مدني مفقودين. وافترضنا ـ كم هو سهل الافتراض في الحرب ـ أنهم قُتلوا في الأيام الثلاثة ما بين ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ وانسحاب القتلة من الكتائب يوم ١٨ منه، وأن جثثهم دُفنت سرّاً خارج المخيّم وظننّا أن ذلك حصل تحت ملعب الغولف.. لم يخطر ببالنا قطّ أن يكون العديد من الشباب قد قُتلوا خارج المخيّمات أو بعد ١٨ أيلول/سبتمبر، أي أن عمليات القتل كانت مستمرّة بينما كنا نحن نتجوّل في المخيّمات. لماذا لم ندرك ذلك نحن الصحفيين؟ في العام التالي نشرت لجنة كاهان تقريرها متّهمة شارون، لكنها أنهت تحقيقها يوم ١٨ أيلول/سبتمبر مع تلميح بسطر واحد فقط غير واضح إلى أن «عدّة مئات من الأشخاص ربّما يكونون قد اختفوا في الفترة نفسها». لم تقابل اللجنة أياً من الناجين الفلسطينيّين لكنها صارت هي الراوية الوحيدة للقصّة. لم يخطر ببالنا أبداً أن الإسرائيليين سلّموا الأسرى إلى حلفائهم المتعطّشين للدم من الميليشيات.. ويقدّم فلسطينيو صبرا وشاتيلا اليوم شهادات على أن هذا هو ما حصل بالضبط.. ويعتقد أحدهم (عبد الناصر) أن شقيقه عليّ تمّ تسليمه إلى الكتائب صباح ١٨ أيلول/سبتمبر... وروت سيّدة فلسطينية مسيحية تُدعى ميلانة بطرس كيف تم أخذها من أحد المخيّمات في شاحنة محمّلة بالنساء والأطفال إلى بلدة بكفيّا المسيحية، موطن الرئيس المسيحي المنتخب حديثاً والمقتول بشير الجميل، حيث أعطت سيّدة مسيحية ثكلى أمراً بإعدام صبيّ عمره ١٣ سنة كان في الشاحنة، وجرى قتله بالفعل. وقد عبرت الشاحنة أربع نقاط تفتيش إسرائيلية على الأقلّ في طريقها إلى بكفيّا. واتّفق لي أن التقيت لاحقاً السيدة التي أمرت بقتل الصبيّ.

وحتى قبل انتهاء المجزرة داخل المخيّمات، روت لي شهيدة أبو رُدينة كيف أخذوها إلى المدينة الرياضية حيث رأت في أحد دهاليز مراكز الاعتقال رجلاً متخلّفا عقلياً، يقوم بدفن الجثث في حُفرة بينما كان الجنود الإسرائيليون يراقبونه. وقد كان يمكن رفض شهادتها لولا أنها عبّرت عن شكرها لجندي إسرائيلي ـ داخل مخيّم شاتيلا، أي بتناقض تامّ مع كل الشهادات الإسرائيلية ـ منع قتلَ بناتِها على أيدي الكتائب. بعد وقت طويل من انتهاء الحرب جرى

تهديم أنقاض المدينة الرياضية وشُيّدت مكانها ملاعب جديدة من الرخام من قِبل البريطانيين. وقد أحيا بافاروتي حفلة غنائية هناك. لكنّ الشهادات حول ما يمكن أن يوجد تحت الأساسات ـ وعواقبه الوخيمة ـ أعطت شارون سبباً أكبر للخوف من الإدانة.

كنت في مخيّمات صبرا وشاتيلا عندما حصلت هذه الجرائم. وكنت أعود إلى هناك سنة بعد سنة لأحاول اكتشاف ما حصل لآلاف الرجال المفقودين. كان كارستن تفيت من التلفزيون النرويجي معي عام ١٩٨٢ وقد عاد إلى بيروت عدة مرّات للغاية نفسها. لم يكن المحامون وحدهم هم الذين يحققون في تلك الجرائم ضد الإنسانية. عام ٢٠٠١، عاد تفيت إلى لبنان مع التسجيلات الأصلية لعام ١٩٨٢ والخاصّة بالنساء اللواتي يطالبن برجالهنّ على مداخل المدينة الرياضية. وقد قام بزيارة محلّات الفيديو الصغيرة الضيّقة في المخيّم الحالي، وأعاد عرض الأشرطة حتى عرفه الفلسطينيون. عندها بدأ تفيت البحث عن هؤلاء النساء ـ وقد صرن أكبر بتسعة عشر عاماً الآن ـ اللواتي ظهرن في الأشرطة وكنّ يطالبنَ بأولادهنّ أو أخوتهنّ أو آبائهنّ أو أزواجهن خارج المدينة الرياضية، وقد التقاهنّ جميعاً ولم تجد أيّ منهنّ أبداً أحبابها منذ ذلك الحين(*).

في الأشهر التالية، كنت أفكّر في المفارقات الشخصية لتلك الدقائق الأخيرة في مطار بروكسل. كنت أقرأ التفاصيل الدقيقة لجريمة العصر التي حصلت منذ حوالي ١٩ عاماً بالضبط، وعلى الجانب الآخر للأطلسي، كانت

(*) التقى تفيت عنصر ميليشيا كتائبي سابق اصطحبه إلى منطقة جبلية شرق بيروت وأرشده إلى ثُكنة عسكرية سابقة للكتائب المسيحية، ووصف له كيف تم سجن ثلاث مئة فلسطيني اعتقلهم الإسرائيليون بعد مجزرة المخيّم في مستوعبات في الثكنة. حاول الكتائب استخدام أسراهم الذين أحضرهم الإسرائيليون للمقايضة مع الأسرى المسيحيين الذين يعتقدون بوجودهم لدى الميليشيات المسلمة. لكن لم يحصل تبادل للأسرى، إذ إنه بعد ثلاثة أسابيع على مجزرة صبرا وشاتيلا تمّ إخراج هؤلاء الأسرى الفلسطينيين (٣٠٠) من المستوعبات وتصفيتهم حتى الموت في مقبرة جماعية. أبلغ الكتائبي تفيت أن المقبرة تقع قرب كنيسة في ثُكنة تابعة حالياً للجيش اللبناني.

جريمة دولية ضدّ الإنسانية على وشك الحصول. في صبرا وشاتيلا وفي عمليات القتل الجماعي التي حصلت بعدها، أحصينا عدد الضحايا الفلسطينيين الذين سقطوا من رجال ونساء وأطفال فبلغ حوالي ١٧٠٠ شخص... وفي واشنطن ونيويورك وبنسلفانيا، كان أكثر من ضعف هذا العدد من الأرواح البشرية على وشك الزوال.

بعد الاتصال مع محرّر الأحداث الهامّة، عدت إلى مقعدي في الطائرة.. بعدها رنّ هاتفي الخلوي، كانت آن بيكيت من المكتب الدولي على الخط. قالت: «يبدو أن طائرة هليكوبتر اقتحمت البنتاغون، روبرت. ليست لديّ تفاصيل أخرى حتى الآن، لكن أعتقد أن عليك الكتابة اليوم».. كنت أجلس في الدرجة الأولى وكان هناك هاتف موصول بالقمر الصناعي مثبت بالمقعد إلى جانبي. أدخلت البطاقة الائتمانية في الهاتف وفُتح الخطّ. سيكون باستطاعتي متابعة الحديث مع لندن وإرسال نسخة من مقالي خلال الرحلة.

كان آخر الركّاب يصعدون إلى الطائرة حين سرت نحو رئيس المضيفين وأبلغته عن طائرة الهليكوبتر.. ظللت أتحدّث عن «مبنى التجارة الحرّة» عوضاً عن مركز التجارة العالمي مع أنه كانت لديّ صورة واضحة عن البُرجيْن التوأميْن في مخيّلتي.. وعن الحرّاس فوق منهاتن إلى اليسار من التاكسي عندما وصلت إلى مطار جون كينيدي، بعد أن ألقيت محاضرة في برنستون قبل بضعة شهور من اليوم.

أجريت اتصالاً أخيراً مع مكتبي عن طريق الخلوي. كان لدى آن الوقت الكافي لكي تقول لي قبل أن أضطرّ إلى إقفال الخط: «روبرت، إنها طائرة ركّاب دخلت في مركز التجارة العالمي، والآن هناك طائرة أخرى»! وأقفلت الخط. كان واضحاً كم كان الأمر مرعباً، ولكن عقلي الصحفي كان كالكمبيوتر المهني الذي يرصد الحدث بدقّة ويحسب ردّة الفعل والمدى الزمني لها.. وها إنه يتحرّك الآن بسرعة. إن ما يحصل في الولايات المتّحدة مقصود.. وهو إذا استخدمنا أكثر العبارات العاديّة ابتذالاً «هجوم إرهابي». كان التوقيت في

الساحل الشرقي الأميركي يختلف ستّ ساعات عن توقيت بروكسل. إن آلاف الأشخاص قد وصلوا الآن للعمل في البُرجين.. وكذلك في البنتاغون...

كانت طائرة الإيرباص تتحرّك على المدرج للإقلاع. لكن رئيس المضيفين جاء إلى مقعدي وسأل: «هل عرفت شيئاً أكثر؟» أبلغته عن الطائرة الثانية، وتوجّه بعدها مباشرة إلى غرفة القيادة. عاد بعد ثوان قليلة مع أن المحرّكات كانت تستعدّ للانطلاق: «هناك طائرة ركّاب تحطّمت في بنسلفانيا أيضاً»، نظرت إليه. «بن لادن، ومن غيره؟» أخرجت مفكّرتي وحاولت تذكّر كل شيء قاله لي بن لادن: كراهيته للعائلة السعودية الحاكمة، وتجربته في قتال الروس، وتصميمه على إخراج الأميركيين من الخليج.

كنا فوق البحر الإيرلندي عندما أجريت مع لندن أول اتصال لي بواسطة القمر الصناعي. ردّ ليونارد على الهاتف. بدا صوته جدّياً جدّاً، مثل صوت «الأب دويل»، كما كنت أدعوه دائماً.. لكنني أدركت أنه مصدوم. «طائرتان في مركز التجارة العالمي، وطائرة داخل البنتاغون، وطائرة أخرى تحطّمت في بنسلفانيا. عليك مشاهدة الصور». على متن الطائرة، أحضروا المشروب الذي يقدّم قبل الغداء وكان الجين والمياه الغازية متشابهيْن طعماً. ٢٠ ـ ٣٠ ألف قتيل؟ هكذا فكرت!! كان الأمر خارج التصوّر. ماذا سيكون حجم انتقام أميركا؟ تذكّرت الأنباء القديمة بعد بيرل هاربر، «يوم العار»، عندما كانت البيانات الصادرة يومذاك تنقل المطالب العنصرية بسحق «اليابانيين الجبناء»... بن لادن. ظللت أعود إلى بن لادن. لم يكن هذا اليوم مجرّد جريمة رهيبة فقط، بل إنه رمز لفشل رهيب، لانهيار عقود من العجز، ومن خيبات الأمل، ومن السياسات الأنانية في الشرق الأوسط... والتي سنعترف أخيراً بأنها كانت كذلك ـ هذا إن كنّا حكماء ـ أو التي سنخفيها اليوم على ما يبدو تحت دمار نيويورك... إنها موضوع لا يناقش، ومجرّد ذكره يجعلك متّهماً بأنك تدعم أعداء أميركا.

سرت إلى مقصورة المضيفين، وسألت أفراد الطاقم ماذا يعتقدون؟ يبدو أن الطائرات الأربع خُطفت. «ربّما كان هناك عدّة خاطفين»، قالت ذلك أصغر مضيفة بدون تفكير وأيّدنا كلّنا وجهة نظرها. نظر إليّ كبير المضيفين بقسوة.

وفهمت فيمَ كان يفكّر. كنّا نحن أيضاً متوجّهين إلى أميركا والطائرات الأربع أقلعت مثل طائرتنا مع طاقم ودود وركّاب ملتزمين بالقانون. تجوّلت في أنحاء الطائرة مع رئيس المضيفين، ولم أكن مرتاحاً. أعتقد أنني عدت وفي مخيّلتي صورة ١٣ راكباً، ١٣ لم أحبّهم لأنهم كانوا ملتحين وقد حدّقوا بي بطريقة اعتبرتها عدوانية، أو لأنهم كانوا يحملون مسابح ويقرأون القرآن. بالتأكيد كانوا كلّهم مسلمين. أجل، خلال دقائق فقط، تحوّل فيسك «الليبرالي» إلى عنصري... فيسك الذي عمل وعاش في الشرق الأوسط لربع قرن والذي عاش بين العرب لفترة توازي نصف حياته، والذي نجا من الموت عدّة مرّات بفضل مسلمين في العراق وإيران... ها هو يرسم صورة مسبقة للبريء الجالس على متن الطائرة لمجرّد أن لديه لحية أو عينين زرقاوين أو بشرة قاتمة... شعرت بالاحتقار لنفسي.. لكن هذا بالضبط كان أحد أهداف حادث اليوم على ما أعتقد.. أن يجعلونا نشعر بالاحتقار وبالغضب بحيث نتصرّف بعد ذلك بشكل غير منطقي.

اتصلت بليونارد مجدّداً... كانت هناك اتصالات هاتفية من ركّاب في الطائرات الأربع. لقد ذبح الخاطفون بعض أفراد الطواقم والركّاب. وقد ألقى رجال ونساء بأنفسهم من الطوابق العليا في البرجَين. وكانت هناك بعض الصور التلفزيونية لفلسطينيين يحتفلون. قلت: «ليونارد، عليّ الكتابة حول التاريخ، إذ ينبغي أن يكون لدينا تفسير للسياق التاريخي وتوضيح للقرّاء». قلت إن ما حدث جريمة تشبه الملاحم إلى حدّ أنّ عليّ القيام بشيء ما لم أتطرّق إليه منذ مقالاتي في إيرلندا الشمالية. عندما وصلت الحرب الإيرلندية البريطانية إلى طريق مسدود، قبل الكمبيوتر والخلوي، كنا نُملي تقاريرنا للنسّاخ، رجال ونساء يضعون سمّاعات ويكتبون رواياتنا بينما كنا نرفع صوتنا على الخطوط من القرى الإيرلندية، أو في أيامي الأولى في الشرق الأوسط، من فنادق القاهرة أو دمشق. الآن سأقوم بالشيء نفسه مجدّداً، سأقوم بإملاء قصّتي عبر الهاتف حتى يتناسب الوقت مع التلقائية التي من المفترض أن يمتلكها الصحفي، أو هكذا فكّرت بشكل متعجرّف.

حتى وأنا أتحدّث، كان ربّان الطائرة البلجيكي يُخبر الركّاب من مذياع

الطائرة بحصول هجمات إرهابية على نيويورك وواشنطن، وبأن الولايات المتّحدة أغلقت مجالها الجويّ أمام الطيران التجاري. كنّا نُسقط الفيول فوق البحر بعيداً إلى الغرب من إيرلندا وقبل عودتنا إلى أوروبا. ورحنا نطير بشكل دائري مركّز، والشمس تسطع من كل النواحي، عبر نوافذ الطائرة، كما لو أنها كانت تُشرق وتغيب بشكل متواصل، فيما وحشة شمال الأطلسي تسخر من عزلتنا الساخنة.

قدّموا الطعام بينما كنّا نقوم بالدوران في السماء. نظرت إلى مفكّرتي، وكتبت عليها أسماء بلفور، ولورانس العرب، وبن لادن، ثم شطبتها. أخذت هاتفي الفضائي ومرّرت البطاقة واتصلت بالإندبندنت فحوّلني ليونارد إلى إحدى المحرّرات، سيّدة من ليدز. أبلغتها أين أنا وأنني أكتب من مخيّلتي وطلبت منها الصبر. قالت: «خُذ وقتك حبيبي»، لكن حصل ذلك بسرعة. تصوّرت في ذهني ما أريد قوله. كان الموضوع مثل قراءة رسالة إلى صديق.

إذاً، وصل الوضع إلى ما هو عليه الآن... كل التاريخ الحديث للشرق الأوسط ـ انهيار الإمبراطورية العثمانية، إعلان بلفور، أكاذيب لورانس العرب، الثورة العربية، إقامة دولة إسرائيل، أربع حروب عربية ـ إسرائيلية، ٣٤ سنة من الاحتلال الإسرائيلي القاسي للأراضي العربية ـ كل ذلك شُطب كلّياً خلال ساعات عندما سدّد أولئك الذين يدّعون تمثيل شعب مسحوق ومُهان ضربتهم بالقسوة الشديدة والرهيبة التي يحملها شعب مشؤوم القدر. هل من العدل، والأخلاق، أن نكتب عن الموضوع دون دليل، في الوقت الذي أثبت فيه آخر عمل بربري حصل في أوكلاهوما أنه كان من صُنع أميركيين؟ أخشى أن يكون الأمر كذلك. وإذا لم أكن مخطئاً فالولايات المتّحدة هي في حالة حرب، وهناك آلاف آخرون الآن على لائحة الموت في الشرق الأوسط وربّما في أميركا. لقد سبق أن حذّر بعضنا من الانفجار الكبير لكنّنا لم نتصوّر أبداً هذا الكابوس.

أجل، إنّ أسامة بن لادن هو مَن يخطر على البال، ماله، عقيدته، تصميمه المخيف على تدمير القوّة الأميركية. كنت قد جلست أمام بن لادن بينما كان يشرح كيف قام رجاله بتقديم العون لتدمير الجيش الروسي في أفغانستان،

وكذلك في الاتحاد السوفياتي. وقد سمحت لهم ثقتهم المفرطة بالنفس بإعلان الحرب على أميركا. لكن لم تكن هذه حرب الديمقراطية على الإرهاب التي سيُطلب من العالم تصديقها في الأيام المقبلة.

إنها أيضاً حول الصواريخ الأميركية التي تتساقط على بيوت الفلسطينيين، وحول قصف الصواريخ الأميركية لسيّارة إسعاف لبنانية عام ١٩٩٦، وتساقط الصواريخ الأميركية على قرية قانا... وحول الميليشيا اللبنانية المزوّدة بالمال والملابس من الحليف الإسرائيلي لأميركا وهي تتسلّل وتغتصب وتقتل داخل المخيّمات الفلسطينية.

وأن يقوم الفلسطينيون بالاحتفال لذكرى ضحاياهم الـ ٢٠ أو ٣٥ ألفاً(*) ليس دليلاً على يأسهم فقط، بل هو دليل على عدم نضجهم السياسي، ودليل على فشلهم في الإمساك بما كانوا يتّهمون به أعداءهم الإسرائيليين دائماً، بل هو تصرّف غير مناسب... كلّ سنوات الخطب، كلّ الوعود بالاقتصاص من قلب أميركا، بقطع رأس الأفعى، كلّها كانت تهديدات فارغة.. كيف يمكن أن تحقّق أنظمة رجعية، محافظة، غير ديمقراطية وفاسدة، ومنظّمات صغيرة وعنيفة، مثل هذه الوعود غير المعقولة. الآن بتنا نعرف.

في الساعات التي تلت دمار الأمس، بدأت أتذكّر الهجمات الأخرى ضدّ الولايات المتّحدة وحلفائها ووجدتها تافهة الآن مقارنة مع خسائر البارحة.. ألم يوقّت الانتحاريون الذين قتلوا ٢٤١ جندياً أميركياً ومئة مظلّي فرنسي هجماتهم في بيروت يوم ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٣ بدقّة؟ كان هناك سبع ثوان فقط بين ضرب المارينز وتدمير مقرّ الفرنسيين على بعد ثلاثة أميال. ثم كانت الهجمات على القواعد الأميركية في السعودية، والمحاولة شبه الناجحة التي جرت السنة الماضية ضدّ المدمّرة الأميركية «كول» في عدن. وبعد فكم كان سهلاً فشلنا في اكتشاف ذلك السلاح الجديد في الشرق الأوسط والذي لا مثيل له عند الأميركيين والغربيين: عنيت به اليأس القاتل، الانتحاري اليائس.

(*) كلّا، ما مِن شكّ في الشرّ الكامل والذي لا يوصف لما حصل في الولايات المتّحدة...

وستحصل لا محالة، وبشكل لاأخلاقي، عملية تستير للأخطاء التاريخية وللمظالم التي تكمن وراء العواصف النارية التي عشناها ليلة البارحة. وسنسمع التصريحات حول الإرهاب المجنون، والجموح المجنون، وكلمة مجنون ستكون أساسية في حال لم ندرك كم أصبحت كراهية أميركا عميقة في مهد الديانات الثلاث الكبرى. اسألْ أيّ عربي كيف يرى مقتل ٢٠ ألف أو ٣٠ ألف بريء، وسيكون ردّه أو ردّها مثل ردّ أيّ إنسان محترم... سيقول لك إنها جريمة نكراء لا توصف.. لكنهم سيسألونك الآن، لماذا لم نستخدم مثل هذه العبارات عندما قتلت العقوبات نصف مليون طفل تقريباً في العراق؟ لماذا لم نغضب لمقتل سبعة عشر ألف وخمسمئة مدني من قِبل إسرائيل في غزوها للبنان عام ١٩٨٢؟ وكلّ الأسباب الأساسية الممكن ذكرها إذا أردنا أن نفهم لماذا اشتعل الشرق الأوسط في أيلول/ سبتمبر الماضي (مثل احتلال إسرائيل للأرض العربية، وتشريد الفلسطينيين وسلبهم كل شيء، وأعمال القصف والاغتيالات التي تقوم بها دولة إسرائيل) كلّها يجب التغاضي والصمت حيالها بحجّة عدم تقديم أدنى مبرّر للوحشية الجماعية التي حصلت البارحة.

كلّا، ليست إسرائيل هي من يجب إلقاء اللوم عليه ـ رغم أنه من المؤكّد أن صدّام حسين والدكتاتوريين الكبار أمثاله سيدّعون ذلك... ...بل إن التأثير الملعون للتاريخ ودورنا في إرثه وثقله، ينبغي أيضاً أن يبقى غامضاً وأن ندفنه مع الانتحاريين. إن وعودنا المنكوثة وربّما أيضاً تدميرنا للإمبراطورية العثمانية قد أدّت حتماً إلى هذه المأساة. لقد موّلت أميركا حروب إسرائيل لعدّة سنوات واعتقدت أن ذلك سيمرّ من دون عقاب. ليس بعد اليوم!!. لكنّ أميركا بالطبع سوف تردّ على «الإرهاب العالمي»، ولعلّ قصف كابول البارحة هو بداية الردّ... وبالفعل مَن يستطيع اليوم توجيه الاتهام إلى الأميركيين لاستخدامهم كلمة الإرهاب المذلّة والعنصريّة؟

منذ ثماني سنوات، ساعدت في إعداد مسلسل تلفزيوني حاولت فيه شرح سبب تحوّل العديد من المسلمين نحو كراهية الغرب. وبالأمس تذكّرت بعض هؤلاء المسلمين في ذلك الفيلم الذين قُتلت عائلاتهم واحترقت بقنابل أميركية،

والذين قالوا أن لا أحد يستطيع مساعدتهم غير الله... العقيدة في مواجهة التكنولوجيا، الانتحاري في مواجهة القوّة النوويّة.. الآن عرفنا ماذا يعني ذلك.

لم يكن يوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ يوم ميلاد هذا الكتاب، لكنه أثبت لي أن قوّة التاريخ لا تُقاوَم. أعدت قراءة تلك الرواية التي أمليتها عبر الهاتف على ارتفاع ٣٧ ألف قدم فوق الأطلسي، وكنت مرعوباً ليس بسبب استنتاجاتها بل بسبب التداعيات التي ستحدثها تلك الاستنتاجات ـ والتي سيظهر أنها كانت دقيقة بشكل مؤلم. كنت مُحقّاً حول الأسلوب الذي سيتحدّث فيه العالم عن أنها «حرب الديمقراطية على الإرهاب»... وحول محاولة طمس المظالم التاريخية التي تكمن وراء هذا العمل الرهيب. لم أكن أتصوّر أبداً مدى القساوة، ومدى الخطورة ومدى الدموية التي ستتمّ بها عمليات قمع وإلغاء كلّ المقاربات الممكنة للتاريخ باستثناء المقاربة السخيفة الطفولية...

بينما كنا في طريقنا إلى بلجيكا، سألت نفسي إذا كنا نستطيع ـ في هذه المرحلة المبكرة ـ تحديد الطرف المذنب برغم الشكوك القوية التي كنا نملكها.. أيقنت أنه مع جريمة بهذا الحجم ستخرج أصوات تطالب بوقف الحرّيات الصحفية. يجب علينا جميعاً أن نكون في وضع «الانحياز»، وإذا توقّفنا لحظة لطرح السؤال «لماذا؟» فسوف نُعتبر من مساندي الإرهاب الدولي. لقد كان الإسرائيليون بارعين سابقاً في هذا المنطق المهني. وإذا وصفوك بالمقرّب من الفلسطينيين فإن هذا كان يعني أنك متعاون مع التفجير الإرهابي والإرهاب العالمي. هل أنتم معنا أو ضدّنا؟ سوف يستخدم جورج بوش الآن هذا الجدل السخيف ـ وغير الشريف ـ وهو جدل يحبّذه بن لادن كثيراً ـ لإسكاتنا، لإبقائنا صامتين، لوقف أي نقاش حول الشرق الأوسط أو حول دور أميركا هنا ـ أو (وهذا موضوع محرّم كلّياً) حول علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل.

كتبت مقالاً آخر خلال الرحلة تلك الليلة: «هل يقع اللوم على الشخصية المكروهة عالمياً؟».. كان هذا عنوان المقال الذي سينشر في اليوم التالي في الإندبندنت. إذا كان بن لادن مذنباً حقاً في كل الأمور التي تنسب إليه، فإنه كان يحتاج إلى جيش قوامه عشرة آلاف رجل. كتبت:

هناك أمر مزعج جداً حول عادة العالم الالتفات إلى آخر شخصية مكروهة عندما يسيل الدم. لكن عندما تحصل أحداث بهذه الدرجة من الخطورة، هناك مشروعية لتوجيه الأنظار نحو أولئك الذين كانوا يهدّدون أميركا باستمرار. وإذا ... إذا.. استبعدنا شبح الشرق الأوسط في دمار الأمس.. فمن يستطيع القيام بمثل هذه الهجمات الدقيقة التوقيت؟ ليست التنظيمات الفلسطينية الغوغائية التي كانت في الماضي تحبّذ عمليات خطف الطائرات بقادرة اليوم على تنفيذ عملية انتحارية واحدة.....

كان تفجير مقرّ المارينز في بيروت عام ١٩٨٣ يحتاج إلى دقّة، وتوقيت وتخطيط جيّدين... لكن إيران التي ساندت هذه المجموعات هي اليوم غارقة في صراعاتها الداخلية. العراق محطّم، ورجال مخابراته مشغولون بتعذيب شعبهم أكثر من قدرتهم على ضرب الولايات المتّحدة. لذلك، سوف يجري تصوير جبال أفغانستان بالأقمار الصناعية وطائرات الاستطلاع في الأيام القادمة... وقد سُلّطت الأضواء في البنتاغون على معسكرات بن لادن القديمة... لكن إلى أي مدى؟ وإذا كانت هذه حرباً بين السعوديين فلا يمكن خوضها مثل الحروب الأخرى بدون بعض المغامرة العسكرية المكلّفة من ما وراء البحار؟ أم أن هذا هو ما يسعى إليه بن لادن؟

في اللحظة التي حطّت فيها طائرة الإيرباص في بروكسيل، بدأ جهازي الخلوي بالاشتغال مثل جزّازة العشب: المكتب، محطات الإذاعة في أميركا، بريطانيا، إيرلندا، فرنسا. كنت في طريقي إلى الفندق عندما اتصل كارستين تفيت. سأل: «روبرت، هل شاهدت الصور»، أجبت بالنفي. سأل مجدّداً: «عليك مشاهدة الصور، إنها لا تُصدّق» أجبت: «كارستين، ما زلت في التاكسي ولا أستطيع مشاهدة التلفزيون هنا» ـ «انظر إلى الصور.. عليك مشاهدتها. عندما تصل إلى غرفة الفندق شاهد الصور وسوف تفهم».

وصلت إلى غرفتي وفتحت التلفزيون، كان البرجان يحترقان بتوهّج، وكان الناس يتساقطون مثل الريش بسرعة من أعلى إلى أسفل برشاقة مُرعبة. كانت طائرة الركّاب يونايتد تدخل في البرج الجنوبي مراراً وتكراراً كما لو أنه يتمّ

عرض اكتشاف علمي، أو كما لو أنه كان يفترض بالطائرة أن تشقّ طريقها بقوّة إلى داخل بُنيان البرج الرفيع.. وبعدها كان هناك اللهب الناري الذهبي... جمعت السي إن إن المقاطع المصوّرة بعد إعادة ترتيبها زمنياً بحيث أن طائرة اليونايتد تحطّمت داخل المبنى، لحظة كان وقودها المحترق يتطاير في الجهة الأخرى من المبنى.. وقد تم تركيب الشريط خلال ثوانٍ بعد التصادم... لا يمكن لهوليوود المنافسة هنا، فما جرى هوليوديٌّ بامتياز .... لمن يجرى إنتاج فيلم عن كارثة ١١ أيلول/سبتمبر أبداً لأنه كان قد أُنتج في تلك اللحظة بالذات وصل إنتاج القاعدة إلى هناك أولاً... كان ذلك هو «الصدم والرهبة».. وذلك قبل أن تخترع أميركا الاسم كشعار لغزوها للعراق.

كل الآلام والكوابيس حول المدينة المهبرجة، وكل الأفلام العنصرية التي تصوّر العرب المسلمين على أنهم مرتشون وقتلة، ها هي وقد وصلت أخيراً، حقيقة وليس خيالاً، إلى الشاشة ... «لم يحصل هذا منذ تاريخ السينما الصامتة». ولئن كنا قد قَولبنا أنفسنا على شاكلة ومثال أبطال أفلامنا، وعلى تقليد لغتهم، وأفكارهم البسيطة، ومبادئهم الأخلاقية الصارمة والمتوحّشة، فإننا صرنا على الأقلّ نستطيع الآن الإيمان بهؤلاء الأبطال والأشرار... وعوضاً عن تحوّل الحقيقة إلى خيال، تحوَّل الخيال إلى حقيقة. كانت طائرة اليونايتد مستمرّة في انزلاقها داخل البرج بتصميم ونزق ماجِن، كما لو أن طريقها كان معروفاً، وبحيث صار المرء ينظر إلى مكان آخر على الشاشة. هل اهتزّ البرج قليلاً مع الصدمة؟ هل هو طائر ذلك الشيء الذي ظهر على الشاشة قبل اصطدام الطائرة بالمبنى... براءة هاربة من الظلمة القادمة؟ وعندما صوّر الفريق الفرنسي المشهد الوحيد للطائرة وهي تصدم البرج الآخر، إلى أي مدى أدرك ذلك الرجل الذي كان على الجانب الآخر من الطريق ماذا يرى وهو يلتفت بسبب صوت المحرّكات وهي تنحدر؟... أو أنه كان مأخوذاً بالطريقة المتقنة والسهلة التي دخلت بها الطائرة إلى المبنى؟

خلال رحلة الإيرباص، جرى وصلي عبر الإذاعة الإيرلندية بكونو أوكلري، مراسل الصحيفة الإيرلندية في نيويورك الذي تابع برفقتي وقائع الغزو السوفياتي

لأفغانستان قبل حوالي ربع قرن. كان مكتبه مجاوراً لمركز التجارة العالمية، وقد وصف بدقّة كيف شاهد الطائرة الثانية. جاءت وأجنحتها تتأرجح بسرعة، صعوداً وهبوطاً، بينما كان الخاطفون في غرفة القيادة يحاولون جاهدين توجيه الطائرة نحو وسط البرج. كان عمل طيّار القتل الجماعي كاملاً ومطلقاً. في بروكسل، اتصلت بشبلي الملّاط، المحامي اللبناني الذي كان يحاول استدعاء شارون إلى محكمة بلجيكية لدوره في مجازر صبرا وشاتيلا. وكنت قد أكّدت له قبل بضع ساعات أن تقريري حول الشهادات والإثباتات الجديدة المتعلّقة بالمجزرة سيُنشر في اليوم التالي. طبعاً لم يعد ذلك ممكناً... قال لي: «بالطبع روبرت، فما حصل اليوم يغيّر كل شيء، أعتقد أن علينا النظر من منطلق أخلاقي وقانوني إلى ما حصل اليوم على أنه جريمة ضدّ الإنسانية»...

استمرّت الاتصالات بالورود من الإذاعة الإيطالية، «سي بي أس» CBS، «بي بي سي ورلد» BBC World، «بي بي سي كارديف» BBC Cardiff، «بي بي سي بلفاست» BBC Belfast، «أن پي أر» NPR، وراديو فرنسا الدولي. كان الجميع يريد معرفة ما لا يستطيع أحد معرفته حتى الآن. من فعل ذلك؟ كيف فعلوه؟ لا أحد ـ لا أحد يريد معرفة «لماذا» فعلوا ذلك، لأن هذا السؤال كان محرّماً. استقبلني إيمون دانفي ـ في برنامجه في دبلن مع آلان درشوفيتز الأكاديمي اليساري المؤيّد لإسرائيل في هارفرد. حاولت أن أشرح له أن هناك أسباباً لهذه الفظاعة، وأن الجرائم لا تُرتكب فقط لأن الأشخاص أشرار لا يحبّون الديمقراطية... كان درشوفيتز بحالة هيجان وكان يتكلّم بغضب وبأسلوب غير متّزن وهستيري. صرخ درشوفيتز بي وبدانفي الذي قطع معه الإرسال في النهاية: «فيسك رجل شرير، عميل، خطير، فيسك مناهض لأميركا والعداء لأميركا هو مثل معاداة الساميّة».. لكن وصلت الرسالة. هناك خط واحد فقط سيُسمح به في أميركا بعد هذه المجازر... أيّ معارضة لسياسة أميركا وبشكل خاصّ في الشرق الأوسط هي عمل إجرامي وهي «مؤيّدة للإرهاب». أيّ إنسان ينتقد أميركا الآن هو معادٍ للساميّة... المناهضون للساميّة نازيّون وفاشيّون. إذن أصبحت أميركا مقدّسة وكذلك إسرائيل والذين يطرحون منا السؤال «لماذا

ساندت الإرهاب» يجب أن يصمتوا. تحدّثت محطة أخبار البي بي سي وهي تراجع الصحف البريطانية لصباح اليوم التالي عن معلّق أميركي مؤيّد لإسرائيل رأى في مقالي أن «روبرت فيسك كسب جائزة الذوق السيّىء».

جلست على سريري أتابع قنوات التلفزيون وأشاهد احتراق البرجين وسقوطهما الأسطوري. تمّ تسجيل لقطات الرماد والدخان فقط في البنتاغون وبنسلفانيا، لكن نيويورك ظلّت الصورة الأيقونية التي تبرّر الذهاب إلى «الحرب على الإرهاب».. أدركت أن ١١ أيلول/سبتمبر أصبح قانوناً تشريعياً يُستخدم لمنع أي نقاش ومبرّراً لاعتقال أي مشتبه به وغزو أي بلد وأي معارضة. لماذا يجري عرض تلك الأجسام المتهاوية باندفاع في شوارع منهاتن مرّة أخرى؟ استلقيت على وسادتي مراقباً إيّاهم مجدّداً على شاشة التلفزيون. كانوا يتحرّكون بسرعة فائقة، كان لديهم ما يُشبه في الفظاعة تلك اللحظة التي حاولت تفسيرها عندما نظرت إلى الوجوه الرهيبة المتفحّمة لقتلى مرتفع متلة.

كان هؤلاء الأشخاص يتهاوون من الجوّ ويتساقطون تباعاً عند طرف سريري، يفطسون داخل الأغطية. أدركت عندها إلامَ كان يشير كريستين عندما ألحّ عليّ أن أركّز على الصور. كانت الرسالة معبّرة... فحتى لو لم تكن الإصابات جسيمة والشرّ رهيباً، فإن الهجمات بحدّ ذاتها عمل محترف، وليست عملية إرهابية عاديّة. لن يصدر بيان بالمسؤولية، وكنت متأكّداً من ذلك، لن تكون هناك بيانات من القاعدة أو بن لادن، ولا توضيحات... كانت الرسالة ـ البيان هي العمل بحدّ ذاته، كان البيان واضحاً في الصور، كانت كاميرا التصوير هي الإعلان عن المسؤولية. تذكّرت مجدّداً ما قاله لي بن لادن حول تمنّياته لأميركا... وأنا أنظر إلى تلك الصور والسحب الهادرة التي غطّت مانهاتن، عليّ اليوم التسليم بأن نيويورك صارت «شبحاً عن نفسها».. لكن لماذا؟ كنت محقّاً في ما يتعلّق بردّة الفعل على هذا السؤال. بدأ سيل من الرسائل الإلكترونية يصل إلى الصحيفة في الصباح التالي، بعضها داعم لتقريري والعديد منها مطالباً باستقالتي... قال أحدهم: «كانت الهجمات على أميركا نتيجة الكراهية بحدّ ذاتها» وبشكل أدقّ النوع الموسوس وغير الإنساني الذي كان ينشره فيسك وبن لادن... ووفق الرسالة نفسها لصاحبها يهودا بيرل من

جامعة كاليفورنيا، فإنني كنت أبثّ السمّ وأسوّق لكراهية محترفة.. وفي رسالة أخرى بتوقيع ألين بوبير، فإنني كنت متواطئاً مع أسامة بن لادن في الإرهاب.. وقد نعتني مارك غوان «بالحالة المجنونة كلّياً».... وكنت «مريضاً نفسيّاً» بحسب ليلي وباري فايس... وأبلغني براندون هيلر من سانتياغو «إنك تساند حالياً الشرّ بذاته»... كيف تشكّلت بسرعة تلك اللازمة : مجرّد الإيحاء بأن سياسات واشنطن في الشرق الأوسط، ودعمها غير المحدود لإسرائيل، ودعمها للطغاة العرب، وموافقتها على عقوبات مجلس الأمن التي قضت على العديد من أرواح الأطفال العراقيين، هي التي قد تكون وراء الهجمات الحاقدة للحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وصار مجرّد هذا الإيحاء هو عمل الشيطان.

جاء هذا السيل من الرسائل القاسية بالآلاف، وكان العديد منها ـ مع مرور الأيام ـ يستخدم جُملاً متشابهة وفي بعض الحالات عبارات متشابهة. وكان واضحاً أن الأمر يتحوّل إلى حملة منظّمة مبرمجة ـ من النوع الذي يؤخذ على محمل الجدّ في الصحف الأميركية لكنه يعالج بالاحتقار الذي يستحقّه في بريطانيا ـ وعندما أعلن «قارئ» من سان أنطونيو أن «مجلّتكم» «لن تُقرأ بعد اليوم» بسبب مقالة فيسك، كان واضحاً أن هناك أمراً مشبوهاً في مكان ما، ذلك أن الإندبندنت لا تُباع في تكساس وهي ليست مجلّة... لكنّ المراسلين كانوا ما زالوا يتجنّبون السؤال: «لماذا». كان مسموحاً تفحّص «كيف» تعلّم الخاطفون الطيران وحجزوا درجة أولى، واستخدموا فتّاحات عُلب، و«مَن هم؟». لم تشكّل حقيقة أن الخاطفين كانوا جميعاً من العرب، ومعظمهم من السعودية، أي مشكلة للمراسلين أو القرّاء... كان ذلك يقع في خانة «أين وماذا»، «والإرهابيون من العرب» هم قبل كل شيء وجوه مألوفة. كانت الخطيئة ربط العرب بمشاكل الأرض التي جاءوا منها وطرح السؤال: «لماذا» جاء كل القتلة من الشرق الأوسط؟ هل هناك مشكلة في ذلك؟ لقد طرحت هذا الموضوع تكراراً في مقالاتي ومحاضراتي في الولايات المتّحدة... إذا حصلت جريمة في لندن أو لوس أنجلوس، فأول شيء تفعله الشرطة هو البحث عن الدافع، لكن عندما حصلت جريمة دولية ضدّ الإنسانية في الولايات المتّحدة

بهذا المستوى الذي لا سابق له فإن الشيء الوحيد الذي لا يُسمح لنا القيام به هو البحث عن الدافع.

يتحدّث جورج بوش الابن الآن عن حرب صليبية ضدّ الشرّ... وقد تمّ بسرعة تجاوز سؤال «لماذا» من قِبل الإدارة الأميركية ـ وبقي بدون زيادة من قِبل الصحفيين الأميركيين ـ تجاوزوه بجملة واحدة: «إنهم يكرهون ديمقراطيتنا» ..أكنتم معنا أم ضدّنا.. «نحن رجال صالحون».. وفي جوّ الحزن الوطني الذي أصاب كل مدينة وبلدة أميركية فإن ذلك كان منطقياً... كانت فكرة أن الولايات المتّحدة تستحقّ بشكل ما مثل هذا الهجوم ـ وأن أكثر من ثلاثة آلاف بريء دفعوا بموتهم ثمن ذنوب أميركا في الخارج ـ فكرة غير أخلاقية... لكن بدون تفحّص دقيق وجدّي لكلّ الذي سبّب هذه الأعمال من القتل الجماعي ـ أسباب تاريخية وسياسية ـ فإن الولايات المتّحدة والعالم كانا يدخلان نفق حرب لا نهاية لها.... «حرب على الإرهاب».. هي بطبيعتها حرب لا هدف واضحاً لها ولا نتيجة منظورة لنهايتها، وحرب بدون توجّه سوى أنها ستجرّ المزيد من النار والدم.... كانت العقيدة التي وضعتها الولايات المتحدة الآن والتي أيّدها بخنوع رجالات الدول والإعلام العالمي تقول بأن ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ «بدّل العالم إلى الأبد» ... مجرّد كذبة!!. لقد جرت مجازر لا تُحصى بإحجام أكبر في الشرق الأوسط خلال العقود السابقة بدون أن يوحي أحد بأن العالم لن يكون كما هو عليه مجدّداً. لم يستحضر المليون ونصف مليون قتيل في الحرب العراقية ـ الإيرانية (حمّام الدم الذي قام به صدّام بدعم عسكري أميركي نشِط) مثل هذه الملاحظة المانوية (نسبة إلى مذهب ماني في تقسيم العالم إلى ثنائية الخير والشر)...

قبل ١٩ عاماً بدأ أكبر عمل إرهابي ـ مستخدمين تعريف إسرائيل لهذه الكلمة التي يُساء استخدامها كثيراً ـ في تاريخ الشرق الأوسط الحديث. وبشكل متوقّع فإنه لم يتذكّر أحد في الغرب في يوم ١٦ أيلول/سبتمبر عام ٢٠٠١ تلك المناسبة.... جازفتُ وكتبتُ في صحيفة الإندبندنت أنه لم تقم أيّة صحيفة بريطانية أخرى ـ وبالطبع ولا أيّة صحيفة أميركية ـ باستذكار حقيقة أنه في ذلك

التاريخ من عام ١٩٨٢ بدأت ميليشيا الكتائب الحليفة لإسرائيل حفلة الثلاثة أيام من القتل والاغتصاب والذبح في مخيّمات اللاجئين الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا، وتبعها غزو إسرائيلي للبنان - يهدف إلى طرد منظمة التحرير الفلسطينية من البلاد.. وقد أعطت الولايات المتّحدة عبر وزير الخارجية ألكسندر هيغ الضوء الأخضر للغزو الذي أدّى إلى مقتل ١٧٥٠٠ لبناني وفلسطيني معظمهم من المدنيين... كان ذلك الرقم أكثر من خمسة أضعاف عدد القتلى في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١... وحتى الآن لا أستطيع تذكّر أية صلوات ليلية أو ذكرى أو إضاءة شموع في أميركا أو الغرب للقتلى الأبرياء في لبنان... وبدون خُطب مثيرة حول الديمقراطية أو الحرّية أو «الشرّ»، فقد أمضت الولايات المتحدة، في الواقع، معظم الأيام الدامية من تموز/يوليو وآب/أغسطس ١٩٨٢ وهي تدعو إلى «ضبط النفس».

كلّا، لم تكن إسرائيل ملامة حول ما حصل في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. كان المنفّذون عرباً وليسوا إسرائيليين. لكنّ فشل أميركا في العمل بشرف في الشرق الأوسط، وبيعها العشوائي للصواريخ التي استخدموها ضدّ المدنيين، والتجاهل الفرح لمقتل عشرات الآلاف من الأطفال العراقيين نتيجة العقوبات التي كانت الولايات المتّحدة الداعم الرئيسي لها، هذه كلّها كانت مرتبطة بشكل حميم بمجتمع أنتج العرب الذين أغرقوا نيويورك في بحر من النار. وبدأت أنظر إلى ردّ الإدارة الأميركية والحكومة البريطانية على أنه شكل من أشكال الجبن. إذا كان ١١ أيلول/سبتمبر حقاً قد غيّر العالم عندها يكون بن لادن نجح لحظة صعد الخاطفون إلى الطائرات الأربع. وفي الأيام التي تلت الهجمات شعرت أكثر من أي وقت مضى بأن من الضروري مواجهة هذا الاحتيال. أراد بوش إقناع الناس بأن العالم قد تغيّر إلى الأبد، بحيث أنه يستطيع القيام بالحرب التي يدعو لها المحافظون الجدد، متستّراً بتطلّعات مشرقة للحرّية والديمقراطية تغرق الشرق الأوسط في مزيد من الفوضى والقتل. لكن لماذا يجب عليّ السماح لتسعة عشر عربياً قاتلاً بتغيير «عالمي»؟.

وبينما كان بوش وبلير يحضّران قوّاتهما لشنّ هجوم على أفغانستان التي

رفض رجال الدين الطالبان فيها تسليم ضيفهم بن لادن ـ قاما بتبرير حربهما على أنها «حرب من أجل الديمقراطية والحرية» وأنها ضدّ رجال يهاجمون الحضارة. وقد أبلغ بوش الصحفيين أن أميركا تعرّضت لهجوم كونها المنارة الساطعة للحرية والفرص في العالم. لكن لم يكن هذا هو سبب الهجوم الذي حصل على أميركا.. فإذا كان ذلك الهجوم هو «رؤيا قيامة» عربية إسلامية، فهو عندها مرتبط أشدّ الارتباط بالأحداث في الشرق الأوسط وبسيطرة أميركا على المنطقة... أضف إلى ذلك أن العرب قد يحبّون بعض الديمقراطية والحرية والتحرّر التي يتحدّث عنها بوش... بدل ذلك حصل العرب على رئيس نجح في الانتخابات على طريقة صدّام، أي بنسبة ٩٨٪ من الأصوات(*)، عنيت بذلك صديق واشنطن حسني مبارك، وعلى شرطة فلسطينية تلقّت تدريباً عند المخابرات الأميركية و قامت في بعض الأحيان بتعذيب وقتل الناس في السجون. وقد يرغب السوريون في الحصول على القليل من تلك الديمقراطية... وكذلك السعوديون... لكنّ أمراءهم المنهكين كلّهم أصدقاء أميركا، وقد درس العديد منهم في الجامعات الأميركية... كلّا إذن!!! فالحقيقة هي أن ما كان

(*) تُعتبر الانتخابات العربية من أكثر المحاولات ضعفاً في الشرق الأوسط لإحياء النمط الغربي للديمقراطية التي يدّعون أنهم يملكونها. فعلى سبيل المثال، نجح الرئيس المصري حسني مبارك عام ١٩٩٣ بنسبة ٩٣ بالمئة من الأصوات للمرّة الثالثة في الرئاسة (وقد حصل في انتخابات عام ١٩٩٩ على نسبة ٩٣,٧٩ بالمئة من الأصوات. وقد ادّعى سلفه أنور السادات الحصول على انتصار بنسبة ٩٩,٩٥ بالمئة في الاستفتاء على برنامجه الإصلاحي عام ١٩٧٤. وقد حصل صدّام حسين على نسبة ٩٩,٩٦ بالمئة في انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٣ ـ ولم تعلن هويّة نسبة ٠,٠٤ بالمئة التي لم تصوّت لصدّام، والتي يبدو أنها أعادت النظر في حساباتها في انتخابات ٢٠٠٢ حيث حصل صدّام على نسبة مئة بالمئة. وعام ١٩٩٩، حقّق الرئيس حافظ الأسد في سوريا نسبة ٩٩,٩٨٧ بالمئة من الأصوات وهو ما وصفته الوكالة الرسمية للأنباء بالانتصار الماحق لحقبة تمتدّ لسبع سنوات جديدة، وقد صوّت ٢١٩ شخصاً ضدّه ـ لكنه لم يعش ليكمل ولايته. بعده حصل عبد العزيز بوتفليقه على ٧٣,٨ بالمئة في الجزائر، ومحمود عبّاس على ٦٢,٣ بالمئة كرئيس لفلسطين عام ٢٠٠٥ وكانت النتيجة مقنعة. وفي عام ١٩٩٢، أشارت نُكتة شعبية في دمشق إلى أن الرئيس جورج بوش الابن طلب من المخابرات السورية تأمين انتصار له على نمط انتصار حافظ الأسد بعد خسارته في الاستفتاءات، وقد فعلوا ذلك واقترع الأميركيون بنسبة ٩٩ بالمئة للرئيس الأسد.

بوش وبلير يتحدّثان عنه هو «ديمقراطيتنا» نحن، و«حرّيتنا» نحن، و«تحرّرنا» نحن، وأن قُدس أقداسنا الغربي هو الذي يتعرّض للاعتداء وليس الحالة العامّة من الإرهاب والظلم التي سادت الشرق الأوسط.

نعم!! كان من المعيب على العرب إظهار الابتهاج حيال مجازر نيويورك وواشنطن المرعبة.. فلم يعبّر الفلسطينيون فقط عن فرحهم في شوارع رام الله بل قاموا بتوزيع حلويّات الفرح على السيّارات في شوارع مدينة صيدا اللبنانية... وقد أبلغني أصدقاء عرب لاحقاً أن هذه المظاهر لم تكن الوحيدة من نوعها.. ففي باص كان يقلّ مسؤولين مصريين ذاهبين لحضور حفلة أوبرا في القاهرة حصل فرح وتصفيق لدى سماع أنباء المجزرة من راديو الباص. وقد أخبرني أحد الذين شهدوا ذلك قائلاً: «لم نعتقد أن الشعب الأميركي يستحقّ ذلك، لكننا كنا نقول لأنفسنا: الآن يعرفون ماهيّة العذاب»... وكما يقول الفلسطينيون فإن اسم أميركا هو المطبوع على الصواريخ التي تطلقها إسرائيل على الأبنية الفلسطينية في غزّة والضفّة الغربيّة. في آب/أغسطس ٢٠٠١، كنت قد حدّدت مصدر أحد هذه الصواريخ بأنه صاروخ جوّ ـ أرض AGM 114 - D مصنوع من قِبل شركة بوينغ ولوكهيد مارتن، وقد رأيته في مصنعهم في فلوريدا، أجل: من بين كل الأماكن الممكنة، حيث تلقّى انتحاريو ١١ أيلول/سبتمبر تدريباتهم على الطيران...

وأخيراً وجد الانتحاري طريقه إلى الغرب... وإلى حدّ ما فقد حصل الانسحاب الإسرائيلي من لبنان في جزء منه بسبب الانتحاري. وبشكل أكثر دقّة فقد هرب الأميركيون من لبنان بسبب انتحاري عام ١٩٨٣... والآن فإن الانتحاري هو هنا ليبقى.... إنه سلاح حصريّ ـ يعود لهم وليس لنا ... ولم تظهر أيّة قوّة عسكرية قادرة على مواجهة هذه الظاهرة.... وطالما أن جانبنا «سيجازف» فقط بحياته، أي أنه لن «يعطيها» (الحرب من دون ثمن هي في النهاية اختراع أميركي) فقد أصبح الانتحاري هو السلاح النوويّ لدى الطرف الآخر... ولا يلتزم الانتحاري أو ينضبط ضمن مواصفات محدّدة متشابهة.... فالعديد من الفلسطينيين القليلي الخبرة الذين يفجّرون أنفسهم أشلاء (وغالباً وسط جمع من أكثر الإسرائيليين براءة) ليس لديهم سوى تعليم بسيط ومعرفة

طفيفة بالقرآن... ولكن لديهم شعور قويّ بالغضب واليأس وبقوّة الحقّ الذي يدفعهم إلى التحرّك قدماً. كان انتحاريو حزب الله أكثر معرفة بالقرآن إضافة إلى سنوات من الاعتقال جعلتهم أصلب قبل قيامهم بالتضحية بأنفسهم...

شكّل انتحاريو ١١ أيلول/سبتمبر سابقة. كان عددهم ١٩ شخصاً. هل كان يعرف بعضهم بعضاً؟ هل كانوا جميعاً يعرفون مصيرهم؟ ألم تكن لديهم معرفة جيّدة بأساليب قيادة الطائرات الأكثر تطوّراً في العالم؟ وكان العدد هو الذي يعود دائماً إلى خاطري... فلو فرضنا أن أربعة فقط كانوا على علم مسبق بمصيرهم فإن ذلك وحده كان كافياً للدلالة على نمط من التعاون الانتحاري غير المسبوق.... في الشرق الأوسط يحظى الانتحاري بإعجاب ملايين العرب، ليس لكونه قاتلاً جماعياً فحسب ـ وهو كذلك ـ بل لأن شيئاً لا يُقهر، ولا يُمسّ، يفرض الشروط دائماً دون أن يتحمّل مسؤولية أعماله، قد ثبت اليوم أنه غير منيع... لكن ماذا لو تزايد العدد؟ ماذا لو أن مدرسة التضحية بالذات أنتجت انتحارياً كل يوم أو اثنين أو ثلاثة، وقامت بتوزيعهم على الأهداف الغربية؟ لقد تطلّب الأمر اثنين وعشرين عاماً بعد العملية الانتحارية الأولى في لبنان عام ١٩٨٢ ليتحوّل إلى واقع، وقد أثبت العراق أن بالإمكان أخذ الانتحاريين عن الرفّ وزيادة عددهم وتنشيطهم باستمرار.

درستُ الملاحظات المفترضة التي تركها محمّد عطا، القيادي المصري لقتلة ١١ أيلول/سبتمبر... كانت مخيفة، وقحة، وأيضاً غريبة جدّاً... وإذا كان المستند المكتوب باليد، والواقع في خمس صفحات، والذي ادّعى مكتب التحقيقات الفيدرالي FBI أنه وجده في حقيبة عطا حقيقياً، فإن القتلة يؤمنون بنمط غريب جدّاً من الإسلام أو أنهم يجهلون دينهم... لقد ورد أن عطا أو أحد أعوانه كتب في ملاحظاته: «انتهى وقت المرح واللهو، كونوا متفائلين، تفحّصوا حقائبكم، ومعدّاتكم، وملابسكم، وسكاكينكم، وإرادتكم، وهويّاتكم، وجوازات سفركم، وقوموا بأداء الصلاة بقلب مفتوح عند الصباح»... جزء من الكلام الوارد في المستند كان دينياً والجزء الآخر كان أشبه ببيان مهمّة، وقد أثار تساؤلات أكثر من تقديمه إجابات... فتحت عنوان «مساء أمس» (لعلّها ليلة ١٠ أيلول/سبتمبر)

أبلغ كاتب المستند رفاقه الخاطفين أنهم سيواجهون تحدّيات كثيرة في هذه الليلة لكن عليهم مواجهتها وفهمها ١٠٠٪.. أطيعوا الله ورسوله ولا تتقاتلوا في ما بينكم، فتصبحوا ضعفاء (لعلّها الآية: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران]. أو: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال] المترجم).... الجميع يكره الموت، يخاف الموت...».. ويبدأ المستند بعبارات بسم الله الرحمن الرحيم، و: بسم الله، وباسمي وباسم عائلتي... المشكلة أنه لا يوجد مسلم ـ مهما كان غافلاً ـ يدخل عائلته في مثل هذه الصلاة ولكنه يورد اسم النبي محمّد مباشرة بعد إيراد اسم الله في السطر الأوّل... ولم يُعرف عن الانتحاريين اللبنانيين أو الفلسطينيين أبداً أنهم أشاروا إلى «وقت المرح واللهو»، لأن المسلم لا «يضيّع» وقته، وهو يعتبر المتعة ثواباً في الآخرة(*)، وأي مسلم هو ذاك الذي يطلب من إخوانه المؤمنين قراءة صلاة الصبح ثم يكمل بمقتطفات من تلك الصلاة؟ إن المسلم الحقيقي لن يحتاج إلى التذكير بواجبه في أداء الصلاة الأولى من الصلوات الخمس اليومية، كما أنه لن يحتاج إلى من يذكرّه بنصّ الصلاة... يبدو الأمر كما لو أن مسيحياً يحثّ أتباعه على تلاوة صلاة الربّ، ويشعر بأن واجبه تلاوة النصّ الكامل للصلاة في حال لم يتذكّروها.

غير أن النصّ العربي والواضح لم يُفرج عنه مكتب التحقيقات الفيدرالي. وتدلّ الترجمة كما وردت تقريباً على وجهة نظر مسيحية في ما يتعلق بما يمكن أن يكون شعور الخاطفين ـ وهم يطلبون المغفرة عن خطاياهم، شارحين أن الخوف من الموت أمر طبيعي، وأن المؤمن «ممتحن دائماً بالمشاكل».... إن المسلم يتمّ تحفيزه على شجاعة عدم الخوف من الموت ـ ذلك بأنّ الموت هو اللحظة التي يتمنّاها لبدء حياة جديدة ـ والمؤمن في العالم الإسلامي هو الإنسان المتيقّن من طريقه في الحياة وليس ذلك «المليء بالمشاكل»... ولا

(*) قد تكون هذه ترجمة ضعيفة لما ورد في القرآن الكريم، سورة الأنعام الآية ٣٢ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾... وفي الآية ٧٠ ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾.

توجد أية إشارات إلى مطالب أُسامة بن لادن ـ الإنسحاب الأميركي من الخليج، إنهاء الاحتلال الإسرائيلي، إسقاط الأنظمة العربية المؤيّدة لأميركا ـ ولا إشارة إلى السياق التاريخي الذي يمكن أن يبرّر الفظائع التي كانت على وشك الحصول... وإذا كان لدى هؤلاء الرجال وحي ما، هذا في حال كان المستند فوق الشبهة، فإنهم كانوا يوجّهون رسالتهم مباشرة إلى ربّهم.

ربّما كانت هذه الصلوات/ التعليمات قد وزّعت على خاطفين آخرين قبل حصول الهجمات ـ وقد أوردت الواشنطن بوست أن الأف بي آي وجد نسخة أخرى «من المستند الأصلي نفسه» في حُطام الطائرة التي سقطت في بنسلفانيا. ولكن لم يُنشر أي نصّ من هذه المستندات. في الماضي كان معظم مترجمي الاستخبارات الأميركية من المسيحيين الموارنة اللبنانيين الذين أدّى فهمهم الخاطئ للإسلام وصلواته إلى أخطاء خطيرة في النصوص. هل يمكن أن يكون هذا هو السبب في الإشارات الغامضة الواردة في الملاحظات التي وجدت في حقيبة عطا؟ أو أن هناك شيئاً أكثر غموضاً حول خلفيّة الذين ارتكبوا هذه الجرائم ضدّ الإنسانية؟ وقد طرح المحلّلون الأميركيون تساؤلات حول استخدام عبارة ١٠٠٪، وهي عبارة من النادر استخدامها في موعظة دينية،وحول استخدام عبارة أن النبي كان «متفائلاً»، وهو مفهوم شديد العصرية...

منذ البداية، كانت الثغرة في الرواية تتمثّل بتصرف الخاطفين... قيل إن عطا كان مُدمناً على الشراب في حين أن زياد جرّاح، الخاطف اللبناني في الطائرة التي تحطّمت في بنسلفانيا، كانت لديه صديقة تركية في هامبورغ وكان يسهر في النوادي الليلية ويشرب. هل هذا هو سبب إشارة النصّ المنشور إلى طلب المغفرة؟ ربّما كانت التعليمات الأخيرة حول «التأكد من النظافة، نظافة الملابس بما في ذلك الأحذية» تعني طهارة الشهيد قبل الموت، وهي تعكس أيضاً أفكار شخص غريب الأطوار ـ وشرّير ـ ذهنياً.

انتهى المستند الذى وجِد في حقيبة عطا بالطلب التالي: «عندما تدخلون الطائرة قوموا بتلاوة «ربّي افتح لي كلّ الأبواب وامنحني مغفرتك وعونك، وأضئ طريقي وحرّرني من الكرب»... هل كانت هذه محاولة لخنق مشاعر

الرحمة تجاه الركاب في الطائرات المخطوفة ـ وبخاصّة الأطفال ـ أو تجاه الآلاف الذين سوف يلقون حتفهم عند تحطّم الطائرة؟ هل ردّد الانتحاريون التسعة عشر تلك العبارات في سرّهم في اللحظات الأخيرة؟ أو أنهم لم يكونوا بحاجة إلى ذلك؟

كيف قام هؤلاء الرجال الشاذّون ـ ربّما كانت كلمة شاذّين لا تتلاءم مع شخصيّاتهم ـ بقيادة هذه الطائرات، دون أي إحساس بالألم، إلى داخل ثلاثة من أهدافهم الأربعة؟ بعد بضعة أيام سيتمّ إطلاعنا على برامج تدريبهم على الطيران وعلى رغبتهم في حصر اهتمامهم فقط بتعلّم كيفية قيادة طائرة بعد إقلاعها. في أواخر أيلول/سبتمبر طلبت رأي أصدقائي على الرحلة من بيروت إلى باريس واتّفق أن طاقم الطائرة كان هو نفسه الذي سافرت معه إلى الظهران عام ١٩٩٠، عندما أرسلت أميركا جنودها إلى السعودية.... «ثمانية عشر شهراً؟»، سألني قبطان الطائرة: «أتعتقد أن الأمر يحتاج إلى ١٨ شهراً لتعلّم قيادة طائرة بويينغ ٧٥٧ عندما تكون في الجوّ؟ أستطيع تعليمك كيفية قيادة هذه الطائرة خلال دقيقتين.. على الأقلّ أستطيع إطلاعك على كل ما تحتاج إلى معرفته لتصبح خاطفاً».... مع حلول الظلام بدأت الأجهزة تسطع باللون الأخضر أمامنا. وضع مساعد الطيّار الخريطة على فخذيه وقال: «لا يحتاج الخاطف إلى هذه الخرائط، كل ما يحتاج إليه هو تحديد المكان المطلوب، بُرجَي مركز التجارة العالمي على سبيل المثال... وبواسطة الطيّار الآلي تتبع الطائرة التعليمات، ويقفل جهاز اللاسلكي المرتبط بالمراقبة الأرضية ويضغط على هذا المقبض فتتّجه الطائرة إلى المكان المختار».... وانحنى الطيّار إلى الأمام وأشار إلى عُلبة وقال إن كلمة السر للتسيير الذاتي موجودة مثل كلمة فيسك مع سلسلة من الأرقام داخل هذه العلبة ١٢٣٤٥٦٧٨٩ بحيث تعمل الطائرة ذاتياً وتتجه نحو هدفها... وقال الربّان «لا يستطيع الخاطف قطعاً وضع الطائرة في حالة الإقلاع وهو لا يحتاج إلى ذلك، لأن الخاطفين في أميركا تركوا العملية لطاقم الطائرة وانتظروا حتى أصبحت الطائرة على علوّ ٣٥٠٠٠ قدم مثلاً، ثم اقتحموا غرفة القيادة وقتلوا القبطان وسيطروا على الطائرة إذ كان معظم العمل قد أُنجز

لهم»... بدا لي حينها أن العقيدة (مهما كانت محرّفة) قد ارتبطت الآن بالتكنولوجيا الحديثة.. بالطريقة نفسها التي وضعت بها تلك المجلّدات من الكتب في إحدى المكتبات الجزائرية جنباً إلى جنب: كتب علمية وكتب إسلامية!!

ظهرت مجموعة من المدن على شكل شرايين دم بيضاء وصفراء تحتنا في الظلام. *قال الطيّار: «وصل خاطفك الآن إلى منطقة غرب نيويورك*، وهو يترك الطائرة تأخذه إلى مرأى من المدينة، وعندها يضغط على هذا الزرّ ويوقف الطيّار الآلي ويقود الطائرة بنفسه... إنه يستطيع رؤية البرجين في وضح النهار.. الأمر سهل.. أيّ طيّار داخل نيويورك يرى مركز التجارة العالمي ثم يوجّه المقود إلى الأمام ويبدأ بالانحدار». لقد قام طيّارو الشرق الأوسط في وقت سابق بمناقشة اللحظات الأخيرة للطائرات التي ضربت البرجين، ودرسوا صور الصحف، وشاهدوا أشرطة الفيديو.. وكان لدى طاقم طائرتنا صور الصحافة للحظات الأخيرة لطائرات الخطوط الجوّية الأميركية والخطوط المتّحدة. قال الطيّار: «في الشريط الأول الذي صوّر الطائرة الأولى وهي تصطدم تستطيع بوضوح سماع المحرّكات. كانت تصدر صوتاً عالياً، بحيث يستطيع أي إنسان في الشارع الانتباه والنظر إلى أعلى. كانت المحرّكات تعمل فوق طاقتها العاديّة، وهي لم تُصنع أبداً لقيادة طائرة بهذه السرعة، كانت تحت ضغط هائل». وأصدر صوتاً يشبه صوت الطائرة. «ومن الطريقة التي نرى فيها الطائرة تنقضّ نزولاً، نعرف أنه كان يضغط على مِقود التحكّم إلى الأسفل نزولاً ـ وتذّكر أنها كانت الآن تطير بغير سرعتها المعهودة ـ وأعتقد أن الطائرة الأولى التي ضربت أحد البُرجَيْن كانت سرعتها تفوق ٩٠٠ وربّما ١٠٠٠ كلم في الساعة».

استوعبنا جميعاً هذه الفكرة بينما كانت ريح ليّنة تضرب أجنحة الطائرة، وكان هناك خوف من تحويل هذا الغلاف الواقي الآمن، الدافئ، المراقب من أوروبا الوسطى والشمالية، إلى قبر. وسأل مساعد الطيّار فجأة: «أتعلم لماذا قفز الناس من نوافذ المبنى؟... إن النفط الذي احترق في المبنى ليس من النوع المستخدم في السيّارة.. فقد كانت الطائرة تحمل حوالي ٢٠ ألف غالون من

وقود الطيران الذي يشبه الغاز. النفط العادي يحرقك، لكن الكيروسين يحرق بضراوة وهو أكثر حرارة. إن الأشخاص الذين احترقوا في ذلك البرج كانوا يتعذّبون بشكل مخيف وقد قفزوا بسبب الألم».

صاغ وزير الخارجية الأميركي كولن باول قواعد التأديب لما ستكون الحرب الأولى «ضدّ الشر»، وذلك بعد ثلاثة أيام من ١١ أيلول/سبتمبر. كانت رسالته إلى طالبان بسيطة: «عليكم تحمّل مسؤولية إيواء أسامة بن لادن»، وقال محذّراً: «ليس بإمكانكم فصل نشاطكم عن نشاط المرتكبين»(*). لكن الأميركيين رفضوا بشكل مطلق أن يُربط ردّهم هنا بنشاطاتهم في الشرق الأوسط. وكان يُفترض بنا أن نسكت ونحن نسمع أرييل شارون ـ الرجل الذي يرتبط اسمه دائماً بمجزرة صبرا وشاتيلا ـ يعلن أن إسرائيل ترغب أيضاً في دخول المعركة ضدّ (الإرهاب العالمي). لا عجب إذا كان الفلسطينيون خائفين.

في الأيام الأربعة التالية للحادي عشر من أيلول/سبتمبر، قُتل ٢٣ فلسطينياً في الضفّة الغربيّة وغزّة... رقم مذهل كان ليتصدّر الصفحات الأولى في الأخبار لولا الهجوم على أميركا. لكن إذا كان مسموحاً لإسرائيل الانضمام إلى

(*) كانت لمخططات الهجوم على أفغانستان سوابق تاريخية مريرة. كانت رواية توم غراهام ـ التي تأثر بها بيل فيسك قبل الحرب العالمية الأولى ـ تدور حول اللعبة الكبرى أي حول الحدود، وحول الإبقاء على أفغانستان تحت السيطرة البريطانية بين الإمبراطورية الهندية والحدود الروسية... لكنها كانت أيضاً قصّة خيانات.. فقد تبيّن أن الذين اعتقدنا أنهم معنا انقلبوا ضدّنا. حتى عام ١٨٧٨، كنا نعتقد بأن الأمير شيرعلي خان في كابول هو صديقنا وأنه كان على استعداد للقتال في سبيل الإمبراطورية البريطانية ـ تماماً كما حارب رجل اسمه أُسامة بن لادن لاحقاً ضدّ الروس لصالحنا ـ لكنّ شير علي منع مرور القوّات البريطانية، وشجّع سلب التجّار البريطانيين، وسعى بشكل علني وجدّي إلى تعزيز الكراهية الدينية ضدّ الإنكليز، وقد أعلنا الحرب عليه يوم ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٨٧٨. كان التحريض الذي قام به الأمير ومساعدته على قتل موظّفي السفارة البريطانية «جريمة غدر وجبن أثارت عدم الشفقة تجاه الشعب الأفغاني». أعلن ذلك السير فريديريك روبرتز عام ١٨٧٩ عندما احتلّ الإنكليز كابول.... وقال: «يجب ألّا يهرب الأمير وأتباعه، والغرامة والعقوبة المفروضة يجب أن يتمّ الإحساس بها وتذكّرها. يجب التعامل مع جميع الأشخاص الذين شاركوا فيها (في عمليات القتل) وفق عادتهم». كان هذا التحذير الفيكتوري الحقيقي مقدّمة للكلمات التي نسمعها من بوش الآن.

الصراع، يكون الفلسطينيون ـ بقتالهم ضد إسرائيل ـ قد أصبحوا، بالامتداد، جزءاً من «الإرهاب العالمي» الذي يُفترض أن بوش ذاهب لقتاله. ليس عبثاً إذن أن يعلن شارون الآن أن لدى عرفات علاقات مع بن لادن ـ وهو تصريح عارٍ عن الصحّة.... تماماً مثل محاولة بوش اللاحقة إقناع العالم بعلاقة صدّام حسين بأسامة بن لادن.

احتاج الأمر إلى بعض الوقت لفهم ما يحصل الآن، من استعدادات غير عاديّة وهائلة تقوم بها أقوى دولة على الأرض لقصف البلد الأكثر جوعاً ودماراً وفقراً في العالم.

إن افغانستان التي اغتُصبت واستُنزِفت من قِبل القوّات الروسية خلال عشر سنوات والتي تخلّى عنها أصدقاؤها ـ نحن بالطبع ـ تجد نفسها بعد الانسحاب السوفياتي على وشك التعرّض لهجوم من أكبر قوة عظمى. ويقوم بوش الآن بتهديد نظام طالبان الظلامي، الجاهل، المتشدّد، بالعقاب نفسه الذي سيهدّد به بن لادن. تحدّث بوش أساساً عن «العدالة والعقاب»، وعن تطبيق العدالة ضدّ مرتكبي فظائع ١١ أيلول/سبتمبر... لكنه لم يرسل رجال شرطة إلى الشرق الأوسط، بل أرسل طائرات ب٥٢ وف١٨ وطائرات أواكس ومروحيات أباتشي. لسنا ذاهبين لاعتقال بن لادن بل نحن ذاهبون لتدميره.. لم تميّز طائرات ب٥٢ بين الرجال الذين يرتدون كلّهم عمائم، ولا بين الرجال والنساء أو بين النساء والأطفال.

لا أحد يستحقّ هذا المصير... لكن بعد ٢١ عاماً من الصراع المستمرّ استحقّ الأفغان ذلك. لقد قام السعوديون والباكستانيون بتسليح الميليشيات الأفغانية ضدّ الاتحاد السوفياتي ومن ثمّ ـ لعدم رضاهم على المنتصرين بسبب تعصّبهم ـ قاموا بدعم جيش الملّا عمر الوهّابي المؤلّف من طلبة العلوم الدينية الطالبان. وقد أرسلت السعودية ملايين الدولارات إلى المدارس ـ المعاهد الدينية في باكستان خلال الصراع الأفغاني ـ السوفياتي، وكان الطالبان نتاجاً حقيقياً للوهّابية، العقيدة المسلمة المتشدّدة المسمّاة إصلاحية، للدولة السعودية التي أسّسها في القرن الثامن عشر رجل الدين محمّد بن عبد الوهّاب. ويحبّ

المفكّرون الغربيون الإشارة إلى معتقدات عبد الوهّاب على أنها متطرّفة.. ولكن كان لها وقع آخر ودلالة مختلفة عند المسلمين. ذلك أن شنّ الحرب على إخوة مسلمين ضلّوا يُعتبر جزءاً من فلسفة ابن عبد الوهّاب، أكانوا شيعة البصرة «الضالّين» ـ الذين حاول جاهداً إدخالهم في الإسلام السنّي ـ أو العرب الذين لم يتّبعوا تفسيره الغريب للوحدة الإسلامية... وقد قام بتحريم التمرّد على الحكّام. غير أن مذهبه «المستقيم» هدّد آل سعود في العصر الحديث، وأمّن لهم في الآن نفسه الحماية من خلال تحريم الثورة. وهكذا اعتنقت السعودية من خلال حكّامها العقيدة الواحدة التي شكّلت حماية وخطراً في آن واحد.

لم يتعمّق أحد في دور السعوديين في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ بشكل كامل حتى الآن. وبينما عبّر أفراد العائلة المالكة عن مشاعر الصدمة والهلع المتوقّعة منهم، لم تجر أيّة محاولة لتفحّص طبيعة الوهّابية واحتقارها الفطريّ للنشاط البشري أو للموت. لقد أمر عبد الوهّاب بتدمير كلّ الأضرحة والمساجد المبنيّة فوق القبور بما في ذلك ضريح زيد بن الخطاب أحد صحابة النبي. ويتوافق تدمير طالبان لتماثيل بوذا الضخمة في باميان عام ٢٠٠٠ وتخريب متحف كابول مع هذه النظرية الدينية، رغم أن الأمر يحتاج إلى نقاش في ما يتعلّق ببُرجَيْ مركز التجارة العالمي.

إن معارضة المسلمين السعوديين الشرعية للمظاهر المقدّسة هي التي أدّت مباشرة إلى تدمير تماثيل بوذا. لقد دمّر الوهابيون في عام ١٨٢٠ تماثيل «ذو الخلصة» التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر. وبعد بضعة أسابيع من تصريح المؤرّخ اللبناني كمال الصليبي في أواخر التسعينيّات بأن هناك قرى سعودية يقطنها سعوديون كانت قرى يهودية ذكرت في التوراة، أرسلت السلطات السعودية على الفور جرّافات ودمّرت المباني القديمة. وقد قامت التنظيمات السعودية بتدمير مئات المباني التاريخية في مكّة والمدينة. وشجب المسؤولون السابقون في الأمم المتّحدة تدمير المباني العثمانية في البوسنة من قِبل جمعية إغاثة سعودية قرّرت أن هذه المباني وثنية. وعندما بنى السعوديون مسجد فيصل

الكبير في العاصمة الباكستانية إسلام أباد ـ وكان من المفترض أن يكون في كابول ـ تلا بناؤه مباشرة تدمير عدد كبير من الأضرحة الإسلامية المهمّة في المدينة، وقد ظهرت كتابات إلى جانب الأضرحة تنصّ على أنه يجب تدميرها إذ لا يوجد «تقديس في الإسلام».

من بين الدول الإسلامية العديدة التي وقفت ضدّ تدمير تماثيل بوذا في باميان دولةٌ عربية واحدة مهمّة ظلّت صامتة هي السعودية، ففيها يُمنع المسيحيون حتى من الممارسة الخصوصية لشعائرهم الدينية في عيد الميلاد ويدفن الملوك والأمراء بدون شواهد على القبور.

عام ١٩٩٨ كتب طالب سعودي في هارفارد أطروحة مميّزة ـ تستند إلى بحث ميداني مباشر عن بلاده ـ يقول فيها بشكل مقنع إن القوّات الأميركية عانت إصابات عديدة نتيجة الهجمات بالقنابل، لأن المخابرات الأميركية لم تفهم الوهّابية ولم تقدّر مدى عدم الرضى في أوساط علماء الدين الكبار تجاه الوجود الأميركي في المملكة. وقد سمّى نوّاف عُبيد، الذي قدّم تقريره بناء على طلب مسؤول أميركي كبير في الإدارة الأميركية، العالِميْن الدينيّين الكبيريْن المعارضين للحكم، الشيخ سلمان العودة والشيخ سفر الحوالي. وكان العودة قد وزّع خطباً تصف آل سعود بآخر السلاطين العثمانيين، والأميركيين بقوة الاحتلال، وقد أشار عبيد الى أن العودة يستمدّ الدعم من مدينة «البريدة»، حيث حاول أتباعه منع توقيفه عام ١٩٩٤.

استشهد عُبيد بضابط كبير في الجيش السعودي أخبره أنه «كان مذهولاً بالاتفاق السرّي الذي أبرمه الحكم في المملكة السعودية مع إدارة بوش موافقاً على استبقاء القوّات الأميركية بعد الحرب»، وعرف عندها أن المجتمع.... «لن يفهم أبداً أو يتقبّل هذا الوضع». وأبلغ ضابط في الحرس الوطني السعودي عُبيد بشكل أكثر تشاؤماً أنه كلّما أصبح الأميركيون أكثر ظهوراً أصبح مستقبل البلاد قاتماً.

وكان ضابط سابق في الحرس الوطني (جهيمان بن محمد العتيبي) هو الذي قاد حصار المسجد الكبير في مكّة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٩ مع صديقه محمد بن عبدالله القحطاني. وقد أعلن العتيبي أن القحطاني هو المهديّ، أي الشخصية الملهمة ربّانياً التي تحدّث عنها النبي والتي ستنشر العدل في العالم الفاسد. وقد نشر السعوديون عشرة آلاف جندي لاستعادة المسجد من مئتي مسلم كانوا قد استولوا على المبنى، لكن المسجد الكبير كان أفغانستان حقيقية بدهاليزه ومخابئه. ولم يتمّ إنهاء الحصار إلّا بعد أسبوعين عندما حضرت قوّات مكافحة الشغب الفرنسية إلى مكّة (وقامت بالتحوّل لوقت قصير وشكلي إلى الإسلام لتشريع وجودها في مدينة لا يدخلها إلا المسلمون) وقضت على المتمرّدين بشكل دموي. فقد أغرق الفرنسيون دهاليز المسجد وأدخلوا كابلات في الماء وقاموا بكهربته بأسلوب صدّامي، فأصبح العديد من المتمرّدين مثل «السمك المشوّي». وفي ٩ يناير/كانون الثاني ١٩٨٠ جرى قطع رؤوس ٢٦ رجلاً علناً في مدن عدّة في أنحاء السعودية.

حتى الآن، لا يستطيع السعوديون مواجهة ازدواجية الحماية والتهديد التي تمثّلها الوهّابية بالنسبة إليهم. وقد قال الأمير بندر بن سلطان، السفير السعودي لفترة طويلة في الولايات المتحدة، ذات يوم إن دين بلاده جزء من «ثقافة أبدية» يعيش أهلها وفق الإسلام «وتقاليدنا الأساسية الأخرى». نصح سفير بريطاني سابق الغربيين «بالتكيّف في السعودية» والتصرّف وفق الأصول السعودية وتقاليدها. وهذه الأصول مثبتة في شكاوى منظمة العفو الدولية من قِبل مئات الرجال ـ وبعض النساء ـ الذين يشهدون كل سنة عمليات تعذيب ومحاكمات غير عادلة.

استنتج الطالب السعودي، عُبيد، بكثير من التوقّع المسبق «أن الولايات المتّحدة ستتاح لها الفرصة لتشهد من حكومة طالبان الوهّابية قساوة لا وجود لها عند آل سعود، ونظرة إلى ما ستؤول إليه الأمور في السعودية إذا اختلّ التوازن التقليدي لصالح المؤسّسة الدينية». كان ذلك، كما سيثبت للعالم

لاحقاً، تجربة مخيفة. لم يُخفِ الطالبان عدم تسامحهم وعقوباتهم القاسية، مثل شنق السارقين وقطع الأعضاء وضرب النساء وإعدامهم. لكن عندما واجهوا المعارضين الشيعة، قاموا بتطبيق مفهوم عبد الوهّاب بشنّ حرب على المسلمين «الضالّين» بالشراسة نفسها التي يقاتلون بها خصومهم. في آب/أغسطس عام ١٩٩٨، نجحوا في اقتحام آخر معقل قويّ للتحالف الشمالي بقيادة أحمد شاه مسعود، وهو مدينة مزار شريف. كانت إحصائيات شاهد عيان للمجزرة الرهيبة ـ التي ظلّت سرّية في ملفّات الأمم المتحدة ـ الدليل المرعب على الاغتصاب والذبح والخنق الجماعي للرجال والنساء المسلمين الشيعة على يد الجيش. وقد أُرسلت التقارير التي جمعها موظفو لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتّحدة في باكستان إلى نيويورك، لكنها ظلت سرّية، لأن الأمم المتّحدة كانت تتفاوض مع الطالبان. وقد صُدِم دبلوماسي سويدي مما قرأه في المستندات، إلّا أنه أعطاني مضمون تلك المستندات.

أفاد رجل أفغاني من الطاجيك أب لثلاثة أولاد الأمم المتّحدة أنه لم يرَ مثل هذه المشاهد من العنف حتى دخل الطالبان مزار شريف، حين كان أهلها يقومون بالتسوّق اليومي دون وجل. قال: «كانوا يطلقون النار على جميع من كانوا في الشارع دون تمييز بين الرجال والنساء والأطفال، ولم يسمح لأحد بدفن الجثث لمدّة ستّة أيام، وقد غطّت الجثث الشوارع بالدماء. وكانت الكلاب تأكل اللحم البشري، وأصبحت الرائحة لا تطاق». وأضاف الشاهد أن الطالبان قاموا في اليوم التالي لانتصارهم بالبحث من بيت لبيت عن العائلات الشيعية المسلمة التي تدلّ عليها ملامحها وذلك لقتلها، وغالباً ما كانوا يطلقون النار ثلاث مرات على الذين يجدونهم (رصاصة في القلب وواحدة في الصدر وأخرى في الخُصيتين)، وقاموا بذبحهم بطريقة حلال «بسكين على العنق» أو قاموا بتكديسهم في حاويات بعد ضربهم بشدّة.

كانت ١٢ حاوية أو أكثر متوقفة طيلة النهار تحت الشمس وأبوابها موصدة. وقد رأى الشاهد أبواب الحاويات تُفتح بعد موت من بداخلها اختناقاً. وكانت

بعض الحاويات مليئة بالأطفال، وقد تمّ أخذهم إلى جهة مجهولة بعد قتل أهاليهم. وقال تقرير للأمم المتّحدة: «كانت النساء يتعرّضنَ للمضايقة، وقد وردت أنباء عن عمليات اغتصاب عديدة». وسمع شاهد كان يمرّ بمدينة مزار شريف نداءات على مآذن المساجد تدعو الشيعة إلى اعتناق الإسلام السنّي وحضور الصلوات اليومية لأجل سلامتهم. ووصفت سيّدة عملية قتل زوجها وأخويها ـ أُطلقت عليهم النار مرّتين ثم ذبحوا ـ وكيف صرخ الطالبان عندما غادروا المنزل بأن لديهم إعدامات أخرى لكنهم سوف يعودون.

وقُتل عشرة دبلوماسيين وصحافي إيرانيين، عندما دخل الطالبان إلى قنصليتهم، وظلت جثثهم ملقاة في المبنى لمدّة يومين ثمّ دُفنوا في قبر جماعي في ساحة ثانوية سلطان رضا للبنات. وقد أدّى ذلك إلى استفزاز الإيرانيين بشكل كبير إلى درجة أن القوّات الإيرانية شنّت هجوماً عسكرياً إلى داخل أفغانستان في أيلول/سبتمبر ١٩٨٨ ولم يرجع أحد من آلاف الشيعة الذين خطفوا في مزار شريف.

في ربيع ٢٠٠٠، زرت أحد مراكز إنتاج طالبان، مدرسة من الملتزمين، حيث يستعين الشباب بالعلم الحديث في تعليمهم القرآني، وكان هذا موضع استحسان الكثير من الإسلاميين. كان الطلّاب (وكلمة طالبان تعني طلبة العلم) من جنسيّات متعددة، وكلهم ينتظرون الثورة الإلهية التي يُعتقدون أنها ستحصل في حياتهم. ولدى وصولي إلى الكلّية في «أكورا كاتاك» في باكستان في المقاطعة الشمالية الشرقية مع المصوّرين نيلوفار بازيرا وصديّق برمك، وجدت الإسلاميين الساعين لتحرير طاجكستان متحمّسين للكلام. في ممرّ ضيّق، وكان الشبّان الملتحون مجتمعين في ممرّ ضيق وهم يبتسمون ويصرخون: «الله أكبر» أمام صور تظهر الدبّ الروسي مطعوناً بعلم إسلامي أخضر.

أخذني عبد الرؤوف من يدي (لم يكن هناك أسماء عائلة للطلاب، وكذلك الأمر في المسجد الكبير والمدرسة الدينية المقابلة لخط القطار القادم من پيشاور)، وصرخ باللغة الروسية التي قام صديق لي بترجمتها: «نرغب في القيام بثورة إسلامية في طاجكستان، ونؤمن بإعادة إحياء الإسلام في بلادنا. سوف

يشعّ نور الإسلام فوق بلادنا. إنه وعد الله لنا». كان وجهه نحيفاً ولحيته خفيفة وعيناه تلمعان ببريق الإيمان، وكان رفاقه من طلّاب المدرسة التي أسّسها مولانا عبد الحق الذين ودّعوا رفاقهم الشيشان منذ وقت قصير، وهم شُبّان أنهوا سنة من الدراسة الدينية في أكورا كاتاك، ثم عادوا إلى بلادهم لقتال الروس.

ترمز كلّية الحقّ إلى كل ما يخشاه الأميركيون والروس: مصنع طالبان، مدرسة عقائدية تضمّ ألوف المسلمين الأمّيين، المتلهّفين للقتال في سبيل أمّة إسلامية متّحدة في جنوب غرب آسيا. وإذا كانت هذه الأمّة الإسلامية ستضمّ معظم دول جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق الغربية، ومعها أفغانستان وحتى باكستان، عندها ستكون الحقّانية قد أدّت دورها... وقد أجابني عبد الرؤوف (٢٢ سنة) عندما سألته عن زملائه الشيشان السابقين قال: «إنهم إخوة لنا وإذا احتاجوا إلى مساعدتنا فسوف نقوم بذلك».

كانت المدرسة التي أسّسها راشد، جدّ «الحقّ» (أي عبد الحقّ) عام ١٩٧٤ مدرسة لكل قادة طالبان الذين يحكمون كابول الآن.. وكانت تشتمل على فندق من أربعة طوابق يتّسع لثلاثة آلاف طالب، وهي مشروع طويل الأمد وليس فكرة زائلة.. وإذا كان الرئيس الباكستاني الجنرال برويز مشرّف والسلطات الباكستانية يحبّون طمأنة القادة الغربيين بالادّعاء أن مثل هذه المؤسّسات هي شيء من الماضي، فقد كان من المفيد ملاحظة وجود ثمانية رجال شرطة باكستانيين يرتدون ملابس سوداء مسلّحين أمام المبنى لحراسة مولانا سمّي الحق ـ والد راشد ـ وطلّابه. لقد وصلوا إلى هنا عام ١٩٩٨ بناء على أوامر رئيس الوزراء المخلوع نواز شريف وذلك «لأسباب أمنية». وبالطبع فإن هذه المدرسة لم تكن من الماضي. وفي حين أن مجلّداتها القرآنية تُدرس باحترام غير عادي، فإن المدرسة تدير دار نشر خاصة بها، وقد تحوّلت نحو التقنية العالية في غرفة الكمبيوتر المجاورة للمكتبة والتي يشرف عليها سجّاد خان الذي يقوم بإنشاء شبكة خاصة به. وقد اصطحبني راشد الحق في جولة على المباني مرتدياً دشداشته وقبّعة البشتون وأكد أن الكلّية تكلّف مليون روبية ـ ٢٠ ألف دولار ـ سنوياً، لكنه قال إن تمويلها يأتي من أنحاء العالم. «ليس من دول بل من أفراد فقط». بالطبع فكرّت في المملكة السعودية.

قال الحقّ: «إن كبار القادة الإسلاميين في هذه المنطقة كانوا جميعاً تلاميذ جدّي ووالدي، وبخاصة الطالبان... الثورة الإسلامية قريبة جدّاً، إن شاء الله»... إن جدّ راشد الحقّ الذي تتمتّع أعماله المدوّنة بمكانة عالية في مكتبة الكلّية مدفون في أرض قرب الكلّية مع زوجته وأخته... تناهى إلى مسمعي صوت آلة صبّ الإسمنت في المبنى المجاور، حيث كان العمّال ينجزون طابقاً رابعاً جديداً. وكان الانقلاب العسكري في باكستان في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩٩٩ قد أبقى المدرسة آمنة. قال راشد الحقّ: «كنّا مسرورين لحصول ذلك، لأن معظم أعضاء المجلس كانوا من الفاسدين، هذه لم تكن ديمقراطية حقيقية. والديمقراطية الحقيقية هو ما نجاهد لأجله في الإسلام. طيلة خمسين سنة منذ إنشاء باكستان، كنا ننتظر تطبيق قانون إسلامي حقيقي». وفجأة، بدا صوت راشد الحقّ مشابهاً لصوت الجنرال مشرّف، حاكم باكستان العسكري. وفي الحقيقة: أليست أهدافهم متشابهة؟ ألا يطالب الاثنان بإنهاء الفساد؟ ألا يعتبر الاثنان حكم نواز شريف ديمقراطية مزيّفة؟ إذاً لماذا كان على باكستان مراعاة طلب واشنطن بإغلاق مصنع طالبان في أكورا كاتاك؟

والحال أن ملاحظات أخرى أظهرت إلى أيّ مدى ذهبت الكلّية في تبنّي أيّ شيء يكرهه الأميركيون والروس. فبينما كنا نسير قرب مسجد المدرسة المكسوّ بالبلاط الأزرق والأبيض، لاحظت أن راشد الحق ، الذي أمضى سنة في جامعة الأزهر الإسلامية في القاهرة يتحدّث العربية بلهجة مصرية قويّة، قد أصبح عاطفياً: «صدّقني ستكون هناك ثورة إسلامية. كلما قامت الولايات المتّحدة والعالم الغربي والدول التي قتلت المسلمين بقمعنا، أصبحت الجمهورية الإسلامية وشيكة. إن معنوياتنا عالية، ومن المحتمل حصول وحدة إسلامية في هذه المنطقة كلّها. ونحن نريد إقامة مثل هذه الوحدة ـ مثل الاتحاد الأوروبي وحلف الناتو».. سألته : الناتو؟ الناتو؟ كان راشد الحق يفكّر بالتعابير العسكرية وكذلك الفكرية. إذا قامت الهند والدول الغربية الأخرى بصنع قنبلة نووية، يوافق الجميع على ذلك. هذا نعم. لكن إذا قامت دولة إسلامية فقيرة مثل باكستان بصنع قنبلة، عندها يقف الجميع ضدّها وتصبح قنبلة إسلامية. إذا صنع

الهندوس قنبلة، فإنها ليست قنبلة هندوسية، لكنّ المسلمين الذين يصنعون قنبلة يوصفون بأنهم إرهابيون أصوليون»، وهكذا وجدت نقطة توافق أخرى بين مدرسة الحقّ والجنرال مشرّف. بالنسبة إلى راشد الحق وطلّابه وبالنسبة إلى الجنرال الباكستاني فإن القنبلة هي رمز الكرامة وقد صُنعت لتبقى.

جلس والد زياد الجرّاح بجانبي وفتح يديه بحركة بريئة هي أيضاً دعاء خاص: «اتصل قبل يومين من تحطّم الطائرات ليقول لي إنه تسلّم الألفي دولار التي أرسلتها له». جلس سمير جرّاح، الذي كان لا يزال يتماثل للشفاء من عملية قلب مفتوح، شبه منهار، مريضاً، محزوناً، في كرسيّ بلاستيكي أخضر، تحت دوالي العنب في حديقته اللبنانية... «قال زياد إنها من أجل دروس الطيران، وقد أخبرني العام الماضي أن لديه خياراً للدرس في فرنسا أو أميركا ـ وأنا الذي طلبت منه الذهاب إلى أميركا ـ لكن هناك العديد ممن يسمّون زياد. ربّما لم يكن هو! كان طيّباً، ولداً لطيفاً». عند هذا الحدّ، انحنى سمير الجرّاح إلى الأمام ووضع يديه على وجهه واستغرق في البكاء. كان زياد الجرّاح ربّان طائرة اليونايتد (الطيران المتحدة) رحلة ٩٣ من نوارك إلى سان فرانسيسكو، وهي الطائرة التي تحطّمت في بنسلفانيا عندما حاول الركّاب على ما يبدو مهاجمة غرفة القيادة وتعاركوا مع الخاطفين، وربّما مع زياد الجرّاح الذي كان يتولّى السيطرة على الطائرة.

كان الكلّ يعرف... الجميع حولنا.. مجموعة من الرجال المتوسطي العمر جلسوا على كراسٍ متشابهة، كلّهم مسلمون سنّة، وكانوا جميعاً مستائين لأن جريمة ضدّ الإنسانية لطّخت القرية الصغيرة والغنية «المرج في سهل البقاع اللبناني».. كان للقرية مسجد كبير ـ لم أشهد مسجداً بهذه الضخامة في قرية صغيرة ـ على بعد مئتي متر من الباب الأمامي للمنزل... لكن أصدقاء وعائلة عم زياد الجرّاح أصرّوا على أنه لم يكن متديّناً أو سياسياً. قال جمال الجرّاح: «كان رجلاً عادياً، يشرب الخمرة، وعنده صديقات. في أواخر آب/أغسطس الماضي جاءت صديقته أيسل التركية لمقابلة عائلتنا هنا لأنها أرادت لقاء عائلتها المستقبلية. لم يستطع القدوم معها لأنه كان مشغولاً جدّاً بدراسته كما قال».

ذلك اليوم كان ١٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ـ أي بعد خمسة أيام من الهجمات على مركز التجارة العالمي والبنتاغون وبنسلفانيا حيث تحطّمت طائرة الانتحاريين ـ كان مشغولاً جدّاً بحيث لم يتمكّن من اصطحاب خطيبته للقاء عائلته؟ مشغولاً بماذا؟ ولماذا كان طلبه مبلغ ألفي دولار؟ لإكمال دراسته في مدرسة الطيران في ميامي؟ أو لشراء تذاكر سفر لرحلة البوينغ ٧٥٧ إلى كاليفورنيا، له وربّما لخاطفين آخرين على الرحلة؟ كانت إيسل في ألمانيا، وقد حضرت إلى مركز الشرطة في بوشيم وسلّمتهم الأدلّة بملء إرادتها.. وكانت الشرطة قد فتّشت شقّتها ووجدت «مستندات تتعلّق بالطيران» في حقيبة تعود إلى أحد الرجال الثلاثة الذين سمّتهم واشنطن خاطفين. كان الجميع ـ شيء لم تستطع عائلة الجرّاح تفسيره أو تصديقه ـ يعيشون معاً في هامبورغ. وقد بلّغت أيسل عن اختفاء زياد ـ كما فعلت قبل ١٨ شهراً عندما اختفى لمدة خمسة أسابيع ـ وما أبلغته لعائلة الجرّاح عبر الهاتف أثار فيهم الشكّ حينها أن شيئاً ما ليس على ما يرام بالنسبة إلى ابنهم الوحيد.

واستناداً إلى صديق العائلة أبلغت أيسل آل الجرّاح أن خطيبها الذي يزورها كل نهاية أسبوع قادماً من جامعته في هامبورغ، ربّما ذهب إلى أفغانستان. قال لي جمال جرّاح إن هذا ما كانت تخشاه أيسل. «لكن ثبت أنه كان قد انتقل من الجامعة الأولى في غريفسولد إلى هامبورغ لتلقّي دروس جديدة ولم يكن على اتصال بأيسل طيلة هذا الوقت». خمسة أسابيع لتغيير الجامعة؟ بدون إبلاغ خطيبته؟

كانت تفاصيل حياة زياد الجرّاح بسيطة ـ كما قالت العائلة ـ بقدر ما كان موته غامضاً بالنسبة إليهم. كان عمره ٢٦ سنة ـ بحسب تذكرة هويّته اللبنانية ـ ولد يوم ١١ أيار/مايو ١٩٧٥، قروي من عائلة ميسورة، وكان والده موظفاً رسمياً في وزارة الشؤون الاجتماعية في بيروت ووالدته مدرّسة. التحق زياد الجرّاح بالمدرسة الإنجيلية في زحلة التي تبعد ٢٠ كلم عن بيته، ودفع والده ألوف الليرات لإرساله إلى الجامعة. سافر إلى هامبورغ بتأشيرة طالب عام ١٩٩٧، والتحق بجامعة المدينة التقنية. اختفى لفترة قصيرة عام ١٩٩٩، قبل أن

يسافر إلى الولايات المتحدة بناء على نصيحة والده.. قال سمير الجرّاح: «كلّما طلب مالاً كنت أرسل له، كان يحتاج إلى المال ـ كان يقطن بيتاً خاصاً في ألمانيا وله صديقة يصرف عليها، وكان عليه تمويل دراسته». في شباط/فبراير عاد زياد الجرّاح إلى لبنان للمرّة الأخيرة ليكون موجوداً أثناء عملية القلب المفتوح لوالده. قال لي عمّه جمال: «كان يذهب كل يوم إلى المستشفى ويتابع وضع والده ويهتمّ. كان طبيعياً، وكانت شخصيته وحياته لا تدلّان على علاقة ما بالذي حصل.... كانت لديه صديقات، وكان يذهب إلى النوادي الليلية وبعض الأحيان إلى المراقص». كل إنسان تحدّثت معه في المرج قال الشيء نفسه: كان زياد الجرّاح فرحاً، شاباً علمانيا، لم يظهر أيّ اهتمام بالدين، ولم يدخل أبداً مسجداً للصلاة، وكان يحبّ النساء مع أنه كان في وقت ما محافظاً وخجولاً. كان محمّد عطا الذي عاش معه في هامبورغ وقاد طائرة الخطوط الأميركية إلى داخل مركز التجارة العالمي معروفاً بأنه يشرب خمس أو ستّ كؤوس من الخمرة في الليل. بالطبع فإن مثل هذا التصرّف من شأنه منع صاحبه من الانضمام إلى صفوف حركة القاعدة التابعة لبن لادن. أو أن هذه كانت محاولة لتضليل وكالة الاستخبارات الأميركية التي ربّما كانت تراقب الرجال؟ من يعتقد أن شاباً يشرب في بار مع صديقة تركية في ألمانيا يعيش معها يخطط لتحطيم طائرة على متنها ٣٧ راكباً بريئاً ـ في ماذا ؟ في الكونغرس؟ أم البيت الأبيض؟

لكن ابن سمير الجرّاح صعد إلى الطائرة ومعه سكين وفتّاحة عُلب ـ وكان آخر اتصال تلفوني من الطائرة كشف أن هذه كانت الأسلحة الوحيدة للخاطفين ـ وكان يعتزم قتل نفسه مع الركّاب والطاقم وأيضاً الرئيس بوش وموظفيه. إذن ماذا تعلّم في مدرسة زحلة الإنجيلية وفي المدرسة البطريركية المسيحية حيث درس أيضاً في بيروت؟ كان عمره ٧ سنوات فقط، عندما حاصره الجيش الإسرائيلي وعشرات الآلاف من المدنيين اللبنانيين في بيروت عام ١٩٨٢. لم يتورّط أبداً في الحرب الأهلية كما أبلغني جيرانه، ولم يكن مهتمّاً بالميليشيات. وقال لي جمال الجرّاح بسأم: «نحن مستعدّون للتعاون مع السلطات. نحن ننظر

جميعاً إلى ما حصل في أميركا على أنه عمل إرهابي. إنها مأساة للأميركيين، لنا ولكل الناس في العالم». وظل سمير يحرّك رأسه مكرّراً رفضه: «إبني كان إنساناً عادياً، لا يفعل ذلك أبداً. لماذا؟ ربّما كان هناك زياد الجرّاح آخر على الطائرة». لكن الرجال والنساء المجتمعين في منزل العائلة ذلك الصباح جاءوا باللباس الأسود...

عندما بدأ القصف الجوّي لأفغانستان يوم ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١ لم يكن هناك أي صحفي أجنبي في ثلاثة أرباع أراضي أفغانستان التي يحكمها الطالبان. كانوا في المنطقة الشمالية الشرقية التي يسيطر عليها تحالف مسعود الشمالي. وكانت الصورة الوحيدة للحياة والموت داخل كابول هي التي تنقلها قناة «الجزيرة» الفضائية القطرية التي لم تنقل فقط تصريحات بن لادن، بل عرضت شريط أضرار القصف على مناطق مدنية من العاصمة... قبل بضعة أشهر سافر صديقي القديم توم فريدمان إلى الإمارة الخليجية الصغيرة، قطر، حيث كتب في زواياه الإمبريالية في النيويورك تايمز أن تلفزيون الدولة الصغيرة دليل واعد على أن الديمقراطية ربّما وصلت إلى الشرق الأوسط. كانت «الجزيرة» تزعج بعض الطغاة المحلّيين العرب ـ أحدهم رئيس مصر ـ واعتقد توم أن هذه فكرة جيّدة. وكذلك اعتقدت. لكنّ أوائل تشرين الأول/ أكتوبر أعادت كتابة القصّة. كان كولن باول الآن يضرب أمير قطر على ركبتيه، لأنه ـ كما ادّعى ـ «كانت الجزيرة تثير المشاعر المناهضة للأمركة». كان الأميركييون يريدون من أمير قطر إغلاق مكتب القناة في كابول الذي كان ينقل في أشرطته عمليات القصف الجوّي الأميركي وتصريحات بن لادن... كان الرجل المطلوب عالمياً يوحي بأنه غاضب للموتى العراقيين من الأطفال نتيجة العقوبات، وبسبب الأنظمة العربية الموالية للغرب، وهجمات إسرائيل على الأراضي الفلسطينية، والحاجة إلى مغادرة القوّات الأميركية للشرق الأوسط. وبعد إصرارهم على أن بن لادن إرهابي مجنون ـ وأن لا علاقة بين سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط والجرائم ضدّ الإنسانية في نيويورك وواشنطن ـ كان الأميركيون بحاجة ماسّة الى إسكات تغطية الجزيرة للأخبار...

ولا حاجة إلى القول إن هذه الحماقة قد حظيت بتغطية إعلامية ضئيلة في الإعلام الغربي الذي يعرف رؤساء تحريره أن ليس لديهم أي مراسل في مناطق طالبان في أفغانستان. في حين كان لدى الجزيرة مراسل... كانت حملة بن لادن شديدة الوضوح... فقد كان يسجّل تصريحاته ويرسلها مع أحد أتباعه إلى مكتب الجزيرة في كابول. ولم تكن تتضمّن استجوابات بل مجرّد موعظة. ولم نشاهد أي شريط فيديو عن تدمير معدّات طالبان، وطائرات الميغ القديمة ودبّابات حلف وارسو الأقدم أيضاً التي كانت تصدأ في أنحاء أفغانستان منذ سنوات. هناك فقط مجموعة من الصور (الحقيقية على ما يبدو) لأضرار القصف على منطقة مدنية في كابول.

وكالعادة جرت تغطية التقارير الأولى لهجمات الصواريخ الأميركية دون أي إيحاء بأن أبرياء ماتوا في البلد الذي خططنا «لإنقاذه». هل كان الطالبان يقولون الحقيقة حول مقتل ثلاثين مدنياً في كابول؟ هل نعتقد نحن الصحفيين فعلاً أن القنابل سقطت على المذنبين، وليس على الأبرياء؟ وللتأكيد، حصلنا على تعليقات الحرب العالمية الثانية بشأن المعنويات العسكرية الغربية من إذاعة بي بي سي، وكان علينا الاستماع إلى رواية حول «ليلة جيّدة غير مقمرة للأسطول الجوّي»، لقصف أفغانستان.

سمعنا على قناة فضائية عن القتال الجوّي فوق أفغانستان.. كان ذلك كذبة، فلم يكن لدى طالبان أي طائرات ميغ قديمة متبقّية. ولم يحدث قتال.

بالطبع يُطرح هنا سؤال أخلاقي... فبعد الفظائع التي حصلت في نيويورك وواشنطن، كيف نتوقّع أن يجري «اللعب بعدالة» بين بن لادن الفظّ والغرب؟ نحن لا نستطيع المساواة بين انتقادات القاتل الجماعي وبين القوّات الأميركية والبريطانية التي كانت تحاول تدمير طالبان. لكن تلك لم تكن هي القضية. فالحق أن مشاهدينا وقرّاءنا هم الذين يجب أن نلعب معهم «بعدالة». هل كان علينا أن نخسر، بسبب غضبنا لمقتل الأبرياء في أميركا وبسبب رغبتنا في مضاهاة «خبراء الإرهاب القدماء»، كلّ قدراتنا الانتقادية؟ لماذا على الأقلّ لا

يقال لنا كيف صار «خبراء الإرهاب» هؤلاء خبراء، وبهذا القدر من الخبرة؟ وما كانت ارتباطاتهم المريبة بأجهزة المخابرات؟

في بعض الحالات، في أميركا، كان الرجال الذين يعطوننا النصائح والتحليلات على شاشة التلفزيون، هم أنفسهم العملاء الذين وجّهوا المخابرات الأميركية ومكتب التحقيقات الفدرالي في أكبر عملية مخابراتية فاشلة في التاريخ الحديث: عدم القدرة على كشف المخطط الذي استغرق تحضيره أربع سنوات وأدّى إلى القضاء على حياة أكثر من ٣ آلاف شخص. قال الرئيس بوش إن هذه كانت حرباً بين الخير والشر. لكن ذلك كان أيضاً ما يقوله بن لادن بالضبط. ألم يكن جديراً بالاهتمام تسليط الضوء على هذا الأمر والسؤال إلى أين تقود هذه النظريات؟

في الشرق الأوسط، كان بن لادن يكسب صيتاً أسطورياً أشبه بالخيال في أوساط العرب، وكان صوته يدخل مراراً وتكراراً إلى ملايين المنازل ممتزجاً بمطالب وآلام ـ وغضب ـ مسلمي الشرق الأوسط، الذين اكتشفوا كيف تجنّب رؤساؤهم وملوكهم وأمراؤهم أي انتقاد جدّي للقصف الأنغلو ـ أميركي في أفغانستان. لدى رؤية آخر شريط فيديو لبن لادن ركّزت الدول الغربية ـ إذا كانوا قد استمعوا إليه أصلاً ـ على ملاحظاته عن الفظائع في الولايات المتّحدة... فإذا كان قد عبّر عن تأييده للعملية، رغم نفيه أية مسؤولية عن الأمر... أفلم يكن ذلك يعني أنه كان وراء المذبحة الجماعية التي حدثت في ١١ أيلول/ سبتمبر؟ لكن العرب فهموا التصريح بشكل مختلف تماماً إذ إنهم استمعوا بطرق مختلفة إلى صوت يتّهم الغرب بالازدواجية والوقاحة تجاه الشرق الأوسط، صوت موجّه إلى القضية المركزية في حياة العديد من العرب: «الصراع العربي ـ الإسرائيلي واستمرار الاحتلال الإسرائيلي». واليوم، وكما قال لي شخص أقام لفترة طويلة في القاهرة، «فإن العرب يعتقدون بأن أميركا تحاول قتل الشخص المستعدّ لقول الحقيقة».

لكنّ ردّ الزعماء العرب على الفظائع في أميركا وعلى القصف الأميركي لأفغانستان كان سيّئاً جدّاً. فمن خلال الاستماع إلى خُطب القادة المسلمين في

قمّة المؤتمر الإسلامي الطارئة التي انعقدت يوم ١٠ تشرين الأول/أكتوبر، كان بالإمكان الاعتقاد بأن بن لادن يمثّل العرب أكثر من الطغاة العديمي القيمة والملوك. قال أمير قطر: رجاء أعطونا دليلاً واضحاً حول ١١ أيلول/سبتمبر.. وقال عرفات: «رجاءً لا تنسوا الفلسطينيين»... وقال وزير خارجية المغرب: «الإسلام بريء»... الكل ـ بدون استثناء ـ رغب في شجب فظائع ١١ أيلول/سبتمبر في الولايات المتحدة... لا أحد ـ مطلقاً ـ أراد أن يشرح لماذا قرّر ١٩ عربياً تدمير طائرات تحمل أشخاصاً أبرياء في مباني مكتظّة بالمدنيين...

لم يلوّث اسم بن لادن قاعة مؤتمر قطر.. ولا مرّة... ولا حتى اسم طالبان... ولو أن شخصاً من كوكب المرّيخ هبط في الخليج ـ الذي يشبه كوكب المريخ ـ لربّما استنتج أن مركز التجارة العالمي في نيويورك دُمّر بفعل هزّة أرضية أو إعصار. ألم يكن الرئيس المصري حسني مبارك هو الذي قال عام ١٩٩٠ إن غزو العراق للكويت سوف يهبّ علينا مثل ريح صيف خفيفة؟ لقد ندد المؤتمرون كرجل واحد بالمذبحة في أميركا دون أن يتوقّفوا ولو للحظة للسؤال لماذا حصل ذلك؟ ومثلهم مثل الأميركيين، لا يريد العرب النظر إلى الأسباب. بالطبع كانت قاعة المؤتمر مكاناً عجائبياً... لا فُسحة فيه لأيّ نقد للذّات أو اعتراف بالذنب أو المسؤولية... طالب عرفات بقوّة دولية ـ فكرة جيّدة لأفغانستان جديدة ـ ولكن سرعان ما ثبت أنه يتحدّث عن قوّة دولية لحماية الفلسطينيين في الضفّة الغربيّة وغزّة، التي تبعد وفق الخارطة ٣٠٠٠ كلم عن كابول، وهو شجب مجزرة مركز التجارة العالمي، وكذلك فعل الشيخ حمد أل ثاني أمير قطر، ومحمد بن عيسى وزير خارجية المغرب، وعبد الواحد بلقزيز أمين عام المؤتمر الإسلامي. لكن كان ذلك كل شيء... بالطبع، شكّلت الخطب مجتمعة جَوقة واحدة: رجاءً لا تقتلوا الأفغان الأبرياء مهما حصل ـ رجاء لا تقصفوا البلاد العربية ـ لكن طيلة اليوم بدت أفغانستان بلداً بعيداً جدّاً يعرفون عنه القليل ـ وهذه بالطبع فكرة كاذبة بالنظر إلى أن السعودية وباكستان كانتا القابلة القانونية بالنسبة إلى طالبان ـ ولا يريدون أن يعرفوا عنه أكثر....

إنّ وزير الخارجية السوري فاروق الشرع هو وحده الذي أعلن صراحة أن

الهجوم على الدول الإسلامية «ممنوع»... وهذا يعني كما قال «أن كل العرب والمسلمين سيقفون مع البلد الذي يُهاجَم»... الأمر الذي جعلهم يرتجفون على متن حاملات الطائرات في الخليج.. وأُلقيت خُطب منمّقة عاديّة من قِبل المندوبين الآخرين في المؤتمر. وأعلن بيان الأعضاء الـ ٥٦ أنهم يرفضون «ربط الإرهاب بحقوق الشعوب العربية والإسلامية، بما في ذلك حق تقرير المصير للشعب اللبناني والشعب الفلسطيني وحق الدفاع عن النفس ومقاومة الاحتلال الإسرائيلي والأجنبي ومقاومة العدوان»... وترجمة هذا : «رجاءً يا أميركا لا تقفي إلى جانب إسرائيل وتقصفي حماس والجهاد الإسلامي وحزب الله ودمشق وطهران إلخ. . .» . . . إن شعار «المقاومة ليست إرهاباً» قد صار هو الشعار المألوف في العالم العربي بقدر شعار «الحرب على الإرهاب» في العالم الغربي...

كان هناك القليل مما يمكن لبوش أو بلير معارضته.. «يجب ألّا يتخطّى الردّ حدوده، بل أن يقتصر فقط على أولئك الذين قاموا بالهجمات، (الأمر الذي) يتطلّب دليلاً مادّياً ضدّ المرتكبين»، كما أعلن الشيخ حمد. «كان العالم الإسلامي هو الأوّل في الدعوة إلى حوار الحضارات»، وربمّا كتب بذلك إلى رئيس الوزراء البريطاني. لكن أمير قطر وجّه ضربة سريعة للأميركيين.. فقد قال أيضاً: «يجب ألّا يدخل العالم في «صراع» الطوائف، والمعسكرات والانقسامات المرتكزة على مبدأ: إذا لم تكن معي فأنت ضدّي».

ألم تكن إسرائيل هي المشكلة الحقيقية؟ حاول المندوبون أن يطرحوا هذا السؤال.. وكان صديقنا القديم ياسر عرفات هو الشخص الرئيسي وراء سؤال كهذا.. وهو بالطبع شجب الهجمات على الولايات المتحدة وأعرب عن التضامن مع الشعب الأميركي ـ لعلّه التضامن الاشتراكي القديم الذي تمّ استخدامه بأسلوب جديد... وطالب عرفات باستخدام المال في قضيّة عادلة. وقد فتحت قطر حساباً للأفغان ودفعت السعودية عشرة ملايين دولار والإمارات العربية المتّحدة ٣ ملايين وسلطنة عُمان مليوناً. لكن ما كان يطلبه المندوبون هو تقديم دليل واضح، بحسب الشيخ حمد، على أن واشنطن استطاعت التعرّف على

مرتكبي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر. وقد أتاح له ذلك عدم ذكر اسم بن لادن. وبالفعل سمح ذلك للجميع بإبداء إنزعاجهم من هذا الرجل السيئ الخطير المخيف الذي كان يدعو إلى إسقاط كل واحد من هؤلاء المندوبين الإسلاميين. صرّحوا بأنهم آسفون بشأن الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وطلبوا من أميركا عدم قصف أفغانستان أكثر من المطلوب وعدم قتل الأبرياء وبالطبع عدم قصف العرب.

بالنسبة إلى الصحافة كانت تلك حرباً مخيّبة للآمال... من حيث التغطية... تجمّعنا بالمئات حول سفارة طالبان في إسلام أباد وقنصليّتها في بشاور. تمّ تدوين الأسماء على طلبات التأشيرة، وتمّ التحقّق منها من قِبل رجل مُلتحٍ ولم يراودني الشكّ في أنها أُلقيت في سلّة المهملات. في كويتا، وصلتُ إلى القنصلية ومعي رسالة توصية من مؤيّد بارز لطالبان يطلب فيها إعطائي تأشيرة، صرخ بي أحدهم: أخرج، وعندما أصبحت في الخارج رأيت الرسالة تتحوّل إلى كرة وتُقذف على الأرض أمامي خارج القنصلية... وقد نجح الصحافي حميد مير في الدخول إلى أفغانستان ومقابلة بن لادن وعاد ليبلغني أن بن لادن سأل عني شخصياً ولماذا لست في أفغانستان لمقابلته..... وبعد بضعة أشهر علمت أن الطالبان يبحثون عني لإبلاغي أن باستطاعتي السفر إلى أفغانستان والتحدّث إلى بن لادن، لكنني لم أتسلّم الرسالة أبداً ولم يحصل شيء. لم أكن على معرفة بمحاولاتهم هذه، ولذا فقد حاولت جاهداً الحصول على التأشيرة متذمّراً من رجال طالبان. جلست في فيلّا في بشاور متابعاً اتصالاتي مع إسلام أباد من أجل هذا المستند المهمّ، والذي لا أمل لي في الحصول عليه. وكنت أجلس لشرب الشاي في الحديقة... ربّما يجري في الإمبراطورية البريطانية القديمة فقط إعداد الشاي كما يُعدّ هنا، أي مع الحليب والكثير من السكّر وفي أكواب من زجاج. عند نهاية الطريق إلى الفيلّا تقع المقبرة البريطانية التي قمت بزيارتها منذ ٢٢ عاماً وحيث توجد الأضرحة التي تحكي قصّة اغتيال رجال الراج الصالحين الذين كانوا قد جاءوا من سوراى أند يوركشير Surrey &Yorkshire والذين قتلهم من كانوا يسّمون «الغازي»، وهم الأصوليون الأفغان الذين اصطحبوا معهم إلى المعركة رجال دين اسمهم «طالبان»، وأنا هنا أنقل كلام الكابتن ماينو

ايرنغ الذي شارك في الحرب الأفغانية الثانية..، في تلك الأيام كنّا ننشر الوعود... قدّمنا وعوداً للحكومات الأفغانية بالدعم في حال استطاعوا إبقاء الروس خارجاً، ووعدنا إمبراطوريتنا الهندية بالرخاء والتعليم والاتصالات مقابل ولائها.. القليل القليل تغيّر منذ ذلك الوقت!!.

قامت القاذفات المقاتلة بالتحليق في هذا الليل الرطب فوق الحديقة خارقة جدار الصوت بشكل مُتتالٍ مثل الصقور فوق مدرج بشاور، ثم توجّهت غرباً باتجاه أفغانستان.. وقد سجّلت الشاشة الكبيرة السوداء لجهاز التلفزيون في غرفتي أن التاريخ الإمبريالي يكرّر نفسه: كان الجنرال كولنّ باول يقف إلى يمين الجنرال برويز مُشرّف واعداً بالنظر جدّياً في مشكلة كشمير وتمثيل الباشتون في حكومة أفغانية في المستقبل. وقد أمضى وزير الخارجية الأميركي والجنرال مشرّف معظم الوقت يوم ١٥ تشرين الأول/أكتوبر بالحديث عن القصف المدفعي الليلي من قبل جيش الإمبراطورية القديمة الأخرى، أي الجيش الهندي... كان مُشرّف يطالب بحملة قصيرة ضدّ أفغانستان مقابل دعم الولايات المتّحدة في حربها على الإرهاب.. أراد مُشرّف تسوية لقضية كشمير ووعده باول بأنه سيتوجّه إلى الهند للضغط عليها لأن مُشرّف صديق للولايات المتحدة. وقبل ثلاثة أيام من إظهار باول اهتمامه المفاجئ بمشاكل كشمير تمّت دعوة عرفات، الذي كان الجنرال السابق أرييل شارون وصفه ببن لادن، إلى داوننغ ستريت حيث أعلن طوني بلير دعمه الحذر لاستقلال فلسطين والحاجة إلى دولة فلسطينية قابلة للحياة تضمّ القدس. لن يخشى بلير من الغضب الأميركي ما دام أن الرئيس بوش الابن اكتشف قبل ١١ أيلول/سبتمبر أن لديه رؤية لدولة فلسطينية تقبل بوجود إسرائيل.. ساند عرفات، الذي تحدّث للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية منذ سنوات، القصف الجوّي لأفغانستان. لم يكن الأفغان حاضرين ليذكّروا العالم أن ياسر عرفات نفسه ساند بحماس الغزو السوفياتي لأفغانستان.. لماذا نقدّم وعوداً سريعة التحضير لحلفاء معرّضين للخطر عندما نجد ذلك مناسباً، وبعد سنوات من القبول، لا بل من خلق المظالم في الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا. كان من المهمّ في ذلك الخريف الشديد الحرارة في

باكستان قراءة النصّ الكامل لما طلبه بن لادن في شريط الفيديو بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي.. فقد صرّح بالعربية في فقرة حُذفت من الترجمة الإنكليزية: «أن الأمّة الإسلامية مرّت بأكثر من ثمانين عاماً من الذلّ».. وأشار إلى أن السيف وصل إلى أميركا بعد ثمانين عاماً.. ربّما كان بن لادن قاسياً، فظّاً، عديم الشفقة، لكنه كان يتمتّع بالذكاء، إذ إنه كان يشير بوضوح إلى معاهدة سيڤر Sevre عام ١٩٢٠ وسقوط الحلم الأخير للوحدة العربية بعد ٦٠٠ عام من حكم السلاطين والخلافة.. وكان أيمن الظواهري الساعد الأيمن لبن لادن يصرخ معلناً على شريط الفيديو من مغارته الأفغانية يوم ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠١ أن منظمة القاعدة لن تتساهل حيال تكرار مأساة الأندلس في فلسطين... الأندلس؟ نعم! شكّلت كارثة الأندلس نهاية الحكم الإسلامي في أسبانيا في القرن الخامس عشر.. يمكننا نشر وعود سريعة ومتفرّقة في أنحاء العالم لكن لدى شعب الشرق الأوسط ذاكرة أكبر وأطول....

من أيّة زاوية حاولنا مقاربة ذلك الشعور العربي بالإذلال ـ سواء اعتبرناه نوعاً من الشفقة على الذات، أم ردّاً مبرّراً كلّياً على الظلم ـ فإنه يبقى مع ذلك حقيقياً.. كان العرب من بين أوائل العلماء في بداية الألفيّة الثانية حين كان الصليبيون غُزاة العالم الإسلامي يعيشون في جهل مطبق... وبينما كان مفهومنا الشعبي السائد عن العرب يعني في العقود القليلة الماضية الغنيّ النفطي المتخلّف والمرتشي الذي ينتظر هدايانا، كان العديد منهم يطرحون أسئلة حول ماضيهم ومستقبلهم على الصعيد الديني والعلمي وحول كيف يكون الله والتكنولوجيا جزءاً من الكون نفسه. لم نطرح نحن مثل هذه الأسئلة منذ أمد بعيد.. نحن نقوم فقط بدعم الطغاة المسلمين في أنحاء العالم ـ وبخاصة في الشرق الأوسط ـ مقابل صداقتهم ووعودنا الكاذبة لتصحيح الظلم.. سمحنا لطغاتنا بالقضاء على الأحزاب الاشتراكية والشيوعية، وتركنا للناس هناك حيّزاً ضيّقاً لممارسة معارضتهم السياسية خارج إطار الدين، وتابعنا في عملية «خلق الشياطين» ـ السادة: الخميني ـ أبو نضال ـ القذّافي ـ عرفات ـ صدّام ـ بن لادن ـ عوضاً عن إجراء مساءلة تاريخية... وقدّمنا وعوداً أكثر.. فقد طلب الرئيسان كارتر وريغان من المجاهدين الأفغان مقاتلة الروس ووعداهم

بالمساعدة. سوف نعمل على دعم إعادة بناء الاقتصاد الأفغاني وإعادة بناء البلاد وبناء الديمقراطية، هذا ما قاله جيمي كارتر البريء، وسنورثها للباكستانيين والأوزبك والسعوديين... بالطبع رحل الروس عام ١٩٨٩ ولم نقدّم أيّة مساعدة اقتصادية. والمشكلة على ما يبدو أنه من دون وجود حسّ بالتاريخ فإننا نفشل في فهم الظلم. وعوضاً عن ذلك قمنا بالتستّر عليه، حين أردنا بعد سنوات من الركود رشوة حلفائنا المحتملين بالوعود ذات المدى التاريخي ـ تسوية قضية فلسطين وكشمير ونزع السلاح في الشرق الأوسط، واستقلال عربي ووفرة اقتصادية ـ وذلك لأننا كنا في حالة حرب.... أسمعِ المسلمين ما يرغبون سماعه، قدّمْ لهم الوعود التي يريدونها. . . أيّ شيء ما دمنا نستطيع إرسال أسراب طائراتنا إلى الجوّ في حربنا الأخيرة ضدّ الشرّ... وقامت طائراتنا بالتحليق.. وكنا نشاهد آثارها فوق القرى الأفغانية المبنية من الطين والطوب ونسمع هديرها عبر صحراء قندهار، ونشاهدها وهي تعود إلى قاعدتها في دياغوغارسيا.

اجتمعت بطبيب أطفال في بشاور قدّم لي قراءة قيّمة لذهنية الطالبان في الحرب: «عندما توقّفت إذاعة طالبان عن البث.. رأيتهم يقومون بجمع قطع هوائيّ جديد في اليوم التالي... كان الطالبان يفعلون ذلك دائماً: كلّما دُمّر شيء يستبدلونه على الفور.. كانوا يجولون في الأنحاء ويجمعون كل المعدّات المدمّرة.. كان ذلك عملاً سريعاً... وكان الطالبان يتصرّفون براحة وأناة أمام القصف.. أنا أحاول أن أصف لك ردّة فعل طالبان أمام القصف.. اكتشفت أنهم لم يكونوا أبداً مهتمّين بالهجمات... كان الأمر بالنسبة إليّ محيّراً وغريباً...». لكن الطبيب لم يكن مراقباً غير مهتمّ... «فمعظم الناس، الناس الحياديين الذين لا ينتمون إلى مجموعات سياسية، يكرهون السياسة الأميركية ولو أن طالبان يغيّرون فقط عشرين في المئة من سياستهم مع الناس لوقف الناس إلى جانبهم... نحن ننتظر نهاية سياسة طالبان العنصرية ضدّ النساء والتعليم. لن ينسى الناس عندما عملت باكستان لتدمير أفغانستان ـ إنهم ينظرون إلى باكستان على أنها عدوّ أبدي ـ وقد أوجد الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وضعاً جديداً فى أوساط المثقفين.... نحن نعلم أن باكستان ساهمت في تأسيس طالبان وأسامة بن لادن ونحن نسمّيهم أولاد أميركا وباكستان»... وكان يجدر به إضافة السعودية..

يوم ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر، قتل الأميركيون السيّد «سيف الله» من تورونغزاي.. وهو رجل يحمل إجازة في اللغة العربية وإجازة في الدراسات الإسلامية من جامعة بشاور، وشهادة BSc من المعهد الإسلامي، و B.E.d، وشهادة الكفاءة في التعليم، وطالب دكتوراه فلسفة حائز منحة دراسية من أزهر القاهرة، أقدم جامعة في العالم العربي... كان يتحدث اللغة الإنكليزية بطلاقة وكذلك الفارسية ولغته الأم البشتونيّة ويحبّ الشعر والتاريخ... وكما قالت عائلته كان يستعدّ مع بعض التردّد للزواج... كان والده «هداية الله» طبيباً، وشقيقه الأصغر طالباً في مجال المحاسبة... لم يسمع أحد خارج باكستان ـ والقليل في داخلها ـ بسيف الله سابقاً.. وفي قرى البشتون شمال غرب الحدود، لا يحمل العديد من العائلات أسماء خاصّة حتّى. ولم يكن سيف الله زعيماً سياسياً بحسب ما قاله والده البالغ خمسين عاماً، بل كان رجل خير ولم يكن مقاتلاً. وبذلك صرّح شقيقه معاذ الله. كان دائماً رجلاً مسالماً هادئاً وكتوماً، وكان يريد حماية شعبه في أفغانستان فقط، وهو الذي آمن دائماً بأنهم ضحايا للإرهاب... لكن كان هناك إجماع على طريقة موته، فقد قُتل عندما سقطت خمسة صواريخ كروز على حائط مبنى في ضاحية دار الأمان في كابول، حيث كان يعقد اجتماعا مع ثلاثين رجلاً. وعائلته تعتبره الآن شهيداً... كان هداية الله يدعو كل زائر إلى بيته المبني من الطين والإسمنت ـ بمن فيهم أنا ـ ويقدّم لهم الدجاج المشويّ وحلويات «ميثا» وأكواب الحليب والشاي ويصرّ على تقديم التهنئة له كونه والداً فخوراً لرجل مات في سبيل معتقداته. أكلت كمّية كبيرة من شواء الدجاج ممتثلاً لطلب هداية الله. كان الدجاج يصيح في الساحة الخارجية، وكان على الحائط ملصق مرسوم عليه كلاشنكوف مع كلمة جهاد فوقه. لكن عبارة «السلام» كانت هي الكلمة التي قالها معظم أفراد العائلة. ذهب سيف الله إلى كابول لإيصال المال للفقراء الأفغان وقال معاذ الله إن المبلغ كان أكثر من عشرين ألف روبية ـ حوالي ٣٥٠ دولاراً ـ جمعه من أصدقائه وطلّابه.

لم تكن رواية الأميركيين للقصّة دقيقة.. وللتستّر على أخطائهم في تحديد

أهدافهم على الخريطة، وقد قتلوا في ذلك اليوم مدنيين أبرياء، أعلن البنتاغون أن عمليات قتل دار الأمان استهدفت «مقاتلي طالبان الأجانب، وبعضهم باكستانيون... ومن بينهم سيف الله» (الذي يعني اسمه بالبشتون المعنى العربي نفسه: سيف الله)... وقد رفض معاذ الله مزاعم الأميركيين.. وعندما أبديت رأيي قائلاً أن ليس بمستغرب على شاب مسلم يحمل مبادئ سيف الله حمل السلاح للدفاع عن أفغانستان، سارع شقيقه معاذ الله إلى القول بأن أخاه ربّما كان مقاتلاً... لم يكن ليتصوّر أبداً موت شقيقه.. جاءهم الخبر بالتدريج عبر الهاتف وذلك لتحضيرهم للفاجعة... أخبرهم صديق بأن بعض الباكستانيين قُتلوا في كابول.. قال معاذ الله: «لقد ترك فراغاً كبيراً في حياتنا. لا تستطيع تصوّر الأمور بدونه، كان شخصاً يحترم الحياة وإصلاحياً، لا يوجد أيّ تبرير للحرب في أفغانستان فهؤلاء الناس فقراء، وما من برهان أو دليل، وكل إنسان له الحق في الحصول على ضروريات الحياة الأساسية. كنا جميعاً بمن فينا سيف الله متأثرين جدّاً لما شاهدناه على التلفزيون بالنسبة إلى مذبحة واشنطن ونيويورك يوم ١١ أيلول/سبتمبر. كان سيف الله أكثرنا احتجاجاً على ما شاهدناه...» ولم تذكر العائلة اسم بن لادن ولا مرّة.

كانت تورونغزاي بلدة مقاومة، ففي الحرب الأفغانية الثالثة عام **١٩١٩** قام الإنكليز بقتل حاجي تورونغزاي وهو أحد قادة الثورة، وأحرقوا سوق القرية انتقاماً من مشاركتها في المقاومة... خلال الحديث، دخل شاب مرتبك منزل سيف الله، وعرّف عن نفسه، إنه حفيد حاجي تورونغزاي... وقد حيّاني وعلى وجهه ابتسامة عريضة... لم يكن هذا مركزاً للتطرّف الديني.. ومع أن جميع أفراد العائلة يصلّون خمس مرّات يومياً فإنهم ينوون إرسال بناتهم للدراسة في الجامعة.

كان سيف الله يمضي ساعات على جهاز الكمبيوتر وكان معجباً على ما يبدو بالشاعر الباكستاني الوطني العلّامة محمّد إقبال، من سرخوت (هو السير محمد إقبال بعد حصوله على لقب الشرف البريطاني)... واستناداً إلى معاذ الله فقد كان مهتمّاً بديانات العالم. وعندما غادر سيف الله أفغانستان كانت آخر

كلماته لوالده: «ثق بي».... ولعلّه كان يتذكّر واحداً من أشهر أبيات محمّد إقبال:

«هل تعرف المعنى الباطني لإرادة الله؟ أن تعيش في غضب دائم، هو أيضاً حياة..»

وقد جاء الموت الأطفال أيضاً... توفّي ابن الملّا محمّد عمر البالغ عشر سنوات في الأسبوع الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر.. حصل ذلك خلال فراره من قندهار بحسب قول اللاجئين الأفغان، وقد أخذه والده زعيم الطالبان وأمير المؤمنين في سيّارته إلى المستشفى... لكنّ الصبيّ توفّي متأثّراً بجراحه بعدما أصابت طائرة أميركية السيّارة. لا ندم بالطبع... وبالعودة إلى العام ١٩٨٦، فقد قضت الطائرات الأميركية على حياة ابنة القذافي المتبنّاة (ستّ سنوات) عندما قصفت ليبيا. لا ندم من قبلنا أيضاً... وعام ١٩٩٢ أطلق طيّار إسرائيلي صاروخاً على سيّارة السيد عبّاس الموسوي زعيم حزب الله في لبنان وقتل ابن السيّد الموسوي البالغ من العمر عشر سنوات، لا ندم مجدّداً.

وهكذا بدأت الإصابات في أفغانستان تتزايد. وجاءت روايات من قندهار مرعبة عن مدنيين دُفنوا تحت الأنقاض وأطفال مُزّقوا أشلاء بفعل القنابل الأميركية. وعندما اكتشف فريق تلفزيونيّ ثماني عشرة مقبرة في قرية حزم المدمّرة خارج جلال أباد سخر وزير الدفاع الأميركي رامسفيلد من ذلك ووصفه «بالسخيف». وبالنسبة إلى اللاجئين الأفغان الذين انتقلوا بالآلاف إلى الحدود، كان من الواضح أنهم يهربون من القنابل والصواريخ وليس من طالبان. وتحدّث اللاجئون بوضوح عن الخوف والرعب نتيجة تساقط القنابل على مدنهم. كان هؤلاء الناس مرعوبين من «الحرب على الإرهاب»، إنهم ضحايا أبرياء مثل الذين قُتلوا في مركز التجارة العالمي في ١١ أيلول/سبتمبر. وبالرغم من الاستخدام اللطيف للعبارة على البي سي سي، والسي إن إن، فإن هذه لم تكن حرباً على الإرهاب. لم نكن نخطط لمهاجمة نمور التاميل الانتحاريين أو قتلة جيش الباسك ETA أو الجيش الجمهوري الإيرلندي IRA أو ثوّار الحزب الكردستاني. في الواقع، أمضت الولايات المتحدة وقتاً طويلاً في دعم

الإرهابيين في أميركا اللاتينية، وهنا تقفز الكونترا إلى الذهن، من دون حاجة إلى ذكر الطالبان الذين نقصفهم الآن في أفغانستان. كانت حرباً على أعداء أميركا بسبب ١١ أيلول/سبتمبر وكنّا نردّ على الجرائم ضدّ الإنسانية في نيويورك وواشنطن... لكننا لم نعمد إلى تشكيل محاكم لمقاضاة هؤلاء المسؤولين.

ما الذي يحصل لو أن عدد القتلى المسؤولين نحن عن موتهم في أفغانستان وصل إلى مستوى عدد ضحايا ١١ أيلول/سبتمبر؟ وحين نحصل على إحصائيات الأمم المتّحدة عن عدد الذين يموتون من الفقر والجوع خلال فرارهم من قنابلنا، فلن يمر وقت طويل حتى نبلغ رقم ثلاثة آلاف. هل يكون هذا كافياً؟ هل يهدّئ موت ١٢ ألف أفغاني روعنا مع أن هؤلاء لا علاقة لهم بطالبان أو بأسامة بن لادن؟ أو ٢٤ ألفاً؟ بالطبع سوف نلقي باللوم على طالبان في المآسي اللاحقة كما كنا نلومهم على تصدير المخدّرات من أفغانستان. كان طوني بلير في طليعة من تصدّوا للكلام عن الصلة بين طالبان وتجارة المخدّرات في أفغانستان. كل ما كان علينا فعله هنا هو تناسي تقرير برنامج الأمم المتّحدة لمكافحة المخدّرات الصادر في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، والذي تحدّث عن انخفاض إنتاج الأفيون في أفغانستان بنسبة ٩٤ في المئة نتيجة منع الملّا عمر إنتاج الأفيون في المناطق التي يسيطر عليها طالبان من البلاد. كان معظم إنتاج الأفيون في أفغانستان يأتي من حلفائنا في التحالف الشمالي. وماذا عن باكستان؟ من خلال التحالف مع أميركا في الحرب على الإرهاب، نجح الجنرال مشرّف في الحصول على موافقة دولية على انقلابه عام ١٩٩٩. وفجأة حصل على رفع للعقوبات ،وتمويل لصناعة باكستان المضعضعة، وقروض من البنك الدولي، وإعادة جدولة ٣٧٥ مليون دولار من قيمة الديون، ومساعدة إنسانية... وعلينا أن نتناسى أيضاً أن أجهزة المخابرات الباكستانية ISI وكبار ضبّاط الأمن ساهموا في تأسيس طالبان وسرّبوا الأسلحة إلى داخل أفغانستان واغتنوا من تجارة المخدّرات. منذ الغزو السوفياتي لأفغانستان عام ١٩٧٩، عملت أجهزة المخابرات الباكستانية بالتعاون مع المخابرات الأميركية على تمويل الملالي الذين يتّهمونهم الآن بأنهم مهندسو «الإرهاب العالمي». وقد

اكتشف معظم الباكستانيين الآن أن أجهزة المخابرات الباكستانية ـ التي عوقبت من قِبل واشنطن ـ تحوّلت إلى مافيا مسلّحة منظّمة وخطيرة... وبينما كان المال يتدفّق من نشاطات التهريب كان الباكستانيون يفتقرون إلى التعليم والأمن والخدمات الصحّية، فلا عجب إذن إن هم اتّجهوا نحو الإسلام ومدارسه الدينية للحصول على التعليم والغذاء.. لقد أصبح الجيش الباكستاني الآن أكثر أهمّية من أيّ وقت مضى، إذ إنه يؤمّن القبضة الحديدية للحفاظ على النظام بينما حليفته القوّة العظمى تقصف أنقاض أفغانستان.

في الوقت نفسه، ارتاحت الولايات المتّحدة غير القادرة على قصف الطالبان لإخضاعهم، إلى نشاط القتلة والمغتصبين في التحالف الشمالي. وأصبح القائد الدموي للتحالف رشيد دوستم، الذي كان أوّل مَن زار واشنطن عام ١٩٩٦، صديقاً جيّداً لإدارة بوش. وفي ما يلي بعض ما جاء في المقابلة التي أجراها معه الصحفي الباكستاني أحمد رشيد:

«أوّل ما جئت إلى الحصن لمقابلة دوستم شاهدت بقع دم وقطع لحم في الباحة، وأبلغني الحرّاس أن دوستم كان قد عاقب منذ ساعة جندياً بسبب السرقة. وقد أُعدم الجندي بتقييده إلى جنزير دبّابة وسحبه في الباحة حتى الموت بينما كان دوستم وأعوانه يراقبون تنفيذ الإعدام».

أصبح مؤكّداً الآن قيام الأميركيين بإرسال القوّات البرية... أولاً حصلت الغارة الجوّية الأميركية الفاشلة على مقرّ الملّا عمر في قندهار.. لم يجدوه هناك... ثم تبعها إرسال القوّات الخاصّة الأميركية لمساندة مجرمي التحالف الشمالي العديمي الشفقة.. وإذا كان على الطالبان أن يخشوا من أحد، فمن شاه مسعود. لكنه قُتل على يد انتحاريين عرب يوم ٩ أيلول/سبتمبر. وقد جرى إعدام عبد الحقّ ـ مؤيّد لأميركا عارض طالبان ـ بينما كان يعدّ لإنقلاب محلّي في مناطق البشتون جنوب أفغانستان. إذن ماذا يخبّئ لنا أصدقاؤنا الجُدد من التحالف الشمالي في جعبتهم؟

الاستيلاء على كابول.. بالطبع. وقد وصلوا إلى العاصمة يوم ١٢ تشرين

الثاني/نوفمبر بعد أن وعدوا بأنهم لن يدخلوها.. وكان من المفترض بالتحالف أن يدخل إلى مزار شريف على الأكثر وربّما إلى هرات، وذلك لإبراز ضُعف طالبان وليظهر للغرب أن أهداف حربه ـ تدمير طالبان وحركة أسامة بن لادن القاعدة ـ هي على وشك الإنجاز. وقد جرى إعدام عناصر من طالبان أو ضربوا أمام عدسات كاميرات التلفزة العالمية.. أليس الجنرال باول هو الذي أكّد لمشرّف إبقاء قوّات التحالف تحت السيطرة؟ في الختام لم يكن الأمر مهمّاً للأميركيين. كان ابتهاج امرأة سافرة وسط أخواتها المحجّبات كافياً. لقد تحرّرت كابول. أصبحت الديمقراطية الغربية حاضرة وتمّ سحق الطالبان أعداء النساء.

كنّا معجبين بالتحالف الشمالي وقمنا بمساندتهم بدون سؤال... صوّرناهم على التلفزيون بمختلف الأشكال وأصبحنا داعمين لهم. لم نصدّق عندما سمعنا التقارير من أفغانستان بعد سقوط كابول بأن التحالف الشمالي مسؤول عن أكثر من ٨٠ في المئة من صادرات المخدّرات في البلاد بعدما كانت طالبان منعت زراعتها. تساءلت لماذا أقمنا هذه العلاقة الغامضة والخطيرة مع حلفائنا؟ ولعقود، وافقنا على تلك الحكمة القائلة بأن فرق "B" الخاصّة كانت سلاح أمن حيويّ لسلطات إيرلندا الشمالية ضدّ إيرا (IRA) على أساس أنهم كانوا يعرفون الأرض، تماماً كما نعتمد اليوم على التحالف الشمالي لأنه يعرف الأرض، وكما اعتمد الإسرائيليون على مجرمي ميليشيا الكتائب في لبنان كون المسيحيين الموارنة يكرهون الفلسطينيين. وقد قام النازيّون بدعم مجرمي أستاشي الكروات عام ١٩٤١ ضدّ الصرب. كان ثمّة شجعان بين رجال التحالف الشمالي وكان زعيمهم المقتول محترماً.. لكن بقيت حقيقة أنه بين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٦ صار التحالف الشمالي رمزاً للمجازر، والاغتصاب المنظّم والنهب. ولهذا السبب رحّبنا ـ بما في ذلك الإدارة الأميركية ـ بطالبان عندما استولوا على كابول. وغادر التحالف الشمالي المدينة عام ١٩٩٦ مخلّفين وراءهم خمسين ألف قتيل وها إن عناصره قد صاروا الآن مقدّمة لجيشنا. إنهم حتماً أفضل من بن لادن، لكن ماذا سيفعلون باسمنا؟ سنكتشف ذلك لاحقاً.

عندما قصفت القوّة الجويّة الأميركية مزار شريف تحرّك حلفاؤنا الأفغان إلى داخل المدينة وقاموا بإعدام ثلاثمئة مقاتل من طالبان. وعلّقت القنوات التلفزيونية على ذلك تعليقاً هامشياً قائلة بأنه أمر عادي إذ الانتقام هو من عادات الأفغان، وهكذا تمّ ارتكاب جريمة حرب بدعم استراتيجي من القوّة الجويّة الأميركية. وشهد الصحفيون ثورة سجن مزار شريف في الأسبوع الثالث من تشرين الثاني/ نوفمبر، حيث قام عناصر طالبان بإطلاق النار على عناصر التحالف الشمالي.. وقامت القوّات الخاصّة الأميركية (وظهر لاحقاً مشاركة القوّات البريطانية) بدعم التحالف على قمع الانتفاضة، وأبلغتنا السي إن إن بأن بعض السجناء أُعدموا بينما كانوا يحاولون الهرب... كانت جريمة فظيعة... أصبحت القوّات البريطانية ملطّخة الآن بجرائم الحرب... وبعد أيام وجد مراسل الإندبندنت جوستن هوغلر عناصر آخرين من طالبان مقتولين في قندوز.

لم يكن لدى الأميركيين تفسير للمجزرة. وأعلن وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد خلال حصار المدينة «أن الغارات الجويّة الأميركية ضدّ الطالبان يمكن أن تتوقّف إذا طلب التحالف الشمالي ذلك».

وقد تجاهل الإعلان أن قتلة التحالف الشمالي يعملون الآن بينما يقوم عناصر القوّة الجويّة الأميركية بتقديم الدعم في المعركة ضدّ القتلة الطالبان، وقد دلّت ملاحظة رامسفيلد المجرمة على أن الولايات المتّحدة تتعاون مع ميليشيا التحالف تعاوناً عسكرياً كاملاً. وقد أبدى معظم مراسلي التلفزيون القليل من الاهتمام بهذه الجرائم، ونظراً إلى إعجابهم بقوّات التحالف الشمالي، ومحاورتهم للقوّات الأميركية، لم يهتمّوا كثيراً بجرائم الحرب ضدّ السجناء ولم يضمّنوها تقاريرهم.

كانت إحدى الروايات غير المعلنة في هذا الصراع تتعلّق بحجم الأموال الهائلة التي أُعطيت لقادة الميليشيات لإقناعهم بالقتال لصالح أميركا. وعندما انتقل عناصر من طالبان إلى الطرف الآخر مقابل دفع التحالف ٢٥ ألف دولار لهم وقاموا بعدها بالهجوم على المحسنين إليهم، تحدثنا جميعاً عن الخيانة. لم يسأل أحد منّا كيف يُنفق التحالف ـ الذي لم يكن لديه المال الكافي لشراء

الرصاص قبل بضعة أسابيع ـ ربع مليون دولار على طالبان في خضمّ المعركة، ولا كيف حصل زعماء قبائل البشتون في مقاطعة قندهار على سيّارات جيب جديدة وآلاف الدولارات لتوزيعها على المسلّحين. في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١، كُشفت فظاعة جديدة، فقد جرى نقل حوالي ألف ناجٍ من طالبان من قندوز بعيداً باتجاه سجن شربرغان من قِبل قوّات التحالف في حاويات مغلقة، وقد اختنق معظمهم حتى الموت أو أُعدموا لاحقاً في الصحراء . واكتشف موظفو حقوق الإنسان والمراسلون مقبرة جماعية في دشت ـ اي ـ ليلي. وقال ضابط من القوّات الخاصّة الأميركية إنهم علموا بعمليات القتل ـ وكانوا حاضرين ـ لكنهم امتنعوا عن التدخّل. ودعت منظمة الأمم المتحدة إلى إجراء تحقيق. وظلّ الأميركيون صامتين.

ماذا جرى لسلوكنا الأخلاقي منذ ١١ أيلول/سبتمبر؟ أخشى القول إنني أعرف الجواب.

بعد الحربين الأولى والثانية وضعنا ـ نحن الغرب ـ مجموعة من القوانين لمنع جرائم حرب أخرى. وقد كانت أول محاولة بريطانية وفرنسية وروسية لوضع مثل هذه القوانين بسبب مذبحة الأرمن على أيدي الأتراك عام ١٩١٥... ونصّ التفاهم على تحميل «جميع أعضاء الحكومة العثمانية المسؤولية وكذلك عملائهم الذين شاركوا في المجزرة». وبعد تعرّض اليهود للإبادة «الهولوكوست» وانهيار ألمانيا عام ١٩٤٥ أشار البند السادس من شرعة نورمبرغ ومقدّمة ميثاق الأمم المتحدة إلى الإبادة بأنها «جرائم ضدّ الإنسانية». وأنشأت كل حرب جديدة بعد حرب ١٩٤٥ طوقاً من قوانين التشريع والإبداع ومزيداً من مجموعات حقوق إنسان تحوّلت إلى جماعات ضغط في جميع أنحاء العالم، من أجل القِيَم الليبرالية والإنسانية الغربية. وخلال الخمسين سنة الماضية حافظنا على قِيَمنا الأخلاقية وقمنا بتعليم الصينيين والعرب والسوفيات والأفارقة حقوق الإنسان. تكلّمنا عن جرائم حقوق الإنسان عند أهل البوسنة والكروات والصرب. وضعنا العديد منهم في قفص الاتهام كما فعلنا مع النازيين في نورمبرغ. وأعددنا آلاف الملّفات التي تصف ـ بشكل مقزّز ـ المحاكم السرّية وفِرق

الموت والتعذيب والإعدام بدون محاكمة التي قامت بها دول غير شرعية وطغاة. وهذا صحيح أيضاً. وقد تخلّينا عن كل شيء فجأة بعد ١١ أيلول/سبتمبر، في حين ظللنا ندّعي أننا ندافع عن ذلك.. قصفنا قرى أفغانستان وحوّلناها إلى رُكام مع سكّانها ـ موجّهين اللوم إلى المجانين الطالبان وأسامة بن لادن على هذه المذبحة ـ ثم سمحنا لحلفائنا من الميليشيات العديمي الرحمة بإعدام السجناء.

وقّع الرئيس بوش قانوناً بإنشاء مجموعة من المحاكم العسكرية السرّية لتحاكم وتُعدم أي شخص يُعتقد أنه «قاتل إرهابي» في نظر المخابرات الأميركية غير الكفوءة. تم إنشاء هذه المحاكم بحيث أن المتهمين، سواء اعتقلوا أم لا، لن يكون لديهم دفاع علني بل محاكمة صورية وفرقة إعدام. وما حصل كان واضحاً بشكل كافٍ. عندما يقوم أشخاص من العِرق الأصفر أو الأسود أو الداكن، من الشيوعيين أو الإسلاميين أو القوميين، بقتل المساجين أو بتدمير القرى للقضاء على أعدائهم، أو إنشاء فِرق إعدام، يجب أن يدانوا من قِبل الولايات المتّحدة والاتحاد الأوروربي والأمم المتّحدة و«العالم المتحضّر».. كنّا أسياد حقوق الإنسان وأعظم الليبراليين وأفصح وأحسن مَن يقوم بوعظ الجموع الفقيرة. ولكنّ شعبنا تعرّض للقتل ـ عندما دُمّرت أبراجنا ـ ثم قمنا بتمزيق كل قانون حول حقوق الإنسان، وأرسلنا قاذفات B52 باتجاه الجموع الفقيرة وبدأنا بقتل عدوّنا.

لقد كان ونستون تشرشل مؤيّداً لوجهة نظر بوش.. ففي عام ١٩٤٥ فضّل تطبيق الإعدام الفوري للقيادة النازية.. وبالرغم من حقيقة أن وحوش هتلر كانوا مسؤولين عن مقتل خمسين مليون شخص على الأقلّ ـ أي ١٧٠٠٠ مرّة أكثر من ضحايا ١١ أيلول/سبتمبر ـ فقد تمتّع القتلة النازيّون بمحاكمة في نورنبرغ، لأن رئيس المحكمة روبرت جاكسون اتّخذ قراراً هامّاً: «إن إعدامات أو عقوبات عشوائية دون أدلّة إدانة واضحة لن تكون سهلة على الضمير الأميركي ولن يتذكّرها أولادنا بفخر»... لم يكن أحد ليعجب من أن جورج بوش، حاكم تكساس التنفيذي لفترة قصيرة، قد فشل في فهم أخلاقيات رجل الدولة في البيت الأبيض. بيد أن ما شكّل صدمة هو أن بلير وشرويدر وشيراك وكل رجال

الإعلام ظلّوا صامتين أمام إعدامات أفغانستان... وأن تجري مباركة قوانين شبيهة بقوانين أوروبا الشرقية وذلك من خلال ١١ أيلول/سبتمبر. والحال أنه تمّ السماح لبن لادن بالفرار... فقد انسحب مع مئات المقاتلين العرب إلى جبال طورابورا خارج جلال أباد، وبسبب القصف الأميركي العنيف اضطرّ إلى الرحيل. وكان قد قرّر ـ كما أعلمني رفاقه لاحقاً ـ الفرار إلى المناطق القبلية الباكستانية... حيث أجبره أتباعه على الانكفاء داخل سلسلة الجبال بعدما كبّد رجالُ بن لادن الأفغانَ المأجورين خسائر فادحة... غير أن أميركا لم تكن أبداً ذلك «النمر من ورق» كما قال لي في جبل مجاور قبل أربع سنوات. لم تكن الهزيمة الروسية تعني بالضرورة هزيمة للأميركيين. في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر كان الطالبان يسيطرون على منطقة صغيرة حول مدينة قندهار، وكانت قد سقطت كابول، وهرات، وجلال أباد، وكل المدن الكبرى الأخرى في أفغانستان... وفي لحظة انهيارهم قرروا إعطائي تأشيرة دخول. لقد أمرت الحكومة الباكستانية بإغلاق سفارة طالبان في إسلام أباد لكن بعد اتصالات سُمح لعدّة دبلوماسيين طالبان ملتحين بإعادة فتح المبنى لعشر دقائق كافية لطبع تأشيرة بتاريخ قديم على جواز سفري... كانت تلك آخر تأشيرة يصدرها طالبان أفغانستان... وقد كتب أحدهم على زاوية الصفحة ٣٤ من جواز سفري «التأشيرة صالحة فقط إلى قندهار».. لم يكن عندي مشكلة في ذلك.. فقندهار هي المكان الوحيد الذي أرغب في الذهاب إليه. هل أستطيع مشاهدة سقوطها؟ أما زال بن لادن في أفغانستان؟ هل من الممكن إجراء مقابلة أخيرة معه؟ عند نقطة شامان الحدودية، قدّم لي ضابط الهجرة الباكستاني كوباً من الشاي. وسألني بابتسامة حزينة: «ربّما كانت هذه التأشيرة هي الأخيرة»... على بعد أمتار قليلة من الحاجز على طول خط دوراند، طبع شاب من طالبان، كانت عمامته تلمع كريش الطيور، كلمة «دخول» على تأشيرتي... وبشجاعة أقلّ طبع «خروج».. باعتبار أنه سيكون لديّ أقلّ من يوم إقامة في أفغانستان... لكنني أبلغته بكل السلطة التي يملكها إمبراطور روماني، أن الطالبان تحديداً هم الذين رتّبوا سفرتي هذه إلى قندهار... نظر الشاب إليّ بشفقة. وجرى حوار غامض بشأني بينه وبين رجلين في الخيمة الموحلة التي كانت مكتب هجرة الطالبان في سبين بولداك... بعيداً عن صحراء

قندهار، كنت أسمع سقوط القذائف وهدير قنابل الـ ب٥٢.... B52 ثم تقدّم منّي رجل مسنّ، جاحظ العينين، وقال لي: «سوف نعطيك بعض الرجال الذين سيوصلونك إلى طريق قندهار، ثم يقرّرون ماذا يفعلون عندما تصل إلى تختابول»... كانت تلك ورطة جيمس كاميرون القديمة التي كنت اختبرتها في الحرب الإيرانية ـ العراقية.. أراد مراسل الحرب المقدام التوجّه نحو أرض الصراع ليشهد آخر نزاع ديني في أفغانستان... وأراد الرجل الإنكليزي العاقل الممتلئ صحّة (٥٥ سنة)، وقد ازداد شعره بياضاً، العودة إلى بيروت للعيش في عصر قديم، وتأليف كتب وشرب الكاكاو قرب النار...

صعدت وجلست في المقعد الأمامي لشاحنة يابانية وانطلقنا على الطريق باتجاه قندهار... كان السائق رجلاً ضخماً من البشتون، وجهه ممتلئ تحت العمامة، وكان يتحدّث عن عائلته... اعتقدت أنها علامة جيّدة فرجال العائلات لا يرغبون في الموت، وكنت محقّاً. قال لي: «لن تستطيع الوصول، فقد استولى التحالف الشمالي على تختابول والأميركيون يقصفون وسط المدينة».. أجبته: «مستحيل، فتختابول تبعد ٤٠ كلم فقط عن الحدود الأفغانية»... وارتمى رجل مسنّ يبلغ السبعين عاماً على مقدّمة الشاحنة وصرخ: «دمّر الأميركيون منازلنا، ورأيت بيتي يختفي، كانت هناك طائرة ضخمة، تنفث الدخان وتمطر الأرض بالنار».... بالنسبة إلى رجل لا يعرف القراءة، ولم يغادر مقاطعة قندهار طيلة حياته، كان هذا وصفاً مُرعباً بما يكفي للشبح، الطائرة الأميركية C130، النحلة الكبيرة الطنّانة، التي تحصد رجال الميليشيا والمدنيين بالوحشية نفسها. وقد تدفّق مئات اللاجئين على طول الطريق التي تغطّيها الأشجار ـ عجائز بوجوه قاتمة، وشابّات يرتدين الجلابيب الزرقاء والبراقع ويحملن أطفالاً، وصبية صغار يبكون ـ والجميع يروي القصة نفسها... خرجت من الشاحنة لأشاهد طابور المأساة هذا... انهار الملّا عبد الرحمن إلى جانبي ومسح العرق المتصبّب على وجهه، وقال لي إن أخاه مقاتل في المدينة نفسها وقد هرب. وهزّ رأسه مضيفاً: «كانت هناك طائرة تطلق صواريخ، وأوشك أخي أن يُقتل، وقد أصابت العديد من الناس».

فجأة بدا لي أنه ليس أمراً رومنسياً أبداً أن تكون آخر مراسل في الجانب الذي يسيطر عليه الطالبان، الجانب الخاسر من حمّام الدم الأميركي ـ الأفغاني... في كل مكان سمعت الرواية نفسها. صرخ بي مسلّح آخر من طالبان: «لن نستطيع الوصول إلى قندهار، لقد قطعوا الطريق»... حلّقت طائرة ف١٨ فوقنا بينما تقدّم مني رجل متوسّط العمر ورمقني بنظرات غاضبة وصرخ: «هذا ما تريدون أليس كذلك؟ الشيخ أسامة ذريعة لتفعلوا ما تفعلونه الآن ضدّ الشعب المسلم»... عندها طلبت من مقاتل آخر من طالبان اسمه جمالدان، في الخامسة والثلاثين من العمر، وأب لخمسة أولاد، احترام وعد حكومته في إيصالي إلى قندهار، نظر إليّ بتوتر وسأل: «كيف أستطيع إيصالك إلى هناك؟ ونحن لا نكاد نحمي أنفسنا»...

كانت التداعيات مُذهلة... فقد قُطعت الطريق من مدينة زابل الحدودية الإيرانية إلى قندهار من قبل مسلّحين أفغان وقوّات خاصّة أميركية. وكان الأميركيون يقصفون السيّارات المدنية ـ والطالبان ـ على الطريق إلى بولداك، والتحالف الشمالي يطلق نيرانه على الطريق السريع. وكانت تختابول تحت نيران السفن الحربية الأميركية. وقام التحالف الشمالي باستغلال ذلك. وكانت قندهار محاصرة. ولا عجب أنني التقيت القائد المحلّي لطالبان، المفكّر الملّا حقّاني، الذي كان متوجّهاً بسرعة إلى الحدود الباكستانية نحو كويتا «لأسباب طبّية».

خرجت سيّدة من عاصفة رملية ترتدي جلباباً رمادياً وقالت: «فقدت ابنتي منذ يومين. قصف الأميركيون منزلي في قندهار ووقع السقف عليها»... ورغم الفوضى والصراخ، قمت بتدوين ما روته لي: اسم الابنة «مزلفة»، وعمرها؟ سنتان.. تأثّرتُ.... قالت إن لها ابنة أخرى، ولدى سؤالها عن مصيرها قالت: «كان اسمها فريحة وعمرها ثلاث سنوات» وأضافت: «لم يبق الكثير من ابني عندما سقط السقف عليه، وتمزّق أشلاء، وكل ما استطعت رؤيته هو عظامه. كان اسمه شريف وعمره سنة ونصف»..... جاءوا من عاصفة رملية.. هؤلاء الناس... ولكلّ منهم قصّته الدامية. أخبرتني شكرية غول قصّتها بهدوء... وقد بدت صغيرة وراء برقعها: «كان زوجي مسجد عاملاً ولدينا طفلان رحيمة

وطالب. منذ خمسة أيام قصف الأميركيون مخزن ذخيرة في قندهار، ودخلت القذائف إلى بيتنا وقتلت زوجي وكان عمره ٢٥ سنة». نزلت قوّات المارينز الأميركية في نادي قندهار الرياضي، وهو المطار الذي وصل إليه في يوم من الأيام أمراء من السعودية للقيام برحلة صيد مع طالبان. دنت النهاية.. على الحدود كنت تستطيع رؤية النهاية بوضوح... لا يروون شيئاً جيّداً عن شامان... كانت الأتربة والوحول تتحرّك عبر السهل الأفغاني في رياح مدوّمة، مشكّلة دوّامة رمادية من سقط المتاع، فيما الرمل والصخر الرملي كالبرغل الجريش يترسّب في آذاننا وبين أسناننا وفي أنوفنا وأفواهنا... ومن مسافات بعيدة في الأراضي الأفغانية الشاسعة، تحت هدير قاذفات القنابل، كانت تأتينا التغيّرات في ضغط الجوّ لتعيد تذكيرنا بأن الحرب من أجل الحضارة كانت تجري هناك على بعد بضعة أميال... كان نهر الرجال والنساء والأطفال الأفغان يتدفّق عبر حدود شامان مثل فيلم ماجن. كان عليهم التصريح عن أسباب دخولهم باكستان إلى جندي يجلس في أعلى موقع إسمنتي.... وكان عليهم من ثمّ إبراز أوراقهم الثبوتية عند البوّابة الحدودية... وبعدها كان عليهم مواجهة الصحافة.

تحرّكت كاميرات التلفزة مثل الخنافس عبر جموع اللاجئين واختارت رجلاً تجرّأ على البوح أنه رأى شخصاً مشنوقاً في الساحة العامّة في قندهار.. وخلال ثوانٍ صار هذا الرجل مركز اهتمام عدسات المصوّرين ومفكّرات المراسلين. كان الرجل يضع رداء بنّياً على كتفيه ويعتمر قبّعة البشتون. وظهر رجال آخرون وسط الأطفال عند البوّابة، وصرّحوا بأنهم رأوا جثّتيْن مشنوقتين تترنّحان في الهواء في قندهار. وكان موظف باكستاني يتعامل بشكل سيّئ مع الأطفال ويضربهم بعصا يحملها بيده. وثمّة رجل حاصره عدد من مراسلي التلفزة من قنوات «فرانس ٢» واليابان وكتالونيا... طبعاً هو لا يجيد أيّاً من لغات هؤلاء... وتبيّن لاحقاً أن الصحفي الكتالوني كان من الباسك... وقام مترجم باكستاني بإمطار الرجل بأسئلتهم حول الجثّة في قندهار... «إنها لشاب صغير السنّ عُذّب وقُتل قبل شنقه، وكان صديقاً للملّا خاك زار». أصبحت القصّة واضحة. كان الملّا خاك قد زار وزير داخلية طالبان في كابول قبل انتقاله إلى المعسكر

الآخر. وقد وجد مع صديقه (الشابّ المشنوق) جهاز GPS وهذا كافٍ لإدانته كجاسوس أميركي. كان مصيره مهمّاً بالنسبة إلينا، فهو دليل إضافي على قسوة طالبان، أعدائنا في حرب الحضارة، وعلى شدّتهم وبأسهم. ونجح سائق شاحنة، كان قد خسر اثنين من أفراد عائلته في القصف الأميركي، في اجتذاب الكاميرات إليه.. في حين لم يهتمّ أيّ مصوّر برجل أفغاني عجوز كان يستريح على الكرسيّ الحديديّ المحطّم لموظّف الهجرة، ولاحظت أنه ينتعل زوجاً من الأحذية غريباً عجيباً.. وسرعان ما بطل عجبي حين عرفت السبب... كانت رجل خشبية تبرز من تحت سرواله إلى الجهة اليمنى.. وكانت معلّقة بشكل ما بحذائه ولكنها تفلت منه حين يحرّكها... في حين أن الرجل اليسرى كانت تلامس الأرض وقد اتصل طرفها بقطعة بلاستيكية لونها زهري.. وكأنما أُجريت لها جراحة ترقيعية.

حاولت إجراء حوار مع هذا الرجل المتصبّب عرقاً، المقطوع الرجلين، لكنه لم يردّ على أسئلتي. كانت أسنانه تصرّ من شدّة الألم ولكن كان بإمكانه الكلام لو أراد ذلك.. كيف خسر قدميه؟ تحرّكت عيناه إلى البعيد باتجاه شامان بشوارعها القذرة المكتظّة الخارجة من إحدى روايات ديكنز... ووقف وهو يتصبّب عرقاً ثم بدأ يعرج خارجاً نحو الطريق وسط الأسلاك الشائكة.. لم يهتمّ المصوّرون به.. إنهم يعرفون أنه كان ـ مع الملايين من أمثاله ـ ضحية لحرب أخرى سلاحها الألغام ـ التي زرعها الروس الذين هم حلفاؤنا الجدد في الحرب من أجل الحضارة. كان هو يعرف ذلك أيضاً، ولن يتحدّث معي، وقد أدركت بعد لحظات أنه مُحقّ بعدم الكلام. ما زالت الجموع تحتشد في الجهة الأخرى من الأسلاك... وقفنا هناك لالتقاط الصور، ثلاثة في كلّ مرّة.. وركّزنا كاميراتنا بشكل خاصّ على التراكتورات المحمّلة بالأطفال والنساء والمسنّين الأفغان. كانوا قد جاءوا بهذا الشكل إبّان الغزو السوفياتي لأفغانستان عام ١٩٧٩، وقد أصبحوا عبر السنين مألوفين لنا ـ كشأن عاديّ كما قال زملائي في القناة الثانية الفرنسية ـ كما في فييتنام ١٩٧٢، وفلسطين ١٩٤٨، وبولّندا وألمانيا عام ١٩٤٥، وفرنسا عام ١٩٤٠... أصبح الفقراء والمحرومون والمرعوبون مادّة مهمّة لخلفيّات تقاريرنا، وملصقات جداريّة لمأساتنا....

وصل زوجان مسنّان كلٌّ منهما على عربة بدولاب واحد، يجرّهما شابّان يضحكان ويصرخان بالصحفيين ويشيران إلى حمولتهما. هل كان الزوجان قادرين على السير؟ لكنّا تجاهلناهما لو كانا كذلك. لكن مشهد رجل وامرأة مسنّين على عربتين يُعتبر صورة جيّدة من الصعب تجاهلها.... أما ذاك الرجل الأبيض الشعر الذي نظر إليّ بعينه اليسرى حتى اضطرّني إلى النظر إلى عينه الأخرى المشوّهة إلى حدّ من الصعب وصفه، فإنه لم يكن مشهداً يستحقّ التصوير... لا صور لهذا السيكلوب (عملاق ذي عين واحدة في وسط الجبين) الملفوف بالخرق البالية...

على الطريق، في تختابول، كانوا يتحدّثون عن مجزرة أخرى ـ راح ضحيّتها مئة وستّون سجيناً من طالبان من زعماء القبائل ـ وجاءت روايات من جميع أنحاء الريف عن قُرى دمّرتها القنابل الأميركية؛ قرية بكاملها دمّرتها طائرة B52 في كيلي سرناد؛ وسقط خمسون قتيلاً قرب طورابورا؛ وقُتِل ثمانية مدنيين في السيّارات نتيجة قصف سلاح الجوّ الأميركي على طريق قندهار، وستة وأربعون آخرون في لاشكارغاه، واثنا عشر في بيبي محرو. لا يفترض بنا معرفة أيّة تفاصيل حول هؤلاء القتلى... «تحقيق؟»!! هكذا صرخ وزير الدفاع الأميركي رامسفيلد في مؤتمر صحفي مطلع تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١ مدّعياً أن لا علم له بطلب منظّمة العفو الدولية التحقيق في مجزرة سجن مزار شريف.... «أستطيع أن أذكر لكم عشرات الأشياء التي يمكنكم التحقيق بشأنها في أفغانستان»... هل نستطيع ذلك حقّاً؟؟ هناك أوّلاً الرجل المشنوق في قندهار والذي تبيّن لاحقاً أنه شاعر محلّي.. ثم الرجل الذي فقد قدميه.. والشحّاذ ابن الخمس سنوات.. والزوجان العجوزان في العربتين.. والسيكلوب العجيب وعينه المتقيّحة.. والقتلى في تختابول وفي كيلي سرناد ولشكارغاه وبيبي محرو، وكل تلك الجموع البشرية المشرّدة المتصبّبة عرقاً وخوفاً ورعباً عند معبر شامان... ناهيك بالمجزرة في مزار شريف، والحرب من أجل الحضارة!!!...

دُعيت لمقابلة مسؤول كبير من طالبان، فرّ لتوّه إلى منزل عائلته عبر حدود باكستان في قرية بيشين التي تشهد عاصفة. كان يجلس على الأرض وظهره إلى

الحائط في غرفة واسعة، باردة، سقفها خشبي، وكان يلتحف برداء رمادي فوق عمامته السوداء، وعيناه الواسعتان تراقبانني بتعب. «مستشار كبار طالبان في قندهار»، هكذا أراد تسميته. وطلب مني مخاطبته بالملّا عبدالله ـ وهو اسمه الحقيقي ـ رغم أن هذا المتخرّج (٣٢ سنة) في مدرسة الشيخ هاسنجان في كوهات كان يحمل هويّة مختلفة ويحتلّ مركزاً أهمّ في أوساط الطبقة الحاكمة من طالبان. وكان في منزل العائلة الكبير ذي الجدران الطينية القائم خلف جبال تعصف فيها الريح ممّا سبّب مرض الملّا بالإنفلونزا: «الهزيمة صعبة وكذلك الكلام»، اعترف الملّا: «يعتقد الناس أننا هُزمنا وخسرنا العديد من رجالنا، لكنّ رجالنا فقدوا حياتهم بالشهادة وهكذا انتصروا، لذلك لا نعتقد أننا هُزمنا.... عندما يرجع الأميركيون إلى ديارهم سوف نستعيد الأرض. لم يحضر الأميركيون إلى هنا من أجل أسامة بن لادن، وهذا ليس مبرّرهم الرئيسي. إنهم هنا لأنهم لا يريدون أن تُحكم البلاد بالشريعة الإسلامية. يريدون حكومة تفعل ما يريدون». هذا هو الصوت الحقيقي لطالبان قندهار. ويظهر أن الملّا كان فعلاً قد وصل لتوّه من قندهار مقرّ خلافة طالبان الصغيرة المحاصرة، وقد سار ستّ ساعات في الصحراء لتجنّب الغارات الجوّية الأميركية حول تختابول، وهو الآن يرتاح هنا قبل العودة إلى قندهار.. رجل في حالة من نكران الذات، أو رجل قرّر منذ الآن الذهاب إلى الجبال. كان يبدو وكأنه غير مهتمّ باستراتيجية الحرب.. وهو الذي شغل منصباً في وزارة دفاع طالبان في كابول ـ يقول إن العرب كانوا يعملون على صيانة شاحناته ـ لكن كان كلّ سؤال عسكري يستحضر ردّاً دينياً. «حتى الآن لم ينجح الأميركيون في إيجاد الشيخ أسامة بن لادن، أو تنظيم القاعدة. لم يُنجزوا مهمّتهم. بالنسبة إلينا، أسامة مسلم، والمسلم من بلد آخر شقيق لنا. أما في ما يتعلّق بنا فسوف نقاتل في الجبال حرب عصابات إذا خسرنا قندهار، وإذا استُشهدنا فهذا هو النصر». تعبت من كل هذا ولكنني بدأت أفهم. النصر يأتي مع الفوز ويأتي أيضاً من الهزيمة.. بعد سنتين حصلنا على نسخة جورج بوش عن هذه العقيدة السخيفة، وذلك عندما حاول أن يشرح سبب انحدار العراق نحو الفوضى: كلّما كانت الأمور تسير نحو الأفضل، أصبح العنف أسوأ ـ لأن الحياة تتطوّر. وكان الكولونيل ألكسندر

برنز قد أعلن بتفاخر عام ١٨٤١ : «إن الأفغان ليسوا بعاجزين على صعيد القدرات الخيالية، ويمكن الاستشهاد بهم كدليل على أن الاختراع يسبق الحكم». . . حتى الآن يبدو التاريخ والسياسة والهزيمة بالنسبة إلى الملّا عبدالله قطعة واحدة من نصّ ديني. «هناك حديث مرويّ عن الرسول الكريم يقول إن من واجب المسلم القيام بالجهاد.. لم يكن من الضروري أن نحكم أفغانستان بكاملها وقد بدأت طالبان وجودها في قرية صغيرة... لقد بدأ بضعة طلبة كل ذلك. في البداية وجدنا أن العدد كان كافياً، ولم نأبه أبداً أننا نجحنا في الحصول على ٩٥٪ من أرض أفغانستان. لذلك لا نأبه للأرض التي خسرناها. لا تريد طالبان الأرض بحدّ ذاتها ـ فهدفنا الرئيسي نشر الإسلام بين الناس، وإذا استعاد رجالنا الأرض الضائعة فهذا فوز، وإذا قُتلنا ونحن نحاول القيام بذلك نحصل على الشهادة وهذا هو الفوز العظيم بالنسبة إلينا أيضاً».

نادراً ما تسلّل الشكّ إلى حديث الملّا عبدالله «وحده الزمن سيقول إن كنا سنحافظ على قندهار أم لا. نحن نفعل ما بوسعنا». من الممكن أن يكون هذا تعليقاً من صحيفة طالبان، لو لم يمنعوا الصحف.. «إذا طُردنا من قندهار، نذهب إلى الجبال ونبدأ من جديد حرب عصابات كما فعلنا مع الروس». حاولت النقاش والقول بأن الأميركيين ليسوا الروس، وأن الأمر ليس أداء بسيطاً يتكرّر، وأن الطالبان كانوا في معظم الوقت يقاتلون أفغاناً آخرين، ولم يقاتلهم الأميركيون إلا بسلاح الجوّ. لا فائدة.. سوف نذهب إلى الجبال، سوف نهاجم الأميركيين، ونستمرّ في القتال. وقد استمرّوا بالفعل..

كان الأميركيون يدخلون قندهار، وكنت أحاول القيام بمحاولة أخيرة للوصول إلى المدينة.. إنه يوم ٨ كانون الأول/ ديسمبر... لو أستطيع فقط الوصول إلى شامان.. كانت لديّ فرصة للالتحاق بفريق السي إن إن حتى مقرّ خلافة الملّا عمر، وكل ما عليّ عمله هو البقاء مع جاستين هغلر ـ الذي غطّى مجزرة مزار شريف ـ وبعدها أسافر في سيّارة جيب مع السائق البشتوني أمان الله، والمترجم فايز أحمد، من كويتا إلى شامان. ربّما كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف عندما وصلنا إلى كيلا عبدالله، في منتصف الطريق إلى هدفنا،

عندما تعطّلت سيّارة الجيب في وسط شارع ضيّق ومكتظّ... تصاعد دخان أبيض من غطاء محرّك السيّارة.. وللحال تشكّل خطّ من السيّارات والشاحنات والباصات والعربات والزمامير تحتجّ على قطعنا الطريق. خرجنا نحن الأربعة من السيّارة ودفعناها إلى جانب الطريق، وتمتمت بشيء لجاستين فهم منه أن هذا كان مكاناً سيّئاً للتعطل. كانت كيلا عبدالله ملجأ لآلاف اللاجئين الأفغان الفقراء وللجموع التي خلّفتها حرب باكستان. وعلمنا لاحقاً أن العديد من هؤلاء الأفغان شعروا بالإهانة مما شاهدوه على التلفزيون من عمليات قتل في مزار شريف للسجناء وأيديهم مقيّدة خلف ظهورهم، وقد أبلغ أحد القرويين أمان الله لاحقاً أنهم شاهدوا شريط فيديو لضابطين من المخابرات الأميركية وهما يهدّدان سجيناً بالموت في مزار شريف.... كان بعض الأفغان يعيشون في القرية الصغيرة منذ سنوات. وبعضهم وصلوا يائسين حزانى على أحبّائهم الذين قُتلوا حديثاً خلال الأسبوعين الماضيين. بالتأكيد كان هذا مكاناً سيّئاً للتعطّل وفي وقت سيّئ أيضاً، قبل الإفطار بفترة وجيزة، في نهاية يوم من شهر رمضان... كان هؤلاء الناس أمّيين، وأشكّ في أن بعضهم يعرف القراءة ـ لكن ليس من الضروري أن تكون متعلّماً لكي تنفعل على مقتل الأقارب نتيجة قنابل ب٥٢ B52.

ذهب أمان الله لإيجاد سيّارة أخرى ـ ليس هناك أسوأ من جمهور غاضب من الرجال سوى جمهور غاضب بعد الظلام ـ ابتسمنا جاستن وأنا للجمع الذي بدا ودّياً وهو يتشكّل حول سيّارتنا المعطّلة.... سلّمت على العديد منهم بالأيدي، وألقيت عليهم التحية «السلام عليكم» عدّة مرّات. وعرفت ما يمكن أن يحدث في حال توقّف الابتسام. بدأ التجمهر يكبر واقترحت على جاستن أن نبتعد عن سيّارة الجيب وأن نسير على الطريق. لكزني لكزاً قويّاً بإصبعه.. وأقنعت نفسي بأنها حركة عرضية، احتجاج من طفل.. ثم مرّ حجر صغير مرّ بقرب رأسي ليضرب كتف جاستن الذي استدار إلى الخلف.. نطقت عيناه بالهمّ في حين تنفّست أنا بعمق وكأنني أقول له: «رجاء.. إنها مجرّد حصاة».. ثم حاول طفل آخر انتشال حقيبتي وفيها جواز سفري وبطاقات الائتمان والمال والمذكّرات والعناوين والهاتف الخلويّ.. شددتها نحوي ولففت رباطها حول كتفي.. اجتزنا الطريق، جاستن وأنا، وضربني رجل ما من الخلف..

كيف تخرج من حُلم حين يتحوّل أشخاصه فجأة إلى أعداء؟ رأيت رجلاً من أولئك الذين كانوا يبتسمون لنا منذ قليل حين صافحتهم.. لم يكن يضحك الآن.. في حين كان بعض الأطفال الأصغر سنّاً ما زالوا يضحكون ولكنّ ابتساماتهم كانت تتحوّل تدريجاً إلى شيء آخر... كان الأجنبي المحترم، ذلك الرجل الذي كان يُغدق «السلام عليكم» منذ دقائق فقط، مرتبكاً، خائفاً، يستعدّ للفرار.. اكتشفت لاحقاً أنه في لحظة ما استدار صبيّ في سنّ المراهقة نحو أمان الله صارخاً مردّداً سؤاله الجدّي: أليس هذا مستر بوش؟؟ كان الغرب هو الذي يُهان هنا!! وجرى دفع جاستن من هنا وهناك.. وفي منتصف الطريق لاحظنا سائق باص ينادينا للصعود إلى عربته.. كان فايز الذي لا يزال قرب السيّارة غير مصدّق لماذا ابتعدنا عنها، وهو لم يعد يرانا.. ولكن ما إن وضعت قدمي على درجة الباص حتى أمسك ثلاثة رجال بحزام حقيبتي وشدّوني إلى ناحية الطريق.. أمسكتني يد جاستن وهو يصرخ بي: «تمسّك جيدّاً».. وهذا ما فعلته.. وكانت تلك هي اللحظة التي أصابتني فيها أولى الصفعات على رأسي.. كدت أقع من شدّة الصفعة التي طنّت لها أذناي... كنت أتوقّع هذا، ولكن ليس بهذه القوّة أو الألم، وليس بهذه السرعة... كانت الرسالة رهيبة: هناك من يكرهني إلى حدّ الأذيّة.. أصابتني ضربات أخرى، واحدة منها على رفش كتفي كانت من القوّة بحيث ضربت بي جانب الباص وأنا ما زلت متمسّكاً بيد جاستن... كان الركّاب ينظرون إلى الخارج نحو جاستن ونحوي ولكنهم لم يتحرّكوا.. لم يُرِد أحد تقديم المساعدة... صرخت: «النجدة.. أنجدني جاستن»!! وكان جاستن يبذل قُصارى جهده لكي يشدّ أكثر على يدي المتردّدة ويسحبني إلى الباص، وسألني وسط صراخ الجمهور: «ماذا تريدني أن أفعل؟».. وعندها انتبهت أنني لا أكاد أسمعه.. كانوا يصرخون نحوي وحولي وعنّي.. هل سمعت كلمة «كافر»؟ كانت تلك هي اللحظة التي فقدت فيها يد جاستن الممسكة بي والتي كانت خشبة خلاصي.. جاءتني صفعتان أيضاً على رأسي، واحدة على كل جهة.. ولسبب غامض غريب فإن جانباً من ذاكرتي (شارع خلفي في دماغي) سجّل لحظة مدرسيّة، هناك في مدرستي الابتدائية المسمّاة الأرز في مايدستون قبل أكثر من خمسين عاماً.. حين ضربني على رأسي فتى طويل كان يبني قلعة رملية على أرض ملعب المدرسة... كنت أحتفظ بذكرى رائحة الضربة كما لو

أنها أصابت أنفي... الضربة التالية جاءتني من رجل رأيته يحمل حجراً كبيراً في يده اليمنى.. أنزل الحجر بقوّة هائلة على مقدّمة رأسي وتدفّق شيء حارّ وسائل غطّى وجهي كلّه نزولاً على خدّيّ وشفتيّ... ثم انهالت عليّ ركلات الأقدام... على ظهري، على أضلعي، على ساقيّ... وأمسك مراهق آخر بحقيبة يدي مجدّداً وتركني معلّقاً بحزامها وأنا أنظر إلى أعلى لأجد أنه كان هناك حوالي ستّين رجلاً أمامي يصرخون بي.... ولاحظت أن ابتساماتهم الكبيرة كانت تشبه أفواه الذئاب... وللغرابة فإن ما شعرت به لم يكن الخوف بقدر ما كان نوعاً من الذهول.. إذاً، هكذا كانت تحصل مثل هذه الأمور.. كنت أعرف أنه كان عليّ الردّ والتفاعل مع الوضع.. وإلّا، أو هكذا فكّرت وأنا في تلك الحالة من الذهول، فالموت!!!.

وفي لحظة سكينة وصفاء هبطت عليّ، تذكّرت ذلك الصباح المهلك في مدينة غزنة الأفغانية، قبل أكثر من عقدين من الزمن، عندما طُلب منّي ومن غافين هيويت وفريقه أن نرحل قبل أن نتعرّض للهجوم بالحجارة.. كان بإمكاني أن أتذكر تلك الروايات القديمة عن قساوة الأفغان التي كان يرويها ضبّاط الراج الإنكليز، حتى تلك التي كانت في هديّة بيل فيسك من والدته: رواية توم غراهام... غير أن الشيء الوحيد الذي صدمني كان إحساسي بالانهيار الجسدي وقلقي المتزايد من السائل الذي بدأ يغطّيني... لا أعتقد أنني شاهدت مثل هذه الكمّية من الدم من قبل. وللحظة، ألقيت نظرة على شيء مرعب، على وجه مخيف ـ وجهي ـ ينعكس على نافذة الباص مضرّجاً بالدم الذي كان يلطّخ يديّ أيضاً مثل الليدي مكبث، ويبلّل ياقة قميصي وينزلق على كنزتي حتى أغرق ظهري وحقيبتي التي ظهرت فجأة والدم يترقرق منها، ومن سروالي في بقع قرمزية اللون غير واضحة المعالم غمرتني كالمستنقع... مَن كان يعتقد أن الرجل المسنّ نزف هذا القدر من الدم؟ كانت هذه هي العبارة، كما أذكرها، التي تردّدت في تلك اللحظة. وكلّما زاد نزفي زاد تجمّع الحشد وضربني بقبضاته وبالحجارة التي انهالت على رأسي وكتفيّ... وكنت أفكر في نفسي متسائلاً إلى متى يستمرّ هذا الوضع؟ متى ينتهي؟

كانت الحجارة تضرب رأسي من الجانبين في الوقت نفسه.. لم تكن حجارة تُرمى عليّ وإنما حجارة تُمسك بها أيدي رجال أقوياء يستخدمونها لتحطيم جُمجمتي.... ثم ضربني أحدهم بقبضة يده في وجهي محطّماً نظّارتي على أنفي.. وأمسكت يده الأخرى النظّارة الاحتياطية التي كانت تتدلّى من رقبتي واقتلع الحاوية البلاستيكية من الحبل الذي كانت معلّقة به.. وهنا عليّ أن أشكر لبنان. فطيلة ٢٥ عاماً غطّيت حروب لبنان، وكان اللبنانيون يعلّمونني دائماً كيف أبقى على قيد الحياة: اتّخذ قراراً ـ أيّ قرار ـ ولكن لا تبقَ ساكناً بل افعل شيئاً. لذلك انتزعت الحقيبة بعنف من يديّ الشابّ الذي كان يُمسك بها. تراجع، فاستدرت نحو الرجل الذي كان على يميني يحمل الحجر الملطّخ بالدم، ووجّهت قبضتي نحو فمه. لم أستطع الرؤية جيّداً، ولكنّي تمكّنت، رغم الدماء التي غطّت عينيّ، من رؤية الرجل يسعل رأيت سنّاً تسقط من فمه، ثم هوى على الأرض. وللحظة توقّف الجميع، ثم توجّهت نحو الرجل الآخر واضعاً حقيبتي تحت ذراعي، ووجهت قبضتي نحو وجهه، فزعق واحمرّ وجهه، لكنّي أخطأته وأصبت رجلاً آخر ثم لِذتُ بالفرار.

أصبحت مجدّداً في وسط الطريق، ولكن لم أستطع الرؤية، فوضعت يدي على وجهي وحاولت إزالة المادّة اللزجة عنه، بدأت الرؤية تتّضح قليلاً وأدركت أنني كنت أبكي وأن الدموع غسلت عينيّ من الدم. ماذا فعلت؟ كنت أؤذي وأهاجم وأضرب لاجئين أفغان، الأشخاص الذين كنت أكتب عنهم لفترة طويلة، الفقراء والمحرومين الذين كانت دولتي ودول أخرى تقتلهم مع الطالبان عبر الحدود. لقد نجّاني اللّه.. فعلاً هكذا فكّرت وأعتقد أنني قلت ذلك أيضاً. لقد أصبح الرجال الذين تقتل قنابلنا عائلاتهم أعدائي الآن.

عندها حدث شيء غريب. تقدّم مني رجل بهدوء شديد وأخذ بيدي. لم أستطع رؤيته جيّداً بسبب الدماء التي كانت تسيل على عينيّ مجدّداً، لكنه كان يرتدي دشداشة وقبّعة، وله لحية بيضاء، وقادني بعيداً عن الحشد... التفتُّ إلى الوراء، فرأيت العديد من الرجال وبأيديهم الحجارة لكنّها لم تكن تستهدفني ـ بل كانت لمنع ضرب الأجنبي.. كان الرجل مثل شخصية طالعة من العهد القديم

أو من قصّة من الإنجيل، السامريّ الصالح، رجل مُسلم ـ ربّما ملّا من القرية ـ يحاول إنقاذ حياتي. دفعني إلى داخل سيّارة شرطة، لكن رجال الشرطة لم يتحرّكوا، كانوا مرعوبين. رُحت أصرخ عبر النافذة الصغيرة في مؤخّرة السيّارة «أنقذوني» وتركت يداي آثار دماء على الزجاج. ساروا بضعة أمتار، ثم توقّفوا وبعدما تحدّث إليهم الرجل الطويل مجدّداً، ساروا ثلاث مئة متر أخرى.

وهناك على جانب الطريق كانت قافلة من الصليب الأحمر والهلال الأحمر، وكان الحشد لا يزال وراءنا، فقادني اثنان من المُسعفين إلى خلف إحدى سيّاراتهم، حيث سكبا الماء على يديّ ووجهي وشرعا في وضع ضمادات على جبهتي ووجهي ومؤخّرة رأسي. وقال لي أحدهما: «استلقِ، سوف نغطّيك حتى لا يروك». كانا مُسلمَين من بنغلادش ويجب أن أورد اسميهما عرفاناً للجميل: محمّد عبد الحليم وسيكدر مقدّس أحمد. استلقيت على الأرض متأوّهاً قلقاً على حياتي.

خلال دقائق، وصل جاستن برفقة جندي ضخم من بلوشستان، شبح حقيقي من الإمبراطورية البريطانية استطاع إبعاد الحشد عن السيّارة بسلاحه، وبينما كان جاستن يجلس داخل السيّارة، تحسّست حقيبتي «لم يستطيعوا الحصول عليها» ردّدت ذلك بيني وبين نفسي، كما لو أن جواز سفري وبطاقات الائتمان نوع من الكأس المقدّسة. لكنهم أخذوا آخر نظّارة لديّ ـ وكنت كالأعمى من دونها ـ وكان جهاز الخلوي مفقوداً أيضاً وكذلك دفتر اتصالاتي الجلدي الذي يحتوي على أرقام تلفونات من جميع أنحاء الشرق الأوسط(*). قلت: «اللعنة». وحاولت وضع يدي على جانبي، وأدركت أنني أنزف من جرح كبير في رسغي ـ علامة السنّ الذي اقتلعته من فم الرجل الذي ضربته، الرجل الذي كان حقّاً

(*) استفقت على الحقيقة الغريبة وهي أنه بينما تُرك جواز سفري وبطاقات الائتمان والمال ـ وهي ممكنة الاستخدام من قِبل اللاجئين ـ في حقيبتي، كان دفتر اتصالاتي بين الأشياء التي فُقدت. بعد يومين عدت إلى كيلا عبدالله وقابلت شيخ القرية وعرضت مئة دولار ـ وهو مبلغ ضخم لأي شخص في تلك المنطقة من بلوشستان ـ مقابل استعادة دفتري الصحفي القيّم جدّاً، وفيه أسماء وأرقام هاتف. لم يحصل ذلك. هل رموه؟ أم اشتراه شخص ما؟

بريئاً من أيّة جريمة باستثناء أنه ضحيّة العالم. إذاً، لماذا أسجّل دقائقي القليلة المرعبة والمثيرة للاشمئزاز الذاتي قرب الحدود الأفغانية... كنت أنزف وأصرخ مثل الحيوان، بينما يموت ألوف من المدنيين الأبرياء تحت الضربات الجوّية الأميركية في أفغانستان، وبينما تقوم الحرب من أجل الحضارة بإحراق وقتل أهالي قندهار والمدن الأخرى لأن الخير يجب أن ينتصر على الشرّ؟ أمضيت أكثر من رُبع قرن وأنا أكتب التقارير عن إذلال مُسلمي العالم وبؤسهم، والآن وصل غضبهم إليّ أيضاً، أو هل وصل؟ كان هناك رجال الهلال الأحمر وفايز الذي جاء يلهث نحو السيّارة متوهّجاً بالغضب لما حدث لي.. وجاء معهم أمان الله الذي دعانا إلى بيته لتلقّي العلاج الطبّي. وكان هناك القدّيس المسلم الذي أخذني من يدي. ورأيت أيضاً من حولي كل الرجال الأفغان الذين هاجموني، والذين لم يكن عليهم القيام بذلك، لكنّ قساوتهم كانت كلّها نتاج قساوة الآخرين، قساوتنا نحن والذين منّا قاموا بتسليحهم في صراعهم ضدّ الروس، وتجاهلوا ألمهم وضحكوا على حربهم الأهليّة، ثم سلّحوهم ودفعوا لهم مجدّداً للحرب من أجل الحضارة على بعد أميال قليلة، وبعدها قصفوا بيوتهم وشتّتوا عائلاتهم ووصفوا كل ذلك بأنه «أضرار جانبية».

لذلك فكّرت في الكتابة عمّا حصل لي ولجاستن في هذا الحادث المخيف، السخيف والدامي، إذ خشيت أن تنقل كتابات أخرى رواية مختلفة حول كيف «ضُرب صحافي بريطاني من قِبل مجموعة من اللاجئين الرعاع».. وبالفعل فقد ربحت صحيفة «مايل أون صنداي» Mail on Sunday الجائزة لمثل هذا التشويه. وأوردت أن «فيسك ـ الذي صار عمره عندهم ٦٣ سنة وليس ٥٥ سنة ـ ضُرب على أيدي مجموعة من اللاجئين الأفغان الرعاع». ونقلت عني أنني قلت ـ لكنني لم أقل ذلك ـ «إنني سأحمل الآثار لبقيّة حياتي». وقد حُذفت كل الإشارات التي أكّدت فيها تكراراً أن الأفغان كانوا مُحقّين في غضبهم، وأنني لا ألومهم على ما فعلوه. لقد أصبح الأفغان مثل الفلسطينيين قبلهم عنيفين بالسليقة والفطرة. وبالطبع كانت هذه هي القضيّة... فالذين حُمّلوا مسؤولية الجراح والآلام هم الأفغان.. لكنّ تلك الجراح والآلام كانت بسببنا، وبواسطة

طائراتنا الـ «ب٥٢» «B52»، وليس بسببهم.. وقد كتبت في الإندبندنت أنني «لو كنت لاجئاً أفغانياً في كيلا عبدالله لفعلت ما فعلوه. كنت هاجمت روبرت فيسك أو أي غربي آخر أجده». لقد تسلّمت العديد من الرسائل التي بعث بها إليّ قرّاء صحيفتي، وكان بعضها يعبّر عن تعاطفه. . وجاءت بطاقات الميلاد كلّها موقّعة باستثناء واحدة يعبّر كاتبها عن خيبة أمله لأن الأفغان لم «يُنجزوا العمل». وقد نشرت صحيفة وول ستريت جورنال مقالاً يتضمّن الشيء نفسه تقريباً تحت عنوان «كاره للذات، متعدّد الثقافات، حصل على ما يستحقّه». وفيها كتب محرّر عمود اسمه مارك ستين عن ردّة فعلي على الحادث قائلاً «يجب أن يكون لديك قلب من حجر حتى لا تنفجر من الضحك»، وتابع «إن عقيدة فيسك قد وصلت إلى النتيجة المنطقية، مانحاً المغفرة وصكّ براءة ليس لمنفّذي ١١ أيلول/سبتمبر فقط، بل أيضاً لمساندي طالبان الذين هاجموا العديد من زملاء فيسك في أفغانستان والذين قُتلوا قبل أن يستطيعوا كتابة زاوية أخيرة تشرح لماذا قتلوا؟»(*).

في كويتا، قام طبيبان باكستانيان بغسل وجهي وتضميده ونسيا جرحاً في مؤخّرة رأسي، لذلك استيقظت ليلاً لأجد وسادتي مليئة بالدم، وكان عليّ الاستحمام تحت الدوش لإزالة القماش عن الجرح.. وعندما عدت إلى إسلام أباد ـ وهذه وقاحة في نظر ستين ـ تصادقت مع مراسل آسيا الجنوبية الغربية

(*) بمعزل عن حقيقة أن معظم الصحفيين الذين ماتوا في أفغانستان خلال القصف أو مباشرة بعده (ثلاثة مراسلين أحدهم امرأة، قُتلت في وادي كابول بعد سقوط العاصمة) كانوا قد قُتلوا على أيدي لصوص انتهزوا فرصة هزيمة طالبان، فإن مقال ستين كان مشوّقاً لسببيْن.. فقد ألمح أنني أيّدت بطريقة ما جرائم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ أو على الأقلّ أنني برّأت القتلة الجماعيين. والأهمّ من ذلك أن المقال ما كان ليكتب لولا تجاهلي لسياق الاعتداء الذي حصل ضدّي.. لو أني كتبت تقريراً عن هجوم من قِبل رعاع، لتناسبت الرواية بشكل جيّد مع الطرح الإعلامي الأميركي العامّ حول الحرب الأفغانية... أي دون الإشارة إلى القتلى المدنيين بسبب الغارات الأميركية التي جعلت الأفغان غاضبين على الغرب... في كل الأحوال، كان يفترض بنا تحرير هؤلاء الناس وليس قتل أقاربهم،... كانت جريمتي إذاً ومجدّداً (وقد أعطت الصحيفة عمود ستين عنوان «جرائم كره الذات» أنني كنت أحاول أن أعرف لماذا، وكذلك، ماذا وأين؟ وليس مجرّد الكتابة!!

الجديدة دانيال بيرل وزوجته ماريان، اللذين قدّما لي أكواباً لا تنضب من القهوة، وزوّداني بمضامين دفتر اتصالاتهما وأكّدا لي أنني ما زلت أتمتّع بالحيويّة الكاملة كما كنت. لم أكن متأكّداً ما إذا كان دانيال سيسافر إلى أفغانستان، فأجاب: «كلّا، زوجتي حامل ولن نقوم بهذه المغامرة».

بعد شهرين توفّي دانيال بيرل بعد قطع رأسه من قِبل خاطفيه المسلمين، وبعدما خُطف من عمله في كراتشي، وأُجبر على الحديث عن عائلته اليهودية في شريط فيديو مصوّر يتضمّن إعدامه. كان قتله مروّعاً، بقدر ما كان شنيعاً(*). لقد طرح مجدّداً قساوة القاعدة وأتباعها وأيضاً الدرجة التي فقدنا فيها نحن الصحفيين حصانتنا. في لبنان، في منتصف الثمانينيّات، وفي الجزائر، وبعدها في البوسنة، تضاءلت حمايتنا كمراسلين حياديّين. كنّا نُخطف، ونُقتل، لأنّنا غربيّين أو لأننا نُعتبر مقاتلين.. قبل شهرين من ضربي في كيلا عبدالله، حاولت مقابلة رجل دين مسلم في مسجد قرية خارج بشاور، فصرخ رجل ملتح موجّهاً كلامه إلى الملّا: «لماذا تُدخل هذا الكافر إلى المسجد؟». عندها قمت بإجراء المقابلة خارج المسجد. لكنني كنت كافراً، وكذلك كان بيرل، وهكذا بدا أننا كلّنا كذلك. لماذا سارت الأمور بشكل خاطئ؟ كنت أعتقد أن سلسلة المصائب بدأت في فيتنام. لعقود، كان المراسلون يتماهون مع الجيوش.. في حرب القُرم ارتدى وليام هاورد راسل، مراسل التايمز، لباسه الخاصّ. في كلا الحربين العالميّتيْن في القرن العشرين، كان الصحفيون يعملون وهم باللباس الرسمي، ولم يسلم مراسل الأسوشيتد برس الذي نزل مع قوّات كوماندوس أميركية خلف خطوط العدوّ من نيران فرقة نازيّة. لكن كانت هناك دول في نزاع علنيّ، وكانت دول المراسلين قد أعلنت الحرب رسمياً. في حرب فيتنام بدأ الصحفيون

(*) بعد خطف بيرل اتصل مراسل من وال ستريت جورنال ليسألني إن كنت أوافق على توقيع عريضة تطالب بإطلاق سراحه.. جاء هذا من قِبل صحيفة قال عنوانها عنّي إني كنت أستحقّ الموت ضرباً في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. فَضّلت أن أقوم بخطوة أفضل وأقوى، وذلك بتوجيه نداء شخصي إلى بن لادن عبر الإندبندنت للتدخّل لإنقاذ حياة دانيال بيرل الذي أشرت إليه على أنه «صديقي». وشككت ـ وكان تخميني صحيحاً ـ أن بن لادن رغم هروبه أمام الأميركيين استمرّ في قراءة تقاريري، ولكن ويا للأسف كان بيرل قد قُتل قبل ذلك.

يرتدون اللباس العسكري، ويحملون أسلحة ـ وفي بعض الأحيان يطلقون النار على أعداء أميركا ـ حتى لو لم تكن بلادهم مشتركة رسمياً في الحرب، وعندما كانت تسنح الفرصة كانوا يقومون بعملهم بدون لباس عسكري. وفي فييتنام كان المراسلون يُقتلون كونهم مراسلين.

بدأ هذا الميل لدى الصحفيّين لأن يكونوا جزءاً من الحدث، وأن يلعبوا دورهم النظري الخاصّ، يتركّز ببطء عندما أخلى الفلسطينيون بيروت عام ١٩٨٢. وقد لاحظت أن العديد من المراسلين الفرنسيين كانوا يرتدون الكوفية الفلسطينية. وكان المراسلون الإسرائيليون يحملون مسدّسات في جنوب لبنان.. وفي حرب الخليج عام ١٩٩١، كان العديد من المراسلين يرتدون لباساً عسكرياً مع خوذة، كما لو كانوا عناصر من الوحدة الجوّية ٨٢... في باكستان وأفغانستان في العام ٢٠٠١ حصل شيء مشابه.. في بشاور يضعون القبّعات البشتونيّة الرقيقة. وقد ادّعى جيرالد ريفيرا من فوكس نيوز على التلفزيون أنه كان يحمل مسدّساً في جلال أباد، وزعم أنه كان ينوي استخدامه بالفعل لقتل أسامة بن لادن، وصرّح للعالم: «أشعر أكثر من أي وقت مضى بالوطنية، ساعياً إلى العدالة، وربّما إلى الانتقام فقط».. «وقد سمحت لي هذه التجربة، ومن خلال ما حصل لي، أن أعيد النظر في ما كنت أقوم به كمهنة لكسب العيش».. كان هذا آخر`العنقود: المراسل وقد أصبح محارباً...

بالطبع حملت مسدّساً عندما كنت برفقة قافلة عسكرية سوفياتية إلى كابول عام ١٩٨٠. لكن لم يكن عندي خيار وقتها، وقد تجنّبت إعطاء تصريح من النوع الذي عمد ريفيرا إلى استخدامه.. ومثل العديد من الزملاء فإنني لم أحبّ الاستماع إلى ما نقله والتر رودجرز، من السي إن إن، يوم ٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، على لسان نقيب في البحرية قال إن مجموعات المعارضة والقوّات الأميركية تضغط على قندهار مثل الأفعى.. ففي اللحظة التي توصف فيها المدن أو الشعوب بالأفاعي أو الحشرات فإن ذلك يعني أنه يمكن سحقها أو تصفيتها أو القضاء عليها مثل الحيوانات. وقد وضِعت نزاهة كل صحفي في حالة الخطر بسبب ملاحظة مدير السي إن إن المؤذية والتر إزاسينزيون Walter Isacision

الذي أعطى موظّفيه تعليمات خلال قصف أفغانستان تقول إنه «من غير المناسب التركيز كثيراً على الإصابات أو الوضع الصعب في أفغانستان» لأن مثل هذا التركيز في التقارير يحمل خطر تعزيز الدعم لطالبان. في المرحلة التالية من «الحرب على الإرهاب» ـ أي مرحلة غزو العراق ـ دفع العديد من المراسلين حياتهم ثمناً لحقيقة أن دورهم كصحفيين لم يعد يؤمّن الحماية لهم(*).

والحقّ يُقال، كانت هناك طريقة أخرى للإضرار بسمعتنا وبنوايانا الطيّبة، أو حتّى لنسفها بشكل خطير.. وهي: عدم رغبة محطّات التلفزة الرئيسية في نقل الحقيقة حول الشرق الأوسط وفي دعم مراسليها حين كانوا يواجهون مجموعات الضغط (اللوبي) القويّة. في العام ١٩٩٣، عملتُ في إعداد سلسلة تلفزيونية من ثلاثة أجزاء للقناة الرابعة البريطانية وقناة ديسكفري الأميريكية، وكانت بعنوان: «من بيروت إلى البوسنة».. وقد حاولت (كما عبّرت عن ذلك كلمات الحلقة الأولى) إظهار «كيفيّة وصول المسلمين إلى كراهية الغرب». قمنا بتصوير الحلقات قبل ثماني سنوات من هجمات ١١ أيلول/سبتمبر.. وحين أشاهد الحلقات اليوم (وهي كانت منتجة على أفلام حقيقية وليس على أشرطة فيديو ولذلك كلّفت أكثر من مليون دولار) أُدهش أكثر من أي وقت مضى بما كانت تقوله للمشاهدين. كانت في الواقع تحذيراً مرعباً، غير مقصود، ولكنّه واضح، من حصول ١١ أيلول/سبتمبر. في أحد مقاطع الفيلم كنت أسير داخل مسجد محترق في البوسنة وأسأل: «ماذا يخبّىء لنا العالم الإسلامي في جُعبته» وأضيف قائلاً إنّ عليّ ربّما إنهاء كل واحد من تقاريري حول الشرق الاؤسط بكلمة: «احترس»! وكانت توجّسات أخرى مشابهة حول الرعب القادم متضمّنة في تغطيتنا الاحتلال الإسرائيلي لغزّة والضفّة الغربيّة. كنّا نحاول الإجابة عن السؤال: «لماذا» قبل أن تبرز الحاجة إلى طرحه.

(*) كان هذا ينطبق على الجانبين.. قبل سقوط كابول بوقت قصير انفجر صاروخ كروز أميركي داخل مكتب الجزيرة المحلّي، وهي القناة الفضائية العربية التي استثارت غضب الإدارة الأميركية بسبب نقلها لتصريحات بن لادن.. لم يصدر أي تفسير أو اعتذار، وهذا كان سابقة خطيرة ونذير شؤم إذ إن مكاتب الجزيرة في بغداد تعرّضت لهجوم سلاح الجوّ الأميركي بعد سبعة عشر شهراً فقط.

لم يكن إنتاج تلك السلسلة سهل التحقيق. صوّرنا في لبنان، وغزّة، وإسرائيل، ومصر، والبوسنة، وكرواتيا. وسألنا مقاتلي حزب الله حول حربهم ضدّ قوّات الاحتلال الإسرائيلي، وصوّرنا نساء مصابات بحروق في المستشفيات اللبنانية نتيجة القنابل الفوسفورية الإسرائيلية. وخلال حظر التجوّل في غزّة، كانت تصدر إلينا باستمرار أوامر من قِبل الجنود الإسرائيليين لإخلاء الشوارع ـ وكان العديد منهم يضع يده على الكاميرا لوقف التصوير. صوّرنا جندياً إسرائيلياً قال إنه سمح لامرأة فلسطينية حامل بخرق حظر التجوّل للذهاب إلى المستشفى ـ ثم اكتشفنا أن السيّدة كانت لا تزال محاصرة في منزلها. وخارج أسوار القدس تحدّثنا إلى مستوطن إسرائيلي عن سبب طرد عجوز فلسطيني من أرضه ـ فقال لنا: «لأن اليهود سيأتون للعيش هنا ولأنه (وبعباراته هو) عربي.... وليس يهودياً»؟

في إسرائيل تقصّينا مصير منزل شخص فلسطيني يعيش حالياً في بيروت، وتحدّثنا إلى العجوز الإسرائيلي الذي انتقل إلى المنزل بعد عام ١٩٤٨ ـ وانتقلنا بالكاميرا إلى المدينة البولّندية التي هرب منها وحيث جرى أخذ والديه وشقيقه من قِبل النازيين الذين قتلوهم في المحرقة اليهودية. في مصر تحدّثنا إلى المعارضين المسلّحين ضدّ نظام مبارك، وفي سراييفو إلى الجنود البوسنيين الذين يدافعون عن المدينة وإلى إمام مسلم يؤمن بأن أبناء شعبه يتعرّضون للإبادة لأنهم مسلمين فقط.

كان مايكل دوتفيلد هو مُنتج الحلقات ممّا جعل من السهل عرضها على المشاهدين البريطانيين. ذلك أن الأوروبيين معتادون على النقاش الحرّ والقاسي في بعض الأحيان حول الشرق الأوسط، حيث إنّ الإشاعة القديمة الكاذبة حول معاداة الساميّة، والتي تُلصق بكلّ مَن يجرؤ على انتقاد إسرائيل، قد فقدت فعاليتها إلى حدّ كبير. هناك كما أقول دائماً عدد كبير من المعادين للساميّة الحقيقيين في العالم والذين علينا مواجهتهم دون أن نخترع غيرهم بُغية تلطيف أيّ نقاش جدّي حول إسرائيل والعرب . إلا أننا نعلم أن الأمور في الولايات المتّحدة جِدّ مختلفة.. وفيلمنا لن يُشكّل تحدّياً للجماهير الأميركية ـ الناضجة

بشكل كافٍ لكي تفهمه إذا ما أُعطيت لها الفرصة لمشاهدته ـ بل لمجموعات اللوبي الأميركية التي تتحرّك بانتظام لمنع عرض أي عمل وثائقي يُعطي الأميركيين بديلاً من الأخبار المؤيّدة لإسرائيل والمعروضة بانتظام على الشاشات الأميركية. كانت التقارير الأولى عن الحلقات في الإعلام الأميركي نقديّة بشكل طفيف وغير دقيقة غالباً(*).

وبعد أيام فقط من عرض قناة ديسكفري للأفلام الثلاثة التي غطّت أميركا من الساحل إلى الساحل، بدأت حملة الرسائل المكتوبة. ذكرت ديسكفري أن بعض مُعلنيها تعرّضوا للإزعاج بسبب سَيل الاتصالات الهاتفية من مشاهدين غاضبين بحسب قولهم. . . وقد تسلّمت الأميريكان أكسبرس، وهي مموّلة للقناة الفضائية، بطاقات ائتمان من بعض الزبائن وكانت هذه البطاقات ممزّقة. وقامت منظمة تُطلق على نفسها اسم «نشر المسؤولية في الإعلام عن الشرق الأوسط» بالكتابة إلى ديسكفري مع تحذير مشؤوم. . وكتب جوزف أنغار نائب رئيس المجموعة في حزيران/يونيو ١٩٩٤: «لدى روبرت فيسك أسلوب بياني إنكليزي خالٍ من العيوب.. ولديه جوهر الاحترام والتهذيب... ويستطيع أن يلعب على المسرح دور هنري هيغنز بسهولة. لكن يمكنه أن يكون هيغنز مع أنياب». في الصحافة، هذا النوع من الكلام السخيف يثير الضحك. لكن الحملة ضدّ «من

(*) يوم ٢٧ نيسان/أبريل ١٩٩٤، على سبيل المثال، قامت صحيفة نيويورك تايمز بمراجعة حلقاتنا، وقد تضمّنت تلك المراجعة بعض التشويه المقصود.. فقد ادّعى والتر غودمان في مراجعته «أن معظم الساعات الثلاث من التقرير تركّز على الفلسطينيين» وأنها أعطت فقط ما أسماه إشارات إلى محرقة اليهود. وهذا غير صحيح. إذ إن أقلّ من ثُلث الحلقات تحدّث عن الفلسطينيين وقد غطّى بالكامل رواية العائلة اليهودية التي عانت من الاضطهاد، ولم يصوّر منزلها الأصلي البولّندي فقط وإنما أيضاً موقع مكان معسكر الإبادة في تربلينكا. تلك المقاطع لم تكن مجرّد إشارات... هكذا كتبت في رسالة إلى رئيس تحرير نيويورك تايمز طالباً منه تصحيح تلك الأخطاء حول الحقيقة. لقد اتّهم غودمان مصوّرينا «بالتركيز على النساء والأطفال الجرحى».. ولكنني سألت: لماذا يحتجّ على هذا؟ ألأنه يعتقد بأن تلك المشاهد مزعجة؟ أم لأن الأطفال والنساء الجرحى كانوا من العرب الذين قصفتهم إسرائيل؟ قد يجد السيّد غودمان أن الوقائع كريهة ولكنّ ذلك لا يبرّر له أن يشوّه بتلك الطريقة غير المهنية سُمعة صحفي عامل»... أرسلت رسالتي بواسطة مكتب نيويورك تايمز في لندن وذلك للتأكّد من أنها ستصل إلى المكتب الرئيسي في الولايات المتّحدة.. وبالطبع فإنها لم تنشر.

بيروت إلى البوسنة» لم تكن مضحكة على الإطلاق. وقد كتب رئيس اللوبي نفسه، سيدني ليبسون، رسالة إلى جون هاندريكس رئيس مجلس إدارة ديسكفري في الشهر نفسه. جاء فيها: «من خلال عرض «من بيروت إلى البوسنة»، زوّدت قناة ديسكفري متعهّدي الحملات الدعائية الغادرة فرصة لنشر سمومهم في غرف الجلوس في أميركا»...

ادّعت رسالة أنغار أن قولنا بأن إسرائيل «تصادر وتحتلّ وأنها تبني مستوطنات يهودية ضخمة على الأرض العربية» (وهذه كلّها وقائع معترف بها من جمعيّات حقوق الإنسان الإسرائيلية كافّة، والصحافة والمراسلين الأجانب وكذلك من قِبل الحكومة الأميركية لأكثر من عشرين سنة) هو تشويه للتاريخ. أما الإشارة في تعليقي إلى «المسلّحين المسيحيّين» الذين أرسلهم شارون إلى مخيّمات صبرا وشاتيلا ـ (وهي عملية وصِفت بالتفصيل في تقرير لجنة كاهان الإسرائيلية) فقد شجبها أنغار بوصفها «كذبة فظيعة».

وكتب ألكس سافيان من «مركز موارد الكاميرا الإعلامية» إلى كلارك بانتنغ رئيس ديسكفري يصرّح بأننا نشرنا مقابلة مع المستوطن اليهودي ميكي مولاد بطريقة حذفنا منها ملاحظته أن اليهود كانوا يملكون معظم الأرض التي خُصّصت للمستوطنة الإسرائيلية المنويّ إقامتها... وبناء عليه فقد تفحّصنا بدقّة كل المقاطع المحذوفة ـ وهي تبلغ حوالي الساعة ـ واكتشفنا أن مولاد لم يدلِ بهذا التعليق المزعوم خلال المقابلة. وقد كتب دوتفيلد لسافيان قائلاً له إن ادّعاءاته «غير ذات قيمة وإن خطأها لا يحتاج إلى برهان». وكانت هناك تصريحات مُبهرجة أخرى: «إن رواية السيّدة الفلسطينية التي لم يُسمح لها بالذهاب إلى المستشفى اختلاق كاذب وإنها لم تكن حاملاً»...، لكنها أنجبت طفلاً بعد تصويرنا لها بثلاثة أشهر.

بعد ذلك قالت لي واحدة من قرّاء الإندبندنت إن أصدقاء أميركيين أبلغوها إلغاء إعادة بثّ حلقاتنا في ديسكفري وذلك بسبب الشكاوى. وكتب دوتفيلد إلى القناة طالباً توضيحاً، وردّ بانتنغ بتكذيب هو من أسوأ ما سمعته حتى الآن من مسؤول في تلفزيون. كتب يقول: «بسبب ردّ الفعل تجاه البثّ الأوّل للحلقات،

فإننا لم نبرمج أصلاً إعادة بثّ لها.. وبذلك ينتفي وجود قضية حول إعادة بث جرى إلغاؤه». وعندما قرأت هذه الكلمات الجبانة شعرت بالخجل لكوني مراسلاً أجنبياً.

وهكذا وجدنا أنفسنا في وضع نحاول فيه أن نوضح، لجمهور يستحقّ سماع جانب آخر من رواية الصراع في الشرق الأوسط، حقيقةً صارمة من حقائق عصرنا... وهو جمهور يستحقّ أيضاً سماع أصوات أولئك المحزونين والغاضبين الذين وقع عليهم ظلم كبير كنّا نقوم بإبرازه... إن الذين يدّعون التحدّث باسم الحقيقة - ومن أجل إسرائيل - قاموا بمنعنا عن الشاشة وذلك بمساعدة قناة تلفزة رئيسية. وهنا، وقبل زمن طويل من وقوع الجرائم ضدّ الإنسانية في أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ، كان الجواب على سؤال «لماذا» الذي طُلب منّا الكفّ عن طرحه بعد هجمات نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا. في السابق لم يكن مطلوباً منّا شرح الانفجار القادم حتى لو كان يساعدنا على تجنّبه. بعد ذلك وجّهت إلينا تعليمات بالبقاء صامتين، وظلّ ذلك بالنسبة إليّ من العناصر الأكثر إحباطاً ورعباً في الحرب على الإرهاب، أي قمع الحقيقة التي بدونها لا يمكن إصدار حكم حرّ قبل الحدث أو بعده.

تساءلت: هل هناك حلّ لكل ذلك، حادث ما، حقيقة ما تسلّط الضوء على ما قمنا به في الشرق الأوسط، على الغضب الذي خلقناه، على الرعب الذي فرضناه على الذين نعتبرهم الآن أعداءنا؟ هل هناك طريقة ما لإيصال ذلك بدون تكرار مطالب أولئك الواثقين بحقيقتهم، طريقة نستطيع من خلالها تصوير موت البراءة خارج إطار الكراهية؟

ليس مطلوباً أن يكون بن لادن صوت أولئك الذين عانوا. فهو لا يملك احتكار ألمهم ووجعهم... ولم يتمّ تعيينه ممثلاً لهم على الأرض.. لذلك فأنا مهتمّ بقصّة فتاة شابّة ماتت بدون ذنب وبشكل مأساوي، كانت لتعارض الجرائم ضدّ الإنسانية في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، فتاة جرى تجاهل نهايتها الرهيبة من طرف الأمّة التي قتلتها.. كما لم يُظهر المراسلون الصحفيون لهذه الأمّة أيّ اهتمام بمصير الفتاة.

قتل الأميركيون رأفت الغُصَين بعد الثانية صباحاً من يوم ١٥ نيسان/أبريل ١٩٨٦.. وفي الأيام التي تلت مقتلها زعم المسؤولون الأميركيون أن صاروخاً ليبياً مضاداً للطائرات ربّما أصاب منزلها غير البعيد عن السفارة الفرنسية في طرابلس. لكن بعد ثلاثة أسابيع، اعترف البنتاغون بأن ثلاث قنابل من طائرة «أف» ١١١، وقعت على منطقة مجاورة للسفارة الفرنسية خلال الهجوم الأميركي على العقيد القذافي وتسبّب بضرر جانبيّ. كان عمر رأفت ١٨ سنة، وهي طالبة في معهد داخلي إنكليزي في لندن كانت في إجازة... فنّانة واعدة جميلة مرّ موتها الفردي دون إعلام في البلد الذي قتلها منذ تسعة عشر عاماً...

كانت تقطن في الطابق السابع من بناية في بيروت مع والديها وشقيقتها الصغرى. هناك شاهدنا شريط فيديو مدّته نصف ساعة يعرض حفلة تخرّج رأفت عام ١٩٨٥، في معهد ماري ماونت الدولي في كنغستون ـ تايمز، ويعيدها لفترة قصيرة إلى العالم.. حين يعلن المدير البريطاني اسمها: رأفت بسّام فوزي الغُصَين من فلسطين، نرى فتاة صبيّة ممشوقة القدّ، بلباس أبيض، تسير بثقة لتسلّم شهادة تخرّجها مع عزف لموسيقى إيلغار: «أرض الأمل والعزّ» على بيانو المعهد. أُنصت بانتباه إلى خطاب التخرّج الذي يُلقيه أستاذ أميركي يعلن للبنات أنه «مع نعمة الشباب ليس هناك خوف»... على يسار المنصّة التي جلست عليها رأفت علمُ أميركا وعلى يمينها العلم البريطاني...

في حديقة المعهد، وقفت رأفت إلى جانب والدها بسام الفلسطيني ذي الثقافة الأميركية.. ها نحن هنا، قال بسّام وهو ينظر إلى الكاميرا التي التقطت للعائلة عدّة صور.. قبّلت رأفت خدّ والدها باحترام فيما كانت والدتها ترمقها بفخر من خلف نظارّة شمسيّة، وبجانبها طفلة في السادسة من عمرها (هي كِندة شقيقة رأفت الصغرى) تزيّنت بعناية أمام الكاميرا.... وبينما كانت رأفت تغادر المنصّة بعلميْها الأميركي والبريطاني، كانت موسيقى البيانو ما تزال تصدح بألحان «بوق متطوّع» لتوماس أرن. . . بعد ظهر ذلك الصيف الإنكليزي، كان قد تبقّى سنة لرأفت الغصين في هذه الدنيا. وكان الرجال الذين سيقتلونها أميركيين، انطلقوا بإذن خاصّ من مارغريت تاتشر من قاعدة سلاح الجوّ الملكي

في لايكنهيث التي تقع على بعد ٧٥ ميلاً من معهد ماري ماونت الدولي في كنغستون. فلسطين، بريطانيا، ليبيا، أميركا... يبدو الأمر كما لو أن الصراع الغربي في الشرق الأوسط رفرف فوق رأفت الغُصين بحياتها القصيرة.. كان بسّام يريد لها أن تحظى بتعليم إنكليزي (ولدت كندة في بريطانيا وهي تحمل جواز سفر بريطانياً) وهو ما زال يشعر بأن الإنكليز يمثّلون شيئاً جوهرياً في العالم .. كان والده فوزي خرّيج معهد باليول أكسفورد، وعمل محامياً في حكومة الانتداب البريطانية في القدس ومستشاراً للسير هربرت صاموئيل المفوّض السامي في فلسطين.. وتُظهر صورة قديمة فوزي الغُصين وصاموئيل يسيران في ممرّ مغطّى بالشجر وهما يتحدّثان في جادّة القدس. ولم يفقد آل الغُصين أبداً إيمانهم بالغرب رغم اضطرارهم إلى الفرار من فلسطين عام ١٩٤٦ للإقامة عدّة سنوات في القاهرة. وقد حصل بسّام على منحة دراسيّة في أميركا من قِبل زوجين لاحظا اهتمامه بتصميم الطائرات. وتخرّج بشهادة هندسة كيميائية في معهد دروكسل للتكنولوجيا في فيلادلفيا. وبدأ العمل عام ١٩٥٧ في شركة النفط الوطنية البريطانية في الكويت التي كان يُشرف عليها الإنكليز... يقول بسّام: «كانت عائلتي معجبة دائماً بالإنكليز»... قلّما تعرّضت عائلة للخيانة بقسوة من قِبل المجتمع والثقافة اللذين وضعت ثقتها فيهما كما جرى لآل الغُصين.

تعرّف بسّام على زوجته سنيّة، وهي نصف لبنانية ونصف تركية ـ ابنة مدير بنك في بيروت ـ عام ١٩٦٣ لكنهما غادرا إلى الكويت عام ١٩٦٧ خلال الحرب العربية الإسرائيلية، ثم انتقلا إلى الجزائر حيث تسلّم بسّام عملاً في شركة صناعة النفط. ولِدت رأفت على يد طبيب فرنسي، وكان وزنها ٣,٨ كلغ. وعندما بلغت خمسة أشهر انتقلت العائلة إلى ليبيا حيث تسلّم بسّام عملاً في شركة إيسّسو ESSO. . . ومن ثمّ في شركة الغرب الأميركي.. وذلك قبل ١٥ شهراً فقط من ثورة القذّافي..

عاد بسّام بالذاكرة: «كنّا نأخذ رأفت معنا في رحلات ونزور بعض المدن الرومانية، مثل «لبتيس مانيا» و«سابراثا». كانت هناك حفلات وسباحة كل أسبوع. كان عمر رأفت ٤ سنوات عندما التحقت بمدرسة الليسيه الفرنسية في

طرابلس وكانت طفلة جميلة جداً. كانت تحبّ لعب البيوت وتضع العائلة بأكملها في بيت واحد. كانت تريد دائماً أن نبقى مجتمعين»....

رأفت ـ فافو: اسم التدليل العائلي ـ كانت تتكلّم الفرنسية بطلاقة وقد التحقت بالمدرسة الأميركية في طرابلس في سنّ الثانية عشرة. «بقيت هناك سنتين وتركت بسبب ضعف مستوى التعليم. بعدها أرسلناها إلى معهد ماري ماونت في كنغستون».. عندها أخرج بسّام من ملفّه مجموعة من التقارير المدرسيّة.

وِلدت كِندة، شقيقة رأفت منذ ثلاث سنوات في ١ كانون الثاني/يناير ١٩٧٩. وفي سنّ الخامسة عشرة شعرت رأفت بالوحدة في المدرسة الداخلية بعيداً عن والديها وأختها الصغيرة. تعبت نتيجة الحنين إلى الأهل وبسبب المستوى الدراسي المتقدّم.... وطلبت العودة إلى ليبيا، إلى فيلّا العائلة غير البعيدة عن الشاطئ، إلى المنزل حيث تستطيع العيش مع كل أفراد العائلة. وقد أشارت أستاذة الفلسفة ببرود إلى أنها: «شخصية محبّبة» لكنها غير منضبطة ولا تعمل. وكانت هناك شكاوى من رأفت في مادّة الرياضيّات حول عدم استخدامها لقدراتها.. بينما صرّحت مدرّسة الموسيقى بأن رأفت تستطيع أن تصبح عضواً ممتازاً في جوقة المدرسة لولا حبّها للكلام والمرح. لكنها كانت ممتازة في مادّة الرسم، وكتب أستاذ الرسم ماك فارلند عام ١٩٨٤ أن «رأفت عملت بجدّ هذا الفصل وهو مسرور من تقدّمها».

وكانت رأفت تشعر بالحزن بعد كتابة رسالة مؤلمة باللغة الإنكليزية يوم ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨١ موجّهة إلى الله وعنوانها ثلاث كلمات: «رجاءً، رجاء، رجاء». «حبيبي اللّه، أحبّك كثيراً. ربّي لديّ بعض الأمور أودّ سؤالك عنها ومعرفة ما إذا كنت ستساعدني. أوّلاً، أن تهبنا حياة مديدة تصل إلى (٢٠٠ سنة) وأنت تعلم ما أعني، أنا وعائلتي وأصدقائي. ثانياً: اشملنا برحمتك وساعدنا على الحياة.

ثالثاً: رجاءً دع أهلي يغادروا ليبيا يوم الجمعة ٢٧ أو حتى الثلاثاء أو الأربعاء لكن ليكن ذلك بعد عطلة الأسبوع.

رابعاً: رجاءً ألف مرّة لتكنْ هذه السنة الأخيرة لي في ماري ماونت أو حتى إذا أمكن نصف سنة... لا تفرّق عائلتنا الصغيرة في ليبيا. دع الأوضاع في ليبيا تدفعهم إلى الرحيل في كانون الثاني/يناير واطلب منهم إخراجي من ماري ماونت بالرغم من كونها مدرسة رائعة، لكنني أحن إلى البيت كثيراً. دعني أذهب إلى مدرسة نهاريّة هذه السنة... رجاءً... أو يَسّرْ لأهلي المجيء للعيش هنا» ...

لم تكن إشارة رأفت إلى «الأوضاع» في ليبيا عن عبث. كانت ليبيا العدوّ المعلن لإسرائيل وأميركا ومتّهمة «بالإرهاب الدولي» من قِبل أميركا وبريطانيا. اتّهم الإنكليز القذّافي بدعم الجيش الجمهوري الإيرلندي IRA ـ وإرسال حمولة سفينة من الأسلحة إلى إيرلندا ـ وفي عام ١٩٨٤ قُتلت شرطية بريطانية على يد دبلوماسي ليبي خارج سفارة بلاده في لندن، وكان القذّافي قد أرسل قتلة مأجورين للقضاء على مناوئيه المحلّيين في الخارج. كانت ليبيا منبوذة من قِبل الغرب، ورغم ذلك، فكّرت رأفت الغُصَين ـ العارفة بمكان مولد والدها وروايات جدّها عن الحياة في القدس ـ ببلد لم يعد موجوداً يبعد ١٣٠٠ ميل إلى الشرق من ليبيا.

كتبت رأفت في رسالتها إلى الله: «أرجع لنا أرضنا المقدّسة فلسطين قريباً واجعل كلّ عائلتي تتمتّع بذلك وبالعيش هناك لفترة طويلة.. وإذا أمكن فليكن ذلك في العام القادم». ونتيجة شعورها بالغضب جرّاء مجزرة صبرا وشاتيلا، انضمت في عام ١٩٨٢ إلى تظاهرة احتجاج سلميّة في لندن... وأظهرت صورة غير واضحة رأفت بمعطفها الشتوي في نايتس بريدج يرفرف فوق رأسها علم فلسطين بألوانه البيضاء والحمراء والخضراء والسوداء. ويذكر بسّام: «شاركت في عدّة تظاهرات، كلّها سلمية، وكانت تعود من كلّ منها مبلّلة بالمطر». وفي آخر مذكّراتها في مجلّة مدرسة ماري ماونت عام ١٩٨٥ كتبت أنها «تريد أن تقول جملة أخيرة وهي أن يعمّ السلام والأمل فلسطين، موطنها. واعترف بسّام أن رأفت وجدت الحياة صعبة جدّاً «لم تكن ترغب في الابتعاد عنا. كانت تبكي

كثيراً. لكن لم تكن لديها فرصة للدراسة في ليبيا. أصيبت بأمراض في المعدة في لندن، وكانت لأسباب نفسيّة. عانت كثيراً من ارتفاع الحرارة».. لكنّ رأفت ما لبثت أن تخطّت مرض الحنين إلى الأهل بعد أربع سنوات وكسبت ميدالية ذهبية في الرسم والدراما. ويُظهر شريط تخرّجها عام ١٩٨٥ فخرها بالتغلّب على الوحدة وقلقها من القيام بالعمل في مدرسة هيثرلي للفنون الجميلة في لندن. وفي كانون الأول/ديسمبر من العام نفسه، جاء أهلها إلى لندن وكان آخر عيد ميلاد لرأفت. وتذكر والدتها سنية: «ذهبنا تلك الليلة إلى سان لورانزو في شارع بوشون.. ولكن بسبب صغر سنّ كندة طلبت رأفت البقاء مع شقيقتها في المنزل. بدا ذلك الميلاد مميّزاً جدّاً بالنسبة إليها». بعد شهر تقريباً كتبت رأفت في مذكّراتها يوم ٨ شباط/فبراير ١٩٨٦: «تبدّلت حياتي، أنا بطيئة في معرفة نفسي، أشعر بالراحة أخيراً لمعرفة نفسي على حقيقتها. الحرّية!».

لم يكن لبسّام الغُصين أي دور في عالم السياسة، لكنّ مجموعته من قُصاصات الصحف تُظهر مدى الأزمة المتفاقمة حول ليبيا. لقد اتُّهم القذّافي بالتخطيط لتفجير طائرة ركاب TWA فوق اليونان. وأعلنت إدارة الرئيس ريغان أن لديها دليلاً دامغاً على أن السفارة الليبية خططت لتفجير نادي برلين الليلي يوم ٥ نيسان/أبريل ١٩٨٦ حيث قُتل جندي أميركي وامرأة تركية.

ناقشت الشرطة لاحقاً في برلين طبيعة هذا الدليل وأشار بعض الصحفيين الغربيين إلى أن سوريا وليس ليبيا يمكن أن تكون وراء التفجير.. لكن في ذلك الوقت كان ريغان في الخليج يصف القذّافي بأنه «الكلب المجنون للشرق الأوسط» ويتوعّد بردّ غير محدّد.

قال بسّام: «فكّرنا في كل ما كان يعنيه ذلك وأنّ من المحتمل حصول هجوم.. لكننا اعتقدنا أن الأميركيين سوف يقصفون الأهداف العسكرية. لم نفكّر أبداً في أنهم سيقصفون المدنيين. كان فناء المنزل مرتبطاً بالسفارة الفرنسية». كانت رأفت على وشك العودة إلى البيت في عطلة عيد الفصح من معهد الفنون الجميلة، وأرسلت من لندن بطاقة بريدية مؤثرة، مليئة بالمرح

والنضج والمحبّة ـ وقد زيّنتها برسم فرنسي لقبّعة سيّدة فرنسية ـ وكانت تلك آخر رسالة كتبتها لأهلها:

«والديَّ الحبيبين، إني أرسل هذه البطاقة لأن فيها لمسة نوعية مثلكما! أفتقدكما كثيراً! لا أستطيع الانتظار وقريباً سأكون معكما! كيف حال شقيقتي الصغيرة؟ بلّغاها حبّي وقُبلاتي وأخبراها أنني أفتقدها كثيراً. جيّد، أحبّكم وإلى اللقاء يوم ٢٣ آذار/مارس، بإذن الله ـ اهتمّا بنفسيكما! مع الكثير مِن الحبّ من ابنتكما التي تحبّكما كثيراً».

يُظهر جواز رأفت أنها تركت مركز جوازات مطار غاتويك يوم ٢٣ آذار/مارس بالضبط قبل ٢٢ يوماً من قيام طاقم طائرة F111 الأميركي بقتلها. وصلت إلى طرابلس مع حُمّى هجوم الربيع. وكان من المتوقّع أن تعود رأفت إلى لندن في الأسبوع الثالث من نيسان/أبريل، وكانت في نهاية إجازتها يوم ١٣ نيسان/أبريل تمضي الليلة في بيت عائلة غندور وهم أصدقاء من لبنان منذ فترة طويلة. في هذه الأثناء وصلت تقارير حول احتمال حصول قصف جوّي أميركي على مراكز قيادة القذّافي في طرابلس ومكاتب الاستخبارات الليبية. وتجمّع رجال الصحافة الغربية وأنا من ضمنهم في الفندق الكبير في المدينة ولاحظنا الرحيل السريع لمدمّرة روسيّة من المياه الإقليمية الليبية صباح ١٤ نيسان/أبريل. يقول معتصم غندور: «كانت رأفت في لباس النوم على الإفطار عند الصباح، وتحدّثنا عن غارة جوّية محتملة وما هي أهدافها، وعن احتمال قصفهم المدنيين».

«شعرتُ بأنّ أحداً من الأقارب سوف يُقتل، وكانت مقتنعة كلّياً بحصول غارة. حاولت أن أتحدّث معها في السياسة لكنّها ظلّت تدور وتدور حول النقطة نفسها وتتحدّث عن الطائرات القادمة. وظلّت تتحدّث طيلة ثلاث ساعات. أعتقد أنها بطريقة ما عرفت أنها ستموت».

ليلة ١٤ نيسان/أبريل ارتفعت حرارة رأفت، وقامت سنية باستدعاء الطبيب. وتذكر والدتها: «لقد طلب منها الطبيب النوم جيّداً وأن تتناول دواء مضاداً للهستامين ودواء آخر للأنف. أجابت فوراً بأنها تشعر بتحسّن وتحدّثنا عن معهد

الفنون وقالت إنها سعيدة كونها حافظت على نفسها للرجل الذي ستتزوّجه يوماً ما. كانت تبدو جميلة جدّاً مثل فتاة تقف على المسرح. دخل بسّام وكندة. تناولنا طعاماً خفيفاً مؤلّفاً من الجبنة والبندورة وطبق من الحلوى أعدّته زوجة السفير السوري. تركنا رأفت نائمة في غرفة التلفزيون لأن هناك آلة ضبط اللقاح. وذهبتُ للنوم في غرفة البنات ونامت كندة قرب والدها»... في اللحظة التي توجّهت فيها عائلة الغُصين إلى النوم كانت ٢٤ طائرة F111 من الفرقة ٤٨ الجوّية الأميركية تنطلق من قاعدة لاكنهيث الملكية البريطانية نحو ليبيا. كان النقيب فرناندو ريباس دومينيشي من بورتو ريكو وزميله بول لورنس من سان فرنسيسكو على متن إحدى الطائرات المهاجمة. وكانت الساعة تشير إلى الثانية صباحاً عندما استيقظت سنيّة منتفضة. «كان هناك ضجيج هائل فخرجت من سريري وصرخت: استيقظ يا بسّام، الأميركيون هنا.. ونظرت إلى غرفة التلفزيون ورأيت رأفت نائمة بهدوء وفكّرت في عدم إيقاظها ثم عدت إلى سريري». استيقظ بسّام مجدّداً بعد لحظات. قال: «سمعت صوت المضادّات الأرضيّة والأمر التالي الذي شعرت به أن قدميّ كانتا تحت الحجارة. عجزت عن الحركة، وكانت كندة في السرير إلى جانبي تبكي وفوقها باب. أمسكت بيدها لتهدئتها. لقد حماها الباب عندما سقط السقف». استيقظت سنيّة لتسمع بسّام يصرخ وكأنه في كوكب آخر «كان صوتاً لم أسمعه من قبل. كان يصرخ: يا الله، يا الله، وينادي بأسمائنا. كنت مصدومة من الدخان والغبار، ووقفت في ظلام دامس فلم أستطع رؤية شيء. كنت أسير فوق الزجاج حافية القدمين. وضعت يدي على جدار غرفة النوم ووجدت أن الباب اختفى. سألت بسّام ماذا حصل لكندة. قال: إنني أمسك بها، إنها على قيد الحياة! ذهبت إلى غرفة رأفت وكان الجدار الجانبي منهاراً. ناديتها باسمها عدّة مرّات فلم تجب. انتابني شعور بأن رأفت ماتت. صرخت: بسّام رأفت ماتت. ثم خرجت حافية من المنزل لطلب المساعدة. كانت طرابلس أشبه بمدينة أشباح، وشاهدت كل مياه المدينة تتدفق خارج الأنابيب. نظرت خلفي إلى حُطام منزلي ولم أجد أحداً، كان يبدو وكأنه بهذا الشكل منذ مئات السنين. أخيراً، وجدت شابّاً توجّه معي إلى ما تبقّى من منزلي للمساعدة». وقد دهشت سنيّة ـ وقد ظهر ذلك على

وجهها عندما تذكّرت الوقائع بعد سنوات ـ لكون المنقذ فلسطينياً نجا من مجزرة صبرا وشاتيلا، تلك الجريمة الفظيعة التي أرعبت رأفت في لندن.

تمّ نقل بسّام وكِندة إلى المستشفى نتيجة إصابتهما بجروح خطيرة، ولم تستطع سنيّة تذكّر الساعات التالية سوى أنها أُخذت إلى منزل صديق. لقد دمّرت قنبلة وزنها حوالى ٩٠٧,١٨٤ كلغ منزل جيران آل الغُصين الليبيين فقُتلوا جميعاً (٥ أفراد). وأدّى الإنفجار إلى سقوط الجدار في غرفة التلفزيون على رأفت. وقد وجد صديق العائلة اللبناني معتصم غندور مجموعة من عناصر الدفاع المدني الليبي مع جرّافة في منزل الجيران المدمّر وطلب منهم البحث عن رأفت. كان الوقت منتصف نهار ١٥ نيسان/أبريل ولاحقاً قدّم شهادة قانونية حول ما رأى:

«حاولت الجرّافة رفع سقف المنزل الذي كان فوق الكنبة التي كانت ترقد عليها فافو وعندها فقط برز وجهها للمرّة الأولى. كانت مستلقية على ظهرها ورأسها متّجه نحو اليمين، كانت كاملة، شعرها مرتّب، وخط صغير من الدم ينحدر من أعلى رأسها على خدّها الأيسر. عندما ظهرت، توقّفت الجرّافة واقترب عمّال الإنقاذ منها لمعرفة ما إذا كانت على قيد الحياة. جرى إبعادي حوالي ١٠ أمتار ثم صرخ أحدهم: كلّ نفس ذائقة الموت، وراح يتلو آيات أخرى من القرآن الكريم تتحدّث عن الموت والشهادة. عند ذلك أدركت أن فافو ماتت».... لا تكاد كندة تتذكّر القصف وكانت حينها أصغر من أن تفهم ماذا يعني موت رأفت: «أتذكّر بابا فوقي وحجراً قرب رأسي وأنا أصرخ: أبي، أبي.. كان على ملابس والدي الكثير من الدم. لم أستطع تحريك قدميّ». كان بسّام مضطرباً. في الساعات اللاحقة، سمع الصحفيين يقولون إن منزله قُصف بقنبلة أميركية وليس بصاروخ ليبيّ مضادّ للطائرات. قامت الولايات المتّحدة بتكذيب مقتل ٣٠ مدنياً على الأقلّ في الغارة على طرابلس واعتبرته ضرراً جانبياً وأضافت ـ بعبارات البنتاغون ـ أن واحدة إلى اثنتيْن في المئة من القنابل أصابت المناطق المدنية. وقد أصيب مكتب أمن لا يبعد كثيراً عن بيت آل الغُصين، لكنّ السفارة الفرنسية مُنيت بأضرار جسيمة ودُمّر منزل آل الغُصين

كلّياً. لم تصدر أي عبارة من واشنطن. واعترف مسؤول أميركي أن القذّافي كان أحد أهداف عملية ألدورادو كانيون ـ الغارة التي قُتلت فيها أيضاً ابنة القذّافي المتبنّاة ـ وصرّح تقرير البنتاغون أنه من حيث عمل الطائرات كانت الضربة ناجحة... وأبلغ مسؤول في البنتاغون صحيفة الواشنطن بوست أن طائرات F 111 أقلعت من بريطانيا وقامت بالغارة لأن طيّاريها «رغبوا في بعض النشاط». ربّما كان ذلك صحيحاً.... وفي وقت لاحق أبلغ أحد الطيّارين صحيفة شيكاغو تريبيون:

«كانت أكبر رعشة في حياتي الاشتراك في هذه العملية، إنها ما تدرّبنا على تنفيذه».

وقد اعترف وزير الدفاع غسبار واينبرغر لاحقاً بأن الأميريكيين قتلوا مدنيين وأن طائرات F111 ضلّت خلال الغارة وربّما ألقت القنابل التي قتلت رأفت الغُصين وجيرانها. وكان النقيب ريباس دومينيشي والنقيب بول لورنس يقودان الطائرة المشؤومة فوق طرابلس، وقد سُمع الأول يصرخ «أُصبت». وسُمع طيّار مجهول آخر يردّ: «آسف على ذلك» وقد تمّ التقاط جثّة ريباس دومينيشي لاحقاً من البحر الأبيض المتوسط على يد الليبيين، وأعيدت إلى أميركا.

ما زال بسّام يحتفظ بملفّ من مقالات الصحف حول الغارة الأميركية. كتبت النيويورك تايمز أنه «حتى المواطن الأكثر جهلاً يمكنه الموافقة أو التصفيق للهجمات الأميركية على ليبيا... لقد حاكمت الولايات المتّحدة القذّافي بحرص وبعدل على مراحل»... وصرّح رئيس الوزراء الإسرائيلي شيمون بيريز بأن الولايات المتّحدة انتقمت لمقتل ٢٤١ جندياً أميركياً في بيروت قضوا في عملية انتحارية قبل ثلاث سنوات. لكن ليس للقذّافي أي علاقة بذلك القتل الجماعي وكذلك صدّام حسين بالنسبة إلى المجزرة الجماعية يوم ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. وتضمّن ملفّ بسّام الغصين صفحة من مجلّة التايم اللندنية بعنوان: «دمّرت الغارة مركزاً إرهابياً لغاز الأعصاب». وتحت العنوان، تقول السطور: «من روبرت فيسك، طرابلس». لكن لم يتضمّن تقريري كلمة «إرهابي» التي

وردت في العنوان... بعد ذلك بسنتين منعت التايمز نشر تقريري حول طائرة الإيرباص الإيرانية.... لكنّ بسّام الغصين لم يكن متسامحاً: «هذا يعطي انطباعاً أننا إرهابيون، وأن رأفت كانت إرهابية».

في مراسم الدفن الجماعي، لاحظت تابوت رأفت وعليه ـ كأنّي في لبنان ـ العلمان اللبناني والفلسطيني. كانت فكرة والدتها سنّية. لم أعرف شيئاً عن العائلة لكنني وجدت والدة رأفت مصدومة وجريحة الفؤاد. قالت لي: «نحن مسلمون، لكنّ إلهنا واحد. نحن شعب واحد. أتمنّى أن يفهم ريغان ذلك». تمّ وضع حجر فوق قبر رأفت كُتبت عليه آية قرانية: ﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ﴾ [آل عمران/ ٣].

رغبت سنيّة في وضع كلّ الأعلام العربية على نعوش الذين قتلتهم الغارة الأميركية: «لأنه خطأهم، لأنهم لم يتّحدوا ولأنه نتيجة لذلك قُتلت رأفت من قِبل العالم العربي». بعد سنة، كتبت كندة ابنة الثماني سنوات إلى شقيقتها الراحلة: «حبيبتي فافو، سوف أراك يوماً ما، إنني أفتقدك كثيراً. أتمنّى أن أكون معك، عندما رحلت تغيّر كلّ شيء وأصبح أسوأ. إنني أصيح بأمي وأبي.. أرجوك عودي يوماً ما وسأذهب معك. عودي وخذيني ذات ليلة لأراك ثم أعيديني، إنني أرغب في رؤيتك. أختك كِندة».

رفض بسّام زيارة ضريح ابنته. وفي عام ١٩٩٤ استقال من الشركة الوطنية للنفط الليبية وعاد إلى بيروت مع عائلته تاركاً رفات رأفت وراءه في طرابلس.

بعد سنوات، صرّح: «وما تدري نفسٌ بأيّ أرض تموت. وهذه آية من القرآن. لا أؤمن بزيارة القبور، ولكنني مؤمن قويّ الإيمان، وأعتقد أننا في يوم ما سنلتقي الشخص الذي نحبّ. زيارة القبور تعني أننا مسجونون داخل الجسد وهذا خطأ». أما سنيّة فليست متشدّدة: «أرادت رأفت أن تكون معنا دائماً. وأشعر أحياناً أنه يجب بقاء عظامنا معاً بعد الموت». بعد ١٩ سنة وفي زيارة إلى ليبيا عام ٢٠٠٥، زار بسّام المقبرة حيث دُفنت ابنته وبكى على القبر.

لكنّ غضب بسّام لم يمت أبداً، على الأقلّ لشدّة ما عانت كِندة لفراق

شقيقتها. فهي ما زالت تشعر بألم في قدميْها بسبب الإصابة في عمودها الفقري، وأدركت أن شقيقتها رأفت ماتت. وبعد ٩ سنوات، عندما زارت قبر رأفت عام ١٩٩٥، قالت:

«عليّ العيش بدونها، بدون أن تكون لي أخت كبيرة. لديّ العديد من الأصدقاء وهم يسألونني أحياناً ما هو شعوري وأنا طفلة وحيدة، وأجيبهم أحياناً فأروي لهم كيف ماتت فافو في الغارة الجوّية»... اليوم، أصبحت كِندة سيّدة شابّة جميلة مرموقة عمرها ٢٦ سنة تعمل مدرّسة في قسم الدراسات التعليمية في المدرسة الألمانية في بيروت. وكتب بسّام الذي يؤمن بالقانون كما يؤمن بالعدالة رسالة إلى ابنة الرئيس السابق ريغان باتي، وإلى الرئيس كارتر، وإلى محامين في بريطانيا وأميركا طلباً للتعويض. في الولايات المتّحدة، وُجّه له تحذير بأن أي عمل قانوني للتعويض عن موت رأفت سوف يُنظر إليه في المحاكم على أنه «عمل تخريبي».

قال: «إذا لم نقم بملاحقة الظلم ونجعل العالم يعرف ماذا حصل فإن الظلم ينتصر. أريد أن يعرف العالم ما حلّ بعائلتي... يقول الناس إنها مأساة أن لا يكون لكندة شقيقة كبرى. لكن كان عندها شقيقة... وقد أُخذت منا»...

بين الصور الفوتوغرافية، تحتفظ سنيّة بمجموعة من الأوراق المبعثرة التي وجدتها في ركام الفيلّا. مكتوبة بخط يد رأفت، ويبدو أنها كتبتها كرسالة تعبّر عن خواطرها قبل موتها بأيام. والرسالة هي تعبير عن خوف رأفت وشكّها في العالم وفي أملها بسعادة مستقبلية أيضاً، وهذا دليل متحرّك ومظلم لحياتها:

«الناس وجوه فقط، صور، أقنعة يلبسها كلّ منهم لخداع الآخر... الآن أنا أراقب، أحاول الاستمرار في وسط مجموعة من الممثّلين الذين يحاولون التمثيل كما لو أنهم فهموا كلّ شي، لكنهم في الواقع لم يفهموا شيئاً. أتمنّى يوماً ما أن أجد دفق النور، ذلك الاندفاع للحياة الذي سيرفع روحي عالياً ويدعني أذهب حرّة، حرّة، حرّة، إلى الأبدية».

وفي آخر الرسالة، رسمت رأفت جناحيْن لأربع حمامات بيضاء كبيرة.

سبق السيف العذل

كم بدا صغيراً في الكرسيّ العالي الأسود. كان عليك أن تجلس في قاعة المستمعين في الجمعية العامّة للأمم المتّحدة لتدرك كم أنّ جورج بوش الإبن (وهو يهدّد بالحرب في المكان الذي شُيّد ليكون بيت السلام) يمكن أن يبدو رجلاً قصيراً... ولكن ألم يكن يوليوس قيصر قصيراً أيضاً؟ وكذلك كان نابوليون بونابرت! وغيرهم الكثير من زعماء معاصرين أقلّ شهرة. ولعلّ الجنرال دوغلاس ماك آرثر كان كذلك أيضاً وهو الذي كان عنده محور شرّ خاصّ به دفعه إلى التوجّه بعيداً جدّاً، أي إلى نهر يالو، لمحاربته... لكن يوم ١٢ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٢ وبعد تلاوة ثُلثي خطاب جورج بوش الإبن الذي كان يعلن الحرب نظرياً على العراق... بدرت منه إشارة خطيرة حول نيّته بالفعل إرسال دبّاباته عبر نهر دجلة. فهو صرّح في الجمعية العامّة أن «الولايات المتّحدة ليست في حالة خلاف مع الشعب العراقي». وداخل قاعة الصحافة لم ينبس أيّ منّا ببنت شفة.. وفي القاعة تحتنا لم يتحرّك أيّ ديبلوماسي من مقعده.. كانت قد مضت عشرون دقيقة على الخطاب وهو يتثنّى ويتلوّى على نحو مفكّك وغير مترابط.. في حين أنّ الذين كتبوا الخطاب كانوا يعرفون حين جمعوا أطرافه إلى أين يُفضي ذلك...

قبل قصف الرئيس ريغان لليبيا عام ١٩٨٦، أعلن أن «أميركا ليست على خلاف مع الشعب الليبي»... وقبل أن يقصف العراق عام ١٩٩١ أعلن الرئيس بوش الأب للعالم أنّ «الولايات المتّحدة ليست على خلاف مع الشعب

العراقي». وعام ٢٠٠١، صرّح بوش الإبن بينما كان يستعدّ لضرب الطالبان والقاعدة أنه «ليس على خلاف مع الشعب الأفغاني». واليوم فإنّ هذه العبارات السحريّة المخيفة تتكرّر. ليس هناك خلاف. قال السيد بوش ليس هناك خلاف على الإطلاق مع الشعب العراقي. لذلك أدركت بينما كنت أدوّن ملاحظاتي في المكتب الصحفي للأمم المتحدة: أنها السترات الواقية...

ربّما كان هنا هو المكان الصحيح لمعرفة إلى أيّ مدى قد يأخذنا الوسواس العراقي لإدارة بوش. التجهيزات الرخاميّة الخضراء، والجدران الموشّاة بغشاء أسود من الذهب المحروق، ورمز ذلك العالم الخطر الذي كانت تغطّيه أغصان الزيتون الخاصّة بعلم الأمم المتحدة، كلّ ذلك أعطى السيّد بوش هيئة إمبراطور، وإن يكن صغيراً.. إن التلفزيون يسطّح الوجوه ويعطيك انطباعاً خاطئاً بأنك تعرف معرفة حميمة التعابير التي عليك أن تتفحّصها... أما في الواقع الملموس، فإنّ بوش لا يملك شيئاً من تلك الاستقامة المثالية والرفيعة المستوى والملمّعة التي ظنّ أنه أظهرها على شاشات التلفزيون. لقد راقبت الطريقة الغاضبة والعدوانية التي تحدّث بها. «إنّ شعب» ، وهنا نظر إلى يمينه بعين ضيّقة مدقّقة، «الولايات المتّحدة»، ونظر شمالاً الآن، «الأميركية»... كان هناك ملقنّان في الأمم المتحدة، واحد على يسار المتحدّث وآخر على يمينه. لكنّ بوش نظر إلى الأمام بعينين واسعتين متحدّيتين شبه يائستين، تمتزج فيهما البراءة والعجرفة. قال لنا إنّ أميركا أحيت البارحة فقط ذكرى الهجوم الذي أصاب بلاده بالحزن الشديد. لكنّه لم يتطرّق إلى موضوع أُسامة بن لادن. إنّ صدّام حسين هو الذي كان علينا التعرّف عليه... وقد استخدم بوش اسم صدّام ثماني مرّات في خطابه وأشار خمس عشرة مرّة إلى النظام العراقي.

من خلال كشفه لهذا القناع من الدموع الأميركية الذي خلّفه قتلةُ بن لادن، كان واضحاً أن خطط بوش للشرق الأوسط كانت أبعد من مجرّد إسقاط صدّام الذي كان في يوم من الأيام صديقاً لأميركا في الخليج. يجب أن تكون هناك أفغانستان ديمقراطية، عندها أومأ حامد كرزاي برأسه موافقاً من بين طُغاة الجمعيّة العامّة... ويجب أن تكون هناك ديمقراطية في فلسطين، الأمر الذي

سيقود إلى إصلاحات في جميع أنحاء العالم الإسلامي. إصلاحات! في السعودية؟ في الأردنّ؟ في إيران؟ لكن لم يقل لنا أحد ذلك. كان موضوع بوش حول الشرّ الصدّامي مألوفاً بالطبع ومرفقاً بالتحذيرات المعتادة والبنود المشروطة والتحريفات التاريخية. كنّا نعرف جميعاً أنّ صدّام طاغية، دموي وقاسٍ.. عرفنا ذلك عندما كان صديقنا.. لكنّ بوش أصرّ على تذكيرنا بذلك. لقد خرق صدّام مراراً قرارات مجلس الأمن الدولي.. ولا يتمّ التطرّق هنا بالتأكيد إلى خرق إسرائيل للقرارين ٢٤٢ و٣٣٨ اللذين يطالبان بإنهاء احتلال أرض فلسطين.

تحدّث بوش عن عشرات الآلاف من معارضي صدّام حسين الذين سُجنوا أو اعتُقلوا أو أُعدموا عشوائياً، وكلّ هذه الفظائع أُخفيت عن العالم من قِبل رجال نظام دكتاتوري... لكن ليس هناك أدنى إشارة إلى أنّ عمليّات الضرب والحرق والصدمات الكهربائية والتشويه والاغتصاب حصلت أساساً عندما كانت لدى أميركا علاقات جيّدة مع العراق، أي قبل ١٩٩٠، وعندما كان البنتاغون يقدّم معلومات إلى مخابرات صدّام لمساعدته على قتل أكبر عدد من الإيرانيين. إنّ أحد أكثر مظاهر خطاب بوش دلالة هو أنّ كلّ الذنوب التي اتّهم بها العراقيين تحديداً، وقسم كبير منها صحيح، قد بدأت في السنة البالغة الأهمّية ١٩٩١... ليست هناك أيّ إشارة إلى خرق صدّام لقرارات الأمم المتحدة عندما كان يتلقّى الدعم من أميركا. كانت هناك إشارة طفيفة من قِبل بوش إلى الهجمات الكيميائية ضدّ إيران مع الإشارة إلى أنّ إيران أصبحت الآن جزءاً من «محور الشرّ». ثم كانت هناك المشاكل المتعلّقة باللغة وقواعدها، أي تلك الخدع السهلة المتناول والتي يستخدمها المؤرّخون عندما لا يجدون الدليل على أن ريتشارد الثالث قد قتل فعلاً الأمراء في البرج.. فلو لم تندلع الحرب في الخليج عام ١٩٩١، لكان العراق على وشك امتلاك سلاح نوويّ في عام ١٩٩٣.. ثمّ إنّ العراق يمتلك المقوّمات المادّية التي يحتاج إليها لصنع سلاح نوويّ.... ولكن ذلك لا يعني أنه يقوم بصنعه. إن جُملة «يسعى العراق للحصول على المادّة القابلة للانشطار الذرّي»، لا تعني أن العراق حصل عليها. وكما قيل لنا، فإن تشجيع العراق للعلماء النوويّين لا يترك مجالاً للشكّ حول تطلّعه إلى

امتلاك أسلحة نوويّة، ولكن ليس على أنّه حصل عليها. هل هذا هو الدليل المتوفّر لذهاب أميركا إلى الحرب؟

تستطيع الأمم المتحدة الموافقة على القرار أو رفضه، الانضمام إلى أميركا في الحرب أو الانتهاء مثل ذلك الحمار القديم، عُصبة الأمم. هذا هو الخطاب الذي وجّهه الإمبراطور إلى المندوبين الجالسين أمامه. وأشار بوش إلى الأمم المتحدة واصفاً إيّاها بالدكّان المتكلّم دون الإشارة إلى أن أميركا رفضت الانضمام إليها(*).

لكن كان واضحاً كيف كان يريد تسويق الحرب على خلفية ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ . قال: «يكمن خوفنا الكبير في إيجاد الإرهابيين طريقاً أقصر لطموحاتهم عندما يقوم نظام خارج على القانون بتزويدهم بالتقنية اللازمة للقتل على نطاق واسع». وهكذا حصلنا على الجواب... تساوى أُسامة بن لادن مع صدّام حسين.. ومَن بعد؟ ربّما سوريا وإيران ودول أخرى أيضاً.

إذا كان إنتاج القاعدة السينمائي قد تغلّب على إنتاج هوليود في ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، فإن إنتاج بوش الآن هو الأفضل بتحويله أُسامة بن لادن إلى صدّام حسين وخاطفي القاعدة السعوديين القتلة إلى عراقيين. وكما أشار أحد محرّري الزوايا بعد غزو العراق، لم تعد نيويورك أو لوس أنجلوس هي مركز الإبداع الأميركي، الذي انتقل في الوقت الحالي إلى واشنطن: «حيث تشهد الساحة مزيداً من الخيال يومياً».. مَن كان يعتقد منذ عام أنّ علينا أن نكره صدّام حسين الحليف عوضاً عن أسامة بن لادن الملتحي؟ وبحسب العادة،

(*) كان الرئيس وودرو ويلسون، الذي طالب بنظام عالمي جديد بعد حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، أحد الذين أسّسوا عُصبة الأمم التي وافقت على نشوء بولّندا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفيا وأوروبا وشرق أوسط جديد. ويعود الفضل في إنشاء دولة العراق الحديثة إلى عُصبة الأمم. لكن بعد إصابة ويلسون بالمرض ورفض الكونغرس الأميركي الانضمام إلى المنظمة الدولية تحوّلت الولايات المتحدة نحو العزلة. ولكنّ القوّة العظمى المستقبلية، التي كان نفوذها مفيداً من أجل السلام العالمي، وقوّتها العسكرية والاقتصادية المتنامية كافية لكي تفرض على هتلر مراجعة خططه، أدارت ظهرها للعُصبة. وكان جورج بوش الابن على الأرجح الرجل غير المناسب لإلقاء محاضرة حول هذا الموضوع.

تغاضت صحيفتي ومراسلو شبكات التلفزيون عن كلّ ذلك. أليست مهمّة المراسلين السؤال لماذا تبدّلت الصورة فجأة؟ متى تمّ التحوّل؟ كذلك تساءلت خلال محاضرة لي في نيويورك ويعود الفضل في الإجابة إلى البروفسور روبرت ألفورد، من مركز مدينة نيويورك للخرّيجين، الذي أنار بصيرتي... حصل ذلك إبّان فضيحة إينرون(*).

لعدّة شهور خلت، لم أكن مقتنعاً بوقوع هذه الحرب وأُدين بذلك لرئيس تحرير الإندبندنت سيمون كلنر الذي قال: «أشكّ في حصول حرب على العراق»، كذلك ولم يكن المحرّر الدولي ليونارد دويل متأكّداً من حصولها. لكن عندما توقّف بوش عن الكلام يوم ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، خرجتُ من الجمعية العامّة للأمم المتحدة واتصلت بلندن قائلاً: «ليونارد، أنا مخطئ، لم أصادف رجلاً بهذه الصراحة من قبل، ستحصل الحرب».

من خلال مراجعة لتلك الشهور الاستثنائية، يتبيّن كم كنّا نعيش في حُلم: بوش وشريكه الجدّي والمطيع طوني بلير وكلّ الآخرين الذين اعتقدوا أن هذا النزاع المقبل جنون... انحدرنا نحو الهاوية بمعرفة ووعي وقلق معتقدين أننا نستطيع الاحتجاج على هذا الجنون (فعلنا ذلك بالعبارات وبالتظاهر) ونحن نراقب، كالمخدّرين أو السائرين نياماً، هؤلاء الناس وهم يقودون بلادنا إلى الحرب. لاحظ هتلر مرّة أنه سار في الطريق الذي أملاه عليه القدر، وفعل صدّام الشيء نفسه.. ولعلّ أُسامة بن لادن كان يفكّر على هذا النحو في قرارة نفسه... ولكن كان بوش وبلير الآن يسيران على ذلك الطريق العبثي الواضح المعالم.

لقد رأينا طبيعة أميركا الجديدة التي كان بوش يغذّيها على أنقاض مركز

(*) أظهرت مجموعة من البيانات التي أرسلها إليّ ألفورد أن موضوع العراق بدأ يتصاعد في الإعلام بينما تضاءلت قصّة بن لادن تفجّرت فضيحة إينرون . بالعودة إلى كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، كان إينرون يتمتّع بـ ١١٣٧ نقطة في النيويورك تايمز والواشنطن بوست ولوس أنجلوس تايمز بينما كان للعراق ٢٠٠ نقطة. وقد تزايدت قصص العراق حوالي مئة مرّة في الربيع بينما انخفضت المواضيع عن إينرون بنسبة ٥٠ في المئة. وبعد انخفاض طفيف في الصيف عادت مواضيع العراق إلى التصاعد ووصلت إلى ١٥٢٩ موضوعاً بينما انخفضت فضيحة إينرون إلى ٣١٠ مواضيع.

التجارة العالمي، رأينا العالم القاسي المتخطّي للقانون والذي كان يطلب أن يتغذّى بدماء وأرواح كلّ الذين ماتوا يوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. . . رأينا السجناء المقيّدين، والمخدّرين المأخوذين إلى زاوية متحرّكة من العالم حيث يمكن أن يُعدموا وحيث جرى تعليق قوانين حقوق الإنسان. مضى وقت طويل قبل أن يلاحظ العالم أن غوانتنامو كانت مرآة للمعاملة التي يقابل بها كلّ طاغية شرق أوسطي مناوئيه. قيود السجون والأصفاد، والتهديد بالموت من قِبل محاكم لا تترك مجالاً للدفاع عن النفس أو البراءة: هكذا يتعامل كلّ بوليس سرّي عربي مع أعداء النظام. هذا ما واجهه الرهائن الغربيون في الثمانينيّات في بيروت.. هذه كانت العدالة التي فرضها القضاة الإيرانيون على أعدائهم... وما سيفعله الثوّار العراقيون مع أسراهم. في هذا السيناريو كان الصحفيون شركاء. ألم ينصح رودجر إيلز، رئيس مجلس إدارة فوكس نيوز، الرئيس بوش شخصياً باتّخاذ أقسى الإجراءات الممكنة ضدّ الذين سبّبوا الأذيّة لأميركا؟

في الأشهر اللاحقة، كان كلّ ما علينا الخوف منه هو هذا الشكل الجديد من العدالة التي تحصل: تعذيب، إذلال جنسي، قتل أثناء التحقيق، اغتصاب، عمليات قتل غير مشروعة يقوم بها الأميركيون والإنكليز وحلفاؤنا المتوحّشون في «الحرب على الإرهاب».. وكلّ الذين كانوا مقتنعين بأن معركة الديمقراطية والتحرّر والحرّية يجب أن تُخاض بكلّ الوسائل، حتى ولو أدّت هذه الوسائل إلى تدمير الحرّية والديمقراطية والتحرّر التي ندّعي الدفاع عنها. وبينما كنّا نستعدّ للمرحلة التالية من الحرب على الإرهاب بغزو العراق كنّا نترك الذكرى الجماعية للخيانة الأفغانية تختفي. حتى إننا تجاهلنا جدّياً الدروس التي كان يمكن أن تعطينا إيّاها أفغانستان ما بعد طالبان. لم نحاول التركيز كثيراً على الطريقة التي عاملنا بها، نحن المنتصرين المحرّرين، هؤلاء الأفغان الذين لم يكن عندنا أيّ خلاف معهم بالطبع.

وصلت الحرب على الإرهاب إلى قرية حاجي برجيت منتصف ليل ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٢. كان حاجي برجيت خان، الملتحي، البالغ من العمر ٨٥ عاماً، رئيس قرية البشتون وزعيم ١٢٠٠ عائلة قبليّة محلّية، مستلقياً على كومة

عشب خارج منزله. وكان فقير محمّدين نائماً بين خرافه ومَعِزه على كومة تراب إلى الجنوب عندما سمع طائرات ضخمة تتحرّك في الجوّ. كان الطقس حارّاً حتى خلال الليل حيث يُمضي القرويون ساعات الظلام خارج بيوتهم، غير أن محمّدين وعائلته كانوا داخل منزلهم الطيني. كانت في حاجي برجيت ١٠٥ عائلات وكانوا جميعاً مستيقظين بسبب هدير محرّكات طائرات الهيلكوبتر وأصوات الأميركيين العالية.

شوهد حاجي برجيت يركض مهرولاً باتجاه مسجد القرية الأبيض وهو مبنى إسمنتيّ فيه مُكبّر واحد للصوت وبعض السجّاد البالي، وشوهد عدّة رجال مسلّحين يركضون خلفه. شاهد حكيم (وهو أحد رُعاة الماشية) الرجال من المروحيّات يطاردون الرجل المسنّ إلى داخل المسجد وسمع زخّات رصاص. قال: «عندما وجده قومنا كان مقتولاً برصاصة في رأسه. كان على الأرض ثقب رصاصة وإلى جانبه بقعة دم جافّة. ووجدنا بعض أجزاء دماغه على الحائط».

كانت الانفجارات الحادّة تدوّي في أنحاء القرية، في الساحات وعلى المداخل. تذكّر محمّدين: «كان الأميركيون يلقون علينا قنابل غاز الأعصاب وقنابل دخانية. كانوا يلقون العشرات منها ويصيحون ويطلقون النار باستمرار. لم نفهم لغتهم، لكن كان معهم مسلّحون أفغان، وجوههم مطليّة بالسواد. قام العديد منهم بتقييد نسائنا وكان الأميركيون يرفعون براقعهنّ للنظر إلى وجوههنّ. حصل كلّ ذلك بينما كانت طفلة صغيرة، قال عبد الستّار إن عمرها ثلاث سنوات، تهرب من منزلها مرعوبة. كان اسمها زرقونة وهي ابنة رجل يُدعى عبد الشكور، وقد شاهدها أحدهم وهي تسقط في بئر القرية البالغ عمقه ١٨ متراً في الجانب الآخر من المسجد. في الليل، غرقت هناك وحدها وتحطّم ظهرها على ما يبدو من السقطة، وقد وجد أطفال آخرون جثّتها عند الصباح. لم يهتم الأميركيون لذلك. ومن خلال وصف آخرين من الوحدات الخاصّة الأفغانية، بدا أنّ بينهم جنوداً من القوّات الخاصّة الأميركية، تلك الوحدات القاسية غير المنضبطة التي فرّت من مقرّ قيادة الشرطة السرّية في كابول. وكان هناك أيضاً ١٥٠ جندياً من الفرقة الجوّية ١٠١ الأميركية المجوقلة التي توجد قاعدتها في

فورت كامبل في كنتاكي. لكنّ فورت كامبل بعيدة جدّاً عن حاجي برجيت الواقعة على مسافة ٨٠ كلم داخل الصحراء جنوبيّ غرب مدينة قندهار. كانت هناك فكرة واحدة تستحوذ على الأميركيين: وجود زعماء من طالبان ومن حركة أُسامة بن لادن في القرية.

وقد أعطى عنصر سابق في وحدة القوّات الخاصّة في التحالف تفسيره الشخصي للتصرّف الأميركي عندما التقيته في قندهار بعد بضعة أيام. قال: «عندما دخلنا القرية شاهدنا فلّاحاً أفغانياً ملتحياً، ويعتقد الأميركيون أنهم عندما يشاهدون شخصاً ملتحياً فهو بن لادن».

أُعطيت أوامر للنساء والأطفال بالتجمّع في طرف قرية حاجي. قال محمّدين: «كانوا يدفعوننا ويخرجوننا بالقوّة من بيوتنا. وكان بعض المسلّحين الأفغان يطلقون النار علينا عشوائياً. طيلة الوقت، كانوا يلقون القنابل اليدوية على منازلنا». قام القلّة من القرويين الذين استطاعوا الفرار بجمع القنابل الغازيّة في اليوم التالي بمساعدة الأطفال. كان هناك العشرات منها، أوعية أسطوانية خضراء صغيرة وعليها أسماء وأرقام مطبوعة على جانبها، إحداها "7Bang Delay 1.5 secs NIC-01/06/07". وأخرى: "secs 1 Bang ,170db Delay" وأخرى "Delay Verzogerung ca. 1,5s. ". كانت هذه القنابل هي التي روّعت زرقونة وأدّت إلى مقتلها. هناك قسم محدّد من أعتدة القوّات الخاصّة الأميركية كان مصنوعاً في ألمانيا في شركة في هامبورغ اسمها Nico-Pyrotechnik ومن هنا وجود تلك الأحرف NIC على العديد من الأسطوانات.. أما db فإنها تعني decibels أي عُشر البل (وهو منسوب لقياس القدرة)... وتُظهر عدّة تواريخ مطبوعة أن القنابل صنعت في آذار/مارس ٢٠٠٢... وتشير الشركة الألمانية إليها رسمياً بقذيفة ٤٠ ملم على ٤٦ ملم صوتيّة وغازيّة... لكنّ الأميركيين كانوا يطلقون الرصاص أيضاً. وقد أصابت عدّة طلقات سيّارة محطّمة ينام فيها قروي آخر، سائق تاكسي يُدعى عبد الله، أصيب إصابة خطرة وكذلك ابن حاجي برجيت خان.

ادّعى متحدّث عسكري أميركي لاحقاً أنّ الجنود تعرّضوا لإطلاق النار في

القرية، وأنهم قتلوا رجلاً واحداً وأصابوا اثنين من الأشخاص المشتبه بأنهم من طالبان أو القاعدة. بدا توريط حاجي برجيت خان البالغ ٨٥ عاماً على أنه مسلّح أمراً سخيفاً جدّاً ومُنافياً للعقل. باختصار، كان الجريحان هما، ابن حاجي برجيت وسائق التاكسي عبد الله. وقد زعمت الولايات المتحدة أنهما عضوان في طالبان أو القاعدة، وكانت الكذبة واضحة بما أنه تمّ إطلاق سراح الاثنين لاحقاً. كان بعض الأفغان المرافقين للأميركيين يطلبون من الأطفال الذين كانوا يبكون السكوت، وقد تذكّر فقير محمّدين ذلك: «طلبوا منا الاستلقاء ووضعوا قيوداً في أيدينا من نوع البلاستيك. كلّما حاولنا تحريك أيدينا ازدادت ضيقاً وإيلاماً. وقاموا بعصب عيوننا ثم أخذوا يدفعوننا نحو الطائرات ويضربوننا بينما كنا نحاول السير». كان مجموع عدد المعتقلين ٥٥ قروياً أخذتهم الطائرات معها معصوبي العيون ومقيّدين. وكان محمّدين بينهم، وكذلك عبد الشكور الذي لم يكن يعرف بعد أن ابنته ماتت في البئر. وكان الأسير الأفغاني البالغ من العمر ٥٦ عاماً والذي أخذه الأميركيون إلى طائرة الهيلكوبتر قد مات: وقرّروا أن يأخذوا معهم جثّة حاجي برجيت الذي مات عن ٨٥ عاماً.

عندما هبطت طائرات الهيلكوبتر في مطار قندهار ـ مقرّ قيادة القوّة الجوّية الأميركية المجوقلة ١٠١ ـ كان القرويون موضوعين، بحسب روايتهم، في حاوية. كانت أقدامهم مقيّدة وكذلك أيديهم، وكانت قدم واحدة لكلّ سجين مربوطة بوتد مثبت بأرض الحاوية وقد وضِعت أكياس سِميكة على وجوههم. كان عبد الستّار من بين الذين خرجوا من السجن الحارّ الصغير. قال: «دخل أميركيّان ومزّقا ملابسي. وعندما فشلوا قاموا بتقطيعها بالمقصّ. أخذوني عارياً لحلاقة لحيتي ولأخذ صورة لي. لماذا حلقوا لحيتي؟ كانت لحيتي موجودة طيلة حياتي». اقتيد محمّدين عارياً من مكان حلاقته إلى خيمة تحقيق حيث أُزيل الغطاء عن وجهه. قال: «كان مترجم أفغاني، رجل من البشتون يتكلّم بلهجة قندهار، مع الجنود الأميركيين في الفرقة، وكان هناك رجال ونساء. أُجلست عارياً أمامهم ويداي مقيّدتان. كان بعضهم واقفاً والبعض الآخر جالساً. ثم سألوني: ماذا تعمل؟ أجبت: راعياً. ولماذا لا تسأل جنودك ماذا كنت أفعل»؟ قالوا: «أبلغنا

بنفسك» ثم سألوني: «أيّ نوع من السلاح تستخدم» أجبتهم أنني لم أستخدم أيّ سلاح. سألني أحدهم: «هل استخدمت سلاحاً إبّان الاحتلال الروسي، في فترة الحرب الأهلية أو فترة طالبان». أجبت أنني كنت لاجئاً لفترة طويلة». وكان من المستحيل معرفة أيّ وحدات أميركية قامت بالتحقيق وفق شهادات القرويين. كان بعض الجنود الأميركيين يعتمرون قبّعات عليها علامات صفراء وبنّية، والبعض الآخر يرتدون ملابس مدنية، وآخرون يعتمرون خُوذاً مغطاة بورق الشجر. وكان المترجم الأفغاني باللباس التقليدي. استمرّ استجواب حكيم لفترة طويلة. وكان مثل محمّدين عارياً أمام المحققين. قال: «كانوا يريدون معرفة سنّي وعملي. قلت عمري ستّون سنة وأنا مزارع. سألوا: من كم غرفة يتألّف منزلك وهل لديك هاتف خليوي؟. أجبت ليس لديّ هاتف أو كهرباء. سألوا: هل هناك طالبان صالحون طالبان أشرار؟. أجبت أن طالبان لم يدخلوا قريتي أبداً وليست لديّ معلومات عنهم. ثم سألوا عن الأميركيين وعن رأيي فيهم. أجبت: سمعت أنهم حرّرونا مع الرئيس حامد كرزاي وساعدونا. لكن لا نعرف ما هي جريمتنا حتى نُعامل بهذا الشكل، وما المفروض أن نقول؟».

بعد ساعات قليلة، ظهر قرويّو حاجي برجيت بملابس صفراء فاتحة وأُخذوا إلى سلسلة أقفاص من الأسلاك موضوعة على رمال القاعدة الجوّية (غوانتنامو مصغّرة) حيث قُدّم لهم خبز، وبسكويت، وأرزّ وحبوب وزجاجات ماء. وقد وضِع الشباب في أقفاص منفصلة عن الأكبر منهم سنّاً. ولم تحصل استجوابات أخرى، لكنّهم ظلّوا في الأقفاص خمسة أيام أخرى. طيلة الوقت، كان الأميركيون يحاولون اكتشاف هويّة الرجل المسنّ (٨٥ عاماً). لم يسألوا المعتقلين (الذين ربّما عرفوه من النظرة الأولى) ولعلّ المحقّقين الأميركيين لم يرغبوا في إطلاعهم على موته. في النهاية، أعطى الأميركيون الصليب الأحمر الدولي صورة لوجه الجثّة، وتمّ إبلاغ المنظّمة فوراً من قِبل مسؤولي قندهار أنّ الرجل المسنّ ربّما كان أهمّ زعيم قبليّ غرب المدينة.

قال محمّدين: «عندما أخرجونا في النهاية من الأقفاص كان هناك خمسة مستشارين أميركيين ينتظرون للتحدّث معنا. استخدموا مترجماً وقالوا لنا إنهم

يطلبون منا قبول اعتذاراتهم لسوء معاملتنا. قالوا إنهم متأسّفون. وماذا نستطيع نحن أن نقول؟ كنّا معتقلين. وقال أحد المستشارين: «سوف نساعدكم». ولكن ماذا كان يعني ذلك». نقل سربٌ من طائرات الهيلكوبتر الخمس والخمسين رجلاً إلى ملعب كرة قدم في قندهار (حيث جرت إعدامات طالبان سابقاً). وكان المحرّرون ما زالوا يرتدون ملابس السجن وبيد كلّ منهم سوار بلاستيك عليه اسمه ورقمه. وكان مكتوباً على كل سوار "Ident -A-Band Bracelet made by Hollister ". عندها فقط عرف الرجال أن حاجي برجيت قُتل الأسبوع الماضي خلال الغارة. وعندها فقط علم عبد الشكور أن ابنته زرقونة توفيت.

صرّح البنتاغون أوّلاً أنه يجد «من الصعوبة الاعتقاد» أن أيدي نساء القرية قد قُيدّت». لكن نظراً إلى وجود وصف مشابه لمعاملة النساء الأفغان إثر القصف الأميركي لحفلة زفاف أورزغان، والتي تلت غارة حاجي برجيت، يبدو أن الأميركيين ـ أو حلفاءهم الأفغان ـ قد فعلوا ذلك تماماً.... زعم متحدّث عسكري أميركي بأن القوّات الأميركية وجدت «معدّات استخباراتيّة قيّمة»، و«أسلحة ومبلغاً ضخماً من المال في القرية». لم يتمّ الكشف أبداً عن ماهيّة المعدّات. وكانت الأسلحة بمعظمها للحماية الشخصية من اللصوص. وبقي مبلغ المال مسألة محيّرة للقرويين. قال عبد الستّار إنه كان معه ١٠ الآف روبية باكستانية أُخذت منه (حوالي ١٦٧ دولاراً). وقال حكيم إنه فقد مدخّراته البالغة ١٥٠ ألف روبية (حوالي ٢٥٠٠ دولار). وقال محمّدين: «عندما أطلق الأميركيون سراحنا أعطوا كل واحد منّا ألفي روبية (حوالي ٤٠ دولاراً) وكنا نريد بقيّة الأموال». لكن كانت هناك مأساة أكبر تواجه الرجال عندما وصلوا إلى حاجي برجيت. ففي غيابهم كانت القرية بدون سلاح لحماية المنازل.. ومع موت كبير القرية وكون العديد من الرجال معتقلين لدى الأميركيين، فقد نزل اللصوص إلى حاجي برجيت. أغارت مجموعة من الرجال، من مقاطعة هلمند (كان قائدهم يوماً ما مجاهداً ومقاتلاً شديداً وشرساً ضدّ الروس) على القرية بعدما أخذ الأميركيون العديد من رجالها بعيداً. وقد فرّت ٩٥ عائلة من أصل ١٠٥ إلى التلال تاركة بيوت الطين للنهب.

كانت الأسئلة المزعجة والمخيفة التي تراود ذهن أيّ قادم عبر الصحراء إلى حاجي برجيت اليوم واضحة. مَن أبلغ الأميركيين للإغارة على القرية؟ مَن قال لهم إن قيادة طالبان والقاعدة كانت هناك؟ واليوم، أصبحت حاجي برجيت مدينة أشباح حقيقية، بعدما هُجرت معظم بيوتها. لكنّ الغارة الأميركية كانت عقيمة. وقد بقي هناك حوالي أربعين قروياً، تجمّعوا عند قبر زرقونة بعد بضعة أيام لإظهار الاحترام لذكرى الطفلة الصغيرة. سأل محمّدين: «نحن فقراء، ماذا نستطيع أن نفعل؟». لم يكن لديّ جواب. إنّ حرب الرئيس بوش على الإرهاب، وصراعه المزعوم: «الخير ضدّ الشرّ»، نزلا على أهالي قرية حاجي برجيت الأبرياء.... والآن أصبحت حاجي برجيت ميتة.

أمضيت فترة من صيف ٢٠٠٢ الشديد الحرارة في أفغانستان، محاولاً تعلّم ماذا يعني «التحرير». إذا كانت تجربة حاجي برجيت نموذجاً (وهي تحوّلت بسرعة إلى ما صارت إليه) فأيّ مصير إذن سيحلّ بشعب العراق في حال قرّرنا تحريره من صدّام حسين؟ وكيف ستكون ردّة فعل العراقيين على مثل هذه المعاملة؟

كنت في الفندق الصغير في قندهار عندما قام رجال القوّات الخاصّة الأميركية باقتحامه ذات يوم. كان أحدهم يرتدي لباساً مموّهاً وقبّعة من العشب على رأسه، وكان آخر بملابس مدنية يرتدي قميصاً وبنطلون جينز. وكانت سيّارتهم الجيب مليئة بالأسلحة. أرادوا معرفة ما إذا كان رجل يُدعى حظرت يُقيم في الفندق. لم يقولوا لماذا أو مَن هو حظرت. قال البوّاب إنه لم يسمع أبداً بهذا الاسم. وما لبث الرجال الخمسة أن غادروا المكان غاضبين وتوجّهوا بسرعة نحو الطريق الرئيسي. سأل البوّاب: «لماذا تحدّثوا معي بهذه الطريقة؟ مَن يظنّون أنفسهم؟ كان الأفضل عدم الردّ».

همهم المسؤول المحلّي في ميواند بعد ساعات قليلة قائلاً: «لن ينتظر الشعب الأفغاني طويلاً المساعدة التي وعِد بها. نعتقد أن الأميركيين يريدون مساعدتنا. وعدونا بالمساعدة. لديهم بعض الوقت لإثبات أنهم يقصدون ذلك. بعدها...» لم يضطرّ إلى قول المزيد. خارج ميواند، في الصحراء الحارّة كالفرن

غرب قندهار حيث هاجمت المراهقةُ الصغيرة مالالي القوّات البريطانية في الحرب الأفغانية الثانية، كان الأميركيون يقومون بالغارات لا المساعدة.

ولكن حتى عندما حاول الجيش الأميركي التحوّل نحو العمل الإنساني، فضّلت المنظّمات غير الحكومية الغربية (المنظّمات غير الحكومية العاملة مع الأمم المتحدة) البقاء بعيدة. وكما أوضح عامل في منظمة غير حكومية بريطانية بصراحة في قندهار: «عندما تكون هناك ردّة فعل عنيفة معادية للأميركيين نريد أن نُفرّق بوضوح بيننا وبينهم». سمعت تلك الجملة طيلة الوقت في أفغانستان. «متى يأتي الردّ العنيف المعادي...»... كان قادماً بالفعل.

كان الأميركيون يتعرّضون للهجمات كلّ ليلة تقريباً. حصلت حوادث تبادل لإطلاق النار في قندهار، وأصيب ضابط أميركي بجروح في عُنقه قرب المطار في منتصف تموز/يوليو ٢٠٠٢. ولم تعد القوّات الأميركية تستطيع الأكل خارجاً في مطاعم قندهار. والآن تتعرّض تلك القوّات في مقاطعة خوست للهجوم. وفي أواخر تموز/يوليو قُتل مساعدان أفغانيان وأُصيب خمسة أميركيين بجروح قرب الحدود الباكستانية.

بالنسبة إلى المنظمات غير الحكومية في كابول، كان الخطر يكمن في المنطقة الرمادية (يقولون إنها منطقة رمادية متعمّدة) التي أنشأها الأميركيون بين العمليات العسكرية والمساعدة الإنسانية. قال البريطاني: «في قندوز، أنشأوا ما يُسمّى بـ «فريق التنسيق الإنساني» الذي قام بإصلاح باحة في مستشفى محلّي وانشغل بإعادة بناء الجسور المهدّمة. كان معهم بعض الرجال باللباس المدني لكنهم كانوا يحملون أسلحة. ناقشنا ذلك معهم لأن الأفغان بدأوا يعتقدون أن منظمة المساعدة التابعة لنا تحمل سلاحاً. وقد أبلغنا الأميركيون أن رجالهم لا يحملون السلاح بشكل علنيّ ولا يرتدون لباساً عسكرياً في الخارج مراعاة لمشاعر الزعماء القبليّين المحلّيين. في النهاية كان علينا جميعاً طرح هذه القضية في واشنطن».

لم يكن من الصعب رؤية المخاطر. في كابول، كان الأميركيون يشرفون على منظمة تُدعى CJCMOTF أي قوّة التحالف المشتركة المدنية ـ العسكرية

لعمليات التدخّل السريع. وكما قال مسؤول أميركي فإنها تضمّ «خبراء في التموين، والنقل، والطبّ، والقانون، والشؤون الهندسية والمدنية»، وكانت متمركزة في كابول، وعلى اتصال يومي بالسفارة الأميركية. كانت مواصفاتهم الشخصية المهنية تشمل «الطبيب، والبيطري، والمحامي، والمهندس المدني، والأستاذ، والإطفائي، والبنّاء، والإداري»... أما تجربتهم العسكرية فكانت تحت عنوان: «عاصفة الصحراء، عملية تأمين الدعم، بنما، هايتي، الصومال، البوسنة، كوسوفو.»... ثم هناك الـ CHLC، مركز الاتصال للائتلاف الإنساني في مزار شريف والذي كان هدفه تأمين التواصل بين «مساعدة الناس والتحالف العسكري»، وكان يقوم: «بتأمين إعادة بناء المؤسّسات العامة، و١٤ مدرسة، ومولّد للمطار ومستوصف بيطري ومكتبة». لكن كانت مهمّاته تتضمّن أيضاً: «معلومات أمنية»، و«قناة اتصال ومعلومات لقادة التحالف، وللسفارة الأميركية ولهيئة المساعدة الأميركية USAID»، وأخيراً، وانتبهوا إلى هذه المهمّة: «مجموعة إمدادات مختلفة ومن ضمنها أسلاك شائكة».... إذاً، في مكان ما، ولسبب ما، صارت عملية إعادة بناء المدارس تختلط بعملية تأمين أسلاك شائكة!!!

أدّى ذلك إلى حالة من الخوف في أوساط هيئات الإغاثة. . . . وأبلغني مسؤول المساعدات الإنسانية الأسترالي في كابول: «لقد منعتُ قوّات التحالف من دخول المبنى ولن نجتمع معهم في العلن. إذا أرادوا الاتصال بنا فإن عليهم أن يرسلوا إليّ بريداً إلكترونيا.. وسوف نجتمع معهم فقط في مكاتب سلطة رسمية معيّنة. أجل، بالطبع نحن قلقون أن يخلط الناس بيننا وبين العسكر. ببساطة، ليست لديهم أيّة فكرة عن كيفية التعامل مع نمط الحياة الاجتماعي والثقافي والسياسي المعقّد هنا».

لم يكن هذا المتكلّم مسؤولاً صغيراً، بل هو مُنسّق غربيّ مسؤول عن ملايين الدولارات من المساعدة الدولية. لقد عرف هو و فريقه مدى غضب الأفغان من الوجود الأميركي المتزايد في بلادهم. وبينما استمرّت واشنطن في دفع الرواتب الخاصّة بأُمراء الحرب المحلّيين، بمن فيهم بعض الذين عارضوا

حامد كرزاي، حصل نوع من الهدنة واستمرّ.. لكنّ الأفغان أبدوا اهتماماً ذكياً بالنشاطات الأميركية في بلدهم وكان غضبهم يزداد فقط من الغارات الجوّية التي تركت مئات من الأفغان الأبرياء قتلى.

بعدما قصف الأميركيون حفلة زفاف في أروزغان يوم ٣٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٢ (وصل عدد القتلى إلى ٥٥ شخصاً) شعر البشتون بالإهانة من روايات شهود أن القوّات الأميركية منعت الناجين من مساعدة الجرحى. وكانوا غاضبين بشكل خاصّ جرّاء تقرير مُفاده أن الأميركيين أخذوا صوراً لأجساد عارية لأفغانيات قتيلات. لم يكن من الصعب تفسير ذلك. فربّما قامت القوّات الأميركية بأخذ صور للقتلى بعد غارة أروزغان لتحقيقها الخاصّ.. وبما أن القنابل مزّقت ثياب الضحايا بشكل عام فإن النساء الأفغانيات القتيلات كن عاريات.. لكنّ الرواية أصبحت أسطورة. أخذ الأميركيون صور نسوة أفغانيات عاريات. وكان من السهل رؤية كيف يمكن أن يتحوّل أصدقاء الأفغان المفترضون إلى أعداء. الآن، استهدفت الهجمات المتزايدة القوّات الأفغانية الموالية للحكومة أو لتجّار المخدّرات المحلّيين الذين كانوا أصدقاء للأميركيين. وكما كانت الهجمات الأولى للمجاهدين ضدّ الروس بعد الغزو السوفياتي عام ١٩٨٠ تهدف إلى التركيز على حلفاء موسكو الأفغان الشيوعيين، كذلك كانت الهجمات الجديدة موجّهة ضدّ حلفاء أميركا من الأفغان. إذا هاجمت أميركا العراق، مَن سيهاجم الثوّار هناك؟

كان لدى رجل من القوّات الخاصّة الأسترالية تصوّراته الخاصّة حول الموضوع. كانت حديقة قندهار التي التقينا فيها مليئة بالنباتات، وكانت الأزهار ذابلة بعد يوم حارّ، والغبار يقحم عيوننا، وأنوفنا، وأفواهنا وأظفارنا. لكن الرسالة كانت صريحة. أبلغني رجل القوّات الخاصّة: «هذه حرب سرّية، وحرب قذرة، لا تعرف ماذا يحصل فيها». وبالطبع، ليس من المفترض أن نعرف. يُفترض بالصحفيين في «حرب ضدّ الإرهاب» التزام الصمت والاعتماد على الرجال الصالحين لإخراج الرجال السيّئين دون القلق كثيراً على حقوق الإنسان.

كم من حقوق الإنسان سمح بها قتلة ١١ أيلول/سبتمبر لضحاياهم؟ أنت إمّا

معنا أو ضدّنا. في أيّ جهة أنت؟ لكنّ الرجل في حديقة قندهار كان قلقاً. كان واحدا في «قوّات التحالف» كما يحبّ الأميركيون تسمية الذين جاؤوا بعدهم إلى المزبلة الأفغانية. تابع: «لا يعرف الأميركيون ما يفعلون هنا الآن. حتى استجواباتهم كانت خاطئة». وبشكل وحشيّ على ما يبدو. ففي الأسابيع الأولى من عام ٢٠٠٢، أغار الأميركيون على قريتين أفغانيتين وقتلوا عشرة رجال شرطة تابعين لحكومة حامد كرزاي المدعومة من الولايات المتحدة وأساءوا معاملة الناجين. وقد كتب المراسلون الأميركيون (في إظهار نادر لشجاعة الفأر رغم الرقابة الذاتية على تقاريرهم) أن المعتقلين قالوا إنهم ضُربوا من قِبل القوّات الأميركية. واستناداً إلى مسؤولين غربيّين في قندهار، فقد «قام الأميركيون بجلدهم بالسياط».

يوم ١٧ آذار/مارس اعتقل الأميركيون ٣٠ مسلّحاً من التحالف الشمالي على الأقلّ في حوزيماتد في مقاطعة قندهار: واستناداً إلى إفادات ١٨ معتقلاً فإن الأميركيين رفضوا الاستماع إلى تفسيراتهم بأنهم حلفاء (اعتقدوا أنهم عناصر من طالبان) وضربوهم وركلوهم وأركعوهم قبل وضعهم في أقفاص لمدّة أربعة أيام. ومن ثمّ تركوهم مع الاعتذار.

الآن تبدّلت الأمور. فقد تركت القوّات الأميركية عمليات الضرب للحلفاء الأفغان، ولا سيّما منهم عناصر ما يسمّى بالقوّات الخاصّة الأفغانية، الرعاع الذين تساندهم واشنطن في مركز تعذيب خاد السابق في كابول. قال الرجل الأسترالي من القوّات الخاصّة: «إن القوّات الخاصّة الأفغانية هي التي تضرب المعتقلين البشتون الآن من أجل معلومات، وليس الأميركيون»... لكنّ المخابرات الأميركية تكون هناك خلال عمليات الضرب.. فالأميركيون مذنبون إذاً لأنهم يسمحون بحصول ذلك».

هكذا تماماً بدأ الأميركيون في فيتنام. كانوا يقومون بعمليات التعذيب النظيفة بحضور مستشاريهم أوّلاً... وكانت هناك بعض «حوادث القتل الكبيرة الضرر».. وبعدها كانت المخابرات الفيتنامية هي التي تقوم بالتعذيب. حصل الشيء نفسه مع الروس. عندما تدفّق جنودهم عبر الحدود عام ١٩٧٩، تركوا بسرعة

لحلفائهم الأفغان من حزب بارشام ومن الشرطة السرّية خاد القيام بالتحقيقات «المهمّة».. وإذا كان هذا وضع الأميركيين في أفغانستان الآن، فماذا يحصل إذاً للمعتقلين في غوانتنامو؟. أو، بالنسبة إلى هذه القضية، في باغرام القاعدة الجوّية شمال كابول حيث يتمّ إرسال كل معتقلي قندهار الآن للتحقيق إذا كان المحققون المحلّيون يعتقدون أن لدى المعتقلين المزيد ممّا يتعيّن عليهم قوله؟... وماذا عن الإصابات المدنية التي يوقعها الأميركيون نتيجة الغارات الجوّية العشوائية المتزايدة؟ إذا كان عدّة مئات من المدنيين يموتون في عمليات القصف هذه في أنحاء أفغانستان، فكم من المدنيين سيموتون في العراق إذا حوّلت واشنطن قوّاتها نحو بلاد ما بين النهرين(*).

(*) تضمّن إحصاء متسامح للقتلى المدنيين في أفغانستان مأخوذ من الصحفيين، وعمّال الإغاثة، والسلطات الحكومية منذ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، التفاصيل التالية: قُتل أربعة موظفين تابعين للأمم المتحدة بصاروخ أُلقيَ على كابول يوم ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١، قُتل ما بين ١٦٠ و٢٠٠ شخص عندما دمّرت القاذفات الأميركية بلدة كرام في ١١ من الشهر نفسه، وسقط أكثر من ١٩٠ قتيلاً عندما قُصف مسجد سلطان بور في جلال أباد مرّتين يوم ١٧ منه، وبين ٤٠ و٤٧ قتيلاً في تارين كوت يوم ١٩ منه، و٦٠ إلى ٧٠ قتيلاً في هرات و٥٠ قتيلاً في قندهار يوم ٢٠ منه، ويوم ٢١ أصابت القنابل خطأً مستشفى من ٣٠٠ سرير في هرات قاتلة حوالي ١٠٠ مدني، وقُتل ٢٠ آخرون (بينهم ٩ أطفال) في اليوم نفسه عندما قُصف جرّار زراعي ومقطورة في تارين كوت. بعد أربع وعشرين ساعة، قُتل ٦١ مدنياً، بينهم فتاة عمرها ثماني سنوات، ومعظمهم في كابول وقندهار. يوم ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر، وخلال قصف الطرق وشاحنات النفط من قِبل القوّات الأميركية أُفيد عن مقتل ١٠٠ مدني. وقتل ٢١ شخصاً على الأقلّ في قصف قرى دارونتا، تورغار، فرمادا يوم ٢٣ منه وحوالي ٥٢ آخرين في اليوم نفسه في قرية شوكر كاريز. يوم ٢٩ منه، قُتل ٢٥ آخرين في كابول. يوم ٥ تشرين الثاني/نوفمبر، قُتل ٣٦ مدنياً في بلدة أوغوبرك قرب مزار من القنابل الأميركية الشاردة. ويوم ١٠ من الشهر نفسه، قُتل ١٢٥ مدنياً في ثلاث قرى قرب قرقديز. يوم ١٧ منه، قُتل ٦٢ شخصاً عندما قُصفت مدرسة دينية في خوست، وفقد ٤٢ بدوياً حياتهم قرب ميواند، وقُتل ٣٠ شخصاً في شاريكار و٢٨ في زاي خل و٣ آخرون في مكان آخر. في اليوم التالي قُتل العديد من الغجر نتيجة القنابل الأميركية في قندهار، وأكثر من ١٥٠ شخصاً في قرى قرب خان أباد و٣٥ في شمشاد و٢٤ في كاريكي خا. يوم ٢٠، قُتل ٤٠ مدنياً عندما قُصفت بيوت الطين بقنابل شاردة قرب كندوز. ويوم ٢٥ قُتل ٢٩ شخصاً من بينهم ١٨ امرأة و٧ أطفال في قصف قندهار، و٧٠ آخرون بالقنابل الإنشطارية في كندوز. يوم ١ كانون الأول/ديسمبر، قُتل حوالي مئة شخص نتيجة ٢٥ قنبلة في قرية كاما عادو. وقُتل حوالي ٣٠ شخصاً عندما ضربت القنابل شاحنات=

بالطبع، كان ممكناً التراجع خطوة إلى الوراء بعيداً عن الحافّة المخيفة لمغامرة أميركا الأفغانية. بعد هزيمة طالبان، أنجز رجال الإغاثة بعض المعجزات. وقدّمت اليونسيف تقريراً يفيد بأن ٤٨٦ معلّمة تعمل في خمس محافظات جنوبية ـ غربية من البلاد مع ١٦٦٧٤ طالباً في المدارس الآن. أما أروزغان التي كان الطالبان هم الأقوى فيها، فلم تُستخدم أيّة معلّمة. ويستطيع موظّفو الأمم المتحدة التأكيد أنه جرى الآن تقريباً القضاء على مرض السلّ في محافظات حزام البؤس. لكنّ الأمم المتحدة كانت تحارب المرض قبل سقوط طالبان.. وقد عادت الآن إلى الأسواق تجارة المخدّرات التي كانت طالبان منعت إنتاجها. وعادت حقول الخشخاش تنمو مجدّداً في محافظة هلمند... وفي

= وباصات خارج قندهار في اليوم نفسه. وقُتل ٢٠ آخرون في شارع آغام و١٥ في سيّارات لاجئين في أرحيسان وأكثر من ثلاثين قرب هرات. وفي اليوم التالي مات ١٥٠ مدنياً في جميع أنحاء أفغانستان. وفي الأسبوع نفسه قُتل ٣٠٠ قروي خلال هجوم في طورا بورا. وقد أدّت معلومات استخباراتية خاطئة حول قاعدة لطالبان إلى قصف الأميركيين ماشيخال في باكتيا وقتل عشرة في مسجد المدينة. يوم ٢٠ كانون الأول/ديسمبر، ضربت طائرات USAC-130 برشّاشاتها قافلة اعتقدت أنها لطالبان لكنّها كانت تضمّ عدداً من كبار رجال القبائل في طريقهم إلى احتفال تنصيب حامد كرزاي ـ مما أدّى إلى مقتل ٦٥ شخصاً، وفي الليلة نفسها قُتل بين ٢٥ و٤٠ شخصاً في نكا. يوم ٣١ كانون الأول/ديسمبر، قتلت طائرة ب٥٢ B-52 وطائرتا هيلكوبتر حوالي ١٠٠ شخص في قرية قر كرداز. وفقدت امرأة ٢٤ فرداً من عائلتها. يوم ٢٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، قتل الكوماندوس عن طريق الخطأ ١٦ جندياً حكومياً بحسب إحصاء البنتاغون في أروزغان. يوم ٣٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٢، قُتل ٤٨ مدنياً في حفل زفاف في دلرواد، و١١٧ آخرون عندما قصفت طائرة أميركية أروزغان، وقد اعتبر الأميركيون طلقات الفرح نيراناً معادية، وأعرب الرئيس بوش لاحقاً عن تعازيه للأرواح المفقودة. يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٣، قُتل ٦ مدنيين بينهم ٣ أطفال وامرأة عجوز في منزل في مقاطعة. يوم ٦ كانون الأول/ديسمبر، قتلت القوّات الخاصّة الأميركية ٦ أطفال ورجلين في غرداز. قُتل ٥ صبيان وابنتان ورجل عمره ٢٥ سنة عندما هاجمتهم طائرة A-15 مع قرويين آخرين كانوا جالسين تحت شجرة في حوتالا. وحصل العديد من الهجمات قرب جبهات القتال أو على قرى ظنّاً أنها تضمّ قادة طالبان مطلوبين أو بسبب معلومات خاطئة. وقد أحصى البرفسور مارك هارولد من جامعة نيوهامشير ما بين ٣٠٠٠ و٣٤٠٠ مدني قتلوا في أفغانستان بين ٧ تشرين الأول/أكتوبر و٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، أي أكثر ممّا قُتل يوم ١١ أيلول/سبتمبر. وكانت الكلمات السحرية للإعلام الأميركي حول عمليات القصف: تقرير لا يمكن التحقّق منه بشكل مستقلّ.

أروزغان كان أمراء الحرب المحلّيون يحاولون منع الحكومة من السيطرة وذلك بُغية إقامة مراكز إنتاج جديدة تابعة لهم. في كابول، حيث اغتيل وزيران خلال سبعة أشهر، أصبح كرزاي الآن محمياً ـ بطلب منه ـ بواسطة حرّاس أميركيين. ولا يحتاج المرء أن يكون محلّلاً سياسياً لكي يعرف أيّ نوع من الرسائل كان يعني ذلك بالنسبة إلى الأفغان.

وقد رأى رجل القوّات الخاصّة الأسترالية الأمور بصورة أكثر شمولية: «ربّما يبدأ الأميركيون بالانسحاب إذا كانت هناك حرب أخرى ـ إذا ذهبوا إلى الحرب في العراق. لكنّ الولايات المتحدة لا تستطيع احتمال حربين في وقت واحد. سيكونون مشتّتين جدّاً». وهكذا، يبدو أن «حرب أميركا ضدّ الإرهاب» في أفغانستان قد انتهت ـ حرب تركت تجّار المخدّرات من التحالف الشمالي مسيطرين أكثر فأكثر على الحكومة الأفغانية، والعديد من رجال القاعدة في حالة فرار والقليل من السلام في البلاد ـ وكان علينا القيام بحرب أخرى في العراق.

طيلة عام ٢٠٠٢، كنت أعبر الأطلسي ذهاباً وإياباً، كاتباً تقارير من الشرق الأوسط، ومحاضراً في الولايات المتحدة.. وفي بعض الأحيان كنت أصل إلى نيويورك مساء الجمعة وأقوم بإرسال تقارير من القاهرة الإثنين التالي. ربّما لم يسافر أحد بين الشرق والغرب بهذا القدر تلك السنة.. وكانت تجربة متناقضة ظاهرياً.. سجال قارّة عن قارّة أخرى (القارّة الأميركية عن القارّة العربية أو الشرق أوسطية). . ولم يكن للأمر سوى علاقة صغيرة بالواقع.. تماماً مثل أخطاء المسلمين العرب تجاه القوّة العالمية العظمى الوحيدة. وبدا كما لو أن كلّاً من طرفَي العالم انكفأ إلى داخل أوهامه ومخاوفه.. وقد أعطى ذلك نتائج غريبة عجيبة. . .

في واشنطن، قبل فجر ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، الذكرى الأولى للهجمات، اطّلعت على ستّ قنوات تلفزيونية أميركية وشاهدت البرجين التوأمين يسقطان إلى الأرض ثماني عشرة مرّة. إن الإشارات القليلة إلى القتلة الانتحاريين الذين ارتكبوا الجريمة لم تلمّح مرّة واحدة إلى حقيقة أنهم كانوا

عرباً. الأسبوع الفائت، ذهبت الواشنطن بوست والنيويورك تايمز إلى حدود مؤلمة لفصل تغطيتهما الشرق أوسطية عن ذكرى ١١ أيلول/سبتمبر، كما لو أنهما كانتا ترتكبان نوعاً من انتهاك الحرمات أو تتصرّفان تصرّفاً رديئاً إذا لم تفعلا ذلك الفصل. وأبعد ما استطاعت الواشنطن بوست الذهاب إليه في تعليقاتها كان قولها: «إن التحدّي الأبرز للإدارة الأميركية يتمثل بتقديم تفسير قوي ومقنع عن كيفيّة ارتباط الخطر العراقي بهجمات ١١ أيلول/سبتمبر».. ولم يرد هذا الكلام إلّا في الفقرة السابعة من المقالة الافتتاحية المؤلّفة من ثماني فقرات... وكل الإشارات إلى فلسطين أو المستوطنات اليهودية غير الشرعية أو الاحتلال الإسرائيلي للأرض العربية جرت في ذلك الأسبوع إزالتها ببساطة من أذهان الناس. وعندما حاولت حنان عشراوي الأكثر شهرة وإنسانية بين النساء الفلسطينيات التحدّث في جامعة كولورادو خلال أسبوع ١١ أيلول/سبتمبر، نظّمت الجماعات اليهودية تظاهرة ضخمة ضدّها. لم يعترف التلفزيون الأميركي ببساطة بالمأساة الفلسطينية. لكن ربّما لم يعد كلّ ذلك مهمّاً. فعندما يستطيع وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد (كما فعل عندما سُئل عن دليله حول امتلاك العراق للسلاح النووي) الادّعاء بأن «غياب الدليل ليس دليلاً على الغياب»، فإننا نكون قد أنهينا كلّ نقاش أخلاقي. لكن عندما أشار رامسفيلد إلى ما يُسمّى «الأراضي المحتلّة» فقد كشف عن كونه رجلاً سيّئ السمعة.

كانت أحداث غريبة تحصل آنذاك في الشرق الأوسط. أوردت المخابرات العسكرية العربية تحرّك شِحنات الأسلحة الأميركية الضخمة في المنطقة ـ ليس إلى قطر والكويت فقط بل إلى بحر العرب والبحر الأحمر وشرق المتوسط. وقيل إن المخطّطين العسكريين الأميركيين والإسرائيليين وخبراء المخابرات اجتمعوا مرّتين في تلّ أبيب لمناقشة النتيجة الحتميّة لحرب الشرق الأوسط القادمة. وكان تدمير صدّام وإضعاف السعودية (وهو سيناريو محتمل في حال سقط العراق بحسب ما ادّعى الخبراء) حُلميْن إسرائيليّيْن منذ زمن بعيد. وكما اكتشفت الولايات المتحدة خلال فترة حيادها المثمرة بين عامي ١٩٣٩

و١٩٤١، فإن الحرب تغذّي مضخّات الاقتصاد. هل كان ذلك ما يجري اليوم: التحضير لحرب تُعيد تعويم الاقتصاد الأميركي؟

وفي رسالة سريعة خفيفة ومُتقنة أرسلت إلى كوفي عنان، سحب صدّام حسين البساط من تحت أقدام جورج بوش الإبن. في الأمم المتحدة، كان بوش يلعب الدور البغيض لجذب المشاركة المتعدّدة، محذّراً العالم بأنّ العراق لديه فرصة أخيرة، بواسطة الأمم المتحدة، لتجنّب معركة هرمجدون. قال لنا جميعاً في الجمعية العامّة: «إذا أراد النظام العراقي السلام، عليه القيام فوراً وبدون شروط بوقف إنتاج وتدمير كلّ أسلحة الدمار الشامل، والصواريخ البعيدة المدى وكل المعدّات المتعلّقة بها»... كان صدّام مستعدّاً للقيام بأي شيء كان بمقدوره لتجنّب الحرب. ويبدو أن بوش كان يفعل كلّ ما بمقدوره لمنع السلام.

لا عجب أن الولايات المتحدة بدأت فوراً الحديث عن «آمال كاذبة». يومها كتبتُ في الإندبندنت: «لا عجب أن الأميركيين كانوا يبحثون بيأس عن ذريعة للحرب في محاولة للتأكّد من أن حربهم القادمة تحافظ على مواعيدها المقرّرة». أمّا الآن فقد وقع الأميركيون في مأزق، إذ سيتطلّب الأمر ٢٥ يوماً على الأقلّ لتشكيل فريق تفتيش الأمم المتحدة، وستّين يوماً آخر للمرحلة الأولى، ثم ستّين يوماً لعمليات تفتيش أخرى. لقد جرى تأخير حرب بوش الأخيرة أكثر من خمسة أشهر. لكنّ تفحّصاً دقيقاً لخطاب بوش في الأمم المتحدة يظهر أن تفتيشاً حرّاً عن أسلحة الدمار الشامل المفترضة لدى صدّام كان واحداً من ستّة شروط على العراق تلبيتُها إذا «أراد السلام». وتضمّنت طلبات بوش الأخرى «وقف كلّ دعم للإرهاب»... هل يعني هذا أن على الأمم المتحدة الآن الإسراع في إرسال مفتّشين للبحث عن دليل داخل العراق حول علاقات صدّام السابقة ـ أو الحالية ـ مع القتلة المأجورين؟ طلب بوش أيضاً أن «يكفّ العراق عن اضطهاد السكّان المدنيّين بمن في ذلك الشيعة والسنّة والأكراد والتركمان وغيرهم». وبالرغم من تضمين التركمان ـ الجديرين بالحماية دون شكّ لأنهم يقيمون على احتياطيّ نفطيّ هائل ـ هل يعني ذلك أن الأمم المتحدة تستطيع طلب مراقبين لحقوق الإنسان داخل العراق؟ في الواقع، إن مثل هذا الاقتراح سيكون عملاً أخلاقياً

سامياً، لكنّ حلفاء أميركا العرب سيتمنّون بشدّة أن لا يتمّ نشر مراقبين كهؤلاء في الرياض، والقاهرة، وعمّان أو أيّة مراكز أخرى للتحقيق اللطيف.

وحتى لو كان صدّام مستعدّاً للالتزام بكلّ هذه المطالب بصدق لم يُظهره في ردّه على قرارات الأمم المتحدة الأخرى، فإن الأميركيين أعلنوا بوضوح أن العقوبات ستُرفع فقط ـ وأن عُزلة العراق ستنتهي فقط ـ «بتغيير النظام». في الواقع كان حماس بوش المفاجئ للمساندة الدولية لقرارات مجلس الأمن الدولي (وهو حماس لم يمتدّ أبداً بالتأكيد ليشمل خرق إسرائيل لقرارات مجلس الأمن ذات الأهمّية المأساويّة) مجرّد حركة لإضفاء الشرعيّة على خطّة واشنطن لغزو العراق.

يبدو أن مساندة طوني بلير لهذه السياسة الساخرة كانت أحد أكثر العناصر غموضاً في هذا الفصل من مأساة الشرق الأوسط. وقد أدّى امتزاج الولادة المسيحية المتجدّدة لبوش بتصريحات بلير الكنسية ـ والخليط الفريد لفضيلة بلير وسفسطته القانونية ـ إلى إنتاج واحدة من أغرب التحالفات في عصرنا. إن المساهمة السياسية البريطانية (التي رُمز إليها من قِبل داوننغ ستريت بـ «ملف» ٢٤ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢) التي لا قيمة لها كان ينبغي أن تجعل الأمر واضحاً وذلك قبل أشهر من انتقال التحذير من «٤٥ دقيقة لهجوم أسلحة الدمار الشامل»، إلى المناقشة في البرلمان وفي تقرير هوتون الأخير.

قرأت هذا المستند في بيروت أولاً.. وكالعادة في الشرق الأوسط، فإن مضمونه لدى قارئ يبعد ٣ آلاف كلم عن لندن يبدو أشدّ اختلافاً منه لدى نائبٍ في البرلمان، في وستمنستر، أو رئيسٍ في ما كان يُسمّى فليت ستريت. وجدت المستند مذهلاً حقّاً... ولكن ليس لأيّ ٤٥ دقيقة تحذير. وكتبت يومها «إن قراءته ستملأ أي إنسان شريف ومحترم بالعار والغضب.. إن صفحاته هي دليل نهائي، إذا كان مضمونها صحيحاً، على أن جريمة كبرى ضدّ الإنسانية ارتُكبت في العراق. إذا كانت تفاصيل بناء صدّام لأسلحة دمار شامل صحيحة (وسأعود لاحقاً إلى استعمالي «إذا»، و«لكن» و«تستطيع») فإن هذا يعني أن سياستنا الشاملة والقاسية والمعيقة بالنسبة إلى عقوبات الأمم المتحدة قد فشلت كلّياً.

وبعبارة أخرى، فقد قُتل نصف مليون طفل عراقي من قِبلنا مقابل لاشيء».. في أيار/مايو ١٩٩٦ أبلغتنا مادلين أولبرايت، كما نعلم جميعاً، أن العقوبات نجحت في منع صدّام من إعادة بناء أسلحة دمار شامل. عندها وافقت حكومتنا المحافظة، ولامس بلير الخط. لكن عندما سألها محاورها ما إذا كان «الثمن» ـ مقتل نصف مليون طفل ـ يستحقّ ذلك، أجابت أمام ذهول العالم: «أعتقد أن هذا خيار صعب جدّاً، أما عن الثمن، فنحن نعتقد أن الثمن كان يستحقّ ذلك».

والآن، يتم أبلاغنا ـ إذا كان بلير يقول الحقيقة لنا ـ بأن الثمن لم يكن يستحقّ ذلك. إن البضاعة المشتراة بأرواح مئات الآلاف من الأطفال لا تساوي نكلة. إذ إنّ ملفّ بلير كان يخبرنا أنّ صدّام كان قادراً رغم العقوبات على متابعة بناء أسلحة الدمار الشامل. كل هذه التفاهة حول الاستخدام المزدوج للتكنولوجيا، وحظر أقلام الأطفال (يمكن أن يكون لمادة الرصاص الأسود استخدام عسكري) ورفضُنا السماح للعراق باستيراد معدّات لصيانة محطّات تكرير المياه التي قصفناها في حرب الخليج، كلّ ذلك كان دجلاً وخداعاً. . . كان هذا الاستنتاج المحزن هو الخلاصة الأخلاقية الوحيدة التي كان بالإمكان استنتاجها من الصفحات الستّ عشرة التي يُفترض أنها تتضمّن عرضاً مفصّلاً لأهوال السلاح الكيميائي، والجرثومي والنووي، التي كان وحش بغداد يخزّنها ضدّنا. كان من الصعب، من خلال قراءة التقرير بكامله، أن نعرف ما إذا كان علينا الضحك أو البكاء. إن درجة الخداع والنفاق في إنتاجه تكشف لنا عن مستوى التحايل الذي بلغته حكومة بلير وكيفية معاملتها لأعضاء البرلمان.

لنأخذ مثالاً واحداً فقط على كذب المستند. في الصفحة ٤٥، قيل لنا ـ في فصل طويل حول خروقات صدّام لحقوق الإنسان ـ إنه «في ١١ آذار/مارس ١٩٩١ في بداية حرب الخليج حصلت اضطرابات في مدينة البصرة الجنوبية. وردّ النظام بقتل الآلاف». المشكلة أن الكذبة تكمن في استخدام عبارة اضطرابات.. فتلك لم تكن اضطرابات، كانت جزءاً من ثورة جماعية دعا إليها بدقّة والد الرئيس بوش الإبن عبر إذاعة الاستخبارات الأميركية في السعودية.

وقد لبّى المسلمون الشيعة في العراق نداء بوش الأب، ومن ثمّ تُركوا لمصيرهم من قِبل الأميركيين والبريطانيين الذين أعطوهم دافعاً للاعتقاد بأنهم سيأتون لمساعدتهم. لا عجب أنهم ماتوا بالآلاف، لكن ذلك كلّه أزيل من ملفّ بلير.

وبالطبع فإن كلّ شخص قرأ كلمات الشكّ الماكرة التي أُدخلت إلى النصّ سيكون عنده فقط اهتمام عميق بالقاعدة التي تستند إليها بريطانيا في الذهاب إلى الحرب. كان برنامج الأسلحة العراقي يهدف بمعظمه إلى تخصيب اليورانيوم. ويبدو أن العراق كان يحاول الحصول على خطّ إنتاج قويّ. وكان هناك دليل على أن العراق حاول الحصول على أوعية ألمنيوم خاصّة (تُستخدم في تخصيب اليورانيوم) لكن لم تكن هناك «معلومات استخبارية نهائية» تُفيد أنها «مخصّصة لبرنامج نوويّ».. إذا حصل العراق على معدّات للانشطار الذرّي، يستطيع إنتاج أسلحة نووية خلال سنة أو سنتين. كان من الصعب الحكم ما إذا كانت صواريخ صدّام حسين يمكن أن تكون جاهزة للاستخدام. وقد بدأت الجهود لإعادة تنشيط برنامج الصواريخ العراقي على الأرجح عام ١٩٩٥. وهكذا استمرّ الملفّ. أجل كان صدّام ـ علينا قول ذلك في كلّ إذاعة، وكلّ محاضرة، وكتابته في كلّ مقال بُغية إسماعه ـ قاسياً، طاغية شرّيراً. لكن هل كانت عبارات: «مِن شِبه المؤكّد»، و«يظهر» و«من المحتمل» و«إذا»، كافية لتكون إشارة الانطلاق لإرسال قاذفاتنا فوق صحراء كوت العمارة؟

اشتمل المستند على فصل يكيل المديح لمفتّشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة. وكان هناك مزيد من الخدع عنهم. فقد نُقل عن الدكتور هنس بليكس، المدير التنفيذي للجنة تفتيش الأمم المتحدة، أنه قال إنّ من المستحيل في غياب عمليات التفتيش بعد عام ١٩٩٨ التدقيق في مدى الإذعان العراقي لنزع السلاح. لكن يوم ١٨ آب/أغسطس ٢٠٠٢ (قبل شهر تقريباً من تقرير بلير) أبلغ بليكس الأسوشيتدبرس أنه لا يستطيع القول بدقّة إنّ بغداد تملك أسلحة دمار شامل. بالطبع جرى شطب هذا التصريح من المستند الحكومي البريطاني. إذاً هكذا كان الوضع... وإذا كانت هذه الصفحات المخادعة تستند إلى «محتمل» و«إذا»، فإنه لم تكن لدينا مصلحة للذهاب إلى الحرب. أمّا إذا كانت كلّها

صحيحة، فإننا نكون قد قتلنا نصف مليون طفل للاشيء. ألا يقارب ذلك جريمة حرب؟

يومياً، يقول أحدهم شيئاً ـ صعب التصديق ووهمياً ـ حول شغف الرئيس بوش بالحرب. في تشرين الأول/أكتوبر، كان بوش شخصياً يتحدّث أمام جمهور في سينسيناتي عن «مجاهدي الحرب النووية».... تناسى للحظة أننا لم نستطع حتى الآن أن نُثبت أن لدى صدّام حسين أسلحة نووية. وتناسى أن خطابه الأخير كان عملية إعادة صياغة لكلّ «إذا» و«ربّما» و«يستطيع» في اتّهامات طوني بلير في ملفّه المخادع كلّياً بصفحاته الست عشرة الواهية. علينا الآن القتال ضدّ «مجاهدي الأسلحة النووية». هذا ما علينا القيام به لتبرير التمثيلية الكاملة التي يأخذنا إليها البيت الأبيض وداوننغ ستريت، وكل أولئك «الخبراء» المتعفّنين، حول الإرهاب وأيضاً العديد من الصحفيين. تناسى الأربعة عشر فلسطينياً بمن فيهم الطفل ابن الاثنتي عشرة سنة الذي قتلته إسرائيل قبل ساعات قليلة من إلقاء بوش خطابه في سينسيناتي، وتناسى أنه عندما قامت طائرة أميركية في تموز/يوليو بقتل تسعة أطفال فلسطينين إضافة إلى مقاتل، وصف رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون («رجل السلام» بحسب كلمات بوش) المجزرة بأنها «نجاح كبير». كانت إسرائيل إلى جانبنا في الحرب على الإرهاب. علينا أن نتذكّر استخدام كلمة إرهاب بالنسبة إلى صدّام حسين، وبن لادن، وياسر عرفات، وفي الواقع بالنسبة إلى أيّ شخص يعارض إسرائيل وأميركا. استخدم بوش الكلمة في خطاب سينسيناتي ثلاثين مرّة في نصف ساعة ـ أي إرهاب واحد كلّ دقيقة.

ولا حاجة إلى القول إن ما كان علينا تناسيه إذا كنّا سندعم هذا الجنون، هو أن الرئيس رونالد ريغان كان قد أرسل مبعوثاً خاصّاً لمقابلة صدّام حسين في كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٣. كان ضرورياً تناسي ذلك لثلاثة أسباب. أوّلاً، لأنّ صدّام المخيف كان يستخدم الغاز ضدّ الإيرانيين ـ واستخدام الغاز كان أحد أسباب ذهابنا للحرب ضدّه اليوم ـ ثانياً لأن المبعوث أُرسل إلى العراق لترتيب إعادة فتح السفارة الأميركية ـ بُغية تأمين علاقات تجارية واقتصادية

أفضل مع جزّار بغداد ـ ثالثاً لأن المبعوث كان دونالد رامسفيلد. ربّما يعتقد المرء أنه كان أمراً غريباً أن لا يذكر لنا رامسفيلد هذا الموضوع الصغير المهمّ خلال أحد لقاءاته الصحفية البسيطة معنا.... ربّما تعتقدون أنه كان يرغب في تنويرنا حول الطبيعة الشرّيرة لهذا المجرم الذي صافحه بحرارة. لكن لا. فهو فقد لزم الصمت عن الأمر حتى سُئل بعد مدّة طويلة ما إذا كان قد حذّر صدّام حسين من استخدام الغاز (ادّعى أنه فعل ذلك لكن ثبت أن ذلك غير صحيح). كما كان صامتاً في ما يتعلّق باجتماعه الودّي أيضاً مع طارق عزيز ـ والذي حصل ذات يوم من آذار/مارس ١٩٨٤ عندما نشرت الأمم المتحدة تقريرها اللعين حول استخدام صدّام للغاز السامّ ضدّ إيران.

علينا أن نتناسى أيضاً أنه في عام ١٩٨٨، وبينما كان صدّام يبيد أهالي حلبجة بالغاز، إضافة إلى عشرات الآلاف من الأكراد الآخرين (عندما استخدم الغاز ضدّ شعبه بحسب كلمات بوش/تشيني/بلير/سترو) زوّد الرئيس بوش الأب صدّام بخمس مئة مليون دولار مساعدات من الحكومة الأميركية لشراء منتجات زراعية أميركية. علينا أن نتناسى أنه خلال الحرب التالية، وبعد انتهاء عملية الإبادة، ضاعف بوش الأب المساعدة إلى مليار دولار، مع موادّ لصناعة الأنتراكس، وطائرات هيلكوبتر، وتلك المادّة «المزدوجة الاستعمال» الشهيرة والتي كانت تصلح لتصنيع الأسلحة الكيميائية والبيولوجية. وبالطبع، علينا تناسي النفط. ذلك أن النفط هو أحد الكماليّات التي لم يجرِ ذكرها أبداً.. إضافة إلى كونه أحد الأشياء القليلة التي عرف بوش الإبن شيئاً عنها إلى جانب رفيقيه الحميميْن في مجال النفط، تشيني وكوندوليزا رايس، وكثيرين غيرهما في الإدارة. في مدّة الثلاثين دقيقة التي استغرقها خطاب بوش عن الحرب ضدّ العراق في سينسيناتي (أشار فيه خلال دقيقتين فقط إلى أمنيته أن لا يتطلّب ذلك عملاً عسكرياً) لم ترِد إشارة واحدة إلى حقيقة أنه ربّما كان لدى العراق احتياطيّ نفطيّ أكبر من الموجود في السعودية، وأن الشركات النفطية الأميركية كانت جاهزة لكسب المليارات في حال وقوع غزو أميركي، وأنه عندما يصبح

بوش وأصدقاؤه خارج السلطة فإنهم سيكونون من أصحاب المليارات على قاعدة غنائم هذه الحرب. كان علينا تجاهل كلّ ذلك قبل الذهاب إلى الحرب. وهذا ما قمنا به فعلاً.

في الحرب المستمرّة ضدّ القاعدة، روّجت واشنطن لانتصاراتها، حتى عندما حقّقت أرقاماً قياسية جديدة في الإعدامات العشوائية الخارجة عن القانون. «ضربة نظيفة»: هكذا عنونت الواشنطن بوست وصفها لعملية قتل زعماء القاعدة في اليمن بواسطة الطائرة الأميركية المفترسة من دون طيّار، في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢. وقد استخدمت الصحافة الأميركية تعريف إسرائيل لمثل عمليات القتل هذه بأنها «عمليات قتل هادفة» (ردّدت البي بي سي الكلمات نفسها يوم ٥ تشرين الثاني/نوفمبر)... لم يشرح أحد لماذا لم يتمّ اعتقال زعماء القاعدة المهمّين أو محاكمتهم أمام محكمة علنية، أو على الأقلّ أخذهم إلى غوانتنامو للتحقيق. عوضاً عن ذلك، أطلق الأميركيون مجموعة من المشتبه بهم المعتقلين في غوانتنامو.. أحدهم كان قد سُجن حوالي ١١ شهراً في زنزانة منفردة ومن ثمّ أُعيد إلى أفغانستان... وتبيّن أن عمره مئة سنة.. كان هرماً وخرفاً إلى حدّ أنه لم يستطع قول جملة مفيدة واحدة. لم يكن مفاجئاً إذاً عدم قلق المخابرات الأميركية حول كم من أعوان بن لادن كانت تقاتل في أفغانستان(*).

(*) كتب أحمد زيدان (وهو مراسل سوري لقناة الجزيرة التقى بن لادن عدّة مرّات وحضر حفلة زواج ابن بن لادن عبد الله) رواية مهمّة حول طريقة القاعدة في المعركة في كتابه الصادر بالعربية «القاعدة بدون قناع». كشف هذا الكنز المؤلّف من ٢١٥ صفحة أن ٢٧٤٢ مقاتلاً من «الأفغان العرب» المنتمين إلى القاعدة (وهم بعبارة أخرى مسلمون يقاتلون لصالح بن لادن) كانوا في أفغانستان خلال حكم الطالبان: كان بينهم ٦٢ بريطانياً، ٣٠ أميركياً، ٨ فرنسيين، ١٦٠٠ شمال أفريقي، ٦٨٠ سعودياً، ٤٨٠ يمنياً، ٤٣٠ فلسطينياً، ٢٧٠ مصرياً، ٥٢٠ سودانياً، ٨٠ عراقياً، ٣٣ تركياً، ١٨٠ فليبينياً. وكان المقاتلون العرب منتشرين في أنحاء أفغانستان كما يلي: ٢٦٠ مقاتلاً في أربع قواعد في قندهار، و١٤٥ في قاعدتين في أورزغان، و١٨٧٠ في سبع قواعد في كابول، و٤٠٤ حول مزار شريف، و٤٠٠ في ثلاث قواعد حول كندوز، و٣٠٠ في محافظة باغمان، و١٧٠٠ في ١٢ قاعدة في نخاهار مقابل المقاطعة الشمالية الغربية من باكستان، و١٦٠ في كونار، و٦٠٠ في خوست، و٤٧٠ في باكتيا.

أصبحت عبارة «قتل هادف» الآن جزءاً من قاموس «الحرب على الإرهاب».. وقد استخدم أرييل شارون هذه العبارة. وكذلك فعل الروس أيضاً في حربهم المتجدّدة في الشيشان بعد «الإنقاذ الكارثي» لرهائن مسرح موسكو الذين احتجزهم ثوّار شيشان في موسكو، وكان بوتين مدعوماً من قِبل بوش وبلير في مجزرته المتجدّدة ضدّ الشعب المسلم المحطّم في الشيشان.

في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢، نشرت صحيفة نيوزويك تقريراً شجاعاً وناجحاً ومخيفاً حول الحرب الشيشانية. في روايتها المؤثّرة عن القسوة الروسية، تحدثت المجلّة عن غارة للجيش الروسي على قرية مسلمة غير محميّة. وقالت إن الجنود الروس دخلوا إلى منزل مدني وقتلوا كلّ مَن كانوا فيه. وكانت إحدى الضحايا فتاة شيشانية. وبينما كانت ممدّدة تحتضر نتيجة جراحها، بدأ جندي روسي باغتصابها. وصرخ زميله: «عجّل كوليا بينما لا تزال حارّة». لكنّ هذا لا يهمّ، فإنّ «الحرب على الإرهاب» كانت تعني أن كوليا والشباب سيعودون إلى العمل قريباً بمباركة بوتين وبوش وبلير.

كتب ذلك الإسرائيلي الشجاع، مردخاي فانونو، الرجل الذي حاول تحذير الغرب بشأن تكنولوجيا الحرب النووية الهائلة التي تملكها إسرائيل، والذي أمضى اثنتي عشرة سنة في سجن انفرادي ـ وتعرّض للخيانة على ما يبدو من قِبل روبرت ماكسويل ـ كتب في سجنه قصيدة يقول فيها: «أنا الموظف، التقني، الميكانيكي، السائق... قالوا: إفعل هذا، إفعل ذلك، لا تنظر إلى اليسار أو اليمين، لا تقرأ النصّ. لا تنظر إلى الآلة بكاملها. أنت مسؤول فقط عن هذا المزلاج، عن هذا الختم المطاطي».

فهم كوليا ذلك. كما فهمه ضابط سلاح الجوّ الأميركي الذي ألقى القنبلة التي قتلت رجال القاعدة في اليمن، وكذلك الطيّار الإسرائيلي الذي قصف المجمّع السكني في غزّة قاتلاً تسعة أطفال ومعهم هدفه من حماس. وقد وصف شارون هذه العملية بأنها «ناجحة». ألم يكن هذا جزءاً من وقاحة قوّة استعمارية؟ فلنستمع هنا على سبيل المثال إلى فرناند ميسونييه آخر جلّاد (منفّذ إعدام) فرنسي في الجزائر خلال حرب الاستقلال ١٩٥٦ ـ ١٩٦٢، يتفاخر في

تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٢ بجرأته على المقصلة. «لا يجب أبداً أن تعطي الشخص وقتاً للتفكير. لأنك إذا فعلت يبدأ بتحريك رأسه وعندها تُصاب أنت بالإرباك. يقع النصل على الفكّ وعليك إنهاء الأمر باستخدام سكّين جزّار. إنها قدرة مُفرطة.. أن تقتل رجلاً آخر». وهكذا قضى المسلمون الشجعان من أبطال حرب التحرير الجزائرية.

عندما اجتاز يوليوس قيصر نهر الروبيكون كتب في «الحروب الغالية»: سبق السيفُ العذل. وعندما صوّت مجلس الأمن الدولي بالإجماع (١٥ مقابل صفر) لتجريد العراق من السلاح يوم ٨ تشرين الثاني/نوفمبر بعد الساعة الحادية عشر، عبر بوش نهر الروبيكون. وقال لنا: «على العالم الإصرار أنّ هذا الحكم يجب أن يُطبّق». كان الروبيكون نهراً كبيراً وعميقاً بالنسبة إلى قوّات قيصر. وسيكون نهر دجلة أقلّ عُمقاً... وكان التخمين أن الدبّابات الأميركية الأولى سوف تعبر للحرب خلال أسبوع واحد.. ولكن ما الذي أخّرها؟... «لم يعد من الممكن التسامح مع الخداع والتراجع»... هذا ما أبلغه بوش للأمم المتحدة... وبعد ثمانية أسابيع من النقاشات في مجلس الأمن، لم يأتِ أيّ شخص على ذكر جرائم يوم ١١ أيلول/سبتمبر ضدّ الإنسانية، لأنّ العراق ببساطة لم تكن له علاقة بـ ١١ أيلول/سبتمبر... سأل بوش في مؤتمر صحفي في ٧ تشرين الثاني/نوفمبر: «في حال كان علينا استخدام قوّات فإننا نستطيع مع الأصدقاء التحرّك بسهولة ـ وبقوّة ـ للقيام بالعمل». بعبارة أخرى سوف يغزو العراق والأصدقاء هم باختصار البريطانيون.

تستطيع الأمم المتحدة مناقشة أيّ عدم التزام عراقي بالمفتّشين عن الأسلحة، لكنّ الولايات المتحدة سوف تقرّر ما إذا كان العراق قد خرق القرارات الدولية. أي أنه يمكن لأميركا إعلان الحرب دون إذن الأمم المتحدة. لقد اعتبرت البي بي سي، والسي إن إن وكلّ شبكات التلفزة الأخرى أن القرار ١٤٤١ هو الفرصة الأخيرة لصدّام حسين. وفي الواقع كان ذلك هو الفرصة الأخيرة للأمم المتحدة. كان من السهل التعرّف إلى المصائد. فقد أصرّ سفير أميركا في الأمم المتحدة جون نيغروبونتي ـ صار لاحقاً سفير بلاده في العراق ـ على التأكيد أن قرار مجلس الأمن «لا يتضمّن نقاطاً مخفيّة». لكنه كان كذلك

بالفعل. سمح لمجلس الأمن بمناقشة عدم التزام العراق دون منع الولايات المتحدة من مهاجمة بغداد. قال نيغروبونتي: «بطريقة أو بأخرى، فإن العراق سيجرّد من السلاح». وتصرّف سفير بريطانيا في الأمم المتحدة جيرومي غرينستوك بشكل ملائم تماماً. «واضح تماماً»، «خيار لا لبس فيه»، عواقب خطيرة، «لا أساليب غامضة بعد الآن»... تستطيع تقريباً الإحساس بالعصا. لا إيراد بالطبع لاستخدام المخابرات الأميركية وتوظيفها لآخر فريق مفتّشين عن الأسلحة تابع للأمم المتحدة في العراق. لقد أرادت واشنطن ورقة تين من الأمم المتحدة لشنّ الحرب على العراق وكانت ترغب في القيام بعملية تفتيش على أمل رفض العراق لها.

أنا الآن في سانت لويس، ميسوري، أستعدّ لإلقاء محاضرة لطلاب الجامعة حول الحرب القادمة في العراق. إنه منتصف تشرين الثاني/نوفمبر، وفي غرفة فندقي كنت أزيل الغبار عن وصفي لبن لادن، وكيف التقيته في السودان وأفغانستان. . . . لم نسمع صوته منذ معركة طورا بورا في أفغانستان رغم أن قنوات اتصالي أكّدت لي أنه على قيد الحياة. فتحت جهاز التلفزيون على قناة السي إن إن وبينما أنا جالس في غرفتي فوق الميسيسيبي، سمعت صوته. إنه على قيد الحياة. ولم يتطلّب الأمر مني سوى بعض الاتصالات التلفونية القصيرة مع مصادري في الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا للتأكّد من أنّ صوت أسامة بن لادن هو حقّاً الصوت الذي كان يهدّد الغرب في خطاب قصير بثّته قناة الجزيرة. إذاً، الملياردير السعودي، رجل الكهف، «الشرّير» (أنا هنا أنقل عنوان النيوزويك) الملتحي، الزاهد الذي فشل أكبر جيش في العالم في العثور عليه، ما زال معنا.

خرجت المخابرات الأميركية (أبطال ١١ أيلول/سبتمبر الذين سمعوا عن عرب يتدرّبون على الطيران ولكن لم يقوموا بإخبارنا في حينه) بالقمامة المعتادة للإعلام الأميركي. ربّما كان هو. إنه حتماً هو. إن الصوت الخافت يعني أنه ربّما أصيب. إنه يتكلّم بسرعة لأنه ربّما أصابه الأميركيون. غير صحيح. فقد أُجبرت الولايات المتحدة أخيراً على الاعتراف يوم ١٨ تشرين الثاني/نوفمبر أن الرجل الذي ادّعى بعضهم أنه مات ما زال في عالم الأحياء، وهو يطلق ذلك

النوع من التهديد الذي يؤكّد المخاوف القاتمة لزعماء الغرب. إذ يقول بن لادن: «كما تقتلوننا، سوف نقتلكم».

عندما تمّ التسجيل، لم يكن بن لادن يتحدّث عبر شريط مسجَّل بل كان يتحدّث عبر الهاتف. كان الرجل في الجانب الآخر من الخطّ ـ في باكستان ربّما ـ يُمسك بجهاز التسجيل. وربّما لم يكن في البلد نفسه. يتحدّث أسامة بن لادن دائماً ببطء. لكنّ صوته كان سريعاً والسبب في ذلك بسيط على ما يبدو، فبطارية التسجيل شبه فارغة. وعندما عادت الجزيرة وبثّته بالسرعة المطلوبة، كان الصوت طبيعياً.

تُعتبر الكتابة عن بن لادن الآن إحدى أصعب المهامّ الصحفية على الأرض. عليّ أن أقول ما أعرفه. عليّ أن أقول ما أعتقده صحيحاً. عليّ أن أسأل لماذا سجّل هذا الشريط. بدأت أكتب تقريري لصحيفة الإندبندنت ومالت روايتي نحو الأسئلة: لماذا؟... لأيّ سبب؟... لماذا الآن؟ يتطلّب الأمر طريقة جديدة، فظّة، من الكتابة لقول الحقيقة، فيها استخدام القوسين والنقاط، والمعرفة والشكّ، والاحتمال والتخمين، وكانت كلّها تعمل بعضها ضدّ بعض. نجا بن لادن من قصف طورا بورا. حقيقة، هرب بن لادن عبر باكستان. ثمّة قناعة متزايدة باحتمال أن يكون بن لادن الآن في السعودية.

إذن إليكم هنا ما أظنّ أن هذا الشريط المسجّل كان يعنيه رغم كلّ النواقص والجمل المشروطة. إن الرواية مزعجة جدّاً للغرب. وإنني مُرتعب من عواقب هذا الشريط. إن إحدى رسائله الموجّهة إلى بريطانيا (قبل الآخرين وبعد الولايات المتحدة) هي: انتبهوا. وكان طوني بلير على حقّ هذه المرّة بالتحذير من هجمات جديدة رغم أن اتصال بن لادن الهاتفي غير مراقب. لكنّه كان بن لادن. علينا البدء من طورا بورا في خريف ٢٠٠١. تحت القصف المكثّف للقوّة الجوّية الأميركية، أدرك مقاتلو القاعدة (بن لادن) أنهم لا يستطيعون الاستمرار إلى ما لا نهاية في الكهوف المعقّدة لجبال جلال أباد البيضاء. كان بن لادن معهم. وكان رجال القاعدة قد تطوّعوا للقتال حتى الموت المحتّم ضدّ أمراء الحرب الأفغان المأجورين للأميركين، لكنّ بن لادن رفض الذهاب في البداية،

وقال إنه يرغب في الموت معهم. وقد أصرّ حرّاسه الأكثر ولاء ومستشاروه الكبار أن عليه الرحيل. في النهاية، ترك طورا بورا في حالة من الحزن، وأخذه حرّاسه بسرعة إلى أسفل جبل، في حالة من الفوضى مماثلة لتلك التي أنزل فيها رجال الأمن نائب الرئيس الأميركي إلى الطابق السفلي في البيت الأبيض عندما انقضّ القتلة الخاطفون على واشنطن يوم ١١ أيلول/سبتمبر. إنّ كلّ ما تقدّم يمكن وضعه تحت عنوان «مصدر موثوق».

ذهب بن لادن إمّا إلى كشمير (أمر محتمل مع أنه مستبعد) أو كراتشي (أكثر احتمالاً). أقول ذلك لأنّ بن لادن قال لي مرّة إن لديه العديد من المحبّين في أوساط رجال الدين السنّة في هذه المدينة الباكستانية الكبيرة والحارّة والخطرة. كان يتحدّث عنهم دائماً على أنهم أخوته. لقد أعطاني تلك الملصقات باللغة الأوردية التي صنعها هؤلاء العلماء ووزّعوها على جدران كراتشي. كان يحبّ رواية خطبهم الدينية لي، لذلك سوف أذهب إلى كراتشي. لكن ربّما كنت على خطأ. ففي الأشهر التي تلت، كانت هناك دلائل قليلة على أنه كان لا يزال على قيد الحياة، مثل رائحة الدخان في غرفة بعد أيام من ترك المدخّن لها. قِيل لي إنه ما زال على قيد الحياة (حقيقة، لكن ليس من مصدر مؤكّد). وكان يحاول إيجاد طريقة تواصل مع العالم الخارجي دون الاجتماع بأي غربي. حقيقة مطلقة. كان شريط تسجيله الأحدث (الذي استُبعد من قِبل مصادر الاستخبارات الأميركية الشهيرة باعتبار أنه قديم لأنه لم يُشر إلى أيّ أحداث حصلت منذ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١) جديداً (إمكانية قوية مدعومة من مصدر جيّد ـ مع أنه غير موثوق).

لذلك لماذا الآن؟ كان الشرق الأوسط يدخل مرحلة جديدة وأكثر مأساوية في تاريخه، ممزّقاً بالحرب بين إسرائيل والفلسطينيين ومواجهاً التأثيرات الملتهبة لغزو أنغلو ـ أميركي مُحتمل على العراق. ربّما أدرك بن لادن مرّة أخرى الحاجة إلى التوجّه إلى العالم العربي... وكان تسجيله، رغم التهديدات لبريطانيا والدول الغربية الأخرى، موجّهاً بشكل أساسي إلى أهمّ جمهور له: المسلمين

العرب. إن صمت بن لادن في هذا الوقت من تاريخ الشرق الأوسط كان أمراً لا يُغتفر في نظره. ومن أجل الردّ على الادّعاءات التي ستطلع على الناس بالقول إنّ هذا التسجيل يمكن أن يكون قديماً، فقد سرد بقوّة الضربات التي وُجهّت إلى القوى الغربية منذ خبر «موته» المزعوم: الانفجارات ضدّ تقنيي الغوّاصة الفرنسية في كراتشي، والكنيس اليهودي في تونس، ومجزرة بالي، والحصار الشيشاني لمسرح في موسكو، وحتى عملية اغتيال الدبلوماسي الأميركي في الأردنّ. أجل.. كان يقول إنه «يعرف كلّ هذه الأشياء». وإنه يؤيّدها. كان يقول لنا إنه ما زال هنا. ربّما يستنكر العرب هذا العنف، لكن بعضهم لن يخفوا تعاطفهم معه. فأمام قسوة إسرائيل على الفلسطينيين وتهديدات أميركا للعراق، هناك عربي واحد مستعدّ للردّ. وكانت هذه رسالته إلى العرب.

كان بن لادن يكره صدّام حسين دائماً. كان يكره تصرّف الزعيم العراقي غير الإسلامي، يكره علمانيته، واستخدامه الدين لتشجيع الولاء لحزب البعث الذي أسّسه مسيحي. كانت محاولة أميركا ربط القاعدة بنظام بغداد دائماً أحد ادّعاءات واشنطن البالغة السخف. وكان بن لادن قد أخبرني بمدى كراهيته لصدّام. لذلك كانت إشارته إلى «أبناء العراق» مثيرة للاهتمام. فهو لم يُبدِ سابقاً أيّ إشارة إلى حكومة بغداد أو صدّام. لكن مع عقوبات الأمم المتحدة التي لا تزال تقتل الآف الأطفال (ومع كون العراق هدفاً لغزو أميركي محتمل) فإنه لم يكن ليستطيع تجاهل ذلك. لذا تحدّث عن «أطفال العراق» وعن «أبنائنا في العراق» مشيراً إلى مسلمين عرب صدف أنهم كانوا عراقيين، عوض الحديث عن عراقيين وطنيين. لكنّه لم يذكر صدّام. وكان من السهل توقّع كيف ستحاول الإدارة الأميركية استخدام هاتين الإشارتين لإيجاد رابط آخر كاذب بين بغداد والقاعدة.. لكن بن لادن (وهو من الذكاء بحيث يمكنه التنبّؤ بذلك) شعر بوضوح أن التعبير عن تأييده لعرب العراق سوف يغلب أيّ سوء استخدام لكلامه من قِبل واشنطن. وبالطبع فإن ذلك كان يتمّ تحت عنوان «التوقّع» (مع أن عبارة «شبه مؤكّد» كانت أقرب إلى الحقيقة). وقد استخدمت واشنطن بالفعل

هذه الجمل لتدعيم ادّعائها الكاذب بوجود علاقات بين بن لادن وصدّام. وبالعودة إلى عام ١٩٩٦، أبلغني بن لادن أنّ من الممكن أن تتعرّض القوّات البريطانية والفرنسية الموجودة في السعودية لهجوم من قِبل أتباعه وكذلك القوّات الأميركية. وفي عام ١٩٩٧ قام بتغيير قائمة الأهداف هذه، واستثنى الإنكليز والفرنسيين من أيّ هجمات مقترحة. لكن في الشريط الجديد عادوا إلى اللائحة مع كندا وإيطاليا وألمانيا وأستراليا. وتقع بريطانيا في رأس القائمة.

كانت الرسالة الموجّهة إلينا (أي الغرب) بسيطة وهي تكرّرت ثلاث مرّات. إذا أردنا دعم جورج بوش، «فرعون العصر» (وفرعون هو الاسم الذي وصف قتلة الرئيس المصري به أنور السادات إثر اغتياله منذ أكثر من عقدين) فإننا سندفع الثمن. «ما هي مصلحة حكوماتكم بالتحالف مع عصابة مجرمين في البيت الأبيض ضدّ المسلمين..؟».. سمعت مرّة بن لادن يستخدم العبارة العربية «عصابة مجرمين» مرّتين خلال حواره معي. وكان هذا عين ما وصف به الغربُ القاعدة. قبل بضعة أيام، وبعد أن ألقيت محاضرة في كارولينا الشمالية، سألتني سيّدة من الجمهور متى ستذهب أميركا إلى الحرب ضدّ العراق. أبلغتها أنّ عليها أن تراقب الصفحة الأولى في صحيفة نيويورك تايمز والواشنطن بوست حتى صدور أول حملة تشهير ضدّ مفتّشي الأمم المتحدة. وقد بدأت حملة التشهير آنذاك في أوائل كانون الأول/ديسمبر. وكان أحد مفتّشي الأمم المتحدة (وهو رجل مرشّح لوازرة الخارجية) متورّطاً في فيلم جنسي. وكان مسؤول آخر رفيع (مرشّح أيضاً لمنصب في وزارة الخارجية) قد طُرد من عمله كمسؤول لوكالة الحماية النووية. تساءلت: لماذا كان الأميركيون يريدون إذاً وضع هولاء الرجال في فريق التفتيش؟ أمن أجل أن يقوموا بإسقاطهم لاحقاً؟ بدأت الحملة الرسمية على مفتّشي الأمم المتحدة منذ أيلول/سبتمبر عندما أعلنت النيويورك تايمز من خلال جوديث ميلر أن فريق التفتيش الأساسي، استناداً إلى المفتّش السابق دايفيد كاي، أصبح في «مهمّة مستحيلة»... وكان المصدر «بعض المسؤولين ومفتّشين سابقين»...

كان الرئيس جورج بوش يركّز بشدّة مجدّداً على الدفاعات العراقية المضادّة للطائرات والتي كانت تطلق النار على الطيّارين الأميركيين والبريطانيين (رغم أن منطقة الحظر الجوّي لم تكن لها علاقة بعمليات تفتيش الأمم المتحدة ولم يكن لها بالأحرى أدنى علاقة بالأمم المتحدة). . . وبدا أن عمليات التفتيش مستمرّة دون إعاقة في بغداد. لكن ماذا كان بوش يخبرنا؟ «حتى الآن، لم تكن الإشارات مشجعة». ماذا كان يعني هذا؟ كان يعني ببساطة أن أميركا خطّطت للذهاب إلى الحرب مهما كانت نتيجة مفتشي الأمم المتحدة. وأقنعت النيويورك تايمز نفسها (وقد صارت الآن الناقل الأمين لتصريحات مسؤولين أميركيين مجهولين) بأن جيران العراق العرب كانوا «مستعدّين لدعم عملية عسكرية أميركية». رغم التحذيرات الكثيرة للزعماء العرب، المتكرّرة مجدّداً، شهراً بعد شهر، ومطالبة أميركا بعدم الذهاب إلى الحرب، كان هذا هو الكلام السخيف الموجّه إلى داخل الولايات المتحدة.

وفجأة خرجت الحكومة البريطانية بأحد ملفّاتها الشهيرة حول خرق صدّام حسين لحقوق الإنسان. أجل، نقولها مجدّداً، كنا نعرف عن غُرف الاغتصاب والإعدامات والتعذيب عندما دعمنا بقوّة غزوه لإيران عام ١٩٨٠. إذاً، لماذا نعود إليه مجدّداً؟ لاحظت فوراً نقطة صغيرة في الملفّ البريطاني الأخير، تكشف أن عزيز صالح أحمد، «مقاتل في الجيش الشعبي»، يشغل منصب «مغتصب شرف النساء»... وأنا الآن أتذكّر هذا الاسم، إنه عزيز صالح أحمد نفسه الذي ورد في الصفحة ٢٨٧ من كتاب لكنعان مكّية الذي سمّى نفسه يومها سمير الخليل.. والكتاب مطبوع وموزّع عام ١٩٩٣. وحتى مع تجاهلنا للجدال السجالي الذي حصل حول هذا الاكتشاف في ذلك الوقت، فماذا تفعل الحكومة البريطانية اليوم حين تعيد صياغة قصّة عزيز صالح أحمد وتنشرها مجدّداً كما لو أننا اكتشفناها للتوّ، بينما نعرف أن عمرها يتجاوز الثماني سنوات (استناداً إلى مكّية) إذ إنها رُوِيت لنا لأوّل مرّة منذ أكثر من عقد؟

في هذا الوقت، كان مستشارو السياسة الخارجية عند بوش مشغولين بتصعيد

صراع الحضارات... قال كنيت ألدمان، الذي كان في مجلس إدارة السياسة الدفاعية في البنتاغون، إن وصف بوش الإسلام بالدين المسالم «مسألة بحاجة إلى نقاش». الإسلام حربي بنظر ألدمان. «بكلّ الأحوال فإن مؤسّسه، محمّد، كان محارباً وليس داعية سلام مثل المسيح». ثم هناك إليوت كوهين من مدرسة جون هوبكنز للدراسات الدولية والذي كان أيضاً ضمن جهاز البنتاغون، والذي يقول الآن بأن عدوّ الولايات المتحدة ليس الإرهاب بل «الإسلام المقاتل». إن ألدمان وكوهين لا يتنازلان عن ديانتهما لكنّ الإسلام كان هدفهما بشكل واضح. قال بات روبرتسون، المذيع المتديّن (الذي كان يدير محطّة الإذاعة في جنوب لبنان التي كانت توجّه التهديدات إلى القرويين المسلمين وقوّات الأمم المتحدة) إن هتلر كان سيّئاً لكنّ ما يريد المسلمون فعله باليهود أسوأ». ووصف جيري فولويل، أحد متشدّدي اليمين المتديّن، النبيّ «بالإرهابي». أمّا فرانكلين غراهام فقد قال إن الإسلام «شرّ»، وذلك حين كان يتحدّث في حفل تنصيب بوش... وفرانكلين هو ابن بيلي غراهام الذي قال ملاحظات معادية للساميّة في تسجيلات الرئيس نيكسون الشهيرة...

لقد تجاهلنا هذه الخطابات البلاغية المنمّقة والخطرة.. وكان ذلك على حساب أمننا وسلامنا. ولكن هل كان بلير جاهلاً بها؟ ألم يعلم بوجود بعض الرجال الخطرين الذين كانوا يحومون حول بوش ويخطّطون؟ هل كان يعتقد حقاً أن البريطانيين سوف يذهبون عاطفياً إلى الحرب بسبب «ملفّات» وتهييج مستمرّ لذكرى جرائم صدّام؟ ألم نكن نريد من المفتّشين الدوليين القيام بعملهم؟ إذا كانت مهمّة المراسل وصف أكاذيب رجال الدولة، فإنّ صحيفة الإندبندنت رأت أن من واجب الصحافي إدانتهم أيضاً.

كتبت في صحيفتي يوم ٤ كانون الأول/ ديسمبر: «أعتقد أننا أسّسنا للحرب وأن بريطانيا ستنضمّ إلى أميركا في غزو العراق مهما كان ما اكتشفه المفتّشون». في الواقع، نحن مستعدّون للإمكانية المخيفة، المذهلة، الشنيعة وهي أن المفتشين التابعين للأمم المتحدة لن يجدوا أيّة أسلحة دمار شامل في العراق.

الأمر الذي يتركنا أمام استنتاج وحيد: «لم يكونوا جيّدين في عملهم. كان عليهم أن يعملوا في مجال النفط»(*).

بعد محاضرة لي في نيويورك، اقترب مني شابّ أميركي، عضو في فريق استخبارات القوّات الأميركية العائد حديثاً من أفغانستان، وأطلعني على صور لمشتبهي القاعدة، مضروبين ومقيّدين بينما كانوا يقادون إلى طائرة نقل أميركية أخذتهم إلى قندهار. إنهم يعيشون في غُرف تضمّ بين ثمانية وعشرة رجال. أُعطوا طعاماً وأغطية لكن لم يُسمح لهم بأيّة خصوصيّة... وكانوا مجبرين على التبوّل وقضاء الحاجة علناً لأن الأميركيين يراقبون أسراهم طيلة الوقت. اتفقنا على اللقاء في مقهى في منهاتن صباح اليوم التالي.. وقد جاء في الوقت المحدد لكنّه كان متوتّراً، يلتفت وراءه، قلقاً من أن يكون مراقباً، واضطرب في مقعده عندما رنّ هاتفي الخليوي..

قال: «القوّات الأميركية لم تفشل فقط في القضاء على أسامة بن لادن بينما كانت تستعدّ للحرب في العراق، بل وجدت من الصعب تقريباً القضاء على تنظيم القاعدة لأن رجال بن لادن لجأوا إلى الأساليب البدائية في الاتصالات والتي تعزل أيّ عضو في القاعدة عن أيّة معلومات». كانت تكهّنات هذا الرجل مختلفة كلّياً عن تصريحات وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد المختصرة.

(*) لفترة طويلة، كانت برامج الصحف البريطانية تهيّئ قرّاءها للحرب: خلال الذكرى الأولى لهجمات نيويورك وواشنطن، تبعت صحف الأكسبرس بشكل عبوديّ خط بوش ـ بلير ومخابراتهما. في ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، أعلنت الصاندي إكسبرس أن مصدر مخابرات رفيع المستوى في واشنطن كشف لها «المدى المرعب لأسلحة الدمار الشامل عند صدّام». وتحت عنوان «صدّام لدينا البرهان»، وصفت الصحيفة أسلحة صدّام بأنها «أسلحة جرثومية كافية لقتل كلّ سكّان لندن ونيويورك»: ٣٠ ألف ليتر من مادّة botulism القاتلة (بكتيريا سامّة) وستّة أطنان من غاز الأعصاب؛ ستّ محطات نووية يُشرف عليها علماء روس وكوريون، «وآلات للكلى تمّ تجهيزها لقدح زناد قنابل نووية». في اليوم التالي، ادّعت الدايلي إكسبرس تحت عنوان «هجوم نووي خلال أشهر» أن بلير كان يحذّر من هجوم كاسح سيشنّه جزّار بغداد ضدّ بريطانيا يمكن أن يحدث خلال بضعة شهور. وقد ثبت لاحقاً أن كلّ ذلك كان من نسج الخيال.

حتى في باكستان، قال لي الرجل، فإن ضبّاط الصفّ الثاني في الجيش الباكستاني يحذّرون عناصر القاعدة لتجنّب الغارات الأميركية المنظّمة. قال: «لم نعتقل مَن يُفترض بنا اعتقالهم. كان هناك توقّع أكبر من قِبلنا أنّ التكنولوجيا تستطيع القيام بأكثر ممّا قامت به. لقد اكتشفوا بشكل أساسي كيف نوقع بهم. وأدركوا أنهم إذا تواصلوا عبر الأجهزة، فإن عناصر الجوّالة سيقتفون أثرهم. لذلك بدأوا باستخدام سُعاة ينقلون رسائل باليد أو ينقلون الرسائل مشافهة، مما أربك نظامنا. إن استخباراتنا تستخدم التقنية العالية... بينما عادوا هم إلى الأساليب البدائية التي لا يستطيع الأميركيون التأقلم معها». في الأساس جرت «اعتقالات لشخصيات كبيرة»، لكنّ خلايا القاعدة لا تستطيع معرفة ما يفعله الأعضاء الآخرون. «كانوا أكثر تكيّفاً وأصبحوا أكثر تحرّكاً. أمسكنا باثنين من كبار رجال القاعدة لكن لم يكن بإمكانهما إخبارنا بالتحديد أيّ عمليات ستحصل. كانوا يعرفون أن شيئاً ضخماً يتمّ التخطيط له لكن لم تكن لديهم أدنى فكرة عن ماهيّته». كان ضابط الاستخبارات الذي أمضى أكثر من ستّة أشهر في أفغانستان عام ٢٠٠٢ عُرضة للانتقاد لإبلاغه عن رشيد دوستم، أمير الحرب الأوزبكي المتورّط في خنق حوالي ثلاثة الآف أسير من طالبان في حاويات الشاحنات. «كان دستم مذنباً بالتأكيد وكانت الولايات المتحدة تعرف أنه مذنب لكنه كان رجلنا ولذا فإننا لن نقول ذلك... من الأمور التي فشلنا في القيام بها تشكيل حكومة. لقد تركنا أمراء الحرب يحصّنون أنفسهم والآن نحن لا نستطيع الوصول إليهم». كان رجال الأمن الأميركيون يبحثون في كراتشي عن قتلة دانيال بيرل، لكنهم سرعان ما اكتشفوا أن أهدافهم طارت من مخابئها وذلك بسبب الدعم السرّي لصغار الضبّاط في الجيش الباكستاني. «كنّا نذهب مع الباكستانيين إلى مكان ما لنفاجأ بعدم وجود أحد هناك لأنه عندما كان يعلم ضبّاط الصف الثاني بخططنا فإنهم كانوا يسرّبون المعلومات. إن حرس الحدود في المحافظة الشمالية الغربية الحدودية هم من الصف الثاني في الجيش ـ ومشاعرهم معادية للغرب أكثر بكثير من الجيش الباكستاني الرئيسي . في النهاية كان علينا تنسيق كلّ شيء بواسطة إسلام أباد».

عندما سألت عن السجناء، أصبح ضابط القوّات الخاصّة قلقاً ومتردّداً. طلب فنجان قهوة آخر: «في قندهار، التي نسمّيها منطقة نفوذهم، أُعطي السجناء طعاماً وأغطية وأحذية وحقائب «أديداس» لكن لم يكن عندهم مراحيض. ولا جدران لأماكن عيشهم لأنه كان علينا مراقبتهم طيلة الوقت. ولا خصوصية لهم في الحمّامات. كان بعضهم يستمني أمام نساء من الحراس. لم تكن لدى الحرّاس أيّة ردّة فعل على ذلك. إنهم جنود. عندما تجري التحقيقات يسمح للسجناء بالجلوس. ولن أدخل في تحديد الأسئلة التي نطرحها عليهم». أما بالنسبة إلى الصحفيين الغربيين الذين التقاهم في بغرام، فقد كان لدى ضابط المخابرات الأميركي وجهة نظر متدنّية حيالهم. «إنهم لا يفعلون سوى أن ينتظروا طيلة النهار حول قاعدتنا. وعندما يكون لدينا عملية خاصّة، كنّا نقدّم للصحفيين بعض التسهيلات للذهاب في دورية مع القوّات الخاصّة، وإذا ذهبوا ـ أنت تعلم، «نحن في دورية مع القوّات الخاصّة» ـ كانوا لا يدركون أننا كنا نأخذهم بعيداً لنقصيهم عن طريقنا».

إذا كان بالإمكان خداع الصحفيين من قِبل الأميركيين، فقد أصدر الأفغان أحكامهم الخاصّة حول التاريخ الراهن. فبينما كانت القوّات الخاصّة الأميركية تجوب شوارع قندهار في سيّارات الجيب، كان أهالي هذه المدينة المضيافة الحارّة يزورون مقبرة موحشة بكلّ تقوى المؤمنين واحترامهم. تحت كومة من الطين الرمادي الجافّ كان يقبع «شهداء» القاعدة. هنا في ١٥٠ قبراً، يرقد الرجال الذين صمدوا حتى النهاية في ردهات مستشفى المدينة، وهم يطلقون النار على الأميركيين وحلفائهم الأفغان حتى قُتلوا بين المجارير والقاذورات. وهم يُعتبرون الآن قدّيسين. ويُخفي باطن أرض أخرى جثث أتباع أسامة بن لادن الذين قاتلوا في مطار قندهار في المعركة الأخيرة قبل سقوط طالبان. إنهم عرب وباكستانيون وشيشان وكازاخستانيون وكشميريون... وكلّهم ـ هذا إذا صدّقت الإعلام ـ كانوا مكروهين ومنبوذين من قبل سكّان قندهار البشتون.

لا صحّة لهذا إطلاقاً... فسكّان مقرّ خلافة طالبان السابقة كانوا يزورون المقابر بالمئات. أيام الجمعة، كانوا يأتون بالآلاف قاطعين مئات الأميال،

حاملين معهم مرضاهم والمحتضرين. ويقال إن زيارة لمقبرة رجال بن لادن سوف تشفي من المرض والوباء، وكذلك الركوع عند مقابر القدّيسين. وتقوم النساء المسنّات بغسل الشواهد الطينية بلطف ويمسحن وجوههنّ بالغبار الذي يغطّيها، ناظرات بخشوع إلى الأعلام الطويلة التي ترفرف في الريح المثقلة بالغبار. كانت قبرستان قندهار، مكان المقابر، عِبرة سياسية ودينية لكل الذين جاؤوا إلى هنا.

أعلن عامل في وكالة الغوث الغربية بوقار: «يُنصح الأجانب بالبقاء بعيداً عن مقبرة القاعدة. يمكن أن تكون في خطر هناك». لكن عندما زرت آخر مرّة مقبرة رجال بن لادن، كانت هناك الرياح القويّة والعاصفة الرملية المخيفة. أبقى العديد من الرجال أطراف أرديتهم حول وجوههم، وعيونهم القاتمة تحدّق بالأجنبي بينهم، بينما يقف جنديان من الجيش الأفغاني الجديد مكلّفَيْن من قِبل السلطات الموالية للأميركيين... كانوا يراقبون الزوّار، وهم يضعون أوعية مملوءة ملحاً على القبور ويأخذون قطع طين يلحسونها بألسنتهم. وكان هناك رجل مسنّ من هلمند، وضع حجارة وملحاً وطيناً على القبور ـ سلّم عليّ والملح بين أصابعه ـ وقد جاء لأنه مريض. قال: «أعاني من ألم بركبتي والتهاب بالدماغ وسمعت أنه إذا أتيت إلى هنا سوف أشفى. وضعت الملح والحبوب على القبور وسوف أجمعها لاحقاً وآكل الملح وآخذ طيناً من القبر إلى المنزل». يسمّي البشتون جلب الملح إلى قبور القديسين خوردا.

وجاء رجل أكبر سنّاً من أروزغان مع والدته. «تعاني والدتي من أوجاع في القدمين والظهر وقد أحضرتها إلى قندهار ليعالجها الأطبّاء. لكن عندما علمت بالروايات حول قبور هؤلاء الشهداء ـ وربّما شفوهم ـ أحضرت أمّي، وهي أكثر سعادة هنا من الذهاب إلى الأطبّاء». وقد شاهدت والدته المسنّة تجثو على ركبيتها، وتزيل الغبار عن القبور الطينية، وتصلّي وتبكي. وبدا الجنديّان الحكوميّان مستسلمين للاستغراق الغيبي نفسه. وأبلغني شاب غير ملتح يحمل رشّاش كلاشينكوف على كتفه: «شاهدت بنفسي أشخاصاً يتعافون هنا. يصبح

الناس بحالة جيّدة بعد زيارة القبور. رأيت رجلاً أصمّ عاد يسمع من جديد وشاهدت الأخرس يتكلّم. لقد تعافوا».

ليس هذا الوقت المناسب ـ وليس المكان أيضاً ـ لتكذيب مثل هذا الاقتناع. كان عصف الرمل فوق المقبرة بمثل خشونة بن لادن. وكانت مقبرة المدينة أوسع ـ هناك أميال من المقابر القبليّة في محيطها ـ لكن كان موتى القاعدة هم الذين يجذبون المحزونين. بأي شيء يجذبونهم؟ بالشائعات وبالأسطورة حول الشفاء؟ بفكرة أن هؤلاء الشهداء قاوموا الأجانب حتى النهاية، وفضّلوا الموت على الاستسلام بإن الشهداء من غير الأفغان قاتلوا مثل الأفغان؟

إذاً، كان هناك تواطؤ سرّي.. محاولة تضليلية لاستخدام الأمم المتحدة كورقة تين للحرب، وجمهور بريطاني واسع غير متعاطف، وصحفيون تمّ استخدامهم كمروّجين... وأخيراً: عدوّنا ـ طاغية عربي كان يعتبر سابقاً صديقاً للغرب ـ تتمّ مقارنته مع أسوأ المجرمين في الحرب العالمية الثانية. كان هذا عالمنا الخاصّ في شتاء ٢٠٠٢.

لكن حصل أيضاً أن كان هذا عالمنا قبل حوالي نصف قرن.. صراع ليس من أجل النفط بل من أجل قناة ضيّقة من صُنع البشر تربط البحر الأبيض المتوسّط بالبحر الأحمر. لقد لاحقتْ أزمة السويس الحكومات البريطانية دائماً منذ ١٩٥٦: لاحقتْ مارغريت تاتشر خلال حرب الفوكلاند عام ١٩٨٢، وتحرّكت ذكراها الآن بين وزارة الخارجية ودواننغ ستريت، بين جاك سترو وطوني بلير. ذلك أن أزمة السويس دمّرت رئيس وزراء بريطانياً، ومعه التحالف الأنغلو ـ أميركي تقريباً.. ورمزت إلى نهاية الإمبراطورية البريطانية. لقد قتلت العديد من المدنيين ـ جميعهم مصريّون بالطبع ـ وجلبت العار للحلفاء عندما اقترفوا جرائم حرب. وهي ارتكزت على كذبة ـ أن القوّات الفرنسية والبريطانية يجب أن تنزل في مصر للفصل بين الجيشين المصري والإسرائيلي، رغم أن البريطانيين والفرنسيين تواطؤوا مسبقاً مع الغزو الإسرائيلي. وقد وصف رئيس وزراء بريطانيا أنطوني إيدن العقيد جمال عبد الناصر بأنه «موسوليني النيل»..

وقبل سنة تقريباً كان إيدن يصافح بحرارة عبد ناصر في تبادل للتهاني حول معاهدة بريطانية ـ مصرية.. ظلال من لقاء دونالد رامسفيلد الودّي مع «هتلر بغداد» عام ١٩٨٣. على أنّ القوات البريطانية، السيّئة التجهيز والتي عاملت الأعداء المصريين بعنصرية، ما لبثت أن غادرت مصر ذليلة، وقد نبشت رُفات قتلاها من قبورهم لشحنها إلى بلادها، لئلّا يعبث المصريون بتلك الجثث.

كنت دائماً معجباً «بالجانب الآخر»، كيف يفكّر أو يقاتل الخاسرون ـ وأحياناً لا يكونون خاسرين مطلقاً. وعندما كنت مع الجيش العراقي خلال حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ مع إيران، كنت أرغب دائماً في الحديث إلى الجنود الإيرانيين على الطرف الآخر من الجبهة. وعندما كنت مع الإيرانيين صمّمت على الحديث مع مناوئيهم العراقيين. وعندما قام حزب الله بقتال جيش الاحتلال الإسرائيلي في جنوب لبنان، أطلت الاستماع إلى تحليلات الجيش الإسرائيلي حول حزب الله ـ بعيداً عن الرواية «الإرهابية» المعتادة التي يصنعها السياسيون الإسرائيلون، أظهر الضبّاط الصغار غالباً احتراماً لخطط مقاتلي حزب الله. وفي عام ٢٠٠٣، عشت في بغداد بين العراقيين بينما كانوا يُقصفون ويُهاجمون من قِبل قوّة الغزو الأنغلو ـ أميركية. وكنت صغيراً جدّاً لتغطية السويس ـ كانت والدتي مسرورة على ما أذكر لكوني صغيراً جدّاً لأصبح جندياً بريطانياً في غزو مصر ـ لكن إبّان الذكرى الثلاثين لهذه الأزمة، ذهبت للحديث مع المصريين الذين استولوا على قناة السويس وحاربوا الإنكليز، وأمضيت أسابيع عدّة في القاهرة أستمع إلى الذين تجرّأوا على معارضة الإمبراطورية البريطانية والأمّة الفرنسية والغُزاة الإسرائيليين.

لا يسمّيها المصريون «أزمة السويس» أو حتى «حرب السويس».. بل يشيرون إليها دائماً «بالعدوان الثلاثي»، بحيث لا ينسى مواطنوهم أن القوى العظمى الأوروبية تحالفت مع إسرائيل لغزو الجمهورية الجديدة التي أقامها جمال عبد الناصر. كانت أزمة السويس معقّدة، لكنها تحرّكت بمسار دائري حول قرار عبد الناصر ـ ضدّ الاتفاقيات الدولية ـ تأميم القناة والاستيلاء على شركة قناة السويس. وكانت البنوك ورجال الأعمال البريطانيون قد سيطروا لفترة طويلة على

الاستثمار في مصر، وكانوا يملكون ٤٤ في المئة من الاستثمار في الشركة التي فاوض لشرائها في الأساس بنيامين دزرائيلي. وقوبل استيلاء عبد الناصر على الشركة بتأييد الجماهير المصرية التي كانت مذهولة من انسحاب أميركا في وقت سابق من مشروع السدّ العالي في أسوان. وكانت كلمة السرّ للسيطرة على القناة «دي ليسبس»، وهذا اسم المهندس الذي بنى القناة عندما كانت مصر جزءاً من الإمبراطورية العثمانية. وعندما لفظ عبد الناصر اسم الرجل الفرنسي في خطاب بالإذاعة من الإسكندرية يوم ٢٦ تموز/يوليو ١٩٥٦، هاجم ١٢ ضابطاً من معاونيه مقرّ قيادة الشركة الكبير واستولوا عليه..

كان من بينهم النقيب علي ناصر وهو قبطان خجول عمره ٢٦ سنة ذو شارب رفيع، ويعمل في قناة السويس. وقد ارتقى درجات المبنى في الإسماعيلية ليُبلغ بهدوء الموظّفين الفرنسيين في الداخل أنهم يعملون الآن لصالح «الشركة المصرية للقناة». كان ناصر البحّار الوحيد في المجموعة. قال لي بعد ثلاثين عاماً: «كان لدينا شعور جنود ينتظرون التعليمات. قادنا إلى الداخل المهندس محمود يونس، الذي كانت لديه الأوامر المختومة من عبد الناصر شخصياً. كان معه مسدّس. وكنت أعزل ـ لم أؤمن أبداً بحمل سلاح ـ لكن في الداخل، وجدنا أن الفرنسيين والإنكليز واليونانيين كانوا ودودين جدّاً. أبلغناهم: «تمّ تأميم القناة، وأصبحت ملك مصر الآن. نريد تعاونكم. يجب أن تستمرّ السفن في عبور القناة». ثم قمنا بتدخين السجائر معهم. ونمنا منهكين على مكاتب الموظفين الفرنسيين. هكذا جئنا لتشغيل القناة».

بينما كان النقيب ناصر ينام في الإسماعيلية، كان أنطوني إيدن يتعشّى في داوننغ ستريت مع الملك العراقي ورئيس وزرائه نوري السعيد. وقد اغتيل الإثنان بعد سنتين في بغداد. لكن في تلك الليلة عام ١٩٥٦، كان حقد السعيد موجّهاً ضدّ الزعامة المصرية. نصح إيدن: «اضربوه، اضربوه بشدّة، والآن». في لندن اجتمع إيدن بضبّاط أركانه. وكان يريد إسقاط عبد الناصر ـ تغيير النظام هو الترجمة الجديدة للفكرة نفسها ـ وتحرير القناة. لكن أبلغه العسكريون الإنكليز أن ذلك ليس سهلاً. كانت القوّات تتدرّب في الخارج، وطائرات الإنزال معطّلة.

وأبلغني ضابط مظلّي بعد أكثر من أربعين عاماً: «عندما نزلنا خارج بور سعيد، أدركنا فجأة كم كانت جهوزية جيشنا متدنّية منذ الحرب العالمية الثانية. وكانت طائرات النقل تفرغ حمولتها من الجانب، وتحطّمت سيّارات الجيب ولم يستطيعوا حتى إنزال مدفعية لمساندتنا». كان أول اختبار لقوة عبد الناصر يوم ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٥٦، عندما قام جميع القباطنة الأجانب في سلطة قناة السويس بسحب عامليهم. وكان إيدن وغي موليه، رئيس الوزراء الفرنسي، قد خططا لهذا الإضراب في لندن قبل خمسة أيام وذلك لكي يُظهرا للعالم أن المصريين ليسوا أكفاء لتشغيل القناة. من بين ٢٠٥ قباطنة قادرين على توجيه القوافل عبر الممرّ البالغ طوله ١٠١ ميل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر، كان هناك أربعون مصرياً فقط ـ وكان خمسة منهم في إجازة. قال النقيب ناصر: «أدرك يونس أن ذلك سيحدث واستدعى كلّ القباطنة المصريين معاً للتشاور حول الحلّ. قلت له إن علينا تدريب قباطنة إضافيين لكن ليس لدينا الوقت لتعليمهم الملاحة في القناة كلّها. أبلغتهم أن علينا تعليم الرجال في أربع مجالات من القناة ـ المجموعة الأولى تتعلّم كيف تقود السفن في المنطقة الجنوبية من النصف الأول من القناة إلى الإسماعيلية، والمجموعة التالية تتعلّم المرحلة الثانية جنوب قناة السويس، والمجموعتان الأخريان تتعلّمان المراحل نفسها إلى شمال القناة». ليلة ١٥ أيلول/سبتمبر، وجد ناصر نفسه مسؤولاً عن عبور سفينة شحن ألمانيّة زنتها ١٤ ألف طنّ في بور سعيد. «غادر القباطنة الأجانب وكنت قلقاً بالنسبة إلى عملي ومسؤوليتي عن الوضع الجديد، وأنني لا أستطيع تمييز الأضواء الخضراء العائمة من الأضواء الحمراء العائمة على مدخل القناة. لكن كان القبطان الألماني لطيفاً جدّاً وشجّعني. تحرّكنا نزولاً في القناة ليلاً، وعند الفجر شاهدت أضواء سيّارة على الطريق قربنا. كان يونس ومعه مكبّر للصوت يصرخ مشجّعاً لي ولبقيّة القباطنة في كلّ سفينة تعبر قربه».

في بريطانيا، مضت الأيام والأسابيع والأشهر التي تلت استيلاء عبد الناصر على قناة السويس حافلة بالمراوغة والأكاذيب البرلمانية والمحاولات اليائسة لتشكيل تحالف عسكري ـ والأكثر ضرراً من كلّ ذلك الاجتماع السرّي الذي

عُقد في سيفْر خارج باريس، حيث اتفق الإسرائيليون والفرنسيون والإنكليز على أن يهاجم الجيش الإسرائيلي مصر وأن تقوم فرنسا وبريطانيا بالتدخّل وتطلبا من الجيشين الإسرائيلي والمصري الانسحاب من جانبَي القناة، وتوضع قوّة تدخّل أنغلو ـ فرنسية في منطقة القناة حول بور سعيد. وقد سُمّيت العملية: «عملية الفرسان»... وكان الشعب البريطاني استُنهض من خمول ما بعد الحرب عبر مقالات الصحف التي أدانت الذين سألوا عن حقّ إيدن في استخدام القوّة العسكرية.

قادت صحيفة التايمز الحملة. وكان المقال الافتتاحي ـ الذي كتبه رئيس التحرير وليام هالي ـ مدوّياً: «بالطبع يريد الرأي العامّ تجنّب استخدام القوّة. وكذلك يريد الجميع ونحن نأمل أن لا أحد يريد ذلك أكثر من الحكومة البريطانية. لكنّ تلك صرخة بعيدة عن القول بأنه لمّا كنّا لا نستطيع أن نفعل سوى القليل فإن الشيء الأفضل هو إيجاد أعذار لذلك وأن ننسى المسألة برمّتها. إن الأمم لا تعيش إلّا من خلال الدفاع القويّ عن مصالحها... وإن الشعب يعرف ذلك (ولو بصمت) أكثر من أي واحد من المنتقدين. . . . وهو لا يزال يريد بريطانيا قويّة». ورأت صحيفة الغارديان مانشستر أن المقال الافتتاحي للتايمز كان هجوماً على حقّ الكلام ضدّ الحكومة في أوقات الأزمات ـ بدأ نقاش مشابه عندما اقتربت الحرب العراقية عام ٢٠٠٣ ـ ولعب سكرتير إيدن الصحفي وليام كلارك دوراً مشابهاً لدور ألستير كامبل في داوننغ ستريت إبّان حُكم بلير.

«عمل كلارك بالتعاون مع التايمز» هذا ما استذكره طوني شو في روايته اللاحقة والساخرة بشكل مهين حول الأزمة. كانت مهمّة كلارك ـ وهنا يوجد تشابه كبير غير مريح مع جورج بوش والأمم المتحدة ـ «تحضير الأرضيّة لقيام الحكومة بتحويل مختصر للخلاف إلى الأمم المتحدة. وكان هذا يتطلّب براعة معيّنة من حيث أن إيدن والصحيفة استبعدا المنظمة على اعتبار أنها غير عملية وغير قادرة على إصدار قرارات سريعة». وأبلغ إيدن هالي أنه يريد استخدام الأمم المتحدة كأداة فقط لإثبات ذنب عبد الناصر وتبرير استخدام القوة ـ الشيء نفسه الذي أراد بوش من مفتّشي الأمم المتحدة القيام به في العراق عام ٢٠٠٢.

وصدر مقال افتتاحي آخر للتايمز ـ ١٩٥٦ ـ قد يمكن إعادة طباعته في أواخر ٢٠٠٢ مع وضع كلمة «العراق» عوضاً عن «القناة»:

«بما أن الاعتراض على القضيّة قد أُرجع ببساطة إلى الأمم المتحدة ليُترك في عُهدتها، فإن ما حصل، وسيحصل، هو أن الأمم المتحدة ستكون على الأغلب متباطئة وبالتأكيد غير فاعلة كأداة لتحرير القناة. لكن مهما كانت المراقبة الدولية التي ستأتي في النهاية عبر المفاوضات أو غيرها فمن المؤكّد أنها ستكون تحت إشراف الأمم المتحدة.. وبالتالي كلّما جرى الإسراع في إبلاغ الأمم المتحدة رسمياً بما حصل كان ذلك أفضل».

واستناداً إلى الدراسة الضخمة التي وضعها كينيت لوف حول حرب القناة، «فقد ولِد التآمر من زواج بين سياسة إيدن المعادية لعبد الناصر والتحالف غير المكتوب بين فرنسا وإسرائيل». وقد قامت إسرائيل بغزو سيناء يوم ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر، معلنة أن قوّاتها هاجمت قواعد فدائيين فلسطينيين، وأن عملياتها العسكرية كانت ضرورية «أمام الهجمات العسكرية المصرية ضدّ المدنيين وضدّ أرض إسرائيل وطرق مواصلاتها البحرية».. ودعت فرنسا وبريطانيا إلى وقف لإطلاق النار بين القوّات المصرية والإسرائيلية، فقبلت إسرائيل هذه الهدنة وفقاً للاتفاق المسبق الذي تقرّر بين الدول الثلاث. أما عبد الناصر الذي أقنع نفسه منذ فترة طويلة ـ وعن حقّ ـ بأن القوى الثلاث خططت للحرب فقد رفض الهدنة.

انسحب الجيش المصري مع بعض العمليات الشجاعة لكن مع الكثير من الفوضى عبر سيناء إلى ضفاف القناة(*). وفي ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر بدأت

(*) ربما كان الانسحاب المصري سريعاً بسبب الإعدام الإسرائيلي لحوالي ٤٩ جندياً مصرياً أسروا في صحراء سيناء. وإستناداً إلى بيرو أري الضابط الإسرائيلي الذي أمر بعمليات القتل، كان هو ورجاله متمركزين مع الأسرى وراء الخطوط المصرية. قال بعد سنوات: «لم تكن القوّات كافية لحراستهم. وكان علينا التحرك نحو رأس سودار. لذلك قرّرت تصفيتهم». ظهر القتلة إلى العلن عام ١٩٩٥ فقط بعدما نشرت ورقة بحث داخلية للجيش الإسرائيلي بعنوان «المظاهر السياسية والعسكرية لحرب سيناء عام ١٩٥٦». كان الجنود المسؤولون عن الإعدامات ينتمون إلى فرقة المظلّيين ٨٩٠، بقيادة رفاييل إيتان الذي أصبح لاحقاً رئيس أركان الجيش الإسرائيلي وعضواً في الكنيست عن الجناح اليميني لحزب تسوميت. وقد حظر المصريون أولاً نشر الاعترافات في صحف القاهرة لكنهم طلبوا لاحقاً تفسيراً من الحكومة الإسرائيلية.

القوّات الجوّية الفرنسية والبريطانية عملياتها التي خُطّط لها منذ أمد ضدّ مصر. وتحرّك النقيب الاحتياطي مصطفى كمال مراد من قيادة الجيش المصري الشرقية على الطريق الصحراوي من القاهرة بعد الظهر. «كان ذلك أشبه بالكابوس»، قال لي بعد ثلاثين سنة.. «كان هناك ميل تلو ميل من المدرّعات المصرية على الطريق وكانت كل الشاحنات والدبّابات تحترق بعد الهجمات الجوّية. صُدمتُ بشدّة. كان الفلاحون البؤساء يسيرون على الطريق ويصرخون علينا: «جلبتم هذا الدمار لبلادنا أيها الشياطين». وقد وجد مراد الإسماعيلية هادئة لكنّها تعجّ بالقوّات الخائفة والتائهة بعد انسحابها من سيناء. «كانت المعنويات سيّئة جدّاً، وأقدام جنودنا متورّمة من السير في الصحراء، وكانوا يزرعون الخوف في الجيش المدافع، والحرس الوطني، فكل الجيوش المنسحبة تروي أكاذيب لأصدقائها. وكان علينا إرسالهم فوراً إلى القاهرة».

وجد مراد نفسه في القنصلية البريطانية القديمة في الإسماعيلية التي أصبحت مقرّ قيادة عسكرية مصرية للطوارئ.. وتلك مؤسّسة، كان على مراد تذكّرها، «كانت متعة كبيرة لضبّاطنا حيث ترك الإنكليز وراءهم صناديق من الويسكي والشمبانيا والبيرة والكونياك». وكانت القوّات المصرية تنهب بيوت المدنيين في المدينة ـ حتى أمر قائدها كمال الدين حسين بإعدام اللصوص علناً. وأمام ضعف القيادة انهار بعض الضبّاط المصريين. وطُلب من العقيد عبد العزيز سليم الدفاع عن أطراف الإسماعيلية وقد صرخ بحسين: «حاميتي ستدمّر كلّياً من قِبل سلاح الجوّ البريطاني». وأضاف مراد: «طلبت من حسين إرساله إلى القاهرة». لكن عند الصباح، جاء حارس سليم إلينا وقال إن دماء تسيل من تحت باب غرفة العقيد. وعندما فتحنا الباب وجدنا سليم منتحراً على مكتبه». كان تذكّر مراد لقصف القوّة الجوّية البريطانية حيّاً عندما قابلته عام ١٩٨٦... ارتفعت يده بعنف تكراراً إلى الجوّ ليصف الغارات على المطارات حول الإسماعيلية. «أدهشني أنهم لا يهاجمون مدنيين. كانوا حريصين جدّاً. وعندما وصلت إلى المطارات بعد الغارات، وجدت أن جنودنا عصوا الأوامر بالإنسحاب إلى الخنادق تحت القصف الجوّي. وعوضاً عن ذلك ظلّوا على مدافعهم المضادّة

للطائرات واستمرّوا في الدفاع. كانت صواريخ سلاح الجوّ البريطاني دقيقة جدّاً بحيث ضربت المدافع . وقد قطّعت الصواريخ أجساد رجالنا نصفيْن. كنت أجد أقدامهم وجذوعهم على المدافع ونصفهم الأعلى مفقوداً».

يوم ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦، نزلت القوّات الأنغلو ـ فرنسية حول بور سعيد، وجاء العديد منهم مع سفن الأسطول القديمة من قبرص. وقد هبط ٧٨٠ مظليّاً بريطانياً في مطار جميل، و٤٧٠ مظلياً فرنسياً على جسرين على القناة في الرسوة. في الساعات الأولى، كان مراد ينام نوماً متقطعاً على أريكة في مقرّ قيادة الإسماعيلية عندما أيقظه رجل طويل وقف بجانبه: «نهضت، وذهلت عندما وجدت أنه جمال عبد الناصر. كان يرتدي بذلة مدنية جميلة. قلت له: أهلاً وسهلاً سيادة الرئيس، لكن ماذا تفعل هنا؟ يجب أن تكون في القاهرة. قال إنه ذاهب إلى بور سعيد. قلت: إنسَ ذلك سيّدي، عليك العودة إلى القاهرة فوراً لأن المظلّيين الإنكليز يُتوقّع نزولهم في بور سعيد خلال ساعات قليلة. وقد طلب عبد الناصر غرفة ليستريح فيها فوضعته في غرفة القنصل البريطاني. بعد ساعات قليلة، نزل الإنكليز في بور سعيد وراحوا يقاتلون للاستيلاء على قاعدة جميل».

وهكذا منع النقيب مراد أنطوني إيدن من أسر المصري الذي كرهه كثيراً. وعاد عبد الناصر الذي كان يرتدي ملابس جديدة وتفوح منه رائحة الكولونيا إلى القاهرة ـ لكن ليس قبل أن يطرح مراد عليه سؤالاً مهمّاً. «سألت عبد الناصر: هل هناك اتفاق مع الروس للمساعدة العسكرية؟. قال: كلّا. كنت غاضباً. اعتقدت أن هذا الرجل مجنون ليتحدّى ثلاث قوى مجتمعة. قلت: سيّدي، علينا القيام بما نستطيع لكن ستكون معجزة إذا استطعنا مجابهة الإنكليز والفرنسيين وإسرائيل. أجاب: ربّنا معنا، الله معنا. ثم غادر».

كان النقيب نصر في منزله في شارع الجمهورية في بور سعيد عندما نزل الإنكليز. «سمعنا إطلاق النار ـ طُلب من الجميع البقاء في بيوتهم لمدة ٢٤ ساعة. أوّل مَن شاهدته عندما ذهبت خارجاً كان جاراً لي، يُدعى عادل مندور ـ وكان ممدّداً ميتاً في الشارع. كان عضواً في الحرس الوطني. قتله جندي

بريطاني. وكان وجهه في مزراب المياه ويداه ممدودتين. أتذكّر والدته وهي تخرج من منزلها وتحمله بصمت وتأخذه إلى منزلها». في البداية، كان القتلى يدفنون كُلّاً على حِدة، وبعد ذلك وضِعت عشرات الجثث ومعظمها من المدنيين في قبر جماعي قرب المطار. وهاجم الإنكليز مركزاً للشرطة المصرية صمد تحت نيران كثيفة وقُتل جميع من بداخله تقريباً. وقدّر جنرال بريطاني أن حوالي ألف مصري قُتلوا في المدينة، وهو رقم متفاوت بحسب رأي النقيب مراد الذي قدّر دقّة القصف المركّز للقوّة الجويّة البريطانية. وقُتل العديد من المدنيين على يد المظلّيين الفرنسيين. وكتب أحدهم لاحقاً أنه ورفاقه قتلوا مجموعة من الصيّادين الأبرياء لأنه صدرت أوامر للفرنسيين بعدم أخذ أسرى. وقتل المظلّيون مدنيين آخرين بإطلاق النار عليهم من مسافة قصيرة عندما حاولوا الفرار إلى القناة.

قال النقيب نصر: «لم يكن سلوك الإنكليز سيّئاً ـ لم يسرقوا شيئاً عندما أسكنوا رجالاً في شقّتي. لكن كان تصرّف الفرنسيين مختلفاً كثيراً، عاملوا الناس بشكل سيّئ جدّاً. ربّما يعود ذلك إلى تجربتهم في الجزائر لكن أظنّ أنهم كانوا غاضبين بسبب اعتقادهم أن القناة ملكهم وأن لهم الحقّ باسترجاعها». كان عبد الناصر يساند علناً جبهة التحرير الوطني في الجزائر.

في مطار جميل، اعتقل الإنكليز مقاتلاً مصرياً اسمه محمد مهران عثمان. وكانوا يريدون معرفة أماكن مخازن الأسلحة المصرية. وقال لاحقاً إن أطبّاء عسكريين إنكليزاً اقتلعوا عينيه عندما رفض إعطاء معلومات عن مخابىء الأسلحة وبثّ دعاية للحلفاء من محطّة إذاعة في قبرص. لا توجد شهادة محايدة حول ذلك، غير أنني التقيت عام ١٩٩١ عثمان الذي اقتُلعت عيناه من محجريهما، وأخبرني أن الإنكليز كانوا ينتقمون أيضاً لإصابة طبيب عسكري خلال نزوله في مطار جميل.

أصيب الطبيب المظلّي، الملازم ساندي كافيناغ، من الفرقة المظلّية الثالثة الطبّية في عينه اليمنى بشظيّة خلال نزوله في مطار جميل، غير أنه أبلغني بعد أربعين سنة أنه لا يعرف شيئاً عن ادّعاءات الأعمى المصري. وبعد عدّة سنوات شاهد كافيناغ عثمان يعمل دليلاً في المتحف العسكري في بور سعيد لكنه لم

يتحدّث إليه. وكافيناغ هذا رجل لطيف ومهذّب، كتب رواية مصوّرة عن الإنزال وحصل على تنويه من قائده لأنه استمرّ رغم إصابته الخطرة في معالجة رفاقه طيلة خمس ساعات(*).

ويحتوي الأرشيف على أدلّة تكشف العنصرية التي وسمت الجيش الإمبريالي السابق. وقد جرت الإشارة إلى المنطقة الفقيرة في بور سعيد على الخرائط البريطانية على أنها مدينة معادية، بينما تحدّثت نشرة دعائية من قِبل «قيادة قوّات التحالف» يوم ١ كانون الأول/ديسمبر ١٩٥٦ عن «الذهنية الماكرة» للعرب.. ومُنع الصحفيون الإنكليز من الوصول إلى بور سعيد حتى بعد أيام من المعركة، لكن بعد أسبوع من وقف إطلاق النار شاهد المراسل ألكس إفتيفولوس جثثاً كانت لا تزال غير مدفونة في بورسعيد.

بدا القائد المصري للإسماعيلية، كمال الدين حسين، غاضباً عندما سمع زميله في بورسعيد الجنرال صلاح الدين الموجي يحدّثه من خط هاتف نجا من المعركة. تذكّر مراد: «أبلغنا أنه اتفق مع جنرال إنكليزي على وقف إطلاق النار مدة ستّ ساعات لجمع القتلى والجرحى. فصرخ حسين به: كيف تجرؤ على

(*) لم تُشر الصحف العسكرية البريطانية في ذلك الوقت (والعديد غيرها .. مثل تسجيلات إيدن حول اجتماع سيفر السرّي والتي أتلفت بعد شهور من غزو السويس) إلى إتهام عثمان، مع أنني أمضيت ثلاثة أسابيع في مكتب التسجيل العام في لندن أحاول إيجاد بعض التوثيق لاستجوابات الأسرى. وأظهر ملفّ أن ضبّاط المخابرات من الفرقة البريطانية الثانية أفادوا بعد معركة بورسعيد أن «استجواب أسرى الحرب في بورسعيد لم يؤدّ إلى النتيجة المرجوّة. ولم يتم تحديد أي موقع قيادة» والغريب أن ملفّات بورسعيد لا تتضمّن أي شيء عن الفترة من ٦ إلى ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٦. ولم تظهر ملفّات مكتب التسجيل العام أن الصليب الأحمر الدولي في مصر طلب معرفة ما إذا كان أيّ من الأسرى نُقل إلى قبرص. وقد تمّ استجواب المكتب الحربي أيضاً عمّا إذا طُلب من المصريين التحدث عبر محطة إذاعة بريطانية للدعاية في قبرص. وقد أجاب مسؤول بريطاني بشكل غير مساعد: «لم نوسّع تحقيقاتنا إلى محطة الإذاعة التي كانت تعمل من قبرص تحت اسم صوت بريطانيا خلال الإنزال في السويس، لكن يمكنك مع ذلك أن تطلب إلى وزارة الدفاع متابعة هذا الخط من التحقيق ولكن لا أعتقد أن ذلك سيكون ذا فائدة». كان سيفتون دلمير، مراسل الدايلي أكسبرس قبل حرب برلين ومدير محطة إذاعة الدعاية «السوداء» الألمانية خلال الحرب العالمية الثانية، قد سافر إلى قبرص للمساعدة في تشغيل هذه المحطة الإذاعية الغامضة.

مقابلة جنرال إنكليزي بدون أوامري. وسمعت الموجي يردّ: أنا القائد الأعلى في بورسعيد وهذا قراري. ثم أقفل الخط».

في الصباح الباكر من يوم ٧ تشرين الثاني/نوفمبر، كان مراد يتحرّك بحذر على طريق ضيّق على القناة شمال الإسماعيلية وعلى ظهره مدفع رشّاش. تخطى للتوّ قرية صيد سمك اسمها جسر الهند عندما شاهد نبتتَي خشخاش تتحرّكان داخل العشب الطويل إلى يمينه. «عندها شاهدت شابّين صغيرين كلاهما من المظلّيين البريطانيين يعتمران قبّعتين حمراوين، ممدّدين في العشب يراقبانني. كانا يصوّبان سلاحهما نحوي عن بعد ٧٠ ياردة. وأخرجا محارم بيضاء وربطاها على حربتي بندقيتهما وصرخ أحدهما بي: «هالو» فأبقيت يدي بعيدة عن سلاحي وقلت لهما «هالو». ثمّ شاهدت دبّابات بريطانية أمامي وكذلك بعض الجنود وهم يضعون أسلاكا شائكة على طول الطريق. كان هذان الشابّان يستطيعان قتلي لذلك تبادر إلى ذهني الشعور بأن هناك وقفاً لإطلاق النار. وتابعت التفكير: «كم كان غبيّاً القائد البريطاني الذي توقّف هنا على بعد ٣٨ كلم من بورسعيد. لا يوجد أي عائق أمامه وكان يستطيع الوصول إلى القاهرة خلال ساعات قليلة».

لكن لم يتقدّم الإنكليز أبعد من ذلك. وقد وصل مراد في سيره إلى نهاية المغامرة الإمبريالية الأخيرة للجيش البريطاني. وبعد بعض الوقت أدرك أن الأميركيين تدخّلوا وأن العملية وصلت إلى نهايتها. كان الرئيس إيزنهاور غاضباً عندما علم أن الغزو الإسرائيلي تمّ التخطيط له من قِبل الحلفاء ـ ولا سيّما الفرنسيين ـ وبعكس عقيدة بوش عام ٢٠٠٣ فقد احتفظت أميركا بحقّ التنديد بالغزو برمّته. وأظهرت ملاحظة أيزنهاور الشهيرة إلى فوستر دالاس (طلب منه الذهاب إلى لندن وإبلاغ إيدن: «توقّف يا ولد») كم كان قريباً من إمكانية قطع كلّ دعم لبريطانيا. يوم ٢٨ تشرين الثاني/نوفمبر، كان وزير الخارجية الريطاني سلوين لويد يبلغ مجلس الوزراء أنه إذا انسحبت القوّات الأنغلو ـ فرنسية بسرعة وبشكل عملي، فإننا سوف نستعيد تعاطف الحكومة الأميركية. ولدى سؤاله من قِبل لجنة ١٩٢٢ حول التآمر بين إسرائيل وبريطانيا وفرنسا، قال إيدن إن بعض

«أنصاف الحقائق» ضرورية ـ وإذا وجِدت بأي حال فإنها ليست خطيرة أو واسعة النطاق ـ وأن هذا النوع من العلاقة يتطلّب سرّية قصوى». ويوم ٢٠ كانون الأول/ديسمبر كذب على مجلس العموم: «أودّ التوضيح حول مسألة المعرفة المسبقة بالعملية، والاعتراف بدون مواربة أمام مجلس العموم أنه لم يكن لدينا علم مسبق بنيّة إسرائيل مهاجمة مصر ـ ولم يوجد أبداً. لكن كان هناك شيء آخر.. كان هناك احتمال لقيامهم بذلك، وكنا نعرف ذلك جيّداً، وبسبب وجود احتمال من هذا النوع فقد جرت بعض المحادثات والمناقشات، وكان هذا على ما أظنّ أمراً طبيعياً ومشروعاً، وأعتقد أن ما من أحد إلّا ويفعل الشيء نفسه». بعد الغزو غير القانوني للعراق عام ٢٠٠٣، لم يستطع طوني بلير الرهان على حصول ذلك. كان إيدن رجلاً مريضاً ـ لقد عانى من عملية جراحية ترك خلالها الجرّاح آلة طبّية داخله عن طريق الخطأ ـ وبدأ زملاؤه التساؤل بحذر عن مستقبله كما ذكر سكوت لوكاس في روايته. وفي ٩ كانون الثاني/يناير ١٩٥٧، قام طبيب إيدن، هارولد ماكميلان، بإبلاغه أن حياته معرّضة للخطر إذا استمرّ في الوزارة وأنه لا سبيل للشفاء». كان ماكميلان مصدوماً وكتب: «ما كدت أصدّق أن هذه كانت نهاية الحياة العامّة لرجل شابّ نسبياً ولديه الكثير ليقدّمه. جلسنا معاً بعض الوقت، وتبادلنا بضع كلمات حول الحرب الأولى التي خضناها معاً وعانينا منها». وقد سجّلت استقالة إيدن نهاية آخر محاولة قامت بها بريطانيا، كما كتب سكوت لوكاس، لإظهار أنها لم تطلب دعم واشنطن في الدفاع عن مصالحها». ومن الآن فصاعداً أصبحت بريطانيا خادمة للسياسة الأميركية، وباتت السياسة الأميركية وحدها هي التي تعمل للدفاع عن الشرق الأوسط. لقد قادت عقيدة أيزنهاور عام ١٩٥٧ بلا شكّ إلى السيطرة التي تمارسها الولايات المتحدة الآن على العالم... والآن فإن واشنطن هي التي قد تحتاج إلى تأييد بريطانيا للدفاع عن مصالحها (على الأقلّ في عملية لغزو العراق مع أن ذلك كان أمراً مشكوكاً فيه.

في مصر، حكم عبد الناصر بشعبية أكبر واستمرّ حتى بعد هزيمته الواضحة أمام إسرائيل في الحرب العربية ـ الإسرائيلية عام ١٩٦٧، وقام بقمع المعارضة

الداخلية من خلال الإعدامات والتعذيب. وقد جذبت السويس انتباه العالم بينما كان الروس يهاجمون بودابست يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٦ ويسحقون ثورتها. ولم يسامح البعض أبداً الزعيم العمّالي هوغ غايتسكل على خطابه المذاع في تشرين الثاني/نوفمبر حيث وصف القوّات البريطانية بالمعتدية ـ بعكس عام ٢٠٠٣، كانت هناك على الأقلّ معارضة سياسية جدّية للحكومة في مجلس العموم ـ في حين خسرت الأوبزرفر قرّاء لم تسترجعهم أبداً وذلك بسبب معارضتها للحرب.

قال النقيب السابق مراد بعد ثلاثين عاماً: «كان كلّ شيء مقامرة. كان عبد الناصر محظوظاً لأنّ الأميركيين تدخّلوا وطلبوا من بريطانيا وقف إطلاق النار والانسحاب ـ أراد الأميركيون الحلول مكان الأوروبين كقوّة عظمى في الشرق الأوسط. لكن كان ذلك ضربة حظّ. لو كنت مكان عبد الناصر لما قمت بذلك لأنه لم تكن هناك معاهدة مع روسيا. لم تكن الحرب مباراة متساوية. ولم تكن حرباً حقيقية. كان التحرّك قد اتّخذ ضدّ تأميم القناة لتدمير سلطة عبد الناصر. وقد أدركنا ذلك في حينه».

لكن كانت الكلمة الأخيرة لإيدن بعد نزول البريطانيين في السويس. قال: «لو سمحنا للأمور بالتدهور والانحراف لكان كل شيء انتقل من سيّئ إلى أسوأ. وربّما أصبح عبد الناصر موسوليني آخر مسلماً وأدّى ذلك إلى تساقط أصدقائنا في العراق والأردنّ والسعودية وحتى إيران، وربّما انتقلت جهوده غرباً وسقطت ليبيا وشمال أفريقيا تحت سيطرته». سوف نسمع ترداد ذلك عام ٢٠٠٢ و٢٠٠٣ حتى وإن كانت كراهية إيدن لعبد الناصر تقف عند حدود مُعيّنة. «لم أتصوّر أبداً عبد الناصر هتلراً آخر» كان هذا ما كتبه إيدن. لكنّ المقارنة مع موسوليني كانت موجودة. وقد أشار رئيس الوزراء الفرنسي غي موليه إلى عبد الناصر على أنه دكتاتور مبتدئ. وكان موليه وإيدن مأخوذين بما أسماه موليه شخصياً «عقدة العداء لميونيخ» (المقصود العقدة الأوروبية التي نشأت والتي رأت في اتفاقية ميونيخ التي عقدها الفرنسيون والبريطانيون مع هتلر قبل أن يشنّ حربه العامّة تخاذلاً وسبباً في المفاجأة والانهيار في مطلع الحرب ـ المترجم)

في بريطانيا عام ٢٠٠٣ صدحت الصحف بمبرّرات الحرب. وفي أميركا جادلوا بالكتب مستذكرين هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وأُنتجت أكياس ورقيّة للسلام في العراق، ومجلّدات ضخمة مع ملاحظات تُعدّد حسنات «تغيير النظام في الشرق الأوسط». وذهب الناشرون في نيويورك وبقيّة الإعلام إلى الحرب. وكان عليك قراءة عناوين كتب ١١ أيلول/سبتمبر ـ العديد منها صور تذكارية ضخمة ـ على منصّات الأخبار في أميركا: فوق الأرض المقدّسة، لكي يعيش الآخرون، ماذا رأينا، قوّة القلب، الحدود الأخيرة، غضب للّه، ظلّ السيوف... لا عجب أن التلفزة الأميركية اعتبرت الحرب القادمة مضمونة. وأعلنت السي إن إن عن استعراض أخير في العراق. «الاستعداد للحرب»... لم يناقش أحد هذا اليقين.. وقد قدّمت احتجاجاً خلال برنامج إذاعي على الهواء في الولايات المتحدة في شهر كانون الثاني/يناير لأن المشاركين (بمن فيهم أكاديمي إسرائيلي وضابط أمم متحدة إيرلندي، ومحارب سابق في فيتنام وطوني بن وآخرون) لم يطلب منهم مناقشة ما إذا كان يجب حصول حرب على العراق بل مناقشة عواقب هذه الحرب. وقد أكّدت ورقة النقاش حتمية الصراع!

كانت المساهمة الأحدث والأكثر أهمّية لهذا النقاش الاحتيالي في الولايات المتحدة هي كتاب «الإعصار المهدّد: «قضية غزو العراق»، من تأليف كينيت بولاك وهو شبح سابق من وكالة الاستخبارات الأميركية ومدير سابق «لشؤون الخليج» في مجلس الأمن القومي.

كان الكتاب الذي يُفترض بكل أميركا الحديث عنه ـ وعنوانه: «الإعصار المهدّد»، هو بالطبع نسخة مطابقة عن كتاب «الإعصار التجميعي»، وهو الجزء الثاني من كتاب لونستون تشرشل عن تاريخ الحرب العالمية الثانية... وهو عنوان يبلغك ما ترغب في معرفته حول المضمون. وقد حاول جورج بوش عام ٢٠٠٢ شخصياً الظهور بمظهر التهدئة مثل تشرشل، لذلك ادّعى بولاك مرّتين أن العالم يواجه الحيرة نفسها التي واجهت بريطانيا وفرنسا عام ١٩٣٨. كان باستطاعة الحلفاء كسب الحرب خلال سنة، بحسب ادّعائه، لو ذهبوا إلى الحرب ضدّ

هتلر في حينه. ولم يسمح أبداً لحقيقة مهمّة بالتدخّل في تلك المحاججة الفارغة.. فالواقع هو أن بريطانيا وفرنسا كانتا رغم تفوقهما عددياً، ضعيفتين على صعيد الأسلحة المتطوّرة ـ في حين أنه كان باستطاعة الولايات المتحدة سحق قوّات صدّام في أقلّ من شهر. . . . وافق بولاك أن هتلر لم يكن صدّام، لكن لبس صدّام مرّة أخرى ثياب هتلر ـ كما كان عبد الناصر موسوليني النيل خلال أزمة السويس عام ١٩٥٦ ـ وأيّ إنسان عارض الحرب امتداداً لمؤيّدي النازي.

قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ـ الحرب العالمية الثانية الحقيقية كما هي ـ وفي بدايتها، طلب الناشرون الإنكليز من المؤلّفين مساندة الصراع. وكان فيكتور كولانكس مدافعاً شرساً عن الحرّيات البريطانية. وفي عام ١٩٤١، كنا ننشر أفضل رواية: «القطار الأخير من برلين» من تأليف هوارد سميث، وهي سيرة شخصية لمراسل أميركي مشهور، تروي حياته اليائسة في ألمانيا النازية قبل دخول الولايات المتحدة الصراع. ولكن هذه الأعمال كانت أدبية غالباً وعقائدية. وما حصل في الولايات المتحدة في الأسابيع التي سبقت غزو العراق كان شيئاً مختلفاً: محاولة ممقوتة، ودنيئة، لدفع الأميركيين إلى الحرب على قاعدة صامتة ومحترمة وفوق الشبهات لتضحيات ١١ أيلول/ سبتمبر.

كتب بولاك أن إزالة صدّام سوف تفصم الرابط ما بين قضيّة العراق والصراع العربي الإسرائيلي. وعلى المدى الطويل، سوف تزيل مصدراً مهمّاً من مصادر العداء لأميركا وسوف تنتج عن ذلك آثار إيجابية «في حال قيام الولايات المتحدة ببناء عراق جديد، قويّ، مزدهر ويتضمّن نموذجاً لما تستطيع أن تكون عليه أيّة دولة عربية حديثة». كان حِجاج بولاك بالنسبة إلى الحرب مثيراً في وقوفه على حافّة اللاأخلاق... إن الحرب هي القرار الصحيح على ما يبدو، ليس لأنها ضرورية أخلاقياً بل لأننا سننتصر. أصبحت الحرب الآن سياسة قابلة للعيش وخياراً ناجحاً. إنها ستحرّر جدول أعمال سياسة واشنطن الخارجية متيحة لها باختصار غزو بلد آخر أو بلدين حيث يمكن اكتشاف مصالح أميركا الحيويّة. وسينتهي كل ذلك الترابط المهمّ ما بين حرب العراق والحرب

الفلسطينية ـ الإسرائيلية. وقد ظهرت هذه المسألة عدّة مرّات في نصّ بولاك. والرواية (وهي إسرائيلية بالأصل) بسيطة جدّاً: إن حرمان الفلسطينيين من مساندة أكبر قوّة عربية يجعلهم أضعف في صراعهم ضدّ الاحتلال الإسرائيلي. وأشار بولاك إلى «حملة الفلسطينيين الإرهابية الحاقدة» دون أيّ انتقاد لإسرائيل. وتحدّث عن هجمات إرهابية أسبوعية تبعتها «ردود إسرائيلية» وهي اللازمة العادية للرواية الإسرائيلية عن الصراع. واعتبر المؤلّف انحياز أميركا لصالح إسرائيل مجرّد «اعتقاد» عربي. لا حاجة إلى القول إنه لم تكن هناك أيّ إشارة إلى مفتّش الأمم المتحدة السابق حول الأسلحة ونقيب البحرية السابق سكوت ريتر الذي كان كتابه الصغير المعارض للحرب (الحرب على العراق: أيّ فريق لا يريد بوش أن نعرفه) لا يتجاوز ٩٦ صفحة في مقابل كلّ الأدبيّات المؤيّدة للحرب المنتجة بكمّيات هائلة في واشنطن.

وبينما كانت هذه المادّة تصدر عن الصحافة، كانت الأفكار الخيالية الأخيرة تتدفّق من واشنطن ولندن. سرت روايات عن هجمات أخرى ـ على نفق لنكولن وجسر البوّابة الذهبية في الولايات المتحدة ـ ممتزجة بكلّ القصص البريطانية المرعبة التي انتشرت في الأسابيع الماضية: الجدري، الجمرة الخبيثة، هجمات على فنادق وأسواق، هجوم كيميائي بالأنابيب، تسميم إمدادات المياه، هجمات بالرسائل البريدية المفخّخة، هجمات على بيغ بنغ وميناء كناري، امتلاك خمسة الآف كيس للجثث، ١٢٠ بذلة لمكافحة التلوّث، غرف دراسية آمنة لطلّاب المدارس بعمر سبع سنوات، قوانين جديدة خاصّة بالحجر الصحّي للبريطانيين في حال وقوع هجوم جرثومي. لا نهاية لهذا الإرهاب الحكومي. هل يريدون نجاح أسامة بن لادن؟ أو هل كان ذلك مجرّد جزء من العدّ العكسي للحرب على العراق، المخدّر المطلوب الذي نحتاج إليه جميعاً لدعم بوش وبلير؟

والحال أن هذه الروايات وفّرت دعماً حيوياً لأدبيات ما قبل الحرب. في أميركا، ذهب دعم المثقّفين للحرب إلى مدى أبعد من كتاب كينيت التافه. على سبيل المثال، هاجم البروفسور فؤاد عجمي من جامعة جون هوبكنز في مجلّة «شؤون خارجية» العالم العربي مراراً على رجعيّته وفقدان الديمقراطية واستخدام

الصراع العربي ـ الإسرائيلي ذريعة «للإشفاق على الذات وللغضب».. وقال: «مع بالغ الحذر.. إنّ حرباً ما يجب أن تُعلن». وفي مقطع آخر على محبّي قصص الخيال تذكّره، أضاف أنّ «أيّ خلاف حول الحرب سيتمّ تجاوزه بشكل مؤكّد بسبب العواقب الوخيمة التي ستترتّب على الولايات المتحدة في حال اتجهت نحو الحرب ثم تراجعت، ما يتيح للطاغية العراقي القيام بعملية قمع أخرى»... كان هذا المنطق مخيفاً بالفعل. يجب على الولايات المتحدة الذهاب إلى الحرب لأنها هدّدت بشنّها. إذن، أصبح التهديد بالحرب سبباً لاندلاعها... وبالتالي سيكون السلام أكثر رهبة من الحرب. وكما لاحظت لورا ريديس، الأستاذة في جامعة سانت لورنس، نيويورك، في بحث ثاقب ودقيق في «اللغات الموازية غير المباشرة»، وهو أحد أفضل الكتب حول ألسنيّات ذلك النزاع، ففي حرب كونية بين الخير والشرّ من النوع الذي يتصوّره بوش يصبح من الممكن تبرير قتل الأبرياء من قِبلنا باعتبار أننا صالحون... ولكن عندما يقتل الطرف الآخر الأبرياء فإن هذا يكون غير مبرّر لأن الطرف الآخر شرّير. «إن ما يجعل موت الأبرياء سيّئاً ليس موتهم المباشر بل تصرّفات ومشاعر الذين قتلوهم». وكانت أهمّ المساهمات المؤثّرة في الحملة المناهضة للحرب في الكتاب مساهمة أمبر أموندسون التي قُتل زوجها كريغ في الهجوم على البنتاغون يوم ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. قالت: «هل يوصلنا غزو العراق حقّاً إلى مجتمع أكثر أمناً؟».. وسألت زعماءها: «إذا اخترتم الردّ على هذه القسوة غير المفهومة باقتراف عنف ضدّ أشخاص آخرين، فإن هذا لن يعني تحقيق العدالة لمقتل زوجي».

كان هاجس بوش وبلير هو إظهار صدّام حسين في صورة الشرّير، فصارا الآن يذكّراننا بثمن التهدئة. كان بوش يعتقد أنه تشرشل أميركا الرافض لاسترضاء صدّام. ويظهر أن الحرب العالمية الثانية تشكّل العذر الأبديّ، والإنذار، والتبرير، والنموذج غير الشريف لكلّ جنون، ولكلّ حمّام دم كنّا نبدأ به.

كانت الحرب العالمية الثانية عملاً ماجناً. لقد انتهت عام ١٩٤٥، ولكنك الآن وأنت تستمع إلى بوش وبلير تكاد تظنّ وأنت في أوائل ٢٠٠٣ أن هتلر لا يزال على قيد الحياة في مخبئه في برلين وأن السلاح الجوّي الألماني ما زال

ينطلق من رأس غريس نيز، وهو مستعدّ لقصف لندن بعد سنوات من الاسترضاء لألمانيا النازية. الآن، أصبحت قوّاتنا الجوّية هي التي تقصف من رأس غريس نيز العراقي الجديد: الكويت وقطر والسعودية وتركيا وحاملات الطائرات، وذلك لإخضاع بغداد وليس لندن. ماذا دهى زعماءنا الأقزام حتى تجرّأوا على الاستخفاف بالتضحيات الهائلة التي حصلت في الحرب العالمية الثانية، حين يقارنونها بصراعهم ضدّ العراق، رافعين دكتاتورية صدّام العديمة القيمة إلى مستوى المأساة التاريخية لحرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥؟»(*).

ماذا يستطيع رجل عاقل أن يفعل حيال هذا الأمر المؤسف؟ كانت الولايات المتحدة إحدى الدول «التي لم تفعل شيئاً حيال هتلر»، وقد تمتّعت بفترة مفيدة من الحياد بين عامي ١٩٣٩ و١٩٤٠ ومعظم عام ١٩٤١ حتى هوجمت من قِبل

(*) في منتصف كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣، قارن سفير أميركا لدى الاتحاد الأوروبي روكسويل سكنابل صدّام بهتلر. وخاطب سكنابل الأوروبيين في بروكسل قائلاً: «كان لديكم هتلر في أوروبا ولم يقم أحد بشيء فعّال ضدّه. عرفنا أنه خطر لكن لم يحصل شيء حياله. إن نمط هذا الرجل نفسه موجود في بغداد وهناك يكمن اهتمامنا». وأنهى سكنابل هذا الخطاب الصبياني مضيفاً «أن لا علاقة لذلك بالنفط بتاتاً».
قال بلير ـ الذي لم يشهد أيّ حرب في حياته ـ إن التاريخ يعطي دروساً مهمة بالنسبة إلى هذه الأزمة. كانت جهود نيفيل شامبرلين لتهدئة هتلر «عملاً صالحاً لرجل اتخذ قراراً خاطئاً»، بحسب قول بلير لنا. وأعاد إلى الذاكرة دفاع الرئيس شيراك حيال اتهام فرنسا بالجبن السياسي عندما قرّرت بلاده اتخاذ قرار في البلقان فوجدت نفسها وحيدة، وأشار إلى «استرضاء الغرب لهتلر». وقامت النيويورك بوست بنشر صورة لمقابر الجنود الأميركيين في النورماندي استباقاً لأيّ فيتو فرنسي في مجلس الأمن. وكتبت الصحيفة: «ماتوا لأجل فرنسا لكنّ فرنسا نَسِيت»... كما لو أن تحرير فرنسا من النازيين عام ١٩٤٤ يستوجب تنازلها عن الخطاب الحرّ بعد ٥٨ عاماً. وسألت البوست: «أين الفرنسيون الآن في الوقت الذي يستعدّ فيه الجنود الأميركيون للذهاب إلى الجبهة لقتال هتلر العصر صدّام حسين؟».
انضمّ صدّام حسين شخصياً إلى هذه المقارنة الحقيرة.. ففي مقابلة مع رجل الدولة البريطاني طوني بن، صرّح «هتلر بغداد» لزائره البريطاني أنه «إذا كان العراقيون عُرضة للعدوان والإذلال، فإنهم سيقاتلون بشجاعة كما دافع البريطانيون عن بلادهم خلال الحرب العالمية الثانية بطرقهم الخاصّة». وصرّح طارق عزيز، رئيس وزراء صدّام، لاحقاً لصحيفة إيطالية (Coriere della sera) قائلاً: «الواقع أن بوش يفكّك الأمم المتحدة كما فعل الرايخ الثالث عام ١٩٣٠ بجعل عُصبة الأمم نكرة».

اليابان في بيرل هاربر. وعندما قرّر تحالف تشرشل ـ روزفلت أنه لن يوافق على أقلّ من استسلام ألماني غير مشروط (وهو طلب صدم حتى تشرشل نفسه وهو يسمع روزفلت يعلن عن البنود في الدار البيضاء) حانت ساعة هتلر.

ليس صدّام مثل هتلر، لأن دونالد رامسفيلد عرض على هتلر بغداد مخرجاً: المنفى مع حقيبة مليئة بالمال ومع عدد من أفراد عائلته إذا رغب في ذلك. لم أستطع تذكّر أن روزفلت أو تشرشل عرضا على الفوهرر أيّ فرصة ذهبية. إن صدّام هو هتلر، لكنه يصبح غير ذلك فجأة. وكما تقول النيويورك تايمز، يجب أن يمثل أمام محكمة لجرائم الحرب. وإذا لم يمثل، يستطيع الذهاب إلى السعودية أو أميركا اللاتينية بحسب قول رامسفيلد. بعبارة أخرى، لم يكن هتلراً على الإطلاق.

ما كنت أكرّر السؤال عنه حصل بعد الغزو! يوم ٢٦ كانون الثاني/يناير سألت قرّاء صحيفة الإندبندنت، طبعة الأحد: «ما هي خططنا عندما يطلب العراقيون انسحابنا من بلادهم؟... سنكون حينذاك قوّة احتلال لأرض أجنبية، قوّة احتلال للعراق كما تحتلّ إسرائيل الضفّة الغربيّة وقطاع غزّة. ومع رحيل صدّام يصبح الطريق ممهّداً لأسامة بن لادن ليطالب بتحرير العراق الذي أصبح هدفاً آخر من أهدافه. كم هو سهل وضع العراق تحت الاحتلال الأميركي، وعندها هل نحن مستعدون لقتال القاعدة في العراق وأفغانستان وباكستان ودول أخرى لا تُحصى؟ يبدو أن شعوب الشرق الأوسط والغرب أدركوا هذه المخاطر، لكنّ زعماءهم لم يدركوها، أو أنهم لا يريدون إدراكها».

خلال سفري إلى الولايات المتحدة عدّة مرّات شهرياً وإلى بريطانيا في نهاية الأسبوع قبل الأخير من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ وإلى الشرق الأوسط، لم أشعر بتاتاً بالصدمة حيال التصميم الثابت والمطلق للعديد من العرب والأوروبيين والأميركيين على معارضة الحرب. هل كان طوني بلير ذلك التلميذ العنيد لحزب العمّال البريطاني بحاجة إلى اجتماع ٢٤ كانون الثاني/يناير لكي يكتشف أن العديد من الإنكليز يشعرون: أن هذه الحرب العراقية المقترحة كذبة

وأن أسباب هذا النزاع لا علاقة لها بأسلحة الدمار الشامل وأن لا مصلحة لبلير في الذهاب وراء بوش إلى الحرب؟ لم يصلني أبداً من قبل مثل هذا الحجم من رسائل القرّاء التي كانت تعبّر عن الشعور نفسه: إن الأمر يعود بشكل ما ـ بسبب الأغلبية الكبيرة لحزب العمّال وعدم فعالية حزب المحافظين بوصفه حزب معارضة وبسبب السخرية من البرلمان ـ إلى عدم سماح الديمقراطية البريطانية للشعب البريطاني بوقف الحرب التي لا علاقة لمعظمهم بها بل هم يحتقرونها. ومن محاولة واشنطن السيّئة ربط صدّام بالقاعدة، وملفّ بلير الصبياني حول أسلحة الدمار الشامل، إلى الكذبة المأساوية الكبيرة لفريق تفتيش الأمم المتحدة، لم يعد الناس مخدوعين. وكان النفي المتكرّر حول عدم علاقة هذه الحرب بالنفط غير مقنع بقدر ما زعم كولن باول في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ أنّ نفط العراق سوف يُحفظ برعاية أميركا للشعب العراقي. «الوصاية» هي بالضبط ما عرضته عُصبة الأمم على المشرق عندما سمحت لفرنسا وبريطانيا بتطبيق الانتداب على فلسطين والأردنّ ولبنان وسوريا بعد الحرب العالمية الأولى. مَن سيشرف على آبار النفط واحتياطي النفط العراقي المكتشف خلال هذه المرحلة السخيّة من الوصاية؟ طرحت السؤال في صحيفتي: الشركات الأميركية ربّما؟

خذ مثلاً قضية المفتّشين: لم يرغب جورج بوش وديك تشيني ودونالد رامسفيلد والآن كولن باول في إعطاء المفتّشين مزيداً من الوقت. لكن لِمَ لا بحقّ الله؟ يوم ١٢ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢، وفيما كان يثير المشاعر لجرائم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ضدّ الإنسانية، طلب بوش من الأمم المتحدة وأصرّ عليها إرسال مفتّشيها مجدّداً إلى العراق وأنّ عليهم إنجاز عملهم. كان بوش يأمل بالطبع في رفض العراق السماح للمفتّشين بالعودة. وبصورة مفاجئة استقبل العراق المفتّشين الدوليين. وكان بوش يتوقّع من هؤلاء إيجاد الأسلحة المخبّأة. ولكنهم ويا للهول لم يجدوا شيئاً؟... وهم ما زالوا يبحثون.. وهذا آخر شيء كان يريده بوش. قال إنه سئم وتعب من خداع صدّام... بينما كان ما عناه: أنه سئم وتعب من انتظار المفتّشين الدوليين ليجدوا الأسلحة التي ستسمح لأميركا

بالذهاب إلى الحرب. فهو الذي أصرّ بشدّة في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢ على إعادة المفتّشين إلى العمل وها هو لا يريد عودتهم على الإطلاق في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣. قال بوش: «إن الوقت يمضي»، وكان يتحدّث عن صدّام لكنّه في الواقع يتحدّث عن مفتّشي الأمم المتحدة، لا بل عن مجمل مؤسّسة الأمم المتحدة التي تأسّست بعد الحرب العالمية الثانية بمبادرة ومثابرة من بلاده.

كانت إسرائيل، إذا استثنينا الكويت، الدولة الأخرى الوحيدة التي تدفع نحو الحرب. كانت هذه كلمات زلمان شوفال مستشار الشؤون الخارجية لرئيس الوزراء أرييل شارون في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ الذي صرّح: «ستدفع إسرائيل غالياً بسبب إطالة تأجيل الضربة الأميركية على العراق. إذا تمّ تأجيل الهجوم على أساس سياسي أكثر منه عسكرياً، فإنّ لدينا في إسرائيل كلّ الحق للخوف من استخدام صدّام هذا التأخير لتطوير أسلحة غير تقليدية». أضاف شوفال: «ما دام صدّام في السلطة، فمن الصعب إقناع القيادة الفلسطينية بأن العنف لا يفيد وبأنه يجب إجراء إصلاحات في القيادة الفلسطينية». ومن المحتمل قيام عرفات باستغلال تأخير كهذا «لتكثيف العمليات الإرهابية». إذاً لا يصبح من الممكن تسوية النزاع الفلسطيني ـ الإسرائيلي وفق تحليل شوفال إلّا إذا غزت أميركا العراق: لن يتوقّف الإرهاب في إسرائيل إلا بتدمير أميركا لصدّام. قد لا يحصل تغيير في السلطة الفلسطينية حتى يحصل تغيير في بغداد. ومن خلال الذهاب مع بوش إلى الحرب، كان بلير يساند بشكل غير مباشر احتلال إسرائيل للضفّة الغربية وغزّة (بما أنّ إسرائيل ما زالت تدّعي محاربة الإرهاب باسم أميركا).

لم يكن صدّام ليختلف عن الزعيم المحبوب لكوريا الشمالية، كيم جونغ إيل، الشخص المصاب بجنون العظمة النوويّ والذي كانت أميركا تجري مفاوضات ممتازة معه، ولكن هذا لم يكن لديه نفط. وكم كان تصرّفاً نموذجياً إيفاد صدّام لعلي مجيد «الكيماوي» (مجرم الحرب الذي قصف الأكراد بالغاز في حلبجة) ليقوم بجولة على العواصم العربية ويجلس مع رئيس سوريا بشّار الأسد ورئيس لبنان إميل لحود كما لو أنه لم يأمر بذبح النساء والأطفال. لكنّ

بوش وبلير لم يقولا شيئاً حول جولة مجيد ـ إمّا لأنهما كانا لا يريدان إزعاج الزعماء العرب الذين قابلوه أو لأن الربط بين الغاز وجرائم الحرب ودعم واشنطن الأساسي لصدّام كان لا يزال مسألة حسّاسة(*).

كنت في أوستين، تكساس، يوم ٤ شباط/فبراير ٢٠٠٣، أنتظر طائرتي إلى نيويورك لمشاهدة كولن باول يُقنع أعضاء مجلس الأمن بأن أكاذيب أميركا حول أسلحة الدمار الشامل ليست أكاذيب على الإطلاق بل حقائق. لكن كان هناك رهان واحد مؤكّد حول تصريح باول كتبته ذلك اليوم. ألا يُعقل أن يتحدّث عن أفغانستان؟ ما دامت الحرب الأفغانية نموذجاً للدور الناجح لمغامرة أميركا الإمبريالية الدائرة في أنحاء الشرق الأوسط، فإن الانهيار القريب للسلام في هذه الأرض المتوحّشة والشهيّة بالنسبة إلى الولايات المتحدة وقوّاتها في أفغانستان ـ الهجمات الليلية على القوّات الأميركية والقوّات الدولية الأخرى، الفوضى في المدن خارج كابول، أمراء الحرب وتجّار المخدّرات والازدياد المستمرّ لعدد القتلة ـ كل ذلك أمر لا يمكن الإشارة إليه... إنه رواية شُطبت بشكل مستمرّ من مخيّلة الأميركيين الذين يستعدّون الآن لإرسال شبابهم وشابّاتهم بعشرات الآلاف لتسطير رواية «نجاح» أخرى... كتبت يومها:

«إن هذا المقال قد كُتب في منزل الرئيس بوش في ولاية تكساس حيث نُكّست الأعلام حداداً على طاقم المكّوك كولومبيا... وحيث

(*) طيلة هذه الفترة استمرّت وسائل الإعلام الأميركية في دعمها الحقير لإدارة بوش. وكما أوردت في صحيفتي يوم ٢٦ كانون الثاين/يناير، صرنا الآن نواجه فيضاناً آخر من التهديدات الجديدة تطلقها واشنطن «للدول التي تدعم الإرهاب». خذ على سبيل المثال، إيريك شميث من النيويورك تايمز الذي كتب منذ أسبوع رواية حول قرار أميركا «مواجهة الدول التي ترعى الإرهاب». وانظر إلى مصادره؟ مسؤولين كبار في وزارة الدفاع.. موظّفين في الإدارة.. بعض موظفي الاستخبارات الأميركية.. المسؤولين.. مسؤولين عسكريين.. خبراء في الإرهاب.. ومسؤولين في الدفاع». وتساءلت «لِمَ لا؟ فليكتب البنتاغون تقاريره في النيويورك تايمز؟».

إن إرسال قوّات إضافية من وحدة الدفاع الجوّي ١٠٨ من قاعدة بليس إلى الشرق الأوسط وإرسال عدد غير محدّد من طائرات F117 الشبح القاذفة الليلية من قاعدة هولومان في نيومكسيكو، لم يستحقّ أكثر من حوالي ٧٨ كلمة لتقرير في صفحة داخلية من صحيفة أوستين المحلّية.

إنّ نيويورك وواشنطن وحدهما أوحتا بشكل ماجن أن موت طاقم المكّوك كولومبيا زاد من تصميم ووحدة أميركا لدعم مغامرة بوش في العراق.. قبل بضعة شهور، كان لا يزال يطلب منا أن نصدّق أنّ «نجاح» ما بعد الحرب في أفغانستان ينبئ «بنجاح» ما بعد الحرب في العراق. لننزع الستائر بعض الوقت ولنحدّق إلى الأرض التي وعد الرئيس بوش ورئيس الوزراء بلير بعدم تناسيها.. فليرفع يده كلّ مَن يعرف أن للقاعدة محطّة إذاعة تعمل من داخل أفغانستان وتدعو إلى الجهاد المقدّس ضدّ أميركا؟ هذا حقيقي. فليرفع يده أيضاً ومجدّداً كل مَن يستطيع التخمين كم هو عدد مخابئ الأسلحة المكتشفة يومياً من قِبل القوّات الأميركية في البلاد، والتي دخلت إلى أفغانستان منذ حرب أميركا الناجحة؟»... الجواب: حوالي ٢٥ في المئة».

هل انسحبت أيّ قوّات أميركية من مواقعها على الحدود الباكستانية ـ الأفغانية؟ يمكن القول إنه لم تنسحب أيّ قوّة.. أو ربّما كنت أنا مخطئاً. على الأقلّ هناك خمسة مواقع استناداً إلى مصادر باكستانية على الطرف الآخر من الحدود، واحد منها فقط معترف به. يوم ١١ أيلول/سبتمبر، تخلّت القوّات الأميركية عن موقعها العسكري خارج لاورا بعد هجمات ليلية بالصواريخ دمّرت العديد من السيّارات العسكرية الأميركية. وقد طُرد حلفاؤهم الأفغان بعد بضعة أيام ثم اقتحم مقاتلو القاعدة المبنى الأميركي وأحرقوه.

هذا دليل على مدى الخطورة الذي انحدرت إليه مهمّة أميركا في أفغانستان بحيث أفردت صحيفة وول ستريت جورنال المحافظة جدّاً ـ هي عادة منارة

السياسة الإمبريالية والإسرائيلية في الشرق الأوسط وجنوب غرب آسيا ـ مقالاً طويلاً وغريباً عن الانسحاب الأميركي مع أنه ليس ما تدعو إليه الصحيفة.

«ما زال الجنود يواجهون عدوّاً خفيّاً».. هكذا كان عنوان مقال مارك كوفمان للتحقيق من الدرجة الأولى الذي نشره، وهو عنوان مشابه تقريباً لعنوان آخر ظهر لرواية فيسك بعد عام أو أكثر على الغزو الروسي لأفغانستان عام ١٩٧٩ ـ ١٩٨٠. كان الجنود في تقريري روسيّين بالطبع. وكما أتذكّر الآن تماماً ذلك الضابط السوفياتي الذي أخبرنا في قاعدة باغرام الجوّية أن بقايا إرهاب المجاهدين هي ما بقي من القرصنة الغربية ضدّ محبّي السلام (والشيوعيين) الأفغان، كذلك ألاحظ الآن المتحدّثين الأميركيين ـ وفي قاعدة باغرام الجوّية نفسها ـ وهم يخبروننا بأن بقايا القاعدة هي ما تبقّى من وحدات بن لادن.

أُعيد تنظيم معسكرات التدريب داخل أفغانستان مجدّداً ليس ـ كما يعتقد الأميركيون ـ من قِبل رجال قلب الدين حكمتيار العصاة و المعادين للأميركيين، بل من قِبل العرب. وضمّت آخر معركة بين القوّات الأميركية وبقايا العدوّ، قرب ممرّ بولداك في محافظة قندهار، مقاتلين عرباً أكثر، كما أورد زميلي فيل ريفيس. وكانت قوّات حكمتيار من الحزب الإسلامي قد وطّدت العلاقات مع القاعدة وطالبان، وهو الأمر الذي قامت به «بقايا المجاهدين الإرهابية» بعضها مع بعض في شتاء عام ١٩٨٠ بعد عام على الغزو السوفياتي.

قُتل أميركي بلغم مزروع حديثاً في خوست، وقُتل ١٦ مدنياً بلغم آخر مزروع حديثاً خارج قندهار، وأُلقيت قنابل على أميركيين أو على قوّات دولية في كابول، وجاءت تقارير إضافية عن عمليات اغتصاب وإحراق للنساء في شمال أفغانستان ـ كل هذه الأحداث صار لها اليوم صفة الوضع المملّ الذي عرفته حرب الأمس.

لذلك فلنتأكد من أن كولن باول لن يصرّح لمجلس الأمن عن نجاح أميركا في حرب المعلومات في أفغانستان. فأن تزعم بأن صور القمر الصناعي تظهر أسلحة كيميائية تنتقل في أنحاء العراق، أو أن التنصّت على مكالمات تلفونية

مضبوطة يثبت أن العلماء العراقيين ما زالوا يقومون بعملهم القذر، هو شيء، في حين أن شرح كيف أن كل الإتصالات المضبوطة التي سجّلتها أميركا في أفغانستان لم تثبت شيئاً، هو شيء آخر تماماً.... وفيما يتعلّق بأفغانستان يمكن الاستشهاد بكلام باسل فاولتي: «مهما فعلت، لا تتحدّث عن الحرب».

كان يوم ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٣ يوم عاصفة ثلجية في نيويورك وكان البخار يخرج من فتحات الشوارع، ورجال المخابرات الأميركية ـ الذين يرتدون سترات مكتوب عليها «مخابرات سرّية» ـ يتبادلون التهنئة خارج مقرّ قيادة الأمم المتحدة على الضفّة الشرقية. رغم تعبي راودتني فكرة مشاهدة وزير الخارجية الأميركي كولن باول بعد آلاف الأميال من السفر في أنحاء الولايات المتحدة ـ أو الجنرال باول كما كان يوصف في بعض الصحف الأميركية ـ يقوم بآخر ضربة في دعوته للحرب أمام مجلس الأمن، إنها تجربة لا تعوّض. سأكون في بغداد، خلال أيام قليلة، لأشهد بداية صراع مرعب ومجنون. كان ظهور باول في مجلس الأمن هو المقدّمة الأساسية للمأساة أو المسرحية المأساوية، (إذا استطاع المرء احتواء غضبه) أي مثل ظهور خادم السيّد الذي عليه أن يشرح قصّة المأساة، مثل دور هوراسيو بالنسبة إلى ذلك الهاملت غير المتّزن بشكل متزايد في البيت الأبيض.

كان هناك افتتاح مرعب للّعبة لحظة وصول الجنرال باول إلى مجلس الأمن وقيامه بتقبيل المندوبين على خدودهم وفتح ذراعيه لاحتضانهم. كان جورج تنيت مدير وكالة الاستخبارات الأميركية يقف وراء باول، جَذلاً، وعدائياً، ومطيعاً، وكان يتمتم بعض الشيء... وكان هناك إدغار روبنسون الذي أقنع نفسه بأن أكثر ما يثير الريبة في ملفّ معلوماته قد دُفن بأمان في عُمق متوازٍ من الغضب والخوف... وبشكل مشابه لظهور بوش في الجمعية العامّة في أيلول/سبتمبر الماضي، وصل وزير الخارجية البريطاني جاك سترو ودخل القاعة من الباب الموجود عند أقصى اليمين، وكانت بذلته كبيرة بحيث تُغطّي مرّتين جسم أشهر عدّائي بريطانيا سابقاً... وكان شامخاً بأنفه إلى السماء كما لو كان يتشمّم السلطة.... وعندما لمح كولن باول انفرجت أساريره واندفع نحوه إلى المنصّة ليسلّم عليه بحرارة.

ولقد بدا الأمر وكأن كلّ القاعة، مع كلّ الأسنان المبتسمة والمصافحات الحارّة، كانت عبارة عن غرفة مليئة برجال يحتفلون بالسلام وليس بالحرب. وآسفاه، لم يكن الأمر كذلك. كان رجال الدولة الأنيقون يُعدّون خطّة تسمح لهم بقتل العديد من الناس... بعضهم من وحوش صدّام الصغار بدون شكّ... ولكنّ أغلبهم من الأبرياء. وعندما صعد باول لإلقاء خطابه الرهيب فعل ذلك ببطء رياضي، كالمحارب العالمي الذي نفد صبره أخيراً.

لكنّ ذلك كان فيلماً قديماً.. وكان عليّ أن أحزر.. مصادر، مصادر استخباراتية أجنبية، مصادرنا، مصادر منشقّين، مصادر.. مصادر... مصادر.... آه كم هو جيّد أن تكون عندك كلّ هذه المصادر والمعلومات في حين أنك اتخذت القرار مسبقاً بالذهاب إلى الحرب. كان العرض الأول لباول مدويّاً مثل أحد التقارير الحكومية على الصفحة الأولى لنيويورك تايمز. كان شبيهاً بتسخين حساء قديم. ألم نسمع هذا الكلام سابقاً. هل يمكن للمرء أن يثق بهذا الرجل؟ أعني الجنرال باول وليس صدّام. بالطبع نحن لا نثق بصدّام.. لكنّ خطاب باول كان مزيجاً من شرائط تسجيل مضحكة إلى حدّ العجب لمكالمات هاتفية للحرس الجمهوري العراقي، بأسلوب صموئيل بيكيت، يمكن أن تكون إثباتاً مرعباً على خداع صدّام مجدّداً لمفتّشي الأمم المتحدة، إضافة إلى مادّة قديمة حول وحش بغداد المعروف أصلاً بسجلّه الوحشي أيضاً.

آه لو استطعنا فقط أن نسمع الترجمة العربية التي أعدّتها الخارجية الأميركية لعبارات من نوع: أوكي يا زميل OK buddy، اعتبر الأمر منتهياً سيدي ... consider it done sir وهذه العبارات المسجّلة وردت بالإنكليزية، وهذا لمعلوماتكم كان حديث النقيب إبراهيم من الحرس الجمهوري!!!.. أما التصوير الظريف للمختبرات الجرثومية العراقية المتحرّكة التي كانت شاحناتها وقاطراتها بحالة جيّدة فقد كان يوحي بأن البنتاغون لم يكن لديه أدنى فكرة عن دمار نظام مواصلات صدّام الذي ترك جيشه وحيداً. وعندما عدنا للحديث عن حلبجة وعن أعمال خرق حقوق الإنسان وعن كلّ ذنوب صدّام كما سجّلها فريق مراقبة الأمم المتحدة UNSCOM (وكان قد تعرّض للتشهير باعتباره غير موثوق به)،

بدأنا بتناول الحساء مجدّداً. ربّما يكون سترو قد اعتقد بأن كل هذا يشكّل أقوى مرافعة لـ «دعم الحرب» ـ وجهة نظره عديمة البصيرة على كل حال ـ لكن عندما أجبرنا على الاستماع إلى الضبّاط العراقيين وهم يتحدّثون بالهاتف قائلين: يه يه يه يه (Yeah لُكنة أميركية للنعم الإنكليزية ـ المترجم)، كان من الصعب ألّا نسأل أنفسنا إن كان كولن باول قد فكّر فعلاً بتأثير ذلك على العالم الخارجي. وبين الحين والحين كانت كلمات مثل «فشل العراق في نزع سلاحه».. «الرفض وخيبة الأمل».. تظهر على شاشة الفيديو الضخمة خلف الجنرال باول. هل كان ذلك شعار السي إن إن تساءل بعضنا. . لكن لا، كان ذلك من صنع شقيقة السي إن إن: الإدارة الأميركية.

ولما كان من المفترض أنّ كولن باول هو الشرطي الجيّد في مقابل ثنائي الشرطي السيّئ بوش ـ رامسفيلد، فقد رغبنا في تصديقه. سمعنا تسجيلاً لمكالمة هاتفية يعطي فيها الضابط العراقي رجاله أمراً: «اشطبوا عبارة غاز الأعصاب عندما تصلكم عبر التعليمات السلكية».. يبدو أن الأميركيين اكتشفوا خطأ جديداً قذراً في لعبة التضليل العراقية. . . لكنّ صورة مأساوية لطائرة عراقية بدون طيّار قيل إنها قادرة على رشّ السموم الكيميائية انكشفت على أنها عمل خيالي من صنع فنّان في البنتاغون. وعندما بدأ الوزير باول الحديث عن سنوات طويلة من الاتصالات بين صدّام والقاعدة، بدأت الأمور تسوء بالنسبة إلى الجنرال. لقد ظهرت القاعدة عام ٢٠٠٠ فقط، في حين أن أُسامة بن لادن كان يقاتل (منذ عقود) ضدّ الروس لصالح وكالة الاستخبارات الأميركية التي يجلس مديرها الحالي مضطرباً خلف باول. كانت الولايات المتحدة هي التي تمتّعت بعقد من الزمن من الاتصالات مع صدّام.

كانت رواية باول الجديدة عن كذبة رئيسه في خطابه عن حال الأمّة (أن العلماء الذين جرى استجوابهم من قِبل مفتّشي الأمم المتحدة كانوا رجال مخابرات عراقية بلباس تنكّري) غير مؤثّرة. وبحسب الرواية الجديدة فقد تحدّث مفتّشو الأمم المتحدة خلال جولات التفتيش مع العلماء العراقيين... لكنّ هؤلاء

العراقيين كانوا موظفين يمثّلون دور علماء الذرّة والكيمياء الذين أرادت الأمم المتحدة التحدّث إليهم... وقال الجنرال باول إن أميركا تُطلع مفتّشي الأمم المتحدة على معلوماتها، لكن كان واضحاً منذ البداية أن معظم ما كان عنده ليقوله حول مزاعم تطوير أسلحة جديدة (شاحنة إزالة التلوّث في مصنع تاجي للذخائر الكيميائية، وتنظيف مصنع ابن الهيثم للصواريخ البالستية يوم ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر) لم يسلّم في وقته إلى الأمم المتحدة. لماذا لم تُعطَ هذه المعلومات الاستخبارية لمفتّشي الأمم المتحدة قبل أشهر؟ ألم يؤيّد الجنرال باول طلب قرار الأمم المتحدة ١٤٤١ أن تعطى كلّ المعلومات الاستخبارية لهانس بليكس وأعوانه فوراً. أو لعلّ الأميركيين لم يكونوا بالنشاط الكافي؟ أو لعلّهم أدركوا أنه لو كان مفتّشو الأمم المتحدة قد طاردوا هذه المعلومات تحديداً لكان ظهر أنها مغشوشة تماماً كما ثبت لاحقاً أنها كانت كذلك بالفعل؟

جاءت اللحظة الأسوأ عندما ناقش الجنرال باول قضيّة الإنتراكس وهجمات الإنتراكس في واشنطن ونيويورك عام ٢٠٠١، وكان يحمل بشكل مُقرف ملعقة من تلك البذور المتخيّلة، وبينما لم يصرّح بذلك بشكل دقيق أوحى مواربةً بارتباط صدّام حسين بالإنتراكس المرعب. لكن عندما أشار وزير الخارجية إلى مساندة العراق لمنظّمة حماس الفلسطينية، التي لها مكتب رسمي في بغداد، كدليل على دعم الإرهاب (لم يُشر بالطبع إلى دعم أميركا لإسرائيل ولاحتلالها أرض فلسطين) بدأ المسرح ينهار. هناك مكاتب لحماس في بيروت، ودمشق وطهران. هل من المفترض أن تتحرّك القوّة المجوقلة ٨٢ إلى لبنان وسوريا وإيران؟

كم من الأكاذيب رُويت في هذه القاعة؟ كم من الأعذار البريطانية لغزو السويس أو من الأعذار الروسية ـ في السنة نفسها ـ لقمع الانتفاضة الهنغارية؟ يتذكّر أحدهم ما جرى قبل أربعة عقود بالضبط في هذه القاعة بالذات، عندما عرض سلف الجنرال باول، آدلاي ستيفنسون، صوراً لسفن تحمل صواريخ سوفياتية إلى كوبا. للأسف لا تحمل صور باول مثل هذه الثقة وليس كولن باول آدلاي ستيفنسون.

إذا كان خطاب باول يستحقّ معاملة خبر الصفحة الأولى، فإن وسائل الإعلام الأميركية لم تختر أبداً أن تعطي الاهتمام ذاته للرجال الذين كانوا يدفعون بوش إلى الحرب.. كان معظمهم وما زال من أعضاء جماعات الضغط النشطة الموالية لإسرائيل. لعدّة سنوات، قاموا بالدعوة إلى تدمير الدولة العربية الأقوى. كان ريتشارد بيرل، أحد أكثر مستشاري بوش نفوذاً، ودوغلاس فايث وبول ولفوفيتز وجون بولتون ودونالد رامسفيلد، يقومون بحملة لإسقاط العراق قبل انتخاب جورج بوش رئيساً للولايات المتحدة بفترة طويلة. ولم يكن عملهم هذا لصالح الأميركيين أو البريطانيين. ففي تقرير صدر عام ١٩٩٦، بعنوان: «استراتيجية جديدة لحماية المملكة» دعوة إلى الحرب على العراق.. على أن هذا التقرير لم يُكتب للولايات المتحدة بل لرئيس وزراء إسرائيل الليكودي القادم بنيامين ناتانياهو وقد جرى تحضيره من قِبل مجموعة بيرل. وذلك أن تدمير العراق يحمي احتكار إسرائيل للأسلحة النووية ـ على افتراض أن صدّام كان يملكها أيضاً ـ ويسمح بهزيمة الفلسطينيين وبفرض أيّة تسوية استعمارية يريدها شارون لهم. ومع أن بوش وبلير لم يجرؤا على مناقشة هذا الوجه من وجوه الحرب القادمة (إذ إن صراعاً لصالح إسرائيل لن يقف الأميركيون والإنكليز فيه أمام مكاتب التجنيد) فقد تحدّث زعماء اليهود الأميركيين عن فوائد الحرب على العراق بحماس. وبالطبع فإن تلك الجماعات اليهودية ـ الأميركية التي كانت شجاعة في معارضتها لهذا الجنون كانت الأولى في الإشارة إلى أن المنظّمات الموالية لإسرائيل لا تنظر إلى العراق كمصدر جديد للنفط فحسب، للمياه أيضاً وذلك من خلال ربط نهر دجلة بالمشرق العطشان!! لا عجب عندها أن يخضع أيّ نقاش لهذا الموضوع للمراقبة والحظر كما حاول أن يفعل البروفسور إليوت كوهين، من جامعة جون هوبكنز، في صحيفة وول ستريت جورنال في اليوم التالي لخطاب كولن باول في الأمم المتحدة. زعم كوهين أن معارضة الدول الأوروبية للحرب يمكن وصفها مجدّداً «بمعاداة للساميّة من النوع الذي اعتقدنا أنه مات في الغرب منذ زمن طويل، وهو كراهية تنسب إلى اليهود نوايا شرّيرة». وقد وجد هذا الهُراء معارضة لدى العديد من المثقّفين الإسرائيليين الذين حاجّوا كما فعل أوري أفنيري بأن الحرب في العراق ستزيد أعداء إسرائيل من العرب.

تكمن لطخة «المعاداة للسامية» أيضاً وراء ملاحظات رامسفيلد المهينة حول «أوروبا القديمة». كان يتحدّث عن ألمانيا النازية القديمة وعن فرنسا العميلة للنازي. لكنّ فرنسا وألمانيا اللتين عارضتا هذه الحرب هما أوروبا الجديدة، القارّة التي رفضت مرّة جديدة ذبح الأبرياء. كان بوش ورامسفيلد هما اللذان يمثّلان أميركا القديمة وليس أميركا الجديدة المتحرّرة، أميركا روزفلت. يرمز بوش ورامسفيلد إلى أميركا القديمة التي قتلت سكّانها الأصليين وانطلقت في مغامرة إمبريالية. أميركا القديمة تلك هي التي تطلب منا اليوم أن نحارب لأجلها، وهي مرتبطة بشكل جديد من الاستعمار، إنها أميركا قامت أولاً بتهديد الأمم المتحدة بالعجز ومن ثمّ فعلت الشيء نفسه مع الناتو. لم تكن هذه هي الفرصة الأخيرة للأمم المتحدة والناتو، لكنّها ربّما كانت الفرصة الأخيرة لأميركا لكي تؤخذ على محمل الجدّ من قِبل أصدقائها وأعدائها على السواء.

أصبحت طموحات إسرائيل والولايات المتحدة متشابكة الآن في المنطقة وشبه واحدة . وكانت هذه الحرب حول النفط والسيطرة الإقليمية تتمّ بقيادة رئيس قال لنا بخداع إنها جزء من حرب دائمة ضدّ الإرهاب. ولم يصدّق الإنكليز ومعظم الأوروبيين ذلك. وهذا لا يعني أن الإنكليز لن يقاتلوا لأجل أميركا. إنهم فحسب لا يريدون القتال من أجل بوش وأصدقائه.. وإذا تضمّن ذلك رئيس الوزراء فإنهم كانوا لا يرغبون أيضاً في القتال لصالح بلير.. وكانوا لا يرغبون أيضاً الدخول في حروب لا نهاية لها إلى جانب حاكم لتكساس سفّاح تخلّف عن التعبئة في فيتنام، وهو اليوم يريد مع أصدقائه النفطيين أن يرسل فقراء أميركا لتدمير دولة إسلامية لا شأن لها بجرائم ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ ضدّ الإنسانية.

لم يكن الإنكليز الذين عارضوا الحرب جبناء. ذلك أن الإنكليز يحبّون الحرب غالباً.. لقد ضربوا العرب والأفغان والمسلمين والنازيين والفاشيين والإمبرياليين اليابانيين لأجيال عديدة، بمن في ذلك العراقيون. لكن عندما يُطلب من الإنكليز الذهاب إلى الحرب فإن الوطنية ليست بحجّة كافية. كان الإنكليز والعديد من الأميركيين أشجع من بوش وبلير في مواجهة الروايات المرعبة. فهم لا يحبّون (كما قال توماس مور لكرومويل في «رجل لكلّ

الفصول») الروايات المخصّصة لإخافة الأطفال. ربّما كان غيظ هنري الثامن في تلك المسرحية يُعبّر بشكل أفضل عن وجهة نظر الإنكليز في بلير وبوش: «هل يظنّون أنني شخص ساذج؟».. إن الإنكليز، مثل كلّ الأوروبيين، هم شعب متعلّم. ومن المفارقات أنّ معارضتهم لهذه الحرب ربّما جعلتهم يشعرون بأنهم أكثر أوروبية وليس أقلّ. . .

لفلسطين دخل كبير في هذا الموضوع. وإذا كان الإنكليز لا يكنّون للعرب محبّة خاصّة فإنهم يستشعرون الظلم بسرعة كافية، وقد شعروا بالإهانة لأن الحرب الاستعمارية استُخدمت لسحق الفلسطينيين من قِبل دولة صارت فعلياً الآن تدير السياسة الأميركية في الشرق الأوسط. قيل لنا إن غزونا للعراق لا علاقة له بالصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي: جرح حارق ومخيف أفرد له بوش ١٨ كلمة في خطاب الاتحاد عام ٢٠٠٣، حتى بلير لم يستطع إغفال ذلك بسهولة لأن هناك مؤتمراً «للإصلاحات الفلسطينية» يُعقد في لندن ويشارك فيه الفلسطينيون عبر التلفزيون لأن رئيس الوزراء الإسرائيلي أريل شارون رفض السماح لهم بالسفر.

في طول الشرق الأوسط وعرضه، احتشد الآن ألوف الصحفيين استعداداً لآخر حرب عبر الإعلام. لن تكون هناك «ملخّصات» صحفية بعد الآن، ذلك أن الصحفيين سيسافرون «بمعيّة» الجيش. إنها علامة على قبول رجال الصحافة والتلفزيون بهذه الكلمة الناقصة كجزء من قاموسهم. وتتحدّث السي إن إن وفوكس نيوز وشبكات التلفزة الأميركية الكبيرة الآن كجسم واحد. كان الجزء الثاني من الحرب على الإرهاب على وشك البدء، مكتملاً بشعاراته الذهبية وموسيقاه. وقد طوّرت الصحافة الأميركية على مرّ السنين مراقبتها الذاتية... فجرىَ حذف العبارات المثيرة للجدل («المحتلّة» مثلاً كانت واحدة من الكلمات التي يتعيّن تجنُّبها، إلّا عندما تُستخدم عند الحديث عن غزو صدّام للكويت عام ١٩٩١) واستُبدلت بتعابير وتعريفات «آمنة». حتى إنني سجّلت قائمة ببعض الجمل والعبارات التي أصبحت سائدة في الحرب العراقية: «محرّرون» تُقال للأميركيين المحتلّين، «إرهابيّون» تُقال للعراقيين المقاومين للاحتلال الأميركي، «المتعصّبون» هم المنتفضون.. «يمكن أخيراً الكشف عن ذلك» تُقال للصحفيين أمام مواقع مقابر

صدّام الجماعية. لقد جرى استخدام كل هذه العبارات... وأعيد إحياء عبارة «ضرر جانبي» لاستخدامها مجدّداً.... قيل لمراسلي التلفزيون المتمركزين في بغداد إن تقاريرهم سوف تحمل تحذيراً يقول بأن مراسلاتهم هي تحت إشراف السلطات العراقية. «تحت إشراف» كانت تعني مراقبة. . ـ مع أن هذا لم يكن صحيحاً في حالات عديدة. وكلّما كنت أجري مقابلة على الهواء من بغداد في الأسابيع التي تلت، كنت أقول دائماً أن لا أحد يتنصّت على اتصالاتي... وفي حال قاموا بذلك فإنني سأقول الحقيقة أحبّوا ذلك أم لم يحبّوه... لكنّ محطات الإذاعة والتلفزيون هي مثل القواعد.. إنها تشعر بالأمان بهذه الطريقة(*).

(*) يوم ٢٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٣ أوردت السي إن إن تعليمات «حول سياسة الموافقة على النصوص المخطوطة» حبست أنفاسنا إلى حدّ ما..... تقول التعليمات إن «على كلّ صحفي يحضّر مجموعة من النصوص أن يرسلها لأخذ الموافقة.. وقد لا تُنشر النصوص إلى أن تنال الموافقة... على كلّ النصوص المنتجة خارج واشنطن أو لوس أنجلس أو نيويورك، بما فيها تلك الصادرة عن المكاتب الدولية، أن تُرسل إلى المطبخ في أتلانتا لأخذ الموافقة»... والمطبخ هو عبارة عن مجموعة محرّري النصوص في أتلانتا الذين قد يصرّون على إحداث تغييرات أو «توازنات» في سرد المراسل.. «ولا تتمّ الموافقة على بثّ تعليق على الهواء ما لم يُوافَق عليه بصورة نهائية من قِبل مدير مخوّل وأن يصدر في نسختين واحدة منها للمكتب.. وعندما يصير النصّ قديماً ينبغي الموافقة عليه مجدّداً والأفضل أن يكون ذلك من قِبل السلطة المخوّلة التي سبق لها الموافقة في المرّة الأولى».... سجّلتُ الكلمتين الرئيسيّتين: «موافقة» و «مخوّلة». قد يكون مراسل أو مراسلة السي إن إن في الكويت أو بغداد ـ أو القدس أو رام الله ـ يعرف خلفيّات قصّته أو قصّتها..، وهو، أو هي، بالتأكيد يعرف حولها أكثر من المدير المخوّل في أتلانتا. لكن رؤساء السي إن إن هم الذين سيقرّرون مضمون القصّة.
كانت نتائج هذا النظام مؤكّدة من خلال تبادل مثير للاهتمام حصل عام ٢٠٠٢ بين مراسل السي إن إن في مدينة رام الله الفلسطينية في الضفّة الغربية المحتلّة، وإيزون جوردان، أحد كبار رجال السي إن إن في أتلانتا، والذي استقال عام ٢٠٠٥ بسبب ملاحظة عن إطلاق الجيش الأميركي في العراق النار على الصحفيين. كانت شكوى المراسل الأول تدور حول رواية للصحفي مايكل هولمز تتعلّق بسائقي الإسعاف التابعين للهلال الأحمر الذين كانت تُطلق عليهم النار بشكل متواصل من قِبل القوّات الإسرائيلية. اشتكى هولمز قائلاً: «جازفنا بحياتنا وذهبنا مع سائقي سيّارات الإسعاف وطيلة اليوم كنا نشاهد من نافذة الإسعاف جنوداً إسرائيليين يطلقون النار على سيّارات الإسعاف. حصلت الرواية على موافقة من مايك شولدر. وأذيعت القصّة مرّتين ثمّ قام ريك دايفيس (مدير تنفيذي في القناة) بإلغائها. وكان السبب أنه «لا يوجد لدينا ردّ من الجيش الإسرائيلي، رغم أننا قلنا في روايتنا إن إسرائيل تعتقد بقيام=

يوم ١٥ آذار/مارس، أخذتُ آخر رحلة سياحية إلى عراق صدّام، آخر طائرة تشحن حقائبها إلى «مطار صدّام الدولي».. كانت طائرة ركّاب إيرباص أردنية تنقل بضعة صحفيين، وبعض العمّال الأوروبيين المتعاقدين، وحشداً من العراقيين فضّلوا قضاء الأيام الرهيبة القادمة مع عائلاتهم ـ ربّما للموت معهم ـ عوضاً عن نفي أنفسهم في فنادق الدرجة الثالثة في عمّان. كنا نتّجه إلى بلد كان على وشك التعرّض للغزو من قِبل أكثر من مئة ألف جندي من القوّات الأميركية والبريطانية، لكنّ الطاقم قام بعمله كما لو أنه لا توجد أزمة أو حرب. أكلنا الكاتو والسندويش المعتاد من وجبة الرحلة، وقيل لنا أن نجعل مقاعدنا بوضع مستقيم قبل الهبوط وإبقاء الأحزمة مربوطة حتى توقّف الطائرة. كانت سلامتنا محلّ اهتمامهم الأول.

بالنسبة إلى بغداد، كانت تلك الليلة هي الليلة الواحدة بعد الألف.. آخر

= الفلسطينيين بتهريب الأسلحة والمطلوبين في سيّارات الإسعاف»... رفض الإسرائيليون إجراء مقابلة مع السي إن إن وأعطوا بياناً مكتوباً فقط... وهذا البيان جرى إدخاله في نصّ تقرير للقناة لكن تمّ رفضه مجدّداً من قِبل دايفيس في أتلانتا. وعندما أعطى الجيش الإسرائيلي بعد ثلاثة أيام مقابلة مع القناة سُمح بنشر قصّة هولمز ـ لكن بعد إضافة غير شريفة لسطر يقول بإن سيّارات الإسعاف أصيبت «خلال تبادل لإطلاق النار (أي أن الفلسطينيين أطلقوا النار أيضاً على سيّارات إسعافهم)»..

كانت شكوى المراسل واضحة كلّياً. منذ متى نوقف قصّة رهينة أهواء حكومات وجيوش؟ قيل لنا من قِبل ريك إنه إذا لم يظهر إسرائيلي على الشاشة فإننا لن نبث الرواية. هذا يعني أن الحكومات والجيوش هي التي تراقب بشكل غير مباشر رسائلنا وتجعل منا بالتالي لعبة بين أيديها.

كان كل ذلك مهمّاً بالنسبة إلى الحرب القادمة على العراق. فهو كان يقول بوضوح إنه يجب أن يكون هناك مسؤول عسكري أميركي مستعدّ لنفي أي شيء مختلَف عليه يصرّح به العراقيون إذا كانت تقارير بغداد ستعلن على الهواء. في الواقع، أكّدت مذكّرة صدرت يوم ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣ أن نظام السي إن إن بالنسبة إلى الموافقة على السيناريو أصبح أكثر قساوة. فقد أعطيت تعليمات لموظفي السي إن إن تقول «إن هناك نظاماً جديداً مسجّلاً بالكومبيوتر للموافقة على النصوص، سوف يسمح للمخوّلين بذلك بتعليم النصوص (أي التقارير) بطريقة واضحة وعامّة. وسوف يقوم المنتجون التنفيذيون للنصوص بالضغط على زرّ ملّون: «موافق»، لتحويله من الأحمر (غير موافق عليه) إلى الأخضر (موافق عليه)... وإذا قام أحدهم بتعديل في النصّ بعد الموافقة فإن الزرّ يصبح أصفر»... نعم أصفر!!

ساعات الخيال... وبينما كان مفتّشو الأمم المتّحدة يستعدون للرحيل عن المدينة في الساعات الأولى من يوم ١٧ آذار/مارس، عيّن صدّام ابنه قُصيّ قائداً للدفاع عن مدينة الخلفاء ضدّ الغزو الأميركي. وحتى الآن كان المدافعون يلعبون كرة القدم في نادي القوّات المسلّحة. وتولّى التلفزيون العراقي تزويد أهالي بغداد بالموسيقى الحربيّة لمواجهة القصف. واستمرّت الأمم المتّحدة حتى اللحظة الأخيرة ـ لساعات فقط قبل الرحيل ـ في العمل بجدّ على تجريد الدولة المعرّضة للغزو قريباً من الأسلحة، مشرفة على تدمير صاروخين من طراز صمود. كان ذلك نزع سلاح طلبه الأميركيون بشدّة ولكنهم فقدوا الاهتمام به الآن. ومع رحيل المفتّشين لم يعد هناك ما يوقف القوّات الجوّية الأنغلو ـ أميركية عن بدء قصفها لمدن العراق.

إذاً، ستكون بغداد ستالينغراد كما أبلغنا صدّام في آخر ساعات السلام!! إلّا أنه لم يكن هناك ما يوحي بذلك. . . . كانت الطرق مفتوحة، ونقاط التفتيش مهجورة غالباً، وجنود المدينة يدخّنون السجائر خارج مقرّ الأمم المتحدة. وعلى ضفاف نهر دجلة راقبت صيّادي المساء يرمون شباكهم لصيد سمك المسقوف الذي يأكله أهل بغداد بعد الغروب. تم سحب قرار مجلس الأمن! ودعا بلير إلى اجتماع طارئ لمجلس الوزراء! ووجّه بوش خطاباً إلى الشعب الأميركي! وكانت بغداد تبدو وكأنّها تسير في نومها في طريقها إلى التاريخ... مدويّة مثل أميركا وبريطانيا.

وجدت طابوراً من العراقيين ينتظرون خارج قاعة سينما سندباد في شارع السعدون تلك الليلة من أجل مشاهدة الفيلم المصري القديم «حياة خاصّة»... وكانت ملصقات الفيلم تُظهر جسد البطلة. في الواقع، تتحفنا الصحف البعثية المحلية بتقارير عن التظاهرات الداعية للسلام والاحتجاجات حول العالم، كما لو أن بوش سيقوم باستدعاء قوّاته المؤلّفة من ١٤٠ ألف جندي لأن الأردنيين أحرقوا الأعلام الأميركية في عمّان.

كانت هناك لامبالاة غير عادية، كما لو أننا كنا نتنشّق في بغداد نوعاً آخر من الهواء، موجوداً على كوكب أُزيلت منه طائرات B52 والشبح وصواريخ

كروز وقنبلة أمّ القنابل التي سوف تُزلزل الأرض قريباً تحت أقدامنا. كان تاريخ العالم الإسلامي وحضارته على وشك التعرّض لزلزال من صنع الغرب، زلزال لم يُشاهد مثيل له من قبل.. حتى إن زلزال ما بعد الحرب العالمية الأولى وانهيار الإمبراطورية العثمانية سيصبح فائضاً عن الحاجة في الساعات القليلة القادمة. والحال أن تمثالاً ضخماً كان يقف على ضفاف دجلة، ملفوفاً بالورق والقماش، حجراً بحجم ملحميّ... ينتظر رفع الستار عنه: إنه تمثال برونزي آخر لصدّام حسين....

بحثت عن علامات للعاصفة القادمة في دخان ازدحام بغداد، وسط سيّارات الأجرة الصفراء القديمة والباصات الجديدة ذات الطابقين والشاحنات. كانت هناك علامات قليلة، طوابير من السيّارات أمام محطّات الوقود تملأ خزّاناتها للمرّة الأخيرة، ومجموعة من محلّات الآثار تُغلق أبوابها خلال الدوام، وجماعة من العمّال تخرج أجهزة الكومبيوتر من الوزارة، تماماً كما فعل الصرب قبل زيارة الناتو لبلغراد في ربيع ١٩٩٩. ألم يكن العراقيون يعرفون ما سيحصل؟ ألم يكن صدّام يعرف؟

أستطيع فقط تذكر تلك الرواية المهمّة والحديثة لسفير كوبي سابق. عام ١٩٩٠ كان ضمن وفد أرسله كاسترو لإقناع صدّام بقوّة النيران الأميركية التي لا تقاوم والتي ستستخدم ضدّه إذا لم ينسحب من الكويت. أجاب صدّام: «وصلتني تقارير كثيرة مثلها. أرسلها لنا سفيرنا لدى الأمم المتحدة مراراً، وانتهت هناك» وأشار صدّام إلى سلّة المهملات الرخامية على الأرض.

أما زالت سلّة المهملات الرخامية مليئة بتقارير مماثلة؟ أبلغنا التلفزيون العراقي يوم ١٦ آذار/مارس أن صدّام قال شخصياً مرّة أخرى إنه إذا كان لدى العراق أسلحة دمار شامل في الماضي فإنها لم تعد موجودة الآن. نحن نعلم أنه كان يقول الحقيقة. وقال صدّام: «إنّ أسلحة الدمار الشامل الأميركية ودعمها لإسرائيل هي التي تهدّد العالم». طيلة اليوم، كانت طائرة الأمم المتحدة C-130 قابعة في مطار صدّام الدولي ـ كانت للأمم المتحدة طائرتان أُخريان للنقل في مطار قبرص ـ جاهزة لنقل ١٤٠ مفتّشاً خارج العراق قبل أن يشنّ بوش وبلير

هجومهما. لا أحد يناقش ما هو واضح: لماذا أزعج المفتّشون أنفسهم للمجيء أساساً؟ إذا كان الإنكليز وكذلك المدّعي العام في لندن قد صرّحوا بأنهم ليسوا بحاجة إلى قرار مجلس الأمن ١٤٤١ لشنّ الحرب لأنها مبرّرة استناداً إلى قرارات سابقة، فلماذا يصوّتون عليها إذن؟ لأنهم أملوا أن يرفض صدّام عودتهم. وكما أوضح صدّام بشكل جليّ في خطابه الأخير، جاء المفتّشون ليجدوا لاشيء».

وقفت مجموعة من «نشطاء السلام» الغربيين يداً بيد على طول أكبر جسر في بغداد، رجال مُسنّين شاب أميركي مسلم، ورجل بوذي في لباس الصلاة، يبتسمون للمارّة، ويتجاهلهم السائقون العراقيون تجاهلاً واضحاً. بدا الأمر كما لو أن العراقيين غير معنيين بتظاهرة هؤلاء الأجانب... كما لو أن سنوات عذابهم جعلتهم راضين عن الحقيقة الرهيبة التي كانت على وشك السقوط عليهم. ماذا كان يحمل هذا من نُذر للأميركيين؟ أو للعراقيين؟

وهكذا فقد ذهبت عند الغسق في آخر ليلة من ليالي السلام إلى التمثال الضخم الذي أقامه صدّام للقتلى العراقيين في حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ ضدّ إيران، والذي يوجد عند قاعدته الرخامية اسم كلّ مفقود عراقي. تقول إحدى الجمل المحفورة حول القاعدة بالعربية: «يأتي الأمل من الحياة ويجلب الدفء للقلب». لكنّ الأزواج الذين يجلسون على العشب قرب التمثال لم يحضروا إلى هنا لتذكّر الأحباب. كانوا طلّاب حقوق وكان تعليقهم السياسي الوحيد أنهم «عانوا الحرب عدّة مرّات وهم متعوّدون عليها».

وهكذا تُركت وحيداً ومعي فكرة هرطوقية.... في حال صارت بغداد بمجملها مدينة مفتوحة فإنّ المدافعين عنها سيتحرّكون شمالاً لحماية موطن صدّام، تاركين سكّان العاصمة ليكتشفوا بأنفسهم وعلى حسابهم أفراح الاحتلال الأميركي وأتراحه؟ أعتقد أن الأمر كلّه يعتمد في الساعات والأيام القليلة القادمة على عدد المدنيين الذين قرّر الأميركيون والإنكليز قتلهم في حربهم المفترض أنها أخلاقية. «هل يتعيّن على العراق أن يبني تمثالاً جديداً للقتلى؟... هكذا تساءلت في تقريري إلى الإندبندنت تلك الليلة، «أم أننا نحن الذين سنبنيه؟»...

الفصل السابع

الكلب النوويّ، المُبيد، مُضرم النيران، الإنتراكس، أغاممنون

«تسألني عن نهب بغداد؟ كان رهيباً يفوق الوصف. أتمنّى لو لم أعش لأشاهد كيف دمّر المجانين تلك الثروات من المعرفة والثقافة. اعتقدت أنني فهمت العالم، لكنّ هذه المحرقة (الهولوكوست) كانت غريبة وبلا هدف، بحيث أخرست نُطقي وعقلي.... إن ثورات الزمن وقرارت ذلك الوقت قد دمّرت كلّ الفكر والمعرفة».

الشاعر الفارسي سعدي الشيرازي، يصف نهب بغداد على يد هولاكو، حفيد جنكيز خان، في العام ١٢٥٨.. (عن ترجمة مايكل وود الإنكليزية)

أوصل هدير الطائرات الأميركية حملة الرئيس جورج بوش الإبن ضدّ الإرهاب إلى بغداد. كانت هناك طلقات من الرصاص الخطّاط في الأفق من دفاعات بغداد الجوّية ثم سلسلة من الارتجاجات الضخمة جعلت الأرض تهتزّ تحتنا، والجدران تتمايل، وموجات الصوت تُقرقع في آذاننا. وشقّت أعمدة من النار الجوّ حول العاصمة العراقية، حمراء قاتمة في القاعدة وذهبية عند القمّة.

إذا نظرت من ضفّة نهر دجلة، أستطيع رؤية شُهب من النار ترتفع في السماء بينما تنفجر القنابل والصواريخ الأميركية على الجيش العراقي ومراكز اتصالاته وبدون شكّ على الأبرياء أيضاً. صرخت بيني وبين نفسي: فالهالّلا (مكان من الميثولوجيا النروجية ـ السكندينافية، حيث تُستقبل أرواح الأبطال

الذين يسقطون في المعركة... أين هو واغنر؟ ورائعته: «أضواء الآلهة» تشعّ في آخر ساعات الدنيا!

لم يشكّ أحد في العراق أنّ بين القتلى الكثير من المدنيين. وقد تحدّث طوني بلير عن ذلك في الأسبوع نفسه في جلسة مجلس العموم. لكنني تساءلت، وأنا أُنصت إلى هذه العاصفة الناريّة في كلّ أنحاء بغداد، ما إذا كان لدى طوني بلير أيّ تصوّر حول شكلها، وماهيّتها، أو حول خوف العراقيين الأبرياء الذين كانوا يختبئون في منازلهم وأقبيتهم. قبل سقوط الصواريخ، كنت أتكلّم مع امرأة مسلمة شيعية مسنّة في منطقة فقيرة من بغداد، ترتدي لباساً أسود تقليدياً مع غطاء للرأس أبيض، وألِحّ عليها لتخبرني بما تشعر به. في النهاية قالت: «أنا خائفة». وجاءت الانفجارات لتفسّر كلماتها!

لم يكن هناك أدنى شكّ في أنّ ذلك كان بداية لشيء ما سوف يغيّر وجه الشرق الأوسط! هل ينجح؟ تلك مسألة أخرى! ينتابني شعور غريب لكوني هنا على الأرض (في موقع الحدث) في الداخل، عند بداية هذه المغامرة الإمبريالية. لقد أدّى العنف الخالص وصوت صفّارات الإنذار من الغارات الجوّية وصدى سقوط الصواريخ رسالته السياسية، ليس لصدّام فقط بل للعالم أجمع. كانت هذه الانفجارات تعلن: نحن القوّة العظمى،، هكذا نقوم بالعمل، هكذا ننتقم للحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

ولكن حتّى الرئيس بوش لم يقم في الأيام الأخيرة للسلام بأي جهد لاتّهام العراق بتلك الجرائم الدولية ضدّ الإنسانية التي وقعت في نيويورك، وواشنطن وبنسلفانيا. كان الأميركيون حتى الآن ـ بدون موافقة الأمم المتحدة ومعظم دول العالم ـ يتصرّفون بغضب من خلال الردّ العسكري. ولا شكّ في أنّ العراق لا يستطيع مواجهة ذلك طويلاً. يمكن أن يدّعي صدّام ـ كما فعل ـ أنّ جنوده يستطيعون هزيمة التكنولوجيا بالشجاعة... هذا هُراء. فما سقط على العراق يوم ١٩ آذار/مارس ـ وقد شهدت في بغداد جزءاً صغيراً من مهرجان العنف هذا ـ كان هائلاً عسكرياً كما كان مُرعباً سياسياً. كانت الجموع خارج فندقي واقفة تحدّق في السماء إلى الرشقات المضادّة للطائرات، مرعوبة. تساءلت بينما كنت

واقفاً على شرفة فندقي قرب نهر دجلة هل كان الإنكليز يعرفون إلى أين سيؤدّي ذلك؟ ألم نمشِ نحن الإنكليز في هذا الممرّ المتعجرف نفسه ضدّ طُغاة ما بين النهرين الصغار قبل أكثر من مئة عام؟ وانظر ماذا حصل للإمبراطورية البريطانية. الآن وأنا أستمع الى تلك الانفجارات الضخمة حول بغداد، أتساءل ماذا يخبّئ الزمن في جُعبته للإمبراطورية الأميركية.

كانت بغداد دائماً مكاناً قاسياً بالنسبة إليّ. مع مرور السنين، أقمت صداقات كثيرة في المدينة ـ مع رجال أعمال وعائلاتهم، وفنّانين، وموظّفين من النظام القديم وأيضاً بعثيين وعائلاتهم، وعلى الأقلّ وزير واحد، هو ناجي الحديثي الذي كان أوّلاً وزيراً للإعلام ثم وزيراً للخارجية، والذي كان ردّه الأول على الأسئلة المحدّدة يتمثّل في النظر إلى سقف مكتبه، موحياً إلينا بأنه يوجد مسجّل للصوت هناك. أمّا في منازل العراقيين فقد شعرت بالأمان. وتظهر الصور القديمة العائدة إلى الخمسينيّات الأجداد بلباس الجيش البريطاني العسكري والنساء يتسوّقن في هارودز ـ وبعد فترة طويلة، في أواخر السبعينيّات، كانت هؤلاء النسوة المتوسّطات العمر يتمتعن بالثروة النفطية لصدّام ويتنزّهن في نايت بريدج.

كان لحرارة الصيف الشديدة والمرافقين الموضوعين في تصرّفنا (نحن المراسلين) تأثير كارثي. وبعد فترة وجيزة، أخذ المرافقون أموالنا وتحوّلوا إلى العمل لصالحنا. وكان باستطاعتنا رشوتهم ومن المحتمل انتقالهم خلال هذه الحرب الصدّامية بدون وعي لخدمة شبكات التلفزة. وفي الأسابيع التي أعقبت تحرير بغداد، عملوا عندنا وبعدها شاهدناهم موظّفين عند سلطة الاحتلال الأميركي.

عندما كنّا نتمكّن من خداع المرافقين، كنّا نتسلّل إلى الأحياء الفقيرة لمدينة صدّام حيث نستمع إلى رجال المعارضة الشيعية ونلمس غضب حزب الدعوة وشجاعة السكّان الذين انتفضوا عام ١٩٩١ وتعرّضوا للخيانة لكنهم ما زالوا يتطلّعون إلى لحظة الحرّية. وقد اكتشف كبار موظّفي الوزارة قيامنا بهذه الزيارات المحظورة لكنّهم تجاهلوا ذلك مقابل ١٠٠ أو ٢٠٠ دولار مما يدلّ على فساد

النظام. فعلى الرغم من امتلاكه لأكبر ثروة نفطية عالمية، أعطى صدّام شعبه الحرب والدمار. كنت في بغداد إبّان سقوط صواريخ سكود الإيرانية عليها ليلاً، وكذلك إبّان الهجوم على خرمشهر عام ١٩٨٠، وشاهدت القتلى العراقيين داخل إيران عام ١٩٨٢ وداخل الكويت عام ١٩٩١ وأشاهد حالياً القتلى العراقيين في بغداد.

وخُيِّل إليّ أن العراقيين قد رأوا أنفسهم على هذا النحو لفترة طويلة... فهم كانوا في الوقت نفسه أحياء وأمواتاً. ولم تصبح الحرب جزءاً من وجودهم فقط بل جزءاً من حياتهم. وكان القتال والموت في سبيل صدّام، والعراق، والعروبة، والوطنية، ظاهرة طبيعية خالية من الخوف. بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٨ قاتلوا الإيرانيين لمنع احتلال بلادهم. ولا يُعتبر الاحتلال بالنسبة إلى العراقيين، والعرب، وأيّ شعب أو دين مجرّد إذلال بل هو نوع من الاغتصاب. وصل العدوّ إلى بيتكم، مدينتكم، شارعكم، غرفة نومكم وسوف يعمد إلى تعذيبكم وقتلكم وإهانة عائلاتكم. وهذا ما كان يفعله رجال صدّام من شرطته السرّية بشعبهم.. وهم أيضاً كانوا محتلّين... والويل لكلّ مَن يحاول أخذ مكانهم ....

في الليلة السابقة للهجوم الجوّي الأوّل، تجوّلت في ضاحية الجدرية من بغداد التي تضمّ مزيجاً من السكّان السنّة والشيعة، أراقب الجنود وهم يحملون أولادهم على أكتافهم ويودّعون نساءهم وأكياس العتاد على ظهورهم والأسلحة في أيديهم. صورة فوتوغرافية مكرّرة: باريس وبرلين ولندن عام ١٩١٤، برلين عام ١٩٣٩، وارسو عام ١٩٣٩، لندن عام ١٩٣٩، الاتحاد السوفياتي عام ١٩٤١، الولايات المتحدة عام ١٩٤١، وقبلهم كوريا وفيتنام وكلّ جيوش العالم التي انطلقت في حروب للدفاع عن الحضارة أو الشيوعية أو الفاشيّة ونشرها... ومنهم الملازم بيل فيسك في بوركنهيد عام ١٩١٨. ذهبت إلى صيدلية لشراء ضمادات للجروح وورق للحمّام. وكان الصيدليّ رجلاً مثقّفاً، أخذ يشرح لبقيّة الزبائن المتجمّعين، كيف أنّ الصحفيين والمراسلين الأجانب سيعيشون المخاطر والصعاب نفسها إلى جانب العراقيين وأنّ عليهم معاملتهم بلطف. أثنيت على كرم الصيدليّ بينما كنت أفكّر في أنّ قوّتي الجوّية، سلاح الجوّ البريطاني، هي

التي ستقصف بغداد قريباً: «نعم»، قال لي بابتسامة حزينة، «أعتقد أنهم سيفعلون ذلك».

إذاً، مع انطلاق هذه الحرب الجديدة والأُحادية الجانب، كان علينا نحن الصحفيين القيام بتسجيل صراعَين مختلفَين: معاناة الشعب العراقي ومخاض موت النظام. أرادنا النظام أن نرى أنّ المساريْن واحد.. وأصرّ الأميركيون والبريطانيون على أن حملتهم تستهدف تدمير النظام كمقدّمة لإنهاء معاناة الشعب. في الواقع، لم يكن ممكناً الفصل بين معاناة الشعب وصراع النظام البعثي للبقاء، بقدر استحالة نزع ضمادات عن جرح دون استثارة آلام الجريح.. كان من السهل طبعاً الجدال أن قسوة صدّام هي سبب كلّ المصائب، لكنّ الجرحى والقتلى العراقيين لم يكونوا يرون مصيرهم بهذا المنظار. لقد تعرّضوا للهجوم من قِبل الأميركيين وكانت الصواريخ والقنابل الأميركية هي التي تدمّر بيوتهم. هل قاتلوا وضحّوا على الجبهة الإيرانية من أجل الوقوع تحت احتلال قوّة أجنبية أخرى؟ فهمَ البنتاغون بوضوح هذه المعادلة. لذلك امتنع الجيش الأميركي عن إعطاء حصيلة لعدد القتلى المدنيين خلال الحرب وبعدها كما يفعل أيّ جيش نظامي أو قوّة احتلال عادة... وأكّد دونالد رامسفيلد أن الهجوم الأميركي على بغداد هو بمثابة حملة جوّية لا سابق لها من حيث الدقّة في إصابة الأهداف، لكنّه لم يكن ليستطيع قول ذلك لضُحى سُهيل ابنة الخمس سنوات... نظرت إليّ في صباح اليوم الأول للحرب وأنبوب التغذية معلّق في أنفها فيما تكشيرة وجع عميقة ترتسم على وجهها الصغير وهي تحاول دون جدوى تحريك الجانب الأيسر من جسمها.. صاروخ الكروز الذي انفجر قرب منزلها في الرضوانية أصابت شظاياه قدميها الملفوفتين بالشاش، وبشكل أكثر خطورة فقد دخلت الشظايا إلى عمودها الفقريّ. وقد فقدت الآن كلّ إحساس وحركة في رجلها اليسرى. انحنت والدة ضُحى فوق السرير لتغطّي رجلها اليمنى التي كانت الفتاة قد أخرجتها من المُلاءات.. ولسبب ما كانت الوالدة تعتقد أنها إذا وضعت رجل ابنتها اليمنى تحت الغطاء إلى جانب اليسرى بحيث تبقى مستقيمة فإن ذلك سيساعد على شفائها من الشلل. كانت ضُحى أوّل جريحة نُقلت إلى مستشفى جامعة المستنصرية بعدما بدأ القصف الأميركي على المدينة.

هناك شيء مُقرف وماجن في زيارة تلك المستشفيات... نحن نقصف.. وهم يتعذّبون.. ثم نأتي نحن المراسلين ونقوم بتصوير أطفالهم الجرحى. قرر وزير الصحّة العراقي عقد مؤتمر صحفي في باحة المستشفى غير عابئ بالقصف ليشرح الطبيعة الوحشية للقصف الجوّي الأميركي. قال الأميركيون إنهم لن يؤذوا الأطفال... وضُحى سهيل تنظر إليّ وإلى الأطبّاء طلباً للأمان، كما لو أنها ستستيقظ من هذا الكابوس وتقوم بتحريك قدمها اليسرى ولن تشعر بأي ألم. . . . إذاً فلننسَ للحظة واحدة الإعلام الرخيص للنظام وتفاخر بوش ورامسفيلد.. ولنقُمْ برحلة في هذا اليوم الدافئ من آذار/مارس ٢٠٠٣ في أجنحة مستشفى المستنصرية الجامعي. ذلك أن حقيقة الحرب في الواقع لا تكمن في الانتصار العسكري أو الهزيمة، أو في الأكاذيب حول «قوّات التحالف» التي كان صحفيّونا المعبّأون معها يروّجونها وقد بدأوا يخبروننا عن غزو سيشارك فيه فقط الأميركيون والإنكليز وحفنة من الأستراليين... إن الحرب، حتى حين تحظى بشرعية دولية (الأمر الذي لا تحظى به هذه الحرب) تعني أولاً المعاناة والموت.

خُذ على سبيل المثال آمال حسن (٥٥ سنة): امرأة فلّاحة تحمل وشماً على يديها ورجليها، ولكنّها تقبع الآن في المستشفى وهي مُصابة بجروح خطرة ممّا جعلها تبدو ضعف حجمها بسبب الضمادات. كانت في طريقها لزيارة شقيقتها عندما سقطت الصواريخ الأولى على بغداد. روت لي أنها كانت «على وشك الخروج من سيّارة الأجرة عندما حصل انفجار كبير فوجدت نفسي على الأرض والدماء تسيل مني بغزارة.. كانت الدماء في كل مكان... على يديّ ورجليّ وبطني»... ولا تزال آمال حسن تعاني من جروح كبيرة في بطنها. كانت ابنتها وعد ذات السنوات الخمس مستلقية في السرير المجاور وهي تئنّ من الألم. خرجت وعد من السيّارة أولاً وكادت تصل إلى باب منزل خالتها حين أُصيبت بالانفجار، وما زالت قدماها تنزفان، رغم أن الدم تجمّد حول أصابعهما ونشّفته الضمادات حول كاحليها وأعلى الرجلين. . . . كان في الغرفه المجاورة ولدان، سعد سليم (١١ سنة) وأخوه عمر (١٤ سنة)... وهما مصابان بجروح خطرة في

الجسم والقدمين. وكانت جراح إسراء رياض في الغرفة الثالثة مشابهة تماماً... وقد أصيبت في قدميها عندما كانت تركض مرعوبة من منزلها إلى الحديقة عندما بدأ القصف. وهناك أيضاً إيمان عليّ (٢٣ سنة) وهي مصابة بجروح عميقة في المعدة وأسفل الحوض... وأيضاً نجلاء حسين عبّاس التي كانت تحاول تغطية رأسها بالمنديل الأسود ولكنها لم تستطع إخفاء مشهد الجروح القرمزية في رجليها.. وكل هذه الجروح كانت بفعل شظايا الصواريخ... بعد فترة أصبحت «جروح الإصابات بالشظايا» شيئاً عادياً وأشبه بمرض طبيعي بالنسبة إلى هؤلاء الناس الذين عانوا لأكثر من عشرين عاماً من الحرب. ووجدتني أسأل نفسي: هل كان كل ذلك إذاً انتقاماً للحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١؟ هل كان هذا هو معنى «الردّ على الذين قاموا بهذا العمل»، رغم أن ضحى سهيل ووعد حسن وإيمان عليّ لا علاقة لهنّ على الإطلاق، بهذه الجرائم ضدّ الإنسانية. بقدر عدم علاقة صدّام الرهيب؟ تساءلت أيضاً: مَن الذي قرّر إلحاق الأذى بهؤلاء الأطفال وأولئك النسوة كردّ على ١١ أيلول/سبتمبر؟ إن الحروب متشابهة وتكرّر نفسها... ونحن نقوم بطرح السؤال نفسه دائماً عندما نزور الضحايا. في ليبيا عام ١٩٨٦، كان الصحفيون الأميركيون يسألون الجرحى عدّة مرّات: هل أُصبتم ربّما من شظايا أسلحتكم المضادّة للطائرات؟ وقمنا مجدّداً بسؤال الجرحى العراقيين السؤال نفسه عام ١٩٩١. والآن يجد طبيب نفسه أمام هذا السؤال من قِبل مراسل إذاعي بريطاني: «هل تعتقد يا دكتور أن بعض هؤلاء الناس ربّما أصيبوا بنيران المضادّات العراقية؟».

هل يجب علينا الضحك أم البكاء حيال ذلك؟ هل يجب دائماً أن نلومهم «هم» على جراحهم؟ بالطبع علينا أن نسأل لماذا انفجرت صواريخ كروز تلك حيث انفجرت.. والتي وصل عددها إلى ٣٢٠ صاروخاً في بغداد وحدها بفضل خدمة USS Kitty Hawk. جاءت إسراء رياض من حيّ الصيادية حيث توجد تحصينات عسكرية كبيرة... وجاءت نجلا عبّاس من حيّ الرسالة حيث توجد فيلّات تملكها عائلة صدّام... وكان الأخوان سليم وعمر يقطنان في شرطة خمسة قرب مرآب للسيّارات العسكرية... ولكن هنا تكمن المشكلة برمّتها.. فالأهداف

كانت موزّعة في جميع أنحاء المدينة حيث يعيش الفقراء (وكلّ الجرحى الذين قابلتهم كانوا من الفقراء) في بيوت رخيصة وأحياناً في أكواخ خشبية تنهار نتيجة القصف.

إنها القصّة القديمة نفسها تتكرّر. إذا خضنا الحرب فسوف نقتل ونشوّه الأبرياء. أحصى الدكتور حبيب الحثي، الحائز على شهادة الطبّ من جامعة إيدنبرغ، حوالي ١٠١ مريض في مستشفاه فقط من أصل ٢٠٧ أصيبوا بالغارة، منهم ٨٥ رجلاً و٢٠ امرأة و٦ أطفال و١٦ جندياً. وقد توفّي شابّ وطفل في الثانية عشرة من العمر خلال العملية الجراحية. ولن يقول لنا أحد كم هو عدد الجنود الذين قُتلوا خلال الهجمات.

يُعتبر التجوّل بالسيّارة في شوارع بغداد خطراً. فقد كانت الأهداف محدّدة بدقّة رغم أن تدميرها كان يؤدّي إلى الإصابة الحتمية للأبرياء. كان هناك قصر رئاسي وعلى جوانبه أربعة تماثيل للمحارب العربي صلاح الدين، طول كل واحد منها عشرة أمتار. لكنّ وجه التمثال يمثّل صدّام حسين بالطبع.. وفي وسطها فجوة ضخمة سوداء تشوّه مدخل المبنى... لقد تبخرّت وزارة صناعة السلاح الجوّي مخلّفة ركاماً من الإسمنت والدبش. وفي الخارج عند المدخل، أكوام من أكياس الرمل يقف وراءها جنود عراقيون وأسلحتهم في أيديهم استعداداً للدفاع عن وزارتهم ضدّ العدوّ الذي دمّرها أصلاً.

بدأ ازدحام السير الصباحي يزداد على الطرقات قرب نهر دجلة. ولم يمعن أيّ سائق النظر إلى القصر الجمهوري على الطرف الآخر من النهر أو إلى وزارة التسليح المجاورة لها... اللذين ظلّا يحترقان طيلة ١٢ ساعة بعد أول دفعة من الصواريخ. بدا وكأنّ احتراق القصور والوزارات والتحصينات صار جزءاً عادياً من حياة بغداد اليومية. ولكن، مرّة أخرى، بربّكم مَن كان في ظلّ حكم صدّام يمضي وقتاً طويلاً في النظر إلى هذه الأشياء؟ كان العراقيون مُربكين في إدراك معنى ذلك. عام ١٩٩١، قصف الأميركيون مصافي النفط، ومحطّات الكهرباء، وأنابيب المياه وخطوط الاتصالات. لكن في اليوم الثاني للحرب، ظلّت بغداد

تتحرّك بنشاط. وكانت خطوط الهاتف الأرضي والإنترنت تعمل وكذلك استمرّت الطاقة الكهربائية بكامل طاقتها والجسور سليمة فوق نهر دجلة.

كان تحليلي أن الأميركيين بحاجة إلى نظام اتصالات وكهرباء ومواصلات وما تمّ استثناؤه لم يكن هدية مجّانية للشعب العراقي بل كان لمصلحة حكّام العراق الجُدد.

وقد صدرت صُحف العراق اليومية بطبعة من أربع صفحات فيها مجموعة مقالات عن ثبات الأمّة، وتعني كلمة ثبات بالعربية صموداً، وهو اسم الصواريخ العراقية التي دُمّرت جزئياً قبل طلب بوش من مفتّشي الأمم المتّحدة مغادرة العراق عشيّة ذهابه إلى الحرب، وكان عنوان أحد المقالات: الرئيس: «النصر سيتحقّق على أيدي العراقيين» . وخلال قصف مساء الجمعة، تابع التلفزيون العراقي بثّه ولم يحاول الأميركيون تدميره وظهر على الشاشة جنرال عراقي يؤكّد النصر. وعندما كان يتحدّث مزّقت موجات القصف وانفجارات صواريخ كروز الستائر خلفه وهزّت الكاميرات. وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي عندما نظرت إلى رُكام القصر الجمهوري والوزارة المحترقة وألسنة اللهب في أنحاء بغداد وسحب الدخان التي تغطي المدينة، تساءلت إلى أين يقود كل ذلك؟ بدا القصر المحترق، المهدّم، وألسنة اللهب تخترق جدرانه، مثل حصن من القرون الوسطى دمّره إعصار... لقد دمّرت ستيزيفون (مدينة قديمة على ضفاف الفرات = طاق كسرى) بلاد ما بين النهرين، تماماً كما حدث عبر آلاف السنين عدّة مرّات... ولقد ضرب كزنوفون إلى الجنوب من هنا والإسكندر إلى الشمال.. ونهب المغول بغداد... ثم جاء الخلفاء وبعدهم العثمانيون والإنكليز... لكنّ الجميع رحلوا..وجاء اليوم دور الأميركيين... ولم يكن الأمر يتعلّق بالشرعية، ولكن بشيء أكثر جاذبية، شيء فهمه صدّام جيّداً، نوع خاصّ من القوّة، تلك القوة التي يرغب كلّ غازٍ للعراق في إظهارها بينما هو يشقّ طريقه عبر هذه الحضارة القديمة.

بعد ظهر اليوم الثاني للحرب، أشعل العراقيون حرائق ضخمة من النفط حول بغداد بُغية تضليل نظام توجيه صواريخ كروز... دخان في مواجهة

الكومبيوتر. دوّت صفّارات الإنذار مجدّداً بعد الساعة ٦,٢٠ من يوم ٢٢ آذار/ مارس عندما دُمّر أضخم مبنى عسكري لصدّام... مبنى ضخم مؤلّف من عشرين طابقاً قرب القصر تفجّر أمامي مثل مرجل من النار وارتفع اللهب مئة قدم ورافقه صوت ظلّ يطنّ في أذني لمدّة ساعة بعد الانفجار.. وتساقط المبنى بكامله من تأثير ذلك. ثم سقطت خمسة صواريخ أخرى. كان هذا أقوى قصف عانت منه بغداد طوال أكثر من عشرين سنة من الحرب. وكانت إلى يميني مجموعة من الأعمدة الطويلة لمبنى يشبه البنتاغون تشتعل فيه النيران بعد سقوط خمسة صواريخ داخله. كانت العملية تهدف على ما يبدو إلى إشاعة «الرعب والصدمة»، شعار رامسفيلد الأخير. وكان العراقيون القلائل في الشوارع حولي، من غير المؤيّدين لصدّام على ما أعتقد، يلعنون الطاغية في سرّهم.

تناثر الزجاج من المباني العالية والبيوت والمحلّات بينما تسللت موجات القصف عبر دجلة في كلا الاتجاهين. كانت الصواريخ تتساقط الواحد تلو الآخر. وشاهد معظم العراقيين ـ كما شاهدتُ ـ الصور التلفزيونية لقاذفات ب٥٢ B52 المشؤومة وهي تنطلق من بريطانيا قبل ستّ ساعات من القصف ولاحظوا مثلي الوقت وحسبوا أن القصف والرعب سيبدآن الساعة التاسعة. كانت طائرات ب٥٢ B52 تطلق صواريخها من خارج المجال الجوّي العراقي وتتوقّف في وقت معيّن. وكان رجال الشرطة يجوبون الشوارع مسرعين بسيّاراتهم ويطلبون عبر مكبّرات الصوت من الناس الاختباء أو اتخاذ ملجأ تحت الأبنية العالية. وبفضل وقوفي قرب مجموعة من المحلّات نجوت بأعجوبة من تساقط الزجاج من الأبنية العالية نتيجة القصف.

كنتَ تستطيع أن ترى العراقيين، أزواجاً وزوجات وأطفالاً وشبّاناً، وهم ينظرون من الشرفات وحولهم الزجاج المحطّم. وكلّما سقطت كُتل نارية على المدينة كانوا يسارعون إلى الداخل قبل وصول موجة الانفجار إليهم. وبينما كنتُ واقفاً على الكورنيش تحت الأشجار مرّت موجة من صواريخ كروز على علوّ منخفض فوقي وكان أزيزها هادراً مثل الانفجارات التي تلتها. وتساءلت هل يمكن للمرء وصف ذلك بغير لغة التقارير العسكرية.. تحديد الألوان، وقوّة

الانفجارات؟ كان سقوط الصواريخ كما لو أن أحدهم كان يقوم بنشر قطع ضخمة من المظلّات الحديدية في الجوّ.

هناك شيء ما أشبه بالفوضى عند كلّ البشر في ما يتعلّق بردّ فعلهم حيال العنف. كان العراقيون حولي واقفين يراقبون، كما كنت أفعل، ألسنة اللهب وهي تتصاعد من أعلى المبنى قرب قصر صدّام وتتّجه نحو السماء. والمستغرب أن الطاقة الكهربائية ظلّت سليمة واستمرّت الشارات الضوئية تعمل بشكل عادي وكانت لوحات الإعلانات تتمايل نتيجة الصدمات والأنوار الكاشفة تسطع في المباني الحكومية. أمّا سحب الدخان فكانت تتحرّك فوق بغداد بيضاء اللون نتيجة الانفجارات، وسوداء بفعل الأهداف المحترقة. كيف يستطيع المرء مقاومة ذلك؟ كيف يستطيع العراقيون التصديق أن بمقدورهم بالرغم من تقنيتهم المدمّرة ومن سنوات الضعف والعقوبات الاثنتي عشرة، أن يهزموا كومبيوتر هذه الصواريخ وهذه الطائرات؟ إنها الرواية القديمة نفسها: القوّة التي لا تُقاوَم، القوّة التي لا حدود لها.

حسناً، قلنا لأنفسنا، وماذا لدينا أفضل من هذا النظام لكي نهاجمه؟ لكن القضيّة ليست هنا...، فقد كانت الرسالة الجديدة لغارة الليلة هي نفسها رسالة غارة الليلة السابقة وغارات الساعات القادمة: يجب الخضوع للولايات المتحدة وأوروبا والأمم المتحدة والناتو وعدم المعارضة.

كان العديد من العراقيين يسألونني عن مدّة هذه المعركة. ولا يتعلّق بالأمر برغبتهم في رؤية الأميركيين والإنكليز في بغداد، بل برغبتهم في الخلاص من هذا العنف.. وهذا هو بالمناسبة، إذا فكّرنا في الأمر، السبب الذي كانت من أجله هذه الغارات؟

كان يوم ٢٥ آذار/مارس ٢٠٠٣ يوم الثناء على الرجال الشجعان. وكان صدّام يقوم بذلك من خلال تعداد ضبّاط الجيش والبحرية العراقية الذين يقودون المقاومة ضدّ الجيش الأنغلو ـ أميركي في أمّ القصر والبصرة والناصرية، وهم اللواء مصطفى محمود عمران، قائد الفرقة الحادية عشرة، والعميد بشير أحمد عثمان، قائد الفرقة ٤٥، والعميد علي خليل ابراهيم قائد الكتيبة ١١ من الفرقة ٤٥، والعقيد فتحي راني مجيد، من الجيش العراقي الثالث، وهكذا دواليك.

كان صدّام يكرّر أمره: «أصبروا، أصبروا» ردّدها أربع عشرة مرّة.. وكان يقول للجيش وللشعب العراقي أن يصبروا: «سننتصر... سننتصر على الشرّ»... صبور ولكن واثق من النصر ... ويحارب الشرّ!!.

ألم يكن الرئيس بوش يفعل الشيء نفسه مع شعبه منذ ساعات قليلة؟ وفي مواقف أخرى يشبه صدّام بطلَه جوزيف ستالين عندما يقول: «جاءوا لتدمير بلدنا ولكن علينا الصمود وتدميرهم والدفاع عن شعبنا وبلدنا... اذبحوهم... لقد جاءوا للاستيلاء على أرضنا. لكن عندما يدخلون مدننا فإنهم يعملون على تجنّب المواجهة مع قوّاتنا وعلى البقاء بعيداً عن مرمى أسلحتنا». أليس هذا نسخة مكرّرة من أسلوب الحرب الوطنية الكبرى في الدفاع عن الوطن الأمّ روسيا بقيادة العمّ جو؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، فكيف نفسّر صمود آلاف الجنود العراقيين في مواجهة الهجمات الجوّية وهجمات الدبّابات؟ الشعب، الحزب، الوطنية، تسير العبارات الثلاث بشكل متوازٍ خلال خطاب صدّام مع تحذير مرير: بينما تُحرز القوّات الأميركية والبريطانية تقدّماً بطيئاً على الأرض، فإنها تستخدم القوّة الجوّية ضدّ العراق بشكل أكثر قساوة.. والحال كيف تشعر وأنت تعيش تلك الأيام في ستالينغراد الرئيس صدّام المقبلة؟.

بعد ساعات قليلة، عادت تتساقط صواريخ الكروز. وجعلت الانفجارات الضخمة بغداد مدينة مظلمة. وقد سقط صاروخ من نوع توما هوك في جامعة المستنصرية مما أدّى إلى مقتل أحد الطلّاب وإصابة ٢٥ آخرين بجروح بحسب المعلومات. وسُمعت أصداء أخرى في ساعات الصباح صادرة عن رشقات من أسلحة رشّاشة على ضفّة نهر دجلة... كانت تلك محاولة لأسر طيّاريْن أميركييْن هاربيْن، كما أكّدت السلطات الرسمية... وحصلت بعدها معركة بمختلف الأسلحة في ضواحي المدينة الساعة ٢,٣٠. وسرت شائعات عن خروج مسلّحين من مدينة صدّام من الأحياء الشيعية الفقيرة وحصل صدام بينها وبين قوّات الأمن العراقية. ولم يصدر تأكيد لذلك. وصدر نفي لخبر قطع خطّ سكّة الحديد شمال بغداد.

يوم الأحد، قدّم اللواء سلطان هاشم تقريراً حول سير الحرب معدّداً الوحدات المشاركة في القتال ـ الكتيبة الثالثة من اللواء ٢٧ في الجيش العراقي

ما زالت صامدة في سوق الشيوخ جنوب الناصرية، وكذلك الفرقة الثالثة في الجيش العراقي الثالث في البصرة. وتذكّرت كيف أعطى هؤلاء الجنرالات تصريحات مشابهة خلال حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ ضدّ إيران. وعندما دقّقنا في هذه التصريحات حينها ثبت أنها صحيحة. هل ينطبق الأمر نفسه على ما يجرى اليوم؟ أكّد اللواء هاشم قيام جنوده بتدمير الدبّابات الأميركية والمصفّحات وطائرات الهيلكوبتر. وكان من السهل تكذيب هذه التصريحات حتى ظهرت حاملات جند ومصفّحات أميركية تحترق على شاشة التلفزيون. وكان لدى نائب الرئيس طه ياسين رمضان ما يكفي من اللطف لكي يشرح خطط الجيش العراقي... قال إن خطّة الجيش العراقي تتمثل في دفع القوّات الأنغلو ـ أميركية إلى التوغّل في الصحراء وتركهم يدورون هناك قدر ما يشاءون ومن ثمّ الانقضاض عليهم حين يحاولون دخول المدن... وكان ذلك على ما يبدو هو ما كانوا يقومون به.

بدت خطّة الأميركيين في الوصول إلى بغداد المجلّلة بمظلّة من الدخان الأسود وصفّارات الإنذار مشابهة: التقدّم في الصحراء حتى وادي دجلة والفرات ومحاولة الالتفاف على كلّ مدينة في الطريق. وإذا حصلت مشاكل في أمّ القصر وصعوبات في البصرة يجري التحوّل باتجاه الناصرية، واذا كان هناك خطر يجري الالتفاف نحو النجف... لكنّ ما قيل عن الطريق المفتوح على الخطّ السريع والمليء بحشود العراقيين المرحّبين وهم يلقون الزهور على الجنود الأميركيين والبريطانيين تبيّن أنه وهم(*).

(*) كنت تستطيع ملاحظة هذا التفاخر عندما تحدّث محمد سعيد الصحّاف (وزير الإعلام المرح ولكن البعيد عن الفكاهة) عن طوني بلير: «أظنّ أن الشعب البريطاني لم يواجه أبداً مأساة تشبه هذا الشخص». الشخص.. أجل، لقد عرف الصحّاف كيف يسخر من الشعب البريطاني. كان يقوم بقراءة تقارير الإصابات اليومية، والتي صار اليوم بعد سنين من الجدل حول عدد القتلى المدنيين، لها قيمة مادّة أرشيفية مهمّة لم تكن متوفّرة لها في حينه. حول هذا الموضوع، أعطى الصحّاف في اليوم الثالث للغزو الأرقام التالية لعدد القتلى والجرحى: في بغداد ١٩٤ جريحاً، في نينوى ٨ جرحى، في كربلاء ٣٢ جريحاً و١٠ قتلى، وفي صلاح الدين قتيلان و٢٢ جريحاً، وفي النجف وقع قتيلان و٣٦ جريحاً، وفي القادسية ٤ قتلى و١٣ جريحاً، وفي البصرة ١٤ قتيلاً و١٢٢ جريحاً، وفي بابل أعلنت السلطات مقتل ٣٠ وإصابة ٦٣. كان مجمل القتلى حتى ذلك الوقت ٦٢ مدنياً.

والحال أننا لم نعد نستطيع السفر... لم يعد بإمكان أيّ صحافي غربي مغادرة حدود مدينة بغداد حتى ولو كان معه تصريح أخذ سيّارة أجرة. يوم ٢٧ آذار/مارس، ذهبت لمقابلة أصدقائي القدامى في قناة الجزيرة في مكاتبهم على الضفّة الغربية من نهر دجلة... كان لديهم فريق في مدينة البصرة يتعرّض للهجمات الجوّية والبرّية البريطانية. وطلبت منهم مشاهدة لقطات الفيديو القاسية التي حصلوا عليها من البصرة. وبما أنني كنت غير قادر على التوجّه إلى هناك فقد كان باستطاعتي على الأقلّ النظر من خلال أعين وعدسات مصوّريهم وذلك قبل أن تضع السلطات العراقية (أو بعد بثّها: السلطات الأميركية والبريطانية) يدها عليها.

جلست في مكتب تحرير الجزيرة بينما كانت أصداء المضادّات الأرضيّة تدوّي بعيداً خارج الجدران. كانت كاميرا الفيديو محمولة باليد لذلك كان التصوير غير ثابت. وظهر في الصور جنديان بريطانيان مقتولان على طريق البصرة إضافة إلى فتاة عراقية ـ ضحية للقصف الأنغلو ـ أميركي ـ نُقلت إلى المستشفى مصابة في بطنها، وامرأة مصابة بجروح خطرة تصرخ مستغيثة بينما يحاول الأطبّاء نزع ملابسها لعلاجها، وجنرال عراقي محاط بمئات الجنود المسلّحين يقف في وسط البصرة ويعلن أن مدينة العراق الثانية ما زالت صامدة تحت سيطرة العراقيين. كان شريط فيديو الجزيرة مصوّراً خلال الستّة وثلاثين ساعة السابقة وقد وصل حديثاً إلى بغداد.

ويدلّ الشريط على أن البصرة كانت لا تزال تحت سيطرة قوّات صدّام حسين وليس تحت سيطرة القوّات البريطانية. ورغم زعم الضبّاط الإنكليز حصول شكل من أشكال الثورة في المدينة، ظلّت السيّارات والحافلات تتحرّك في الشوارع بينما وقف العراقيون بصبر للحصول على قوارير غاز يجري إفراغها من شاحنة حكومية. ويُظهر جزء مهمّ من الشريط كرات نار فوق غرب البصرة مصحوبة بدويّ القذائف البريطانية.

أثار عرض المشهد القصير للجنديّين البريطانيّيْن القتيلين على الجمهور البريطاني حنق طوني بلير الذي عبّر في اليوم التالي عن اشمئزازه.. إلا أنه لم

يكن ليختلف كثيراً عن مشهد عشرات القتلى العراقيين الذين عرض صورهم التلفزيون البريطاني خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية، وهي صور لم تحظ يومها بأيّة إدانة من قِبل رئيس الوزراء البريطاني. كان الجنديان ممددين باللباس العسكري على الطريق وأطرافهما مقطّعة وأحدهما مصاب في رأسه والآخر في بطنه. وأظهر مشهد آخر في الشريط جموع المدنيين في البصرة والمسلّحين بثياب مدنية وهم يركلون سيّارة جيب عسكرية بريطانية رقمها HP5AA ويرقصون على ظهرها. وكان يمكن رؤية رجال آخرين يركلون مقطورة لوزارة الدفاع رقمها KC98 91 يبدو أن الجيب كان يقطرها عندما وقعت في كمين.. وكان يمكن أيضاً رؤية حُطام طائرة استطلاع بريطانية بدون طيّار أُسقطت وكانت تقبع على الطريق وقد كُتبت عليها عبارة ARMY بأحرف كبيرة وتحمل الرقم المتسلسل ZJ300، وعلى ذيلها جسم أسطواني كبير يحتوي على الكاميرا بحسب اعتقادي. غير أن الصور الأكثر رعباً، إضافة إلى صور القتيلين البريطانييْن، كانت تلك المأخوذة من مستشفى البصرة الكبير حيث كان يتمّ إحضار ضحايا القصف إلى غُرف العمليّات وهم يصرخون من الألم. وقد جيء برجل متوسّط العمر إلى المستشفى وهو بلباس النوم والدماء تسيل من رأسه حتى قدميه، وأُحضرت فتاة عمرها أربع سنوات إلى غرفة العمليات على عربة المستشفى وهي تنظر إلى جزء من أمعائها متدلّ من الجانب الأيسر لمعدتها. وقد قام طبيب بسكب الماء على أمعائها ثم وضع برفق ضمادات قبل بدء الجراحة. وكانت هناك امرأة ترتدي السواد مصابة بجرح في معدتها وهي تصرخ بينما كان يحاول الأطبّاء تجريدها من ملابسها لإجراء الجراحة.. وفي لقطة أخرى يُظهر شريط بُقع دم تقودك إلى مكان الإصابة الناتجة عن قذيفة بريطانية.. وقرب القذيفة زوج أحذية بلاستيكية.

تُعتبر تسجيلات الجزيرة، التي سيبقى معظمها محظوراً بثّه، الإثبات الحسّي الأوّل على أن البصرة كانت لا تزال بكاملها خارج السيطرة البريطانية. ولم يكن أحد الشوارع الرئيسية لمدينة البصرة والمؤدّي إلى بغداد هو الشارع الوحيد السالك بل كان الجنرال العراقي خالد حاتم يجري مقابلة في شارع آخر من البصرة محاطاً بالمئات من جنوده وهو يعلن أن قوّاته لن تسلّم البصرة أبداً

لأعداء العراق. وكان يمكن مشاهدة عناصر ميليشيا حزب البعث بسلاحهم في الشوارع ورجال الشرطة يوجّهون الشاحنات والحافلات قرب فندق شيراتون. ويعتبر مراسل الجزيرة في البصرة محمد عبدالله أشجع صحافي في العراق إذ يُرى في الأشرطة الثلاثة وهو يجري مقابلات مع السكّان تحت القصف ويتحدّث بهدوء عن قصف المدفعية البريطانية القادم. ويعرض أحد الأشرطة إصابة فندق شيراتون على شطّ العرب بقذيفة، كما كان يمكن مشاهدة أهالي البصرة يملأون الجرار بالماء الملوّث على ضفّة النهر حيث يوجد تمثال ضخم لشهداء حرب العراق ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ يشير بإصبع الاتّهام عبر ممرّ شطّ العرب باتجاه إيران.

يوم ٢٢ آذار/مارس أعلنت الحكومة العراقية مقتل ٣٠ مدنياً في البصرة وجرح ٦٣ آخرين. وزعمت يوم ٢٧ آذار/مارس أن أكثر من ٤ آلاف مدني أصيبوا بجروح في العراق منذ بداية الحرب وقُتل أكثر من ٣٥٠ مدنياً. وقد أظهر شريط فيديو عبدالله أيضاً وصول سبع جثث أخرى إلى ثلّاجة مستشفى البصرة خلال اليومين الماضييْن (كان رأس أحدها ما زال ينزف دماً على أرض مستودع الجثث وتم التعريف به على أنه المراسل العربي لوكالة أخبار غربية). وتظهر مشاهد أخرى مرعبة جثّة طفلة صغيرة مقطّعة الأوصال ما زال شالها الأحمر حول عنقها. وتُرى طفلة أخرى على حمّالة وقد فقدت دماغها وأذنها اليسرى وطفل آخر ميت مقطوع الأطراف. ولا توجد أي إشارة تفيد ما إذا كان الجيش الأميركي أو البريطاني هو مَن قتل هؤلاء الأطفال. ولا يعطي الشريط أية معلومات عن الخسائر العسكرية العراقية.

لكن في حين كانت السلطات العراقية تمنع انتقال المراسلين الأجانب إلى البصرة كان هذا الشريط الدليل الأقرب إلى الحيادية على استمرار القتال في المدينة وثمن مواجهة الجيش البريطاني. ولأيام عديدة ، كانت السلطات العراقية تنفي تقارير متفائلة من مراسلين «معبّئين مع قوّات الغزو»، وبخاصّة من البي بي سي، تعطي انطباعاً بأنّ البصرة آمنة أو أنها كانت تحت السيطرة البريطانية بشكل فعلي. وقد أثبتت الأشرطة عدم صحّة ذلك... وفي مشهد آخر يظهر

رجلان أسودان زعمت القوّات العراقية أنهما أسيرا حرب أميركيّان. ولم تكن هناك أسئلة تُطرح على الرجلين اللذين كانا يرتديان ملابس سوداء متشابهة.. وقد بدا الرجلان في الشريط متوتّرين وهما ينظران إلى فريق التصوير وإلى الجنود العراقيين المحتشدين وراءهما.

ومع ذلك سوف يجري شطب القتلى المدنيين من رواية الحرب.... وسيكونون ضمن الإحصائيات التي ستبقى محجوبة عنا إلى الأبد. سوف يصبحون مجهولين، غير قتلى، أو «الضرر الجانبي» الذي لا ينتهي الحديث عنه في سجلّات البنتاغون أو وزارة الدفاع البريطانية.. أو أنّهم على الأقلّ لن يظهروا في أيّ ملفّ آخر يمكن السماح للرأي العامّ برؤيته. وهكذا فإن الطفلة الصغيرة لم تفقد رأسها... وكذلك لم تفقد رفيقتها دماغها... وستبقى قدم الطفلة الثالثة معلّقة بجسدها. لكن على الأقلّ من أجل التاريخ المدوّن... إذ لن يكون هناك سجلّ تاريخي بالطبع.. وهذا كان جزءاً من حربنا الجديدة.

يوم ٢٤ آذار/مارس أدركنا أن الأميركيين لا يرغبون في الإبقاء على اتصالات بغداد بحالة جيّدة وربّما كان ذلك بسبب عدم تقدّمهم السريع كما كانوا قد خطّطوا... كان من الصعب أن نبكي عبر محادثة هاتفية... وكانت تجربة تدمير نظام الاتصالات المحلّي في بغداد مؤلمة في الواقع بالنسبة إلى عشرات الآلاف من السكّان الذين أرادوا البقاء على تواصل مع أقاربهم خلال ساعات الظلام الطويلة وعمليات القصف. لكنّ الاتصالات المدمّرة والأسلاك المقطّعة والإسمنت المحطّم في مركز الميمون للاتصالات الدولية، كل ذلك لا يكاد يوازي صور الأمعاء المتدلّية والبطون المبقورة والعظام المنثورة للجرحى المدنيين في العراق. وقد وصف رجال Sentcom الأهداف التي قصفوها في الساعات الأولى من ٢٨ آذار/مارس بأنها «مراكز القيادة والمراقبة». وهذا يمثّل مظهراً آخر من مظاهر الانحطاط العديدة عندنا (وحين أقول «عندنا» فأنا أقصد الغرب) حين نلجأ إلى هذه الأمور بشكل روتيني عندما لا تسير الأمور في الحرب كما كنّا نشتهي.. وبالعودة إلى قصفنا لبغداد عام ١٩٩١، فقد قمنا بقصف القصور الرئاسية والثكنات في المرحلة الأولى ثم انتقلنا إلى قصف

مراكز الاتصالات والكهرباء وبعدها محطّات تكرير المياه. وقد حصلت القصّة نفسها في صربيا عام ١٩٩٩، حيث دُمّرت تحصينات الجيش اليوغوسلافي ومصانع الأسلحة ثم الجسور ونظام الاتصالات والكهرباء. والآن تتكرّر القصة القديمة في بغداد. فقد قُصفت القصور الرئاسية وثكنات الجيش ثم جرى الانتقال إلى تدمير نظام الاتصالات.

بدا واضحاً أننا «كنّا نأمل أن لا يصل الأمر إلى هذا الحدّ». فقد رغبت الجيوش الأنغلو ـ أميركية في الحفاظ على البنية التحتية في بغداد سليمة وذلك من أجل استخدامها بعد دخول المدينة تحت وابل من زهور الجماهير المحتشدة لاستقبالها. لكن بعد ليلة من التفجيرات الضخمة في أنحاء المدينة تمّت التضحية بالاتصالات. وهكذا قُصف مركز اتصالات الرشيد الضخم بصاروخ كروز اخترق أسفل المبنى، علماً بأنه كان قد دمّر في قصف عام ١٩٩١. كما أن مركز الكرادة، حيث يدفع البغداديون فواتير الهاتف، قد دُمّر تماماً...

خارج كل واحد من هذه المجمّعات، كما خارج كلّ مؤسّسة حكومية، كان ينتصب تمثال ضخم لصدّام يناسب الوزارة المعنية أو أحد أقسامها... كان تمثال لصدّام معتمراً قبّعة قماش ينتصب أمام المحطّة المركزية في بغداد مثل رجل مرور يقوم بتسريع قطار في طريقه إلى البصرة... وتجدر الإشارة هنا إلى أن حركة المواصلات إلى المدينة قد تمّ وقفها رسمياً بسبب الحصار العسكري البريطاني. وفي مركز الميمون تمثال لصدّام أمام صاري المواصلات. وفي مركز الرشيد تمثال له وهو يتحدّث على تلفون أسود قديم بينما يدوّن ملاحظات على دفتر بقلم بنّي كبير.

كل ذلك قد انتهى... فقد قرّر «نا» تدمير مراكز الاتصالات وكلّ «أنظمة القيادة والمراقبة» التي كان يمكن أن تُستخدم بشكل مزدوج بواسطة شبكة الإنترنت. . . وبسبب ذلك كان على معظم أهالي بغداد التنقل في المدينة للحصول على أخبار عن بعضهم البعض.. وبذلك ازداد عدد السيّارات المتجوّلة في بغداد أكثر من أيّ وقت مضى في الحرب. وقد جرى تدمير شبكة الإنترنت

في بغداد أيضاً ولكن بين فترات قطع الكهرباء ظلّ بالإمكان مشاهدة برنامج التلفزيون العراقي الذي قُصفت مكاتبه يوم ٢٦ آذار/مارس من قِبل الأميركيين.

وماذا بعد؟ الكهرباء أم الماء؟ ام الاثنان معاً لأن الطاقة هي التي تشغّل مضخّات المياه؟ وكان كل يوم جديد يأتينا بأخبار عن أحداث لا مغزى كبيراً لها إن أُخذت متفرّقة، إلّا أنها تضيف مجتمعة بُعداً كبيراً مخيفاً عن الغزو وعواقبه. في نهاية آذار/مارس اجتمع المئات من رجال القبائل من جميع أنحاء العراق في فندق ببغداد قبل مقابلة صدّام. وتجدر الإشارة هنا إلى أن قبائل العراق التي تمّ تجاهلها من قِبل المخطّطين العسكريين وصانعي القرار في واشنطن الذين يعتقدون بأن تماسك العراق يقوم على حزب البعث والجيش، هي قوة قادرة وجذورها قويّة نتيجة تشابك العائلات عبر الزواج، ممّا يؤمّن قوّة متماسكة بقدر تماسك حزب البعث. ويقوم رجال القبائل بحراسة مخازن الحبوب وبعض محطّات الكهرباء حول بغداد وقد نجح اثنان منهم في إسقاط مروحية أباتشي في الأسبوع الفائت. والآن وصل زعماء القبائل من جميع أنحاء العراق، من الفلّوجة والرمادي ونينوى وبابل والبصرة والناصرية وكل مدن ما بين النهرين. وهذا ردّ على ادّعاء وزير الدفاع جيوفري هورن أن صدّام فقد السيطرة على جنوب العراق ـ سيعود هؤلاء الزعماء اليوم وغداً إلى مدنهم وقراهم بتعليمات تتعلّق بمواجهة القوّات الأميركية والبريطانية. وكان صدّام قد أصدر في وقت سابق مجموعة قرارت تطلب من رجال القبائل قتال الأميركيين والإنكليز على شكل مجموعات تهاجم خطوطهم الأمامية والخلفية وتقطع عليهم الطريق نحو بغداد والقيام بشنّ غارات ليلية في حال استقرارهم في مواقع.

كنت محتاراً حيال هذا الأمر. . . . ذلك أن قوّات حرب العصابات يمكنها مهاجمة قوّات الاحتلال في مواقعها وخلال دورياتها اليومية عندما تستقرّ وتسبّب لها الأذى لكنها لن تسبّب الكثير من الضرر أثناء غزو يتقدّم بحيث أن قوّاته المتفوّقة والمتحرّكة وغزارة نيرانها تسحق أيّة مقاومة... ولكن حين تستقرّ قوّات الغزو في مجمّعات وتحصينات ودوريات روتينية تصبح هشّة أمام المقاومة.. فهل كان صدّام حسين يعطي الأوامر لرجال القبائل بالتوجّه إلى الحرب الآن أم أنها

تعليمات لما بعد الحرب عند استقرار القوّات الغازية في مواقع ثابتة؟ هل كان لدى صدّام اعتقاد باحتمال خسارة المعركة؟ أكان يجري التخطيط لانتفاضة في بغداد فيما كان الأميركيون ينهبون الأرض نحو الناصرية؟.

وضعت جانباً مجموعة من الكتب للمطالعة في الليالي الطويلة الصاخبة في غرفتي في الطابق العاشر من فندق فلسطين حيث أقيم مع أكثر من مئة صحفي في غُرف تُشبه الزنازين. ومن بين الكتب التي بحوزتي كتاب وِليام شيرر عن صعود الرايخ الثالث وسقوطه، وكتاب فولّلر عن الحرب العالميّة الثانية وذلك لكي أتذكّر الحجم الحقيقي للحرب... وكتاب تولستوي «الحرب والسلم»، لأتمكّن من وصف الحرب بحساسية أكثر ورهبة... وأنا هنا أوصي بقراءة كتاب معركة بورودينو؛ إضافة إلى كتب أخرى من الشعر ومجموعة من الصحف غير المنظمة وقُصاصات مقالات الصحف التي أحضرتها من أرشيفي في بيروت قبل السفر إلى عمّان وبغداد. أخرجت الليلة مجموعة من الخطب لـ «بات بوشنان» مكتوبة منذ أكثر من خمسة أشهر. وبعفوية أخرجت قلمي وبدأت أخربش خطوطاً خشنة على هامش هذا المقال التنبّؤي:

«إذا لم تحصل معجزة، فسوف نقوم بشنّ هجوم إمبريالي على العراق» على برلين! «مع كلّ مظاهر الشجاعة التي سار بها الجيشان الفرنسي والبريطاني في آب ١٩١٤. لكن لن يكون هذا الغزو مسيرة سهلة كما يعتقد المحافظون الجدد... فمن أجل تدمير أسلحة صدّام، وجعل العراق ديمقراطياً، وموحّداً، ولكي نحتفظ به ونداقع عنه.. ستبقى القوّات الأميركية هناك لعقود. والحال فإن الهجمات الإرهابية ستكون حتمية في العراق المحرّر مثلما كانت في أفغانستان المحرّرة.

وبالنسبة إلى الإسلام المقاتل الذي يلقى تأييد ملايين المؤمنين فإنه لن يقبل أبداً بأن يحدّد بوش مصير العالم الإسلامي. ومع ماك آرثر ووصايته سوف يصل «السلم الأميركي» Pax Americana إلى ذروته.. لكنّ القيد سينكسر تدريجياً لأن السبيل الوحيد الذي تؤمن به الشعوب الإسلامية هو طرد القوى الإمبريالية بالإرهاب وحرب العصابات. لقد قام المجاهدون بطرد الإنكليز من فلسطين

وعدن، والفرنسيين من الجزائر، والروس من أفغانستان، والأميركيين من الصومال وبيروت، والإسرائيليين من لبنان... لقد بدأنا الطريق إلى تأسيس الإمبراطورية لكن بعد التلّة التالية سوف ننضمّ إلى الذين سبقونا. إن الدرس الوحيد الذي تعلّمناه من التاريخ هو أننا لم نتعلّم من التاريخ».

كان مشهد اليد المعلّقة على الباب الحديدي وبقع الدم في الشارع وبقايا أدمغة داخل مرآب وبقايا هيكل بشري متفحّم لأمّ عراقية وأطفالها الثلاثة في سيّارتهم المشتعلة مشهداً فظيعاً، لا بل ماجناً مجنوناً. لقد قُتلوا بواسطة صاروخيْن أطلقتهما طائرة أميركية، والمدنيّون العراقيون البالغ عددهم ٢٢ شخصاً يُمزَّقون أشلاء قبل أن تحرّرهم الدولة التي دمّرت حياتهم. مَن يجرؤ في مكان الحادث على تسمية ذلك بـ «ضرر جانبي»؟. كان شارع أبو طالب مكتظّاً بالمشاة والسيّارات عندما أغار طيّار أميركي عليه عبر العاصفة الرملية التي غطت شمال بغداد بطبقة من الغبار الأحمر والأصفر والمطر ذلك الصباح.

كان حيّاً فقيراً قذراً يقطنه المسلمون الشيعة الذين يأمل بوش وبلير بشدّة قيامهم بثورة ضدّ الرئيس صدّام حسين... في الحيّ محلّ لتغيير زيت السيّارات ومحلّات أخرى لتصليحها، إضافة إلى بنايات مكتظّة بالسكّان ومقاه شعبية. وكان كل شخص تحدّثت معه قد سمع قدوم الطائرة. واستطاع رجل مصدوم مشاهدة الجثث المقطوعة الرؤوس التفوّه بكلمَتين: «هدير وبريق»... وظلّ يردّدهما بينما كان يغمض عينيه بشدّة. واجهت السؤال القديم المكرّر نفسه: كيف أسجّل مثل هذا الحدث الرهيب؟ يشهد العراقيون يومياً أحداثاً مرعبة ولذلك فإن لديهم مبرّراً لعدم رواية الحقيقة كلّها. وإذا كان هذا ما يجري في بغداد، فماذا يجري في البصرة والناصرية وكربلاء؟ كم هو عدد القتلى هناك أيضاً؟ إنه أمر مجهول بالطبع وغير مسجّل لعدم وجود مراسلين صحفيين ليشهدوا المعاناة!.

كان أبو حسن ومالك يُحضران الطعام للزبائن في مطعم ناصر في الجهة الشمالية لشارع أبو طالب، وكان الصاروخ الذي مزّقهما أشلاء قد سقط في الجهة الجنوبية للشارع محطّماً واجهة المطعم. قادني عامل كان يعمل معهما إلى

مكان الركام وأرشدني إلى ما تبقّى منهما وكانت بيده مقلاة مليئة بالدم. كانت هناك ١٥ سيّارة على الأقلّ تشتعل وركّابها يحترقون حتى الموت. وتناثرت أشلاء عدّة رجال عند أبواب سيّارة مشتعلة في وسط الشارع الذي أصبح في حالة فوضى نتيجة سقوط الصاروخ. وكان الناس مجبرين على النظر عاجزين عن نجدة امرأة وأولادها الثلاثة وهم يحترقون أحياء داخل سيّارة. قصف الصاروخ الثاني الجانب الشرقي من الحيّ موزّعاً شظايا من الحديد على ثلاثة رجال كانوا واقفين خارج مبنى إسمنتي مكتوب على مدخله الرخامي: «الملك للّه». وسارع مدير المبنى هشام دنون للاحتماء في المدخل لدى سماعه صوت الانفجار الضخم.. وقد أبلغني أنه وجد «طعّار» مقطعاً هناك ومصاباً برأسه إصابة خطرة. وأخذتني مجموعة من النساء والرجال إلى الشارع حيث شاهدت فيلماً مرعباً وهو عبارة عن أطراف «طعّار» مقطعة هناك. مات زميله سرمد على الفور وكان دماغه ملقى على بعد خطوات مع بُقع دم حمراء باهتة خلف السيّارة المحترقة. كان الرجلان يعملان عند دنون وكذلك البوّاب.

كلّما تحدّث ناجٍ، كان الموتى يستعيدون هويّاتهم... قُتل صاحب محلّ الأدوات الكهربائية خَلف مكتبه بالصاروخ الذي أصاب طعّار وسرمد والبوّاب، والشابّة التي تعمل في مكتب للحجز بينما كانت تحاول عبور الشارع، بالإضافة إلى سائق الشاحنة الذي كان على بُعد خطوات من مكان الانفجار، والفقير الذي كان يطلب دائماً خبزاً لدى رؤية السيّد دنون والذي كان يهمّ بالذهاب عندما أقبلت الصواريخ هادرة عبر العاصفة لتقتله.

في قطر، طلبت القوّات الأنغلو ـ أميركية إجراء تحقيق. ونددت الحكومة العراقية، المستفيد الوحيد من الدعاية، شاجبة حمّام الدم أو المجزرة التي قُدّر ضحاياها بأربعة عشر شخصاً. ما كانت ماهيّة الغارة وهدفها الحقيقي؟ روى بعض العراقيين أنه كان يوجد معسكر للجيش على بعد أقلّ من ميل من الحيّ لكنني لم أعثر عليه، وتحدّث آخرون عن مركز محلّي لجهاز الإطفاء، لكن لا يمكن وصف مقرّ الأطفائية بأنه هدف عسكري. ومن المؤكّد أنه حصل هجوم قبل ساعة على معسكر للجيش إلى الشمال. وبينما كنت مارّاً قرب القاعدة

انفجر صاروخان ورأيت الجنود يُهرعون لإنقاذ حياتهم عبر الأبواب وعلى الطريق السريع. بعدها سمعت انفجارين آخرين ناتجين عن سقوط الصواريخ على حيّ أبو طالب. ومن المؤكّد أن الطيّار الذي قتل هؤلاء الأبرياء لم يشاهد ضحاياه... يطلق الطيّارون صواريخهم وفق إحداثيات الكومبيوتر وربّما حجبت العاصفة الرملية الحيّ عن الرؤية. لكن عندما سألني أحد الأصدقاء ويدعى مالك حمود كيف يستطيع الأميركيون أن يقتلوا بسرور هؤلاء الذين ادّعوا أنهم جاءوا لتحريرهم فإنه لم يكن يريد معرفة أيّ شيء عن علم الطيران أو أجهزة إطلاق الصواريخ. ولماذا يريد معرفة كهذه؟ فذلك القتل يحدث يومياً في بغداد. يوم ٢٤ آذار/مارس قُتلت عائلة بكاملها مؤلّفة من تسعة أشخاص في منزلها في وسط المدينة. وفي ٢٥ آذار/مارس دُمّر باص يحمل ركّاباً مدنيين على الطريق جنوب بغداد. ويوم ٢٦ آذار/مارس تعرّف العراقيون على هويّة خمسة ركّاب مدنيين قُتلوا على متن باص سوري هوجم من قِبل طائرة أميركية على الحدود العراقية.

نستطيع أن نعيد تكرار تلك اللازمة الأخلاقية ـ قميص عثمان ـ لكي نشرح سبب موت هؤلاء الناس: ماتوا بسبب ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. ويمكننا القول أيضاً بسبب أسلحة الدمار الشامل التي لا وجود لها وبسبب رغبتنا اليائسة في تحرير كلّ هؤلاء الناس. دعونا لا نخلط المسألة بموضوع النفط. كتبت في تلك الليلة أنهم سيقولون لنا في كلتا الحالتين إن المسؤولية الكاملة عن موتهم تقع على صدّام.. وبالطبع فإننا سنتجنّب الإشارة إلى مسؤولية الطيّار. وبالفعل كان هذا هو ما حصل. قال الأميركيون إن خطأ الصواريخ العراقية المضادّة للطائرات سبّب مقتل المدنيين. . . العذر القديم نفسه. لكنّ هذا كان مستحيلاً لأن الصاروخين انفجرا على مسافة متساوية في طرفي الحيّ. لا يوجد نظام توجيه يفشل في توجيه صاروخين مضادّين للطائرات نحو هدفهما ويتسبّب بسقوطهما في المكان نفسه. لا نهاية لهذه المأساة التي تكرّرت بعد يوم واحد فقط (٢٨ آذار/مارس).. ولكن هذه المرّة كان هناك دليل ساطع تمثّل بقطعة معدن طولها قدم وعليها أرقام. وأدّى سقوط الصاروخ إلى مقتل ٢٦ مدنياً على الأقلّ يوم ٢٩ آذار/مارس ودلّت الأرقام المكتوبة على الشظايا على هويّة مرتكبي القتل. كان الأميركيون والإنكليز يعملون ما بوسعهم للإيحاء مرّة أخرى بأن صاروخاً

عراقياً مضاداً للطائرات قتل هؤلاء الضحايا الذين يعدّون بالعشرات، مضيفين أنهم ما زالوا يحققون في المجزرة. لكن كانت الأرقام المتسلسلة على شظّية الصاروخ هي مجموعة من الأرقام والأحرف مكتوبة باللاتينية وليس بالعربية. وتجدر الإشارة إلى أن العديد من الناجين سمعوا صوت الطائرة. وفي مستشفى النور، كانت مشاهد مرعبة تصف الألم والمعاناة. كانت الطفلة سيّدة جعفر (عمرها سنتان) مغطاة بالضمادات والأنابيب، أنبوب في أنفها وآخر في معدتها وكل ما استطعت رؤيته منها كان رأسها وذقنها. كان بقربها دم وذباب على كومة من الضمادات القديمة والخرق. على مسافة قريبة، كان محمّد عميد (٣ سنوات) ممدّداً على سرير قذر ووجهه وبطنه وأطرافه مغطّاة بالضمادات وكانت بقعة كبيرة من الدم المتجمّد في أسفل سريره.

لم يكن المستشفى مزوّداً بأجهزة كومبيوتر وكانت لديه آلات أشعّة بدائية جدّاً. لكنّ الصاروخ كان موجّهاً عن طريق الكومبيوتر وكذلك الطائرة. وكان على الأميركيين التأكّد والتدقيق إذا اختاروا القيام بذلك... كان مكتوباً على الصاروخ 3003-704 ASB7492 وقد أخذ رجل قطعة المعدن التي تحمل الرموز بعد دقائق من انفجار الصاروخ ليلة ٢٨ آذار/مارس على بعد أمتار من منزله مُحدثاً حفرة عمقها متران، ولم تعرف حتى السلطات العراقية بوجودها. قذف الصاروخ قطعاً حديدية على الجموع (أطفال ونساء) واخترق جدران المنازل المصنوعة من الطوب قاطعاً الرؤوس والأطراف. وقد تمزّق ثلاثة أشقّاء في منزلهم على الطريق الرئيسي مقابل السوق داخل غرفة الجلوس. وتحطّم بابان وقُتلت شقيقتان بالطريقة نفسها.

أبلغني الدكتور أحمد وهو طبيب تخدير في مستشفى النور: «لم يسبق لنا رؤية هذا النوع من الجروح، فقد أُصيب هؤلاء الناس بعشرات من القطع المعدنية». كان على حقّ، فقد أصيب رجل زرته في بهو المستشفى بأربع وعشرين قطعة في ظهره ورجليه بعضها بحجم القطع النقدية. وقد أظهرت صور الأشعّة التي أعطاني إيّاها أحد الأطباء ٣٥ قطعة معدنية فضّية لا تزال داخل الجسد.

إضافة إلى مجزرة شارع أبو طالب، وقعت مجزرة حيّ الشعلة ذي الأغلبية الشيعية الفقيرة بمحلّاته الصغيرة ومنازله المؤلّفة من غرفتين. والناس الذين يقطنون هنا يشكّلون بالضبط أولئك الذين دعاهم بوش وبلير للثورة على صدّام. لكنّ الغضب في هذه الأحياء الفقيرة كان موجّهاً ضدّ الأميركيين والبريطانيين من قِبل النساء والآباء والأخوة الذين تحدّثوا دون خوف في غياب عملاء السلطة. تمتمت سيّدة بغضب: «هذه جريمة، أنا أعلم أنهم يدّعون استهداف العسكر، لكن هل ترى جنوداً هنا؟ هل ترى صواريخ؟».

وكان الجواب بالنفي طبعاً... وقد ادّعى بعض الصحفيين أنهم شاهدوا صاروخ سكود محمولاً على قاعدة قرب منطقة الشعب يوم الخميس وأنه كانت هناك مدافع مضادّة للطائرات حول حيّ الشعلة. سمعتُ طائرة أميركية تحلّق فوق مكان المجزرة وشاهدت صاروخ أرض ـ جوّ يلاحقها ممّا دفعها إلى الانسحاب هادرة فوق البيوت الفقيرة نحو السماء الزرقاء القاتمة. وعمدت بطّارية مضادّة للطائرات طراز ١٩٤٢ إلى إطلاق نيرانها في الجوّ على بعد بضعة مبانٍ. لكن حتى لو حرّك الجيش العراقي مدافعه إلى الضواحي فهل يبرّر ذلك قيام الأميركيين بقصف الأحياء المكتظّة بالمدنيين، والمناطق المعروفة بشوارعها المزدحمة وأسواقها خلال ساعات النهار؟ كان هجوم ٢٧ آذار/مارس على حيّ أبو طالب موجّهاً نحو شارع رئيسي عند الظهر وخلال عاصفة رملية ممّا أدّى إلى مقتل عشرات المدنيين بمعزل عمّا كان يعتقده الطيّار حول الهدف. تساءل رجل متوسّط العمر يضع نظّارة وكان جالساً في الغرفة الخلفية لمنزله: «كان لديّ خمسة أبناء وبقي لديّ ولدان فقط، كيف أستطيع التنبّؤ ببقائهم على قيد الحياة؟ أصيب أحد أبنائي في رئتيه وقلبه، كان جسده مليئاً بالشظايا التي دخلت مباشرة من النافذة، والآن كل ما أستطيع قوله إنني أشعر بالحزن لكوني ما زلت على قيد الحياة». وقاطعه جار له ليقول إنه شاهد الطائرة بأمّ عينه: «شاهدت جانب الطائرة ولاحظت قيامها بتغيير اتجاهها بعد إطلاق الصاروخ».

أصبحت مشاهدة الطائرات أمراً عادياً مألوفاً في حياة بغداد . قمت بالردّ على قارئ في صحيفتي سأل بذكاء إن كان يمكن رؤية طائرة أميركية بالعين

المجرّدة فوق المدينة. . ، أجبت أنني خلال ٣٥ غارة جوّية من قِبل الطائرات الأميركية، لم أشاهد رغم قوّة بصري أيّة طائرة فعلياً. كنت أسمعها ليلاً بشكل خاصّ وهي تحلّق بسرعة الصوت وخلال النهار تحلّق فوق سحاب الدخان الأسود الذي يغطّي المدينة. شاهدت مرّة واحدة صاروخ كروز أو توماهوك يعبر بسرعة ٤٠٠ ميل في الساعة ولمحته يسقط على جادّة مُحاذية لنهر دجلة. وعندما كان يتمّ اكتشاف أرقام الشظايا كان يظهر منشأها كما كشف عنه صاروخ حيّ الشعلة.

طيلة الصباح، كان الأميركيون يعاودون عملهم ويقصفون أهدافاً في محيط بغداد حيث الدفاعات الخارجية تحفر لها وتدشّمها قوّات عراقية. . وكذلك في وسط بغداد. وقد انفجر صاروخ سقط على سطح وزارة الإعلام العراقية ممّا أدّى إلى تدمير مجموعة من أطباق الإرسال الفضائية وحصل اهتزاز في أحد مكاتب المبنى الذي كنت أراقب منه القصف خلال الغارة التي استمرّت عدّة ثوان. حتى في مستشفى النور، كانت الجدران تهتزّ بينما يصارع الناجون من مجزرة السوق من أجل الحياة. كان حسين مناني (٥٢ سنة) يحدّق إليّ بوجه مليء بشظايا معدنية فيما كانت القذائف تتفجر في المدينة. كان هناك شاب (٢٠ سنة) يجلس في السرير المجاور والدم يسيل بغزارة ممّا تبقى من يده اليسرى المغطاة بالضمادات وشرائط لاصقة. قبل ١٢ ساعة، كان لدى الشاب يد وذراع يسرى وهو الآن يستعيد ذكرياته بحيرة. أبلغني: «كنت في السوق ولم أشعر بشيء. جاء الصاروخ وكنت إلى يمينه وبعدها نقلتني سيّارة إسعاف إلى المستشفى». رغم يده المبتورة التي عولجت بالمسكّنات فقد أصرّ على الكلام، ولدى سؤاله عن اسمه جلس على السرير وصاح: «اسمي صدّام حسين جاسم».

في نهاية آذار/مارس ٢٠٠٣، قاد الرقيب علي جعفر موسى حمّادي النعماني سيّارة مفخّخة إلى داخل مركز تفتيش للبحرية الأميركية في جنوب العراق وفجّر نفسه. كان أول مقاتل عراقي معروف بالاسم يقوم بهجوم انتحاري. والجدير بالذكر أنه لم يقتل أيّ عراقي نفسه لتدمير الأعداء إبّان الحكم البريطاني. كان نعماني أحد أبناء الطائفة الشيعية التي يُعتقد أنها حليف سرّي للأميركيين في

غزوهم للعراق. وتساءلت الحكومة العراقية حول كيفية التعامل مع هذا العمل الرائع متردّدة بين الرغبة في التنصّل من حدث يُذكّر العالم بأُسامة بن لادن أو الإعلان عن هجمات أخرى تهدّد الأميركيين . كانت التفاصيل عن الرقيب الانتحاري (٥٥ سنة) قليلة لكنها مثيرة للاهتمام. كان جندياً في الحرب العراقية ـ الإيرانية ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ وتطوّع للقتال في حرب الخليج ١٩٩١، «أمّ المعارك» حسبما سمّاها صدّام حسين. ورغم كبر سنه بالنسبة إلى الاستمرار في القتال، تطوّع نعماني لقتال الغزو الأنغلو ـ أميركي.. ودون إبلاغ قائده قام بتفخيخ سيّارته الخاصّة واقتحم مركز تفتيش البحريّة الأميركية خارج النجف. وقد قلّده صدّام حسين الوسام العسكري من الدرجة الأولى ووسام أمّ المعارك. وترك الرجل الراحل خمسة أطفال وأرملة وموقعاً جديداً في سجلّ الألفي سنة من المقاومة العراقية في مواجهة الغزوات. وصرّح متحدّث أميركي بأن الهجوم يبدو مثل هجوم إرهابي.. ولكن لن يصدّق أيّ عربي ذلك بما أن نعماني هاجم جيش الاحتلال وهو يعرف هدفه العسكري.

بعد ساعات من موت نعماني، كان طه ياسين رمضان نائب الرئيس العراقي يتحدّث مثل زعيم فلسطيني أو من حزب الله ويشير إلى عدم توازن القوى العسكريّة بين العراقيين والأميركيين. قال: «إن الإدارة الأميركية سوف تحوّل العالم بكامله إلى أشخاص مستعدّين للموت في سبيل بلادهم. إن كل ما عليهم القيام به الآن هو التحوّل إلى قنابل... وإذا كانت قنابل ب٥٢ B52 تستطيع قتل خمس مئة شخص أو أكثر في حربنا فإني متأكّد أن عدّة عمليات من مقاتلي الحرية قادرة على قتل خمسة آلاف شخص». كان معنى ذلك واضحاً وكانت القيادة العراقية مذهولة من هجوم نعماني بقدر ذهول ضحاياه من الأميركيين.

لم يكن لهذا من معنى بالنسبة إلينا... فالعراقيّون ليسوا انتحاريين... وكما قد يقول الأميركيون فإن هذا «لا يدخل في الحُسبان». . . كتبت مقالاً نصف متعاطف إلى صحيفة الإندبندنت يوم ٣٠ آذار/مارس محاولاً تحليل ما حصل. بالطبع، تناسيت الحرب العراقية ـ الإيرانية، النزاع الذي شارك فيه نعماني، والمعارك الانتحارية التي قاتل فيها العراقيون وماتوا. كتبت:

«إن الانتحاريين أكانوا من المسلمين الشيعة اللبنانيين الذين نجحوا في طرد جيش الاحتلال الإسرائيلي، أم من الفلسطينيين الذين كانوا يدمّرون شعور إسرائيل بالأمان.. هم السلاح الفعّال لدى العرب . فهمت الولايات المتحدة قوّته أوّل مرّة عندما اقتحم انتحاريون السفارة الأميركية في بيروت عام ١٩٨٣ ومراكز المارينز في بيروت يوم ٢٣ تشرين الأول/أكتوبر من تلك السنة ممّا أدّى إلى مقتل ٢٤١ جندياً أميركياً... ولم تدرك واشنطن أن ليس هناك من دفاع فعّال ضدّ مثل هذه العمليات إلّا عندما قام العرب بعملية انتحارية مدمّرة عبر هجمات يوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١... وبطريقة غريبة فقد وجدت عملية ١١ أيلول/ سبتمبر أخيراً رابطاً رمزياً مع العراق. وبينما ظهر أن محاولات ربط نظام الرئيس صدّام حسين بأسامة بن لادن كانت كاذبة، فإن الغضب الذي أطلقته الولايات المتحدة كان حقيقياً وقد وجد أخيراً السلاح الذي يخشاه الأميركيون كثيراً. إن معظم الانتحاريين هم أصغر سنّاً من نعماني وغير متزوّجين. لكن من المحتمل أن يكون أحدهم قد ساعده على تجهيز المتفجّرات في السيّارة ودرّبه على تشغيل المفجّر. وإذا لم يكن هؤلاء عراقيين، كما يزعمون، فهل أنّ هناك تنظيماً متورّطاً لا يعرف العراقيون شيئاً عنه.. وكذلك الأميركيون؟».

لقد تحدّث نائب الرئيس رمضان عن لحظة الشهادة السامية، وهي عبارة لم تُسمع من قبل في القاموس البعثي. وذكر الجنرال حازم الراوي من وزارة الدفاع أن القتيل مسمّى باسم «الإمام عليّ».. وأعلن «أن الشهيد الجديد» عليّ «فتح الباب للجهاد». وأضاف «أن أكثر من أربعة آلاف متطوّع من الدول العربية موجودون في العراق وأن العمليات الاستشهادية سوف تستمرّ ليس فقط من قِبل العراقيين بل من قِبل آلاف العرب الذين قدموا إلى بغداد». وفي تقريري تلك الليلة، كتبت أن الإسلام «قد دخل فجأة في معمعة حرب التحرير القومية ضدّ الأميركيين، إذ هكذا تُسمّى هنا».

في المقابل، كانت عملية نعماني الانتحارية إحدى أهمّ اللحظات في هذه الحرب. لقد وجّهت صدمة للأميركيين الذين كانت ردّة فعلهم السطحية حول

الإرهاب اليائس تساهم في التقليل من معنى الهجوم الذي أذهل العراقيين. لكنّ لغة البعثيين، في حديثهم عن العمليات الاستشهادية وعن «الكتيبة العربية الدولية» التي يُفترض أن تستمرّ في تنفيذها، لا بدّ أن تكون قد أعادت إلى الواجهة تلك «الشعارات القديمة البالية» وجعلت أجراس الخطر تدقّ بصوت عالٍ. لقد بدأ عمل ما، خارج النجف، وهذا يشكّل سابقة جدّية بالنسبة إلى أيّ جيش غازٍ... وفي أرض ليس لديها مثل هذا التقليد، تمّ إشعال عود الثقاب.

ضربت عاصفة رمليّة قويّة بغداد، تاركة غرفة فندقي صفراء من الرمل. وغطّى غُبار المدينة وقذارتها السجّاد والأغطية والأسرّة والطاولات مثل ستار. وكان عمّال التنظيفات قد رحلوا منذ فترة طويلة. وكانت ملفّاتي مغطاة بحُبيبات ناعمة من الرمل بحيث انزلقت الأوراق من الملفّات مصدرة صوتاً شبيهاً بصوت سكّين يخرج من غمده. شققت طريقي بواسطة أصابعي المتّسخة إلى القسم الذي توجد عليه عبارة «الإسلام». كانت معظم الصفحات عن المقاومة الشيعية، لكن كانت لديّ بضع ملاحظات مكتوبة لم أستخدمها من قبل في أيّ تقرير بما أنني لم أفهم معناها.. منها أن صدّام أنشأ لجاناً إسلامية مؤلّفة من مجموعة من المفكّرين الإسلاميين السنّة وأتباعهم لمناقشة الشريعة الإسلامية والتعاليم القرآنية شرط عدم الحديث في السياسة وعدم مزج معتقداتهم بالمعتقدات العلمانية لحزب البعث. وتوجد هذه اللجان الآن في الموصل وبعقوبة والفلّوجة والرمادي وفي بغداد.

برزت صفحة واحدة مغطاة بالرمل من الملفّ مهلهلة وهي- من صحيفة الإيكونومست عمرها خمس سنوات وكانت تتضمّن التالي: «تحوّل العراقيون المكلومون لسوء الحظ إلى دينهم، وكذلك فعل زعيمهم بطريقته الخاصّة التي تستغلّ الآخرين»... قام صدّام ببناء أضخم مسجد في العالم في بغداد وهو يتّسع لخمسة وأربعين ألف مصلٍّ ويبلغ ارتفاع مآذنه ٦٠٠ قدم... وصارت عبارة «اللّه أكبر» تتوسّط الآن العلم العراقي في الشريط الأبيض ما بين الأسود والأحمر، ونسرُ العراق يشمخ ما بين كلمتي «اللّه» و «أكبر».... وقد سمح صدّام حسين عام ١٩٧٧ للداعية الأردني عبد المنعم أبو زلط ببرنامج أسبوعي مدّته نصف ساعة في التلفزيون العراقي.

كتب مراسل الإيكونومست: «ازداد ارتياد المساجد بسرعة وبخاصّة في أوساط الشباب». ونقل عن مواطن في بغداد قوله: «قبل حرب الكويت كان عدد المصلّين في المسجد ٩٠ شخصاً في صلاة الجمعة. الآن يحضر أكثر من ألف مؤمن معظمهم من الشباب. لا يوجد مكان كافٍ في مسجد الحيّ لذلك يصلّي الناس في الشارع». كانت هناك مواظبة متزايدة خلال شهر رمضان. وقد اعتبرت الإيكونومست تورّط صدّام بالصحوة الإسلامية استغلالاً، لكن من خلال الاستماع إلى ردّ الحكومة على التفجير الانتحاري ناهيك بأخبار استشهاد نعماني، بدأت أتساءل ما إذا كان صدّام مُذعناً أكثر منه مستغلّاً، وأنه اكتشف قوّة يجب استرضاؤها عوضاً عن قمعها، وهي قوّة تشدّ مواطنيه من المسلمين السنّة كما الشيعة. وخلال أسبوع قامت امرأتان بعملية لا سابق لها إذ فجّرتا نفسيهما عند موقع أميركي آخر.

عند الغسق اهتزّت الأرض حول بوّابة مقبرة بغداد الشمالية نتيجة دويّ انفجارات القنابل... وامتلأت السماء الزرقاء ـ الرمادية بنيران المضادّات.. وتحت السحب الدخانية، إضافة إلى ما يُشبه النجوم الصغيرة من الطلقات المضادّة للطائرات وانفجار القذائف، كان الرقيب فريدريك وليام برايس من كتيبة المدفعية الملكية، والجندي الجوّي ب. ماغي من سلاح الجوّ الملكي، والعريف ا . د. أدستز من كتيبة يورك ولانكستر، ينامون ملء أجفانهم. . . ولعلّه كان مكاناً غريباً لكي تزوره فيما كانت الغارات الليلية الأُولى تُطبق على عاصمة العراق.... ليس تماماً... لأن وزير خارجية العراق ناجي صبري تحدّث سابقاً عن هذه القبور العائدة إلى التاريخ الاستعماري السابق..... ذلك أن الجنود البريطانيين الرقم ١٤٠١٩٧٩ للسرجنت برايس، والرقم ٤٧٣٦٣٦٣ للعريف أدستز، والرقم ٢١٠٤٩٣ للطيّار ماغي، ماتوا هنا خلال حرب بريطانيا الاستعمارية الأولى في العراق عام ١٩٢١....

ماذا قال السيّد صبري وهو يتباهى بلباس حزب البعث؟ «إنّ للجنود البريطانيين قبوراً في العراق تعود إلى العشرينيّات وإلى عام ١٩٤١، والآن ستكون لهم قبور أخرى حيث سينضمّ إليهم أصدقاؤهم الأميركيون». لهذا السبب

ركبت سيّارة أجرة في ساعة الغسق إلى البوّابة الشمالية للمقبرة على طريق الموصل القديمة من بغداد لألقي نظرة على الرجال الذين تحدّث عنهم ناجي صبري. كان عمر الجندي نيكلسون من كتيبة يورك ولانكستر ٢٣ سنة فقط عندما مات يوم ١٢ آب/أغسطس ١٩٢١.. وجندي الجيش الملكي كلارك كان عمره ٣٨ سنة عندما قُتل بعد ستة أيام. كانت حرب العصابات الأولى هذه ضدّ الاحتلال الغربي على وشك البدء من جديد استناداً إلى حزب البعث العراقي. ولكن متى؟ الآن في مواجهة هذه القوّة الغازية الهائلة؟ أم فيما بعد؟.

قال صبري: «علينا تحويل صحراءنا إلى مقبرة كبيرة للجنود الأميركيين والبريطانيين». وبينما كانت الصواريخ تشكّل خطوطاً متقاطعة فوق بغداد ويُحلّق أحدها فوق نهر دجلة على علوّ ٢٠٠ قدم لينفجر في المباني الرئاسية بدويّ هائل وخط من الدخان الرمادي، ارتفعت اللهجة تدريجياً. وبحسب وزير الإعلام فقد كان المستعمرون الجُدد يستخدمون القاعدة البريطانية الذهبيّة القديمة: «فَرِّقْ تَسُدْ».. ولِننسَ للحظة أن «فرّق تسد» هذه كانت أصلاً قاعدة رومانية... وكان الوزير يعد بأن وحدة الشعب العراقي لن تتحطّم. كم كان لِيُترك من هذه اللغة الخطابية لو كان هناك سبيل للخروج من الحرب؟ أعلن الصحّاف، الخياليّ: «أن الدبلوماسية الحقيقية هي في قتل الأميركيين والإنكليز في أرض المعركة بحيث يشعرون بأن أحلامهم تبخّرت. لن نسمح لهؤلاء العملاء القذرين بالبقاء على أرض العراق».. العملاء القذرين؟ ألم تكن عبارات العملاء القذرين والكلاب الهاربة هي السائدة عندما كان الاتحاد السوفياتي موجوداً؟ هل أننا نرجع فعلاً إلى الاستعمار؟ وما لم يتراجع الأميركيون عن عنفوان حكومة محتلّة وعسكرية فمن الصعب تجنّب طرح السؤال. تماماً كما أنه لم يكن من الصعب التكهّن بما يفكّر فيه جندي سلاح الجوّ بينما يهتزّ قبره تحت وطأة انفجار القنابل من قِبل السلاح الجوّي الملكي نفسه الذي مات في سبيله منذ زمن بعيد في العراق؟.

بدأ الجوّ يزداد سخونة في بغداد وخلال شهر سترتفع الحرارة إلى ٣٥ درجة مئويّة. والسحابة الكثيفة السوداء التي تغطّي المدينة بدأت تشكّل ضباباً نتيجة

احتراق النفط ممّا يجعل أخفّ الغارات الجوّية أشبه باللغز. في اليوم التالي الساعة ٤,٤٥ عاد صوت الطائرات يهدر مجدّداً وتبعته سلسلة من الانفجارات الحادّة والقصيرة استمرّت حوالي دقيقة، وبدت كلّها مألوفة لسمعي. وكانت القنابل الذكية مشروعة ضدّ المدرّعات لكن غير مشروعة قطعاً ضدّ المدنيين. حدّقت لمدّة عشر دقائق عبر الدخان من شقّتي العالية بدون فائدة... كان من الصعب التكهّن ما إذا كانت القنابل تُلقى على الضواحي، أم على الثكنات العسكرية أم على مناطق مأهولة.. وكذلك كان صعباً التكهّن بوضع بغداد في هذه الحرب. لم تكن المدينة قد حوصرت بعد، وكانت طرقها الرئيسية إلى الشمال والجنوب ما زالت مفتوحة. ولا تزال تنطلق بعض القطارات من المدن الشمالية رغم أنه تمّ الإبلاغ عن قيام القوّات الأميركية بوضع نقاط تفتيش على الطريق إلى الغرب من عمّان، ويبدو أنه كان هناك حاجز طيّار يوقف الشاحنات والسيّارات لبضع ساعات ثم يختفي في الصحراء ليلاً.

عند المساء ظهر نائب الرئيس رمضان في الفيلّا اليونانية المزيّفة المخصّصة للناطقين باسم الحكومة إضافة إلى وزارة الإعلام.. كانت لديه عادة غريبة في عدم النظر أبداً إلى من يطرح عليه سؤالاً كائناً مَن كان.... وقد جاء ليؤكّد أنّ ستّة آلاف عربي وصلوا إلى العراق لقتال الأميركيين والإنكليز وأن نصفهم متلهّف للشهادة. وكرّر رمضان مجدّداً أن ليس لدى العراق أسلحة دمار شامل وأمضى معظم الوقت يزعم أن الأميركيين والإنكليز يمكن أن يزرعوا هذه الأسلحة في العراق بُغية خداع العالم لتبرير غزوهم. وتلا ذلك خطاب بليغ لم أتمالك أن أشكّ في أنه كان يعكس بأمانة الغضب المتصاعد لدى صدّام.

كان وزير الخارجية السعودي الأمير فيصل مُستهدفاً من رمضان وكذلك من صدّام حسين: «لقد قدّم نصيحة، وهذا شيء اعتاد القيام به، إنه يرغب في رؤية زعيمنا يتنحّى». وقال رمضان: «دعوني أبلغ أنه يعرف حقّ المعرفة مَن هو ابن عمّه المدعوّ الأمير السفير بندر في واشنطن ولمن يعمل. قولوا له: اذهب إلى الجحيم. كل ما نتمنّاه أن لا يكون لكم اسم عربي.. ودعوني أبلغكم أنكم غير

جديرين بقول أيّة كلمة عن زعيم العراق. إن الذين استسلموا سوف يطردون من بلاد العرب».. طبعاً لم يكن هكذا الكلام ليخدم العلاقات السعودية ـ العراقية.

ثم سمعنا وزير الخارجية الأميركي كولن باول يعلن أمام لجنة العلاقات الخارجية الأميركية ـ الإسرائيلية، أكبر لوبي إسرائيلي في الولايات المتحدة والذي يدعم الغزو، أن سوريا وإيران تدعمان المجموعات الإرهابية في بغداد وأن عليهما مواجهة العواقب.

وسألنا جميعاً: ما الذي كان يحصل الآن؟ هل أننا سننسى بغداد بضعة شهور لكي نرسل جنودنا غرباً لمحاصرة دمشق؟ يبلغنا بوش الآن بأن الحرب ستكون «طويلة وصعبة».. وهو لم يقل لنا ذلك من قبل.. أم أنه فعل؟ واستناداً إلى طوني بلير فإن «هذه هي البداية فقط». أستغرب كيف أنه تناسى كلّ الكلام عن الحرب الكيميائية والجرثومية. لقد تمّ الآن شطب الأسلحة السرّية، وأقنعة الغاز، والحقن المضادّة للإنتراكس، والأدوية والبدلات المضادّة للأسلحة الكيميائية وباقي الرواية، لأن الرصاص والقذائف الصاروخية أصبحت الخطر الحقيقي على القوّات البريطانية والأميركية في العراق. وحتى «حصار بغداد»، تلك المدينة التي تبلغ مساحتها ٣٠ ألف كلم مربع والتي تحتاج إلى ربع مليون جندي لحصارها، سقط من المفكّرة. واستناداً إلى صحيفة النيويوركر فقد تدخّل وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد ليُفسد خطط الجنرالات.. «ستكون هذه الحرب حرباً من نوع لم نشهد مثيلاً له من قبل»، والكلام لرامسفيلد.

بينما كنت جالساً في مقهى في بغداد أستمع إلى حملة العراقيين البلاغية الشنيعة وأراقب الغارات الجوّية الأميركية والبريطانية العشوائية التي تستهدف بطارية صواريخ قرب سوق العاصمة عند الظهر والتي ستؤدّي إلى مقتل المدنيين، تكوّن لديّ شكّ في أن قواعد هذه الحرب غير مبنية على التخطيط العسكري بل على العقيدة. منذ فترة طويلة، كما نعلم، خطط الجناح اليميني لجماعات الضغط المؤيّدة لإسرائيل والمحيط ببوش لإسقاط صدّام، مما سيؤدّي إلى تدمير أكثر الدول العربية قوّة في الشرق الأوسط ـ وطلب رئيس الأركان

الإسرائيلي شاوول موفاز أن تبدأ الحرب في وقت مبكر ـ مما يسمح بتغيير خارطة المنطقة إلى الأبد ـ وقد صرّح باول بذلك قبل شهر.

لقد اكتسبت الأوهام مصداقية نتيجة الانحراف الأخلاقي لقوّة عظمى.. وكان يمكن استخدام أيّ نوع من الكذب لتغذية هذا المشروع العقائدي: هجمات ١١ أيلول/سبتمبر (التي لم تعد تذكر الآن)، والرابط بين صدّام وأسامة بن لادن (غير المثبت)، وأسلحة الدمار الشامل التي لم يُعثر عليها، وخرق حقوق الإنسان التي تغاضينا عنها عندما كان صدّام صديقنا، وأخيراً المشروع الأكثر جرأة الذي ينصّ على تحرير شعب العراق. ولم يُذكر النفط رغم أنه العامل المسيطر والأهمّ في هذا النزاع غير الشرعي. ولا عجب أن يكون القائد الأميركي الجنرال طومي فرانكس قد اعترف بأن اهتمامه الأول قبل نشوب الحرب كان منصبّاً على حماية حقول نفط العراق الجنوبية. إذاً سيكون هذا «تحريراً» و«ديمقراطية».. كم كان اقتحامنا للحدود قاسياً! وبأيّة أهداف سامية كنّا نغزو العراق؟.

كان القليل من العراقيين وحتى الوزراء في بغداد يشكّون في قدرة الأميركيين على احتلال البلاد في نهاية الأمر. وقد كتبت يوم ٢ نيسان/أبريل: «لدى الأميركيين القوّة ولديهم الأسلحة لشقّ طريقهم إلى داخل كلّ مدينة وفرض حظر تجوّل وحُكم البلد بالقانون العسكري. لكن هل باستطاعتهم إخضاع العراقيين لهذا الحكم؟ وفي حال قيام ثورة شعبية كما يتوقّع بوش وبلير فإن هذه الحرب ستكون عندئذ فقط حرباً وطنية واضحة ضدّ أحد أشكال القوّة الاستعمارية. وبدون دعم عراقي، كيف سيتمكن الجنرال فرانكس من إدارة دكتاتورية عسكرية وإيجاد عراقيين يرغبون في التعاون معه وخدمته للإشراف على آبار النفط؟ يستطيع الأميركيون كسب الحرب لكن إذا فشل مشروعهم فإنهم خاسرون».

قرأت اليوم هذه الكلمات مع بعض الدهشة وهي كانت مطبوعة في صحيفة الإندبندنت لكنني لا أتذكّر أنني كتبتها. ربّما حرّكت العملية الانتحارية قلمي الصحفي وربّما كان ذلك نتيجة الحديث عن الشهادة. ينتج عن الحرب تعب لا

ينتهي. نسافر طيلة النهار ونكتب ونحاول البقاء أحياء.. وفي الليل نقبع في أسرّتنا في فندق فلسطين مع قناعة، زائفة كما سنكتشف، مُفادها أن ذلك يضمن سلامتنا.. وإذ نستلقي مستيقظين فيما الانفجارات الضخمة تمزّق أنحاء المدينة، ندرك يقيناً أن الحرب هي الأرق بحدّ ذاته.

أخيراً سمح لنا العراقيون بالخروج من بغداد الى المُسيّب والحلّة. كان الطريق إلى الجبهة في وسط العراق مجالاً لتحرّك السيّارات بسرعة وللمدافع المضادّة للطائرات المنتشرة وللدبّابات والشاحنات المخبّأة تحت أشجار النخيل ولقافلة من العربات المصفّحة التي دُمّرت بفعل القصف الجوّي ولمئات المدافع المموّهة للدفاع عن العاصمة. كتبت في مفكّرتي: «إن على أيّ شخص لديه شكّ في أن الجيش العراقي مستعدّ للدفاع عن العاصمة، أن يأخذ الطريق السريع باتجاه جنوب بغداد». وظللت أتساءل كيف استطاع الأميركيون شقّ طريقهم عبر هذه الاستحكامات؟

بالعودة إلى الوراء، تساءلت إن كان هذا هو سبب أخذنا لمشاهدة أعمال البشر والخنادق والأسلحة المموّهة التي ستُهجر خلال أيام قليلة من قِبل المدافعين.

استمرّ الوضع على هذا المنوال.. ميلاً تلو ميل.. خنادق، تحصينات تحت الأرض، مدفعية ثقيلة مموّهة بأغصان النخيل وشاحنات تنقل جنوداً بملابس القتال. لم أشهد الجيش العراقي منتشراً بهذا الشكل منذ الحرب العراقية ـ الإيرانية ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨. ويستطيع الأميركيون القول إنهم يقلّصون الدفاعات العراقية لكن هناك دلائل قليلة على ذلك. وأن يتمكّن صحافي غربي من رؤية الاستعدادات العسكرية العراقيّة أكثر بكثير مما كان يستطيعه المراسلون المرافقون للأميركيين والإنكليز، فأمر يشي بالكثير عن ثقة الحكومة العراقية بنفسها وعن حاجة نظام صدّام إلى بثّ دعاية ضدّ أعدائه.

صحيح أنه كانت هناك دلائل حول ضرب البريطانيين والأميركيين للقوّات العراقية. وقد تحوّلت كمّيات من الأسلحة إلى رماد نتيجة الضربات الجوّية

المباشرة وأصبحت الثكنات العسكرية مهجورة مثل بقيّة المراكز الهامّة الموجودة على لائحة الأهداف الأميركية ـ البريطانية، كما دُمّرت تحصينات عسكرية بالصواريخ. وكذلك دُمّرت مجموعة من مراكز الاتصالات التلفونية في المدن حول الحلّة... ونتيجة قصف ستّة مراكز اتصالات في بغداد يظهر أن نظام الاتصالات في البلاد قد دُمّر.

على خط سكّة الحديد، جرى قصف قطار محمّل بالمعدّات العسكرية وأدّى القصف إلى تدمير مُصفّحتين منقولتين على شاحنتين وقذفهما نحو الحاجز الترابي. لكنّ العديد من العربات المصفّحة، بما في ذلك ١١٣ سيّارة أميركية قديمة مستولى عليها من الجيش الإيراني بقيت سليمة. وإذا كان هذا هو مدى النجاح الأميركي إلى الجنوب من بغداد، فقد كانت هناك مئات العربات العسكرية السليمة بكل معنى الكلمة متمركزة على بعد ١٥٠ كلم جنوب العاصمة، ومموّهة بشكل جيّد لتفادي الهجوم الجوي.

ولقد أثبت العراقيون على غرار الجيش الصربي في كوسوفو أنهم أسياد في التمويه، وظهر أن حقلاً من القمح تحفّ به أشجار النخيل يضمّ عن قرب خنادق ومدافع مضادّة للطائرات مخبّأة بشكل جيّد. وأخفيت العربات المصفّحة تحت الجسور ـ التي لا يرغب الأميركيون والإنكليز في تدميرها قطعاً كونهم يريدون استخدامها في حال نجاحهم في احتلال العراق ـ بالإضافة إلى الشاحنات التي خُبئت في حُفر مغطاة جيّداً برمال أرضها..... وعلى تقاطع طريق رئيسي كان هناك مدفع مضادّ مركز على شاحنة، يشرف عليه جنديان يراقبان الأجواء الزرقاء.

كان العراقيون قادرون على القيام بذلك رغم وجود أسراب الطائرات في الأجواء بين بغداد وكربلاء والحِلّة. فوق الحِلّة، موطن بابل السومرية القديمة، كان يمكن رؤية طائرة أواكس أميركية بعيدة تحلّق عالياً في السماء، وبدت نقطة بيضاء صغيرة تدلّ على الرادار الضخم فوق الطائرة التي تابعت مسارها على مرأى من الجنود ورجال الميليشيا. وبينما كنت في الباص المتّجه جنوباً على الطريق السريع استطعت مشاهدة الجنود وهم يراقبون الأجواء. وإذا كان البقاء

على قيد الحياة يحتاج إلى وعي فإن للخوف من ضربة جوّية التأثير نفسه. وقد أكّد صحفي عراقي يجلس بقربي أن طائرة أميركية أو بريطانية تابعنا مسارها بخوف من سيّارتنا عادت وتوجّهت جنوباً متجاهلة السيّارات على الطريق الرئيسي. وبعد دقائق قليلة، عادت الطائرة وظهرت أمامنا وهي تحلّق في الاتجاه المعاكس.

بينما كنت متّجهاً على الطريق السريع جنوباً تبدّدت أوهام عديدة في مخيّلتي. هناك أسواق في المدن الصغرى في الطريق إلى بابل، بسطات تبيع البرتقال والتفاح والخضار، والطرقات مزدحمة بالباصات والشاحنات والسيّارات الخاصة إضافة إلى سيّارات عسكرية لا تُحصى وشاحنات محمّلة بالجنود ومن وقت لآخر تُرى شاحنة تحمل صاروخاً مغطّى بقماش كبير ومربوطاً بشكل محكم على ظهر الشاحنة.

في مدينة الإسكندرية، كانت المقاهي مفتوحة والمحلّات تبيع الكفتة والبطاطا إضافة إلى هوائيات التلفزيون الجديدة التي يحتاج إليها العراقيون الآن لمشاهدة التلفزيون الحكومي الذي قُصِف مركز بثّه مراراً من قِبل الطيران الأميركي والبريطاني. ليس هذا شعب على حافّة الجوع ولا يبدو عليه الخوف. وإذا كان الأميركيون على وشك شنّ هجوم عبر هذه الجداول في المزارع والغابات الشاسعة لأشجار النخيل وحقول القمح، فقد بدا البلد لأوّل وهلة أنه بلداً في حالة سلام.

لكن بدت المصانع الضخمة والمؤسّسات الحكومية مهجورة وكان العديد من عمّال المصانع والموظّفين يقفون خارج المداخل الرئيسية. وعلى بعد ٣٠ كلم جنوب بغداد حصل قصف جوّي واهتزّ الباص مع إطلاق القذائف المضادّة للطائرات. كانت المدافع المضادّة للطائرات إلى يميننا تطلق نيرانها فوق رؤوسنا، وكانت فوّهات الأسلحة تبرق كالذهب والقذائف تتفجّر خلف سحابة من الدخان الرمادي الناتج عن حرائق النفط في بغداد والتي انتشرت إلى مسافة ٨٠ كلم جنوب المدينة.

وقد تعدّت المشاهد أحياناً حدود الفهم. ثمّة أطفال يقفزون فوق سور مزرعة قرب كوخ للاتصالات العسكرية، ومجموعة من الجمال الضخمة تتحرّك مثل الحيوانات الخرافية بمحاذاة دبّابات تي ٨٢ السوفياتية الصُنع المخبّأة تحت أغصان النخيل، وحقول من الزهور الصفراء قرب براميل وقود، وجنود يقفون أمام الأفران، وقد دفع انفجار صاروخ أميركي المزارعين إلى الالتفات. وفوق كومة من الركام ثبّت أحدهم العلم العراقي كما يفعل الفلسطينيون بوضع راياتهم على أنقاض بيوتهم بعد الهجمات الإسرائيلية.

هل من عبرة وراء ذلك؟ كانت لديّ ساعتان من الزمن على الأرجح لفهم ذلك كلّه وللتساؤل بدهشة كيف يمكن للقوّات الأميركية أن تمضي على هذا الطريق السريع الطويل والحارّ.. وكان بالإمكان الإحساس بالحرارة وهي ترتفع كلّما تقدّمت جنوباً.. في هذه الدبّابات المدفونة والعربات المصفّحة والحقول المشبعة بالمياه وأشجار النخيل. كان فدائيو صدّام يرتدون الملابس السوداء والكوفيّات المرقّطة الحمراء والبيضاء على رؤوسهم على بعد ١٥٠ كلم إلى الجنوب من بغداد ، وكانوا مجهّزين بجُعب ذخيرة وقذائف صاروخية ولم يبدوا لي بمظهر الجيش المنهار الموشك على الاستسلام.

كتبت ذلك المساء: «لعلّ كلّ هذا وهم. لعلّ الوحدات المقاتلة التي شاهدتها لا ترغب في القتال. ربّما تُهجر الدبّابات عندما وصل الأميركيون إلى الخطّ السريع باتجاه بغداد. ربّما تُقطر شاحنات النفط إلى العاصمة وتُخلى الخنادق. ربّما يفرّ صدّام من بغداد عندما تتساقط القنابل على الضواحي وعندما يجري تدمير تماثيل الزعيم الكبير المنتشرة خارج القرى على طول الخط السريع. وكان هذا بالضبط ما حصل.. غير أن الأمر لم يكن هكذا في بداية نيسان/ أبريل. بدا وقتها أن الجيش وميليشيا الحزب مستعدّون للقتال من أجل قيادتهم كما فعلوا في أمّ القصر والبصرة والناصرية وسوق الشيوخ.. أم أن هناك شيئاً آخر كانوا يقاتلون من أجله؟ عراق، رغم قيادته الدكتاتورية، يرفض ببساطة فكرة وجود غزاة أجانب؟ أم عراقيون يهتمّون ببلدهم أكثر من اهتمامهم بصدّام وينظرون إلى الأميركيين كأعداء ويرفضون إطاعة أوامر صدّام؟

كانت الجروح عميقة وخطيرة، والبُقع الحمراء على الظهور والأفخاذ والوجوه والشظايا الحادّة نتيجة القنابل الانشطارية مغروسة على عمق إنش أو أكثر في اللحم. إنّ أجنحة مستشفى الحلّة التعليمي الموجود على مسافة ٥٠ كلم جنوب بغداد تُعتبر دليلاً على أنّ شيئاً غير قانوني ـ شيئاً مناقضاً لمعاهدات جنيف ـ يحصل في القرى حول المدينة المعروفة ببابل. يتحدّث الأطفال الناجون والنساء الشابّات المصابات بجروح في الصدور والأقدام، والمصابون العشرة الذين يجري لهم الأطبّاء عمليّات جراحيّة في الرأس لإزالة الشظايا المعدنية، عن الأيام والليالي التي كانت تتساقط فيها القذائف مثل العناقيد من الجوّ. قال الأطبّاء إنها قنابل عنقودية، وأظهرت آثار الغارات الجوّية على الضواحي أنهم على حقّ.

هل كانت الطائرات الأميركية أو البريطانية هي التي قصفت تلك القرى بأكثر الأسلحة فتكاً في الحرب الحديثة يوم ٣٠ و ٣١ آذار/مارس؟ لا يستطيع الحادي والستّون قتيلاً الذين مرّوا بمستشفى الحلّة أن يقولوا لنا.. كما لا يستطيع ذلك أيضاً الناجون الذين كانوا، في حالات، عديدة جالسين في بيوتهم عندما ألقت الطائرات من علوّ شاهق فوق قراهم آلاف القنابل الصغيرة التي تنفجر في الجوّ أو تدخل عبر النوافذ والأبواب لتنفجر في الداخل أو تنزلق عن سطوح الأكواخ الإسمنتية لتنفجر في الشوارع.

تتذكّر رعد حاكم أن الساعة كانت ١٠,٣٠ صباح ذلك الأحد، حين كانت جالسة في بيتها في ندر، وأنها سمعت صوت الانفجارات ونظرت من الباب لتشاهد «السماء تمطر ناراً». كانت القنابل الصغيرة رمادية سوداء. وقد وصف محمّد موسى القنابل الانشطارية التي سطعت في القرية نفسها بالصناديق الصغيرة الفضّية: «تساقطت مثل عناقيد العنب الصغيرة، وإذا لم تنفجر عند سقوطها كانت تنفجر عند لمسها فوراً. كانت تتفجّر في الجوّ وعلى الأرض وما زال بعضها في بيتنا غير منفجر».

وتعتقد كريمة مزلر أن القنابل الصغيرة مربوطة بأسلاك ـ ربّما كانت من معدن «الفراشة» الذي يحتوي على مجموعة قنابل انشطارية صغيرة وينفتح

لإطلاقها بغزارة عند اقترابها من الأرض. وقد توفّي البعض على الفور ومعظمهم نساء وأطفال تقبع بقاياهم المتفحّمة والمتحلّلة في مستودع الجثث الصغيرة خلف مستشفى الحلّة. واستقبل المستشفى أكثر من مئتي جريح منذ ليل السبت ٢٩ آذار/مارس وهناك ٦١ قتيلاً أحضروا إلى المستشفى أو ماتوا خلال خضوعهم للعملية الجراحية أو بعدها، ويُعتقد أن كثيرين دُفنوا في قراهم ويقول الأطبّاء إن ٨٠ في المئة من الجرحى كانوا مدنيين. وكان بينهم جنود، أربعون جندياً على الأقلّ إذا كانت الإحصائيات دقيقة.. وقد وجدت بين ملابس القتلى خارج مستودع الجثث حزاماً عسكرياً وسترة قتال. لكن من الممكن أن يرتدي القرويون ملابس عسكرية.. وهم أكدوا مع زوجاتهم وبناتهم أنه لا وجود لمنشآت عسكرية حول منازلهم. صدق أم كذب؟ مَن هم ليعرفوا إذا كانت الدبّابة أو قاذفة الصواريخ متمركزة في حقل قريب ـ كما كانت أمس على طول الخط السريع شمال بغداد؟ لكنّ اتفاقيات جنيف تنصّ على حماية المدنيين حتى لو كانوا محاطين بالجنود... واستخدام القنابل الانشطارية في هذه القرى ـ حتى لو كانت موجّهة ضدّ أهداف عسكرية ـ خرق للقانون الدولي.

وهكذا أُصيبت أسيل يمين (٢٧ عاماً) بجروح مروّعة في ظهرها، وكذلك زمان عبّاس (٥ سنوات) التي أصيبت في قدميها، وسميرة عبد الحمزة (٤٨ سنة) في عينيها وبطنها ورجليها. وقال ابن سميرة حيدر وهو جندي (٣٢ سنة) إن العبوّات التي سقطت على الأرض كانت بيضاء بالإضافة إلى اللون الأحمر والأخضر أحياناً. وقال: «إنها تشبه قنبلة يدوية. وقد وصلت إلى داخل البيوت وبقي بعضها على الأرض وانفجر البعض الآخر».

إنه مشهد يفطر القلب.. تلك هي العبارة الوحيدة لوصف حالة مريم نصر (١٠ سنوات) وأختها هدى (٥ سنوات). لدى مريم إصابة فوق عينها اليمنى حيث استقرّت شظية قنبلة، إضافة إلى جروح في المعدة والأفخاذ. لم أنتبه أنه عندما رفعت هدى حجابها، ظهرت من خلال شعرها إصابة عميقة في الجهة اليمنى من رأسها وفوق أذنها دم متجمّد عالق في شعرها، لكنّ الجرح ما زال ينزف برفق. وقد وصفت والدتهما كيف كانت في بيتها في ندر عندما سمعت

الانفجار ووجدت بناتها في بركة من الدم قرب الباب. وابتسمت البنتان بلطف وخبّأتا وجهيهما عندما أخذت صوراً لهما. في أجنحة أخرى حاول الجرحى الضحك وإظهار الشجاعة. كانت تجربة مُذلّة.

صحيح أن كل السلطات العراقية كانت مستعدّة للسماح للصحفيين بالوصول إلى المرضى، إلا أنه لم يكن هناك أيّ مبرّر لدى هؤلاء الأولاد وأهلهم الأمّيين لتلفيق هذه القصص المأساوية والمؤلمة، أو تلفيق مكان الحادث في قرية ندر حيث تنتشر بقايا القنابل الصغيرة على الأرض قرب أماكن الانفجارات مع مظلّات صغيرة معلّقة بهذه القنابل توصلها إلى الأرض. وقد نجح فريق من تلفزيون سكاي في إحضار مجموعة من شظايا هذه القنابل من ندر إلى بغداد، تلك الكرات المعدنية الشرّيرة الهادفة إلى تمزيق جسم الإنسان والتي ما زالت في غلافها المعدني مثل حبوب الدواء. كان لونها أسود مائلاً إلى الفضّي.

روى نائب مدير مستشفى الحلّة وأحد أطبّائها رواية مشوّشة عن تحرّك عسكري حول المدينة في الأيام الأخيرة، وعن طائرات أباتشي المروحية وهي تُنزل الجنود على طريق كربلاء. وبحسب قول موظّفي المستشفى، فقد كانت إحدى عملياتهم فاشلة ذات ليلة عندما أجبرهم رجال الميليشيا على الانسحاب. وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأت تتساقط القنابل الانشطارية... ويبدو أنهم استخدموا المدفعية بدلاً من الطيران لإرسال هذه القنابل الصغيرة.. وذلك برغم وجود القرى المستهدفة على الجانب الآخر من الحلّة عند حصول الهجوم الأميركي الفاشل... حصلت الغارة الأخيرة يوم الثلاثاء وقُتل فيها أحد عشر مدنياً بينهم امرأتان وثلاثة أطفال في قرية تُدعى هندية. وقد أفاد رجل جاء إلى المستشفى لجمع الجثث أن الكائن الوحيد الذي وجده حيّاً في منطقة الجثث كان دجاجة. ولم يتم إرسال خبراء تفكيك المتفجّرات إلى القرية لتفجير القنابل المتبقية إلّا بعد أربعة أيام.

غنيّ عن الذكر أنها ليست المرّة الأولى التي تُستخدم فيها القنابل الانشطارية ضدّ المدنيين. فخلال الحصار الإسرائيلي لبيروت الغربية عام ١٩٨٢، ألقت الطائرات قنابل انشطارية من صنع البحرية الأميركية على عدّة

مناطق في المدينة وبخاصة منطقتي الفاكهاني والأوزاعي، أدّت إلى سقوط قتلى وجرحى مدنيين كانت جروحهم مشابهة لتلك التي رأيتها في الحلّة. وبسبب انزعاجها من سوء استخدام أسلحتها التي صُمّمت للاستخدام ضدّ أهداف عسكرية، فقد أوقفت إدارة ريغان شحنة طائرات قاذفة ـ مقاتلة إلى إسرائيل ثمّ أخّرتها بضعة أسابيع أخرى ثم أرسلتها. ولم يكن من السهل الاستماع إلى تصريحات المسؤولين العراقيين وهم يندّدون باستخدام أسلحة محرّمة من قِبل السلاح الجوّي الأميركي والبريطاني، بينما ألقى السلاح الجوّي العراقي الغازات السامّة على الجيش الإيراني والقرى الكردية المؤيّدة لإيران في حرب ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ ضدّ إيران.. كانت المزاعم الغاضبة للمسؤولين العراقيين حول خرق حقوق الإنسان من قِبل الغُزاة الأميركيين والإنكليز أشبه بجرس صوته أجوف.. لكن حصل شيء أخطر حول الحلّة في أواخر آذار/مارس.. شيء لا يمكن التسامح حياله ومناقض للقانون الدولي.

كان الغرور يحكم بغداد. فقد وعد وزير الإعلام العراقي الصحّاف بإبادة الأميركيين مثل الأفاعي في الصحراء حتى لو كان هؤلاء الأميركيون محتشدين على أطراف بغداد. وظهر صدّام شِبه المحاصر من أعدائه على شاشة التلفزيون الرسمي وهو يحثّ العراقيين على القتال حتى الموت ضدّ قوّة الغزو الأنغلو ـ أميركي «لأن النصر قريب». ظهر في لباس عسكري وقبّعة سوداء قرب علم عراقي وخلفه سارية من قماش أبيض.. وبعد أن اتّهم الأميركيين بالقتال في خفاء وغدر قال للعراقيين إن بإمكانهم «استخدام كلّ الأسلحة التي بين أيديهم».. وقال: «يحاول العدو جاهداً ضرب مقاومتنا البطولية من خلال تخطّي دفاعات قوّاتنا المسلّحة حول بغداد. يتجنّب العدو قتال قوّاتنا عندما يكتشف قوّتها وصمودها، وفي المقابل أنزل العدوّ بعض القوّات هنا وهناك بأعداد صغيرة كما توقّعنا. يمكنكم مقاتلة هؤلاء الجنود «بأيّة أسلحة متوفّرة»... وتوحي العبارة كما توقّعنا أن العراقيين أُخذوا على حين غرّة نتيجة خطط الأميركيين المتحرّكة التي ألغت مفهوم الخطّ الدفاعي الأوّل الذي تعوّدت القوّات العراقية القتال بموجبه. وأورد صدّام ملاحظة: «تذكّروا ذلك الفلّاح المسنّ الشجاع الذي أسقط طائرة

أباتشي ببندقيته». وكانت المروحية قد أُسقطت يوم ٢٤ آذار/مارس. وصرّح منظّرو المؤامرة فوراً بأن خطاب الرئيس التلفزيوني قد تمّ تسجيله منذ أكثر من أسبوع تحسّباً لأيّ حصار لبغداد. لم تكن هناك حاجة لانزعاجهم... ففي الأيام الأخيرة لحكمه، أصبح صدّام أسير أسطورته.. رجلاً كان يفضّل كتابة قصص رومانسية في قصوره بينما كان بوش يهدّده بالحرب.

والآن فإن جنود صدّام والمدنيين العراقيين الذين يدفعون الثمن. خاطرتُ يوم ٥ نيسان/أبريل بالخروج في سيّارة سريعة مع سائق رسمي «اشترته» صحيفة الإندبندنت وقد أصبح مخلصاً لي أكثر من إخلاصه لصدّام حسين. وكان هذا عادلاً.. توجّهنا بسرعة نحو المطار، ثم رجعنا نحو المدينة عند سماعنا هدير الطائرات المغيرة. كانت هذه لحظات من الخوف والموت، ومجرّد روايات أخذتها معي لملء الصفحة الأولى لعدد الأحد من الصحيفة في الأسبوع الأخير للغزو. إلى جانب الخط السريع، كانت مجموعة من القوّات العراقية تزرع ألغاماً بينما اهتزّت الأرض تحتنا من تأثير الضربات الجوّية الأميركية. كان اسم المنطقة، القادسية، آخر جبهة عراقية أمامية. وكانت عربة مصفّحة عراقية لا تزال تحترق وتتشكّل سحابة رمادية ـ زرقاء فوق الأشجار التي يختبئ تحتها طاقم الدبّابة. وقد احترقت شاحنتان على الجانب الآخر للطريق علماً بأن مروحيّات الأباتشي كانت تحلّق هنا قبل وصولنا بدقائق قليلة. وكانت مجموعة من الجنود تستعدّ لتجهيز سلاح مضادّ للدبّابات لتدمير أول دبّابات أميركية تصل إلى أرض المطار المهجور.

مرّت قربي شاحنة محمّلة بأكثر من مئة جندي عراقي، العديد منهم باللباس العسكري وجميعهم مجهّزون بأسلحة تسطع تحت الشمس، وكانوا متّجهين إلى المطار. رفع بعضهم علامات النصر نحو سيّارتي وكان سائقي يقود بسرعة ١٤٥ كلم في الساعة. وبالطبع كان لا بدّ من السؤال عن شعورهم؟ وكانت العبارة التي راودتني: «نحو جبهة الموت». على بعد ميلين، في مستشفى اليرموك وقف الجرّاحون في مرآب السيّارات بملابس ملطّخة بالدم، لقد قاموا لتوّهم بمعالجة أول إصابة عسكرية.

بعد ساعات قليلة، أعلن وزير عراقي للعالم أن الحرس الجمهوري استعاد المطار من الأميركيين وأنه يتعرّض لنيران العدوّ لكنّه حقّق نصراً كبيراً.

لم يكن الأمر كذلك حول القادسية... كانت طواقم الدبّابات توجّه مدافعها على الطريق السريع نحو ساحات محطّة سكّة الحديد في بغداد حيث توجد قافلة من العربات المصفّحة وسيّارات الجيب وسحب من الدخان الكثيف. كانت دبّابات ت٨٢ آخر صناعات الدبّابات القتالية السوفياتية تقف ومدافعها منخفضة إلى جانب مجموعة من العربات المصفّحة حول ساحة الأردنّ. وقد شاهدت بطاريات صواريخ سام ٦ المضادّة للطائرات وعدّة قاذفات صواريخ كاتيوشا تنتظر تقدّم الأميركيين في الحقول الشاسعة المليئة بالرمل والنفايات وأشجار النخيل. كان بعضهم يدخّن السجائر في ظلال أشجار النخيل ويشرب العصير الذي أحضره لهم سكّان القادسية الذين تقع بيوتهم على خطّ النار.

لكن عندما توقّفت سيّارة بيك أب يابانية بيضاء أمام سيّارتنا، اعتقدت في بداية الأمر أن الجنود كانوا نائمين وأنهم يضعون أغطية للتدفئة. لكن عندما فتحت نافذتي لتنشّق هواء الصباح المنعش أدركت أن الجنود كانوا ممدّدين بعضهم فوق بعض بأحذيتهم العسكرية الثقيلة في مؤخّرة الشاحنة وهم ١٥ جثّة. وكان الجنديان الناجيان جالسان في السيّارة وأرجلهم بين الجثث. إذاً فقد ذهب ضحايا أميركا الأوائل اليوم إلى الراحة الأبدية.

بدأ فجر يوم ٦ نيسان/أبريل بسلسلة من الارتجاجات الضخمة وصوت قوي لخطوات ثقيلة هزّت غرفتي. خطوات، خطوات مستمرّة. استلقيت في سريري محاولاً التفكير في السبب. كان الأمر شبيهاً بفيلم «جوراسيك بارك» عندما سمع السيّاح وقع أقدام التيرانوسور، وصوتاً مخيفاً متصاعداً لضربات قلب منتظمة ومرعبة. شاهدت من نافذتي على الضفّة الشرقية لنهر دجلة مدفعاً عراقياً مضادّاً للطائرات على سطح بناية مؤلّفة من أربعة طوابق على بُعد ميل ونصف ميل منا، وهو يُطلق نيرانه على شيء ما عبر النهر إلى الضفّة المقابلة. عادت الخطوات مجدّداً، خطوات مستمرّة، كان الصوت هائلاً بحيث انطلقت أجهزة الإنذار في العديد من السيّارات الموجودة على ضفّة النهر.

عرفت ماذا يحصل بعد بضع دقائق عندما وقفت في بهو الفندق. لم تُتح لي الفرصة منذ حرب الخليج الأخيرة عام ١٩٩٢ لسماع صوت المدفعية الأميركية. وهناك على بعد بضع مئات من الأمتار على ضفّة النهر، رأيتهم. في البداية بدوا مثل حشرة أمّ أربع وأربعين صغيرة محصّنة، يتدفّقون ويتحرّكون مثل بُقع بُنّية ورمادية، مخلوقات صغيرة غامضة جاءت لفحص أرض غريبة بحثاً عن الماء.

كان عليك تركيز نظرك على الحشرات لتفهم الحقيقة، لتدرك أن كل مخلوق هو عبارة عن دبّابة برادلي حربية يسير خلفها مجموعة من جنود البحرية الأميركية يلوذون خلف الدبّابة التي تتحرّك قُدماً نحو نهر دجلة. كان هناك تبادل كثيف لإطلاق نار والقذائف الصاروخية بين القوّات الأميركية والقوّات العراقية ورجال الميليشيا المتحصّنين في مخابئهم وفنادقهم على الضفّة ذاتها من النهر جنوباً. كان الأمر سريعاً وسهلاً ومخيفاً.

بالفعل، كان المشهد رائعاً وغير متوقّع، برغم تفاخر بوش ووعوده، إلى حدّ أنك تنسى لوهلة أنه يؤذن بتسجيل سابقة لتاريخ الشرق الأوسط المقبل. وبالرغم من إطلاق النار والرصاص الخطّاط عبر النهر وحرائق النفط الهائلة التي أشعلها العراقيون لتغطية انسحابهم، كان على المرء النظر بعيداً، إلى الجسور الضخمة على النهر شمالاً، وإلى عمق المياه الخضراء الباهتة لهذا النهر القديم، ليدرك أن جيشاً غربياً بذهنية صليبية شقّ طريقه إلى قلب مدينة عربية لأوّل مرّة منذ زحف الجنرال مود إلى بغداد عام ١٩١٧ والجنرال اللّنبي إلى القدس عام ١٩١٨. لكن اللّنبي دخل القدس مشياً على الأقدام احتراماً لمهد السيد المسيح.. أما الاختراق الأميركي لبغداد بالأمس فإنه كان خالياً من أيّ تواضع أو شرف.

قامت قوّات البحرية الأميركية والقوّات الخاصّة التي تدفّقت على طول الضفّة الغربية للنهر باقتحام أحد أكبر قصور صدّام حسين، وصوّرت مغاسله وحمّاماته ومراحيضه، واستراحت في ردهاته قبل أن تتحرّك قُدماً نحو فندق الرشيد مطلقة النار على الجنود والمدنيين. وقد تمّ إحضار مئات الرجال والنساء والأطفال العراقيين بحالة اضطراب إلى مستشفيات بغداد في الساعات التي تلت

سقوط شظايا نتيجة إطلاق النار وانفجار القنابل الانشطارية. واستطعنا مشاهدة طائرات أ١٠ A10 ذات المحرّكين تطلق قذائف مطليّة باليورانيوم على الشاطئ البعيد للنهر.

راقبت من الضفّة الشرقية للنهر قوّات البحرية الأميركية وهي تتقدّم نحو خندق في حالة تأهّب بحثاً عن قوّات عراقية. لكنّ عدوّهم ظلّ يطلق النار من بيوت الطين إلى الجنوب حتى شاهدتهم يهربون واحداً تلو الآخر للنجاة. وقد خرج العراقيون من مخابئهم رغم القصف الأميركي وبدأوا عمليات رهيبة على طول النهر، واحتفظ معظمهم بأسلحتهم وسقط بعضهم نتيجة الهرولة، ونزل آخرون مباشرة إلى مياه نهر دجلة التي غمرتهم حتى ركبهم وفي بعض المناطق حتى أعناقهم. وخرج ثلاثة جنود من خندق يرفعون أيديهم في الهواء أمام القوّات الأميركية، فيما استمرّ آخرون في القتال ثم جاءت طائرة ف١٨ مقاتلة قاذفة وأطلقت نيرانها بغزارة على طول الخنادق المنتشرة وتوقّف إطلاق النار بعدها.

بدا الأمر وكأن بغداد سوف تسقط خلال ساعات.. لكن هذا اليوم سيتميّز بأكثر خصائص الحروب غرابة: مزيج جنوني من الوضع الطبيعي والموت والفكاهة.

ذلك أنه على الرغم من أن الأميركيين كانوا يتقدّمون شمالاً صعوداً مع النهر فيما كانت طائرات ف١٨ تعود مراراً لقصف ضفّته، كان الصحّاف، وزير الإعلام العراقي، يعقد مؤتمراً صحفياً على سطح فندق فلسطين..، أي على مسافة أقلّ من نصف ميل من مكان المعركة.. وفيما القنابل تنفجر إلى يساره والسماء تغطيها القاذفات المقاتلة الأميركية، كان الصحّاف يعلن لحوالي مئة صحفي أن الأمر كلّه لا يعدو كونه تدريباً دعائياً، وأن الأميركيين فقدوا السيطرة على مطار بغداد، وأن «على المراسلين التدقيق وإعادة التدقيق في معلوماتهم، وهذا كل ما أطلبه منكم».. ولحسن حظّه، فإن حرائق النفط وانفجار القنابل والدخان الكثيف الذي خيّم على الضفّة الغربيّة للنهر جعلت من الصعب التأكّد مما يحدث إذا نظرت من فوق كتف الصحّاف.

ما كان العالم يريد معرفته بالطبع هو ما إذا كانت بغداد ستصبح محتلّة أو أن الحكومة العراقية سترضخ.. وكان أهمّ الأسئلة: أين صدّام؟ إلّا أنّ الصحّاف أخذ معظم وقته للتنديد بقناة الجزيرة لانحيازها إلى الولايات المتحدة ولانتقاد الأميركيين لاستخدامهم «ردهات وقاعات» صدّام حسين لنشر دعاية رخيصة.

صاح الصحّاف وسط حُمّى المعركة «إن الأميركيين سيُدفنون هنا، لا تصدّقوا هؤلاء الغزاة فإنهم سيُهزمون». منذ أسبوع فقط، أعلن الصحّاف أنهم سيحتاجون إلى قبور في الصحراء والآن انتقل مكان دفنهم إلى المدينة. وكلّما كان يتحدّث الصحّاف كنّا نحاول مقاطعته للقول: «توقّف سيّدي العزيز وانظر إلى يمينك». وبالطبع لم يكن هناك سوى الدخان فوق كتفه اليُمنى.. عندها قال: «لنقمْ بجولة في المدينة».

وهذا ما فعلته: قمتُ بجولة... كانت الباصات ذات الطابقين تسير في الشوارع بينما كانت المحلّات مقفلة، وانتشر الباعة على الأرصفة، وفي شارع ياسر عرفات كان الرجال مجتمعين في المقاهي الشعبية لمناقشة الحرب.

ذهبت لشراء فاكهة فأخذ البائع مبلغ ١١ ٥٠٠ دينار ولم يعدّه. في هذه الأثناء كانت طائرة أميركية تحلّق على علوّ منخفض وتعبر الطريق لتلقي حمولتها على بعد ألف متر محدثة انفجاراً بدّل من الضغط الجوّي في آذاننا. لكن كانت في كل زاوية شارع عناصر من الميليشيا. وعندما وصلت إلى مقربة من وزارة الخارجية على الضفّة الغربية للنهر، كان طاقم مدفع عراقي من عيار ١٢٠ ملم يطلق نيرانه على الأميركيين من وسط الطريق، وكانت نيران الطلقات تسطع على السحابة الرمادية السوداء التي كانت تغطّي بغداد.

تحرّك الأميركيون لمدّة ساعة ونصف ساعة صعوداً جنوب التيّار النهري وكانوا يتقدّمون نحو وزارة الإعلام القديمة. قاموا بإطلاق النار على المدنيين ورجال الميليشيا خارج فندق الرشيد، وأصابوا راكب درّاجة نارية ومصوّر وكالة رويترز الذي نجا بعد أن أصيبت سيّارته بعدّة طلقات. وكانت مستشفيات بغداد

كافّة مكتظّة بالجرحى وبينهم العديد من النساء والأطفال الذين كانوا مصابين بشظايا القنابل الانشطارية.

عند الغسق، كان الأميركيون يحلّقون بطائرات ف١٨ مقدّمين دعماً جوّياً للبحرية الأميركية الواثقة من تدميرها للمدافع المضادّة للطائرات.. وكان يمكن مشاهدتها تجول في الأجواء الداكنة والرمادية فوق مدينة بغداد، مرتدّة بكسل نحو الجنوب والغرب، بينما استمرّ قصف مجرى النهر.

عند منتصف النهار، حدّد الأميركيون مكان مخزن ذخيرة على الضفّة الغربية للنهر غير بعيد من القصر الجمهوري ـ أحد القصور المحتلّة ـ وقاموا بتفجير المخزن فارتفعت ألسنة اللهب عدة مئات من الأقدام... ولساعات بعدها، ظلّ انفجار القذائف يُسمع وسط الحريق وفي بعض الأحيان كانت القذائق تتفجّر في الجوّ. وحتى لو أنهم فعلوا ذلك من أجل إغضاب صدّام ووزرائه، فقد قام الأميركيون ببثّ صور حيّة عن تفتيشهم للقصر الجمهوري على ضفاف دجلة في شريط يُظهر حمّام صدّام الرخامي والحنفيات الذهبية، وحمّامات الشمس للقوّات الخاصّة في الحديقة الرئاسية مع أنه لم تكن هناك شمس. . . .

مع اقتراب الليل، مررت بتحصينات إسمنتية على الطرف الشرقي لجسر الرشيد الكبير فوق نهر دجلة. وقد قام المدافعون الثلاثة في الموقع المحصّن بتحريك قاذفات الصواريخ نحو طرف الموقع. كانت مئات من الدبّابات والعربات المصفّحة الأميركية تتدفّق باتجاه دجلة من جنوب غرب بغداد، وكان العراقيون الثلاثة (بعثيان وعنصر ميليشيا) واقفين مستعدّين للدفاع عن الشاطئ الشرقي ضدّ أكبر جيش عرفه الإنسان، عندها قلت في نفسي: «هذا بحدّ ذاته يعطيك فكرة عن شجاعة العرب ويأسهم في آن معاً»... لكنّ الألم الحقيقي لم يكن قد أتى بعد. . . .

كان المشهد شبيهاً بمشاهد بحرب القِرم؛ مستشفى مكتظّ بالجرحى المتألّمين والدم يغطي الأرض. مشيت على الدم الذي التصق بحذائي، والذي كان يلطّخ ملابس جميع الأطبّاء في غرفة الطوارئ المزدحمة وكذلك الممرّات والأغطية

والأقمشة. كان المدنيون والعسكريون العراقيون الذين أُحضروا إلى مستشفى الشهيد عدنان خيرالله في الساعات الأخيرة لنظام صدّام ـ والمصابون أحياناً بجراح خطرة ـ هم الجانب المظلم للنصر والهزيمة والدليل النهائي، مثل القتلى الذين دُفنوا خلال ساعات، على أن الحرب هي بالفعل السقوط الكامل للنفس البشرية.

بينما كنت أتجوّل بين الأسرّة المملوءة بالرجال والنساء المتألّمين (كان دانتي ليدخل هذه المشاهد في زيارته لدوائر جهنّم) تكرّرت الأسئلة القديمة نفسها. هل كان كل ذلك من أجل ١١ أيلول/سبتمبر؟ من أجل حقوق الإنسان؟ من أجل أسلحة الدمار الشامل؟. في الردهة المزدحمة، مررت برجل متوسّط العمر ممدّد على عربة المستشفى. كان مصاباً بجرح في الرأس يصعب وصفه، وكانت خرقة تتدلّى من جانب عينه اليمنى مبلّلة بالدم الذي يسيل على الأرض. وعلى سرير قذر، كانت فتاة صغيرة ممدّدة إحدى قدميها مكسورة والأخرى مصابة بشظيّة خلال غارة جوّية.. وكان السبيل الوحيد لمنعها من الحركة ربط قدميها بحبل مثقل بالحجارة. كانت تُدعى روى صبرى.

وبينما كنت أتجوّل في هذا المكان المرعب، بدأ القصف الأميركي يحصد شاطئ نهر دجلة في الخارج، معيداً إلى ذاكرة الجرحى رعب الموت الذي عانوا منه قبل ساعات. وأصبح طريق الجسر الذي عبرته للوصول إلى المستشفى تحت النيران، وانتشرت سحب من دخان البارود المتحرّك فوق المركز الطبّي... وهزّت انفجارات ضخمة الأجنحة والردهات بينما كان الأطبّاء ينقلون الأطفال المصابين بعيداً عن النوافذ.

لم تصل فلورانس نايتنغايل أبداً إلى هذا الجزء من الإمبراطورية العثمانية القديمة. لكن يعدلها الدكتور خلدون البائري، المدير ورئيس الجرّاحين، وهو رجل لطيف المنطق، نام ساعة واحدة في اليوم طيلة ستّة أيام وهو يحاول إنقاذ حياة أكثر من مئة نفس يومياً بمحوّل كهربائي واحد، ونصف غرف العمليات معطّل... «أنت لا تستطيع حمل المرضى بين يديك إلى الطابق السادس عشر عندما يبصقون الدم». يتحدث الدكتور البائري كالذي يسير في نومه، محاولاً وصف كيف يمكن إنقاذ جريح أو جريحة من الاختناق عندما يكون مصاباً في

صدره، شارحاً أنه بعد أربع عمليات جراحية لاستخراج شظايا معدنية من رؤوس مرضاه، غدا متعباً جدّاً إلى حدّ يفوق القدرة على التفكير، ناهيك بالتحدث بالإنكليزية.. يعني أن أتركه وشأنه.

بينما كنت أتهيّأ لتركه أبلغني أنه لا يعرف أين عائلته: «قُصف بيتي وبعث جيراني برسالة يخبرونني فيها أنهم أرسلوا عائلتي بعيداً إلى مكان ما. لا أعلم إلى أين!. لديّ ابنتان صغيرتان توأم، أفهمتهما أنني أخدم الإنسانية وأنّ عليهما أن تكونا شجاعتين. والآن لا أعلم أين هما!». ثم شهق الدكتور البائري بكلماته وراح يبكي، ولم أستطع توديعه.

كان في الطابق الثاني رجل مصاب بجرح مخيف في عنقه. ويبدو أن الأطبّاء لم يقدروا على إيقاف النزيف وكان الدم يسيل على الأرض. لقد اخترق شيء حادّ وغامض بطنه ولم تستطع ستّة إنشات من الضمادات وقف تدفّق الدم. وقف شقيقه إلى جانبه ورفع يده نحوي سائلاً: «لماذا؟ لماذا؟». وثمّة طفل في أنفه أنبوب مستلقٍ على بطّانية، كان عليه الانتظار أربعة أيام لإجراء عملية جراحية له. كانت عيناه شبه مغمضتين، ولم أستطع سؤال أمّه ما إذا كان صبياً أو بنتاً. وسُمع صدى انفجار، طويل ومنخفض وقويّ، في ردهات المستشفى ـ ربّما كان عائداً لضربة جوّية على بعد نصف ميل ـ وتبعته مجموعة من أصوات العويل والصراخ من الأطفال خارج أجنحة المستشفى.

في الطابق السفلي، في أسوأ غرف الطوارئ، أحضروا ثلاثة رجال مصابين بحروق في وجوههم وأيديهم وبطونهم وأرجلهم، رجال عُراة بجلود دامية غطّاها الأطبّاء بمراهم بيضاء. جلسوا على أسرّتهم وأيديهم النحيفة مرفوعة إلى أعلى يدعون مُنقذاً غائباً لتخليصهم من الألم... «كلّا!، كلّا!، كلّا!»، صرخ شاب آخر بينما حاول الأطبّاء قصّ بنطلونه، صرخ وبكى وصهل كالحصان. ظننت أنه جندي، كان يبدو صلباً وقوياً لكنه الآن يبكي كالأطفال صارخاً: «أمّاه، أمّاه».

تركت المستشفى المرعب لأجد خارجاً القذائف الأميركية وهي تتساقط على النهر. لاحظت أيضاً بعض الخِيَم العسكرية على بُقعة من العشب قرب مبنى

إدارة المستشفى ـ وقلت في سرّي، لعنة الله عليهم ـ وعربة مصفّحة عليها مدفع رشّاش مخبّأة تحت الأغصان وأوراق الشجر. كانت على بُعد أمتار قليلة داخل أرض المستشفى وتمّ استخدام المستشفى كستار لإخفائها. ولم أستطع نسيان اسم المستشفى؛ كان عدنان خيرالله، وزير دفاع صدّام، رجلاً سقط بعد شجار مع رئيسه ومات بتحطّم طائرة ولم تُعرف الأسباب. حتى في الساعات الأخيرة لمعركة بغداد، كان على الضحايا أن يرقدوا في مبنى يحمل اسم رجل مقتول.

عدت إلى فندق فلسطين، وقد خفت صوت القصف. كانت دبّابات أميركية متمركزة على جسر الجمهورية فوق نهر دجلة لكن ليس هناك قتال. وعندما تمهّلنا للانحراف نحو شارع السعدون سمعت زقزقة عصافير، ثم ضربة مدفع وصفير قذيفة. وعندما وصلت إلى فندق فلسطين شاهدت دخاناً رمادياً ينبعث من طابق علويّ. كان الصحّاف وصبري في الطابق الذي تحته يعقدان مؤتمراً صحفياً.. لكن بعد ذلك اندفع الصحفيون والموظّفون من مدخل الفندق وهم يحملون غطاء بداخله شيء ثقيل، وكان الغطاء مبلّلاً بالدم. لم تكن هذه المرّة الأولى في ذلك اليوم التي يقتل فيها الأميركيون صحفيين. كانت دبّابة قد أطلقت قذيفة على فندق فلسطين وأصابت مكتب تلفزيون رويترز فقتلت أحد مصوّري الوكالة وهو أب لصبيّ عمره ثماني سنوات، وجرحت أربعة موظفين مع مصوّر للقناة الخامسة في التلفزيون الإسباني. وقد توفّي المصوّر لاحقاً. هل يمكن التصديق أنه مجرّد حادث؟ كان هذا سؤالنا الأول في ذلك اليوم المخيف. لم يكونا بالطبع أول صحفييْن يموتان في الغزو الأنغلو ـ أميركي للعراق. فقد قُتل تيري لويد من التلفزيون العالمي من قِبل القوّات الأميركية في جنوب العراق التي أخطأت التمييز بين سيّارته وسيّارة عراقية، وما زال معظم فريقه مفقوداً. وغرق مايك كيلي من الواشنطن بوست بشكل مأساوي في القتال. وقُتل مراسلان في كردستان. وقُتل صحفيان ـ ألماني وإسباني ـ في قاعدة أميركية على طرف بغداد مع أميركيين عندما انفجر صاروخ عراقي في وسطهم. ولا نستطيع تناسي المدنيين العراقيين الذين قُتلوا بالمئات والذين جُرحوا وتشوّهوا، والذين ـ بعكس الضيوف الصحفيين ـ لم يستطيعوا كما قلت سابقاً ترك الحرب

والسفر إلى وطنهم بدرجة رجال الأعمال. والحال أن الوقائع تتكلّم عن نفسها. فقد قام طيّار أميركي ذلك اليوم بقتل مراسل الجزيرة وأصاب زميله بجراح خطرة.

قصفت طائرة أميركية مكتب الجزيرة على ضفاف دجلة بصاروخ الساعة ٧,٤٥. وكان مدير المكتب في بغداد، وهو أردني فلسطيني يُدعى طارق أيّوب، على سطح المبنى مع المصوّر العراقي زهير الذي كان ينقل معركة محتدمة قرب المكتب بين القوّات العراقية والأميركية. وكما ذكر زميل أيوب لاحقاً، فقد شاهد الرجلان طائرة تطلق صاروخاً وهي تتجه نحو المبنى القريب من جسر الجمهورية حيث ظهرت دبّابتان أميركيتان للتوّ. قال ماهر عبدالله: «كنا نشاهد هذه المعركة على الشاشة ورأينا الرصاص يتطاير وعندها سمعنا صوت الطائرة التي كانت تحلّق منخفضة بحيث ظنّ الذين كانوا في الطابق السفليّ أنها ستهبط على السطح ـ كانت قريبة إلى هذه الدرجة ـ سمعنا صوت الصاروخ وهو ينطلق ـ كانت ضربة مباشرة ـ ثمّ انفجر على المحوّل الكهربائي. قُتل طارق على الفور وأُصيب زهير».

ولكن ماذا عن مشاكل أميركا في تفسير هذا الحادث الصغير. في عام ٢٠٠١، أطلقت الولايات المتحدة صاروخ كروز على مكتب الجزيرة في كابول ـ الذي كانت تبثّ منه شرائط أُسامة بن لادن إلى أنحاء العالم. ولم يصدر أيّ تفسير لهذا الحادث غير العادي في الليلة التي سبقت «تحرير» المدينة.. ولم يُصب مراسل الجزيرة في كابول تيسير علّوني. وللمصادفة الصحفية الغريبة، كان علّوني في مكتب بغداد ليشهد الهجوم الثاني لسلاح الجوّ الأميركي على الجزيرة. غير أن الأمر الأكثر إزعاجاً كان حقيقة أن شبكة الجزيرة ـ التلفزيون العربي الوحيد الحرّ الذي أثار غضب ألأميركيين وصدّام بسبب تغطيته الحيّة للحرب ـ أعطت البنتاغون إحداثيات مكتبها في بغداد في شباط/ فبراير وحصلت على تطمينات بأن المكتب في العراق لن يُهاجم. وفي ٦ نيسان/ أبريل زار متحدّث باسم وزارة الخارجية مكاتب الجزيرة في الدوحة، واستناداً إلى مصدر

في القناة الفضائية القطرية كرّر البنتاغون تطميناته. وبعد أربع وعشرين ساعة أطلق الأميركيون صاروخهم على مكتب بغداد.

حصل الهجوم التالي على مكتب رويترز قبل منتصف النهار بعدما صوّبت دبّابة أبرامز مدفعها باتجاه فندق فلسطين حيث يقيم أكثر من ٢٠٠ صحفي أجنبي. وقد لاحظ مراسل تلفزيون سكاي، دايفيد شاتر، البرج يتحرّك. وكان لدى التلفزيون الفرنسي ـ القناة الثالثة فريق في غرفة تحت مكتب رويترز وقد صوّر الدبّابة على الجسر. بعد فترة من الصمت حول خط سير الصوت، أظهر الشريط كتلة نار تخرج من فوّهة المدفع وصوت انفجار ضخم ومن ثمّ قطعاً من الدهان تتساقط على الكاميرا التي كانت تهتزّ تحت تأثير الانفجار.

في مكتب رويترز في الطابق الخامس عشر، انفجرت القذيفة وسط الموظفين، وأصابت المصوّر الأوكراني ساشا بروتسجوك إصابة قاتلة ـ وهو كان يصوّر الدبّابات أيضاً ـ وأصابت بجراح خطرة عنصراً آخر من الفريق، هو بريتون بول باسكال، وصحفيين آخرين بينهم مراسلة رويترز اللبنانية ـ الفلسطينية سامية نخّول. في الطابق التالي، أُصيب مصوّر التلفزيون الإسباني ـ القناة الخامسة جوسيه كوزو إصابة خطرة، وما لبث أن توفّي بعد وقت قصير. وبقيت كاميرته وقاعدتها في المكتب، ملطّخة بدم الفريق.

تجاهل الردّ الأميركي هذه الأدلّة كلّها. وأعلن الميجور جنرال بوفور بلونت من فرقة المشاة الثالثة الأميركية ـ الذي كانت دبّاباته على الجسر ـ أن عرباته وقعت تحت نيران وصواريخ وطلقات القنّاصة من فندق فلسطين، وأن دبّابته أطلقت قذيفة واحدة على الفندق وتوقّف إطلاق النار بعدها. لكن كنت في السيّارة على الطريق بين الفندق والدبّابة لحظة إطلاق القذيفة ولم أسمع صوت إطلاق أيّ سلاح ناري. وظلّ شريط الفيديو الفرنسي حول الهجوم أكثر من أربع دقائق وهو يسجّل صمتاً تاماً قبل إطلاق قذيفة مدفع الدبّابة. وإنني على يقين من عدم وجود قنّاصة في المبنى. بالفعل، كان عشرات الصحفيين وطواقمهم الذين يقيمون هناك ـ بمن فيهم أنا ـ يراقبون مثل الصقور للتأكّد أنه لا يوجد رجال مسلّحون يستخدمون الفندق مركزاً للهجمات... وينبغي إضافة أمر

آخر هنا: فقد كان الجنرال بلونت نفسه هو الذي تفاخر في آذار/مارس بأن قوّاته تستخدم ذخائر مشبعة باليورانيوم ـ النوع الذي يعتقد كثيرون أنه مسؤول عن انتشار مرض السرطان بعد حرب الخليج ١٩٩١ ـ في دبّاباتهم. إن إيحاء الجنرال بلونت ـ كما قال ـ بأن رصاص القنص توقّف فور إصابة فريق تصوير رويترز ـ ما يعني أن الفريق كان بشكل ما متورّطاً في إطلاق النار على الأميركيين ـ قد حوّل تصريحاً كاذباً إلى تصريح تشهيري اتّهامي.

علينا أن نتذكّر مجدّداً أن ثلاثة قتلى وخمسة جرحى من الصحفيين لا يشكّلون مجزرة ـ أو حتى ما يوازي مئات المدنيين الذين أُصيبوا من قِبل القوّة الغازية. وثمّة حقيقة يتعيّن عدم تجاهلها وهي أن النظام العراقي قتل عدداً من صحفييه عبر السنين إضافة إلى عشرات الآلاف من شعبه. خطر في بالي اسم فرزاد بازوفت. لكنّ شيئاً خطيراً جدّاً بدا وكأنه مفقود. كان تفسير بلونت من النوع الذي يستخدمه الإسرائيليون بعد قتلهم لبريء. هل هناك رسالة ما يجب علينا نحن الصحفيين التعلّم منها في كل ذلك؟ هل هناك جهاز ما داخل الجيش الأميركي يكره الصحافة ويريد إخراج الصحفيين الموجودين في بغداد لإيذاء الذين ادّعى وزيرنا دايفيد بلنكيت أنهم يعملون خلف خطوط العدوّ؟ هل يمكن أن يكون هذا الادّعاء ـ أن المراسلين الدوليين كانوا بالفعل يتعاملون مع عدوّ بلانكيت (معظم البريطانيين ساندوا الحرب في البداية) ـ قد بدأ يتحوّل إلى نوع من عقوبة الموت؟.

عرفت طارق أيوب. كنت أرسل تقاريري إلى الدوحة خلال الحرب من المبنى نفسه في بغداد حيث قُتل. أبلغت أيوب يومها أن مكتبه هدف سهل في بغداد إذا أراد الأميركيون تدمير تغطيته ـ التي تُشاهد في جميع أنحاء العالم العربي ـ للضحايا المدنيين نتيجة القصف الأنغلو ـ أميركي. وقد تقاسم ساشا بروتسجوك، من رويترز، معي أحياناً مصعد فندق فلسطين البطيء. وكانت سامية نخّول صديقة وزميلة منذ الحرب الأهلية اللبنانية ١٩٧٥ ـ ١٩٩٠، وهي زوجة مراسل الفايننشال تايمز دايفيد غاردنر. وها هي تقبع الآن مغطاة بالدم في مستشفى في بغداد. ويتجرّأ الجنرال بوفور بلونت على القول إن هذه المرأة

وزملاءها هم قنّاصة. سرحت بذهني متساءلاً ماذا يخبرنا هذا الوضع عن الحرب في العراق؟(*).

في وقت سابق، قصف سلاح الجوّ الأميركي مجمّعاً سكنياً مدنياً في شارع المنصور في بغداد لاعتقاد ضبّاط المخابرات الأميركية بأن صدّام موجود هناك. وقد أدّت أربع قنابل زنتها ألفا ليبرة إلى تقطيع أوصال ١٣ مدنياً عراقياً ـ لكنّ صدّام لم يكن هناك. وبعد أيام وُجد عراقي عمره ١٤ سنة تحت الأنقاض التي دمّرتها القنابل. وأفادت البي بي سي من قطر أن الاستخبارات الأميركية كانت تعرف أنها ليست عملية من دون «مجازفة». ولعلمكم فإنها طبعاً لم تكن مجازفة بالنسبة إلى الأميركيين وإنما بالنسبة إلى المدنيين العراقيين فقط الذين كانوا يموتون للاشيىء ـ وهم ماتوا بالفعل للاشيىء ـ وكما كان متوقّعاً، فلم يكن هناك أيّ اعتذار..

ومع ذلك فإن المدنيين كانوا لا يزالون يُذبحون. كما أن غارات أميركا الباحثة عن صدّام، وتقدّم قوّاتها في شارع وانسحابها من شارع آخر ـ مغطاة دائماً باستخدام مكثّف للقوّة النارية ـ مزّقت الأبرياء على نحو اعتقدنا معه جميعاً أنه سيؤثّر على نفسيّة العراقيين بعد الغزو. هل يمكن التسامح حيال هذا كلّه باسم التحرير؟

(*) أظهر تحقيق للبنتاغون أن الجنود الأميركيين على جسر الجمهورية ظنّوا أنهم اكتشفوا «فريق قنّاصة معادياً على شُرفة غرفة في الطوابق العليا لمبنى ضخم ملوّن». وقد باشر «مراسلون بلا حدود» تحقيقهم الخاصّ حول قتلى فندق فلسطين يوم ٨ نيسان/أبريل ٢٠٠٣ مجرين مقابلات مع الصحفيين والقوّات الأميركية المتورّطة في الحادث. وتوصّل التحقيق إلى نتيجة مُفادها أنه بينما لم تكن عمليات القتل متعمّدة، فإن فشل القادة الأميركيين في إبلاغ قوّاتهم أن فندق فلسطين كان مقرّاً لمئات الصحفيين يشكّل «جريمة»، وأن الولايات المتحدة كذبت عندما استمرّت في التأكيد أن «إطلاق نار مباشراً» جاء من الفندق مع أن ذلك كذب واضح. وتتحمّل قيادة الجنرال بلونت مسؤولية كبيرة لعدم إعطاء تعليمات «كان من شأنها أن تمنع مقتل الصحفيين». والسؤال الذي طرحه التحقيق هو «ما إذا كانت المعلومات أخفيت قصداً بسبب سوء فهم أو إهمال إجرامي». للأسف، لم يحقّق «مراسلون بلا حدود» في الهجوم على مكتب الجزيرة في اليوم نفسه.

كنا نذهب دائماً إلى المستشفيات، حيث نراهم ممدّدين بالصفّ، بائع السيّارات الذي فقد إحدى عينيه وكانت رجلاه لا تزالان تنزفان... وراكب الدرّاجة الذي أصيب بالرصاص من القوّات الأميركية قرب فندق الرشيد.. والموظفة الحكومية البالغة ٥٥ عاماً، وشعرها منتشر على المنشفة التي تستلقي عليها، وعلى جسمها ندوب بسبب شظايا قنبلة انشطارية أميركية.. تلك كانت النتيجة المباشرة لمهمّات البحث الأميركية في بغداد. وقد بدا الأمر واضحاً جدّاً على التلفزيون حيث ظهرت البحرية الأميركية على ضفاف دجلة، والزيارة المضحكة للقصر الجمهوري، وشريط الفيديو حول مرحاض صدّام الذهبي. لكنّ الأبرياء كانوا ينزفون ويصرخون ألماً لإعطائنا صوراً تلفزيونية مثيرة ولتزويد بوش وبلير بالحديث المزيّف عن النصر. شاهدت صبيّاً عمره سنتان ونصف سنة، يُدعى علي نجور، ممدّداً بحالة محزنة في سريره، وقد تلطّخت ملابسه بالدم وفي أنفه أنبوب مصل.. تقدّم مني قريبه، وصاح بصوت غاضب: «أريد الحديث معك، لماذا تريدون أنتم الإنكليز قتل هذا الطفل الصغير؟ لماذا تريدون حتى النظر إليه؟ فعلتم ذلك ـ فعلت ذلك». وأمسك الشابّ بيدي وهزّها بعنف: «هل تُعيد إليه أباه وأمه؟ هل تُعيدهما إلى الحياة من أجله؟ أخرج! أخرج!». وفي مستشفى الكندي رأيت صبياً، قُتل أبوه وأمه وأخوته الثلاثة عندما اقتربوا من نقطة تفتيش خارج بغداد.

في الباحة في الخارج، حيث تجلب سيّارات الإسعاف الأموات، وضعت امرأة شيعية متوسّطة العمر تلبس السواد يديها على صدرها وحدّقت فيّ، صارخة: «ساعدني، ساعدني. ابني شهيد وكلّ ما أريده علم أغطّيه به. أريد علماً، علماً عراقياً لأغطّي به جسده. ربّي ساعدني!». فقد أصبح من الصعب أكثر فأكثر زيارة أماكن الألم والعذاب والغضب. ولم يفاجئني ذلك. فقد أفادت منظمة الصليب الأحمر الدولي عن ضحايا الهجوم الأميركي على بغداد الذين كانوا يصلون طيلة ثلاثة أيام إلى المستشفيات بالمئات. واستقبل مستشفى الكندي وحده خمسين جريحاً مدنياً وثلاثة قتلى في الأربع والعشرين ساعة الماضية. ومعظم القتلى ـ عائلة الصبيّ الصغير، وعائلة الأشخاص الستّة الذين مزّقتهم

قنبلة جوّية أمام عليّ عبد الرازق بائع السيّارات، وجيران صفا كريم ـ دفنوا بعد ساعات مع أشلائهم. إذن لم يكن هناك معنى لإحضار الجثث إلى المستشفى.

على التلفزيون بدا الأمر واضحاً. مساء الأحد السابق عرضت البي بي سي سيّارات مدنية محترقة. وكان صديقي القديم وزميلي غافين هيويت ـ الذي سافرت معه في أنحاء أفغانستان منذ ربع قرن وهو يرافق القوّات الأميركية الآن ـ يقول إنه رأى بعض الركّاب ممدّدين قتلى قرب سيّاراتهم. كان هذا كلّ شيء. لا صور عن الجثث المشوّهة، ولا صور مكبّرة للأطفال المحترقين. لذلك ربّما كان ينبغي هنا توجيه إنذار لمرضى الأعصاب: لا تقرأوا أكثر إلّا إذا كنتم تريدون معرفة ماذا فعلت أميركا وبريطانيا بأبرياء بغداد.

سوف أترك وصف الذباب الذي يحوم حول الجراح في غُرف طوارئ الكندي، حول الدم الملتصق بالأغطية والمخدّات الوسخة، وبُقع الدم على الأرض، والدم الذي ما زال يسيل من جراح الذين تكلّمت عنهم. كانوا كلّهم مدنيين. كانوا يسألون جميعاً لماذا كُتب عليهم العذاب. جميعهم ـ باستثناء الشابّ الذي طلب منّي ترك سرير الصبيّ الصغير ـ تحدّثوا بلطف وهدوء عن ألمهم. لم يأخذني أيّ باص حكومي عراقي إلى مستشفى الكندي ولم يعرف أيّ طبيب بقدومي.

لنبدأ بعليّ عبد الرازق... في الأربعين من العمر، بائع سيّارات، كان يسير أمس صباحاً على طريق ضيّق في شارع الشعب في بغداد ـ حيث قتل الصاروخان الأميركيان ٢١ مدنياً في شارع أبو طالب ـ عندما سمع هدير محرّكات طائرة. قال: «كنت أريد لقاء عائلتي لأن الاتصالات الهاتفية دُمّرت وأردت معرفة ما إذا كانوا سالمين. وكانت هناك عائلة، زوج وزوجة وأطفال، أمامي، حاولت مساعدتهم لكنهم قُتلوا جميعاً وتمزّقوا. ثم أدركت أنني لا أرى جيّداً».

كانت مجموعة من الضمادات على وجه عبد الرازق فوق عينه اليسرى. وقد أبلغني طبيبه أسامة الرحيمي أنه لم يُجرِ له عملية جراحية للعين وأنه اهتمّ

بالجروح الأخرى. ثم مال نحوي وأبلغني بهدوء: «فقد عينه ولم نستطع فعل أيّ شيء. لقد أخرجت شظيّة من رأسه». ابتسم عبدالرازق، لكن هل يعلم أنه سيبقى بعين واحدة إلى الأبد؟! ثم تحدّث بلغة إنكليزية مقبولة، لغة تعلّمها في المدرسة الثانوية في بغداد، وسأل: «لماذا حصل لي ذلك؟».

كان محمّد عبدالله علواني ضحية عملية توغّل أميركية صغيرة على ضفاف دجلة، لاقت تغطية إعلامية مثيرة. كان عائداً إلى بيته على درّاجة ناريّة من فندق الرشيد على الضفّة الغربية لنهر دجلة عندما مرّ بشارع فيه دبّابة أميركية. «شاهدت الأميركيين في اللحظة الأخيرة. أطلقوا النار وأصابوني لكنني نجحت في البقاء على الدرّاجة ثم أصابت قذيفتهم الثانية الدرّاجة بشظايا وسقطت». نزع الدكتور الرحيمي الضمادة عن جنب علواني، كان هناك جرح كبير قرب كبده الدامي عمقه إنش تقريباً وكان الدم لا يزال يسيل على رجليه وقدميه. سألني: «لماذا يطلقون النار على المدنيين؟»... أجل أعرف أن صدّام كان من شأنه أن يقتل عراقيين أكثر منا لولا غزونا ـ لكن ليس مستشفى الكندي مكاناً مناسباً لمثل هذا الجدال ـ ونحن نفعل ذلك لعلواني ولأصدقائه. ألم يبلغنا بول ولفوفيتز كل شيء قبل أسبوعين، وأنه يصلّي للقوّات الأميركية وللشعب العراقي؟ ألم نأتِ إلى هنا لإنقاذه؟ ـ لندع النفط جانباً ـ أليس صدّام شرّيراً وقاسياً؟ لكن كان من الجنون التفوّه بهذه الكلمات وسط هؤلاء الناس. كانت سعدية حسين الشمّري، التي تعمل في وزارة التجارة، مصابة بجراح دامية، وهي ترقد نائمة متألّمة، وطبيب آخر يطرد الذباب عن جرحها بقطعة كرتون. سألني ـ كما لو كنت أعرف ـ ما إذا كان المرء يشفى من جرح خطير في الكبد. وروى لي قريب لسعدية كيف غادرت منزلها في شارع جديدة بغداد عندما ألقت طائرة أميركية قنبلة انشطارية على الحيّ: «كان هناك بعض الجيران وقد أصيبوا جميعاً وطارت أطراف أحدهم في الجوّ».

وكانت هناك صفا كريم (١١ سنة) ترقد محتضرة. لقد أصابتها شظيّة قنبلة أميركية في بطنها وتشكو من نزيف داخلي، وعلى بطنها ضمادة كبيرة وفي أنفها أنبوبة مصل ـ والأكثر رعباً من كل ذلك تلك الأربطة البالية والقذرة التي

تقيّد رسغيْها وكاحليْها بالسرير. كانت تئنّ وتبكي بينما هي مستلقية تصارع الألم والتقييد في الوقت نفسه. وكانت أمّها المتّشحة بالسواد تجلس قرب السرير واجمة، وقالت إنها مريضة جدّاً بحيث تجهل مصيرها. وأضافت: «أعطوها عشر زجاجات من الدواء لكنّها تقيّأتها جميعاً». وعبر القناع المؤلّف من أنبوب على وجهها نظرت صفا إلى أمّها ثم إلى الطبيب ثم التفت إليّ فإلى أمّها ثانية. وبسط الرجل راحتيه، وهي الطريقة التي يستخدمها العرب للتعبير عن عجزهم، وكانوا يقولون دائماً: «لا نستطيع أن نفعل شيئاً».. لكن الرجل ظلّ صامتاً وأنا مسرور لذلك. فكيف أقول له بعد ذلك إن صفا ستموت من أجل ١١ أيلول/ سبتمبر، من أجل المعتقد الديني لجورج بوش وطوني بلير. وأن بول ولفوفيتز يحلم بالتحرير وبالديمقراطية التي كنا نقضي على أرواح هؤلاء الناس من أجل إقامتها.

لكن كان لا بدّ أن يبزغ فجر يوم جديد. إنه يوم ٩ نيسان/أبريل الذي حرّر فيه الأميركيون بغداد. دمّروا مراكز سلطة صدّام الدكتاتورية القاسية التي دامت رُبع قرن وجلبوا خلفهم جيشاً من اللصوص أشاعوا في المدينة القديمة حالة من النهب والفوضى. كان يوماً بدأ بالقذائف والمستشفيات الغارقة بالدماء وانتهى بالتدمير الاحتفالي لتماثيل الدكتاتور. عبّر العوام عن فرحهم، وتحوّل الرجال الذين خضعوا طيلة رُبع قرن لشرطة صدّام السرّية إلى عمالقة يظهرون كراهيتهم للزعيم العراقي بينما كانت التماثيل الضخمة تتهاوى على الأرض.

صاح بي صاحب محلّ: «إنها بداية لحرّيتنا الجديدة». ثم توقّف وسأل: «ماذا يريد الأميركيون منّا؟». لقد كتب الأديب اللبناني جبران خليل جبران أنه يشفق على الأمّة التي ترحّب بالطغاة بالأهازيج وتودّعهم بأبواق الازدراء. والآن يقوم أهالي بغداد بتلك الطقوس المميتة، متناسين أنهم (أو أهلهم) تصرّفوا بالطريقة نفسها عندما أسقط حزب البعث العربي الاشتراكي الدكتاتورية السابقة لجنرالات العراق وأُمرائه؛ ومتناسين أيضاً أن المحرِّرين هم قوّات احتلال جديدة ودخيلة وقوية، لا ثقافة لها ولا لغة ولا عُرف ولا دين تجمعها مع العراق.

وعندما تدفّق عشرات الألوف من المسلمين الشيعة الفقراء من الأحياء الكبيرة لمدينة بغداد إلى وسطها شاقّين طريقهم إلى المحلّات والمكاتب وإلى وزارات الدولة ـ ترجمة ملحمية لحفلة النهب والتدمير الواسع التي عمل الإنكليز القليل لتجنّبها في البصرة قبل أسبوعين ـ كانت البحرية الأميركية تراقب عن بُعد مئات الأمتار اللصوص وهم يستولون على السيّارات والسجّاد والأموال والحواسيب والطاولات والمقاعد وحتى الأبواب. في ساحة الفردوس، أنزلت البحرية الأميركية تمثال صدّام الضخم والكئيب بعد أن ربطته بناقلة جُند مصفّحة. وسقط التمثال بشكل آليّ عن قاعدته ليهوي إلى الأرض ويده اليمنى ما زالت ممدودة بتحيّة أخويّة للشعب العراقي. وكانت لحظة رمزية من عدّة جوانب. وقفتُ خلف أوّل رجل لأُمسك بأوّل فأس صغيرة لتحطيم الرخام الرمادي للقاعدة، لكنّ الرخام سقط خلال ثوان ليكشف عن قاعدة رخيصة من الحجارة الإسمنتية الرديئة. هكذا رأى الأميركيون نظام صدّام دائماً رغم قيامهم بما استطاعوا في السبعينيّات وأوائل الثمانينيّات لتسليحه وخدمة اقتصاده وتأمين الدعم السياسي له وتحويله إلى الدكتاتور الذي صار إليه.

لهذا السبب كانت أميركا ـ التي تحتلّ عاصمة بلد عربي للمرّة الأولى في تاريخها ـ تساعد على تدمير ما تطلّب وقتاً ومالاً لتأسيسه... كان صدّام رجلنا ونحن نقوم الآن بالقضاء عليه. من هنا أهمّية كل هؤلاء الرعاع الذين يدمّرون التمثال إضافة إلى قيامهم بأعمال النهب والسلب.

في ساحة الفردوس، شاهدت جماعة صغيرة من الشباب تصل ومعها حبل ومعاول. جاءوا كمجموعة وليس بشكل عفوي وتساءلت مراراً مَن نظم هذه الميلودراما الصغيرة. لكنهم لم يتمكّنوا من إنزال التمثال.. وكما سيجري مراراً فقد احتاج العرب إلى مساعدة أميركية... وهكذا تحرّكت البحرية الأميركية لتكون في الخدمة وتُرك للولايات المتحدة تحطيم تمثال الدكتاتور. وقد سطعت وتحرّكت وصوّرت مئات الكاميرات هذا المشهد المزيّف، لتسجلّه للأجيال القادمة: الشعب العراقي وهو يحطّم صورة مضطهده. والحال أنه لم يفعل ذلك

قط. بل قام الأميركيون بتدمير تمثال صدّام أمام هؤلاء المتردّدين العاجزين عن القيام بذلك بأنفسهم.

كان حُكم الرجل قد انتهى بالفعل. وكتبت إلى صحيفتي تلك الليلة أنه يجب تحويل غُرف التعذيب والسجون إلى متاحف، خصوصاً وقد تكشّفت أخيراً القصّة الحقيقية لاستخدام العراق لحرب الغاز. لكنّ التاريخ يوحي بعكس ذلك. فالسجون تنتقل عادة إلى إدارة جديدة وكذلك زنازين التعذيب أيضاً... وهذا ما حصل بالفعل... ولكنّ الكابوس لم يكن قد انتهى بعد!! فمع أن الأميركيين حدّدوا يوم ٩ نيسان/أبريل أوّل أيّام الاحتلال ـ وسمّوه تحريراً ـ فقد بقيت مناطق شاسعة من بغداد خارج السيطرة الأميركية. وقبل حلول الظلام، عبرتُ الخطوط الأميركية وعدتُ إلى المنطقة الصغيرة لنظام صدّام والتي كانت لا تزال سليمة في مدينة بغداد الشاسعة والمسطّحة... تجوّلت في الشوارع الرمادية الخالية من السيّارات وصولاً إلى الجسور الكبيرة فوق نهر دجلة والتي لم يعبرها الأميركيون حتى الآن من الغرب. وهناك عند زاوية جسر المعظّم كانت مجموعة صغيرة من المجاهدين تطلق نيران رشّاشاتها على الدبّابات الأميركية على الطرف الآخر من النهر. كان ذلك عملاً شجاعاً، مثيراً للشفقة، وتثقيفياً بشكل مؤلم. . .

كان الرجال عرباً، من الجزائر، والمغرب، وسوريا، والأردنّ وفلسطين، ولم يكن بينهم أيّ عراقي. لقد غادرت ميليشيا البعث والحرس الجمهوري ورجال المخابرات العراقية وفدائيو صدّام مواقعها وعادت إلى بيوتها. وبقي العرب الأجانب، أشباه فرنسيي وحدة شارلمان النازيّة في برلين عام ١٩٤٥، مستمرّين في القتال. وفي النهاية، خان العراقيون هؤلاء الرجال ممّا دفع مجموعة منهم إلى الانتقال والجلوس في بهو فندق فلسطين طالبين من الصحفيين مساعدتهم للعودة إلى بلادهم. وقد صرّح أحدهم: «تركنا زوجاتنا وأولادنا وجئنا إلى هنا للموت في سبيل هؤلاء الناس وهم يطلبون منّا الرحيل». لكن في نهاية جسر المعظّم قاتلوا خلال الليل وعندما غادرتهم كنت أسمع هدير الطائرات الأميركية قادمة من الغرب. عدت مسرعاً عبر الشوارع المهجورة

وسمعت دبّابة أميركية تقصف وقد أصابت قذيفتها المبنى. وأعتقد أنه في حال نشوء مقاومة في المستقبل فسيكون هؤلاء منطلقها إذا نجوا.. ثمّ وصلت الدبّابات بمظهرين: المظهر الخطير القاتل الذي ينفث النار، والمظهر المحرّر الذي يبتسم جنوده الشباب للعراقيين المجبرين على التلويح لهم... دبّابات بأسماء جميلة مطبوعة على زوايا المدافع، أسماء مثل «القطّة المنقذة» ـ مع هيكل عظمي مرسوم تحتها ـ و«الجوهرة». وكان لا بدّ من وجود جندي الطليعة ـ أكانت الدبّابة من النوع المحتلّ أو المحرّر ـ ذاك الذي يقف في مقدّمة المجموعة الأولى لأيّ جيش قويّ وكبير. لذلك توجّهت نحو العريف دايفيد بريز من الكتيبة الثالثة للفرقة الرابعة من ميشيغان. أخبرني أنه لم يتّصل بأهله منذ شهرين، لذلك اتصلتُ بوالدته على هاتفي الخليوي وأعطيته الجهاز. . وهذا ما قاله أوّل جندي أميركي دخل وسط بغداد لأهله: «هاي يا شباب.. أنا في بغداد وأتصل بكم لأقول لكم إنني أحبّكم وأنا بخير، ستنتهي الحرب خلال أيام قليلة وسأراكم قريباً».

كتبت تلك الليلة:

«أجل.. يقول الجميع إن الحرب ستنتهي قريباً.. وستكون هناك بدون شكّ احتفالات بمناسبة عودة العريف بريز إلى الوطن... وأعتقد أنني أعجبت ببراءته رغم الحقائق القاتلة التي تنتظر أميركا في هذه الأرض الخطرة والقاسية. وذلك أنه فيما كانت الدبّابات الأميركية تنطلق وتهدر على الطريق السريع، كان هناك رجال ونساء رأوهم ووقفوا، النساء محجّبات، والرجال ينظرون إلى الجنود بحرص شديد، وأخذوا يتحدّثون عن خوفهم من المستقبل وأن العراق لن يحكمه الغرباء أبداً. قال لي أحدهم: «ستشاهد الاحتفالات وسنكون فرحين برحيل صدّام، ولكننا سنطالب بالتخلّص من الأميركيين وبأن يكون نفطنا ملكنا.. وستكون هناك مقاومة، وسيصفوننا حينها «بالإرهابيين». « . . .ولم يبدُ على الأميركيين أنهم محرّرون سعداء. كانوا يوجّهون أسلحتهم إلى الشوارع ويصرخون في السائقين طالبين منهم التوقّف.. وقد أطلقوا النار على أحدهم

لأنه لم يتوقّف، فأصابوه في رأسه وكان رجلاً مسنّاً في سيّارة قديمة، وذلك أمام صحفيّين فرنسيّين اثنين.

بالتأكيد، عرف الأميركيون أنهم سيحصلون على تغطية صحفية جيّدة من خلال تحرير الصحفيين الأجانب في فندق فلسطين. ولقد تمدّدوا على العشب في الساحة القريبة وتظاهروا بتوجيه أسلحتهم باتجاه السطوح حيث كانت الكاميرات مصوّبة نحوهم، ورفعوا العلم الأميركي على إحدى الدبّابات ونظروا إلى المراسلين، ولم يذكّرهم أيّ من هؤلاء بأن جيشهم قتل قبل ٢٤ ساعة صحفيّين غربيّين بقذيفة مدفع في هذا الفندق نفسه وأنهم كذبوا حول الحادث. . .

لكنّ اللصوص هم من جعل ذلك اليوم يبدو حزيناً أكثر منه سعيداً. قاموا بالترحيب بالأميركيين رافعين شارات النصر وهتفوا «عاشت أميركا»، وردّدوا الأهازيج المعتادة ثمّ توجّهوا إلى وسط المدينة لموعد أكثر أهمّية. في وزارة الاقتصاد نهبوا كلّ سجلّات التصدير والاستيراد العراقية المسجلّة على أقراص كومبيوتر إضافة إلى أجهزة الكمبيوتر ومقاعد وبرّادات ولوحات. وعندما حاولت دخول المبنى شتمني اللصوص. واستولى الرعاع على كاميرا ومال مراسل فرنسي... وفي المكاتب الرياضية الأولمبية التي يُشرف عليها عُديّ صدّام حسين فعلوا الشيء نفسه. . وقد خرج رجل من المبنى ومعه صورة ضخمة لصدّام أخذ يضربها بقبضته وخرج آخر وهو يحمل إناء صينياً كبيراً للزينة. في الواقع كانت هذه أهداف تابعة للنظام. لكنّ العديد من الجموع توجّهوا إلى المحلّات وشقّوا طريقهم إلى محلّات المفروشات والمكاتب. حضروا ومعهم شاحنات وسيّارات بيك آب وعربات تجرّها حمير لنقل المسروقات. وقد شاهدتُ صبيّاً يحمل آلة تصوير أشعّة وامرأة تحمل كرسيّ طبيب أسنان. عند وزارة النفط، اكتشف اللصوص سيّارة المرسيدس السوداء الخاصّة بالوزير، ولعدم وجود مفاتيح قاموا بتفكيك السيّارة إلى قطع أمام

المدخل الرئيسي الكبير. وفي فندق فلسطين حطّموا صورة لصدّام في البهو وأحرقوا لائحة إعلانات تحمل صوره. وهتفوا: «اللّه أكبر»... وكانت هذه رسالة أيضاً إلى جنود البحرية الأميركية الذين كانوا يراقبون، لو أنهم فهموها.

وبينما استمرّت قذائف الدبّابات تتفجر وتسقط على المدينة الليلة الماضية، وجدت بغداد نفسها تحت سلطة زعيم جديد. جاء كثيرون ورحلوا في تاريخ المدينة: العبّاسيون والأمويون والمغول والأتراك والإنكليز، والآن الأميركيون. أعادت السفارة الأميركية فتح أبوابها البارحة، عندها علم العراقيون أنّ عليهم أن يكونوا أصدقاء مطيعين الآن، وسيحضر الرئيس بوش إلى هنا، وسيكون لأميركا أصدقاء جُدد لكي يبدأوا علاقة جديدة مع العالم، وثروات جديدة للذين حرّروهم، وأيضاً، وبلا شكّ، علاقات مع إسرائيل وسفارة إسرائيلية في بغداد.

لكنّ كسب الحرب شيىء، والنجاح في المشروع العقائدي والاقتصادي الذي يقف وراءها بشكل عام شيىء آخر. إن القصّة الحقيقية لسيطرة أميركا على العالم العربي قد بدأت الآن».

وإذا كان يوم ٩ نيسان/أبريل يوم التحرير، فإن يوم ١٠ نيسان/أبريل هو يوم النهب. اقتحم اللصوص السفارة الألمانية وألقوا مكتب السفير في الباحة، وقمتُ بإنقاذ علم الاتحاد الأوروبي ـ الملقى في بُقعة ماء خارج قسم التأشيرات ـ كانوا يشبهون رعاع القرون الوسطى... دخلت نساء يرتدين الشادور وأطفال يصرخون إلى مكتب القنصل وألقوا تسجيلات موزار وكتب التاريخ الألماني من نافذة في الطابق العلويّ. وقد حصل اقتحام للسفارة السلوفاكية بعد ساعات قليلة. واقتحم جيش من اللصوص مقرّ بعثة اليونيسيف التي كانت تحاول إنقاذ أرواح ملايين الأطفال العراقيين منذ الثمانينيّات، وعمدوا إلى إلقاء آلات تصوير جديدة بعضها فوق بعض على السلالم، ورموا ملفّات الأمم المتحدة المتعلّقة بأمراض الأطفال وجداول الوفيات والمواليد والتغذية على الأرض.

ربّما ظنّ الأميركيون أنهم حرّروا بغداد بعد أكبر عملية تصوير مدبّرة منذ أيوجيما، لكنّ عشرات الألوف من اللصوص ـ جاءوا في عائلات وجالوا في المدينة بشاحنات وسيّارات يبحثون عن غنائم ـ كانت لديهم فكرة مغايرة حول معنى التحرير. وقد شكّل ذلك أيضاً خرقاً خطيراً لمعاهدة جنيف. كانت سلطة الاحتلال الأميركي مسؤولة عن حماية السفارات ومكاتب الأمم المتحدة في مناطق سيطرتها، لكنّ قوّاتها مرّت أمام السفارة الألمانية بينما كان اللصوص ينقلون الطاولات والكراسي خارج المدخل الرئيسي.

كان ما يحدث فضيحة، نوعاً من المرض، من هَوس السرقة الجماعي، وقد تجاهلته القوّات الأميركية. شاهدت عند تقاطع في المدينة قنّاصة البحريّة الأميركية على سطوح الأبنية العالية، يراقبون الطرق تحسّباً لمجيء انتحاريين.. بينما كان يتزايد عدد اللصوص ـ اثنان منهم كانا يقودان حافلتيْن مزدوجتي الطابق مسروقتين مليئتين بالثلّاجات ـ الذين ازدحم بهم الطريق السريع تحت أنظار الأميركيين. أبطأت سيّارة قربي أمام مكاتب الأمم المتحدة وفي داخلها رجل ملتحٍ وتَعب أبلغني بالعربية أن لا حاجة إلى زيارة «لأنهم نهبوا كل شيء».

من المفهوم أن يكون الفقراء والمضطهَدون قد انتقموا من بيوت رجال صدّام الذين أفقروهم ودمّروا حياتهم لأكثر من عقدين. رأيت عائلات تبحث على ضفاف نهر دجلة عن منزل إبراهيم حسن الأخ غير الشقيق لصدّام، ووزير داخلية سابق، ومنزل وزير الدفاع السابق سعدون شاكر أحد أقرب مستشاري صدّام الأمنيين، وعلي حسين المجيد ـ علي الكيماوي ـ وعبد حمود السكرتير الخاصّ لصدّام. وقد جاءوا بالشاحنات والحاويات المقطورة والباصات وعربات تجرّها حمير لإفراغ محتويات هذه الفيللات الفخمة.

وقد أظهر ذلك النهب كم كان ذوق الأعضاء الكبار لحزب البعث رديئاً في اختيار الأثاث: مقاعد رخيصة أرجوانية وكراسيّ مطرّزة غالية، وأباريق من البلاستيك للماء، وسجّاد إيراني ثمين وزنه ثقيل وتحتاج السجّادة منه إلى ثلاثة أشخاص أقوياء لحملها، ومصابيح معلّقة في أشجار النخيل، وطاولات خشبيّة

مرصّعة، وخزائن كبيرة وبرّادات أميركية ضخمة، وبرّادات صغيرة تحتوي على مشروبات روحيّة لأزلام صدّام. وخارج منزل وزير داخلية سابق، وقف رجل ضخم على رأسه قبّعة مسروقة، كأنه شخصية من روايات ديكنز، يقوم بتوجيه جموع اللصوص إلى الخارج.

مرّت بي حافلات المدينة يقودها شبّان ماكرون، بينما كانت تتراجع الشاحنات حتى نوافذ غرف الجلوس لنقل الأثاث مباشرة من الغُرف. وقاد لصّ شاحنة محمّلة بأشياء مسروقة بسرعة على جسر صدّام فوق نهر دجلة ممّا أدّى إلى اصطدامه بحاجز إسمنتي وبقي ميتاً على المقود. لكن ظهر أن هناك قانوناً يحكم عمل اللصوص. فبمجرّد أن يضع لصّ ما يده على كرسيّ أو شمعدان أو باب، صار له. لم أشهد جدالاً أو عراكاً بالأيدي. عمل عشرات اللصوص في السفارة الألمانية بصمت، يساندهم جيش من الأطفال. كانت الزوجات تختار الأثاث الذي يُردنه وينقله الأزواج على السلالم بينما يقوم الأطفال بفكّ الأبواب. وفي مكاتب الأمم المتحدة قاموا بانتزاع مصابيح الضوء من السقوف.

على الجانب الآخر لجسر صدّام، كان يمكن رؤية مشهد آخر غير طبيعي، شاحنة محمّلة بالكراسي مع كلبيْ صيد قُصيّ ابن صدّام مربوطين بحبال بيضاء يقفزان إلى جانب الشاحنة. وألقيت نظرة في المدينة على أربعة من جياد صدّام بينها الحصان الأبيض الذي استخدمه صدّام في صوره، محمولة في مقطورة. وأُفرغت كلّ وزارة رسمية في المدينة من ملفّاتها، وأجهزة الكمبيوتر، ودفاتر المعاملات، والأثاث والسيّارات. وأمام ذلك كلّه، أظهر الأميركيون تجاهلاً تامّاً.. وهم أعلنوا بالفعل وبشكل محدّد أن لا نيّة لديهم في منع تحرير هذه الممتلكات. يمكن للمرء أن يكون مبدئياً حيال أزلام صدّام الفاسدين، لكن كيف ستعمل حكومة أميركا المسمّاة «العراق الجديد» الآن وقد نُهبت ممتلكات الدولة بشكل كامل؟.

ماذا يفعل المرء أمام ذلك المشهد على طريق الحِلّة حيث وجدت صاحب مخزن حبوب ومصنع يأمر حرّاسه المسلّحين بإطلاق النار على اللصوص الذين حاولوا سرقة شاحناته.. هذه المحاولة اليائسة المسلّحة للحفاظ على إمدادات

الخبز لبغداد، راقبها عن بُعد مئة متر ثمانية جنود أميركيين من كتيبة المشاة الثالثة كانوا جالسين على دبّاباتهم دون أن يقوموا بأيّة مبادرة. ونُهبت مكاتب الأمم المتحدة في وسط المدينة على بُعد مئتي متر من مركز تفتيش للبحرية الأميركية.

وسرعان ما بدأ جيش التحرير الأميركي يظهر في مظهر جيش احتلال. أمس راقبت مئات من المدنيين العراقيين يقفون بالصفّ لعبور جسر الدورة حيث يقوم الجنود الأميركيون بتفتيشهم طالبين منهم خلع قمصانهم وإنزال سراويلهم ـ أمام المدنيين الآخرين رجالاً ونساء ـ لإثبات أنهم ليسوا انتحاريين. وبعد معركة مسلّحة في منطقة الأعظمية عند الصباح، أصاب قنّاص أميركي موجود عند مدخل القصر ثلاثة مدنيين بينهم طفلة صغيرة، كانوا في سيّارة فشل صاحبها في التوقّف.. ثم أطلق القنّاص النار وقتل رجلاً خرج إلى شُرفة منزله محاولاً اكتشاف مصدر النار. وخلال دقائق قتل القنّاص سائق سيّارة أخرى وجرح راكبين آخرين بمن فيهم امرأة شابّة... وقد شهد فريق من القناة التلفزيونية الرابعة عملية القتل. وفي ضاحية الدورة، ما زالت جثث مدنيين عراقيين ـ قُتل العديد منهم على أيدي القوّات الأميركية أثناء تبادل إطلاق نار مع القوّات العراقية خلال الأسبوع ـ موجودة في سيّاراتهم. وكان هذا هو اليوم الثاني لتحرير بغداد. وهكذا ذهبت إلى الدورة. لقد حصل شيء رهيب ـ كم مرّة كتبت هذه الكلمات ـ على الخطّ السريع الثامن في الساعات الأخيرة لتحرير بغداد. قال البعض إن مئة مدنيّ قُتلوا، ويعتقد آخرون أن بين أربعين وخمسين رجلاً وامرأة وطفلاً مزّقتهم نيران دبّابة أميركية عندما تعرّضت دورية من الكتيبة الثالثة الأميركية قوّة التدخّل ٣١٥، لكمين من الحرس الجمهوري العراقي. ولا تزال عدّة جثث محترقة داخل السيّارات المتفحّمة، وجثّة امرأة شابّة محترقة عارية على المقعد الخلفي في سيّارة عند جسر الحلّة، وجثّة رجل متدلّية من نافذة السائق. وجرت تغطية مجموعة من جُثث المدنيين بما في ذلك جثة طفل على بعد بضعة أمتار. وكانت هناك سيّارة حمراء أصابتها قذيفة دبّابة في وسطتها مقلوبة على جانبها مع النصف الأسفل من قدم إنسان وحذائه الأسود قرب الإطار الأمامي.

لا أحد يجادل في أنّ القوّات الأميركية تعرّضت لكمين في هذا المكان ـ وأن المعركة استمرّت ٣٦ ساعة. لقد وجدت على الجِسْر جثّة جندي من الحرس الجمهوري بلباسه العسكري ودمه يتدفق بغزارة وهو مصاب في رأسه. وكانت على بُعد مئة متر سيّارة تحتها رجل مسنّ ميت. ورأيت شاحنتيْ نفط ـ إحداهما ما زالت مشتعلة ـ في الحقل. وكان باص ركّاب يحترق قرب الخطّ الرئيسي بينما كان مئات من العراقيين يشاهدون الجثث مرعوبين، ومعظمهم يضعون محارم على أفواههم ويعملون على إبعاد الذباب المتنقّل بين الأحياء والأموات.

روى لي النقيب دان هوبار قائد كتيبة برافو، ٣١٥ الذي كانت دبّاباته العشر وناقلات الجند المصفّحة الأربع من نوع برادلي تُشرف على الجسر العلوي، كيف تعرّض رجاله للنيران بواسطة القذائف الصاروخية ورشاشات A47 الساعة السابعة صباحاً من يوم ٦ نيسان/أبريل بينما كانت السيّارات المدنية تسير على الطريق. قال: «نحن هنا لنقاتل النظام العراقي وليس المدنيين. كانت هناك سيّارات على الطريق عندما تعرّضنا لكمين وقمنا بإطلاق النار تحذيراً فوق رؤوسهم ليتوقّفوا. وعاد ٩٠ في المئة من السيّارات بعد طلقات التحذير». هنا توقّف النقيب لحظة عن الكلام ثم قال: «تخطر عدّة أشياء على بال الناس في هذه اللحظات، فقد قام العديد من السائقين بزيادة السرعة وكان عليّ حماية رجالي، وحاولنا قدر الإمكان تقليص عدد القتلى والجرحى بين المدنيين... كان عليّ حماية جنودي كوننا نجهل أيّ سيارة محمّلة بالمتفجّرات أو قذائف «أر بي جي» الصاروخية. سوف نقوم بإزاحة السيّارات المدمّرة وسنهتمّ بالجثث».

كان النقيب هابور رجلاً ذكياً، من تنيسي، عمره ٣٤ سنة، وقد سمّى دبّابته «روندا دنيز» باسم زوجته «أشرس امرأة التقيتها في حياتي»... أمّا ما يمكن أن تفعله لو رأت تلك الفظاعة المدنية على الطريق السريع الثامن فلا يحتمل التفكير فيه.... تعرّضت دبّابة هوبار أبرامز M1A1 لخمس قذائف «أر بي جي»، إحداها أصابت المحرّك، وقد أطلقت دبّابته النار على درّاجة نارية تقلّ جنديين عند الغسق في أول يوم قتال». عند الصباح ذهب للنظر إلى الجثث: «كان هناك الحارس الجمهوري المصاب برأسه وبطنه وزميله المصاب إصابة متوسطة

والذي بقي على قيد الحياة طيلة الليل على الجسر، وقد أحضرته إلى دبّابتي ووضعته فوقها وقدّمت له علاجاً طبيّاً. ثم أرسلناه إلى الجهاز الطبّي وقد نجا». وبشكل واضح فإن الحرس الجمهوري هو المسؤول عن هذه المجزرة بما أنه بدأ الهجوم رغم معرفته بإمكانية وجود مدنيين على الجسر.

على سبيل المثال، وجدت عند مقدّمة الباص المتفحّم بقايا رشّاش كلاشينكوف، لكنّ مخزن الذخيرة التابع له كان سليماً. وكانت هناك معاطف واقية من المطر تحت الجسر وحُطام شاحنة عسكرية. وبشكل عام، أدّت المعركة إلى مقتل جنديين أميركيين وإصابة ثلاثين آخرين.

تدخّلت القوّات الخاصّة العراقية في المعركة ودمّرت ستّ سيّارات عسكرية أميركية من ضمنها دبّابتان. وقال النقيب هوبار إنه تعرّض لإطلاق النار من بعض المنازل المدنية على جانب الطريق، وقام بإطلاق قذيفة دبّابة على سطح أحد المنازل وكان تأثيرها جلياً. وقد حضرت عدّة عائلات للبحث عن أقاربها القتلى وقامت بدفنهم. لكنني أحصيت ستّ عشرة جثّة مدنية على الأقلّ وبقايا جثث ما زالت على الطريق والعديد منها لنساء. وبالطبع أثار هذا القتل الميداني سؤالاً مألوفاً. لقد أطلق الأميركيون قذائف دبّاباتهم على السيّارات المدنية وما زالت جثث هؤلاء متفحّمة وملقاة على جانب الطريق إضافة إلى الجندي القتيل ولم يقم أحد بدفنها حتى الآن. وبالطبع حاول الأميركيون تجنّب قتل المدنيين، لكن كان من الممكن بقاؤهم على قيد الحياة لو لم يأمر بوش جيشه بغزو بلادهم(*).

(*) تمّ ذكر هذا الحادث المؤلم في كتاب دايفيد زوكينو «الرعد المدوّي: ثلاثة أيام في معركة بغداد» (منشورات أتلانتيك ـ لندن ٢٠٠٤) والذي يصف مسير فرقة المشاة الثالثة الأميركية من جنوب العراق حتى بغداد خلال الغزو. في روايته حول عمليات القتل على هذه الطريق (ص ٢٣١ ـ ٢٤٦) واجه هوبار وزملاؤه «سيّارات انتحارية» على الطريق الثامن السريع «لم تخضع لأمر التوقف وظلّت مسرعة شمالاً». يقول الكتاب «ولم يستطع هوبار أن يفهم تتابع المحاولات الانتحارية ـ وقد انتهت كل واحدة منها ملتهبة ومدمّرة واحدة تلو الأخرى بعدما أطلقت عليها قذائف شديدة الانفجار». ونقل زوكينو عن جندي احتياطي قال بتذمّر: «اللعنة. نحن نقتل العديد من المدنيين هنا».. وقال آخر إنه «رأى إحدى السيّارات تتحطّم... ورأى=

لن يحصل تحقيق. لن يكون هناك أيّ تحقيق حول أيّ من الأحداث المؤسفة التي حصلت خلال ملحمة «ذهب مع الريح» من النهب والفوضى، التي اختارها الشعب العراقي للاحتفال بهديّتنا لهم في «التحرير والديمقراطية». لقد بدأ الأمر في البصرة مع ردّنا نحن البريطانيين المهين على حفلة النهب التي اجتاحت المدينة. وقد أدلى وزير الدفاع البريطاني جيوفري هوون ببعض الملاحظات التافهة حول الوضع المخزي للأمور موحياً في مجلس العموم أن الشعب في البصرة كان يحرّر ممتلكاته من حزب البعث. وأيّد الجيش البريطاني بحماس هذا العمل القذر. وقد تمّ نشر شريط نهب البصرة في أنحاء العالم، وأبلغ العقيد هوغ بلاكمان من حرس التنّين الملكي الأسكتلندي محطة البي بي سي أنه «ليس من اختصاصه إطلاقا مواجهتهم». لكن من المؤكّد أن ذلك كان من مهامّه. ويستحق النهب أن يوضع له بند خاصّ في اتفاقيات جنيف، تماماً كما حصل عام ١٩٠٧ في معاهدة لاهاي التي ارتكز عليها المندوبون في جنيف لوضع «قوانين الحرب». وتنصّ اتفاقيات جنيف لعام ١٩٤٩: «أن النهب ممنوع»... وقد اطّلع العقيد بلاكمان والسيد هوون على كتاب «جرائم الحرب» المطبوع عام ٢٠٠٢ بالتعاون مع القسم الإعلامي في جامعة مدينة لندن، لكي يفهما معناه.

= سيّارة تتفجّر وأشخاصاً يتفجّرون أيضاً». وبعد ساعات قليلة، بحسب قول زوكينو، جاءت سيّارات انتحارية من الغرب والشرق، حوالي عشرين منها عند الظهر». حتى الآن، لا يشير الكتاب إلى العدد الكبير من المدنيين القتلى بنيران الدبّابات وقد شاهدت العديد منهم شخصياً. إذا كان عدد الانتحاريين الذين أُرسلوا ضدّ القوّات الأميركية على الخط السريع الثامن بهذا الحجم الكبير، فهذه نقطة تحوّل رئيسية في الحرب ومدخل للثورة القادمة. لكنّ دليلي بصفتي شاهد عيان لما حصل يوحي أنه لمّا كان هناك هجوم عسكري واضح، فإن معظم القتلى كانوا من المدنيين، وقد خشي الأميركيون من وجود انتحاريين ممّا دفعهم إلى إطلاق النار على أيّ سيّارة لا تُفسح الطريق. وكما أخبرني هوبار، فقد قاد العديد من السائقين بسرعة «وكان عليّ حماية جنودي». لقد أعطى كتاب زوكينو رواية مقنعة وعادلة حول الإرباك العسكري الذي رافق قتل الصحفيين في فندق فلسطين (٢٩٦ ـ ٣٠٧) مع أنه كرّر الكذبة التي تتحدّث عن مسلّحين يطلقون النار من المبنى. من المفيد الإضافة أنه لو كان صحيحاً ما قاله زوكينو في كتابه من أن الكتيبة الثالثة للمشاة خاضت «إحدى أقسى وأهمّ المعارك في تاريخها القتالي» في بغداد، فإن هذا يعني أن ادّعاء القوّات الأميركية تخلّي القوّات العراقية عن القتال وفرارها من العاصمة كان غير صحيح.

فعندما تسيطر قوّة احتلال على أراضي بلد آخر، تصبح مسؤولة حُكماً عن حماية المدنيين وممتلكاتهم ومؤسّساتهم. وهكذا فإن القوّات الأميركية في الناصرية أصبحت مسؤولة عملياً عن السائق الذي قُتل في سيّارته يوم تحرير المدينة. وكان الأميركيون في بغداد مسؤولين عن السفارتين الألمانية والسلوفاكية اللتين نُهبتا من قِبل مئات العراقين وعن المركز الثقافي الفرنسي الذي تعرّض لهجوم، وعن البنك المركزي العراقي الذي تمّ إحراقه يوم ١١ نيسان/ أبريل والذي مهما كان فاسداً ومُفسداً من قِبل النظام السابق (الجدير بالذكر هنا أن الدول العربية تميل إلى وضع أقذر المخلوقات في مركز حاكم البنك المركزي) إلا أنه كان يُعتبر القوة المالية الرئيسية في العراق... وسيبقى عنواناً للعراق الجديد كما كان للعراق القديم.

تجاهل الإنكليز والأميركيون هذا المفهوم رغم ارتكازه على المعاهدات والقانون الدولي. وحتى الآن، فإننا نحن الصحفيين قد سمحنا لهم القيام بذلك. صفّقنا مثل الأطفال عندما قدّم الأميركيون مساعدة لإنزال تمثال صدّام حسين أمام عدسات الكاميرات، وتابعنا الحديث عن تحرير بغداد كما لو أن غالبية السكّان قدّموا الورود للجنود في حين أنهم كانوا يقفون بغضب عند نقاط التفتيش وهم يراقبون نهب عاصمتهم. ساهمنا نحن الصحفيين أيضاً في سقوط أكبر للمبادئ في هذه الحرب. خُذ على سبيل المثال القصف القاسي لمنطقة المنصور المدنية في محاولة لقتل صدّام. فقد زعمت القوّات الأنغلو ـ أميركية أنها تعتقد بوجود صدّام وولديه الشرّيرين قُصَي وعُدَي هناك. لذلك قامت بقصف المدنيين في حيّ المنصور وقتلت على الأقلّ ١٤ مدنياً شريفاً بريئاً كان معظمهم من المسيحيين، ولعلّ في هذا ما يحرّك مشاعر بوش وبلير الدينية. والحال أننا ربّما توقّعنا أن تقوم إذاعة البي بي سي العالمية صباح اليوم التالي بالتساؤل عمّا إذا كان قصف المدنيين يشكّل عملاً غير أخلاقي، وربّما جريمة حرب، مهما كانت قوّة رغبتنا في قتل صدّام. إنَس ذلك. لقد وصف المذيع في لندن قتل هؤلاء المدنيين الأبرياء بالتوجّه الجديد في الحرب لاستهداف صدّام ـ كما لو أنه كان من الطبيعي قتل المدنيين عن سابق تصوّر وبدم بارد، بُغية

التوصّل إلى قتل الطاغية الكريه.. أما مراسل البي بي سي في قطر، حيث كان رجال Centcom يتباهون بغرور بحيازتهم لمعلومات استخبارية دقيقة تُفيد أن صدّام كان هناك، فقد استخدم كلّ المصطلحات العسكرية المعتادة لتبرير ما لا يمكن تبريره. وقد أعلن أن «التحالف كانت لديه معلومات دقيقة تستدعي سرعة العمل».. أي أنه لن يكون لديهم الوقت لمعرفة ما إذا كانوا يقتلون الأبرياء في حُمّى تفتيشهم أم لا... وأن هذه المادّة المعلوماتية العملية (وهنا أنقل مجدّداً ما أورده تقرير البي بي سي المثير للاشمئزاز) لم تكن خالية من المجازفة.. ثم تابع هذا المراسل، دون أن يفكّر للحظة في النواحي الأخلاقية، يصف كيف استخدم الأميركيون القنابل الخارقة (٢٠٠٠ ليبرة) لتدمير بيوت المدنيين. وكانت هذه هي قِطع العتاد الحربي نفسه الذي استخدمه سلاح الجوّ الأميركي في جهده الدؤوب لقتل أسامة بن لادن في جبال طورا بورا عام ٢٠٠١. لذلك نحن نقوم باستخدامها الآن عن معرفة ضدّ بيوت المدنيين الفقراء في بغداد ـ وهم شعب لن يكونوا لولا ذلك جديرين بالتحرّر الذي سنُنعم به عليهم ـ على أمل أن بعض «المقامرة»، وقليلاً من «المعلومات الاستخبارية» حول صدّام، ستعطي نتيجة(*).

في اتفاقيات جنيف بنود كثيرة حول ذلك. وقد أشارت الاتفاقيات تحديداً إلى المدنيين باعتبارهم أشخاصاً محميّين ينبغي تأمين حمايتهم من قِبل القوّة المحاربة حتى ولو وجدوا أنفسهم في وسط متنازعين مسلّحين. هذه الحماية نفسها طُلبت للمدنيين اللبنانيين الجنوبيين عندما قامت إسرائيل بشنّ عملية «عناقيد الغضب» عام ١٩٩٦. فعلى سبيل المثال أطلق الطيّار الإسرائيلي صاروخ هلفاير الأميركي الصنع على سيّارة إسعاف المنصوري في جنوب لبنان، ممّا أدّى إلى مقتل ثلاثة أطفال وامرأتين، وزعم الاسرائيليون أن مقاتلاً من حزب

(*) في تقرير حول التقدير العسكري «لدروس حرب العراق» ظهر في النيويورك تايمز يوم ٢٠ تموز/يوليو ٢٠٠٣، ورد أن موافقة دونالد رامسفيلد كانت مطلوبة عندما تكون هناك ضربة جوّية يمكن أن تؤدّي إلى مقتل أكثر من ٣٠ مدنياً.. لقد تمّ اقتراح أكثر من ٥٠ ضربة جوّية من هذا النوع.. وتمّت الموافقة عليها.. لذا لم يكن لدى عائلات المنصور أيّة فرصة للنجاة...

الله كان في السيّارة. لكنّ التقرير أظهر أن ذلك كذب. وقد تمّت إدانة إسرائيل بحقّ لقتلها مدنيين معتقدة أنها كانت تقتل محارباً معادياً. والآن نحن نفعل تماماً الشيىء نفسه. إذاً، لن نسمع بعد الآن مثل ذلك الانتقاد الغربي المتردّد والضعيف تجاه إسرائيل بعد القنابل الملقاة على حيّ المنصور.

كنّا نقوم بارتكاب هذه الجرائم أكثر فأكثر. فقد جرى القتل الجماعي لأكثر من ٤٠٠ مدني في الغارة الجوّية على العامرية داخل ملجأ في بغداد أثناء حرب الخليج عام ١٩٩١ على أمل قتل صدّام. وفي قصف عام ١٩٩٩ لصربيا، قمنا بقصف المناطق المدنية مجدّداً بعدما علمنا أن الجيش اليوغوسلافي ترك تحصيناته ـ وفي إحدى الحوادث الأكثر وحشية لإنهاء الحرب، قصفت طائرة أميركية جسراً صغيراً على النهر.

ادّعى حلف الناتو أنه كان بإمكان الدبّابات المرور على هذا الجسر مع أنه لم تكن هناك أيّ دبّابة في ذلك الوقت. كان الجسر أضيق من أن تمرّ عليه دبّابة. لكن طيّاراً آخر عاد لقصف الجسر بينما كان المسعفون ينقذون الجرحى. وكان من ضمن ضحايا القنبلة الثانية طلّاب مدارس. ومجدّداً تناسينا الحديث عن ذلك في غمرة أفراح كسب الحرب.

لماذا، لماذا لا نلتزم بقوانين الحرب التي نطالب الآخرين بالالتزام بها؟ لماذا نقوم نحن الصحفيين ـ حرباً تلو حرب ـ بالتآمر بهذا الفجور ونحوّل عملاً قاسياً وشرّيراً وغير قانوني إلى «توجّه جديد» أو مادّة حسّاسة؟ توجد في الحروب عادة تحويل الرجال الأصحّاء إلى هتّافين وتحويل الصحفيين المنطقيين إلى كولونيلات مزعجين. لكن بالطبع علينا جميعاً أن نحمل اتفاقيات جنيف معنا إلى الحرب إضافة إلى كتب التاريخ. والحال أن المستفيدين الوحيدين من جرائم حربنا سيكونون من الجيل الجديد لصدّام حسين. أليس هذا ما سيقوم به الثوّار بعد أسابيع وأشهر على الاحتلال؟

لكن كان بإمكاننا دائماً العودة إلى ذلك الجدال الذي سيصبح شرطاً ضرورياً في الأشهر والسنوات القادمة، والاستشهاد الأكثر استخداماً، والجملة

الأسهل في الكتاب، والمخرج الأخير للورطة في العراق: كان صدّام أسوأ. لم نكن سيّئين بقدر صدّام. لم نقتل أو نعذّب في سجن أبو غريب (ستسقط هذه الصفات لاحقاً لأسباب معروفة) لأننا متحضّرون، محرّرون، ديمقراطيون نؤمن بالحرّية. كنّا الرجال الصالحين. لذلك قمت خلال الساعات التي تلت تحرير بغداد بجولة في قلب الظلام. وتقدّمت بمشقّة بين صناديق ذخيرة معركة جسر الجمهورية التي تنتشر مع أوراق الشتاء على الخط السريع ـ كانت الدبّابة التي قتلت زميليّ ما تزال هناك ومدافعها منخفضة ـ وسرت عبر الباب الكبير لقصر صدّام حسين، وكان في الداخل قُدس الأقداس، قوس الميثاق البعثي لصدّام، عرشه. كان المقعد مغطّى بقماش أزرق وكان ناعماً مريحاً مع مرفقَين من الذهب لإراحة يديه ـ لأنّ صدّام كان معجباً بيديه ـ ولا يوجد باب خلفه يُتاح للقتلة الدخول منه. ليس هناك موطئ قدم، لكنّ المقاعد والكراسي في أنحاء قاعة الاجتماعات الضخمة الداخلية لقصر صدّام وضِعت بطريقة تُبقي كلّ المسؤولين على مستوى أدنى من كرسيّ الخليفة نفسه.

هل جلستُ على عرش صدّام؟ بالتأكيد قمتُ بذلك... هناك شيء مظلم في نفوسنا يتطلّب فهم الشرّ أكثر من الخير، لأننا بحسب اعتقادي مفتونون بالقسوة والقوّة أكثر من افتتاننا بالملائكة. وهكذا جلست على العرش الأزرق ووضعت يديّ على المرفقيْن الذهبيّين، وتفحّصت الغرفة اللامعة كالذهب حيث كان يجلس رجال السلطة الأقوياء مرعوبين من الرجل الذي كان يجلس مكاني.

كتب أودين (شاعر بريطاني ـ ١٩٠٧ ـ ١٩٧٣) عن الدكتاتور ـ الاسم: «كان يعرف الجنون الإنساني مثل راحتيْ يديه»... آه، نعم.. اليدان. . . . كانت خلف العرش قطعة قماش كبيرة عليها رسم للمسجد الأقصى في القدس ـ من دون المستوطنات اليهودية ـ وهكذا فإن أقدس ثالث مدينة في الإسلام تتدلّى صورتها فوق رأس أقوى المحاربين العراقيين. ومقابل كرسيّ صدّام، كان هناك عمل مختلف للفنّ البعثي. تظهر مجموعة من الصواريخ الفخمة وفي مؤخّرتها ألسنة لهب بيضاء متّجهة نحو الفضاء المليء بالسحب المشؤومة، وكل صاروخ ملفوف بعلم العراق الذي تتوسّطه كلمتا «اللّه أكبر».

كان المقدّس وغير المقدّس يتواجهان في المبنى المركزي للسلطة البعثية. وكانت وحدة المشاة الأميركية الثالثة المتمركزة في الردهات الرخامية وفي غرف نوم الخدم تبحث جاهدة عن أنفاق تحت الأرض يُفترض أنها تربط المبنى بوزارة الدفاع المدمّرة. وأصبح وضع اللصوص يائساً رغم أن بعضهم كانوا يقومون بسرقة أجهزة التلفزيون والكمبيوتر في الفيلّات الصغيرة على أرض القصر، لأنه حسبما قيل، سيكون هنا حتماً المقرّ الاستشاري للجنرال تومي فرانكس إذا استطاع الأميركيون تشكيل حكومة عراقية متعاونة. أي أن إدارة جديدة معيّنة من قِبل الأميركيين قد تقود البلاد من هذا المبنى السومري خلال أشهر قليلة.

وجدوا مسبح صدّام سليماً محاطاً بأشجار نخيل كبيرة وحدائق ورد. . . يدفعك ذلك إلى التساؤل كيف أن الرجال القساة كانوا محاطين دائماً بالجمال... رائحة الأزهار فاحت وانتشرت في مختلف أنحاء القصر والممرّات السفليّة. وكانت هناك أزهار حمراء وأرجوانية وبيضاء تغطيها الفراشات والماء ونباتات عود الصليب، علماً بأن كتيبة المشاة لم تعثر على مضخّات المياه المتدفّقة من الحنفيات إلى أحواض الزهور حتى الآن. كانت هناك أيضاً حديقة حيوانات صغيرة يعيش فيها دبّ مسنّ أسود كان الأميركيون يقومون بإطعامه خروفاً كل يوم. وفي الحمّام الملحق بمسبح صدّام مجموعات من الكتب تمّ توضيبها للنقل ـ شعر عراقي ومصنّفات في الفقه الإسلامي ـ بينما الآلات الرياضية منتشرة على الأرض لإبقاء صلاح الدين الثاني في حالة جسدية جيّدة. يصادف عيد ميلاده السادس والستون بعد أسبوع، وكانت الأحرف المكتوبة فوق الباب: «ص . ح».

يقطع المرء أميالاً من الردهات، بعد السير في شارع طوله ميلان حتى القصر، عبر حقول من الزهور والنخيل، وأكوام من الذخيرة المستخدمة ورائحة كريهة من شيء ميت تحت أحواض الزهور ـ ويُصدم بذلك المزيج الوسواسي للعظمة والتفاهة. وتثير الثريات البالغ طولها ١٥ قدماً الإعجاب لكنّ مقابض الأدوات الصحّية الذهبية والصلبة خلقت نوعاً من العدوان الثقافي. إذا كان

يفترض بالمرء أن ترهبه سلطة صدّام (كما أنّ هدف الكوليزيوم والأقواس الضخمة والشامخة هو التأثير على أهالي روما) فماذا يقول أمام السلالم الضيّقة المغطاة بالرخام غير المطلي أو جدران الرخام الضخمة لغرف الانتظار وسقوفها الذهبية، وهي جدران حملت قُصاصات لمقتطفات من خطب وأفكار «سيادة الرئيس صدّام حسين»؟

فاشيّ هي الكلمة التي تقفز إلى الذهن.. لكنّها الفاشية مع لمسة دون كورليون (زعيم مافيوي). في قاعة المؤتمر الكبيرة هذه سوف يجلس اللوردات المساعدون ـ الأسياد الكبار لحزب البعث، والقادة الأمنيون الذين يعتمد عليهم النظام ـ وهم يحاولون جاهدين البقاء يقظين بينما يشرح زعيمهم طيلة أربع ساعات وضعَ العالم وموقع العراق فيه. وبينما يتحدّث عن الصهيونية، كانوا يستطيعون النظر بإعجاب إلى المسجد الأقصى.. وعندما يغضب، يلقون نظرة على الصواريخ الموجّهة نحو السماء المشّعة فيما السحب تتدلّى خانقة أبواب الجنّة.

حتى كلماته حُفرت أيضاً على جدران القصر الخارجية حيث أربعة تماثيل لحمورابي طولها ٢٠ قدماً ينظر بعضها إلى بعض عبر الفناء. غير أنه كان لحمورابي شارب ـ وكان من السهل أن تلاحظ ذلك ـ يشبه شارب صدّام حسين. هل تستطيع حكومة العراق الجديد حقاً عقد اجتماعاتها هنا بينما هؤلاء الوحوش الأربعة ينظرون إلى سيّاراتهم المرسيدس؟ الجواب: كلّا. ولقد أزيلت التماثيل بواسطة رافعات بعد ستّة أشهر...

كلّ هذه الفخامة من مسكات الذهب إلى الرخام إلى الشمعدانات إلى طول الغرف وارتفاعها، كانت تحبس الأنفاس حقاً.. في بهو من القصر كانت قُبّة شبيهة بقبّة مدافن العظماء تغطي الجدران بالذهب... وعندما صرخت: «صدّام»، ظلّ الصدى «صدّام» يتردّد لأكثر من دقيقة.. وكنت على يقين من أن صدّام كان يفعل الشيء نفسه.. فإن كان باستطاعته أن يأمر البنّائين بحفر اسمه على الجدران، فممّا لا شكّ فيه أنه كان يحبّ أن يسمع اسمه يتردّد في أعالي قصره...

بعيداً في الأسفل كانت قاعة سينما صدّام الخاصّة بمقاعدها الجلدية الزرقاء وفيها شريطا أفلام ـ واحد بالفرنسية والآخر بالروسية ـ كانا ينتظران للعرض الأخير. في الخارج، خلف المروج الكبيرة والنوافير، كانت تقف دبّابات كتيبة المشاة الثالثة من نوع أبرامز تحمل أسماؤها تفاهة أمّة أخرى وقوّتها.. على أبراج الدبّابات وأبدانها كان يمكنني أن أقرأ كيف كتب الطاقم أسماء وحشه هذا: الكلب النووي، المُبيد، مُضرم النيران، الإنتراكس، أغاممنون. كان صدّام ليُحبّذ ذلك.

كانت بغداد تحترق. أحصيت ستّة عشر عموداً من الدخان ترتفع فوق المدينة بعد ظهر ١١ نيسان/أبريل. في البداية كانت وزارة التجارة. شاهدت اللصوص يصبّون النفط عبر النوافذ المحطّمة على الأرض فتندلع النار خلال ثوانٍ. ثم كانت هناك مجموعة من المكاتب في أسفل جسر الجمهورية تنبعث منها سحب سوداء، من دخان كبريتي. بعد الظهر، كنت أقف خارج البنك المركزي العراقي بينما كانت كل نافذة فيه تلتهب مثل الشمعة، وخطّ طوله ميل من الرماد والأوراق المحترقة يتدفّق على دجلة.

وعندما أصبحت الغنائم أقلّ، بدأ اللصوص يتعبون ـ (وتاريخ بغداد يؤكّد أن الفوضى تأخذ هذا الشكل). لقد احترقت رموز سلطة الحكومة كلّها. وتحدّث الأميركيون عن حقبة جديدة لكنهم لم يفعلوا شيئاً. دفعوا دوريّاتهم عبر شرق المدينة، دبّابات أبرامز Abrams وعربات برادلي وهومفي Bradley & Humvees المقاتلة، لكنّ الجنود لم يفعلوا شيئاً سوى التلويح لمرتكبي الحرائق. شاهدت امرأة تبكي قرب زوجها في السوق العربي القديم... وقد قالت لي: «نحن ندمّر ما لدينا، نحن ندمّر مستقبلنا».

انتشرت ألسنة اللهب، وبعد الظهر، كان فندق الصدر يحترق، وقد سرق جيش الأطفال الذي أُرسل إلى داخل المبنى الأغطية والفرش والأسرّة والطاولات، وحتى مكتب الاستقبال ومجموعة المفاتيح الكثيرة. ومن برج وزارة الصناعة، وهو كتلة إسمنتية من طِراز الرايخ الثالث، خرجت سحب من الدخان الأسود. وكانت الطرق الرئيسيّة مغطّاة بالأوراق، والأثاث الملقى جانباً،

والسيّارات المسروقة المحطّمة، ومحتويات المحلّات الصغيرة التي لم يُزعج أصحابها أنفسهم لشراء أبواب حصينة لها. وفي الختام، جرى نهب البنوك أيضاً. منذ انهيار الدينار العراقي ـ وصل إلى أكثر من ٤ آلاف دينار للدولار الواحد ـ لم يزعج أحد نفسه لشقّ طريقه إلى البنوك. لكن عند الصباح، شاهدت رعاعاً يقتحمون بنك الرافدين قرب محافظة بغداد ويخرجون خزنة حديد ضخمة من الباب ويفتحونها. ونظراً لقيمة الدينار، كان من الأجدى ترك المال بداخلها وسرقتها كلّها. لقد سرق رعاع العراق ودمّروا ما سمح لهم الأميركيون بنهبه وإحراقه.. لكنّ ساعتين من التجوال بالسيّارة في أنحاء بغداد أظهرتا بوضوح ماذا أرادت الولايات المتحدة حمايته، من أجل مصالحها الخاصّة على الأرجح. بعد أيام من عمليّات الإحراق والنهب قمت بجمع أوراق صغيرة ولكنها ذات دلالات فاضحة. تراجعت القوّات الأميركية وسمحت للرعاع باقتحام ومن ثم بإحراق وزارات التخطيط والتربية والريّ والتجارة والصناعة والخارجية والثقافة والإعلام. لم يفعلوا شيئاً لمنع اللصوص من نهب الثروات القيّمة لتاريخ العراق، من متحف الآثار في بغداد والمتحف الآخر شمالي مدينة الموصل، ومن نهب ثلاث مستشفيات.

غير أن الأميركيين وضعوا مئات الجنود داخل وزارتين ظلّتا سليمتين ـ ولم تُمسّا... وكانت الدبّابات وناقلات الجند المصفّحة وسيّارات هومفي تحاصر المؤسّستين. إذاً، أيُّ الوزارات ثبت أنها مهمّة جدّاً للأميركيين؟ ولماذا؟ وزارة الداخلية بالطبع ـ مع ثروة المعلومات الكبيرة حول العراق ـ ووزارة النفط. كانت سجلّات وملفّات أعظم ثروة عراقية (حقول النفط وما هو أكثر أهمّية: الاحتياطي الضخم، وربّما الأضخم في العالم) سليمة ومحصّنة ضدّ الرعاع واللصوص وآمنة لتقاسمها ـ كما تنوي واشنطن ـ مع شركات النفط الأميركية.

ألقى ذلك أضواء كاشفة حول الأهداف المفترضة لحرب أميركا. كانت متلهّفة لتحرير العراق، وسمحت لشعبه بتدمير البنية التحتية للحكومة وكذلك الخاصّة لأزلام صدّام. وقد أصرّت الإدارة الأميركية على أن وزارة النفط جزء حيوي من إرث العراق، وأن آبار النفط يجب أن تُحفظ للشعب العراقي. لكن

هل كانت وزارة التجارة ـ التي أُعيد إشعالها يوم ١٤ نيسان/أبريل بحريق مُدبّر ـ غير حيوية لمستقبل الشعب العراقي؟ أليست وزارتا التربية والريّ ـ ما زالتا تحترقان بشراسة ـ مهمّتيْن جدّاً للحكومة العراقية القادمة؟ كان بإمكان الأميركيين، كما نعرف الآن، تخصيص ألفيْ جندي لحماية حقول نفط كركوك التي تحتوي حتماً على أضخم احتياطي في العالم، لكن لم يكن باستطاعتهم وضع ٢٠٠ جندي لحماية متحف الموصل من الهجوم!.

لقد أكثر الأميركيّون من الحديث عن حقبة جديدة. وظهرت فجأة الدوريات المصفّحة ودوريات المشاة وهي تجوب شوارع الطبقة المتوسّطة في العاصمة، معطية أوامر للشباب الذين يحملون برّادات وأثاثاً وأجهزة تلفزيون بوضع المسروقات على الأرض في حال عدم استطاعتهم إثبات ملكيّتها. كان الأمر حقيراً. بعد سرقة مليارات الدولارات من المباني الحكومية المدمّرة، وتدمير أجهزة الكومبيوتر والسجلّات، أوقف الأميركيون الشبّان الذين كانوا يجرّون عربات محمّلة بكراسٍ مستعملة!. كان هناك غضب خاصّ الآن على الحشد الذي كان يتجمّع كلّ يوم بعد الظهر قُبالة المواقع الأميركية خارج فندق فلسطين. ويوم ١٢ نيسان/أبريل هتفوا «سلام ـ سلام ـ سلام ـ نريد حكومة عراقية جديدة لتحقيق الأمن». بعد يومين، صرخ بعضهم «بوش وصدّام عُملة واحدة».

لكن كان الآتي أسوأ ـ أسوأ بكثير. لم أتخيّل أبداً في كلّ أحلامي حول الدمار أن يأتي يوم أدخل فيه إلى المتحف الوطني للآثار لأجد ثرواته مبعثرة. كانت منتشرة على الأرض، عشرات الآلاف من القطع، من التحف القيّمة لتاريخ العراق. انتقل اللصوص من رفّ إلى رفّ، ينزلون التماثيل والأواني والجرار الأشورية والبابلية والسومرية والفارسية واليونانية ملقين بها على الأرض. داست قدماي على حُطام قاعدة إناء زهور عمرها خمسة آلاف سنة وأواني وحجارة تماثيل تتحدّث عن غزو العراق عبر التاريخ، دُمّرت كلّها عندما قام الأميركيون بتحرير المدينة. فعل العراقيون ذلك. فعلوا ذلك بتاريخهم مادياً مدمّرين الدليل على حضارة أمّتهم لآلاف السنين.

منذ انطلق الطالبان في حفلة تدمير تماثيل بوذا في باميان والتماثيل في متحف كابول ـ وربّما منذ الحرب العالمية الأولى أو قبلها ـ لم يحصل أن دُمّرت مثل تلك الثروات الأثرية بشكل منظّم كما حصل هنا. قال الرجل الذي يرتدي ملابس رمادية بينما كنّا نسلّط الأضواء على أكوام الأواني السومرية والتماثيل اليونانية المقطوعة الرؤوس والأيدي في مخزن المتحف الوطني العراقي للآثار: «نريد الجنود الأميركيين لحراسة ما بقي. نريد الأميركيين هنا. نريد رجال شرطة». لكنّ حارس المتحف، عبد الستّار عبد الجابر، شهد يوم ١٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٣ معركة بالأسلحة بين اللصوص والسكّان المحلّيين. وكان الرصاص يمرّ فوق رأسينا خارج المتحف ويغطّي جدران المباني المجاورة . قال: «أنظر إلى هذه» والتقط قطعة كبيرة من الفخّار، وصلت صفاتها الجمالية إلى نهاية مفاجئة بعدما انكسرت الجرّة ـ ربّما كان ارتفاعها قدميْن ـ إلى أربع قطع: «إنها أشورية». لقد حكم الأشوريون منذ ألفيْ سنة قبل المسيح.

ماذا يفعل الأميركيون كحكّام جُدد لبغداد؟ لماذا كانوا ذلك الصباح يعيدون استخدام رجال شرطة صدّام السابقين المكروهين لإعادة النظام والقانون لصالحهم. كان آخر جيش تصرّف على هذا النحو هو قوّات ماونتباتن في جنوب شرق آسيا، التي وظّفت الجيش الياباني المهزوم للسيطرة على شوارع المدن الفيتنامية ـ وحرابه مثبتة ـ بعد إعادة احتلال الهند الصينية عام ١٩٤٥. وقد وقف طابور من رجال الشرطة يرتدون اللباس العسكري خارج فندق فلسطين في بغداد بعدما سمعوا في الإذاعة نداء يدعوهم الى ممارسة وظيفتهم في الشوارع.

في نهاية النهار، جاء ثمانية من ضبّاط الشرطة الكبار الذين يرتدون ملابس خضراء، ملابس حزب البعث العراقي، لعرض خدماتهم على الأميركيين يرافقهم جنود من البحرية الأميركية.

لكن لم يكن هناك ما يدلّ على من منهم سوف يُرسل إلى متحف الآثار. كانت الكهرباء مقطوعة في بغداد ـ وليس هناك ماء أو قانون أو نظام ـ ولذلك تعثّرنا في ظلمة الطابق السفليّ للمتحف، وسرنا على التماثيل المكدّسة واصطدمنا بالثيران المحطّمة أجنحتها. وعندما وجّهت مصباحي نحو رفّ بعيد،

حبست أنفاسي. وجدت كلّ إناء أو جرّة ـ «٣٥٠٠ قبل المسيح» مكتوب على أحد الرفوف ـ وقد حُطّمت إلى قطع. لماذا؟.. كيف كان بإمكانهم أن يفعلوا ذلك؟ لماذا، عندما كانت المدينة تحترق، وعندما دبّت الفوضى ـ وبعد أقلّ من ثلاثة أشهر على اجتماع مسؤولي الآثار والبنتاغون الأميركيين لمناقشة ثروات البلاد ووضعهم متحف بغداد للآثار على قاعدة بيانات ـ سمح الأميركيون للرعاع بتدمير هذا القدر من الإرث القيّم لبلاد ما بين النهرين القديمة؟ وقد حصل كل ذلك بينما كان وزير الدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد يتهكّم على الصحافة لادّعائها أنّ الفوضى دبّت في بغداد. قال: هذه أمور تحصل. هل يمكن أن يكون هناك حقاً هذا العدد من الأواني في العراق؟».

طيلة ٢٠٠ عام، عمل علماء الآثار العراقيون والغربيون على جمع موجودات مركز الحضارة القديمة هذا من القصور والأبراج ومقابر عمرها ثلاثة آلاف سنة. والآن توجد عشرات الآلاف من بطاقات التعريف المكتوبة ممزّقة بين حُطام التماثيل. التقطت إحدى الأوراق وكان مكتوباً عليها: «أواخر القرن الثاني ـ رقم ١٦٨٠». للوصول إلى المخزن، حطّم الرعاع الأبواب الحديدية ودخلوا من الباحة الخلفية ونقلوا التماثيل الثقيلة والكنوز الموجودة قرب المحوّل إلى السيّارات والشاحنات.

غادر اللصوص قبل ساعات قليلة فقط من وصولي... وحتى حارس المتحف ذو اللباس الرمادي لم تكن لديه أدنى فكرة عمّا أخذوه من الأشياء. ثمّة صندوق زجاجي كان يضمّ في وقت ما حجراً عمره ٤٠ ألف سنة وقطعاً من الصوّان بات فارغاً الآن. ولا أحد يعرف ماذا حصل للصناديق الأشورية من القصر الملكي لخورساباد، ولا الأختام القديمة التي تعود إلى ١٥ ألف سنة، ولا الأقراط الذهبية القديمة التي عمرها ٤٥٠٠ سنة و كانت مدفونة مع الأميرات السومريات.

في مكتبة المتحف الواسعة، كتب قليلة معظمها من أعمال علماء الآثار في منتصف القرن التاسع عشر ـ ويبدو أن المكتبة سُرقت أو أُتلفت، إذ يعلّق اللصوص القليل من الأهمّية على الكتب. وقد وجدتُ مجموعة كاملة من

الصحيفة الجغرافية للأعوام ما بين ١٨٩٣ ـ ١٩٣٦ سليمة ـ وقربها كيس ورقي كتب عليه: «بغداد، مدينة السلام».... لكنّ ألوفاً من بطاقات التعريف رمِيت من صناديقها على السلالم والدرابزين.

لقد لعب علماء الآثار الإنكليز والفرنسيون والألمان دوراً رئيسياً في اكتشاف بعض أهمّ الكنوز العراقية القديمة... وكانت تلك المستشرقة البريطانية الدبلوماسية، مدبّرة المكائد والجاسوسة جيرترود بيل، «الملكة غير المتوّجة للعراق»، والتي يقع قبرها قرب المتحف مؤيّدة متحمّسة للعمل. وقد بنى الألمان المتحف الحالي الحديث قرب دجلة، وأعيد افتتاحه عام ٢٠٠٠ فقط للجمهور بعد تسع سنوات من الإقفال بعد حرب الخليج الأولى.

لكن حتى عندما حاصر الأميركيون بغداد، فقد أظهر جنود صدّام الاحتقار للكنوز مثل اللصوص. وكانت خنادقهم المهجورة ومواقع مدفعيّتهم الفارغة ظاهرة بوضوح في مروج المتحف، وقد حُفر موقع أحدها قرب تمثال حجري ضخم لثور مجنّح. وقبل أسابيع قليلة فقط أشار جابر خليل إبراهيم، المدير الرسمي للأثريات، إلى محتويات المتحف على أنها «إرث الأمّة».. وقال إنها «لم تكن مجرّد أشياء للمشاهدة والتمتّع، بل نستمدّ منها القوة للتطلّع إلى المستقبل. إنها تمثّل مجد العراق». اختفى إبراهيم مؤقّتاً مثل العديد من موظّفي الدولة في بغداد. وكان عبد جابر وزملاؤه يحاولون الدفاع عمّا تبقّى من تاريخ البلاد بمجموعة من رشّاشات الكلاشينكوف. قال: «لم نكن نرغب في امتلاك أسلحة ـ لكن على الجميع امتلاكها الآن. كان علينا الدفاع عن أنفسنا لأن الأميركيين سمحوا بذلك. لقد صنعوا حرباً ضدّ رجل واحد ـ إذن لماذا تخلّوا عنّا من أجل هذه الحرب وهؤلاء المجرمين؟». بعد ساعة، اتصلت بوحدة الشؤون المدنية في البحرية الأميركية في شارع السعدون وأعطيتهم عنوان المتحف وحالة محتوياته . أبلغني نقيب «أنهم سيحضرون حتماً إلى هناك». لكن فات الأوان... أصبح تاريخ العراق نُفاية على أيدي اللصوص الذين أطلقهم الأميركيون خلال «تحريرهم».

لكنّ التحرير تحوّل إلى احتلال. وفي مواجهة حشد من العراقيين الغاضبين في ساحة الفردوس يطالبون بحكومة عراقية جديدة «لحمايتهم وأمنهم والسلام»، وقف رجال البحرية الأميركية الذين كان عليهم تأمين الحماية جنباً إلى جنب وأسلحتهم جاهزة.

إن الحقيقة التي فشل الأميركيون ـ وبالطبع رامسفيلد ـ في فهمها هي أنه تحت حكم صدّام كان الفقراء المحرومون هم المسلمون الشيعة وكانت الطبقة المتوسّطة دائماً من السنّة ـ وكان صدّام نفسه سنّياً. إذاً، أصبح السنّة الآن يعانون الاضطهاد على أيدي الشيعة. لذلك كانت المعارك المسلّحة التي اندلعت بين أصحاب الأملاك واللصوص صراعاً بين المسلمين السنّة والشيعة. «من خلال فشلهم في إنهاء هذا العنف ـ من خلال تسعير الكراهية المذهبية بسبب كسلهم ـ يثيرالأميركيون الآن حرباً أهلية في بغداد».. بحسب ما كتبت تلك الليلة في الإندبندنت:

«تجوّلت في أنحاء المدينة لأكثر من ساعة. كانت المئات من الطرقات مغلقة بدشم وسيّارات محترقة وجذوع أشجار يحرسها رجال مسلّحون مستعدّون لقتل الغرباء الذين يهدّدون بيوتهم ومحلّاتهم... وقد غامر القليل من المارينز في التجوال في الضواحي أمس ـ متمركزين قرب المستشفيات التي نُهبت ـ لكنّ النيران ظلّت تلتهب في أنحاء المدينة عند الغسق لليوم الثالث على التوالي. وكان مبنى البلدية يحترق ليلة أمس، وفي الأفق حرائق أخرى كبيرة كانت ترسل أعمدة من الدخان لعدّة أميال في الجوّ. فات الأوان قليلاً. بالأمس، توجّهت مجموعة من المهندسين الكيميائيين وموظفي تنقية المياه إلى مقرّ قيادة المارينز طلباً للحماية حتى يعودوا إلى عملهم. وجاء موظّفو تأمين الكهرباء أيضاً. لكنّ بغداد أصبحت الآن مدينة في حالة حرب تحت رحمة المسلّحين واللصوص. وقد صرخت بي امرأة بالإنكليزية: «أنت أميركي! إرجع إلى بلادك، أخرج من هنا، غير مرغوب بك عندنا، كرهنا صدّام والآن نكره بوش لأنه يدمّر

مدينتنا». كانت رحمة لها أنها لم تستطع زيارة متحف الآثار لتشاهد بنفسها إرث الوطن ـ وإرث المدينة ـ وقد دُمّر».

وهكذا كان يوم ١٤ نيسان/أبريل، يوم إحراق الكتب.. أولاً جاء اللصوص، ثم جاء مضرمو النيران. كان الفصل الأخير في نهب بغداد. تحولت المكتبة الوطنية وسجلّاتها ـ كنز ثمين من المستندات العثمانية تتضمّن السجلّات الملكية للعراق ـ إلى رماد تحت درجة حرارة تبلغ ٣ آلاف. بعدها أُحرقت مكتبة القرآن في وزارة الأوقاف. شاهدت اللصوص، وقد شتمني أحدهم عندما حاولت أخذ كتاب عن الشريعة الإسلامية من صبيّ لا يتجاوز العاشرة من العمر. وبين رُكام مئات السنين من التاريخ العراقي، وجدت ملفّاً في العراء: صفحات وصفحات ورسائل مكتوبة باليد بين بلاط الشريف حسين في مكّة ـ الذي بدأ ثورة عربية ضدّ الأتراك بقيادة لورنس العرب ـ والولاة العثمانيين في بغداد.

ولم يفعل الأميركيون شيئاً. كانت رسائل التوصية من بلاد السعودية منتشرة في الباحة القذرة، وكذلك طلبات الذخيرة للقوّات العثمانية، وتقارير عن سرقة جمال وهجمات ضدّ الحجّاج، مكتوبة كلّها بخطّ يد عربي.

كنت أحمل بين يديّ آخر آثار التاريخ العراقي المكتوب. لكن بالنسبة إلى العراق، كانت هذه السنة هي السنة صفر مع تدمير الآثار في متحف الآثار وإحراق السجلّات الوطنية وبعدها المكتبة القرآنية في الوزارة على بعد ٥٠٠ متر.. لماذا أزيلت الهويّة الثقافية للعراق؟ مَن أضرم هذه النيران؟ لأجل أي هدف حقير دُمّر هذا الإرث؟

عندما شاهدت المكتبة القرآنية تحترق ـ كان اللهب يتصاعد من النوافذ بعلوّ ٣٠ متراً ـ سارعت إلى مكاتب قوّة الاحتلال، إلى مكتب الشؤون المدنية للبحرية الأميركية، للإبلاغ عمّا شاهدت. صرخ ضابط بزميله أن «هذا الرجل يقول إن بعض الكتب التوراتية تحترق». أعطيته خريطة المكان، والاسم الدقيق ـ بالعربية والإنكليزية ـ للمبنى، وقلت له إن الدخان يُرى على بعد ثلاثة أميال وأنه يحتاج إلى خمس دقائق فقط للوصول إلى هناك بالسيّارة. بعد نصف ساعة،

لم يكن هناك أيّ أميركي في المنطقة ـ وكان اللهب يتصاعد لمسافة ٦٠ متراً في الجوّ.

مضى وقت كان العرب يقولون فيه إن الكتب تُكتب في القاهرة، وتُطبع في بيروت، وتُقرأ في بغداد. والآن يحرقون المكتبات في بغداد. لم تكن السجلّات الوطنية متعلّقة بالتسجيلات العثمانية للخلافة فقط، بل أيضاً بالسنوات القاتمة لتاريخ البلاد الحديث، روايات مكتوبة باليد عن الحرب العراقية ـ الإيرانية بين ١٩٨٠ و١٩٨٨ مع صور شخصية ومذكّرات عسكرية، ومكتبة كاملة من الصحف الغربية ـ مجلّدات من صحيفة الفاينانشل تايمز ملقاة على الرصيف مقابل وزارة الدفاع القديمة ـ ونسخ موثّقة للصحف العربية يعود تاريخها إلى أوائل القرن العشرين أُحرقت أيضاً.

كانت الصحف الفلسطينية العائدة إلى السنوات الأولى لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ وحتى «صحف خلايا تحرير كشمير» ـ ملقاة على الأرض. لكنّ الملفّات والسجلّات الأقدم كانت في الطوابق العليا للمكتبة مقابل وزارة الدفاع حيث استُخدم النفط لإشعال الحريق بشكل متعمّد في المبنى. كانت الحرارة قوية لدرجة أن الأرضيّة الرخاميّة تشقّقت والدرجات الإسمنتية التي صعدت عليها بين أكوام من المستندات المحترقة تصدّعت بفعل الحريق. وكانت الأوراق على الأرض حارّة جدّاً بحيث لا يُمكن لمسها، ولا تحمل أي ختم أو كتابة، وقد تحوّل بعضها إلى رماد لحظة التقاطي لها. ومرّة أخرى، وأنا أقف في بوتقة من الدخان الأزرق والجمر، سألت السؤال نفسه: لماذا؟ .

لذا، وكتصوّر مؤلم وشامل لما كان يعنيه هذا، فلأنقلْ شيئاً مما تضمّنته بعض قُصاصات الورق التي وجدتها على الطريق في الخارج تعصف بها الريح، والتي كتبها رجال ماتوا منذ زمن طويل، وكانت موجّهة إلى الباب العالي أو القسطنطينية أو بلاط شريف مكّة بعبارات ولاء من أشخاص عرّفوا أنفسهم بعبارة «خادمكم». كان هناك طلب لحماية قافلة جمال محمّلة بالشاي والأرزّ والسكّر موقّع من حسين عطيّة الحجازي «يزكّي عبد الغني نعيم وأحمد كندي التاجرين الشريفين».. وطلب للعطور، وتحذير من جابر العياشي من البلاط

الملكي إلى الشريف حسين في بغداد ينبّهه من اللصوص في الصحراء. قال العياشي: «إني أعطيكم نصيحة فقط ستكافأون جدّاً عليها. إذا لم تعمل بنصيحتنا فإننا نكون قد حذرناك». كانت هناك لمسة من صدّام على ما أعتقد، وكان التاريخ عام ١٩١٢.

ويسرد بعض المستندات أثمان الطلقات والجياد العسكرية والمدفعية للجيوش العثمانية في بغداد والجزيرة العربية، وبعضها الآخر يُسجّل افتتاح أوّل خطّ هاتف في الحجاز ـ التي ستصبح السعودية قريباً ـ بينما يورد مستند، من قرية الزرقاء في الأردنّ الحالي، سرقة ملابس من قافلة جمال على يد عليّ بن قاسم الذي هاجم المحقّقين «بسكّين وحاول ضربهم ولكنه مُنع من ذلك وبعدها افتُدي بالمال». وهناك رسالة توصية ترجع ـ إلى القرن التاسع عشر ـ بالتاجر يحيى المصمودي، «رجل من الطبقة العالية، سلوكه حسن ويعمل مع الحكومة العثمانية».

بكلمات أخرى، كانت تلك مطرّزة جدارية للتاريخ العربي ـ أو ما تبقّى منها ممّا التقطّته على الطريق(*) ـ بينما كانت كمّية من مستندات القرون الماضية لا تزال تحترق في الحرارة الهائلة لأنقاض السجلّات الوطنية. لقد تمّت تنحية الشريف حسين حاكم الحجاز ومكّة ـ الذي كتب موظّفو بلاطه العديد من الرسائل التي أنقذتها ـ من قِبل السعوديين. وكان ابنه فيصل الذي أصبح ملك الأردنّ، جدّ الملك حسين وجدّ الملك الأردنيّ الحالي الملك عبدالله الثاني.

كانت بغداد لأكثر من ألف سنة العاصمة الثقافية للعالم العربي، وأهلها الأكثر ثقافة في الشرق الأوسط.. وقد أحرق حفيد جنكيز خان المكتبة في القرن الثالث عشر وقيل آنذاك إن مياه الفرات أضحت سوداء من حِبر الكتب. وفي الوقت الحاضر، يملأ الرماد الأسود لآلاف المستندات القديمة المحروقة سماء العراق. لماذا؟ مَن أرسل النهّابين؟ مَن أرسل مُضرمي النيران؟ مَن دفع لهم؟

(*) هذا الملفّ من الرسائل ومستندات البلاط تمّ إيداعه السجلّات الملكية الهاشمية في عمّان، وذلك من قِبل صحيفة الإندبندنت.

مَن يريد تدمير هويّة هذا البلد؟ كان المشروع الأميركي في العراق يسير في الاتجاه الخطأ أسرع ممّا يمكن تصوّره، وتحوّل جيش التحرير إلى جيش احتلال. وقد أبرقت إلى صحيفتي يوم ١٦ نيسان/أبريل بما يلي:

«يتحدّث أفراد البحرية الأميركية في بغداد عن الإهانات التي توجّه إليهم: «إرحلْ! أغربْ عن وجهي!». لقد صرخ جنديّ أميركي في وجه عراقيّ يحاول التقدّم نحو السياج المحيط بمقرّ وحدة مشاة أميركية في العاصمة بالأمس. وقد شاهدت وجه الرجل يغمره الغضب ويردّد: «اللّه أكبر! اللّه أكبر! تبّاً لك».

كان الأمر أسوأ ممّا يبدو في الظاهر، فقد أصدر الأميركيون «بياناً إلى سكّان بغداد» وهو عبارة عن مستند تفوح منه الذهنية الاستعمارية ويفتقر إلى الإحساس. يطلب البيان من سكّان بغداد: «عدم مغادرة منازلهم في ساعات الليل من صلاة العشاء حتى صلاة الفجر. فخلال هذا الوقت، تتحرّك القوى الإرهابية المرتبطة بالنظام السابق لصدّام حسين والعناصر الإجرامية الأخرى في المنطقة. ويُرجى عدم مغادرة المنازل خلال هذه الفترة. وفي كلّ الأوقات يُرجى التقدّم بحذر من مواقع قوّات التحالف العسكرية».

وبناء على ذلك، يجب على ملايين العراقيين الآن ـ المحرومين من الكهرباء والماء ـ البقاء في بيوتهم محبوسين، من المغرب حتى الفجر وهو شكل من أشكال السجن في وطنهم.

ويُعتبر البيان المكتوب من قِبل قائد وحدة البحرية الأميركية الأولى بمثابة حظر تجوّل ضمني وغير علنيّ. وقد صرخت به امرأة عربية البارحة: «لو كنتُ عراقية وقرأت ذلك لتحوّلتُ إلى انتحارية». وتسمع الكلام نفسه في جميع أنحاء بغداد، من رجال الدين الشيعة وصولاً إلى رجال الأعمال السُنّة، ومُفاده أن الأميركيين جاءوا من أجل النفط فقط وأن حرب العصابات ستبدأ قريباً جدّاً. وليس هناك أدنى شكّ في إدّعاء الأميركيين أن هذه الهجمات من تدبير «بقايا» نظام صدّام أو «العناصر المجرمة». لكن ليست هذه هي القضية.

بالأمس، كان ضبّاط البحرية الأميركية يُجرون مفاوضات يائسة مع رجل

دين شيعي مناضل من النجف لمنع اندلاع القتال حول المدينة المقدّسة. وقد قابلت رجل الدين قبل بدء المفاوضات وأبلغني أن «التاريخ يُعيد نفسه». كان يتحدّث عن الغزو البريطاني للعراق عام ١٩١٧ والذي انتهى بكارثة للبريطانيين. ومن أجل الدخول من البوّابة إلى مدينة الأنبار الصحراوية، تفاوض ضبّاط الاستخبارات الأميركية بالأمس مع زعماء القبائل في أفخم مطعم في بغداد.

كانت أمارات الانهيار في كل مكان. وفي كل مكان علامات على عدم احترام الوعود الأميركية بالتحرّر والديمقراطية... هذا ما لاحظه البغداديون ـ وما يلاحظه العراقيون في المدن الرئيسية للبلاد. الاستيلاء على جهاز الأمن الواسع الذي كان صدّام يحيط نفسه به. غرف التعذيب والبيروقراطية الضخمة التي كانت قاعدة له. وعد الرئيس بوش أن أميركا جاءت من أجل حقوق الإنسان في العراق، وأن المذنبين ومجرمي الحرب سوف يُلقى القبض عليهم ويحاكمون. الآن أصبحت مقارّ الشرطة السرّية في بغداد مهجورة بما فيها مقرّ قيادة المخابرات العراقية الذي تبلغ مساحته ثلاثة أرباع الميل، وقد شاهدت العديد منها. لكن لم يقم ضابط بريطاني أو أميركي واحد بزيارة تلك المراكز للبحث في المستندات القيّمة الموجودة هناك أو التحدّث إلى السجناء السابقين الذين يزورون أماكن تعذيبهم السابقة.. أكان ذلك تعبيراً عن تفاهة؟ أم إرادة؟.

خُذ على سبيل المثال، مركز أمن القاسمية قرب نهر دجلة. إنه فيلّا جميلة ـ كان يملكها عراقي من أصل إيراني أُبعد إلى إيران في الثمانينيّات ـ وأمامه حديقة صغيرة وأرض مزروعة.. للوهلة الأولى لا تلاحظ الخطاطيف الثلاثة في سقف كلّ غرفة، ولا حقيقة أن هناك قطعاً ضخمة من الورق الأحمر مزيّنة بصور لاعبي كرة القدم ملصقة على النوافذ لحجب الغرف عن الدخلاء. لكن على الأرض، في الحديقة، على السطح توجد ملفّات المعاناة في هذا المكان. وهي تُظهر على سبيل المثال أن رئيس مركز التعذيب كان هاشم

التكريتي وأن نائبه يُدعى رشيد النقيب. وقد وصف لي السجين السابق محمد عيّاش جاسم كيف كان معلّقاً بالسقف من قِبل مُعذّبه النقيب عامر العيسوي الذي كان يعتقد أن جاسم عضو في حزب الدعوة الديني.

أخبرني: «وضعوا يديّ وراء ظهري هكذا وقيّدوهما ثم رفعوني في الهواء من معصميّ المقيّدين. استخدموا رافعة صغيره لرفعي حتى السقف، ثم تركوا الحبل على أمل تحطيم كتفي عندما أسقط». توجد الخطاطيف في السقف أمام مكتب النقيب العيسوي. وقد فهمت ماذا كان يعني ذلك. لم تكن هناك غرفة منفصلة للتعذيب وغرفة للتسجيل في مكان آخر. كانت غرفة التعذيب هي غرفة المكتب أيضاً. وبينما كان الرجل، أو المرأة، يصرخ من الألم أمامه، كان النقيب العيسوي يوقّع أوراقاً، ويتلقّى اتصالات تلفونية ـ وتدلّ محتويات سلّة المهملات أنه كان يدخن عدّة سجائر في انتظار المعلومات التي يريدها من السجناء.

هل كان هؤلاء الرجال وحوشاً؟ أجل. هل يظنّهم الأميركيون كذلك؟ كلّا. هل يعملون الآن للأميركيين؟ أجل، محتمل جدّاً. في الواقع يمكن أن يكون بعضهم في الطابور الطويل لرجال الأمن السابقين الذين يقفون كلّ صباح خارج فندق فلسطين على أمل إعادة توظيفهم من قِبل وحدة الشؤون المدنية للمارينز الأميركيين. إن أسماء الحرس في مركز القاسمية للتعذيب في بغداد ـ كان المشاة ممنوعين من السير على الطريق في الخارج حتى لا يسمعوا الصراخ ـ مسجّلة كلّها في المستندات الملقاة على الأرض.

هؤلاء هم: أحمد حسن علّاوي، وعقيل شهيد، ونعمان عباس، ومحمد فايد. لكن الأميركيين لم يزعجوا أنفسهم لمعرفة ذلك. لذلك فإن السادة علاوي، وشهيد، وعبّاس، وفايد مرحّب بهم من قبل الأميركيين لطلب العمل.

هناك أوراق هويّات سجناء على المكاتب وفي الخزائن. ماذا حصل لوحيد محمّد، ومجيد طه، وصدّام علي ولازم حمود؟ لن نعرف. تقدّمت سيّدة ترتدي ملاءة سوداء من مركز التعذيب القديم. لقد أُخذ أربعة من أخوتها إلى هناك وعندما ذهبت للسؤال عمّا حدث، قيل لها إن الأربعة أُعدموا. وطلب منها مغادرة المبنى. لم تشاهد أو تدفن الجثث أبداً... وأبلغني رجل أن أخاه أُحضر إلى هذا المكان المرعب منذ ٢٢ سنة ولم يره ثانية.

والرجال الذين عذّبوا أيام حكم صدّام، ماذا كان عليهم أن يقولوا؟ قال لي أحدهم وكانت وظيفته في السجن تتضمّن تنظيف المشنقة من الدم والبراز بعد كلّ عملية إعدام: «لم نرتكب أيّ ذنب، لسنا مذنبين بأيّة تهمة، لماذا يفعلون ذلك بنا؟ أميركا، أجل تخلّصت من صدّام. لكنّ العراق لنا. نفطنا لنا. سوف نحافظ على قوميّتنا. سيبقى العراق. على الأميركيين الرحيل».

لو أراد الأميركيون والإنكليز فهم طبيعة المعارضة الدينية هنا، فما عليهم إلّا مراجعة سجلّات ملفّات الشرطة السريّة لصدّام. وجدت أحدها، التقرير رقم ٧٤٨١ تاريخ ٢٤ شباط/فبراير من هذه السنة ـ لأن المخابرات العراقية كانت لا تزال تعمل بجدّ ضدّ أعدائها الشيعة قبل أقلّ من شهر من الغزو الأميركي ـ حول الصراع بين الشيخ محمد اليعقوبي ومُقتدى الصدر (٢٢ سنة) نجل محمّد الصدر الذي أُعدم بموجب أوامر صدّام منذ أكثر من عقدين، وهو خلاف يظهر في آن واحد الحماس الشديد والتصميم الذي يقاتل به الزعماء الدينيون الشيعة بعضهم البعض. لكن بالطبع لم يزعج أحد نفسه لقراءة هذه المادّة أو حتى البحث عنها...

في نهاية الحرب العالمية الثانية، انتقل ضبّاط المخابرات الإنكليز والأميركيون الذين يتحدّثون الألمانية إلى داخل الرايخ المهزوم للاطّلاع على كل مستند في آلاف المكاتب العائدة إلى الغستابو في

أنحاء ألمانيا الغربية. وفعل الروس الشيء نفسه في منطقتهم. ولكن في العراق، تجاهل الأميركيون والإنكليز ببساطة الدليل الملقى في كلّ مكان للقراءة. وهناك مكان أكثر فظاعة كان على الأميركيين زيارته في بغداد، عنيتُ مقرّ قيادة المخابرات العامّة، وهو مجمّع ضخم مطليّ باللون الرمادي قصفه الأميركيون.. ومجموعة من الفيلّات والمباني الرسمية المليئة بالملفّات والأوراق والبطاقات.

إلى هذا المبنى كان يُؤتى بالسجناء السياسيين المميّزين لدى صدّام للتحقيق الوحشيّ ـ الكهرباء جزء أساسي منه ـ وإلى هنا أُحضر فرزاد بازوفت مراسل الأوبزرفر للتحقيق معه قبل إعدامه ـ والمبنى مزوّد أيضاً بأزقّة، وحضانة أطفال ـ لعائلات المحقّقين ـ ومدرسة حيث كتب طالب موضوعاً بالإنكليزية عن مسرحية بيكيت «في انتظار غودو». وكان هنا أيضاً مستشفى صغير وشارع اسمه «شارع الحرّية» ومصاطب ورد. إنه المكان الأكثر رعباً في كلّ العراق. وهناك التقيت ـ بشكل خاصّ ـ عالم ذرّة عراقياً كان يسير خائفاً حول المجمّع، وهو زميل للرئيس السابق لعلماء الذرّة العراقيين الدكتور شهرستاني. قال لي: «هذا آخر مكان أردت رؤيته في حياتي ولن أعود إليه أبداً. كان هذا مكان الشرّ الأكبر في العالم كلّه».

لكن على الأميركيين زيارته. كان كبار رجال الأمن في نظام صدّام مشغولين بإتلاف ملايين المستندات. وقد وجدت كومة كبيرة من أكياس الزبالة البلاستيكية السوداء خلف المبنى، في كلّ منها ألوف الأوراق الممزّقة. ألم يجدر بهم أخذها إلى واشنطن أو لندن أو إعادة تجميعها لمعرفة شرورها؟ هذا ما فعله الإيرانيون بملفّات السفارة الأميركية الممزّقة في طهران عام ١٩٨٠.

لكن مجدّداً، لم يزعج الأميركيون أنفسهم ـ أو لم يرغبوا ـ في البحث في هذه الأوراق. ولو فعلوا لوجدوا أيضاً أسماء العشرات من مسؤولي المخابرات

العراقية الكبار، والعديد منهم معرّف به من خلال رسائل التهنئة التي يصرّ رجال الشرطة السرّية التابعين لصدّام على إرسالها لبعضهم البعض في كلّ مرّة يحصلون فيها على ترقية. أين العقيد عبد العزيز السعدي، والنقيب عبدالسلام سلاوي، والنقيب سعد أحمد العيّاش، والعقيد سعد محمّد، والنقيب مجيد أحمد وغيرهم على سبيل المثال الآن؟ لن نعرف أبداً. أو لا يُفترض بنا أن نعرف.

هناك أيضاً الحرائق التي دمّرت وزارات المدينة كلّها ـ طبعاً باستثناء وزارة الداخلية ووزارة النفط ـ ومكاتب الأمم المتحدة، والسفارات ومجمّعات الأسواق. وقد أحصيت حتى الآن ٣٥ وزارة دُمّرت بالنيران، ويزداد العدد. خذ على سبيل المثال المشهد الذي حصل يوم الأربعاء. كنت أتجوّل في أنحاء بغداد عندما رأيت عموداً كبيراً من الدخان الأسود يتصاعد في الأفق. توجّهت لرؤية الوزارة التي تُركت لتحترق. ووجدت نفسي أمام وزارة النفط، المحروسة بشكل جيّد من قِبل القوّات الأميركية، وكان بعضهم يضعون قِطع قماش على أفواههم بسبب سحب الدخان المتساقطة عليهم من وزارتي الزراعة والريّ المجاورتين. مشهد لا يُصدّق، أليس كذلك؟.. لم يكونوا قلقين لأن أحدهم أضرم النار في المبنى المجاور؟.

ثم راقبت حريقاً آخر أُشعل على بعد ثلاث كيلومترات. قدت سيّارتي إلى مكان الحريق لأجد اللهب يخرج من نوافذ وزارة التعليم العالي، قسم علوم الكومبيوتر. وقربها مباشرة، كان جندي من البحرية الأميركية يقف بجانب حائط، قال إنه «يحرس مستشفى مجاوراً ولم يعرف مَن أشعل الحريق لأنه لا يمكنك النظر في كل مكان في الوقت نفسه». أنا على يقين الآن أن عنصر البحرية لم يكن مازحاً أو غير صادق... وإذا كان الأميركيون لا يريدون تصديق هذه القصّة، فإليكم اسمه: إنه العريف تيد نيهولم من الكتيبة الثالثة في الوحدة الرابعة من البحرية، وقد اتصلت بخطيبته جيسكا في الولايات المتحدة من أجل إبلاغها حبّه... لكنّ شيئاً ما رهيباً كان يحصل عندما تُعطى الأوامر للجنود

الأميركيين بمراقبة الوزارات الحكومية ببساطة وهي تُحرق على أيدي الرعاع وعدم القيام بشيء حيال ذلك.

وكان هناك أيضاً شيء آخر خطير جدّاً ـ ومزعج جدّاً ـ يتعلّق بالجموع، إذ كانت تحرق مباني بغداد بما في ذلك المكتبات الكبيرة وملفّات الدولة. هؤلاء ليسوا لصوصاً. يأتي اللصوص أوّلاً، ويأتي مضرمو النيران بعدهم في باصات زرقاء وبيضاء. وقد لاحقت أحدهم بالفعل بعدما أشعل النار بوزارة التجارة وخرج مسرعاً من المدينة. إن الرواية الأميركية الرسمية الآن حول كل هذا تقول بأن النهب هو انتقام ـ تفسير ضعيف جدّاً ـ وأن الحرائق أُشعلت من قِبل بقايا نظام صدّام، أدوات الإجرام أنفسهم، بدون شكّ، الذين كانت لديهم صفة مميّزة في تنفيذ أوامر المارينز بحظر التجوال على سكّان بغداد.

لكن الناس في بغداد لا يصدّقون أن المؤيّدين السابقين لصدّام يُشعلون هذه الحرائق. ولا أنا أصدّق ذلك.. ربّما أراد صدّام أن تنتهي بغداد مثل غوتردامرونغ Götterdämmerung وربّما أراد تحويلها إلى مدينة محروقة قبل دخول الأميركيين. لكن ماذا بعد ذلك؟ إن اللصوص يجنون مالاً من عمليات النهب ولكنّ مُضرمي النيران لا يجنون مالاً. يجب أن يُدفع لهم. إن ركّاب هذه الباصات موجّهون بوضوح إلى أهدافهم. ولو كان صدّام قد دفع لهم مسبقاً لأخذوا النقود وتناسوا إشعال الحرائق في اللحظة التي اختفى فيها صدّام وتناسوا كل المشروع، ولما أضاعوا وقتهم في كسب المال المدفوع سلفاً.

إذن مَن هم، هذا الجيش من مُضرمي النيران؟ مجدّداً، لا نعرف. تعرّفت على أحدهم، ذلك اليوم، وكان رجلاً رجل متوسّط العمر، حليق الذقن يرتدي قميصاً أحمر ـ لا تستطيع تغيير الملابس كثيراً عندما لا يكون لديك ماء للاغتسال ـ وفي المرّة الثانية التي رآني فيها وجّه رشّاشه الكلاشينكوف نحوي. إنّ اللصوص لا يحملون أسلحة. إذن، مِمّ كان خائفاً؟ لمَن كان يعمل؟ لمصلحة مَن ـ الآن بعد الاحتلال الأميركي لبغداد ـ تدمير كلّ البنية التحتية الفعلية للدولة مع إرثها الثقافي؟ لماذا لم يوقف الأميركيون ذلك؟.

كما قلت، كان شيء غير عادي يحصل هنا في بغداد.. وبطلب ممّن يحصل؟ إن هذه الأسئلة يجب أن توجّه إلى حكومة الولايات المتحدة. لماذا، على سبيل المثال، ادّعى وزير الدفاع الأميركي الأسبوع الماضي أنه لا يوجد نهب على نطاق واسع أو تدمير لبغداد؟ كان تصريحه كذباً. لكن لماذا صرّح بذلك؟ يقول الأميركيون أن ليست لديهم قوّات كافية لاحتواء الحرائق، وهذا أيضاً غير صحيح. إذا لم تكن لديهم قوّات، فماذا تفعل هذه المئات من الجنود المنتشرة في حدائق النصب التذكارية للحرب العراقية ـ الإيرانية القديمة طيلة النهار؟ أو مئات الجنود المعسكرين في حدائق الزهور لقصر الرئيس قرب جسر الجمهورية؟.

لذلك كان أهالي بغداد يسألون مَن يقف وراء تدمير الإرث الثقافي ـ هويّتهم الثقافية المهمّة ـ ونهب الكنوز الأثرية من المتحف الوطني، وإحراق السجلّات العثمانية كاملة، والسجلّات الملكية والرسمية، والمكتبة القرآنية، والبنية التحتية الواسعة للدولة التي ندّعي أننا سنؤسّسها لهم. لماذا، يسألون، لم يعد لديهم كهرباء أو ماء؟ لمصلحة مَن يجري تفكيك العراق، تفتيته، حرقه، تدمير تاريخه، تدميره؟ لماذا صدرت أوامر مِمّن يُسمّون أنفسهم محرّرين بفرض منع التجوّل على ملايين الناس؟ من السهل على مراسل التنبّؤ بالخراب، وبخاصّة بعد حرب قاسية فاقدة لكلّ شرعية دولية. لكنّ الكارثة تنتظر عادة المتفائلين في الشرق الأوسط، ولاسيّما منهم المتفائلون المزيّفون الذين غزوا الدول الغنية بالنفط بأعذار عقائدية، وادّعاءات أخلاقية فضفاضة، واتّهامات مثل حيازة أسلحة الدمار الشامل التي لم تثبت بعد. لذلك سأقوم بتنبّؤ مخيف.

إنّ حرب أميركا للتحرير قد انتهت وحرب العراق للتحرّر من الأميركيين على وشك البدء. وبتعبير آخر، إن القصّة الحقيقية والمخيفة تبدأ الآن.

الفصل الثامن

إلى البرّية

يُعتبر الخطّ الثامن السريع الطريق الأخطر في العراق. فهو مُغطّى بشاحنات أميركية محطّمة ومحترقة وسيّارات شرطة مدمّرة بالقذائف الصاروخية. وجميع نقاط التفتيش الرسمية عليه مهجورة. والثوّار يتدفّقون من القرى إلى الشرق. هذا بلد الخطف، بلد قطع الأعناق... الخطّ الثامن السريع هو رمز لانهيار كلّ أحلامنا. وبينما أنا واقف على الطريق أتحدّث إلى عائلة عراقية، باحثاً عن موقع سيّارة الصليب الأحمر التي قُتل سائقها للتوّ، بدأت الأرض تهتزّ من تحتنا وغمرنا صوت وحشي قويّ وهادر.

في البعيد إلى الجنوب، كانت ترتفع في الجوّ، سحابة رمادية وقد بدت الشمس قاتمة بفعل الدخان المتصاعد من ألف عادم، في أكبر قافلة سيّارات شاهدتها في حياتي. كان الأميركيون يقومون بتبديل وحداتهم. وكان هذا أكبر تحرّك عسكري منذ الحرب العالمية الثانية، ٤٠ ميلاً من العربات المصفّحة والدبّابات والرجال على الخطّ الثامن السريع يتحرّكون باتجاهي. جلست مع العراقيين على الزبل الرطب إلى جانب الطريق. فهذا شيء عليّ أن أشاهده.. هذا شيء عليّ أن أستوعبه إذا كنت أرغب في فهم الحرب. كانت دبّابات أبرامز وعربات برادلي المقاتلة وسيّارات هومفي ومئات الشاحنات مع آلاف الجنود الشبّان بملابس القتال والدروع الواقية يصوّبون أسلحتهم نحو جانب الطريق الخطر. ثم جاءت ستّ طائرات أباتشي وحلّقت فوق الأشجار وكانت مزوّدة برشّاشات تتحرّك مثل الهوائيّات ثم اتّجهت نحو الخط السريع. لم يزعج الجنود أنفسهم للنظر إلى أعلى، وألقى بعضهم نظرة علينا، على ذلك الرجل الإنكليزي

وتلك العائلة العراقية الجالسين على الأوساخ، فيما رجال الحملة الصليبية يتوجّهون إلى حصونهم الإسمنتية الكبيرة على نهر دجلة وبعيداً في بريّة الاحتلال.

وها إنّي قد بدأت أفهم.. قبل ألفي عام تقريباً إلى الغرب من هذا المكان، كان يمكن أن نكون جالسين إلى جانب الطريق بينما الأرض تهتزّ من وقع خطوات قوّات روما. والآن نحن نعيش في الإمبراطورية الأميركية. أجل كانت هذه الحرب لأجل النفط. وكانت مليئة بالجنون والعنجهيّة والأكاذيب. لكن كانت مليئة أيضاً بالرغبة، بالحاجة العضوية، في استخدام القوّة بدرجة عالية، استناداً بلا شكّ إلى أحلام المحافظين الجُدد، ولكنّها القوّة التي لا رادع لها والقاسية بشكل مفرط. يستطيع جيشنا الذهاب إلى بغداد، وسيذهب. وسوف يتدفّق ليغمر سامرّاء وبابل وكل الخلافات (جمع خلافة) على الأرض التي بدأت عليها الحضارة.

> لكن لا يمكن أن تأتي جيوش أجنبية إلى هنا وتخرج من دون عقاب. كان يوم ٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٣ يوماً حارّاً. عالياً فوق العراق، أرسل بوش عينه الأولمبية إلى أجواء بلاد ما بين النهرين القديمة، بعدما أثنى على الأميركيين الذين خططوا للحرب ضدّ صدّام حسين.... وبعيداً إلى الأسفل، عند إحدى زوايا شارع قذر، في مدينة قذرة تُدعى الفلّوجة التي يفضّل السيد بوش ألّا يسمع باسمها، تُنسج قصّة عن الدم الأميركي وعن القوّة الأميركية والأحذية الأميركية التي تحطّم أبواب البيوت العراقية. صرخ جندي أميركي لدى رؤيته سيّدة في فناء بيتها تحمل رشّاش كلاشينكوف: «لديها سلاح، انتقل إلى الجهة الأخرى من الطريق وإلّا فإنك ستصاب أثناء تبادل إطلاق النار»... مال نحوي بينما كنت أنتقل إلى الطرف الآخر من الطريق حيث رأيت السيدة والكلاشينكوف. صرخ بها مجدّداً: «ألقي السلاح!»... كان الجنود يشعرون بالحرّ والتعب والغضب، فقد استيقظوا منذ الساعة الثالثة صباحاً، أي منذ أن

ألقى مسلّحون قنبلة يدوية على شاحنة محمّلة بالجنود من الكتيبة ١٠١. وها أنت ترى هنا لماذا تجنّب بوش القيام بزيارات انتصارية إلى العراق.

كان الجنود الناجون من الهجوم يستذكرون الساعات الأولى. قال أحدهم: «ألقوا قنبلة على شاحنة زنتها طنّ ونصف طنّ محمّلة بجنود الكتيبة ١٠١ ثم أمطروها بوابل من النيران من الأسلحة الرشّاشة ثم اختفوا في الظلام. كان الرجال بحالة مزرية، فقد قُتل أحد الجنود وخرج دماغه من رأسه بينما كان ثمانية جنود آخرين يصرخون في مؤخّرة الشاحنة وهم يستخرجون الشظايا من أرجلهم». وقبل طلوع الفجر، عاد الجنود وقاموا بتنظيف دماء زملائهم على الطريق، ثم عادوا مرّة أخرى لمعالجة الأمور مع الناس الذين يعيشون في ناحية من أنحاء مدينة الفلّوجة البعثية القديمة.

قبل رحلته في أجواء العراق بساعة ونصف ساعة، بذل بوش كلّ ما يمكن لكي يصوغ رواية أفضل ما تكون تفاؤلاً حول حرب العراق. «أصبح العراق أفضل مكان الآن بعد رحيل صدّام» قال، وأردف: «انتهى شرّ كبير».. وأثنى على «العمل الإنساني للقوّات الأميركية» في البلاد. أما فيما يتعلّق بأسلحة الدمار الشامل، فقد كان أكثر تكتّماً. «نحن نسيطر على الوضع وسنكشف الحقيقة... لكنْ هناك شيء واحد مؤكّد وهو أن أيّ تنظيم إرهابي لن يحصل على أسلحة الدمار الشامل من النظام العراقي لأن الأخير لم يعد يملكها». ولكن نحن نعرف طبعاً أنه لم يتمّ العثور على أيّة أسلحة دمار شامل.. وأنهم لن يعثروا عليها أبداً هنا...

إذا كان بوش فخوراً ويظنّ بأنّ على جنوده أن يكونوا فخورين بما قاموا به في العراق ـ هذا ما أبلغ به قادته العسكريين من رجال ونساء ـ فإن الفلّوجة كانت تعطي صورة أخرى: العرق والخوف ومكبّرات الصوت توجّه الأوامر للسكّان المدنيين بالنزول إلى الشارع. . . . هل صحيح أن المسلّحين «الذين اختفوا تحت جُنح الظلام» قد اختبأوا بالفعل في البيوت القريبة من الطريق الرئيسي بالقرب من مسرح الهجوم؟. لايمكن أن يفعلوا ذلك إلّا إذا كانوا

مُغفّلين. لكنّ أحد المسؤولين في الكتيبة ١١٥ الأميركية قرّر إرسال الشرطة العسكرية لمصادرة بعض الأسلحة واعتقال المشبوهين المعتادين. لم يكن المشهد جميلاً.

وكلّما توغّل هؤلاء الجنود في احتلالهم كانوا يزدادون خبرة حول موقف الناس الذين «حرّروهم» للتوّ. كان البعض رجالاً صالحين... خُذ مثلاً الرقيب سيث كول الذي عاش في مدينة نورثامبتون الإنكليزية والذي صرّح قائلاً: «إذا كان عشرة في المئة من سكّان الفلّوجة يكرهون الأميركيين فهذا كثير جدّاً». أو خُذ الرقيب فيل كومينغز.. وهو شرطي من رود أيلاند، ضخم بشوش كان يتحدّث إلى العراقيين الذين كانوا ينظرون إليه من على الرصيف... «إن البعض من هؤلاء الناس لا يحبّنا بالرغم من أننا جئنا لتحريرهم.. ولكنّني أبتسم لهم دائماً.. وفي المدارس كان الأطفال يلقون علينا الحجارة.. ولكنّني كنت أعطيهم الحلوى.. أعطيهم حلوى فيعطوني حجارة»....

لم يستمرّ الأمر طويلاً لمعرفة سبب إلقاء الأطفال الحجارة. فقد كان هناك جندي أميركي آخر على مسافة ٤٠ متراً منشغلاً في خسارة القلوب والعقول. أمر أحد الجنود الاحتياطيين بطرد مجموعة من الفتيان المراهقين ثم توجّه نحو رجل متوسّط العمر كان يجلس على الرصيف وصرخ به: «إذا وقفت سوف أدقّ عنقك».

كان ذلك بالضبط عندما لمحوا سيّدة تحمل رشّاش كلاشينكوف... وانتشرت الصرخة في أوساط القوّات الأميركية: «لديها سلاح! هناك امرأة تحمل سلاحاً». إن قضاء بضع ساعات مع الجنود الذين هم ضحايا بقدر ما هم منتصرون يجعلك تدرك لماذا كان عليهم الصراخ لنقل المعلومات، تماماً كما يفعل الباعة المتجوّلون. ارتفعت الصرخة مجدّداً وانتقل الصوت إلى الطريق: «لديها سلاح! لديها سلاح!».

وجّه بعض الجنود أسلحتهم عبر الباب الحديدي الخلفي وهم يصيحون: «ألقي السلاح».. بينما كان جندي من الشرطة العسكرية يخلع الباب بركلة من

حذائه. «وضعت السلاح جانباً ـ صادرنا السلاح». أسرع الجنود الثلاثة إلى الباحة ومعهم السلاح ثم عمدت جنديّتان إلى إحضار المرأة وهي مدرّسة في الثانوية المحلّية، محجّبة وترتدي ثوباً أسود. سألتها إحدى المجنّدات: «لماذا تحملين سلاحاً؟» فرفعت قبضتيها بتحدّ ورفضت الكلام. وفي نهاية الشارع تمّ تحطيم باب آخر وشاهدت جُنديْين من الشرطة العسكرية يأخذان شاباً في سيّارة هومفي بينما كان رجل مسنّ يتحدّث مع ضابط شاكياً: «رجاء سيّدي، لا تأخذ ابني، لم يفعل شيئاً. لماذا ابني، لماذا ابني؟». لكنّ الأمور لم تكن أفضل على بعد متريْن.. كان هناك جندي من ماساشوستيس يستمع إلى رجل يتحدّث الإنكليزية بشكل جيّد ويريد مساعدتنا. عبر الطريق، كان ثلاثة جنود يحطّمون باباً حديدياً بينما كان العراقي يبلغ الجندي: «هذا رجل مريض ومسنّ يعيش هنا ويبيع الحلوى».. لكن الجندي لم يُجب.

وقفنا في الحرّ حتى فُتح الباب الأمامي. وقد صوّب الجنود الثلاثة أسلحتهم نحو فُرجة الباب بينما كانت تتّسع. وبدا رجل مسنّ لحيته كثيفة وشعره أبيض، ـ مخلوق ضعيف من العهد القديم حسبما كتبت في مفكّرتي ـ كان مستنداً إلى برّاد البوظة ويرتدي ملابس بيضاء. كان أشبه بنبيّ توقّف الأميركيون للحظات. ثم قال أحدهم: «آسف سيّدي، علينا تفتيش محلّك». دخل الجنود الثلاثة المحلّ بينما كان الرجل المسنّ يقف في الشارع ناظراً إلينا وإلى المحلّ ثم اختفى في الظلام.

كان هناك بعض إطلاق نار على بُعد بضع مئات من الأمتار وركض الجنود للاحتماء خلف الجدران والحدائق. ثم جرى تحطيم باب مطليّ باللونين الأبيض والذهبي وخرج رجل يرتدي دشداشة رمادية ويداه على رأسه ـ جلس أمام الباب وجلست عائلته خلفه بينما دخل الأميركيون البيت. تمّت مصادرة رشّاش كلاشينكوف آخر ـ كلّ عائلة في العراق تقريباً تملك اثنين أو ثلاثة من هذا السلاح ـ كان معظم هؤلاء العراقيين من الطبقة المتوسّطة، وهم متعلّمون ويملكون بيوتاً تشبه الفيلّات في هذه المدينة المستنزَفة بمصانع ذخيرتها المدمّرة،

ومنظمات حزب البعث المتجذّرة في إدارتها ومؤسّساتها بحيث كان من الصعب إيجاد مسؤول لا يحمل بصمة صدّام.

جئت إلى هنا منذ ٢٣ عاماً لرؤية معسكر اعتقال الأسرى الإيرانيين الكبير في حرب الخليج. وكان الناس هنا وفي المدينة المجاورة الرمادي، قساة.... وتوقّعت أن يؤدّي تحطيم أبوابهم إلى ردّة فعل.

وهكذا أوجد الأميركيون مئة عدوّ آخر بين مَن حرّروهم. وقد أبلغني شاب من الفلّوجة أنه قبل بضعة ليال وصل المسلّحون إلى منزل عائلته وطلبوا منهم الانضمام الى المقاومة. قال: «رفضنا ولا أعلم ماذا أقول لهم إذا عادوا ثانية».

بعد انتهاء عملية التفتيش التفت نحوي جندي من الشرطة العسكرية في الفلّوجة، وقال: «جاءت كتيبة المشاة الثالثة إلى هنا لتقوم بتفتيش هذا المكان غداً». وعلى الطريق شرقي بغداد شاهدت المدرّعات تتقدّم نحو المدينة. هاهم جميعاً مجدّداً، دبّابات برادلي وأبرامز وهومفي وناقلات جند وشاحنات. وقد كتب الجنود على أسلحتهم ودبّاباتهم أسماء وعبارات مثل: «الردّ المسلّح» مع صورة لفتاة عارية قرب قذيفة دبّابة. . «أتريدون جولة أخرى؟».. «مناسبة قاتلة»، «هل من كلمات أخيرة؟». .. «الأب المشاكس» ـ مع صليب مسيحي قرب الاسم. سوف تواجه الفلّوجة كلّ هذا. وعلى مرّ الشهور راحت الفلوجة توقع «مناسباتها القاتلة» بالأميركيين.

وأنا أكتب هذه الكلمات اليوم، في صيف ٢٠٠٥، حيث عدت لفترة قصيرة إلى المدينة التي ما زلت أحبّ أن أفكّر فيها باعتبارها بيروت الآمنة... وبينما أراجع في مفكّرتي ما دوّنته خلال السنتين ونصف السنة الأخيرة، كان التمرّد العراقي يتّخذ طابعاً وحشياً وملحمياً. في بغداد الآن يمارس العديد من المراسلين «الصحافة الفندقية»... مختبئين في غرفهم مأمورين من قِبل رجال أمنهم بتجنّب حمّامات السباحة، أو استخدام نظام الهاتف الخليوي العراقي المدمّر للحديث مع الأميركيين والإنكليز المسجونين في حصونهم عبر نهر دجلة، خلف حواجز إسمنتية محصّنة بمدافع رشّاشة أقاموها حول قصر صدّام

الجمهوري القديم. كنت أنا وباتريك كوكبورن مندوب الإندبندنت والعديد من الصحفيين الآخرين لا نزال نتحرّك في أنحاء بغداد وحتى على طريق المطار القاتل.. لكننا كنّا نقوم بذلك مع عراقيين في سيّارات خاصّة ونحن نخفي وجوهنا وراء صحيفة عربية، ننظر من النوافذ، ونتوقّف لحظات فقط لمشاهدة المجزرة التي تركها الانتحاريون وراءهم... صحافة فئران. الآن كان على الحكّام العسكريين والسياسيين للعراق الجديد أن ينتقلوا بالمروحيّات من مراكزهم إلى المطار ـ كان طريق المطار مصنّفاً خطراً من قِبل السلطات ويحظر على الغربيين استخدامه.. وكلّ ما كانوا يستطيعون رؤيته من حصونهم في البلاد التي يحكمونها كان يمرّ عبر أسلحة دفاعاتهم. قُم بزيارة إلى أيّ حُصن صليبيّ في لبنان وسوف تجد أن كلّ محاربي أوروبا المسيحيين كانوا ينظرون من حصون القرن الثاني عشر عبر فتحات في جدران تلك الحصون. أجل نحن الصليبيون الآن. لكن نحن صليبيون غافلون عن الحقيقة. وما زال جورج بوش وطوني بلير يدّعيان أن حربهما تسير بشكل جيّد، فيما قُتل عشرات الآلاف من العراقيين وما زالوا يُقتلون. إن انتحاريي مخازن وال مارت الذين صُنعوا على ما يبدو من خطوط تجميع مخفية ـ يفجّرون أنفسهم بمعدّل اثنين أو ثلاثة في اليوم. وقد وجِدت الجثث بالعشرات على ضفاف دجلة وألقيت في مكبّات النفايات. وجرى خطف الأجانب وقطع رؤوسهم أمام الكاميرات. ولم يُعثر مطلقاً على أيّة أسلحة دمار شامل أو أيّة علاقة بين صدّام حسين ومجازر ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

أبلغونا أن الحرب تسير بشكل جيّد حتى الآن.. وأمام جمهور مذهول من الصحفيين أعلن طوني بلير أن حرباً ثانية ـ ضدّ الإرهاب ـ تدور في العراق الآن.. إن العراق هو على طريق الديمقراطية بعد الانتخابات الوطنية، بالرغم من امتناع غالبية السنّة عن التصويت. هكذا هو الأمر، صدّام مسجون وينتظر المحاكمة وهو موجود لدى الأميركيين في قاعدتهم في قطر لأن العراق غير آمن. إن الديمقراطية تتطوّر في الشرق الأوسط أو هذا ما علينا تصوّره. تذكّرت الذين ماتوا، مارغريت حسن السيّدة اللطيفة والقوية التي كانت توزّع الدواء للأطفال المحتضرين، والمصوّرين المخطوفين وهم يبكون، ويعاملون معاملة

سيّئة وتُطلق النار عليهم بشكل مباشر ويُعدمون أمام كاميرات التلفزيون. كانت مارلا روزيكا تجلس قرب المسبح في فندق الحمراء وهي تُحصي عدد القتلى منذ بداية الحرب. خمسون ألف؟ مئة ألف بحسب ما ورد في التقرير؟ احترقت مارلا حيّة عندما فجّر انتحاري نفسه ضدّ قافلة من المرتزقة الأميركيين على طريق المطار. وشاهدت وجه فيل بيغلي عدّة مرّات وهو يتوسّل برسالة موجّهة إلى طوني بلير. ثم كانت العملية التي لا مفرّ منها: قطع رأسه.

كنت أقوم يومياً بزيارة مشرحة المدينة في بغداد. كان يصلها حوالي عشرين جثّة جديدة كل يوم وأحياناً ثلاثون وأحياناً عائلات بكاملها مقتولة أو ممزّقة من قِبل انتحاريين، أو مقطّعة حتى الموت، أو مقتولة على نقاط التفتيش الأميركية. وعندما كان الأميركيون يحضرون جثثاً إلى المشرحة، كانوا يطلبون من الموظفين عدم إجراء تشريح. ماذا كان يعني ذلك؟

خارج المشرحة، كان أهالي القتلى ينتحبون ويصرخون ويشتمون الأميركيين حتى ولو كان فقدان أحبّائهم قد حصل في صراعات عائلية أو ثأرية. وليس لدى الأميركيين أو الإنكليز لوائح بالقتلى العراقيين بل لديهم فقط أسماء القتلى من جنودهم ـ أكثر من ١١٠٠ قتيل أميركي حتى صيف ٢٠٠٥... هكذا كان باستطاعتنا أن نتحدّث «عن تضحياتنا»، وأن نتجاهل مصير عشرات الآلاف من هؤلاء الناس الذين جئنا لتحريرهم.

كيف بدأت.. بداية النهاية؟ بدأت في الفلّوجة، بعد أيام فقط من بدء الاحتلال، عندما أطلق جنود الكتيبة ٨٢ المجوقلة النار على حشد من العراقيين السنّة وقتلوا سبعة عشر منهم. قالوا إنهم تعرّضوا لإطلاق النار، لكنّ المراسلين الذين وصلوا إلى المدرسة حيث يتمركز الجنود لم يجدوا أيّة آثار للرصاص. انتقلت المدينة لاحقاً إلى سيطرة المقاومة العراقية الشرسة وبعدها الرمادي. وكذلك خضعت معظم المحافظات لسيطرتهم. من أجل ذلك، عاود الأميركيون هجومهم على الفلّوجة للمرة الثانية وتقدّموا وسط أنقاض المدينة المدمّرة. لقد انتصرنا. بعد وصول بول بريمر أول حاكم أميركي ـ قام بتعيين عميل المخابرات

الأميركية السابق أياد علّاوي رئيساً لحكومة انتقالية ـ وصف رجال المقاومة «بالقتلى الآخرين» و«القساة» و«بقايا صدّام»... وكلّ ما كان مطلوباً من أجل إنهاء المقاومة هو القبض على صدّام.

كان مخطئاً. تذكّرت شاباً عراقياً غاضباً من الرمادي قُتلت عائلته عند نقطة تفتيش أميركية. أبلغني عندما التقيته: «لن أنضمّ إلى المقاومة ما دام صدّام حُرّاً مع عائلته، لأننا إذا أخرجنا الأميركيين من العراق سيعود صدّام. لكن إذا قتلوا عُدَيّ وقُصَيّ وصدّام فسوف أقاتل الأميركيين شخصياً». وقد قتل الأميركيون ولديْ صدّام عُديّ وقُصيّ بالإضافة إلى ابن قُصيّ البالغ من العمر ١٤ سنة ـ والذي لم يتحدثوا عنه كثيراً ـ كانوا في فيلّا تشبه القصور القديمة في الموصل، وقتلتهم القوّة الخاصّة ٢٠ وهي مزيج من أفراد القوّات الخاصّة وقوّات السي آي إي العاملة التي لم تزعج نفسها بمحاولة اعتقالهم وهم يقاومون.. وبعدها بالتأكيد جرى إلقاء القبض على صدّام.

«لقد قبضنا عليه في حُفرة تحت الأرض ـ سيّداتي وسادتي!» هذا ما صرّح به بريمر للناس وأضاف: «هذا يوم كبير في تاريخ العراق». كان من المفترض أن يكون يوم ١٣ أيلول/سبتمبر تاريخاً لانتهاء الانتفاضة. فبعد الذي حصل لماذا قد يزعج الناس أنفسهم لقتال المحتلّين؟ كان صدّام رثّ المظهر، ودلّت عيناه المتعبتان على هزيمته بالإضافة إلى الإذلال نتيجة وجود ٧٥٠ ألف دولار بحوزته في الحُفرة. وبسرعة تمّ تحويل صدّام إلى محكمة سرّية مقيّداً بالأغلال. وبدا في الشريط الأوّل والمميّز الذي عرضه الأميركيون شبيهاً بسجين في روما القديمة، البربري المستسلم في النهاية، ويده تداعب لحيته الهزيلة. ربّما شاهدت أشباح الإيرانيين والأكراد المقتولين بالغاز والشيعة المقتولين والمدفونين في مقابر جماعية في كربلاء، والأسرى المقتولين تحت التعذيب في مراكز الشرطة السرّية الصدّامية، شيئاً مماثلاً.

تطلّبت عملية القبض على الرجل، الذي كان أفضل أصدقاء الغرب طيلة ١٢ سنة في الشرق الأوسط وعدوّه الأكبر طيلة ١٢ سنة أخرى، حوالي ٦٠٠ جندي أميركي. وتم العثور على الرئيس العراقي في حُفرة قذرة عمقها ٨ أقدام داخل

مزرعة على ضفاف دجلة قرب قرية الدور، وهو زعيم حزب البعث العربي الاشتراكي ومقاتل سابق وقائد غزو لدولتين وصديق سابق لجاك شيراك وحائز على مديح الرئيس ريغان. كان من الصعب، من خلال النظر إلى هذه الصور لأسد بغداد ـ كما كان يصف نفسه ـ التذكّر كم كان يبدو ملوكياً في الماضي. هذا هو الرجل الذي كان ضيف الشرف لمدينة باريس عندما كان شيراك عُمدتها وعندما كان الفرنسيون يتذكّرون اليعقوبيين من خلال نظامه الدامي. هذا هو الرجل الذي تفاوض مع الأمينين العامّين للأمم المتّحدة بيريز دي كويلار وكوفي أنان، والذي تحادث على فنجان من القهوة مع الرجل الذي أصبح وزيراً للدفاع الأميركي دونالد رامسفيلد، والذي قابل تيد هيث وطوني بن، وكان ضيفاً على رؤساء أوروبا.

شعرت بشيء من الرضى، عندما توجّهت إلى قرية الدور على نهر دجلة في شمال العراق، ووصلت إلى شجرة البرتقال حيث تمّ القبض على صدّام، ونزلت إلى الحفرة تحت الأرض وتمدّدت داخلها. منذ سبعة أشهر كنت جالساً على عرشه الرئاسي الأحمر في أكبر قصوره الرخامية، والآن أنا هنا أنزل إلى آخر مخبأ له.. وهو مكان رطب ومظلم وإسمنتي من الداخل ـ يبلغ طوله ٨ أقدام وعرضه ٥ أقدام ـ أشبه بسجن تحت الأرض كما يمكن أن يتصوّره أيّ من ضحاياه.

وبدل الثريّات المعلّقة، لم يكن هناك سوى مروحة بلاستيكية رخيصة مربوطة بفتحة التهويّة.. تذكرّت أوزيمانديا س: هنا في هذا المكان تحوّلت في النهاية جميع أحلامه إلى سراب... وكان المكان بارداً.

> وجدت الكتب الأخيرة التي طالعها صدّام في الكوخ، منها: الأعمال الفلسفية لابن خلدون، والعقائد الدينية، المؤيّدة للشيعة، للمنظّر العبّاسي الإمام الشافعي.. ومجموعة من كتب الشعر العربي. كانت هناك أشرطة أغانٍ عربية، وبعض الصور البالية لخراف عند المغيب وسفينة نوح مليئة بالحيوانات. لكن لم يظهر المكان شبيهاً بمقرّ قيادة للمقاومة أو مكان يمكن شنّ حرب منه أو البدء بانتفاضة

أو مثل مخبأ لهتلر مع رجال مخابراته ومعاونيه وهم يتلقّون آخر أوامره.

ومن أجل التوغّل أكثر داخل أكثر الحفر شهرة، كنت مضطراً إلى الجلوس عند المدخل الخشبي وإنزال قدميّ في فتحة ضيّقة لأجد نفسي على أربع درجات من الطين ... ولمتابعة الدخول إلى ما تبقّى من تاريخ حزب البعث كان عليك استخدام يديك. بعدها تجد نفسك جالساً على الأرض. لم يكن هناك ضوء أو ماء، وإنما جدران من الإسمنت ومروحة وسقف مصنوع من ألواح الخشب، وفوقها تراب ثم أرضية إسمنتية لكوخ المزرعة. فوق هذه الزنزانة الكئيبة تحت الأرض، كانت هناك شبه جنّة من أشجار النخيل الكثيفة وأشجار البرتقال المثقلة بالثمار الذهبية ومجموعات من القصب، وأصوات الطيور المختبئة داخل أغصان الأشجار. وهناك أيضاً زورق أزرق قديم مربوط خلف حائط من سُعف النخيل، وكان هذا آخر وسيلة للهرب عبر نهر دجلة الفضّي في حال أطبق عليه الأميركيون.

بالطبع أطبقوا عليه من اتجاهين، من النهر وعبر الممرّ الضيّق الموحل نفسه الذي أخذني إليه جنود الكتيبة الرابعة من مُشاة البحرية الأميركية. ربّما سارع صدّام إلى الهرب من الكوخ حيث كان يتناول طعامه وعاد إلى الحفرة بسرعة وقد قلب طبقاً من الحبوب ومن الحلويات التركية على الأرض كما لاحظت. وعندما قام الأميركيون بتفتيش الكوخ، لم يجدوا شيئاً مريباً ـ سوى إناء النبات موضوع بشكل غريب فوق سُعف نخيل يابسة... كان قد وضِع هنا من قِبل رجلين تمّ القبض عليهما في وقت سابق وهما يحاولان الهرب. وقد وجدوا مدخل الحفرة تحت الإناء.

كان الجنود يتهادون في سيرهم حول «الموقع» (وهي الكلمة التي استخدموها كما لو أنهم اكتشفوا موقع مدينة سومرية أثريّة وليس قنّاً صغيراً موحلاً بعثياً مزيّفاً)، وكانوا غير مبالين إلى حدّ التعب المملّ... طلبوا مني أن أترجم لهم الكلمات العربية الموجودة فوق غرفة نوم صدّام.. كانت تبدأ بفاتحة

القرآن: بسم الله الرحمن الرحيم.. وأعطاني الجنود مصابيحهم لكي أتنقّل داخل مطبخ صدّام..

إذن، ماذا كان يمكن أن نعرف عن صدّام من خلال ذلك: أي من خلال مكان إقامته الخاصّ والأخير في العراق؟ حسناً، لقد اختار مخبأ يبعد ٢٠٠ متر فقط عن موقع يدلّ على انسحابه الشهير عبر نهر دجلة عام ١٩٥٩ عندما كان هارباً وجريحا بعد محاولته اغتيال رئيس سابق. وهنا حيث استخرج الرصاصة من جسده، وعلى تلّة منخفضة تطلّ على أشجار النخيل يقوم مسجد يهدي إلى المكان ومقهى طلب فيه صدّام بيأس مساعدة رجال القبائل للهرب. انسحب صدّام في أيامه الأخيرة إلى حيث ماضيه، إلى أيّام العزّ التي سبقت مجازره.

كان يستخدم محوّلاً صغيراً، وجدته موصولاً ببرّاد صغير. وكان هناك سريران صغيران وبعض الأغطية القذرة. وفي المطبخ الصغير وجدت بعض المقانق مدلّاة للتجفيف وموزاً وبرتقالاً بالإضافة إلى مُعلّبات من لحوم الدجاج والعجل الأردني وعُلب سردين قرب المغسلة. وكانت ألواح شوكولاتة مارس Mars وحدها طازجة.

ماذا إذن، اكتشف صدّام هنا في أيّامه الأخيرة؟ راحة البال بعد سنوات من الجنون والبربرية؟ مكاناً يفكّر فيه بذنوبه الرهيبة وكيف انتقل ببلده من الرخاء إلى الغزو الأجنبي والعُزلة، ومن سنوات التعذيب والقمع إلى عالم من الذلّ والاحتلال؟ ربّما صدحت الطيور في الليل وتلاطمت فوقه أوراق النخيل.. لكن بعدها لا بدّ أن الخوف قد سيطر عليه وكذلك المعرفة المؤكّدة بأن الخيانة مِضمار مُستتر. ربّما كان الجوّ بارداً في هذه الحفرة.. لكنه لم يكن أبرد ممّا كان عليه عندما وصلت أيدي واشنطن القوية عابرة المحيطات والقارّات، وجاءت لتقبض في هذا البستان وتحت ذلك الإناء البشع على الخليفة المفترض وهو في زنزانته الضيّقة. ..

لكن كان هناك استنتاج آخر وافق عليه كلّ عراقي التقيته.. وهو أن هذا الرجل الممرَّغ، المثير للشفقة بشعره الطويل القذر، والذي يعيش في حُفرة

تحت الأرض مع ثلاث قطع من السلاح وأموال مثل أهل الكهف، ليس بالرجل الذي يقود الانتفاضة العراقية ضدّ الأميركيين. إذا كان الكثير من العراقيين يصرّحون، مثل الرجل الذي التقيته في الرمادي قبل القبض على صدّام، بأن السبب الوحيد لعدم انضمامهم إلى المقاومة ضدّ الاحتلال الأميركي كان الخوف ـ في حال انسحاب الأميركيين ـ من عودة صدّام إلى السلطة... حسناً، فإنّ هذا الخوف قد زال الآن. إذن، لقد انتهى الكابوس ـ على أنّ الكابوس كان على وشك البدء.. بالنسبة إلى العراقيين وإلينا على السواء.

تذكّرت عملية تفتيش أميركية في بغداد بعد القبض على صدّام.. كانت ثمّة أبواب تُركل وصراخ ولعنة على هذا ولعنة على ذاك، وعلى بعد أمتار قليلة رسالة طبعت على الحائط حديثاً، وقد كُتبت بلغة إنكليزية ركيكة، وكانت هناك عشرات الرسائل المشابهة مطبوعة على الجدران ضدّ المحتلّين. تقول الرسالة: «أيها الجنود الأميركيون عودوا إلى دياركم قبل أن تُصبحوا جثة في كيس أسود يلقى في النهر أو الوادي».

وبينما كانت واشنطن ولندن تتبادلان التهاني بالقبض على صدّام حسين، قتلت القوّات الأميركية ١٨ عراقياً على الأقلّ في شوارع ثلاث مدن رئيسية في البلاد. ويعرض شريط فيديو مأساوي عن مدينة الرمادي على بُعد ٧٥ كلم إلى الغرب من بغداد مؤيّدين عُزّلاً لصدّام حسين قُتلوا في الليل بينما كانوا يحاولون الهرب من القوّات الأميركية. وقتل الأميركيون ١١ آخرين في سامرّاء إلى الشمال من بغداد. وقد حصلت جميع عمليات القتل خلال تظاهرات المسلمين السنّة ضدّ اعتقال الأميركيين لصدّام. وبدأت عملية الاحتجاج عندما ظهر مسلّحون مع مدنيين اعتقدوا أساساً أن الأميركيين اعتقلوا أحد شبيهي صدّام وليس دكتاتور العراق السابق. لكنّ فرحهم انقلب إلى غضب عندما فتح الجنود الأميركيون النار عليهم في سامرّاء بعد ساعات قليلة. وكالعادة، ادّعى الجيش الأميركي أن القتلى الثمانية عشر هم من المتمرّدين وأن القوّات الأميركية تعرّضت لإطلاق نار في المدن الثلاث. لكن كان ذلك أيضاً ما تحدّثوا عنه في سامرّاء قبل أسبوعين عندما تفاخروا بقتل خمسين إرهابياً. وتوصّل الصحفيون

الذين حقّقوا يومها في عمليات القتل إلى نتيجة مُفادها أن القوّات الأميركية في المدينة تعرّضت لكمين بينما كانت تنقل أموالاً جديدة لمصرفيْن، وأن ضحايا إطلاق النار الأميركي الذين يمكن التأكّد من مقتلهم كانوا تسعة مدنيين، بينهم طفل وحاجّ إيراني.

كان ظهور مسلّحين عراقيين يعتمرون قبّعات أو مقنّعين يعملون لصالح الأميركيين عند نقاط التفتيش شمال بغداد ظاهرة جديدة مزعجة في ظلّ هذا المناخ من العنف العسكري المتزايد. كان خمسة منهم يقومون بتفتيش السيّارات على جسر نهر دجلة خارج سامرّاء، وكانوا مقنّعين على ما يبدو خشية أن تُعرف هويّاتهم في حال كانت وجوههم مكشوفة. كانوا يرتدون ملابس ميليشيا رغم ادّعائهم أنهم جزء من قوّات الدفاع المدني العراقية التي يدعمها الأميركيون.. ولم تكن لديهم رتب أو شارات. وكان أمثال هؤلاء المسلّحين يظهرون في شوارع بغداد. قبل عمليات القتل في سامرّاء أوقف بعض رجال الشرطة سيّارتي خارج المدينة ليحذّروني من أن الأميركيين يخوضون معركة كبيرة ضدّ «المحاربين الدينيين» (وكنذير شؤم للقوّات الأميركية فإنهم كانوا يستخدمون كلمة «المجاهدين»)... وبسرعة اكتشفنا أن بعض هؤلاء الرجال (وربّما العديد منهم) كانوا أيضاً متمرّدين: رجال شرطة في النهار، وقتلة في الليل، على غرار ما حدث في الجزائر. وقد اتّبع أهالي القتلى تقاليد الجماعات القبلية تماماً كما فعلوا في الفلّوجة: يجب الانتقام للقتلى... وهكذا كان لا بدّ أن يتحوّل انتقامهم أيضاً إلى حرب مقاومة شملت كلّ المناطق المسلمة السنّية في العراق.

> عشيّة عيد الميلاد عام ٢٠٠٣، أيقظتني قوّة من الضغط الجوّي ارتجّت له نافذتي في بغداد... وقد هزّ دويّ الانفجار الجدران بلطف، فيما كان يختفي صوت سبعة عشر شخصاً. وغدا دويّ القنابل في بغداد عبارة عن مسرحية ماجنة بعد دقائق. وصلت إلى تقاطع طرق، وكان هناك باص صغير مدمّر فيه أشلاء ركّاب وأطفائي يبكي، إضافة إلى أجزاء شاحنة محطّمة وقد انشطر محرّكها نصفين، وسيّارتين تحترقان وإطاراتهما مشتعلة، وجسد متفحّم فظيع

المنظر خلف المقود. كانت القنبلة على متن الشاحنة. لكن الباص، لماذا يريد أحدهم تفجير باص مليء بالمدنيين العراقيين؟ كانت على الطريق أشلاء لحم بشري، وكتل معدنية ضخمة وأحذية وحقائب نسائية حول الباص حيث لا تزال أجساد العديد من الركّاب أو ما تبقّى منها في مقاعدهم بشكل يُرثى له. وقد بلغت الشظايا حيّ البيّاع بأزقّته الضيّقة ومجاريه المفتوحة وبيوته البشعة المبنيّة من الطوب والشبيهة بأوكار الأرانب والتي تناثرت نوافذها المحطّمة في تلك الأزقّة.

وصلت مجموعة من الجنود الأميركيين ومضى ثلاثة منهم وسط الحطام في الطريق المغمورة بالنفط للبحث عن المفجّر. كان الرقيب جويل هنشون من الكتيبة ١١ في الفرقة ٦٥ من الشرطة العسكرية الأميركية يحرس ما يمكن أن يكون بقايا أجزاء من جهاز التفجير، قنبلة كانت تلمع بلونها الرمادي البشع على الوحل قرب الطريق المزدحم. وكان هناك ما لا يقلّ عن ألف شخص يصرخون واقفين في ظلال الدخان وألسنة اللهب، رجال يضعون كوفيّات عربية ويرتدي العديد منهم سترات جلدية. ورأيت بعض رجال الشرطة قرب السيّارات المحترقة، ممن يقبضون أجورهم من الأميركيين، وكانوا لطفاء بملابسهم الزرقاء الباهتة وشارات الهويّة الصفراء. ثمّ وصلت سيّارة إطفاء جديدة وصبّت كمّيات كبيرة من المياه على ما تبقّى من الشاحنة والباص. كان «العراق الجديد» يردّ بفعاليّة على العنف المتصاعد. تقدّم مني شرطي وسألني إذا كنت أرغب في معرفة ماذا اكتشف.

«كانت الشاحنة تابعة لوزارة النفط، وهي شاحنة نفط بدون مقطورة رقمها ٥٠٠٢ وقد وجدنا ما تبقّى منها». وأعطاني الشرطي ملصقاً ذهبياً مكتوباً على أحد جوانبه كلمة «الله» بالعربية «ومحمّد» على الجانب الآخر. لقد نجا اسم الله ونبيّه من الانفجار ولم ينجُ شيء آخر. وتجمّع عشرة رجال حول أقرب سيّارة حيث كانت كومة من العظام خلف المقود الأسود المحترق. كان الباص الصغير من طراز مرسيدس قد جاء من محافظة ديالا شرق بغداد وعلى متنه عشرة رجال

ونساء وسائق استيقظوا عند الفجر للقيام برحلة روتينية إلى بغداد. لكن من المؤكّد أن الانتحاري كان في طريقه إلى هدف آخر وأن ما حصل هو انفجار مبكر. هل هناك مركز شرطة قريب؟ أجاب الرقيب هنسون: «كان هناك لكنّه دُمّر الآن». ثم قال صاحب محلّ أنه شاهد قافلة أميركية تسير على الطريق وقد حاولت الشاحنة اللحاق بها لكنّها اصطدمت بسيّارة قرب الباص الصغير. هل كان هو الهدف؟ بعد ساعات قليلة، أعلنت قوّات الاحتلال أن التفجير كان نتيجة حادث سير، شاحنة انفجرت عندما اصطدمت بالباص. إنها كذبة. وماذا عن القنبلة على الطريق؟. ماذا عن تحطّم المحرّك والمقطورة المفقودة؟ كان علينا العيش مع الأكاذيب: أن نقول أيّ شيء كي نُبقي عملية انتحارية أخرى بعيداً عن الصحافة.

فلنصدّق أننا انتصرنا، فلنصدّق أننا ما زلنا نقتل المتمرّدين. ذهبت إلى سامرّاء مجدّداً في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٣ وكان الطالب عصام نعيم حميد آخر «المتمرّدين المشهورين بالنسبة إلى أميركا»، وقد أُصيب في ظهره بينما كان يحاول حماية نفسه وعائلته في منزله الكائن في منطقة الجهرية من المدينة العباسية القديمة.

كانت الساعة الثالثة صباحاً، استناداً إلى تصريح والدته منال، عندما حضر جنود كتيبة المشاة الرابعة وبدأوا يطلقون النار على البوّابة. اخترقت إحدى الطلقات الباب واصطدمت بالنافذة ثم اخترقت ظهره ودخلت في الحائط الجانبي. وأصيب والده في رجله ونُقل إلى مستشفى تكريت وهو في حال خطرة.. كان عصام يصرخ من الألم في باحة الطوارئ في المستشفى، وأنبوب مثبت في بطنه تحت ضمادات مبلّلة بالدم.

ثم كانت هناك قضيّة المزارع مولود حسين (٣١ سنة) الذي كان يحاول إبعاد بناته الخمس وابنه إلى الغرفة الخلفية من المنزل المؤلّف من غرفتين قبل ساعات، قليلة عندما اخترقت رصاصة الباب والجدار الخارجي للمنزل وأصابته في ظهره. كان ابنه مصطفى يبكي قرب سريره. أمّا بناته الأربع بشرى وهدى وإسراء وحسا، فقد نجَون. اخترقت الرصاصة ظهر مولود ونفذت إلى بطنه. وقد

أزال الأطبّاء طحال المصاب. انتفض حامد (٤١ سنة) وهو شقيق مولود عندما رآه يتلوّى من الألم ـ حاول الرجل الجريح تحريك بده نحوي لكنه ذهب في غيبوبة ـ وقال إن ٢٣ طلقة أصابت المنزل في حيّ المثنّى في المدينة. ومثل عصام حميد ظلّ مولود ينزف عدة ساعات قبل أن تصل النجدة. وقد روت مُنال والدة عصام قصّة رهيبة. قالت: «كان لدى الأميركيين مترجم عراقي طلب منا البقاء في المنزل. لكن لم يكن عندنا هاتف ولم نستطع طلب سيّارة إسعاف وكان زوجي وابني ينزفان. وقال لنا المترجم إنه غير مسموح لنا بمغادرة المنزل». جلس حامد حسين قرب سرير شقيقه وهو يغلي من الغضب. قال: «قلتم إنكم ستجلبون لنا الحرية والديمقراطية لكن ماذا يفترض بنا أن نعتقد؟ أخذ الأميركيون جاري من أمام زوجته وولديه وأوثقوا يديه خلف ظهره، وبعد ساعات من الإذلال حضروا وقالوا لزوجته إن عليها أن تأخذ أشياءها الثمينة ونسفوا المنزل. إنه مزارع، بريء. ماذا فعلنا لنستحقّ ذلك؟». تساءلت: ماذا يفعل الناس عندما يُعاملون بهذه الطريقة؟ إذا كنّا نستطيع قتل بريء بهذه الطريقة، فما هي المدّة اللازمة إذن لكي يصبح بإمكاننا تعذيبهم؟ لاحقاً، أصبحت مدينة سامرّاء مثل الفلّوجة، مركزاً للمقاومة في وجه وحدة المشاة الأميركية الرابعة. وأبلغني رجل آخر في شارع قصف الأميركيون بيوته واستباحوها: «كنّا نريد من الأميركيين مساعدتنا. هذه منطقة سُنّية لكنّ العديد منا كانوا يكرهون صدّام.. إنّ الأميركيين يقومون بإذلالنا للانتقام من الهجمات التي حصلت ضدّهم من قِبل المقاومة». ذهبت إلى بيوت مدمّرة حيث أبلغني بعض الشباب أنهم ينوون الانضمام إلى المقاومة. قال أحدهم: «نحن رجال قبائل وأنا من عائلة السعيد، جامعيّ مسلم، لماذا يهاجم الأميركيون منزلي ويرعبون زوجتي وأولادي؟».

راجعت ملاحظاتي المدوّنة في مفكّرتي. تساءلت في أيار/مايو ٢٠٠٣ في الإندبندنت بعد شهر من دخول الأميركيين إلى بغداد: ألم يحن الوقت لتسمية ما يجري حرب مقاومة؟ لقد تنبّأت بالانتفاضة عند دخول القوّات الأميركية إلى بغداد، لكنّ السرعة التي وجد الأميركيون أنفسهم فيها في مواجهة جيش من

المقاتلين ينمو ويكبر كانت مذهلة. ربّما كانت حرب العصابات ستبدأ بعد خمسة أو ستة شهور. لكن بعد شهر واحد قُتل جنديان أميركيان وأُصيب تسعة آخرون على أيدي المسلّحين المجهولين في الفلّوجة، وأُصيب اثنان في بغداد، وأُلقيت قنبلة في أبو غريب. كانت هذه الحصيلة الصغيرة للعنف في يوم واحد بعد التحرير ـ ٢٧ أيار/مايو ٢٠٠٣ ـ دون أن نذكر المرأة المسلمة التي تقدّمت باتجاه القوّات الأميركية وهي تحمل قنابل يدوية لكنّها أُصيبت قبل أن تتمكّن من إلقاء إحداها، وعندما حاولت التقاط قنبلة ثانية من الأرض قتلها الأميركيون.

حتى هذه اللحظة، كان معظم سكّان بغداد يحصلون على ساعتين فقط من الكهرباء يومياً. وكانت صفوف الناس على محطّات البنزين تصل إلى ميلين في بلد صودرت فيه حقول النفط من قِبل القوّات الأميركية. وجرى إخراج الأطفال من المدارس الجديدة بعد الانتشار الواسع لعمليات الخطف والاغتصاب. وتحوّلت مراكز الشرطة المحروسة من قِبل القوّات الأميركية إلى أماكن محصّنة محاطة بالعربات المصفّحة والحرس بأسلحتهم الثقيلة في مواقع محميّة بدشم من الإسمنت. وأصبحت بغداد مدينة محاطة بالأسوار التي يبلغ ارتفاعها ٢٠ قدماً وتمتدّ عدّة أميال على طول الخطوط السريعة ومناطق التسوّق. وأصبحنا نحن الغربيين في حالة هروب، محاصرين داخل القاعات الرخامية لأجمل قصور صدّام، حيث كان ألوف الضبّاط الأميركيين والموظفين الرسميّين معزولين عن خمسة ملايين عراقي، وكانوا يعملون على أجهزة كومبيوتر لإقامة ديمقراطية جديدة محافظة حلم بها السيّدان رامسفيلد وبيرل وغيرهما. وعندما كان هؤلاء يغامرون بالخروج، كانوا يرتدون سترات واقية ويستخدمون عربات مصفّحة مع مرافقة مسلّحة بشكل جيّد.

كانت القوّات الأميركية تتجوّل في بغداد كما فعلت القوّات الإسرائيلية في جنوب لبنان طالبة من السيّارات الابتعاد عن آليّاتها تحت طائلة القتل . كان التحذير مطبوعاً بالعربية على مؤخرة آليات هومفي: «إبقَ على بعد ٥٠ ياردة من هذه الآليّة أو تتعرّض للقتل». وقد قام بريمر بمنع صدور صحيفة شيعية واسعة

الانتشار يشرف عليها مُقتدى الصدر وحزبه الصغير بسبب إثارتها النعرة الطائفية ومقارنتها له بصدّام حسين. لذلك انتفضت ميليشيا الصدر ضدّ الأميركيين وحوصرت في النجف التي حاصرها الإنكليز منذ ثمانين عاماً، وقامت مروحيّات الأباتشي بقصف حيّ الشعلة الشيعي الفقير في بغداد بالمدافع. وأصبحت المدن العراقية مسرحاً للصوص والمغتصبين وتُركت أقدم المدن الأثرية الكبيرة ـ سامرّاء ـ بدون حماية ولذلك تحرّك إليها جيش من اللصوص ليدمّروا كنوزها من الأواني الأثرية التي يعود تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة، محوّلين الأماكن الأثرية إلى رُكام كما لو أن طائرات B52 قد مشّطت الصحراء بالقصف... لكن وصل تمزّق المدن السومرية بعد الحرب الى درجة لا تُطاق. وقد أدّى التحرّك الدولي الذي تبع سرقة كنوز بغداد إلى قيام واشنطن بإرسال فريق تحقيق مشترك من وكالة الاستخبارات ومكتب التحقيقات الفدرالي للتحقيق في السرقات. وسوف يذكر المؤرّخون أن هذا التدمير الشامل للتراث كان من أكثر المآسي الدائمة «للتحرير» الأنغلو ـ أميركي للعراق(*).

كان من الممكن التكهّن بشعور العراقيين إزاء هذا الأمر... وذلك من خلال مراقبة سيطرة أميركا الرهيبة على هذا الجزء من العالم بواسطة القوّة التدميرية الهائلة والقواعد والقوّات في أوروبا والبلقان وتركيا والأردنّ والكويت وأوزباكستان وأفغانستان وتركمنستان والبحرين والدوحة وعمّان واليمن وإسرائيل وبالطبع في العراق. وثمّة جيل من الشباب صَلُب في حرب الثماني سنوات ضدّ إيران، وترعرع وهو لا يعرف شيئاً غير العذاب والموت. ما هو معنى الحياة بالنسبة إليهم اليوم؟ وإذا انضمّ السنّة من هذا الجيل إلى أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة فما هو مدى الدمار الذي سيلحقونه بالقوّات الأميركية وبكلّ مَن يختار

(*) بلغ عدد القطع التي نُهبت من متحف بغداد نحو ١٥٠٠٠ قطعة.. ورغم بعض التطبيل والتزمير في الإعلام الغربي حين كان يتمّ استرجاع بعض القطع، فإن حوالي ١١٠٠٠ قطعة كانت لا تزال مفقودة حتى حزيران/يونيو ٢٠٠٥، من ضمنها «الموناليزا» الشهيرة التي عمرها ٣٥٠٠ سنة والتي هي عبارة عن رأس من العاج لامرأة أشورية.. ومن بين الـ ٤٠٠٠ قطعة المكتشفة، وجِد ١٠٠٠ منها في الولايات المتحدة، و١٠٦٧ في الأردنّ، و٦٠٠ في إيطاليا.. والباقي في بلدان مجاورة للعراق..

الوقوف إلى جانبها؟ كان هناك جيش عراقي يولد من جديد ويتكوّن في الظلّ، تصقله أكبر حروب الشرق الأوسط، ويسانده جيش من الانتحاريين... إن هذا عدوّ يستطيع تحدّي أيّة قوة عظمى.

لكن كان لا بدّ أن تستمرّ المسرحية الخيالية. اعترف الأميركيون بجزء فقط من الهجمات ضدّ قوّاتهم رغم المقاومة المسلّحة الواسعة للاحتلال. وبالرغم من اعتراف سلطات الاحتلال بالهجمات التي أدّت إلى مقتل جنودها، فقد أبقت طيّ الكتمان مجموعة من الهجمات والعمليات ضدّ دوريّاتها وقواعدها داخل بغداد وحولها. حتى الآن كانت الحقيقة، التي لم ينقلها الإعلام بشكل واسع، تتلخّص في أن الأميركيين لم يعودوا آمنين في العراق بعد اليوم: لا في بغداد والمطار اللذين استولوا عليهما بضجّة إعلامية في أوائل نيسان/أبريل ٢٠٠٣، ولا في قواعدهم العسكرية أو على طرقات بغداد أو داخل مروحيّاتهم غير المنيعة أو في أنحاء البلاد. وقد تمّ إسقاط مروحيّات في الفلّوجة وانفجرت طائرة C-130 في الجوّ بواسطة صاروخ.

وردّت القوّات الأميركية بالأسلوب الذي تردّ به كلّ الجيوش المحتلّة... وصارت معسكرات اعتقالها أماكن عارٍ مُخزية... وكان السجناء (البالغ عددهم حتى أيار/مايو ٢٠٠٣ حوالي ١١٣٠٠ سجين في العراق وحده) يتعرّضون للضرب خلال التحقيق. ومات حوالي ٣٠ شخصاً في السجن في العراق وأفغانستان عام ٢٠٠٥ ... وغالباً بعد جلسة تحقيق قاسية.

ونحن نميل إلى الاعتقاد أننا اكتشفنا ذلك فقط عندما ظهرت إلى العالم الصور البشعة لسجن أبو غريب عام ٢٠٠٤. . ولكني اكتشفت في ملفّاتي أنّي أنا وزميلي باتريك كوكبورن كنا نكتب عن التعذيب وانتهاك حقوق الإنسان في السجون منذ أواخر صيف ٢٠٠٣. ومع أنّ كلمة «مصادر» تبدو غريبة في الصحافة اليوم، فإنّ مصادري حول عمليات التعذيب الأميركية في العراق كانت دقيقة. واليوم يحصل ذلك في القواعد العسكرية الأميركية في جميع أنحاء العراق... وقد تفاخر جنرال من القوّات الخاصّة الأميركية بعمليات التعذيب أمام صديق لي قائلاً إنها «مفيدة»... وكان مخطئاً... ذلك أن أعمال التعذيب تخلق المقاومة وتخلق الانتحاريين. وغالباً ما ينتهي التعذيب بمقتل المُرتكبين. أتذكّر

قرية خان داري حيث قُتل أوّل جندي أميركي على الطريق في تموز/يوليو ٢٠٠٣ نتيجة تفجير عبوّة ناسفة. كان دمه لا يزال على الطريق السريع وكان الحشد يتشفّى بموته. وتقدّم مني رجل أراد التحدّث في السياسة وكان عنيفاً في حواره. قال إنه «كان أسيراً عند الأميركيين وتعرّض للضرب بوحشية» وأضاف: «هذه هي الطريقة التي نتعامل بها مع المحتلّين. حضروا وأبلغونا أنهم محرّرون لكن عندما أدركنا أنهم محتلّون كان علينا قتالهم. نحن شعب صُلب وسوف نحرق الأميركيين وجميع المحتلّين الآخرين». ثم حصل شيء مخيف ومرعب عندما قال: «عندي طفلة عمرها سنة وسأكون سعيداً أن أضع قنبلة في ملابسها وأرسلها لقتل الأميركيين».

في أواخر تموز/يوليو ٢٠٠٣، جمع محقّقو منظمة العفو الدولية ملفّاً مُخزياً حول قيام قوّات الاحتلال الأنغلو ـ أميركية في العراق بتعذيب السجناء غير عابئين بأوامر المحكمة العراقية إطلاق سراح السجناء، وباستخدام القوّة المُفرطة ضدّ المتظاهرين، وبقتل المدنيين الأبرياء، وتنفيذ قوانينهم الخاصّة لمنع المحاكم العراقية المشكّلة حديثاً من ردع الجنود الأميركيين والإنكليز عن ارتكاب جرائم في البلاد. وقد اكتشفت منظمة العفو الدولية أيضاً فقدان مبالغ ضخمة من المال بعد اقتحام القوّات الأميركية على البيوت. وفي إحدى القضايا حصلت المنظمة على اعتراف ضابط من الكتيبة الأميريكية ١٠١ بأنّه أخذ مبلغ ٣ ملايين دينار عراقي من أحد المنازل. في قضيّة أخرى، وجدت منظمة العفو أن راضي وهو مزارع عراقي وأب لثلاثة أطفال توفّي وهو نائم في المعتقل البريطاني بعد ساعات من توقيفه في جنوب البلاد. ويوم ١٠ أيار/مايو، قدّم الجنود البريطانيون تقريراً مكتوباً أرسلوه إلى العائلة يزعم أنه عانى من سكتة قلبية بينما كان يجيب على الأسئلة حول ابنه. وقد تمّ نقله إلى المستشفى العسكري وطُلب من العائلة التوجّه إلى هناك دون إبلاغها بموته. ولمّا ذهبت العائلة إلى المستشفى لم تجده وفي وقت لاحق وجدته في المشرحة حيث تم إحضار جثّته المجهولة من قبل الشرطة العسكرية البريطانية قبل يومين. وتوفّي بهاء موسى، وهو موظف في أحد فنادق البصرة، في مركز الاعتقال البريطاني حيث جرى تعذيبه حتى الموت.

في حالتَي اعتقال جرتا على الأقلّ في العراق من قِبل عناصر المخابرات الأميركية، قُتل طالب الفيزياء ناصر عبد اللطيف (٢٣ سنة) في هجوم على منزله قام به رجال المخابرات المسلّحين، وأثناء بحث القوّات الأميركية عن عضو بارز في حزب البعث أغارت على منزل خريسان عبالي يوم ٣٠ نيسان/أبريل واعتقلته مع والده البالغ من العمر ٨٠ عاماً. وقد قُتل شقيقه دون إبلاغ العائلة واقتيد عبالي الذي ادّعى عدم معرفته بالمسؤول العراقي إلى التحقيق. وصرّح أنهم أجبروه على الوقوف والركوع قرب الحائط طيلة سبعة أيام ونصف يوم مقيّداً بقيود بلاستيكية. وأفاد أن جندياً أميركياً ركله على قدمه وكسر أحد أصابعه(*).

أصدرت سلطة التحالف المؤقّتة بقيادة بول بريمر (وهو اسم صار ينضح بالاعتذارات لمجرّد أنه موجود) مراسيم قاسية وكأنها الأمبراطور الروماني يصدّ غارات قبائل القوط و الويزيغلوط والأوستروقوط عن أبواب العاصمة Ostrogoths & Visigloths & Goths. لقد تقرّر تسريح الجيش العراقي ليصبح عشرات الألوف من رجاله المسلّحين دون عمل... والآن ماذا يتصوّر بريمر أنهم سيفعلون في أوقات فراغهم؟. وجرى تحصين محيط قصر صدّام الرخامي بالأسلاك الشائكة، حيث سيعمل بريمر ومستشاروه الأطفال الأذكياء وخبراء مكافحة الإرهاب على حكم العراق. وصارت «سلطة التحالف المؤقّتة» (التي كانت أميركية أساساً مع حليفها البريطاني طوال فترة الحرب) تبدو شيئاً فشيئاً ومع مرور الأيام أنها أكثر ديمومة، وأقلّ سلطة. أمّا مجلس الحكم الانتقالي وأعضاؤه الخمسة والعشرون الذين يمثّلون توازن الشيعة والسنّة والأكراد والعلمانيين فكان موضع سخرية. وكان عمله الأول، بإشراف رجل البنتاغون الشيعي أحمد الجلبي، إعلان يوم ٩ نيسان/أبريل يوماً وطنياً احتفالاً بسقوط

(*) إن أكثر التقارير إدانة لسوء معاملة القوّات الأميركية للسجناء (بما في ذلك تسليمهم إلى الدول التي سيخضعون فيها للتعذيب) هو تقرير منظمة العفو الدولية البالغ ٢٠٠ صفحة والمنشور يوم ٢٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٤ بعنوان: «الولايات المتحدة: تجاهل لكرامة الإنسان، تعذيب ومسؤولية في «الحرب على الإرهاب»....

صدّام حسين.. أو هذا ما بدا على الأقلّ في الغرب. أما بالنسبة إلى العراقيين فإن يومهم الوطني الأول كان اليوم الأول لاحتلال بلادهم من قِبل الأجنبي.

كان الأميركيون يشترون الوقت ويتّخذون القرارات بحافر قدمهم، وقد فشلوا في تقييم آثار أيّ عمل من أعمالهم. أولاً كان هناك جاي غارنر، صاحب شعار: «أنفخْ صدرك وافتخرْ وأنت تقول أنا أميركي»، الرجل الذي قابلته آخر مرّة في كردستان عام ١٩٩١.. ثم جاء الخبير الشهير في «مكافحة الإرهاب» بول بريمر الذي قام بقتال البعثيين في بغداد ثم عاد لتوظيف الأساتذة البعثيين في الجامعة، والذي واجه مقتل جندي أميركي كلّ يوم بإعادة توظيف عصابات القتل الصدّامية في مراكز التعذيب لمساعدته في الحرب على الإرهاب. أصبحت ٦٣ فرقة أميركية داخل المِرجل العراقي الآن، وكانت خمس فرق أخرى منتشرة في ما وراء البحار، والقوّة المجوقلة ٨٢ التي غادرت أفغانستان تعيد انتشارها في شمال العراق. وقد سخر بوش في حزيران/يونيو ٢٠٠٣ من المقاتلين أعداء أميركا قائلاً: «أحضروهم إلى هنا». وقد أخذوا كلامه على محمل الجدّ ونفّذوه... ولم يكن هناك أدنى دليل على أن تخيّلات الإدراة الأميركية حول «ألوف المقاتلين المسلمين الأجانب الذين تدفّقوا على العراق لقتل الأميركيين» قد أصبحت حقيقة.

لكن سرعان ما صارت هذه التخيّلات واقعاً ظاهراً للعيان. فماذا كان يمكنهم أن يقولوا لنا حينذاك؟ ألم يتمّ غزو العراق للقضاء على الإرهاب وليس لإعادة خلقه؟ قالوا لنا إن العراق سوف يتحوّل إلى «ديمقراطية» وفجأة أصبح ساحة لحرب أخرى «ضدّ الإرهاب».

كان بوش يعلن لشعبه «أن أميركا تواجه الإرهابيين في العراق وأفغانستان وذلك لكي لا يكون على شعبنا مواجهة العنف الإرهابي في نيويورك.. أو لوس أنجلوس..». إذن هكذا كان الأمر.. العمل على جذب جميع هؤلاء «الإرهابيين» القذرين إلى «عراقنا المحرّر»، الذي نحبّه كثيراً، وبذلك يتركون بلادنا وشأنها!!.

عندما تمّ تدمير البرجيْن التوأم في نيويورك، مَن كان قد سمع بالفلّوجة؟ عندما قاد القتلة طائرتهم إلى داخل البنتاغون يوم ١١ أيلول/سبتمبر مَن كان قد سمع بالرمادي؟ عندما قاد الخاطف اللبناني طائرته وتحطّمت في بنسلفانيا مَن كان يعتقد أن الرئيس بوش سيعلن في آب/أغسطس ٢٠٠٣ «فتح جبهة جديدة في الحرب على الإرهاب» في الوقت الذي انخرطت فيه قوّاته في حملة يائسة ضدّ المقاتلين في العراق؟ مَن كان يتصوّر أن رئيساً أميركياً يدعو العالم إلى حمل السلاح ضد «الإرهاب» في أفغانستان والعراق وغزّة؟.

غزّة؟ ما هي علاقة الفلسطينيين البؤساء، المسحوقين، والمسجونين بقسوة في غزّة بالجرائم الدولية ضدّ الإنسانية التي وقعت في نيويورك و واشنطن وبنسلفانيا؟ لا شيء بالطبع. مثلما لم نكن للعراق أيضاً أيّة علاقة بالحادي عشر من أيلول/سبتمبر.. وكما أنّ الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لم يغيّر العالم. لقد استخدم الرئيس بوش بخبث مشاعر الحزن والألم لدى الشعب الأميركي ـ وعطف بقيّة العالم ـ وذلك لفرض «نظام عالمي»، صاغ مشروعه عصابة من الحالمين الغربيين من مستشاري وزير الدفاع دونالد رامسفيلد. كان «تغيير النظام العراقي»، كما صرنا نعلم جميعاً الآن، قد صيغ كجزء من ملفّ حملة ريتشارد بيرل وبول ولفوفيتز لإيصال رئيس الوزراء بنيامين ناتانياهو إلى السلطة، وذلك قبل سنوات من وصول بوش إليها.

إن انخراط طوني بلير في هذه الحملة، من دون إدراك لما يمثّله من مشروع خطّط له عدد من المحافظين الجُدد الموالين لإسرائيل بالتعاون مع الجناح اليميني للمتشدّدين المسيحيين، أمر يتعدّى التصوّر.

ولكن، حتى في هذه اللحظة، ما زلنا نُغذّى بالأوهام... فأفغانستان هي «نجاح» ما زال السادة بوش وبلير ورامسفيلد يتفاخرون به، فيما لا يزال أُمراء الحرب الأفغان المأجورون يغتصبون ويقتلون أعداءهم، ومعظم نساء أفغانستان محجّبات بالبرقع، وأفغانستان المنتج الأول للأفيون في العالم، وشعبها يُقتل بمعدّل مئة شخص في الأسبوع. بحلول عام ٢٠٠٥، عاد الطالبان بقوّة وكذلك

القاعدة وقاموا بقتل أميركيين، وليس روسيين. وكان العراق يشكّل أيضاً «نجاحاً»، رغم تصاعد كراهية المقاتلين والمشاعر الشعبية المعادية ورغم نُذر المراحل الأولى لحرب أهلية... يحتاج بوش الآن إلى ٨٧ مليار دولار لإبقاء العراق في وضع جيّد، وبات راغباً في العودة إلى الأمم المتحدة نفسها التي كان قد وصفها عام ٢٠٠٢ بأنها «دكّان للكلام».. ويريد أيضاً تجهيز الجيوش الغربية للذهاب إلى العراق للموت في حرب الاحتلال الأميركي وذلك لتقاسم أتراح الاحتلال وتكاليفه، ولكن ليس للمشاركة في اتخاذ القرار، الذي ينبغي أن يظلّ وقفاً على إرادة واشنطن الإمبريالية.

والأدهى من ذلك أنه كان على العالم الموافقة على الصيغة المجنونة القائلة بأن الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني هو جزء من هذه المعركة الرهيبة. إنها آخر حرب تُشنّ على كوكبنا من أجل الاستعمار، رغم أن الحديث عن المستوطنات اليهودية غير الشرعية في الضفّة الغربية وغزّة شُطب من رواية الشرق الأوسط في البيانات الأميركية حول «الحرب على الإرهاب»... إنها الصدام الكوني بين كلّ أطراف التطرّف الديني الذي خلقه الرئيس بوش بعد ١١ أيلول/سبتمبر... هل كان يمكن خدمة مصالح إسرائيل بشكل أفضل مما فعلته حركة بوش الصبيانية تلك؟ لقد تمّ الآن إدراج الانتحاريين الفلسطينيين الأشرار والاستيطان اليهودي الضخم، واليهودي حصراً، في المستوطنات، ضمن هذا الصراع الكبير الذي يخوضه «الخير» في وجه «الشرّ» والذي صار فيه حتى أرييل شارون «رجل سلام» وفقاً للسيّد بوش.

في البنتاغون كان هناك بعضٌ من رجاحة العقل. كانوا يعيدون عرض فيلم «جيلو بونتيكورفو» عن الحرب الفرنسية في الجزائر. لقد أظهر فيلم «معركة الجزائر» ماذا حلّ بمقاتلي جيش التحرير الوطني والجيش الفرنسي على السواء، عندما أصبحت حربهم قذرة. كانت الرسائل تُبعث إلى مسؤولي البنتاغون لمشاهدة هذا الفيلم الضخم والمؤلم، وهي تبدأ بكلمات: «كيف نكسب الحرب على الإرهاب ونخسر حرب الأفكار». وكان بإمكانهم أن يضيفوا: «ادعموا كلّ مقاومة في الشرق الأوسط». وقد صرّح لي مسؤول فلسطيني في أحد مخيّمات

بيروت عام ٢٠٠٣ قائلاً: «إذا كان من الممكن إذلال القوّة العظمى حليفة إسرائيل في العراق من قِبل العرب، فلماذا نوقف صراعنا ضدّ الإسرائيليين الذين لا يمكن أن يكون جنودهم أكثر كفاءة من الأميركيين؟».

هذا هو الدرس الذي تعلّمه الجزائريون عندما شاهدوا الجيش الفرنسي القوي يستسلم في ديان بيان فو. لقد نجح الفرنسيون، مثل الأميركيين في العراق وأفغانستان، في قتل أو تصفية العديد من الجزائريين الذين فاوضوا على وقف إطلاق النار معهم. لكن البحث عن «مُحاور جزائري ذي صدقية» كان من أصعب مهامّ ديغول عندما قرّر مغادرة الجزائر. لكن ماذا يستطيع الأميركيون أن يفعلوا؟ كان من الممكن قيام الأمم المتحدة بلعب دور المحاور. لكنّ الأمم المتحدة سقطت كمفاوض من خلال قيام انتحاري بتفجير مقرّ قيادتها في بغداد. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الصليب الأحمر الدولي... لم يكن الثوّار مهتمّين بمفاوضات من أيّ نوع كانت. لقد أعلن بوش «حرباً بلا نهاية»... وبدا أنّ العراقيين، ومعهم نحن أيضاً، سيكونون ضحاياها الرئيسيين.

ذهبت إلى سجن أبو غريب في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣ أي قبل سبعة أشهر من قيام الأميركيين بارتكاب عمليات تعذيب ومعاملة سيّئة للسجناء في مركز صدّام القديم للقتل. طلبوا مني عدم التحدّث إلى السجناء. كنا نراهم خلف أكوام القذارة يقفون في الحرّ قرب الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمبنى. وقيل لنا لا تأخذوا صوراً للسجناء. لا تدخلوا المبنى. لا تتخطّوا الأسلاك الشائكة. ومن بين ٨٠٠ سجين عراقي كانت هناك حفنة صغيرة من «المعتقلين الأمنيّين» والبقيّة من «المجرمين الجنائيّين»... ولكن حتى تلك اللحظة عاش معظمهم تقريباً هنا في الحرّ والغبار والقذارة. ولذلك كان الأميركيون مسرورين جدّاً لرؤيتنا في سجن صدّام القديم السيّيء. وكانت رسالتهم: إن الأمور تتحسّن..

أمرتْ البريغادير جنرال جانيس كاربنسكي، قائدة كتيبة الشرطة العسكرية الأميركية ٨٠٠، بتنظيف غرف السجن المحروقة والمنهوبة، لكي تستوعب مئات السجناء. وتمّ إنشاء مركز طبّي جديد فيه أدوية وآلات أشعّة وآلة لفحص الضغط وضِعت في تصرّف السجناء. وفي الزنازين المطليّة حديثاً، كانت هناك أغطية

وفُرش أسنان ومعجون أسنان وصابون وشامبو لكلّ رجل، وضِعت لهم (وربّما لنا لكي نراها) بشكل مرتّب فوق أغطية أسرّة السجن. تلك هي الزنازين نفسها التي سيُحتجز فيها السجناء عُراة أو تجرّد النساء من ملابسهنّ أو يتمّ تعريضهنّ لعضّات الكلاب. وهذه هي الردهة التي ستحتجز فيها جندية سجيناً عارياً بمقود كلب، وحيث وضِع السجناء العراقيون بعضهم فوق بعض عُراة على الأرض. وقد أصبحت الجنرال كاربنسكي لاحقاً كبش الفداء في البنتاغون لما حصل هنا.

كانت الجنرال كاربنسكي امرأة قاسية ـ كانت ضابط مخابرات في القوّات الخاصّة السابعة في ثكنة براغ وخدمت كضابط «إحداثيات» في السعودية بعد غزو صدّام للكويت عام ١٩٩٠ ـ ولكن بالعودة إلى أيلول/سبتمبر ٢٠٠٣ فقد وجدت في البداية بعض الصعوبة في أن تتذكّر التمرّد الذي حصل في السجن قبل أربعة أشهر واستخدمت فيه القوّات الأميركية «القوّة القاتلة»، وذلك عندما ألقى السجناء المحتجّون الحجارة وأعمدة الخِيَم على الشرطة العسكرية الأميركية، وقتلت القوّات الأميركية سجيناً شاباً. وقد جاء معظم «السجناء الأمنيّين» ـ قالت دعاية كتيبة الشرطة العسكرية ٨٠٠ إن لديها مسؤولية «الاهتمام» بالسجناء وليس حراستهم ـ من محيط مطار بغداد حيث قالت الجنرال كاربنسكي إنهم كانوا من رجال المقاومة. لاحظ كلمة مقاومة عوضاً عن إرهابيين. وعندما سألتُ ما إذا كان هناك معتقلون غربيّون أجابت إنها تعتقد أن هناك ستة يدّعون أنهم أميركيون واثنين من بريطانيا. وسوف ينفي ذلك، بعد ٢٤ ساعة، الجنرال ريكاردو سانشيز، القائد الأميركي في العراق، والذي اتّهم بإساءة معاملة السجناء في أبو غريب عام ٢٠٠٥. ولم يُعط أيّ تفسير طبعاً.

ثم جاء الطبيب الرئيسي لسجن أبو غريب، واسمه الدكتور مجيد. وعندما سألته ماذا كان عمله عندما استخدم صدّام المكان مركزاً للتعذيب والإعدام، أجاب أنه كان رئيس أطبّاء سجن أبو غريب إبّان حكم صدّام. قال: «كلّا لم أحضر أبداً عمليات الإعدام. لم أستطع تحمُّل ذلك... كنت أرسل الأطبّاء الشباب لكتابة شهادات الوفاة». ليس في الليل طبعاً، عندما كان رجال

المخابرات يُحضرون السجناء السياسيين لإعدامهم. قال الدكتور: «خلال النهار كان يتمّ إعدام القتلة».. «. . . القتلة؟ القتلة؟ مَن كان يعني بهذه الكلمة؟

قيل لنا إن الحرّاس الجُدد للسجن العراقي الجديد تدرّبوا على حقوق الإنسان ـ بمن فيهم ضابطان خدما إبّان حُكم صدّام. ولا عجب إذن أن تقول الجنرال كاربنسكي إن الأميركيين لم يختاروا الأطبّاء ـ كان ذلك عمل وزارة الصحّة العراقية الجديدة ـ كان في أبو غريب ضبّاط من المخابرات الأميركية.. لكن كلّا.. لم تكن الشرطة العسكرية حاضرة خلال التحقيقات. أجل، زارت الجنرال كاربنسكي غوانتنامو لأيّام قليلة لكنّها لم تجلب معها إلى بغداد أية دروس تعلّمتها هناك(*).

بالطبع، أخذونا في زيارة استطلاعيّة إلى غرفة الموت القديمة في أبو غريب: غرفة الإعدام المزدوج حيث تعرّض فرزاد بازوفت مراسل الأوبزرفر وآلاف العراقيين للإعدام. دفعت الجنرال كاربنسكي الباب الحديدي فتردّدت أصداؤه بين الجدران. وقال الدكتور مجيد إنه لم يسمعها من قبل.. وحتى إنه لم يكن أبداً عضواً في حزب البعث. لذلك فلنكتب هذا للتاريخ: لم يكن رئيس الأطبّاء في أقذر سجون صدّام ـ الذي هو حالياً رئيس الأطبّاء في أنظف سجن عراقي ـ عضواً في حزب البعث قطّ ولم يحضر أبداً أيّة عملية إعدام.

بالطبع هناك أشياء يتحرّك لها كل قلب إلا إذا كان من حجر.. وهي الكلمات الأخيرة المكتوبة أو المحفورة على جدران زنزانات الموت القذرة، على بُعد خطوات قليلة فقط من المشانق. «أحمد قمبل ٨/٩/ ٢٠٠٠ ، أحمد

(*) في رسالة عبر البريد الإلكتروني وردت في ٢١ أيار/مايو ٢٠٠٥ إلى صحيفة الإندبندنت كتبت كاربنسكي: «زرت غوانتنامو لفترة تقلّ عن يوم... كنت هناك لحلّ بعض المشاكل بين ضابطين ولم يكن هناك أي شيء مرتبط بعمليات الاعتقال إطلاقاً. كان عندي سلطة للدخول إلى كلّ زنازين السجن في أبو غريب. وعندما تحوّل السجن إلى مركز قيادة للمخابرات العسكرية في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣، لم يتغيّر تصريح دخولي للسجن. كان التحديد يتعلّق فقط بالساعات التي كان مسموحاً لي فيها بزيارة أبو غريب... لم يكن مسموحاً لي بالذهاب إلى هناك في ساعات الظلمة... وذلك بسبب الخطر المتزايد للسفر ليلاً... كانت معظم المعاملة السيّئة والتعذيب في أبو غريب تحصل خلال الليل».

عزيز من محافظة النجف ومعه جباح، ٢٠٠١/٩/٢، عباد أبو محمد». في بعض الأحيان كتبوا عبارات مستوحاة من القرآن... «الموت حياة للمؤمن» «الموت أفضل من العار». كم من الشجاعة تطلّبت كتابة مثل هذه الكلمات، آخر كلماتهم على الأرض.

لكن كان هناك بعض الترتيب في كل ذلك. ففي مقابل قساوة صدّام كانت أيّة مؤسّسة تبدو نظيفة بشكل صارخ. ومع ذلك كان هناك الكثير مما ليس نظيفاً تماماً في أبو غريب مثل المطابخ الحديثة. ولم تكن هناك حتى الآن محاكمة قضائية للقتلة المفترضين واللصوص ومضرمي النيران في المباني، والقابعين خلف الأسلاك الحديدية. وقد اعترف العسكريون بأن ترجمة كيفية كتابة الأسماء العربية ـ مع كل الأخطاء التي يمكن أن تحصل ـ كانت تؤدّي إلى أن تفقد العائلات غالباً أثر أحبّائها... لم ترد أية إشارة ـ حتى تكلّمنا عن ذلك ـ إلى الهجوم المدفعي الذي قام به رجال العصابات وأدّى إلى قتل ستة من السجناء في خيمهم. بعد ذلك، أرسل الأميركيون أطبّاء نفسانيين للتكلّم مع المعتقلين ووجدوا أنهم يعتقدون ـ مفاجأة... مفاجأة ـ أن الأميركيين يستخدمونهم دروعاً بشرية. وكما نعلم حصل الأسوأ فيما بعد.

> أشار عويد نحو الأرض الجافّة ومسح بيده على البؤس الرمادي للتربة والغبار والبيوت المهدّمة إلى الشمال. قال: «عرفت كل هذه القرى، دوّن ذلك في مفكّرتك ـ عليك تذكّر أسماء هذه القرى الميتة: المحمر، منزن، مشعل، أم الحمادي، داوودي، دجزران، نقبية، زلال، أبو طلفة، جديدة، غاليفة، القفص، الخور، الخمسين...». هذا كثير. لم أستطع المتابعة مع عبّاس عويد. تخطّت سرعة وصفه لتدمير صدّام للمستنقعات العربية سرعة كتابتي. لكن عندها، بعيداً عبر رُكام الحجارة والأبواب المحطّمة والطين الجافّ، جاء صوت عصفور.

ارتسمت على وجه عويد ابتسامة. قال «حيث توجد العصافير، يوجد الماء».. واستراح على كعبيْه... إنه رجل ـ العرِب هم هكذا ـ وجد القول

المناسب في اللحظة المناسبة.. وكان ذلك صحيحاً. كانت الطيور تعود لأن المياه عادت تتغلغل داخل آلاف الأميال المربّعة التي جفّفها صدّام منذ عشر سنوات. وكنت تستطيع سماعها، تغرغر، تزبد وتشقّ طريقها داخل الخنادق القديمة والجداول المجفّفة وفوق التلال المنخفضة القذرة التي بنى عرب المستنقعات المسلمون الشيعة بيوتهم عليها قبل أن يقرّر صدّام تدميرها. هنا مصبّ النهر حيث شاهد صديقي وزميلي محمّد سلام من الأسوشيتدبرس منذ عشرين عاماً الجثث السوداء لعرب المستنقعات، محروقة ومُكهربة من قِبل جيش صدّام.. هنا عاش شعب في وسط البطّ والثيران واصطاد بالرمح، ودُمّر مثل السمك، حيث كان على البريء الموت مع الغازي.

جلست على مركب صغير، مبحراً في نهر منساب، ورأيت منزلاً قديماً من الطين والإسمنت ولكنّ سقفه جديد وحوله أشجار نخيل زُرعت حديثاً ومركب مطليّ بالأخضر يتقدّم نحو المرسى القذر. اختفت أعشاب البِرك ونباتاتها ولم تكن هناك شجرة أعلى من ثلاثة أقدام. عادت عائلة واحدة. حتى محسن بحيد، الذي فرّت عائلته إلى إيران طلباً للأمان خلال عملية التجفيف الطويلة والرهيبة التي فرضها صدّام على شعبه، كان يفكّر في العودة.

جلس قربي في مركبنا، يده اليسرى تحمل كلاشينكوف واليمنى على رأس ابنه مهدي (٥ سنوات) قال: «كانت تقيم هنا ١٢ ألف عائلة وقد غادروا جميعاً. كان لدينا سمك وفاكهة وخضار وطيور وثيران.. وبيوتنا... وقد قام صدّام بتجفيف أرضنا وأخذ مياهنا وتركنا بدون شيء».

أبطأ المركب عندما بلغنا موضعاً ارتفع فيه مستوى الماء ٦ بوصات أمامنا، وكانت هناك حافّة مرتفعة من الماء العالي المستوى تنحدر إلى مستوى النهر العادي على الطرف الآخر. «تحتنا بقايا سدّ صدّام والماء يسيل فوقه، لذلك ما زلنا نرى السدود حتى لو لم تعد هنا» هذا ما قاله محسن.

على المرء أن يأتي إلى هنا لكي يلمس مدى قساوة صدّام المتعمّدة. بعد أن شجّع الإنكليز والأميركيون المسلمين الشيعة في العراق على الثورة ضدّ

صدّام عام ١٩٩١ ـ وبالطبع خانوهم بعدم التحرّك لمساندتهم عندما قام صدّام بسحق مناوئيه ـ وقد انسحب الجنود العراقيون الفارّون والثوّار الذين كانوا يرغبون الاستمرار في القتال إلى الحويزة وعمارة وحمر، حيث المستنقعات العربية (الأهوار) التي خلّدها عمل ولفريد تسيغر الكبير منذ عقود طويلة والتي أمّنت لهم الملجأ، ولم تستطع المروحيّات والدبّابات العراقية إخراجهم منها.

لذلك تحرّك صدّام في خطّة مضادّة لحرب العصابات أين منها خطة الاغتيالات السياسية الإسرائيلية وتدمير الممتلكات ـ والعامل البرتقالي لأميركا في حرب فيتنام. ـ وبنى العديد من السدود، المئات منها، لمنع المياه من التدفّق إلى المستنقعات من نهري دجلة والفرات. وقام بتحويل المياه عبر قنوات جديدة واسعة ـ سُمّيت إحداها «نهر أم المعارك» ـ تروي المدن والقرى التي ظلّت موالية لصدّام. كان الماء الوحيد المسموح به في المستنقعات يسير إلى وسط الجداول لإيجاد سمك طازج. في النهاية لم يبق ماء تقريباً. لكن عندما هجمت قوّة الغزو الأنغلو ـ أميركية على العراق في آذار/مارس ٢٠٠٣ كان لا يزال هناك بضع مئات من الأميال المربّعة من المستنقعات متبقّية... وفي الساعات الأولى بعد وصول البريطانيين إلى البصرة، حفر أهالي حمر الأرض لتدمير السدود الإسمنتية التي بناها صدّام وأغرقوا استحكاماته. وأبلغني رجل من الناصرية أن زوجته أيقظته بعد الليلة الأولى من القصف لتبلغه أنها تستطيع سماع خرير ماء في الجدول القديم خلف المنزل فلم يصدقها. ثم قال: «استيقظت وخرجت على ضوء القمر وشاهدت الماء». إنها رواية أمل. كان والد فيصل خيون قد قُتل على يد شرطة صدّام السرّية عام ١٩٩٣ بينما كان يقود سيّارته على طريق البصرة. قال: «أطلقوا النار على رأسه وعنقه. وقد تم اعتقال عمّي وابن عمّي عام ١٩٩٧ وأُعدموا في أبو غريب. وكانت المخابرات تحضر بشكل فجائي إلى هنا في الرابعة صباحاً، وكان عليّ تمضية الليل على السطح منتظراً لمراقبة قدومهم. وللمرّة الأولى في حياتي بقيت نائماً في بيتي حتى مطلع الفجر».

قفز محسن بحيذ إلى الشاطئ على بُعد أربعة أميال شمال جسر حمر وسرنا معاً في الوحول العميقة والسوداء التي التصقت بأحذيتنا نحو جدران المنزل

الأربعة المدمّرة. قال: «كان هذا منزلي وعندما عدت أحضرت بعض الطوب والنوافذ لبناء بيت جديد جنوب سدّ صدّام. أنظر أين كنا نضع طيور الإوز، والماشية كانت هنا حيث ترى الغبار. وكان مركبي راسياً هناك». قام محسن ومهدي بقيادة المركب عبر الحطام ثم قال محسن: «أظن أننا سنعود الآن. أجل لقد ساعدنا معارضي صدّام وعندما فرّ الجنود حضروا إلى هنا، فأطعمناهم وأعطيناهم أماكن للنوم ووقوداً للتدفئة. نحن شعب طيّب».

محسن في الثامنة والأربعين من العمر ولديه زوجتان شابّتان وخمسة أولاد. قال إنّه لا يكاد يؤمّن المال لإتمام بناء بيته الجديد. لكن لا يستطيع عرب المستنقعات العودة هكذا إلى أرضهم. فمنذ فترة طويلة، قايضوا الثيران بسيّارات المرسيدس وأصبحوا تجّاراً. وانتقلت قبائل أخرى إلى المنطقة وزرعت المحصول في الأرض المرويّة حديثاً. لكنّ الشعب الذي وصفه تسيغر بقي على قيد الحياة، وزال نظام صدّام وتدفّق تيّار مائي أزرق قانٍ نحو الصحراء زاحفاً حول حمر، ومنزن ومشعل وكل القرى الضائعة في المستنقعات.

كان ثمّة سباق بين الأمل والرعب. فبينما قتل الأميركيون المشاركين في حفل زفاف بغارة جوّية ووصفوا الضيوف بالثوّار، فُتح قبر آخر من قبور صدّام الجماعية. وفور عودتي من أرض عرب المستنقعات استعلمت عن «مركز المعلومات حول الشهداء من نساء الحركة الإسلامية»، الذي لم تكن معلوماته عن ضحايا صدّام من النساء الشابّات مخصّصة لضعاف القلوب.

كانت زوجات السجناء تُجبر على مشاهدة أزواجهنّ وهم يُشنقون، أو قبل وضعهم على الكرسيّ الكهربائي، أو حرقهم بالأسيد، أو مقيّدين عُراة بمراوح السقف، أو أثناء الاعتداء عليهم جنسياً. وفي حالات كثيرة، كانت النساء تسمّم أو يجري استخدامهن كفئران اختبار للتجارب الكيميائية في مركز قرب سامرّاء يُعتقد أنه كان ينتج أسلحة كيميائية. وقد تمّ التعرف على أسمائهنّ وأسماء جلّاديهنّ وقاتليهنّ. وتفاخر أحدهم، أبو وداد، أنه أعدم سبعين سجينة في ليلة واحدة في سجن أبو غريب. وفي حالات عديدة، كانت المرأة تُعدم

لأنها شقيقة أو زوجة رجل مطلوب. وكنّ جميعاً مرتبطات بحزب الدعوة الذي كان أعضاؤه يخضعون للتعذيب والقتل من قِبل الحكم البعثي.

هاكم مقتطفات نموذجية من كتاب «مذكّرات سجين: أوراق حمراء من قصّة منسيّة»، جمعها عليّ العراقي في مدينة قُمّ الإيرانية.. وهي كما يلي:

> «ولدت سميرة عودة المنصوري (أمّ إيمان) عام ١٩٥١ في البصرة. أستاذة في مدرسة حديثة المتوسطة، متزوّجة من الشهيد عبد الأمير، عضو في الجناح العسكري لحزب الدعوة الإسلامي... الجلّادون: النقيب مهدي الدليمي الذي كان يُعذّب وهو سكران، والملازم حسين التكريتي المتخصّص في تحطيم القفص الصدري لضحاياه من خلال ضربهم... والملازم إبراهيم اللامي الذي كان يضرب الضحايا على أقدامهم... ضُربت أمّ إيمان وعُلّقت من رأسها في السقف وعانت التعذيب بالكهرباء. أمضت شهرين في زنازين سجن البصرة ولم تستسلم، وأمر الدليمي بإعدامها بتهمة حيازة أسلحة غير مرخّصة وعائدة لحزب الدعوة».

في الواقع، نُقلت أمّ إيمان إلى جهاز أمن الدولة في بغداد حيث جرى تعذيبها بشكل وحشي طيلة أحد عشر شهراً. ومثلت لاحقاً أمام محكمة عسكرية ثورية حكمت عليها بالإعدام شنقاً. وقد أمضت ستة أشهر أخرى في سجن الرشيد غرب بغداد إلى أن (ولعلّها كانت بدأت تأمل النجاة من الموت) تمّ تحويلها مساء الأحد إلى سجن أبو غريب حيث أعدمها أبو وداد.

وهناك روايات متواترة عن نساء وأطفال عُذّبوا أمام أزواجهم وآبائهم. على سبيل المثال، قام الملازم كريم في البصرة عام ١٩٨٢، بحسب ما ورد، بإحضار زوجة أحد الثوّار إلى السجن وجرّدها من ملابسها وعذّبها أمام زوجها ثم هدّد بقتل ولدهما. وعندما تمنّع الاثنان عن الكلام «قام المسؤول الأمني بضرب الطفل بالحائط وقتله».

اعتُقلت أحلام العياشي عام ١٩٨٢ (وكان عمرها ٢٠ سنة) لأنها زوجة

عماد الكيراوي وهو عضو بارز في حزب الدعوة. وعندما رفض عماد إعطاء معلومات للشرطة، هاجم عنصران متخصّصان بالتعذيب ـ فادي حميدي الزرقاني وفيصل الهلالي ـ أحلام أمام السجين وطفلهما وعذّبوها حتى الموت.... تجاهلت الرواية التفاصيل رأفة بالقرّاء. . . وقد دُفنت جثتها في الصحراء خارج البصرة ولم يعرف مكان دفنها. وتمّ إعدام ثلاثة من أشقّائها إضافة إلى زوجها وشقيق آخر في الانتفاضة التي تلت تحرير الكويت عام ١٩٩١. لكنّ الإبنة علا التي شهدت تعذيب أمّها أُخذت إلى إيران وهي متزوّجة الآن وعلى وشك دخول الجامعة.

إن معظم الروايات مأساوي ومؤلم. وعلى سبيل المثال، تعرّضت عواطف نور الحمداني للخيانة من قِبل زوجها الذي أعطى اسمها وأسماء العديد من رفاقه مهرّبي السلاح تحت التعذيب الشديد. كانت عواطف حاملاً عندما حقّق معها النقيب عامر الذي ضربها بكرسيّ حديديّ ثم اعتدى عليها. خلال محاكمتها اقترح القاضي مسلم الجبّوري أنه يجب صنع مشنقة صغيرة لابنتها الصغيرة التي تغذّت على حليب أمّها المشبع بالكراهية.

اقتيدت عواطف أولاً مع زميلتين لها إلى الإعدام وأُجبرت على مشاهدة إعدام ١٥٠ رجلاً، عشرة في كل مرّة، وعندما أُحضرت الجثث تعرّفت على جثّة زوجها. ثم أُعيدت إلى زنزانتها وأُعدمت لاحقاً بالكرسيّ الكهربائي. وقُتل العديد من السجناء أيضا على الكرسي نفسه في أبو غريب، بينهم امرأتان أُخريان، هما فاضلة الحدّاد عام ١٩٨٢ ورضى العويناتي في السنة التالية.

كانت ميسون السعدي في الثامنة عشرة من العمر وطالبة جامعية عندما اعتقلوها لانتمائها إلى تنظيم إسلامي محظور. وخلال التحقيق معها عُلّقت بشعرها وضُربت على قدميْها ثم حُكم عليها بالموت شنقاً من قِبل القاضي عوّاد محمّد أمين البندر. حقّقوا لها رغبتها الأخيرة بوداع خطيبها وقد تزوّجا في السجن. لكن بينما كانت تودّع السجناء الآخرين، ألقت كلمات تندّد بقيادة النظام العراقي وقرّر مسؤول السجن إعدامها فوراً. وقد جرى تقييدها بالكرسيّ الكهربائيّ وبقيت ساعتين تحتضر.

اعتُقلت سلوى البحريني وهي أمّ لصبيّ صغير، وكانت توزّع السلاح على المقاتلين الإسلاميين عام ١٩٨٠. وخلال التحقيق تعمّدوا إعطاءها لبناً مسموماً من قِبل الدكتور فهد الدنوك صانع السمّ الذي استُخدم ضدّ القوّات الإيرانية. واستناداً إلى التقرير جرى استخدام مئات من مجاهدي الدعوة كفئران اختبار في التجارب الكيميائية في سلمان بك جنوب بغداد.

توفّيت سلوى في منزلها بعد أربعين يوماً على إجبارها على شرب اللبن.

اتُّهمت فاطمة الحسيني وهي في العشرين من العمر بإخفاء أسلحة لحزب الدعوة واعتُقلت في بغداد عام ١٩٨٢. ضُربت بحبال بلاستيكية وتم تقييد يديها وراء ظهرها وعُلّقت بهما إلى السقف. عُذّبت بالكهرباء وألقوا الأسيد على فخذيها. ولمّا رفضت الكلام أمر جلّادوها بإعدامها. شُنقت في سجن أبو غريب عام ١٩٨٢ ودُفنت من قِبل عائلتها في النجف.

لم يكن التقرير المتضمّن ٥٥٠ صفحة والذي يسجّل المعاناة المؤلمة للسجينات الشيعة عملاً أدبياً. كانت بعض جُمله مُنمّقة وفي بعض الأحيان تصف استشهاد النساء كأنه قدر محتوم. كما أنه لم يكن مصنّفاً يُعتبر مادّة سهلة القراءة على الأميركيين الذين كانوا متلهّفين لاستخدامه دليلاً ضدّ صدّام.

كانت الولايات المتحدة تعتبر صدّام حليفاً عندما تمّ اقتراف هذه الجرائم ـ وأشار الكتاب تكراراً إلى أنّ المواد الكيميائية المستخدمة على السجينات مشتراة أصلاً من دول غربية. لكنّ التفصيل كان مقنعاً ـ أسماء ومصائر خمسين امرأة على الأقلّ مسجّلة إلى جانب أسماء جلّاديهم ـ كما أن نشاطات «وحش أبو غريب» أبو وداد جرى التأكّد منها من خلال بعض السجناء الناجين. كان يقوم بالإعدامات بين الثامنة والرابعة، وكان يضرب الرجال والنساء المحكومين ببلطة على مؤخّرة الرأس إذا ما نادوا باسم أحد الأئمّة المقتولين قبل شنقهم. في النهاية، جرى اعتقال أبو وداد بعد قبوله رشوة لإعدام سجين آخر غير الرجل المحكوم عليه وتمّ إعدامه على المشنقة نفسها عام ١٩٨٥.

استفاد الأميركيون والإنكليز من هذه الروايات عن الإرهاب خلال حُكم

صدّام، وصاروا يسألون: «هل كنتم تفضّلون بقاءه هنا في العراق يُعذّب ويقتل شعبه بالغاز. ألا تعتقدون أننا قمنا بعمل جيّد بالتخلّص منه؟».. وكل هذا لأن المبرّرات الأساسية للغزو ـ امتلاك صدّام أسلحة دمار شامل، وارتباطه بمرتكبي ١١ أيلول/سبتمبر، وإنذار بلير بالـ ٤٥ دقيقة ـ كانت كلّها أكاذيب. لكن تلك مقارنة مظلمة يقوم بها بلير وبوش. إذا كانت لاأخلاقية صدّام وقساوته هما المقياس الذي تقاس به انتهاكاتنا ويحكم عليها بموجبه، فأيّ صورة يعطيها عنا؟ إذا كان نظام صدّام هو البوصلة الأخلاقية لتعريف أعمالنا، فكم هو مقدار السوء والظلم الذي يسمح به ذلك لنا؟ نعم... لقد عذّب صدّام وأعدم نساء في أبو غريب. أما نحن فقد قُمنا فقط بالاعتداء جنسياً على السجناء وقتلنا القليل منهم، كما وقتلنا بعض المشبوهين في باغرام وأخضعناهم لمعاملة غير انسانية في غوانتنامو(*). إذن، لقد كان صدّام أكثر سوءاً!!!. وهكذا فقد بات من المحتّم أن يصبح رمز خِزي صدّام ـ سجن أبو غريب ـ رمز خِزينا أيضاً.

ما كان مهمّاً هو ردّة الفعل الواسعة المختلفة في الشرق والغرب على انتهاكاتنا في أبو غريب. صُدمنا، نحن الغربيين المتحضّرين، من عضّ الكلاب والإذلال وتعذيب الرجال والنساء للسجناء. وتعرّض العراقيون للإهانة لكنّهم لم يُصدموا. فقد أخبرهم أقاربهم وأصدقاؤهم ـ الذين اعتُقل بعضهم من قِبل الأميركيين ـ منذ فترة طويلة عن السلوك المقزّز للحرّاس الأميركيين. لم يفاجأوا بهذه الصور الفاضحة. لقد عرفوا مسبقاً.

(*) في منتصف صيف ٢٠٠٥، كانت عمليات التعذيب من قِبل القوّات الأميركية في العراق وأفغانستان تظهر إلى العلن أسبوعياً تقريباً. في النيويورك تايمز يوم ٢٣ أيار/مايو، وصف بوب هربرت عمليات التعذيب العسكرية بالسادية والإجرامية والملتوية. وجاء في تعليق التايمز في تقرير ٢٠ أيار/مايو حول مستند أميركي عن التعذيب في أفغانستان: «في استجواب تحت القسم للمحققين الأميركيين وصف الجنود محققة كانت لديها شهيّة إذلال السجناء، وقد وقفت على رقبة أحد المعتقلين الراكعين وقامت بركل الأعضاء التناسلية لآخر. ويروَون أن سجيناً مقيّداً أُجبر على التدحرج على الأرض في زنزانته وتقبيل أحذية محقّقين معه. وأُجبر سجين آخر على التقاط سدادات زجاجات من برميل مليء بالغائط والماء كجزء من تدجينه للتحقيق». وقد وصف التقرير الأصلي الذي كتبه تيم غولدن كيف جرى ركل رجل بريء عدّة مئات من المرّات على قدمه من قِبل الحرّاس، ومات لاحقاً في زنزانته مقيّداً إلى السقف..

في أوائل عام ٢٠٠٤، ظهر جيش من آلاف المرتزقة في شوارع مدن العراق الرئيسية، العديد منهم جنود إنكليز وأميركيون سابقون استأجرتهم السلطات الأنغلو ـ أميركية وعشرات الشركات التي خشيت على حياة مستخدميها في بغداد. وفاق عدد البريطانيين المسلّحين تسليحاً جيّداً في ثلاث مئة شركة أمن في العراق عدد الجنود البريطانيين المجهّزين جيّداً في جنوب البلاد. ومع أن شركات الأمن الأميركية والبريطانية كانت تعمل في العراق، فقد أقامت عشرات من الشركات الصغيرة مكاتب لها، مع بعض الملابس لموظفيها وقوانين قليلة للتوظيف. وكان العديد من البريطانيين جنوداً سابقين في SAS (الوحدات الخاصّة الشهيرة) ـ كما كان في البلاد المئات من رجال القوّات الخاصّة الأميركية السابقين، وكان المسلّحون القادمون من جنوب أفريقيا يعملون أيضاً مع سلطات الاحتلال.

إن وجود عدّة آلاف من المرتزقة الغربيين أو «المتعاقدين الأمنيين» في العراق ـ كما أشارت إليهم الصحافة الأميركية بخجل ـ كان يقول الكثير حول خشية أميركا من التعرّض لأضرار عسكرية، كما أنه يقول الكثير عن صناعة الأمن البالغة عائداتها مئات الملايين من الجنيهات والتي تغذّي الآن خزائن الحكومتين الأميركية والبريطانية. وتقوم الشركات الأمنية بمرافقة القوافل على الخطوط السريعة. كما أن رجال أمن مدنيين من شركة أميركية كانوا يحرسون القوّات الأميركية ليلاً داخل قصر صدّام الرئاسي السابق حيث أقام بول «بريمر مقرّ قيادته. وبعبارة أخرى، تقوم شركات الأمن الآن بحماية قوّات الاحتلال. وعندما تحطّمت مروحيّة أميركية قرب الفلّوجة عام ٢٠٠٣، كانت شركة أمنية أميركية هي التي سيطرت على المنطقة وبدأت عمليات الإنقاذ. ولا حاجة إلى القول إن الإصابات بين المرتزقة لم تكن ضمن التعداد النظامي الذي تعلنه سلطات الاحتلال عن خسائر قوّاتها.

ولم تكن أسماء السجناء أيضاً ضمن القوائم. وعندما توفّي محمّد أبو العبّاس بشكل غامض في معسكر اعتقال أميركي في العراق، لم يزعج أحد نفسه للاتصال بعائلته. ولم يُعطِ سجّانوه الأميركيون منظمة الصليب الأحمر

الدولي أيّة إشارة إلى أن الرجل الذي كان وراء اختطاف السفينة أكيلي لاورو عام ١٩٨٥ كان مريضاً، وقد عرفت زوجته ريم لأول مرّة بموته بينما كانت تشاهد أخبار تلفزيون عربي. غير أن المناضل الفلسطيني كتب في رسالته الأخيرة إلى عائلته قبل سبعة أسابيع «أنا بصحّة جيّدة ومرتاح» مضيفاً أنه يأمل تحريره قريباً. إذن ماذا حصل لمحمّد أبو العباس؟.

على الرغم من أن أبو العبّاس كان زميلاً بارزاً لياسر عرفات لأكثر من ثلاثة عقود، فإن العالم سوف يربط اسمه دائماً بأكيلي لاورو عندما قام أعضاء في «جبهة التحرير الفلسطينية» الصغيرة بالسيطرة على السفينة في المتوسّط.. وفي عملية قتل قذرة سبّبت إهانة دولية، أطلقوا النار على الأميركي اليهودي المسنّ ليون كلينغوفر.

والحال أنه، بعد مرور عشر سنوات، سمح الإسرائيليون أنفسهم لأبي العبّاس العضو في المجلس الوطني الفلسطيني بالدخول إلى الأراضي المحتلّة للمشاركة في انتخابات قطاع غزّة. لقد زار أيضاً منزل عائلته القديم في حيفا في إسرائيل. وأيّد اتفاقيات السلام الإسرائيلية ـ الفلسطينية وكان مع إلغاء البنود المعادية لإسرائيل في ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية. وكغيره من زملاء عرفات العديدين، واكب تحوّل الشرق الأوسط الروحاني من «الإرهاب المتطرّف» إلى السلام.

إذاً، لماذا اعتُقل في الغياهب الموحشة لمعسكر اعتقال المطار الأميركي خارج بغداد؟ لم يجر اتّهامه أبداً بأية جريمة، ولم يُعرض عليه مُحامٍ أو يُسمح له أبداً بالاتصال المباشر مع زوجته وعائلته.. وكان بإمكانه التواصل مع العالم الخارجي عبر الصليب الأحمر الدولي فقط. وهم الذين اتصلوا أخيراً بزوجته ريم في بيروت لتأكيد وفاة زوجها.

صرخت بي عبر الهاتف من بيروت: «لا أعلم شيئاً حول ذلك. كيف مات؟ لماذا لم يبلغونا شيئاً؟».. يبقى محمّد أبو العبّاس السجين الأبرز الذي مات وهو في قبضة الأميركيين في العراق، وانضمّ بذلك إلى لائحة متزايدة لوفيات غير

مُفسّرة وقعت بين ١٥ ألف فلسطيني وعراقي تعتقلهم القوّات الأميركية. ستقول قوّات الاحتلال في العراق فقط إنها ستقيم حفل تأبين له. وقال محمّد صبحي رئيس المكتب السياسي لجبهة التحرير الفلسطينية: «إن اعتقال محمّد أبو العبّاس من قِبل القوّات الأميركية يوم ١٤ نيسان/أبريل من العام الماضي لم يكن له أيّ سبب قانوني سوى حاجة الجنود الأميركيين في ذلك الوقت إلى تسجيل انتصارات مزيّفة. لقد كان لجبهة التحرير الفلسطينية منذ فترة طويلة مكاتب في بغداد إلى جانب مكاتب منظمة التحرير الفلسطينية. ونعرف جميعاً أن أبو العباس كان في فلسطين عام ١٩٩٥ وأن إسرائيل والولايات المتحدة سمحتا له بذلك. بعد ذلك، سافر عدّة مرّات إلى المناطق الفلسطينية وإلى دول عربية أخرى. أبلغنا ذلك كلّه للأميركيين وطلبنا منهم إطلاق سراحه».

في آخر رسالة كتبها أبو العبّاس إلى زوجته قال إنه يأمل إطلاق سراحه قريباً. إذن ماذا حصل له؟».

قالت ريم العبّاس التي لديها ولد من زوجها هذا واثنان من زواج سابق: «كان لا يزال يعيش في بغداد عندما دخل الأميركيون المدينة في ٩ نيسان/أبريل العام الماضي. وكان يحاول الابتعاد عنهم لأن العديد من الناس ـ عراقيين وفلسطينيين - اعتُقلوا من دون أن يفعلوا شيئاً. لقد أغارت القوّات الأميركية على منزلنا، ولم يكن محمّد هناك. شاهدت كل ذلك على تلفزيون فوكس ـ هل تصدق أنني شاهدت منزلي على التلفزيون وقد بعثروا الأثاث وغطّوا مِرآة بعلم فلسطيني ثم دعوا تلفزيون فوكس لتصويره. ومساء يوم ١٤ نيسان/أبريل، اتصل بي محمّد بواسطة هاتف ثريا الخليوي من منزل صديق. وكانت تلك غلطة كبيرة. أظنّ أنهم تعقّبوه بهذه الطريقة ووجدوه. بعد فترة قصيرة من المكالمة، صعد الجنود الأميركيون السلالم إلى حيث كان مختبئاً».

أعلنت سلطات الاحتلال الأميركي في البداية اعتقال «الإرهابي الكبير أبو العبّاس» ولم تُعطِ أيّة إشارة حول عودته إلى الأراضي المحتلّة أو أن الإسرائيليين أنفسهم ـ الذين كانوا أكثر تلهّفاً من الأميركيين لرؤيته في السجن ـ سمحوا له ولرئيس منظمة التحرير الفلسطينية بملء إرادتهم الدخول إلى أراضيهم

كمفاوض سلام. قالت زوجته ريم: «أوّلاً كان إرهابياً ثم رجل سلام، ولمّا اعتقله الأميركيون جعلوه إرهابياً مجدّداً. ما هذه السخافة؟».. وخلال بضعة أشهر حدث التحوّل نفسه بالنسبة إلى ياسر عرفات. كانت آخر رسالة من عبّاس لعائلته مؤرّخة في ١٩ كانون الثاني/يناير ومكتوبة بلغة عربية صحيحة على ورقة للصليب الأحمر ولم يكن فيها ما يشير إلى مصيره. كانت الرسالة موجّهة إلى أخيه خالد في هولّندا، وهي تعبير مألوف عن لهفة أيّ سجين لكتابة رسائل ولتنسّم الأخبار وعن حاجته إلى عبارات الحبّ والأمل. تبدأ الرسالة هكذا: «عزيزي خالد، أولاً قُبلاتي لرأس الوالدة العزيزة وآمل أنها مستعدّة لتحضير الدولما والدجاج المحمّر الذي أحبّه لأن أول غذاء لي بعد تحريري سيكون في منزلها. ما هي الأخبار عن عائلتي وعن عزيزي عيسى؟ سلام خاصّ له، ولزوجته وأولاده ولأخوتك وأخواتك وعائلاتهم لأنهم عائلتي وأحبّائي. أتمنّى أن ترسل لي دشداشة. أنا بصحّة جيّدة وأحتاج إلى معرفة الأخبار عن عائلتي وأصدقائي. لديّ آمال كبيرة بإطلاق سراحي قريباً ـ إن شاء الله». بدا محمّد أبو العبّاس غير متوقّع لموته المؤكّد. لكن بعد ٤٩ يوماً من رسالة الأمل، توفّي.

سمح العراق للعالم بتناسي فلسطين حيث يعيش عرفات محاصراً في مكاتب قذرة حبسه فيها الجيش الإسرائيلي في رام الله تحت الإقامة الجبرية. وقطع الإسرائيليون كلّ الاتصالات معه. وكذلك فعل الأميركيون.

لقد فجّر انتحاريون فلسطينيون أنفسهم في أنحاء إسرائيل ممّا دفع أرييل شارون لبناء حائط ضخم عبر الضفّة الغربية، عازلاً مئات القرى الفلسطينية، ومحقّقاً ضمّاً فعلياً بالقوة، داخل الأرض التي يُفترض أن تكون دولة فلسطينية. وينبغي القول فوراً إن الجدار لا يجب تسميته جداراً من قِبل معظم الصحفيين ـ مع أنه أطول من جدار برلين القديم بما لا يقاس ـ ذلك أن كلمة «جدار» تحمل في طيّاتها مضمون الغيتوات ومجمّعات الفصل العنصرية. وهكذا أصبح الجدار «حاجزاً أمنياً» في النيويورك تايمز وفي البي بي سي وغيرهما، ولدى آخرين صار «سياجاً».... وقد اعتبرت المحكمة الدولية في لاهاي ـ التي أرسلت

إليها السلطة الفلسطينية المحطّمة متحدّثين باسمها ـ أن البناء غير قانوني. وتجاهلت إسرائيل القرار(*).

وقد استمرّت إسرائيل في سياسة قتل مناوئيها. وذهبت «عمليات القتل الهادفة» ـ وهي مثال آخر على اختراعات إسرائيل اللغوية والتي تبنّتها البي بي سي وآخرون طواعية ـ إلى مداها رغم أن الأبرياء كانوا يُقتلون بشكل حتمي في تلك الهجمات. يوم ٢١ آذار/مارس ٢٠٠٤، أطلقت مروحيّة إسرائيلية صاروخاً على زعيم حماس المقعد والمسنّ، الشيخ أحمد ياسين، بينما كان يغادر مسجداً في غزّة. لا يتطلّب الأمر كثيراً من الشجاعة لقتل مُقعد في كرسيّ متحرّك. وعلى نحو مماثل، تطلّب الأمر لحظات قليلة لامتصاص تداعيات الاغتيال. أجل، كان الشيخ يؤيّد بحماس العمليات الانتحارية ـ بما في ذلك قتل الأطفال الإسرائيليين. أجل، إذا كنت تعيش مع السيف فبالسيف تموت، أكان ذلك في كرسيّ متحرّك أم في غيره. لكنّ شيئاً خطيراً جدّاً كان قَيد الإعداد في نهاية الامر ـ وهو سابقة مشوؤمة أخرى ـ لعالمنا الجديد الشجاع.

خُذ الرجل المسنّ نفسه على سبيل المثال. منذ البداية، كان الخط الإسرائيلي بسيطاً. كان الشيخ ياسين «رأس الأفعى» ـ إذا أردنا استخدام كلمات السفير الإسرائيلي في لندن ـ زعيم حماس «إحدى أكثر المنظّمات الإرهابية خطورة في العالم». ثم حصل عندها التعتيم من قِبل الإعلام العالمي. أبلغتنا البي بي سي (التلفزيون العالمي) يوم الاغتيال أنه كان قد أطلق سراحه أصلاً من قِبل الإسرائيليين خلال عملية تبادل للأسرى.

بدا ذلك كإحدى المقايضات المألوفة ـ فلسطيني يحرّر مقابل إطلاق الجنود

(*) لسنوات كان الأميركيون ـ وليس أقلّهم ثود فريدمان ـ يُملون على الفلسطينيين مبادئ عدم العنف، مقترحين عليهم أن مقاربة مشابهة لعمل غاندي ضدّ الاحتلال كفيلة بالحفاظ على مصالحهم. وأثبت لجوء العرب إلى لاهاي بالطبع أن مثل هذا الاحتجاج السلمي لا يرقى إلى مستوى تلّة الفاصولياء الشهيرة.. (إشارة إلى قصّة الأطفال الشهيرة حول تلّة تصل إلى السماء). . .

الإسرائيليين الأسرى ـ ولكن في اليوم نفسه أبلغتنا البي بي سي أنه أطلق سراحه «تبعاً لاتفاق كان قد أبرمه الملك حسين».

الأمر الغريب كلّياً أنه كان سجيناً لدى الإسرائيليين. كان «رأس الأفعى» هذا في سجن إسرائيلي. وعندها ـ بينغو ـ كان إطلاق سراح هذا الوحش نتيجة الاتفاق. إذن لنتذكّر ما كان الاتفاق. أُطلق سراح الشيخ ياسين من قِبل رجل النظام والقانون في الجناح اليميني من الليكود بنيامين ناتانياهو عندما كان رئيس وزراء إسرائيل. لم يكن الملك حسين المتوفّى الآن وسيطاً بين الجانبين. لقد حاول عميل موساد إسرائيلي اغتيال مسؤول من حماس في عمّان، وهي عاصمة بلد عربي لديه معاهدة سلام كاملة مع إسرائيل. قاموا بحقن مسؤول حماس بالسمّ واتصل الملك الأردني حسين برئيس الولايات المتحدة غاضباً وهدّد بوضع رجال الموساد المعتقلين قَيد المحاكمة إذا لم يُقدّم المصل المضادّ للسمّ وإذا لم يُطلق سراح ياسين.

استسلم ناتانياهو فوراً. أُطلق سراح ياسين وذهب رجال الموساد بسلام إلى بلدهم. إذن أُطلق سراح «رأس الأفعى» من قِبل إسرائيل، بمبادرة حسنة من رئيس الوزراء الإسرائيلي ـ فصل في رواية التاريخ الذي تمّ تناسيه بشكل مناسب عندما جرى اغتيال ياسين ـ كان الأمر برمّته شاذّاً. إذ لو كان الشيخ حقّاً يستحقّ عملية اغتيال رسمية، فلماذا أطلق ناتانياهو سراحه أساساً؟ غير أن التداعيات كانت أكثر خطورة... والحال أنه جرى اغتيال زعيم عربي آخر، وبشكل انتقامي وقاسٍ. كان الأميركيون يريدون قتل بن لادن، وقتل الملّا عمر. ولقد قتلوا نجليْ صدّام حسين كما قتلوا ثلاثة من رجال القاعدة في اليمن بواسطة صاروخ موجّه. وهدّد الإسرائيليون تكراراً بقتل ياسر عرفات. وبعد فترة قصيرة من مقتل ياسين، ضرب الإسرائيليون مجدّداً، وأطلقوا صاروخاً آخر على زعيم حماس الجديد عبد العزيز الرنتيسي. كان الرنتيسي هو الذي أُبعد إلى لبنان مع مئات من الفلسطينيين الآخرين منذ أكثر من عقد وعاشوا شهوراً طويلة في الحرّ والثلج في «مرج الزهور» على الحدود الإسرائيلية. وكان هو الرنتيسي الملتحي نفسه الذي قابلته مؤخّراً في غزّة وأبلغني أن «أفضل طريقة لإنهاء حياته

هي الاستشهاد». نظرت عندها من النافذة أبحث عن مروحيّة أباتشي. والآن جاءت الأباتشي لأجله.

لم يشرع أحد بعدُ في العمل على تداعيات ذلك كلّه. لسنوات، كان هناك قانون غير مكتوب في الحرب القاسية التي تخوضها الحكومات في مواجهة حرب العصابات. يقول هذا القانون إنه يمكنك قتل الرجال في الشارع، صانعي القنابل والمسلّحين. لكنّ القياديين من كلا الجانبين ـ الوزراء، الزعماء الروحيين، المحاورين المحتملين مستقبلاً ـ كما كان يسمّيهم الفرنسيون عندما اكتشفوا أنهم قتلوا معظم القيادة الجزائرية ـ يُسمح لهم بالبقاء أحياء.

صحيح أن هذه القوانين خُرقت في بعض الأحيان. فقد حاولت منظمة الجيش السرّي الإيرلندي IRA قتل السيدة تاتشر، وقتلوا صديقها ايراي نياف. وقتلت منظمة الجهاد الاسلامي وزيراً إسرائيلياً في غرفته في الفندق. لكن كانت تلك استثناءات. أمّا الآن فقد تغيّر كلّ شيء تماماً. أصبح كلّ مَن يتبنّى العنف ـ حتى لو كان غير قادر فعلياً على القيام به ـ على لائحة الموت. إذن، مَن الذي يُفاجأ إذا انتُهكت القوانين من الطرف الآخر؟.

هل الرئيس جورج بوش بمأمن الآن؟ أو طوني بلير؟ أو سفراؤهم أو وزراؤهم؟ كم سيمرّ من الوقت قبل أن يلعب زعماؤنا «لعبة عادلة»؟ لن نقول ذلك. هل علينا التشنيع بالقتلة والجدال بأن مرحلة جديدة من الإرهاب قد بدأت، في حال ـ أو حين ـ يتمّ اغتيال قادتنا، تطلق النار عليهم أو يفجّروا؟.... علينا أن ننسى أننا نشجّع الآن رحلة الاغتيالات المفتوحة تلك. لقد فشل الأميركيون في شجب اغتيال الشيخ ياسين كما فعلوا بالنسبة إلى الرنتيسي. إذن، نحن نتقدّم خطوة أخرى في طريق مشؤوم. ثم جاء موت الرجل العجوز. كانت لدى عرفات منذ فترة طويلة عوارض مرض الباركنسون.. لكن في بؤس مسكنه في رام الله تدهورت صحّته أكثر. تعوّد حتى بحضور زوّاره من الدبلوماسيين على رفع جواربه وحكّ قدميه. وكان يجد صعوبة في التركيز، وفقد شهيّته. ويستطرد أمام زوّاره أنفسهم في الكلام عن معركة ١٩٨٢ ضدّ

الإسرائيليين في بيروت المحاصرة. وأدرك بعض المحيطين به أن ذهنه قد شتّ وأنه بدأ يفقد العلاقة مع العالم الحقيقي، وأنه يموت. وكانوا على حقّ. وقد سمح الإسرائيليون أخيراً للرجل اليائس المريض بمغادرة مقرّ قيادته المدمّر ونقله الفرنسيون إلى مستشفى بيرسي العسكري خارج باريس. وهناك في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤، في الذكرى الثامنة والستين لانتهاء الحرب العالمية الثانية ـ الحرب التي أنتجت وعد بلفورد ودعم بريطانيا لإقامة دولة يهودية في فلسطين، والصراع الذي تسبّب في حرمان شعبه ونفيه ـ مات ياسر عرفات.

شاهدت جنازته في القاهرة، كانت رحلة قصيرة، محزنة على عربة تقودها الجياد على الجادّة التي لم يُسمح لأيّ فلسطيني أو مصري بالمرور فيها... وسار خلفه حفنة من الدكتاتوريين العرب، أيادي بعضهم ملطّخة بالدماء... كانوا يتحدّثون أمام المسجد عندما فُتح باب القصر وخرجت ستّة جياد تجرّ النعش على الطريق، وهو مغطّى بالعلم الفلسطيني الذي وضعه الفرنسيون عليه. وبعد دقيقة لم يعد أحد يرى الجياد أو النعش. كان مثل قطار أسرع غير منظور إلى محطّة المدينة في نهار حارّ. وعندما وصل النعش إلى رام الله، أقام الفلسطينيون لعرفات جنازة أكثر ألفة... كانوا ينتحبون ويبكون ـ عشرات الألوف منهم ـ ويتدافعون للمس النعش ويطلقون زخّات من الرصاص في الهواء. كان عرفات ليفرح بذلك، لأن ذلك كان عفوياً ومأساوياً وحقيقياً ومخيفاً مثلما كانت شخصيته المتصدّعة. وبالطبع، كان العالم مسروراً. أما الآن وقد رحل عرفات، فقد صار هناك أمل. تلك كانت ردّة فعلنا. بينما كان الفلسطينيون محزونين، قيل لهم إن الوضع سوف يتحسّن.

لذلك، وبعد انتخابات ديمقراطية ـ شيء لم يوافق عليه عرفات أبداً ـ أصبح محمود عبّاس الذي لا لون له رئيساً، وقد أيّده الإنكليز والأميركيون تأييداً قوياً. كان عبّاس هو مَن صاغ مستندات اتفاق أوسلو، الواقع في ٦٠٠ صفحة لم يورد فيها ولو مرّة كلمة احتلال، وأشار فيها فقط إلى إعادة انتشار الجيش الإسرائيلي وليس انسحابه. والآن بعدما وعد بوقف الإرهاب ـ كانت

قدرة عبّاس على استخدام القاموس الأميركي والإسرائيلي من بين العديد من إنجازاته ـ انزلقت أرض فلسطين من تحته.

خرقت حماس وإسرائيل وقف إطلاق النار.. وبعد ذلك أعلن الرئيس جورج بوش عقبَ اجتماع في الولايات المتحدة مع شارون أن هناك وقائع جديدة يجب مواجهتها.. وفي الوقت الذي يريد فيه دولة فلسطينية ديمقراطية جنباً إلى جنب مع إسرائيل، فإن المستوطنات الإسرائيلية المبنية بشكل غير قانوني على الأرض الفلسطينية يجب أن تبقى. قال ذلك لأوّل مرّة في نيسان/أبريل ٢٠٠٤ عندما كان عرفات على قيد الحياة. وكان ذلك يعني تدمير قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الذي ينصّ على أن الأرض لا يمكن أخذها بالقوّة...

كان أرييل شارون مستعدّاً لإزالة المستوطنات الصغيرة في غزّة ـ التي تضمّ ٨ آلاف إسرائيلي ـ وكان ذلك «عملاً تاريخياً وشجاعاً». والنتيجة؟ أصبحت مساحات واسعة من الأرض الفلسطينية في الضفّة الغربية الآن إسرائيلية برعاية الرئيس بوش. إن الأرض التي تعود إلى شعب آخر غير إسرائيلي يمكن أن تعود ملكيتها الآن بموافقة أميركية إلى الأسرائيليين لأنه «كان من غير الواقعي القبول بغير ذلك». ارتعب الفلسطينيون. وهذا بالضبط هو ذلك النوع من الغشّ وعدم الأمانة الذي يفرح أُسامة بن لادن بالحديث عنه. وعلى ذلك فإذا كان جورج بوش يظنّ أنه يستطيع تعريف ما هو غير واقعي في الشرق الأوسط، فإنه يحقّ للمرء أن يطرح سؤالاً آخر: هل يعمل بوش فعلياً لصالح القاعدة؟

لدينا كلّنا أراض أعطانا إيّاها الله أو آباؤنا. ألم تمت ماري تودور ملكة بريطانيا و«كاليه» محفورة في قلبها؟ أليس لإسبانيا حقّ مشروع بهولّندا؟ أو للسويد حقّ مشروع بالنروج والدانمرك؟ أو لبريطانيا حق مشروع بالهند؟ أليس للعرب ـ واليهود ـ حقّ لخمسة عشر قرناً بالأندلس؟ كلّ قوة استعمارية بما في ذلك إسرائيل يمكنها طرح هذه المطالب البالغة السخف. إنّ كلّ طرح لأسامة بن لادن، وكلّ تصريح له بأن الولايات المتحدة تمثّل الصهيونية وتساند سرقة الأرض العربية قد ثبتت صحّته الآن لملايين العرب، حتى للذين لا وقت لديهم للتفكير ببن لادن. أيّ رقيب تعبئة وتجنيد أفضل من بوش كان يمكن أن يحصل

عليه بن لادن؟ ألم يدرك ماذا كان يعني ذلك بالنسبة إلى الجنود الأميركيين الشباب في العراق؟ أم أن الإسرائيليين كانوا أهمّ من أرواح الأميركيين في بلاد ما بين النهرين؟

> في ساعاته الأخيرة كحاكم أميركي في بغداد، صيف ٢٠٠٤، قرّر بول بريمر تشديد بعض القوانين التي وضعتها سلطة احتلاله في أنحاء العراق. وأصدر قانوناً جديداً يمنع العراقيين من قيادة سيّاراتهم بيد واحدة على المقود. واعتبر تعميم آخر قيام العراقيين بإطلاق أبواق سيّاراتهم جريمة إلّا في حالة الطوارئ. في اليوم نفسه، وبينما كان بريمر يتحدّث عن قواعد قيادة السيّارات لدى العراقيين، قُتل ثلاثة جنود أميركيين بعبوّة ناسفة على جانب الطريق شمال بغداد، وهذا واحد من أكثر من ستّين هجوماً تعرّضت لها القوّات الأميركية في الأسبوع ذاته.

من الصعب إيجاد رمز أكثر إحباطاً وسخفاً لفشل بريمر وعدم قدرته على فهم طبيعة الكارثة التي جلبها هو وسلطة الاحتلال اليائسة. لم يكن الموضوع أنّ سلطة الائتلاف المؤقّتة ـ التي تحوّلت الآن إلى ٣ آلاف موظف قوي في السفارة الأميركية الأكبر في العالم ـ كانت خارج مجال الاتصال... فهي لم تكن أصلاً تعيش على كوكب الأرض. جاءت لحظة بطولة بريمر الأخيرة عندما رحل عن بغداد في طائرة عسكرية بحماية اثنين من المرتزقة الأميركيين المسلّحين ـ وجّها بندقيتهما آلياً إلى كاميرا التلفزيون وهما يسيران إلى الوراء ـ رافقاه حتى إغلاق باب الطائرة. ولنتذكّر أن بريمر عُيّن في منصبه لأنه كان خبيرا في «مكافحة الإرهاب».

كان صيفاً رهيباً. فإذا لم يستطع الثوّار ضرب الأميركيين دائماً فإنهم كانوا يُجهّزون «مخازنهم الكبرى» الانتحارية ويدمّرون مَن يعتبرونهم عملاء.

يوم ٢٨ تموز/يوليو، على سبيل المثال، جرى قتل جماعات من الفقراء المتقدّمين لوظيفة شرطي، حوالي مئة منهم من قرية بعقوبة السنّية، بينما كانوا

يصطفّون من دون حماية على طول الجادّة سعياً وراء إيجاد عمل. قاد الانتحاري ـ المجهولة هويّته كالمعتاد ـ سيّارته الرينو في وسط ستّ مئة عاطل عن العمل من الشباب الباحثين عن وظيفة في قوة الشرطة، وفجّر العبوّات التي مزّقتهم إرباً. وتركت القنبلة حفرة عمقها ستّ أقدام على الطريق، وأصابت حوالي ١٥٠ رجلاً وامرأة بجروح، وكان العديد منهم يتسوّقون في سوق مجاور.

كان ذلك الصيف هو الأخير الذي يستطيع المرء التحرّك فيه على الطرقات في العراق مع بعض الأمل بعدم الموت أوالخطف أو قطع الرأس. وقد صعدت إلى مركب في نهر دجلة، عرض عليّ صاحبه أخذي إلى البصرة، وهو جندي عراقي اسمه صالح، كان أصيب في الحرب العراقية ـ الإيرانية.

فكّرت أن الرحلة البعيدة على المركب سوف تستغرق أسبوعاً كاملاً. لذلك أعددت نفسي لرحلة خارج بغداد، مروراً بمدرسة صدّام القديمة وأنقاض وزارة الدفاع وجيوش الجالسين في رُكام الشقق. وبينما كنّا نبحر في مياه دجلة، سألت صالح الذي كان شيعياً، ما إذا كان هناك أمل للشرق الأوسط، للعراق، لنا. أجاب: «قال إمامنا عليّ إن الناس إمّا أخ لك في الدين أو أخ لك في الإنسانية ونحن نؤمن بذلك. عليك العيش مع كلّ الناس بسلام تامّ. لا تحتاج إلى قتالهم أو قتلهم. هل تعلم أنّ الإسلام دين يُسر ولكنّ بعض المتطرّفين يجعلون منه دين عُسر. نحن ضدّ أيّ شخص يقتل أو يخطف الأجانب. ليس ذلك من تعاليم الإسلام».

ذهبت إلى الشيخ جواد مهدي الخالصي، وهو من أكثر زعماء الشيعة إثارة للإعجاب في بغداد. إنه رجل طويل، مميّز، يتكلّم بلباقة ومرح، ولديه حكمة وبصيرة جدّه ـ الرجل الذي قاد الثورة ضدّ الاحتلال البريطاني عام ١٩٢٠. أحضر صورة لجدّه الثائر الكبير الذي كانت لديه لحية طويلة ومرتّبة. كان أحد أبرز علماء عصره وقد أنهى حياته في المنفى يفاوض مع حكومة لينين البلشفية ومات بشكل غامض ـ مسموماً من قِبل البريطانيين على ما يعتقد مؤيّدوه.

اهتزّت كتفا الشيخ جواد من الضحك عندما أوحيت أن هناك تشابهاً بين انتفاضتي ١٩٢٠ و٢٠٠٤. قال: «بالضبط، في عام ١٩٢٠ حاول الإنكليز فرض

حكومة شكلية فقط ـ بدت مثل نسخة عن قرار مجلس الأمن رقم ١٥٤٦. وقد أصبح الشيخ مهدي الخالصي المرجع الأعلى بعد وفاة محمد الشيرازي وأصدر فتوى تُطالب أتباعه وكلّ شيعة العراق بعدم المشاركة في الانتخابات، وعدم إعطاء شرعية لحكومة شكّلتها قوّات الاحتلال.

لم يستجب المسلمون الشيعة وحدهم للفتوى بل السنّة واليهود والمسيحيّون والأقلّيات الأخرى. وقد فشلت الانتخابات، ولذلك أجبر الإنكليز جدّي على مغادرة العراق. اعتقلوه في منزله في الجهة الأخرى من هذه المدرسة الدينية حيث نحن الآن ـ منزل دمّره صدّام حسين عمداً بعد عدّة سنوات».

كان ذلك عملاً استعمارياً مألوفاً. كان الإنكليز ينفون العلماء المشاغبين ـ تذكّرت الأسقف مكاريوس ـ خلال القرن العشرين... لكنّ الشيخ مهدي كان خطراً في الخارج بالنسبة إلى الانكليز بمقدار خطورته في الوطن. وقد نُقل إلى بومباي، لكنّ حشد الهنود المسلمين الذين جاءوا لاستقباله في الميناء كان كبيراً جدّاً ممّا دفع القوّات البريطانية إلى إبقائه على متن السفينة، ثم نقلوه إلى ميناء عدن الحارّ والبركاني.

قال للإنكليز: «لا تعرفون أين ترسلونني ـ وبما أن موسم الحجّ قد اقترب، فإني أرغب في الذهاب إلى مكّة للحجّ». وعندما علم الشريف حسين بذلك، أرسل دعوة إلى جدّي للمجيء إلى الحجّ. وقد التقى بالشريف حسين على جبل عرفات في مكّة. ثم تسلّم دعوة للذهاب إلى إيران موقّعة من وزير الخارجية محمّد مصدق. وفي إيران كان بانتظاره العديد من علماء النجف». بعد ثلاثين عاماً أسقط الأميركيون حكومة مصدّق الإيرانية ـ بالتعاون مع الكولونيل وود هاوس «مونتي» من جهاز المخابرات البريطاني MI6.

كان الشيخ جواد يستخدم يديه عندما يتحدّث ـ إن رجال الدين الشيعة أكثر تعبيراً بأيديهم من رجال الدين الأنغليكان ـ وكانت كل مرحلة جديدة في حياة جدّه تستلزم إشارات بإصبعه. قال: «عندما وصل الشيخ مهدي الخالصي إلى ميناء بوشهر الإيراني، لقي استقبالاً كبيراً... لكنّ موظفاً في شركة النفط الإيرانية

أطلق عليه عشر رصاصات. وقال العديد من الناس حينها إنها مؤامرة من قِبل الكولونيل ويلسون الذي كان قائد الاحتلال البريطاني في العراق عام ١٩٢٠. وكان جميع كبار علماء قُمّ في إيران بانتظاره ـ النائيني والأصفهاني والشيخ عبدالحليم الحائري اليزدي الذي كان أستاذ آية الله الخميني ـ وقد أعلن الملك فيصل الذي عيّنه الإنكليز في بغداد أن باستطاعة علماء الدين المنفيين العودة إلى العراق، شرط التزامهم بعدم التدخّل في السياسة.

رفض الشيخ مهدي بغضب الدعوة ووصفها «بالاعتداء على دورنا كعلماء دين وعلى استقلال العراق». وبالمقابل، سافر إلى المدينة الإيرانية الشمالية الشرقية مشهد حيث أنشأ مجلساً لحماية الأماكن المقدّسة في العراق، ونشر فتاوى بالعربية والفارسية والأوردو والروسية والتركية».

وقال الشيخ جواد: «كان هناك حوار غير مباشر أيضاً بين جدّي وثوّار لينين البلشفيين. أرادوا استخدام الصعوبات الناشئة في الوضع الدولي لمساعدة العراق على أن يصبح دولة مستقلّة حقيقية. وحصلت ثورة في العراق، وكانت هذه هي الفكرة. لكنّ جدّي توفّي فجأة عام ١٩٢٥. زعموا أنه كان مريضاً. لكنّ والدي اعتقد دائماً أن القنصل البريطاني في مشهد قام بتسميم الشيخ مهدي. وبعد ظهر يوم وفاته، دعا القنصل جميع أطبّاء مشهد إلى حفل استقبال خارج المدينة.. وهكذا عندما أُصيب جدّي بالمرض لم يستطع أحد إيجاد طبيب، ولم يكن هناك أحد للاهتمام به».

والآن ماذا؟ سألت الشيخ جواد. ماذا عن العراق اليوم وقد انتُخب هو عضواً شرفياً في «المؤتمر الإسلامي العراقي» الذي يضمّ علماء من الشيعة والسنّة ـ والذي يطالب باستقلال العراق كما فعل جدّه الشيخ مهدي منذ ثمانين عاماً؟ أجاب: «لن ينفصل الشيعة ولن يعزلوا أنفسهم عن السنّة. يجب أن تكون لهم حقوقهم عندما يحصل الشعب العراقي على حقوقه. لنا الحقّ في مقاومة الاحتلال أيضاً بطرق متنوّعة ونحن نقوم بذلك سياسياً... يريد الأميركيون حرباً أهلية، لكنهم فشلوا لأن الشعب العراقي سيرفض الوقوع في حرب أهليّة».

لكنّ هناك عرباً يمكن أن يثيروا حرباً أهليّة أيضاً وهم يريدون تصوير الإسلام على أنه دين انتقام وخوف. بدأت أراجع أشرطة الفيديو، أشرطة خطف الرجال والنساء، وهم يطالبون بإنقاذ حياتهم. تبدو الصور غير واضحة، والأصوات غير مُبينة أحياناً. وعندما صرخ الكوري الجنوبي كيم صن إيل تكراراً، كان خوفه جليّاً. وعندما عُرضت رؤوس الضحايا المخطوفين، أديرت تسجيلات آيات قرآنية ـ بصوت إمام سعودي مشهور ـ على سمّاعة الصوت. وفي عملية قطع رأس أميركي، قام القاتل مراراً بمسح السكّين المليء بالدم مرّتين بملابس الضحيّة كما يفعل الموظفون السعوديون بعد عمليات الإعدام العلنية في المملكة. أصبح الإرهاب بواسطة الفيديو الآن وسيلة منظّمة تنظيماً جيّداً في الحرب العراقية. بدأت «المقاومة» أو «الإرهابيون» أو «المقاتلون العراقيون المسلمون» ـ كما صارت تشير القوّات الأميركية الآن إلى أعدائها ـ بعدد من أشرطة الفيديو السيّئة التصوير والتي تُظهر الهجمات على الأميركيين في العراق. وكانت تُصوّر من سيّارة مارّة على جانب الطريق، العبوّات الناسفة وهي تنفجر قرب قافلة أميركية. وكان يمكن رؤية المقاتلين وهم يطلقون قذائف الهاون على القواعد الأميركية خارج الفلّوجة. ولكن عندما يبدأ الخطف، تنتقل أشرطة الفيديو إلى عالم جديد ظلامي. أكثر من ستّين أجنبياً خطفوا في العراق في شهر تموز/يوليو ٢٠٠٤، أُطلق سراح معظمهم لكنّ العديد منهم صُوّروا أثناء اعتقالهم بينما كان يقرأ الخاطفون مطالبهم. كان رأس أنجيلو ديلاكروز المرمي جانباً كافياً لاندلاع التظاهرات في مانيلا وللانسحاب المبكر للوحدة الفليبينية الصغيرة من العراق.

لكنّ السيناريو أصبح روتينياً مرعباً. كانت الضحية المعنيّة تجثو أمام ثلاثة رجال قُساة يحملون رشّاشات كلاشينكوف. وفي بعض الأحيان كانت الضحيّة تتوسّل لإنقاذ حياتها. وأحياناً أخرى تكون صامتة غير مبالية ظاهرياً إذا قتلت أو بقيت على قيد الحياة. غير أن المشاهد يلاحظ شيئاً رهيباً لا تبدو الضحيّة مهتمّة له... إذ عندما يجري قطع رأس الضحية، كان المسلّح الواقف خلفها يلبس قُفّازات. هناك قراءة لحكم الإعدام... وبعدها ـ حتماً ـ تُسحب الضحية

إلى اليمين، ثم ينحني أحدهم لينفّذ عملية نحرها. كانت الضحية الأخيرة مواطن بلغاري. وبينما كان كين بيغلي من ليفربول يظهر مرتدياً ملابس سجين مثل غوانتنامو، ويصرخ طالباً النجدة من طوني بلير، كانت صور الرومانيين والفرنسيين واليابانيين والكوريين والأتراك ومن جنسيّات أجنبية أخرى تمرّ أمام الكاميرات.

وترسل أشرطة الفيديو عادة الى واحدة من محطّتي تلفزيون عربيّتين ونادراً ما تُعرض كاملة. لكنّ بعض شبكات الإنترنت المخزية ـ ولا سيّما واحدة في كاليفورنيا ـ كانت تنقل مضمون الأشرطة كاملاً... على سبيل المثال نقلت شبكة إنترنيت أميركية قطع رأس الأميركي فرانك بيرغ والكوري الجنوبي بالتفصيل الدموي والكامل. وعرضت الشبكة النسخة المختصرة والنسخة الطويلة لعملية قطع رأس كيم صن إيل. وتُظهر النسخة المختصرة رجلاً يقطع رأس الرهينة. أمّا النسخة الطويلة فتُظهر طلب الرحمة ـ الذي يستمرّ على الأقلّ دقيقتين وتليه عملية الذبح. وعلى الشاشة نفسها، وفي الوقت عينه تظهر إعلانات لـ «فتيات البورنو» و«فتيات الحصان».

شاهدت الشرطة العراقية جميع أشرطة الإعدامات، وهي تعتقد بأنها تتبع نموذجاً سعودياً أساسياً في قطع الرأس. في حالات عديدة، تحدّث الخاطفون باللهجات السعودية واليمنية. لكن في الفيديو المصوّر عن ثمانية سائقين أجانب ـ من ضمنهم كينيّون وهنود ومصري واحد ـ يظهر المسلّحون وهم يتحدثون باللهجة العراقية. وقد طالبوا بأن تنهي الشركات التي تستخدم السائقين عقودها مع الجيش الأميركي في العراق ـ كما فعلت شركة سعودية بوقف عملها بعد خطف موظف مصري آخر. وبشكل واضح، كانت المقاومة تحاول حرمان الأميركيين من العمالة الأجنبية، وإجبار المزيد من القوّات الأميركية على التوجّه إلى الخطوط السريعة الخطرة لقيادة قوافل التموين التي تعبر العراق يومياً.

من أين يأتي الإلهام لكلّ هذه الأشرطة المرعبة. في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤، اكتشف زميل لي شريط فيديو يُباع في عاصمة الثوّار الفلّوجة، ويعرض عملية قطع رأس جندي أميركي. في الواقع، يعرض الشريط قطع رأس جندي روسي اقتيد إلى غرفة من قِبل رجال مسلّحين في الشيشان.

أُجبر الجندي على الاستلقاء ـ غير عابئ ظاهرياً بمصيره ـ وفي البداية حاول التأقلم مع الألم، فيما كان رجل يوجّه سكّيناً إلى نحره، ثم قطع رأسه. وقد احتجت إلى عدّة شهور قبل أن أدرك لماذا يجري تداول هذا الشريط. كان الهدف تقديم نموذج تدريبيّ للجلّادين العراقيين الجُدد يعلّمهم كيف يذبحون الإنسان، أخ لك في الدين أو أخ لك في الإنسانية.

لكن من وراء ذلك كلّه، وفوق ذلك كلّه، كان الشبح الذي يظهر في مؤخّرة الكهف التاريخي هو شبح أسامة بن لادن. كلّ بضعة أشهر، يُرسل شريط تسجيل صوتي، أو شريط فيديو لبن لادن شخصياً، إلى قناة الجزيرة وغالباً ما يُسلّم إلى مندوبها في إسلام أباد. وسيصبح هناك روتين محدّد يعمل وفقه المراسلون: هل كان هو حقّاً؟ متى صوّر الشريط؟. وسيقول البنتاغون إنه «يدرس الشريط»، فيما ينهمك الصحفيون في التقاط أيّ تهديد كان يعلنه بن لادن.... غير أنهم نادراً ما كانوا يستمعون إلى الخطاب بكامله، والقيام بترجمة كاملة له ومعرفة ما كان يقوله بن لادن فعلاً... ذلك أنه لمعرفة ما يدور في ذهن بن لادن، عليك الاستماع إلى الصوت، حتى لو كان الشريط مليئاً بالعبارات البلاغية حول امتطاء الجياد ونشر الرماح، ممّا يجعله مملّاً إلى حدّ ما. يوم ٢٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ على سبيل المثال، قرأ بن لادن قصيدة موجّهة على ما يبدو إلى قتلة ١١ أيلول/سبتمبر، وكانت تحتوي على عبارات مثل: «سيف غاضب» و«دروع» «وصواعق مضيئة» و«انفجارات» و«عاصفة».

مع ذلك فإن ما كان واضحاً أيضاً من هذه الأشرطة هو الاهتمام الكبير الذي يُبديه بن لادن بالتاريخ. كانت هناك إشارات إلى وعد بلفور، واتفاق سايكس ـ بيكو ـ يوم ٢٠ شباط/فبراير ٢٠٠٣ أوحى بأن صداقة بوش ـ بلير هي ترجمة لذلك ـ وبالطبع معاهدة سيڤر Sevres.

«إن أمّتنا (العالم الإسلامي) تعاني من هذا الإذلال والانحطاط لأكثر منذ ثمانين عاماً»... هذا ما قاله يوم ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠١. وفي الشريط نفسه يلوم الولايات المتحدة على تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧. قال: «يجب أن

لا نقبل أبداً أن تتكرّر مأساة الأندلس في فلسطين». ربّما كانت الأندلس أكبر عملية تطهير عرقي حصلت ضدّ العرب عندما قام فرديناند وإيزابيلا من إسبانيا بإقصاء المغاربة ـ واليهود مع أن بن لادن لم يُظهر أيّ تعاطف معهم رغم أنهم كانوا من «أهل الكتاب» ـ من جنوب غرب أوروبا عام ١٤٩٢(*).

وفي الشريط الذي زعموا أن عميل مخابرات بريطانياً وجده في منزل في جلال أباد بعد سقوط طالبان ، ظهر بن لادن وهو يعترف بمسؤوليته عن هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وبما أن معظم الشريط كان غير مسموع، فقد ارتبت أساساً في ادّعاء البنتاغون أنه استطاع ترجمة ملاحظات بن لادن ـ وذلك إلى أن قرأت هذه المقتطفات:

> «كنّا في معسكر أحد الأخوة الحرس في قندهار، وينتمي هذا الأخ إلى الأغلبية في المجموعة. جاء إلى جانبي وأخبرني بأنه رأى في المنام مبنى مرتفعاً في أميركا. عند تلك النقطة صرت قلقاً من أن السرّ (الهجوم المقترح يوم ١١ أيلول/سبتمبر) سوف يُكشف في حال بدأ كلّ شخص يراه في حلمه. . . لذلك أقفلت الموضوع. أخبرته بأنه إذا حلم حُلماً آخر ألّا يخبره لأحد». . .

كيف أنسى تلك اللحظة المخيفة قبل أربع سنوات عندما ابتسم أُسامة بن لادن لي قائلاً: «إن أحد الأخوة رأى حُلماً، وإن الأخ رآني على حصان وأنا مُلتحٍ وأرتدي ملابس مثل ملابسهم، وإنني لذلك يجب أن أصبح مسلماً؟. كانتِ الأحلام تتردّد في أقوال أتباع بن لادن الآخرين. . وإن تأثيرها على القاعدة هو حتماً أكبر ممّا نتصوّر. وقد ادّعى زعيم طالبان الملّا عمر أن النبيّ محمّد (ص) دعاه في الحلم إلى إنقاذ أفغانستان. ولنظريات الأحلام تاريخ

(*) جلبت هذه المرحلة الرهيبة من التاريخ الإسلامي ـ المسيحي نهاية لخلافة صغيرة قام خلالها المفكّرون ـ من مسيحيين وعرب ويهود ـ بترجمة أكبر الأعمال الأدبية الكلاسيكية التي كانت مخزّنة في بغداد من العربية إلى لغات الغرب. وقد وقّع مرسوم الإبعاد يوم ٣١ آذار/مارس ١٤٩٢ وشكّل بالنسبة إلى اليهود أكبر كارثة منذ تدمير الهيكل في القدس. وقد أدّى أيضاً إلى نشوء تراث كبير من الكتابات شبه الماجنة المعادية للإسلام والتي تُظهر النبيّ على أنه المسيح الدجّال.

طويل في الإسلام... منذ عام ٨٦٦، ناقش الفيلسوف الإسلامي ابن إسحاق الكندي هذا الأمر، وقال بأن النفس وقت النوم تتحرّر من عالم الحواسّ وتصبح على تواصل مباشر مع «القوّة المتخيّلة». ولا بد أن يكون أساس هذا الاعتقاد مستوحى من تجربة النبيّ شخصياً الذي تلقّى كلمة الله من خلال سلسلة رؤى ـ أحلام، أوحيت غالبيتها له بينما كان يتأمّل في كهف على جبل (غار حراء). ولا شكّ في أن أتباع بن لادن علموا بأن زعيمهم يحلم في كهوف أفغانستان.

بحلول عام ٢٠٠٤، لم يحاول بن لادن إخفاء تورّط القاعدة في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ وبخاصّة مع قائد الخاطفين. قال يوم ٣٠ تشرين الأول/أكتوبر: «وافقنا مع محمّد عطا ـ رحمه الله ـ على القيام بكلّ العمليات خلال عشرين دقيقة قبل أن يدرك بوش وإدارته ماذا يحصل». في هذا الشريط الذي جرى توقيته ليصادِف موعد الانتخابات الرئاسية الأميركية، توجّه بن لادن بشكل خاصّ إلى الأميركيين ـ كانت معظم رسائله موجّهة إلى المستمعين العرب ـ وردّ على خطاب بوش حول القاعدة حيث يقول: «إنهم يكرهون الحرّية»... قال بن لادن: «نحن نقاتلك لأننا أحرار لا نقبل الاضطهاد. نريد أن نعيد الحرّية إلى أمّتنا.. وكما ترمي القُمامة على شعبنا فإن علينا رمي القُمامة على شعبك»(*).

(*) كانت صراحة بن لادن كبيرة بحيث أنه لم يستطع أن يفهم بوضوح ردّ الأميركيين على خطابه الطويل.. لا تريد الأمّة التي كانت ضحية جرائم ١١ أيلول/سبتمبر ضدّ الإنسانية أن تفتح مناقشة حول نظريات زعيم القاعدة في جرّ الولايات المتحدة إلى الإفلاس من خلال دفعها إلى خوض حروب. وقد صرّح بن لادن لمراسلين من السي إن إن ومجلّة التايم بقوله: «إذا كان الدفاع عن النفس ومعاقبة المعتدي إرهاباً، فإنه سيكون حينذاك أمراً من الصعب علينا تجنّبه». وأضاف ـ وهذا هو نوع الدعاية الذي لا يحتاج إليه أيّ مراسل أجنبي ـ «وأنت تستطيع قراءة ذلك... في مقابلاتي مع روبرت فيسك. وهذا الأخير هو أحد مواطنيكم وهو من دينكم وأنا أعتبره حيادياً... فهل أن مدّعي الحرية في البيت الأبيض قادرون على إجراء مقابلة معه بحيث أنه يستطيع أن ينقل إلى الشعب الأميركي ما فهمه منا عن أسباب حربنا ضدّكم؟»... وبمعزل عن اعتقاد بن لادن الخاطئ بأنني مواطن أميركي - وأنا لست واثقاً إن كنت أريد أن أُحسب دينياً على أحد ـ كنت لأقوم بذلك من دون تجاوز بن لادن على عملي. ولن ألعب بالتأكيد دور الواسطة من خلال الموافقة على أن أكون المحاور الجديد «المقبول» لدى القاعدة....

وقد ربط مهاجمة البرجَين التوأم لمركز التجارة العالمي بذكرى مشاهدة أبراج بيروت تُدمّر وتهوي إلى الأرض خلال الحصار الإسرائيلي عام ١٩٨٢، مضيفاً: «إنني لا أنسى هذه المشاهد المؤلمة، الدم والأوصال المقطّعة والنساء والأطفال القتلى في كل مكان». لم يكن بن لادن في بيروت عام ١٩٨٢ ـ كان يحارب ضدّ الجيش السوفياتي في أفغانستان ـ ولعلّه شاهد قصف بيروت على شريط فيديو فقط. لقد دُمّرت أبنية عالية خلال الحصار، وليس في بيروت أبراج كتلك التي تحدّث عنها بن لادن. لكنّ زياد جرّاح كان طفلاً في بيروت عام ١٩٨٢. هل قام لاحقاً برواية ذكرياته لبن لادن؟.

لكنّ ملاحظات زعيم القاعدة الأكثر تدميراً ـ التي تضمّنت تحذيراً تجاهلته أميركا وبريطانيا كلّياً لم تقرآه حتماً ـ جاءت في شريط مسجلّ بثّته قناة الجزيرة يوم ١٣ شباط/فبراير ٢٠٠٣. كان ذلك قبل خمسة أسابيع من غزو العراق. ولو أنهم فهموا ما كان يقوله بن لادن ـ لو أنهم ركّزوا على الخطاب عوضاً عن وضع خطابه في أجهزة الكومبيوتر للتعرّف على صوته ـ لكان بإمكان البنتاغون إدراك حجم الانتفاضة الشرسة التي ستندلع بعد أقلّ من شهر من غزو أميركا للعراق.

لقد عبّر بن لادن دائماً عن كراهيته لصدّام مشيراً إليه على أنه عميل آخر من العملاء صنيعة أميركا في العالم العربي إلى جانب عائلة آل سعود وأمراء الخليج. لكن في شريط تسجيل ١٣ شباط المهم، قدّم بن لادن عرضاً لضمّ قوّاته إلى قوّات صدّام من حزب البعث العربي الاشتراكي:

> «لاشكّ أن هذه الحرب الصليبيّة موجّهة ضدّ المجتمع الإسلامي بصرف النظر عمّا إذا كان حزب البعث باقياً أم لا. ومن الواجب على المسلمين عموماً ومسلمي العراق خصوصاً ـ بصورة جدّية ووفق نهج الجهاد ـ الاستعداد متّحدين لمواجهة الحملة الظالمة. وإضافة إلى ذلك فإن عليهم واجب تخزين الأسلحة والذخائر. ورغم اعتقادنا وتصريحنا المتعلّق بعدم إخلاص الاشتراكيين، فإن هناك تطابقاً في الظروف الحاضرة بين مصالح المسلمين

والاشتراكيين في معركتهم ضدّ الصليبيين ـ إن الإشتراكيين أينما كانوا هم ملحدون، أكانوا في بغداد أم في عدن. والقتال الدائر اليوم هو إلى حدّ ما مشابه لقتال المسلمين السابقين ضدّ النصارى. إن تطابق المصالح مفيد. وقد تطابق قتال المسلمين ضدّ النصارى مع مصالح الفرس ولم يؤذِ بأي شكل أصحاب النبي».

إن «تطابق مصالح بن لادن» ـ رغم أنه ترافق مع التذكير بأن الاشتراكيين ملحدون ـ كان دعوة إلى أتباعه للقتال إلى جانب قوّة عراقية تضمّ بعثيي صدّام ليس من أجل صدّام الذي كان بن لادن يعتبر عن حقّ أنه محكوم عليه ببئس المصير.. بل من أجل أرض العراق الإسلامية. لو أن الغرب قرأ هذه الرسالة، لأمكن توّقع الكارثة التي ستحلّ بالأميركيين في العراق. وأثبتت هذه الكلمات بوضوح أن القاعدة خططت للتورّط في المعركة ضدّ الولايات المتحدة في العراق حتى لو أن ذلك كان يعني التعاون مع الذين يقاتلون من أجل صدّام. هذه هي اللحظة التي التحم فيها مقاتلو حرب العصابات القادمة مع الانتحاريّين المستقبليّين... إنه الانفجار الذي سيحاصر الغرب في العراق. إلّا أنّنا لم نلاحظ ذلك حتى.

من أخطر شوارع بغداد، طرتُ في رحلة قصيرة إلى بيروت، للراحة، على الشاطئ، وللجلوس في شرفتي المحبّبة أتطلّع إلى البحر الأبيض المتوسط أو السباحة في مسبح فندق السان جورج القديم والمدمّر. والحقّ أنني كنت أستيقظ باكراً كل صباح، خائفاً ممّا سيحصل. لم يكن الشرق الأوسط أبداً مخيفاً بهذا القدر الذي أعيشه الآن. أين سيكون انفجار اليوم؟ كنت معتاداً أن أسأل نفسي هذا السؤال. يوم ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٥ ، كنت أسير على شاطئ الكورنيش ، مقابل مطعمي المفضّل، Spaghetteria، أتحدّث من هاتفي الخليوي مع صديقي القديم باتريك كوكبورن، بديلي في بغداد، عندما لمعت ومضة ضوء بيضاء مقتربة في سرعة فائقة مثل ضمادة ضخمة... انحنت أشجار النخيل نحوي كما لو ضربها إعصار... وشاهدت الناس ـ والبائعين على الرصيف أمامي ـ يسقطون على الأرض. تحطّمت نافذة من نوافذ المطعم واختفت في الداخل.

وأمامي على بعد ٤٠٠ متر، أصابع قاتمة من الدخان اتجهت نحو السماء. وتبع موجة البرق انفجار كان من الضخامة بحيث أنه صرعني جزئياً. كنت لا أكاد أسمع باتريك. سأل: «هل هو عندك أم عندي؟».. قلت: أخشى أنه عندي، يا باتريك..».. كدت أن أبكي.. ذلك أن بيروت كانت قد أصبحت بيتي بعيداً عن بيتي، وجنّتي الآمنة، والآن فإن كلّ جثث الحرب الأهلية اللبنانية كانت تخرج قافزة من القبور.

ركضت في الشارع نحو الانفجار. لم يكن هناك رجال شرطة أو سيّارات إسعاف بعد، ولا جنود.. كان ثمّة بحر من اللهب فقط مقابل فندق السان جورج. كان حولي رجال ونساء يغطّيهم الدم، يبكون ويرتجفون من الخوف. وكانت ٢٢ سيّارة تشتعل، وفي إحداها ثلاثة رجال يحترقون. كانت هناك يد امرأة، يد مقلّمة الأظافر، ملقاة في الشارع. لماذا؟ قلت لنفسي: ليس بن لادن. ليس في بيروت. تمايلت من شدّة الحرارة واللهب الذي امتدّ في أنحاء الشارع، وخزّانات نفط السيّارات التي تنفجر وتنشر نيرانها حولي كل بضع ثوان. كان على الأرض رجل ضخم ممدّد على ظهره وجواربه تحترق، لا يمكن التعرّف إليه. ولسبب ما، اعتقدت أنه بائع كعك.. أحد رجال جيش الباعة الذين يبيعون الخبز العربي المحمّص الذي يحبّه المتنزّهون على الكورنيش. وصلت أولى سيّارات الإسعاف وتمّ إخراج شخص متفحّم من سيّارة كانت تحترق مثل المشعل. عندها وعبر الدخان وجدت حُفرة. كانت ساخنة.. ونزلت إليها بسرعة. كان هناك شرطيان بلباس مدني يلتقطان قطعاً من المعدن. كان ذلك عملاً سريعاً بالنسبة إلى رجال التحرّي بحسب اعتقادي. ومضت بضعة أيام قبل أن أدرك أنهم ـ بعيداً عن التقاط الأدلّة ـ كانوا يخفونها، ويأخذونها من مسرح الجريمة. ثم التقيت مراسلاً للأسوشيتد برس، وهو صديق لبناني قديم، قال: «أظنّ أنه موكب الحريري» فلم أستطع تصديق ذلك.

كان الحريري ملياردير لبنان ورئيس وزرائه حتى السنة المنصرمة. كان سيّد لبنان الذي بنى بيروت، ورمز مستقبله الاقتصادي، والرجل الذي حوّل رُكام المدينة إلى مدينة من النور والمطاعم الجديدة الفخمة والمحلّات ومراكز

التسوّق. لكنّ السوريين كانوا يعتقدون أنه يقود بشكل سرّي المعارضة اللبنانية ضدّ وجودهم العسكري والمخابراتي في لبنان. وشكّوا في أنه كان وراء قرار فرنسي - أميركي لمجلس الأمن رقمه ١٥٥٩ يطالب بانسحاب القوّات السورية (٤٠ ألف جندي) من لبنان.

كان الحريري صديقي. كان يتصل بي من وقت لآخر عندما كان رئيساً للوزراء ويدعوني إلى فنجان قهوة ويحذّرني من مخاطر الشرق الأوسط. كان يسألني عمّا يحصل حقيقة في العراق وما إذا كانت الانتفاضة تتمتّع بدعم شعبي. وكنت كتبت بعد الحرب الأهلية أنني أشكّ في إمكانية نجاح خطط البناء الطموحة التي يقوم بها... وكلّما التقينا علناً كان ينحني ويقول: «هذا هو المراسل الذي يعتقد أنني لا أستطيع إعادة بناء بيروت!»... وبعد أن تعرّضت للضرب على الحدود الأفغانية في كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١، كان هو الشخص الثاني الذي اتصل بي بينما كنت ممدّداً أنزف في السرير: «روبرت، ماذا حصل؟ سوف أرسل طائرتي الخاصّة لإحضارك من كويتا. برويز مشرّف صديقي ويمكن أن نحصل على إذن بالهبوط وإحضارك إلى مستشفى الجامعة الأميركية هنا غداً» شكرته ورفضت عرضه بأدب. لا يأخذ الصحفيون هدايا من رؤساء الحكومات.

والآن، بعد نصف ساعة من الانفجار، عرفت عائلته أنه مات. لقد توقّف هاتف الحريري الخليوي عن العمل، وكذلك هواتف كلّ حرّاسه الشخصيّين. وقد فشلت أجهزة تعطيل القنابل في موكب الحريري - مجموعة من الأجهزة مثبتة على سيّارات الجيب المصفّحة - في حمايته. وفي اليوم التالي، رأيت في الصحف اللبنانية صورة لرجل ضخم ملقى على ظهره وجواربه تحترق وتم تعريفه «بالشهيد رئيس الوزراء رفيق الحريري».

غادرت القوّات السورية لبنان - أسرع ممّا هو متوقّع - وغالباً بسبب الغضب الذي رافق اغتيال الحريري لدى اللبنانيين. ووقف مليون لبناني (تقريباً ثلث سكّان البلاد) في ساحة الشهداء يهتفون مطالبين برحيل القوّات السورية وبالحقيقة حول مقتل الحريري - سيكون ذلك إرثا آخر للحريري - واكتشف فريق التحقيق الذي شكّلته الأمم المتحدة، برئاسة ضابط شرطة إيرلندي كبير،

أن ضبّاط الأمن اللبنانيين المقرّبين من سوريا لم يزيلوا فقط الدليل من مسرح الجريمة ـ بما في ذلك معظم السيّارات المحترقة التي تشكّل جزءاً من موكب الحريري والتي أُخذت بعيداً خلال ساعات الظلام ـ وإنما وضعوا أيضاً دليلاً في الحُفرة.

في الأيام التي تلت كنت أشعر بالإحباط. يبدو أن الموت كان يسيطر على الشرق الأوسط وكان يطارد حياتي أيضاً. صفحة بعد صفحة من دفتر اتصالاتي، وضعت بعض الملاحظات إلى جانب الأسماء. كتبت إلى جانب رقم تلفون مارغريت حسن في بغداد: قُتلت «عام ٢٠٠٤». وأكتب الآن إلى جانب اسم الحريري: قُتل يوم ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٥. وقد توفّي إدوارد سعيد المفكّر الفلسطيني الكبير ـ الذي أقسم لي مرّة أنه سيبقى على قيد الحياة «لأن العديد من الناس يريدون موته» ـ من مرض سرطان الدم عام ٢٠٠٤ حارماً الفلسطينيين من أهمّ الأصوات المكافحة ببلاغة. وفي آذار/مارس ٢٠٠٣، وقفت راشيل كوري، الشابّة الأميركية التي سافرت إلى غزّة لمنع الإسرائيليين من تدمير المنازل الفلسطينية، أمام جرّافة إسرائيلية لإجبار سائقها على التوقّف، لكنه مرّ بالجرّافة على جسدها ثم عاد وقادها عليها مجدّداً. وعندما سارع أصدقاؤها لمساعدتها قالت: «ظهري محطّم» ثم ماتت.

هل تحرّكنا في مواجهة مآسي الحياة والموت هذه؟ كلّا، أريد بذلك أن أقول إن الصحافة رسالة. يستطيع المرء أن يكون غاضباً حيال الموت لكن لسنا هنا لنمسح الدموع. لا يبكي الأطبّاء ـ ولا أقارن الصحافة هنا بمهنة الطبّ ـ بينما هم يجرون عملية جراحية لمريض ميئوس منه. عملنا هو التسجيل، وتوجيه الاتهام عندما نستطيع، وتحدّي مراكز القوى التي تحدّثت عنها أميرة هاس بشجاعة. لكنني شعرت بالانفعال. مضى وقت وأنا أتساءل كم أستطيع الاستمرار في السفر عبر الأطلسي ناجياً من الخاطفين في بغداد، مصدوماً بشكل متزايد بالمأساة المتنامية في الشرق الأوسط.

في بغداد عام ٢٠٠٥، سرت إلى مراكز الاقتراع مع العائلات العراقية، رجال ونساء وأمّهات مع أولادهنّ، بينما كان الجوّ ينقل صدى أول تفجير انتحاري هذا النهار. كانت تجربة محرّكة للمشاعر. إذ من النادر أن ترى شجاعة جماعية بهذا

المستوى. وقد تشكّلت حكومة عراقية يسيطر عليها للمرّة الأولى المسلمون الشيعة، لكنها محطّمة بسبب الظاهرة التي تنسف شرعيتها: الاحتلال الأميركي المستمرّ. في مراكز الاقتراع، أبلغتنا عدّة عائلات أنهم يقترعون للسلطة ولكن أيضاً لإنهاء الاحتلال. والاحتلال لن ينتهي. كنت أقول لنفسي إنّ على الأميركيين الرحيل وإنهم سوف يرحلون.. لكنهم «لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك». كانت تلك هي المعادلة الرهيبة التي حوّلت الآن التراب إلى دم. يؤكّد الأميركيون أنهم يريدون الديمقراطية في الشرق الأوسط وأن العراق هو البداية. لكن أيّ بلد عربي سوف يرغب في الانضمام إلى الكارثة التي حلّت بالعراق الآن؟

أجل يريد العرب والمسلمون الآخرون بعضاً من هذه الديمقراطية الساطعة اللمّاعة التي نحبّ أن نظهرها أمامهم. لكنهم يريدون شيئاً آخر أيضاً. يريدون العدالة واستعادة الحقوق، ونهاية سلمية لكن عادلة ومحترمة لعقود من الاحتلال والخداع والفساد وخلق الدكتاتوريات. يريد العراقيون نهاية لوجودنا ولنظام صدّام.

يريدون السيطرة على أرضهم وعلى نفطهم. ويريد السوريون استعادة الجولان. ويريد الفلسطينيون دولة حتى لو أقيمت على أقلّ من ٢٢ في المئة من فلسطين ولا يريدون جدار فصل ارتفاعه ٢٠ قدماً ولا احتلالاً. ولقد حرّر الإيرانيون أنفسهم من الشاه، شرطي أميركا القاسي في الخليج، ليجدوا أنفسهم يعيشون في مقبرة من تسلّط رجال الدين، وقد خانهم رجال يتغذّون من الكراهية لأميركا، التي صارت تتمدّد الآن مثل الغطاء فوق الشرق الأوسط. وقاوم الأفغان الاتحاد السوفياتي وطلبوا المساعدة لإعادة بناء بلادهم، وتمّت خيانتهم ـ وانتهوا بين أيدي طالبان. ومن ثمّ جاء جيش ضخم إلى بلادهم(*).

(*) إن الديمقراطية الجديدة المتنامية التي عرّفها بوش في أفغانستان بدأت تتحطّم عندما تسلّم بارونات المخدّرات القدامى السلطة في الحكومة، بينما رجال طالبان والقاعدة إلى البلاد التي طُردوا منها، وصاروا يهاجمون القوّات الأميركية والجنود الأفغان الموالين للحكومة. وكان الرئيس المنتخب حميد كرزاي مستشاراً مأجوراً لشركة إينوكال Unocal النفطية الأميركية التي كانت قد فاوضت طالبان على بناء خط نفطي إلى باكستان. وكان مبعوث الولايات المتحدة إلى أفغانستان زلمان خليل زاده موظفاً في تلك الشركة. وعندما وصل كرزاي إلى السلطة اتفق=

ومع أن العديد من الحُكّام الجُدد المعيّنين، وبقيّة الطُّغاة القُدامى الذين ساعدناهم على تسلّم مقاليد الحكم خلال العقود الماضية، يمدحون الغرب أو يشكرونه على القروض المالية أو على الدعم السياسي أو على غزو البلاد، فإن هناك ملايين المسلمين الذين يريدون شيئاً أكثر من ذلك: يريدون التحرّر منا.

لدى الإسرائيليين دولة ـ بُنيت على أرض غيرهم وهذه مأساتهم وكذلك مأساة العرب ـ لكنّ حكومات الجناح اليميني، المدعومة بسرور من قِبل أكثر الحكومات الأميركية يمينية، تُدمّر كلّ أمل بالسلام يستحقّه الشعب الإسرائيلي. وعندما يُبلغ بوش إسرائيل أنها تستطيع الاحتفاظ بمستعمراتها على الأرض الفلسطينية فهو يساعد على قتل الإسرائيليين والفلسطينيين لأن هذه الحرب الاستعمارية سوف تستمرّ.

والأرمن! متى يحصلون على اعتراف بخسارتهم وعلى إقرار بالمسؤولية من قِبل أولئك المتحدّرين من صُلب مرتكبي المجزرة؟.

ربّما يمكننا الهرب من التاريخ؛ يمكننا رسم خطوط لحياتنا. لقد شكّلت السنوات ١٩١٨ ـ ١٩٤٥ حياتنا الجديدة في الغرب. ويمكننا البدء من جديد. ونحن نعتقد أننا نستطيع التوصية بالمثل لشعوب الشرق الأوسط، لكننا لا نستطيع ذلك. فالتاريخ ـ تاريخ الظلم ـ يلفّهم بشكل كثيف. لقد فهم ألبير كامو الذي كان من ذوي الأقدام السوداء Pied Noir، الاضطهاد الاستعماري في الجزائر فهماً حيويّاً، وكتب بعد الحرب العالمية الثانية:

> «صحيح أننا لا نستطيع «أن نهرب من التاريخ»، بما أننا غارقون فيه حتى أعناقنا. لكن يستطيع المرء اقتراح النضال ضمن التاريخ لكي

= والرئيس مشرّف على إعادة العمل بمشروع خط النفط. وكانت صحيفة معاريف الإسرائيلية قد أوردت أنه «إذا نظر المرء إلى خارطة القواعد العسكرية الأميركية المنشأة في أفغانستان، يُصدم بحقيقة أنها واقعة كليّاً على الخط المقترح للنفط على المحيط الهندي». بحلول عام ٢٠٠٥ كانت أفغانستان تصدّر أفيوناً أكثر مما أنتجت سابقاً. وقد اضطرّ كرزاي مكرهاً إلى الشكوى بمرارة بعد نشر اعترافات عام ٢٠٠٥ بأن الأميركيين عاملوا السجناء الأفغان بقساوة كمعاملتهم لضحاياهم العراقيين.

> نحفظ من التاريخ ذلك الجزء الإنساني الذي لا يُعدّ منطقته الخاصّة... تقاد الأمم الحديثة من قِبل القوى العظمى نحو سُبل السلطة والسيطرة... إنهم لا يحتاجون إلى مساعدتنا وهم يضحكون حتى الآن من محاولاتنا عرقلتهم. وسوف يتابعون. لكنني أطرح هذا السؤال البسيط: ماذا لو وصلت هذه القوى إلى طريق مسدود، ماذا لو تبيّن أن السبيل المنطقي الذي يستند إليه العديد من الدول الآن ما هو إلّا سراب؟».

كتب ت. س. إليوت في تلك السنة نفسها ١٩٤٦، مخاطباً التاريخ بالطريقة التهكّمية ذاتها:

> «تميل العدالة نفسها إلى أن تفسد بسبب التهاب المشاعر في السياسة، وبسبب هذا التلاعب بشؤون الآخرين الذي كان يحصل بمنتهى السرّية وصار له اسم هو: «التدخل». إن الدول التي أحجمت ذات مرّة عن شجب أكثر انتهاكات حقوق الإنسان وضوحاً، في ألمانيا، صارت الآن تنصح بالتدخّل في حُكم الدول الأخرى ـ ودائماً باسم السلام والتفاهم. إن احترام ثقافة الشعوب الأخرى ونمط حياتها... هو احترام للتاريخ... وبالتاريخ لم نشيّد مخزناً كبيراً».

هل أن مئات آلاف القتلى أولئك ماتوا جميعاً من أجل التاريخ؟ ـ أتساءل بصدق ـ أولئك الذين رأيتهم بأمّ عيني في الشرق الأوسط؟ هل كان الجندي الميت وبيده خاتم الزواج اللامع، والجموع المذبوحة في صبرا وشاتيلا، والإيرانيون المتحلّلون في الصحراء، وجثث الفلسطينيين والإسرائيليين واللبنانيين والسوريين والأفغان، وغرف التعذيب الإسرائيلية ـ وأيضاً الأميركية، هل كان كل ذلك من أجل التاريخ؟ أم من أجل العدالة؟ أم من أجلنا؟ نعلم أن وعد بلفور صدر منذ ثمانين عاماً. لكن بالنسبة إلى اللاجئين الفلسطينيين في أزقّة المخيّمات القذرة، فقد تحدّث بلفور بالأمس، في الليلة الماضية، منذ ساعة. في الشرق الأوسط، يعيش الناس تاريخهم الماضي مجدّداً ومجدّداً وكلّ يوم.

وأخيراً، وفيما أنا أكتب هذه الكلمات، كنت على وشك القيام برحلتي القادمة المشحونة جدّاً إلى بغداد، عائداً إلى الانتحاريين والقتلة والأميركيين السريعين في إطلاق النار. ومن وراء ستار من دموع العراقيين سأرسم صوراً جديدة عن المعاناة والألم والجشع والشجاعة العابرة.. وسوف أتساءل إن كنت، عندما أترك في النهاية غرفة الأهوال الواسعة هذه، سأحاول تطبيق نصيحة بيت الشعر الوحيد الذي يحرّك دموعي دائماً، من عيد ميلاد كريستينا روزيتي:

من الأفضل بكثير أن تنسى وتبتسم

بدلاً من أن تتذكّر وتحزن...

أظنّ في النهاية أنّ علينا القبول بأنّ مأساتنا تكمن دائماً في ماضينا وأنّ علينا أن نعيش مع جنون أجدادنا وأن نعاني لأجله، كما عانوا هم بدورهم، وكما أننا، من خلال جشعنا وعجرفتنا، نورث الألم والمعاناة لأولادنا من بعدنا. كيف نُصحّح التاريخ؟ تلك هي المسألة... وهذا هو السبب في أنني، وأنا أكتب هذا الكتاب، كنت أسمع بشكل متكرّر ومؤلم، وفي حالة من الصحو هي أقرب إلى إغفاءة الحلم، وقعَ خطوات الملازم الثاني بيل فيسك ورفاقه في الكتيبة ١٢، من وحدة الملك في ليفربول، وهم يدخلون مساء ذلك اليوم، الواقع فيه ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨، إلى القرية الفرنسية الصغيرة لوفنكور في منطقة صوم.

روبرت فيسك الجزء الثالث

هذه المرة القضايا كثيرة ومتشعبة، والفضائح لا تعدَ ولا تحصى. نقل واقعي موثق لأحداث وحوادث دارت في العراق ولبنان وفلسطين وسورية والولايات المتحدة. ربط محكم، وتحليل منطقي يجيب عن أسئلة كثيرة ملحَة ظلت لسنوات بلا أجوبة.

- مذكَرات بخط اليد لمسؤول في حزب البعث العراقي يكشف ملابسات غزو العراق للكويت.
- طرد ٣٦٠ ألف فلسطيني من الكويت في عملية تطهير عرقي، سبقت الغزو العراقي.
- يوميات الحصار الأمريكي للعراق، وفضائح القنابل المشبعة باليورانيوم.
- صنَاع الأسلحة وتجَارها، يشعلون الحروب في مختلف أنحاء العالم ويديرون تلك الحروب بأعصاب باردة.
- خفايا جديدة عن الحرب الأهلية في لبنان.
- ما كان يدور في الكواليس خلال مآتم: الملك حسين، باسل الأسد، حافظ الأسد.

ليس سوى روبرت فيسك يملك هذا الكم الهائل من المعلومات والوقائع، وهوالمراسل الذي لم يخشَ السير في الطرق الملغومة!!

شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص. ب. : ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٧٢٢ ٣٥٠ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر